﴿ الجزء الاول من ﴾

كتاب

﴿ رفع الحجب المستورة ٭ فى محاسن المقصورة ﴾

شرح للعالم الامام القاضى ابو القاسم محمد بن احمد الغرناطى المولود بسبته فى السادس لشهر ربيع الاول سنة ٦٩٧ هـ المتوفى بغرناطه قاضيا بها فى اوائل شعبان سنة ٧٦٠ هـ على قصيدة مقصورة الامام الاوحد ابى الحسن حازم بن حسن بن حازم الانصارى القرطاجينى رحمهما الله

طبع هذا الكتاب الجليل القدر على نفقة من حل ذروة العلياء وتوشح بفضائل النبلاء والعلماء وحاز الفضائل والمكارم والمفاخر والمعالم ودانت له السعادة فى كل مكان وزمان ورمقته عين العناية فى كل آن الجامع بين السيف والقلم والعلم والكرم نبع الجود فى أوطانه وحاتم طى زمانه وبرمكى اوانه العالم العلامة والحبر الفهامة فارس الفرسان وفريد هذا الزمان وأرومة الافاضل المشهورين وفخر السادات المزواريين السيد الحاج التهامى المزوارى باشا مراكش الحمراء ونواحيها وحاكم سهولها وجبالها الذى لازال بعون الله ينقب عن الكتب المفيدة والتآليف النادرة العزيزة ليتحف بنشرها الراغبين ويهدى بنور فوائدها الغافلين جزاه الله جزاء الخير وخير الجزاء وأجزل عليه جزيل العطاء وقد تم الطبع على يد وكيله السيد قاسم الدكالى غفر الله ذنوبه وستر عيوبه

﴿ مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر سنة ١٣٤٤ هجرية ﴾

ترجمة الامام ابى الحسن حازم صاحب المقصورة

قال السيوطى فى الطبقات حازم بن محمد بن حسن بن محمد بن خلف بن حازم الانصارى القرطاجنى النحوى أبو الحسن شيخ البلاغة والأدب قال ابو حيان كان أوحد زمانه فى النظم والنثر والنحو واللغه والعروض وعلم البيان روى عن جماعة يقاربون الالف وروى عنه ابو حيان وابن رشيد وذكره فى رحلته فقال حبر البلغاء وبحر الادباء ذو اختيارات فائقة واختراعات رائقة لانعلم أحدا ممن لقيناه جمع من علم اللسان ماجمع ولا أحكم من معاقد علم البيان ما أحكم من منقول ومبتدع واما البلاغة فهو بحرها العذب والمنفرد بحمل رايتها أميرا فى الشرق والغرب واما حفظه لغات العرب واشعارها واخبارها فهو حماد رواياتها وحمال اوقارها يجمع الى ذلك جودة التصنيف وبراعة الخط ويضرب بسهم فى العقليات والدراية اغلب عليه من الرواية صنف سراج البلغاء فى البلاغة * كتاب القوافى * قصيدة فى النحو على روى الميم ذكرمنها ابن هشام فى المغنى ابياتا فى المسأله الزنبورية وقد ذكرناها فى الطبقات الكبرى مع ابيات آخر مولده سنة ثمان وستمائه ومات ليلة السبت الرابع والعشرين لرمضان سنة اربع وثمانين وستمائة ومن شعره

من قال حسبى من الورى بشر * فحسبى الله حسبى الله
كم آية للاله شاهدة * بأنه لا إله إلا هو

انتهى كلام السيوطى وقال بعض المؤرخين هو حازم بن محمد بن الحسن بن حازم الأنصارى فجعل والد أبى الحسن حازما وجعله السيوطى محمدا فلاأدرى هل هذا من النسبة إلى الجد فيرجع ماعند السيوطى إلى وفاق أوهما مختلفان القرطاجنى منسوب إلى قرطاجنه من سواحل كورة تدمير من شرقى الاندلس وهو خاتمة شعراء الاندلس الفحول مع تقدمه فى معرفة لسان العرب واخبارها ونزل أفريقية بعد خروجه من بلده فطار له بها صيت وعمر إلى ان مات بتونس حضرة ملوكها ليلة السبت الرابع والعشرين من رمضان سنة اربع وثمانين وستمائة وفى بعض المجاميع الادبية أنه كان فى حضرة مراكش أيام الرشيد وله فيه امداح كثيرة ومدح الامير ابازكرياء صاحب افريقية وولده اباعبدالله المستنصر وله الف المقصورة المشهورة وقصر محاسنها على مدحه ومطلعها

لله ماقد هجت يايوم النوى * على فوادى من تباريح الجوى

ومقصورته تدل على اضطلاعه وصدرها بخطبة بليغة جدوا من بديع نظمه رحمه الله قصيدة جيمية غريبة المنزع لها صيت عظيم عند الحذاق من اهل الادب والنحارير من الفضلاء عارض بها فى المعنى رائية بن عمار الوزير للمعتمد ابن عباد وفضل غير واحد هذه الجيميه الحازمية على تلك الرائية العمارية وأولها

ادر المدامة فالنسيم مورج * والروض مرقوم البطاح مدبج
والارض قد لبست برود جمالها * فكأنما هى كاعب تتبرج
والنهر مما أرتاح معطفه إلى * لقيا النسيم عبابه مموج

وهى تزيد على الثلاثين بيتا انتهى بتلخيص من ازهار الرياض

﴿ ترجمة الشريف الغرناطي شارح المقصورة ﴾

قال فى الاحاطه فى أخبار غرناطه محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن محمد بن علي بن موسي بن ابراهيم بن محمد بن ناصر بن خبوز بن القاسم ابن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه حسبما نقل من خطه أوليته معروفة ﴿ حاله ﴾

هذا الفاضل جملة من جمل الكمال غريب فى الوقار والحصافة و بلوغ المدى استولى على الامم حلما و بعدا عن الريب وتمسكا بعرى النزاهة مع الارسال وانقباضا مع المداخلة معتدل الطريقة حسن المداراة مالكا ازمة الهوى شديد الشفقة كثير المواساة مغار حبل الصبر جميل العشرة كثيف ستر الحياء قوى النفس ثابت الجأش رقيق الحاشية ممتع المجالسة متوقد الذهن أصيل الادراك قائما بأعباء المشيخة الى جلال المنتمى وكرم الصنف ونزاهة النفس وملاحة الشنشنة وحمل راية البلاغة والاعراق فى ميادين البيان رحلة الوقت فى التبريز بعلوم اللسان حائز الفصل فى ميادينها غريب غريزة الحفظ المقنعه الشاهد المستجدة النظر الاصلية التوجيه البريئة من النوك والغفله مرصعة باللغة والغريب والخبر والتاريخ والبيان وصناعة البديع وميزان العروض وعلم القافيه وتقدما فى الفقه ودرساله و براعة فى الاحكام وانقال التدريس والصبر والدؤوب عليه بارع التصنيف حاضر الذهن فصيح اللسان مفخر أهل بيته

﴿ ولايته ﴾

قدم على الحضرة فى دولة الخامس من ملوك بنى نصر كما استجمع شبابه يفهق علما باللسان ومعرفة بمواقع البيان و ينطق بالعذب الزلال من الشعر فسهل له كنف البر ونظمه فى قلادة كتاب الانشاء وهو إذ ذاك يتيمة الخرازات فشاع فضله وذاع نبله فنقل من طور الحكمة الى طور الحكم الى أن قلد الكتابة والقضاء والخطبة بالحضرة بعد ولاية غيرها فى الرابع من شهر ربيع الآخر عام سنة سبعة وثلاثين وسبعمائة فاضطلع بالأحكام وطبق مفصل الفصل نافذ الامر عظيم الهيبة قليل الناقد ضخم التوفيق يصدع فى مواقف الخطب بكل بليغ من القول بمارق ديباجته و يشف صقاله وتبرأ من كلال الخطباء أطرافه واستعمل فى السفارة للعدو ناجح السعي ميمون العقيبة جزيل الحياء والكرامة الى ان عزل عن القضاء فى شعبان من عام سبعة وار بعين وسبعمائة من غير زلة تخفض ولاهنة تؤثر فتحيز الى التلحيق لتدريس العلم وتفرغ لاقراء العربية والفقه ولم ينشب أميره المنطوى على الهاجس المغرى بمثله ان قدمه قاضيا بوادى آش بنت حضرته معززة بسندها الكبير الخطة فانتقل اليه بجملته

وكانت بينه و بين شيخنا أبى الحسن بن الجياب صداقه صادقه ومودة مستحكمة فجرت بينهما اثناء هذه النقلة بدائع منها قوله يسليه عن خطة القضاء التى اختزل عنها و وليها خطة الملامه

لا مرحبا بالناشز الفارك * إن جهلت رفعة مقدارك

لوانها قد اوتيت رشدها * ما برحت تعشو الى نارك
أقسمت بالنور المبين الذى * منه بدت مشكاة أنوارك
ومظهر الحكم الحليم الذى * يتلى عليه طيب أخبارك
مالقيت مثلك كفؤالها * ولا أوت إلا اكرم من دارك

ثم اعيد الى القضاء بالحضرة فوليها واستقرت حالة ولايته على متقدم سمته من الفضل والنزاهة والمراجعة بما يأنف فيه من الخروج عن الجادة إلى ان هلك السلطان مستقضية ، أموما به مقتديا بسجدته يوم عيد الفطر من عام خمسة وخمسين وسبعمائة وولى الامر ولده الاسعد فجدد ولايته وأكد تجلته ورفع رتبته واستدعى مجالسته

مشيخته

قرأ ببلده سبتة على ابيه الشريف الطاهر نسيج وحده وعلى ابى عبدالله ابن هانىء وبه جل انتفاعه وعليه جل استفادته واخذ عن الامام شيخ المشيخة ابى اسحق الغافقي وروى عن الخطيب ابى عبدالله الغمارى والخطيب المحدث ابى عبدالله بن رشيد والقاضى ابى عبدالله القرطبي والفقيه الصالح أبى عبدالله بن حريث واخذ عن الاستاذ النظار ابى القاسم بن حريث وغيرهم

محنته

دارت عليه يوم مهلك السلطان المذكور محنة فمركته بالثفال وتخلص من شرها لتطارح الامير المؤتم امام المريه عليه فى السجدة من غير التفات لمحل الوطأة ولا اقتصاد لمحل صلاة تلك الامة فغشيه من الارجل ارجل كثيره والتف عليه مرسل طيلسانه سادا لمجرى النفس فعالج الحمام وقتا إلى ان نفس الله عنه فاستقل من الردى وانتبذ من مطرح ذلك الوغى وبادر بالفصاد وقد اشفى فكانت عمرة لما (١) ولما فسح له الذى اخبرمن يوثق به من مودعات السر من حظيات الملك ان السلطان عرض عليه قبل وفاته فى عالم الحلم كونه فى محراب مسجده مع قاضيه المترجم به وقد اقدم عليه كلب أصاب ثوبه ولطخ ثوبه بدمه فأهمته رؤياه وطرقت به الظنون مطارقها فهم بعزل القاضى انقيادا لنزعة الفكر وسدا لابواب التوقيعات وقد تأذن الله بارجاء العزم وامضاء الحكم جل وجهه وعزى قدرته فكان من الأمر ما تقرر فى محله

تصانيفه

وتصانيفه بارعة منها رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة شرح فيها مقصورة الاديب ابى الحسن حازم بما تنقطع الاطماع فيه ومنها رياضة فى شرح قصيدة الخزرجى ابدع فى ذلك مما يدل على الاطلاع وسداد السهم وقيد على كتاب التسهيل لأبى عبدالله بن مالك تقييدا جليلا وشرحا بديعا قارب التمام وشرع فى تقييد على الخبر المسمى بدر السمط فى خبر السبط ومحاسنه جمة واغراضه بديعة

شعره

اما شعره فله فيه القدح المعلى والحظ الاوفى والدرجه العليا طبقة وقته ودرجة عصره وحجة زمانه كلامه متكافىء فى

(١) كذا بالاصل

اللفظ والمعنى صريح الدلالة كريم متين الحبل خالص السبل واقتنيت منه جزءاخصنى به سماه جهد المقل اشتمل من حر الكلام على مالا كفؤله منه .

الحمد لله الكبير المتعال فهو المسؤول ان يعصمنا من خطل القول وزلل الاعمال والصلاة على سيدنا محمد خاتم الارسال هذه اوراق ضمنتها جملة من بنات فكرى وقطعا مما يجيش فى بعض الاحيان فى صدرى . ولو حزمت لأضربت عن كتبها كل الاضراب وازمت فى دفنها واخفائها دين الاعراب ولكننى آثرت على المحو والاثبات وتمثلت بقولهم أن أحسن ما اوتيته العرب الابيات واذاهى عرضت على ذلك المجد وسألها كيف نجت من الوأد فقداو يتهامن حرمكم الى ظل ظليل واحللتهامن بنائكم الى معرس ومقيل واهديتها علما بأن كرمكم بالاغضاء عن عيوبها كفيل فاغتنم قليل الهدية منى إن جهد المقل غير قليل فحسبها شرفا ان تبوأت فى جنابك كنفا ودارا وكفاها مجدا وفخرا ان عقدت بينها وبين فكرك عقدا وجوارا .

مولده

بسبتة فى السادس لشهر ربيع الاول عام سبعة وتسعين وستمائة

وفاته

توفى قاضيا بغرناطه فى اوائل شعبان من عام ستين وسبعمائة



﴿ الجزء الاول من ﴾

كتاب

﴿ رفع الحجب المستورة ٭ فى محاسن المقصورة ﴾

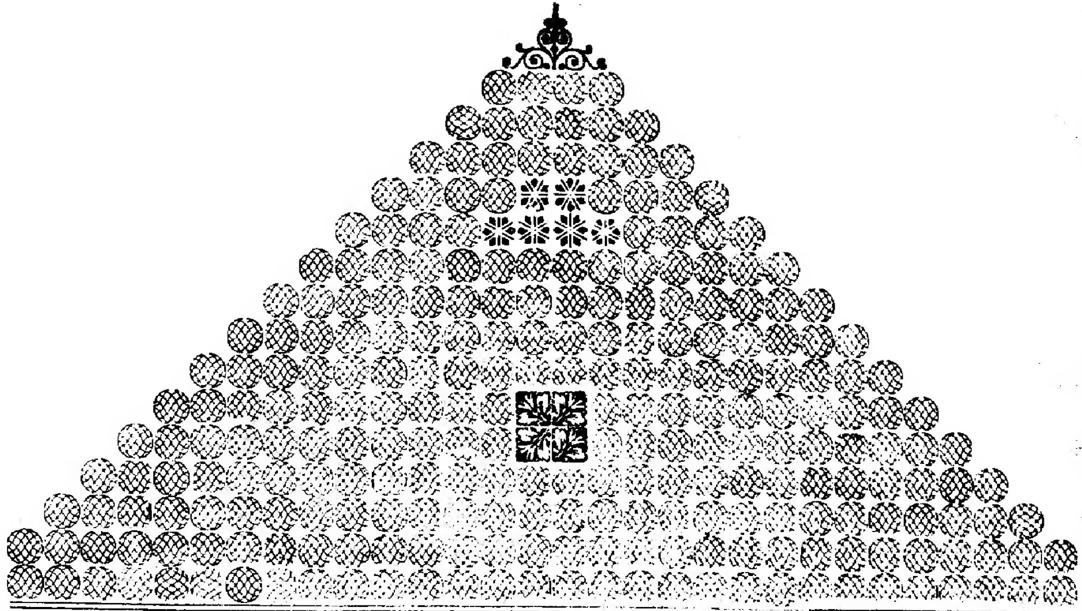
شرح للعالم الامام القاضى ابو القاسم محمد بن احمد الغرناطى المولود
بسبتة فى السادس لشهر ربيع الاول سنة ٦٩٧ هـ المتوفى
بغرناطة قاضيا بها فى اوائل شعبان سنة ٧٦٠ هـ على
قصيدة مقصورة الامام الاوحد ابى الحسن
حازم بن حسن بن حازم الانصارى
القرطاجينى رحمهما الله

طبع هذا الكتاب الجليل القدر على نفقة من حل ذروة العلياء وتوشح بفضائل النبلاء والعلماء وحاز الفضائل والمكارم والمفاخر والمعالم ودانت له السعادة فى كل مكان وزمان ورمقته عين العناية فى كل آن الجامع بين السيف والقلم والعلم والكرم نبع الجود فى أوطانه وحاتم طى زمانه وبرمكى اوانه العالم العلامة والحبر الفهامة فارس الفرسان وفريد هذا الزمان وأرومة الافاضل المشهورين وفخر السادات المزواريين السيد الحاج التهامي المزواري باشا مراكش الحمراء ونواحيها وحاكم سهولها وجبالها الذى لازال بعون الله ينقب عن الكتب المفيدة والتآليف النادرة العزيزة ليتحف بنشرها الراغبين ويهدى بنور فوائدها الغافلين جزاه الله جزاء الخير وخير الجزاء وأجزل عليه جزيل العطا وقد تم الطبع على يد وكيله السيد قاسم الدكالى غفر الله ذنوبه وستر عيوبه

﴿ مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر سنة ١٣٤٤ هجرية ﴾

٥٨٠

١٩٢٤



﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ﴾

(قال الشيخ الامام القاضي أبو القاسم محمد بن احمد الغرناطي الحسني رحمه الله)

الحمد لله الذي علم بالقلم * وهدانا من البيان الى نهجة الامم * نحمده اقرارا باحسانه * ونشكره أن جعل المرء بأصغريه قلبه ولسانه * ونثنى على ماخول من الرغائب وأجزل من القسم * ونصلى على سيدنا ومولانا محمد مصطفاه من الامم * ورسوله الى العرب والعجم * المنتخب من قريش البطحاء من أرفع القمم * الذي أرسله بالهدى والدين * وابتعثه باللسان العربي المبين * وآتاه جوامع الكلم * و بدائع الحكم * ونوالي الرضا عن آله أهل المجد السامي والفضل العمم * وأصحابه أعلام الهدى وبدور الظلم *

﴿ أما بعد ﴾ فاني لما تأملت مقصورة الامام الأوحد أبي الحسن حازم بن محمد بن حسن بن حازم الانصارى القرطاجنى ألفيتها تجمع ضروبا من الاحسان * وتشتمل على أفانين من البيان * وتتضمن فوائد جة من علم اللسان * وتشهد لمنشئها بما انتظمته من غرائب الأنواع * واتسمت به من عجائب الابداع * فانه سابق الميدان * وحائز خصل الرهان * لا جرم أنها بما أوردته من الفوائد * وقيدته من الأوابد * ووصف من المعاهد * وضرب من المثل الشارد * وأومأ اليه من الوقائع والمشاهد * وانتحاه من المنازع البيانية والمقاصد * ديوان من دواوين العرب أودعه كثيرا من تواريخها * وجمع فيه من المعارف ما يعترف لقدمه برسوخها (سمعت شيخنا) الامام أبا القاسم بن عبد الله بن الشاط الانصارى رحمه الله يقول غير ما مرة وصل الى بلدنا جزء من كلام أبي الحسن حازم يحتوى على مقصورته الألفية وجملة من قصائده فدعاني الاعجاب بكلامه أن أوقفت عليه شيخ الجماعة أبا الحكم مالك بن المرحل رحمه الله فتأمل ذلك ثم قال لا أقول ان هذا شعر ولكني أقول هو ديوان علم (وحدثني) بعض الشيوخ عن الشيخ أبي عبد الله بن خيس التلمساني رحمه الله وهو ماهو

فى البلاغة والعلم بالشعر انه كان كثيرا مايفتخر بلقاء أبى الحسن حازم فيقول لقيت حازما وما أدراك ما حازم يردد ذلك فى أكثر أوقاته (قلت) وقد رأيت أن أضع عليها كتابا أضمنه شرح غريبها والكلام على بدائع أسلوبها منبها على ما اخترع من أنواع الأغراض وضروبها ثم أمتعنان القول فيما أشار اليه من أيام الأوائل وحروبها فيكون جامعا لكثير من الفنون محتويا على الابكار من غرائب الكلم والعون مطلعا على اخبار الامم الخالية والقرون (فالفته) مع مزاحمة الشواغل وأبديته كالروض مطلول الخائل ولم آل جهدا فى أن توخيت الصواب وأوضحت من أسرار ما شرحت كل مايبهر الألباب فابتدأت بالكلام على بعض من ألفاظ الخطبة التى بها صدر الناظم الكتاب ثم لم أدع بيتا من بيوت هذه المقصورة الارفعت عنه الحجاب فقلت مستعيذا من هذر القول * مستعينا بمن أبرأ اليه من الحول * قال الامام أبو الحسن رحمه الله

﴿ الحمد لله الذى انطقنا بافصح الالسن * ووفقنا الى التمييز بين مايقبح من الكلام ومايحسن * وصلى الله على سيدنا محمد رسوله أفضل من سمعت به الآذان ونظرت اليه الاعين * ماتعاقبت الدهور وتتابعت الازمن ﴾

اللسان يذكر ويؤنث فمن ذكر جمعه على ألسنة ونظيره خوان وأخونه ومن أنث جمعه على ألسن ونظيره ذراع وأذرع * ثم قال

﴿ وحيا الله بنفحات رضوانه الطيبة * وسقيا رحمته الصيبة * جميع صحابته واسرته وعصابته الكريمة وعترته ﴾

النفحات المواهب يقال نفحه أى اعطاه ومنه قولهم لاتزال لفلان نفحات من معروف وقد تكون النفحات هنا من قولهم نفح الطيب أى فاح وله نفحة طيبة الاسرة الرهط سموا بذلك لأن الرجل يتقوى بأسرته يقال أسره أى شده ومنه قوله تعالى وشددنا أسرهم والعترة الرهط والنسل * ثم قال

﴿ واختص باعبق تلك الريا وأغدق تلك السقيا طائفة اختصاصه وفئة استخلاصه نجوم الامامة الوقادة وبدور الخلافة المتنقلة فى بروج السعاده ﴾

الغدق الماء الكثير وقد غدقت عين الماء قال تعالى وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا والفئة الطائفة قيل هو من المحذوف اللام وهو الصحيح واشتقاقه من فأوت الشئ أو من فأيته أى فرقته لانهم يقولون فى معناه الفرقة وهو من فرقت وقد قيل الهاء عوض من عين الكلمة وانه من فاء ولا ينبغى ان يدعى حذف العين مع امكان حذف اللام لان حذف اللام اكثر وانما ادعى النحاة حذف العين حيث لم يجدوا عن ادعاء حذفه مندوحة واستخلصت فلانا لنفسى أى اختصصته وفى التنزيل أستخلصه لنفسى * ثم قال

﴿ وآثر الله بالكمال الدائم والسعد الملازم قمرها الازهر وسراجها الانور امام الهدى وغمام الندى وحسام الله المسلول على العدا سيدنا الخليفة المستنصر بالله المنصور بفضل الله أمير المؤمنين أبا عبد الله ابن الامراء الراشدين اعلا الله كلمته وجعل الملائكة أنصاره والملوك خدمته فهو الذى نصر الله به الكتاب والسنه وجعل عزمه للدين والدنيا أمضى حسام وأوقى جنه ﴾

هو صاحب افريقية ابوعبدالله محمدابن الامير ابى زكريا يحيى بن ابى محمد عبدالواحد بن ابى حفص عمر والانهر النهر ومنه قيل للنجوم زهر * ثم قال

﴿ ملك جمع له العلم والعمل وطلع على الايام طلوع الشمس في الحمل فقام به وزن الزمان واعتدل ﴾

الحمل أحد بروج السماء وعند حلول الشمس به يكون اعتدال الليل والنهار وذلك أفضل فصول السنة ولذلك قال أبو نواس

أما ترى الشمس حلت الحملا * وقام وزن الزمان واعتدلا

يريد ان ليل الزمان استوى هو ونهاره فاعتدل فصله وظهر فضله ومنه قولهم قام وزن النهار اذا انتصف أى ان ماذهب منه مساو لما بقى ومراد أبى الحسن أن الزمان قد حسنه عدل هذا الممدوح وسيرته حتى ذهب ما كان ينسب الى الايام من الجور والميل فاعتدل بذلك وقام وزنه وذهب حيفه * ثم قال

﴿ فالدهر عن سناه يتبسم والزهر عن شذاه يتنسم وفوائد جنانه وبنانه بين المعارف الجليلة والعوارف الجزيلة تتقسم ﴾

التنسم التنفس ومنه قيل للنفس والربو النسم وفى الحديث تجنبوا الغبار فنه تكون النسمة والجنان القلب والمعارف العلوم والعوارف جمع عارفة وهى المعروف * ثم قال

﴿ خليفة خلفت راحته غر الغمام وحالفت الناس اطواق جوده محالفة الاطواق للحمام ﴾

المحالفة المعاهدة والحلف العهد يكون بين القوم وفى الحديث انه صلى الله عليه وسلم حالف بين قريش والانصار أى آخى بينهم * ثم قال

﴿ اشرقت اشراق الصباح فضائله وتدفقت تدفق السحاب أنامله وانقسمت بين نفع العفاة وضر العداة شمائله ووسمت أرباب النهي وطلاب اللهي نوافله فظفر بما أمله من الفوائد وما أم له من الفرائد سائله وسائله وتقبلت بذلك عند الله وسائله ﴾

التدفق التصبب والعفاة طلاب المعروف والواحد عاف وقد عفا يعفو وفلان تعفوه الاضياف وتعتفيه الاضياف وهو كثير العفاة وكثير العافية وكثير العفى والعافية كل طالب رزق من انسان أو بهيمة أو طائر والعداة جمع عاد وهو العدو قالت امرأة من العرب اشمت رب العالمين عاديك و بعضهم يقول هو جمع عدو وان لم يكن جمع فعول على هذا المثال قياسا واللهى جمع لهوة ولهية وهى العطية يقال انه لمعطاء اللهى والنفل والنافلة عطية التطوع ومنه نافلة الصلاة وأم قصد يقال أمه وأممه وتأممه اذا قصده والام القصد وأما قوله سائله وسائله فالمراد بالسائل الاول طالب العلم و بالثانى طالب النوال * ثم قال

﴿ فالعِلْمُ مِنْ جَنَانِهِ وَالرِّزْقُ مِن بَنَانِهْ
وَالصُّبْحُ مِن سَنَاهُ وَالشَّمْسُ مِن عِيَانِهْ
وَالبَرْقُ مِنْ ظُبَاهُ وَالرِّيحُ فى عَنانِهْ

وَالزَّهْرُ مِنْ حُلاهُ ... وَالزَّهْرُ مِنْ بَيانِهِ
مَاءُ النَّدَى مَعِينٌ ... يَفِيضُ فِي مَعانِهِ
وَكُلُّ نَجْمِ سَعْدٍ ... قَدْ لَاحَ فِي أَوَانِهِ
فَالدَّهْرُ لَيْسَ فِيهِ ... أَسْعَدُ مِنْ زَمَانِهِ
وَالأَرْضُ لَيْسَ فِيهَا ... أَخْصَبُ مِنْ مَكَانِهِ *

هذه الابيات من شطور المنسرح وعروضها وضربها كلاهما مجزو ومكنوف مخبون ولم يجئ من هذا القبيل في شعر العرب شئ عند محقق العروضيين وانما جاء للمولدين فمن ذلك قول حبيب بن اوس
الحسن بن وهب * كالغيث في انسكابه * في الشرخ من حجاه * والشرخ من شبابه
وقول أبي العتاهية وهو السابق الى هذه العروض
أيا ذوى الوخامه * اكثرتم الملامه * فليس لى على ذا * صبر ولا اقامه
نعم عشقت موتوا * هل قامت القيامه * لأركبن فمين * هويته الصرامه
ولا يبعد أن تحمل هذه العروض على الشاذ من مجزو الرجز المقطوع عروضه وضربه وقال بعض المحققين وحملها على المنسرح أوجه (قلت) وليس هذا موضع استيفاء الكلام على ذلك وقد ذكر عن بعض المتأخرين انه يجعل كل بيت من هذه الابيات بيتين من المنهوك جعلا بيتا واحدا وهو مذهب فاسد وجعل أبو الحسن في البيت الثالث من هذه الابيات البرق من سيوف الممدوح لو ميضه والريح من اعنته لسرعتها وكلا المعنيين متداول والمعان المباءة والمنزل وقد فسره بعضهم بالمكان المعمور * ثم قال

* ملك تحلى من كريم الخلال وعظيم الجلال ما تحلى فعاد به في افق الخلافة نورها وتجلى واستقر فوق سرير ملكه فانحط كل ملك عن سريره وتخلى وبهر املاك الامم والعوالم سباقا وخصلا فما جلى سابق كما جلى ونوّر احلاك الظلم والمظالم اشراقا وعدلا فما جلى شارق كما جلى وصير الاهلة من الاكلة والرماح من القداح فاحرز جبينه ويمينه التاج المحلى والقدح المعلى *

التجلي الظهور والتكشف وسرير الملك يعبر به عن سلطانه وملكه وعزته أو عن قاعدة ملكه وحضرة سكناه وبهر املاك الامم أى غلبهم يقال بهره بهرا أى غلبه وبهرت فلانة النساء غلبتهن حسنا وبهر القمر أضاء حتى غلب ضوؤه ضوء الكواكب والسباق المسابقة والخصل الخطر الذى يناضل عليه وتخاصل القوم أى تراهنوا في الرمى يقال أحرز فلان خصله وأصاب خصله اذا غلب وخصلت القوم خصلا وخصالا نضلتهم وقوله فما جلى سابق كما جلى جلى من لفظ المجلى وهو الذى يجيء أول الحلبة وقوله بعد فما جلى شارق كما جلى أى أنار من قولهم جليت الشئ اى كشفته وأظهرته والشارق هنا الشمس الطالعة يقال شرقت الشمس تشرق شروقا وشرقا أى طلعت ويقال لا آتيك ماذر شارق والاكلة جمع اكليل والقداح جمع قدح والجبين الصدغ وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها والمعلى هو السابع من قداح الميسر وهو أعظمها حظا وكانوا يتقامرون بها على الجزور بعد أن يجعلوها عشرة أجزاء فاذا اجتمع المعلى والرقيب أحرز المعلى من اجزاء

الجزو رسبعة والرقيب ثلاثة فاستحقا جميعها وهوالذى فسر بقول امرئ القيس *

وماذرفت عيناك الا لتقدحى * بسهميك فى أعشار قلب مقتل

فجعل قلبه عشرة أجزاء زعم ان هذه المرأة استحقت جميعها بسهميها وهما المعلى والرقيب وقد أوضح هذا المعنى الذى فسر به بيت امرئ القيس شيخنا الشيخ ابو عبد الله الصديمى رحمه الله فيما أنشدنيه لنفسه

اذا اقتسم الهوى أعشار قلبى * فسهماك المعلى والرقيب

وقد فسر بيت امرئ القيس بغير هذا يقول ان الممدوح اتخذ الهلال من تيجانه وتلك كناية عن عظيم الرفعة وسمو القدر وصير رماحه قداحا يجيلها فى مصاعب الامور فينال بها المراد و يظفر بالمقصود كما يظفر الذى يحرز القدح المعلى ولا اخفاء بما ضمن هذا الموضع من انواع البديع التى بلغ بها الغاية فى الاحسان وما احتوى عليه قوله وأحرز جبينه و يمينه التاج الحلى والقدح المعلى من التمثيل البارع (وسأتكلم) على التمثيل وغيره من أنواع البديع التى أشرت اليها بعد ان شاء الله ومامنع من استيفاء الكلام على ما احتوت عليه هذه الخطبة من ضروب البديع والمنازع البيانية الا أنى قصدت فى شرحها الاختصار وما اعتمدت فيها الا على تفسير بعض الالفاظ فقط ولولا أن أكون قد أغفلت بعض ما ضمن كلام الناظم لم أعرج عليها لانى لم أعتمد الا شرح القصيدة وفيه اطنبت الكلام وعليه عولت * ثم قال

﴿ ثالث القمرين ووارث العمرين ﴾

ثالث القمرين و وارث العمرين القمران الشمس والقمر والعمران ابو بكر وعمر رضى الله عنهما وهذان اللفظان مما ثنى مع اختلاف اللفظتين ومنه الحسنان للحسن والحسين عند أهل المدينة وللحسن بن ابى الحسن ومحمد بن سيرين عند أهل البصرة وكذلك المصعبان لمصعب بن الزبير وابنه والخبيبان لعبد الله ابن الزبير وأخيه مصعب وكان عبد الله يكنى أبا خبيب وقد روى أن العمرين أطلق على عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وليس فى ذلك ما يرد انه أطلق على ابى بكر وعمر فقد نقل عنهم انهم قالوا سيرة العمرين قبل أن يولد عمر بن عبد العزيز ومنه ما قيل لعثمان رضى الله عنه يوم الدار انا نسئلك سيرة العمرين والمراد هنا بقوله وارث العمرين ابو بكر وعمر رضى الله عنهما و يعنى بالارث الخلافة والعدل وقد يريد عمر بن الخطاب وعمر صاحب المهدى جد الممدوح و يعنى بالارث ارث النسب لان قوم الممدوح ينتمون الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولا يبعد أن يكون قصده أن يكون الكلام محتملا للمعنيين معا * ثم قال

﴿ ملك القلوب فاحسن فى ملكته وبركت صوادى الآمال بواد مغدق من بركته ﴾

يقال فلان حسن الملكة بالتحريك اذا كان حسن الصنع الى مماليكه وفى الحديث لا يدخل الجنة سئ الملكة والصوادى العطاش ويقال برك البعير يبرك بروكا أى استناخ وقد تقدم تفسير المغدق والبركة نماء الخير وزيادته * ثم قال

﴿ كم راد العفاة بارضه من جميم بارض وكم وردوا من جمام غير برض وكم رأى مسائل الطالبين حقوقا ورأى نوافله كالفرض وكم تسابقت هبات مكارمه وهبات عزائمه الى أقاصى الارض وانبسطت عساكره فى أكناف البسيطة ذات الطول والعرض حتى لقد اذكر عرض جنوده يوم العرض ﴾

يقال راد الكلأ يرود رودا وريادا وارتاد ارتيادا أى طلبه وفى الحديث اذا بال احدكم فليرتد لبوله أى ليطلب مكانا لا يصيبه فيه من البول شئ والرائد الذى يرسل فى طلب الكلا يقال لا يكذب الرائد أهله والجميم النبت الذى طال بعض الطول ولم يتم قالوا هو الذى نهض وصار امثال الجمم والبارض من قولهم برض النبات يبرض بروضا اول ما يبدو وقال ذوالرمة يصف حمارا

رعى بارض البهمى جميما وبسرة * وصمعاء حتى انفته نصالها

فالجميم ثم البسرة ثم الصمعاء ثم الحشيش والجمام جمع جمة وهى مجمع الماء والبرض القليل من الماء وانما ذكر هذا تمثيلا ومراده ان طالبى معروفه نالوا بارضه وفى حضرته أمنياتهم و بلغوا مرادهم وأدركوا من نوال المسؤلهم والنوافل جمع نافلة وهى عطية التطوع وقد تقدم تفسيرها والبسيطة الارض والعرض من قولك عرضت الجنود اذا امررتهم عليك ونظرت ما حالهم والعرض خلاف الطول وقد عرض الشئ يعرض عرضا مثل صغر صغرا وعراضة ايضا بالفتح قال الشاعر

اذا ابتدر القوم المكارم عزهم * عراضة اخلاق ابن ليلى وطولها

و يوم العرض يوم القيامة قال تعالى وعرضوا على ربك صفا وقال وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا وقوله وكم رأى مسائل الطالبين حقوقا ورأى نوافله كالفرض هذا الكلام مأخوذ من كلام ابن الرومى

ملك لا يرى اللهى * تستحق الوسائلا * ويراها فرائضا * وتسمى نوافلا

وما أحسن قول الحرانى أغرمتى تسئله جاد فريضة * وان أنت لم تسئله جاد تبرعا

فجعل السؤال يوجب العطاء فريضة ثم جعل الممدوح ان لم يسئل تبرع بالجود فهو يجود بكل حال ومنحاه نحا ابو الحسن * ثم قال

﴿ ملأت إيالته الدنيا من أمن وأمان وحسن واحسان وعدل وقسط وقبضت يده ارواح العداة بالقبض على الظباء وبسطت آمال العفاة بالبسط واصبح النصر له مكتتبا بخط السعود وصعاد الخط ﴾

القسط بالكسر العدل تقول منه أقسط الرجل فهو مقسط ومنه قوله تعالى ان الله يحب المقسطين والقسوط والقسط الجور والعدول عن الحق وقد قسط يقسط قسوطا وقسط قال الله تعالى وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا والصعاد جمع صعدة وهى القناة المستوية تنبت كذلك لا تحتاج الى تثقيف قال الشاعر

صعدة نابتة فى حائر * اينما الريح تميلها تمل

والخط موضع باليمامة وهو خط هجر تنسب اليه الرماح الخطية لانها تحمل من بلاد الهند فتقوم به * ثم قال

﴿ فتشرفت بخدمة دولته السعيدة صيد الملوك وانتظمت الدول فى طاعته انتظام الدر على السلوك فصارت الايام به اعيادا ومواسم والليالى أسحارا ممطرة النواسم زاده الله بسطة فى ملكه وجمع البلاد والعباد فى سلكه ﴾

الصيد جمع أصيد وهو الذى يرفع رأسه كثيرا ومنه قيل للملك أصيد واصله فى البعير يكون به داء فى رأسه فيرفعه و يقال انما قيل للملك أصيد لانه لا يلتفت يمينا ولا شمالا وكذلك الذى لا يستطيع الالتفات من داء يكون به تقول منه صيد بكسر الياء وانما صحت الياء فيه لصحتها فى أصيد والسلوك جمع سلك وهو الخيط الذى تنظم فيه الدرر والبسطة السعة وأخذ قوله والليالى اسحارا ممطرة النواسم من قول ابى تمام

ايامنا مصقولة أطرافها * بك والليالى كلها اسحار واصله قول عبد الملك بن صالح وقد سأله الرشيد عن منبج فقال فى صفتها من كلام وصفها به ليلها كله سحر * ثم قال

﴿ اما بعد فانى أريد ان أنص فى هذا المجموع واجلو فى هذا الموضوع عقيلة من بنات الافكار تزهى على العقائل الابكار قد تحلت بعقود من كل لفظ بالقلوب معقود وتجلت فى سموط من كل معنى بالنفوس منوط ﴾

يقال نصت العروس اذا رفعت على المنصة وقد يكون النص ههنا من ذلك وقد يكون من نصصت الحديث والعقيلة كريمة الحى وكريمة الابل والعقيلة من كل شئ أكرمه ومنه قولهم للدرة عقيلة البحر والعقود جمع عقد وهى القلادة والسموط جمع سمط وهو الخيط مادام فيه الخرز والافهو سلك قال طرفة * مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد * والمنوط المعلق يقال ناط الشئ ينوطه نوطا أى علقه * ثم قال

﴿ وغاص لها الخاطر فى بحار الافراض على درر اصدافها جواهر وجواهرها أعراض ﴾

الدرر جمع درة وهى اللؤلؤة والاصداف جمع صدف وهو غشاء الدرر الذى يشتمل عليها والجواهر الاحجار النفيسة والجوهر فى اصطلاح المتكلمين يطلق فى مقابلة الاعراض وهو عبارة عن كل متحيز بنفسه شاغل للمكان والعرض مالا يتحيز وليس هذا موضع استيفاء الكلام على مذاهبهم فى ذلك والمعنى الذى أراد ان الخاطر غاص على درر من المعانى صارت الالفاظ التى يعبر بها عنها كالاصداف لها لاشتمالها عليها وتضمنها لها كما يشتمل الصدف على الدرر وقد كرر هذا المعنى فقال من ابيات راجع بها بعض أهل عصره

كذا يفتق المزن الكمام عن الدهر * وتبدى الدياجى عن سنا الانجم الزهر
كأنهم لفظ والمعانى ازاهر * وصبح بيان تحت ليل من الحبر

أردت صدر البيت الثانى وجعل تلك الالفاظ جواهر لنفاستها وبارع حسنها ولم يزل تشبيه المعانى البديعة والالفاظ البارعة بالدرر والجواهر متداولا بين الناس قديما وحديثا وقوله وجواهرها اعراض الضمير عائد على الدرر أى جواهر تلك الدرر اعراض يريد أنها معان متخيلات وليست باعيان تتحيز فهى من قبيل الاعراض وأراد بالجواهر هنا الحقائق أى وحقائق تلك الدرر اعراض يسوغ ان يراد بها الاحجار النفيسة على جهة التشبيه كما تقدم وتكون اضافتها الى الدرر بمنزلة قولهم دقيق الحوارى وشبهه وقصد التورية بالجواهر لاتيانه بها مع الاعراض وقد يسوغ أن يريد بالاعراض هنا اعراض الكلام وهى معاريضه قال بعضهم اعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه كلام يشبه بعضه بعضا فى المعانى كالرجل تسأله هل رأيت فلانا فيكره أن يكذب وقد رآه فيقول ان فلانا ليرى وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ما أحب بمعاريض الكلام حمر النعم ومن ذلك قول عبد الله بن رواحة وكانت امرأته قد عاينته يطأ جارية له فعاتبته على ذلك فانكر وكانت تعلم منه أنه لايقرأ القرآن وهو جنب فألحت عليه أن يقرأ سورة من القرآن فانشأ يقول

شهدت بأن وعد الله حق * وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف * وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد * ملائكة الاله مسومينا

فلما قال ماقال ظنته قرآنا وقالت صدق الله وكذبت عينى فجعل ابن رواحة كلامه هذا عرضا فرارا من القراءة (قلت) وهذا يشبه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للعجوز التى مازحها انه لاتدخل الجنة عجوز

نخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الصلاة فبكت بكاء شديدا وجزعت حتى رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له عائشة رضي الله عنها ان هذه المرأة لتبكى لما قلت لها انها لا تدخل الجنة عجوز فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أجل لا تدخل الجنة عجوز قال الله تعالى * انا انشأناهن انشاء فجعلناهن ابكارا عربا اترابا * وهن العجائز الرمص ومثله ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته امرأة يقال لها ام أيمن فقالت زوجي يدعوك فقال من هو هو الذى بعينه بياض فقالت أى رسول الله والله ما بعينه بياض وجاءته امرأة أخرى فقالت يارسول الله احملنى على بعير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احملوها على ابن البعير فقالت ما اصنع به لا يحملنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل من بعير الا ابن بعير وكان يمزح معها ويكون مراد ابى الحسن على هذا الوجه بالاعراض ماتحتوى عليه مقصورته من انواع التورية والكنايات والاشارات وشبه ذلك مما فيه معظم محاسن الكلام وتم أيضا على هذا المعنى التورية بذكر الاعراض والجواهر فتأمله * ثم قال

﴿ فانتظم عقدها من اللؤلؤ المكنون * وانقسم ما اشتملت عليه من الاغراض والفنون * الى مديح وغزل * وحكمة ومثل * ووصف معالم ومجاهل * ومنازل ومناهل * ورياض وازهار * وحياض وانهار * وازمان واعصار * ومدن وامصار * وجوازفى قفار * وجوار فى بحار * وصيد وقنص * ووعظ وقصص * ومواقف تعجب واعتبار * ومواطن تبسم واستعبار ﴾

المكنون المصون يقال كنه أى صانه قال الله تعالى كأنهن بيض مكنون والمعالم الآثار التى يستدل بها والمجاهل المفاوز التى لا أعلام فيها والمناهل الموارد وهى عيون الماء التى تردها الابل فى المراعى وتسمى المنازل فى المفاوز على طرق السفار مناهل لان فيها ماء والجواز من قولهم جزت الموضع أجوزه جوازا اذا سلكته ويمكن أن يكون قوله وجواز فى قفار من هذا وهو اظهر وان يكون جمع جازية وهى البقرة من الوحش تجزأ بالرطب عن الماء قال الشاعر

اذا الارطى توسد أبرديه * خدود جوازئ بالرمل عين

وهو مهموز الا انه عامله معاملة غير المهموز وقد ذكر عن الاخفش أن من العرب من يترك الهمز فى كل ما يهمز الا أن تكون الهمزة مبدوأ بها (قلت) فعلى هذا يكون الناظم انما تكلم بهذه اللغة القليلة ايثارا للشاكلة فيما بينه و بين جوار من قوله وجوار فى بحار كما قالوا قدم وحدث وكما قالوا الغدايا والعشايا وكما جاء ارجعن مأزورات غير مأجورات وكما قال تعالى سلاسلا واغلالا فنون لشاكلة مابعده وهذا الوجه الثانى انسب والاعتبار من العبرة والاستعبار من العبرة وهى تحلب الدمع * ثم قال

﴿ الى غير ذلك من ضروب المقاصد التى أراغ الخاطر أقناصها من خفى المراصد واهتدى اليها رائد الفكر وهدى منها الى العقول كل عقيلة بكر ﴾

يقال اراغ وارتاغ أى طلب وأراد وأرغت الصيد طلبته وماذا تريغ أى ماتطلب وتريد والمراصد جمع مرصد وهو موضع الرصد والرائد الطالب و يقال هديت العروس الى زوجها وهو الهداء والعقيلة قد تقدم تفسيرها * ثم قال

﴿ قد أحكم صيغتها ومبناها * وقسم صنعة لفظها ومعناها * الى ما ينشط السامع * ويقرط المسامع * من تجنيس أنيس * وتطبيق لبيق * وتشبيه نبيه * وتقسيم * وسيم * وتفصيل أصيل * وتبليغ بليغ * وتصدير بالحسن جدير * وترديد ماله من نديد * الى غير ذلك مما أجرى من الصياغة البديعة * والصناعة الرفيعة * على نحو هذه المسالك

ينشط السامع أى يجعله ينشط لاستماعها و يقرط المسامع أى انه لحسنه تزدان به المسامع حتى يكون فيها كالقرط تحلى به وهو من قول بشار بن برد

وكيف تناسى من كان حديثه * باذنى وان غيبت قرط معلق

والانيس المؤانس وكل ما يؤنس به واللبيق اللائق يقال لبق به الثوب أى لاق به والنبيه الشريف يقال نبه الرجل بالضم اذا شرف والوسيم الحسن والاصيل المحكم من قولهم أصيل الرأى أى محكمه والجدير الحقيق بالشئ والنديد النظير وقد عدد أبو الحسن هنا ألقابا من الفن المسمى بالبديع سيأتى على تفسيرها ان شاء الله عند الفراغ من الكلام على هذه الخطبة فافردها هنالك فصلا أجعله كالمقدمة للكتاب فتى سنح لى الكلام على نوع من ذلك فى اثناء الشرح أحلت عليها * ثم قال

﴿ فالآذان باقراطها حالية * والاذهان من اسماطها غير خالية * فهى من تناسب الفاظها وتناسق أغراضها قلادة ذات اتساق * ومن تبسم زهرها وتنسم نشرها حديقة مبهجة للنفوس والاسماع والاحداق ﴾

قد تقدم تفسير الاقراط وذكر المعنى الذى لاجله استعير القرط هنا وكذلك تقدم تفسير السمط والاتساق الانتظام والتناسق كذلك والقلادة قلادة العنق شبه بها القصيدة لحسن انتظامها وقد تقدم ذكر التنسم والنشر الرائحة الطيبة قال الشاعر وريح الخزامى ونشر القطر * والحديقة الروضة ذات الشجر قال الله تعالى وحدائق غلبا ومبهجة سارة تقول بهجنى الامر وابهجنى اذا سرك والبهجة الحسن ومنه حدائق ذات بهجة شبهها فى بهائها وجميل منظرها بالحديقة التى تسر النفوس وتروق النواظر والاسماع * وقوله من تناسب الفاظها اشارة الى حسن النظم فقد قال الجاحظ أجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك انه أفرغ افراغا وسبك سبكا واذا كان الكلام على هذا الاسلوب الذى ذكره الجاحظ لذ سماعه وقرب فهمه وعذب نطقك به وحلى فى قلب سامعه فاذا كان متنافرا متباينا عسر حفظه وثقل على لسان الناطق به ومجته المسامع ومن أبدع تناسب الكلام قول على بن أبى طالب رضى الله عنه فى بعض مواعظه أين من سعى واجتهد وجمع وعدد وزخرف ونجد و بنى وشيد فأتبع كل لفظة ماشا كلها وقرنها بما يشبهها * ثم قال

﴿ وما هذه القلادة المنظومة * والروضة المطورة * الا قصيدة من الرجز غير مشطوره * عارضت بها قصيدة أبى بكر بن دريد المقصوره * وأطلعت فيها نورا هاديا من ثناء الحضرة المنصوره * واجتنيت ثمرها من افنان انعمها المهصوره * وضمنتها وصف ما يروق * ووصف ما يشوق * من حلى مقامها الذى جعل الله الفضائل مجموعة فيه محصورة * ادامه الله لابسا من الجلال الباهر * والجمال الظاهر * أجمل صورة * ويمن

بالسعد وأسعد باليمن ازمنته المباركة وعصوره * وعمر بالسعد الدائم والعز القائم منازله الرفيعة وقصوره ﴾

الممطورة التي اصابها المطر وذلك مماز يد في حسنها يقال مطرت السماء وامطرها الله وقد مطرنا وكذلك يقولون مطرت السماء وامطرت بمعنى والرجز احد أشطار الدائرة الثالثة من العروض وأصله من مستفعلن ست مرات وقد اختلف لم سمي رجزا فقيل سمي رجزا لان أول كل جزء من اجزائه سببان فهو يتوالى فيه حركة وسكون ثم حركة وسكون الى أن تنتهي اجزاؤه تشبيها بالرجز في رجل الناقة وهو اضطرابها ورعدتها وذلك انها تتحرك وتسكن وقيل غير ذلك واحسن من هذا ان يقال سمي رجزا من الصوت لانهم كانوا يفزعون كثيرا بهذا النوع من الشعر في عملهم وسوقهم وحروبهم فيرفعون به اصواتهم ويحدون به والارتجاز صوت الرعد والمشطور ماذهب الشطر من اجزائه كقول الشاعر ماهاج احزانا وشجوا قد شجا (وابو بكر ابن دريد) هو ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد أزدي النسب بصري المولد والمنشأ أخذ عن أبي حاتم سهل بن محمد والرياشي وعبد الرحمن بن أخي الاصمعي وغيرهم وكان اماما في اللغة والاخبار والشعر قال ابو على اسماعيل بن القاسم قال لي ابو بكر بن دريد وقد سألته عن بيت شعر فاجابني يابني لئن طفئت شحمتا عيني لم تجد من يشفيك من العلم قال ثم قال لي وكذلك قال لي ابو حاتم وقد سألته ثم قال ابو حاتم وكذلك قال الاصمعي وقد سألته وكان ابو بكر بن دريد قد خرج الى نواحي فارس فصحب بها جماعة من ملوكها وصحب ابني ميكال الشاه وأخاه وكانا يومئذ على عمالة فارس فعمل لهما كتاب الجمهرة وقلداه ديوان فارس فكان يصدر كتاب الديوان عن رأيه ولا ينفذ امر الا بعد توقيعه فافاد معهما أموالا عظيمة وكان سيدا مفيدا لا يليق (١) درهما سخاء وكرما وقال مقصورته في ابني ميكال فوصلاه عليها بعشرة آلاف درهم وفيهما يقول في المقصورة المذكورة حاشا الاميرين اللذين أوفدا * على ظلا من نعيم قد ضفا

يعني الشاه وأخاه (قلت) وقد ذكر أن أمير المؤمنين أباعبد الله المستنصر صاحب افريقية وصل أبا الحسن حازما على مقصورته هذه بالف دينار من الذهب العين بحساب دينار لكل بيت ولم يتأد الى ذلك من وجه صحيح ويقال هصرت الغصن و بالغصن اذا أخذت برأسه فأملته اليك قال امرؤ القيس

* هصرت بغصن ذي شماريخ ميال * والرصف بالتسكين هنا النظم من قولهم رصفت الحجارة ارصفها رصفا اذا ضممت بعضها الى بعض * ثم قال

﴿ وأحل هذه الخدمة من نظرهم الجميل محلا رضيا * وجعل أملها لديهم ميسرا مقضيا * فانها من ترقب التعقب وجله * ومن اعتقاد الانتقاد خجله * فليست وان طال فيها القول * تحيط بادنى ماالهم من الطول * على أنها تفوق القصائد طولا * وتقرعها بالايد الطولي * وتفضلها بفضل الحضرة العلية التي خدمتها * وتتقدم بذلك جميع القصائد التي تقدمتها ﴾

الترقب الانتظار والتعقب التتبع يقال تعقبت الامر اي تتبعته والوجل الخوف والانتقاد مصدر قولك انتقدت الكلام اذا ميزت رديئه ونبهت عليه واصله من قولهم نقدت الدراهم وانتقدتها اذا أخرجت منها الزيف والخجل التحير والدهش من الاستحياء والطول بالفتح المن يقال طال عليه اذا امتن وكذلك تطول

(١) قال في القاموس ومايليق درهما من جوده مايمسكه انتهى

عليه والطولى تأنيث الاطول * ثم قال

﴿ فهي أم القصائد * ووسطي القلائد* تطلق الالسنه* وتوقظ القلوب من السنه * وتؤنس وتسلي * وتغلي قدر حافظها وتغلى * فيها تذكرة لمن يتذكر* وتسلية لمن أنكر* من الزمان ما عرف وعرف ما أنكر * جعلتها ديوانا محيطا بكثير من أحوال العالم والوجود * وأوفدتها على بحر الكرم والجود * طرّزتها باسم من حسن الله سماه * ورفع مقامه وأسماه * سيدنا الخليفة الامام المنتصر بالله * المنصور بفضل أمير المؤمنين أبي عبد الله * المنزه في الملوك عن النظراء والاشباه * الطيب ذكره على الالسن والافواه * أدام الله أيامه * ونصر أعلامه ﴾

أم كل شيء أصله وعماده وقال ابن دريد كل شيء انضمت اليه أشياء فهو أم لها وجعلها أم القصائد لما احتوت عليه من الفوائد التى تفرقت فى غيرها فصارت بذلك أصلا لجميعها ووسطى القلادة وواسطتها الجوهر الذى فى وسطها وهو أجودها وقد يكون اطلاق الوسطى عليها أنها تحل الوسط وقد يكون من الفضل لقولهم فلان وسيط فى نسبه اذا كان أفضلهم حسبا على أن بعض الشيوخ زعم أن الاوسط والوسط والوسيط وما فى معناها لا تطلق بمعنى الافضل الا فى موضعين أحدهما النسب قالوا وسيط فى العشيرة والثانى الشهادة كقوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا قال وهما راجعان الى معنى التوسط أما فى العشيرة فظاهر وأما فى الشهادة فهو راجع الى معنى العدل أى لا ميل فيه ولا حيدة الى جانب دون آخر فهو بهذا المعنى وسط وتطلق الالسنة أى يتعلم منها الفصاحة لما تضمنته من علوم البلاغة وتوقظ القلوب من السنة يريد بما فيها من المواعظ والاخبار والسنة والوسن النعاس وانما قصد أنها تزيل عنها الغفلة وتؤنس وتسلى أى بحسنها وبما تقصه من عجائب الاخبار وتغلى قدر حافظها بما تفيده من العلوم والمعارف وتغلى قيمته كما قال على رضى الله عنه قيمة كل امرىء ما يحسن فيها تذكرة لمن تذكر بما تطلعه عليه من تقلب الدهر بالامم وتسلية لمن أنكر من الزمان ما عرف وعرف ما أنكر أى لمن تغيرت حاله وقد قال الشاعر

أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه * ما الناس بعدك يا مرداس بالناس

* ثم قال

﴿ فلولا اجتلاء غرر الكرم من منحه وأياديه * واجتناء زهر النعم بمسرحه وواديه ما تجشمت الافكار * اجتلاب الدرر الابكار * بالغوص في بحار الشعر العظمى * ولا ابتدعت من فرائدها نظما * تجاوزت فيها حد المعتاد المألوف * الى أعداد الالوف ﴾

اجتليت الشيء نظرت اليه والمنحة العطية والتجشم التكلف على مشقة ومنه قول زيد بن عمرو مهما تجشمني فانى جاشم والابكار من الدرر التى لم ير مثلها قبل ذلك عبر بالدرر عن بدائع الكلم حسبما تقدم وأحسن فى ذكر الغوص والبحار مقرونا بها اذ كانت الدرر تستخرج من البحار كما قال تعالى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان واذ كانت أشطار الشعر تسمى فى اصطلاح أهل العروض أبحرا * ثم قال

﴿ لكنها نتيجة خاطر * أنطقتني بها نعمهم * وأملاها على لساني كرمهم * فرفعتها

الى مقامهم * شاكرا لانعامهم * هذا على علمي بأن جميع ما يخدم به مقامهم العظيم * من در اللفظ النظيم * انما هو نقطة من حياضهم * وزهرة من رياضهم * بل لا مناسبة بين الحصباء والدر * ولا مشاكهة بين البهم والغر ﴾

نتيجة خاطرأى متولدة عنه وأصله من نتاج الناقة أنطقتنى بها نعمهم أى علمتنى كيف أقول فى شكرهم وقد قال ابن الرومى

سمحتم لجاش المجمون بشكركم * اذا رجزوا فيكم أنلتم فقصدوا
كما أزهرت أفنان روض وأورقت * فاضحت وعجم الطير فيها تغرد

وقد قيل اللهى تفتح اللها والمشاكهة المشابهة قال الشاعر

علون بانماط عتاق وكلة * وراد حواشيها مشاكهة الدم

وقولهم شاكه أبافلان معناه قارب فى المدح والبهم جمع بهيم يقال فرس بهيم أى مصمت لايخلط لونه غيره * ثم قال

﴿ فان حلت من نظرهم الجميل محل الارتضاء * ونظرها جلالهم بعين الاغضاء * فقد تمت النعمي لها وكملت * وبلغت من التشريف والفخر التالد والطريف جميع ما أملت * سخر الله لهم جنود نصره وتأييده * وجعل دعوتهم محيطة بالبسيطة احاطة النطاق بخصره والعقد بجيده ﴾

التالد المال القديم وكذلك التلاد والأتلاد والطارف والطريف المال المستحدث والنطاق والمنطقة والمنطق كل ما تشدبه الانسان وسطه وهنا انتهى بى الكلام على تفسير الخطبة التى قدمها ابو الحسن بين يدى مقصورته هذه بشرح اعتمدت فيه الاختصار اذ القصد الاعظم من الكتاب انما هو الكلام على القصيد كما قدمت

﴿ فصل أذكر فيه تفسير ما وعدت بتفسيره من الالقاب التى سماها الناظم قبل من الفن المسمي بالبديع على الترتيب الذى اعتمد ﴾

* فاما التجنيس فهو اتفاق كلمتين أوكلمات فى جميع الحروف أو اكثرها مع اختلاف المعنى وقد جمع الناس منه ضروبا سموا كل ضرب منها بلقب أفردوه وانما اذكر هنا ما كان مختارا مرضيا * فمن أنواعه التماثل وسماه قوم المستوفى وذلك نحو قول زياد الاعجم

فانع المغيرة للمغيرة اذ غدت * شعواء مشعلة بنبح النابح

ومن مستحسنه قول عبدالله بن طاهر

وانى للثغر المخوف لكالئ * وللثغر يجرى ظلمه لرشوف

فاتى به سهلا عاريا عن التكلف وجمع بين الغزل والحماسة كما ترى وكان بعض شيوخنا من أهل العدوة يعد منه قول الله تعالى تبت يدا أبى لهب مع قوله سيصلى نارا ذات لهب وهذا النوع هو أكمل انواع التجنيس وانما تجنبه الفحول لانه قلما يفارقه التكلف فى الغالب فتحاموه لاجل ذلك وانما يستحسن منه ما كان سهلا كالآية أو كبيت ابن طاهر وشبه ذلك (وكتب الى شيخنا) امام البلغاء فى وقته وصاحب القلم الاعلى ابو الحسن

ابن الجياب رحمه الله مهنئا لى بمولود من قصيدة

أهلا بسبط من بنى هاشم * فى دوحة المجد سما منسبا
ومرحبا بابن الأمام الذى * جـدل يوم خيبر مرحبا

أراد مرحبا أحد يهود خيبر الذى بارزه على رضى الله عنه يوم خيبر فقتله وقد ولد قوم من هذا النوع ضربا سموه تجنيس التركيب كقول الميكالى

عارضاه بما جنى عارضاه * أودعانى أمت بما أودعانى

والتكلف يصحب هذا النوع أكثر من الاول وربما عرى منه كبيت الميكالى هذا وقد انشدنى شيخنا الامام الاوحد ابو القاسم بن الشاط رحمه الله لنفسه فى هذا النوع من التجنيس

انى سلكت من انقباضى مسلكا * وجريت من صمتى على منهاج
وتركت أقوال البرية جانبا * كى لا أميز مادحا من هاج

* ومن أنواع التجنيس تجنيس الاشتقاق والمراد به اتفاق حروف الكلمة دون الصيغة وا كثر مايستعمل من أنواع التجنيس هذا النوع كقول النعمان بن بشير

ألم تبتدركم يوم بدر سيوفنا * وليلك عما ناب قومك نائم

ومنه قوله تعالى قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين وقول النبى صلى الله عليه وسلم أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وعصية عصت الله ورسوله ومنها مايتفق فيه اكثر حروف الصيغتين كقول ابن هرمة

وأطعن للقرن يوم الوغا * وأطعم فى الزمن الماحل

ومنه المنقوص كقول حبيب

يمدون من أيد عواص عواصم * تطول باسياف قواض قواضب

وكقول الاخر ومامنعت دار ولاعز أهلها * من الناس الا بالقنا والقنابل

ومنه تجنيس القلب كقول أبى الطيب

برد يدا عن ثوبها وهو قادر * ويعصى الهوى فى طيفها وهو راقد

* ومنه تجنيس التصحيف وفيه نظر * ومنه التجنيس المعنوى المكنى فيه عن احدى اللفظتين و يسمى تجنيس الكناية كقول بعضهم

انى أحبك حبا لو تضمنه * سلمى سميك ذل الشاهق الراسى

فدل بقوله سميك على أن اسم المخاطبة سلمى فجانس بينه و بين سلمى الذى هو احد جبلى طىء وكذلك قول بعضهم وتحت البراقع مقلوبها * تدب على ورد خديك

فكنى عن قلب البراقع وهو العقارب * ومن تجنيس الكناية قول البحترى

فسقى الغضا والنازليه وان هم * شبوه بين جوانح وقلوب

فكنى عن الغضا المراد به الجمر وسأتكلم على هذا البيت وماأشبهه بعد * وقد عد بعضهم فى ضروب التجنيس باب التورية وسأتكلم عليها بعد ان شاء الله * ومن التجنيس المعنوى قول بعض المشارقة وهو حسن جدا

اعلمت بعدك وقفتى بالاجرع ورضا طلولك عن دموعى الهمع
مطرت غضا فى منزليك فزافيا فى أربع ومؤججا فى أضلع

وانما اهتدى اليه قائله من بيت البحترى الذى أنشدته قبل ومن تجنيس الكناية قول بعضهم وذكر مغنيا وصفه بالثقل فقال يهجوه من أبيات

قال غنيت ثقيلا * قلت قد غنيت نفسك

ويسمى قدامة التجنيس طباقا وسانبه على سائر انواعه وأوا كثرها فى أثناء الكتاب ان شاء الله (وأما التطبيق) وهو الطباق والمطابقة ويسميه قدامة التكافؤ فهو تقابل لفظتين متضادتين من جهة المعنى كقول الشاعر

*حلو الشمائل وهو مر باسل * وكقول أم الضحاك المحاربية

وكيف أساوى خالدا أو يناله * خميص من التقوى بطين من الخمر

وقد يكون التضاد من جهة السلب والايجاب كقول الشاعر

يقيض لى من حيث لا أعلم النوى * ويسرى الى الشوق من حيث أعلم

وقد تقع المطابقة بغير اللفظ الصريح فيها كقول بعضهم

فان تقتلونى فى الحديد فاننى * قتلت أخاكم مطلقا لم يكبل

ويجرى مجرى الطباق تخالف وضع الالفاظ حتى يقع بين جزء من جزأين الكلام نسبتان مختلفتان فيجرى ذلك مجرى التضاد فى الالفاظ المفردة كقول الشاعر

أنت للمال اذا أمسكته * فاذا انفقته فالمال لك

وكقول ابن الرومى يهجو خصيا

يوم يلقى الهه لم يلده * ذو صلاح ولم يلد ذا صلاح

ومنه قول بعضهم لاتكونوا كالجراد أكل ماوجدوأكله ماوجده * ومثله ماتخالفت فيه أوضاع الالفاظ المعادة بان يصير أخيرا ما كان منها اولا وأولا ما كان منها أخيرا ويسمى هذا النوع ايضا التبديل * كقول بعضهم أشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك وقول بعضهم لان اكون بالسوق وقلبى فى المسجد خير من أن اكون فى المسجد وقلبى فى السوق فيجرى التخالف فى مثل هذا مجرى التضاد والتطبيق مأخوذ من قولك هذا لهذا طبق أى هو بمقداره لا يزيد عليه ولا ينقص عنه فسمى المتضادان اذا تقابلا متطابقين بهذا المعنى* وقال الخليل يقال طابقت بين الشيئين اذا جمعتهما على حد واحد وذكر الاصمعى المطابقة فى الشعر فقال أصلها وضع الرجل موضع اليد فى ذوات الاربع يقال طابق الفرس اذا وقعت رجلاه فى موضع يديه وانشد لنابغة بنى جعدة

وخيل يطابقن بالدارعين * طباق الكلاب يطأن الهراسا

وسئل أبو الحسن على بن سليمان الاخفش وكان من العلماء بالشعر فقيل له ان قوما يخالفون فى الطباق فطائفة تزعم وهى الاكثر انه ذكر الشئ وضده وطائفة تخالف فى ذلك وتقول هو اشتراك المعنيين فى لفظ واحد فقال هذا هو التجنيس ومن زعم أنه طباق فقد ادعى خلافا على الخليل والاصمعى * واما التشبيه فان قدامة حين ذكره قال من الامور المعلومة أن الشئ لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات اذ كان الشيئان اذا تشابها من كل الوجوه فلم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا فصار الاثنان واحدا فتبين أن التشبيه انما يقع بين شيئين بينهما اشتراك فى معان تعمهما و يوصفان بها وافتراق فى أشياء أخر حتى ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفة واذا كان الامر كذلك فاحسن التشبيه ماوقع بين شيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بهما الى حال الاتحاد ثم اتى بامثلة منها قول الشاعر يذكر صوت الجرع * فعب دخالا جرعه متواتر * كوقع السحاب بالطراف المدد (قلت) ومن بديع التشبيه قول عبدالله بن المعتز يصف الحية

نعت رقطاء لاتحيا لديغتها * لوقدّها السيف لم يعلق به بلل
تلقى اذا انسلخت فى الارض جلدتها * كأنها كم درع قده بطل

وقوله

وفتيان سروا والليل داج * وضوء الصبح متهم الطلوع
كأن بزاتهم امراء جيش * على اكتافها صدأ الدروع

وقوله

قد انقضت دولة الصيام وقد * بشر سقم الهلال بالعيد
يتلو الثريا كفاغر شره * يفتح فاه لأكل عنقود

وقوله

ولقد غدوت على طمرسابح * عقدت سنابكه عجاجة قسطل
متلثم لجم الحديد يلوكها * لوك الفتاة مساوكا من اسحل
ومحجل غير اليمين كانه * متبختر يمشى بكم مسبل

وقول سيف الدولة و يروى لغيره يصف قوس قزح

وقد نشرت أيدى السحاب مطارفا * على الجو دكنا وهى خضر على الارض
يطرزها قوس السماء باحمر * على اصفر فى أزرق فوق مبيض
كاذيال خود أقبلت فى غلائل * مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقول بعضهم

واحور ساج لم ا كن قبل حسنه * لاعلم ماوجدى باحور ساج
غدا موترا من حاجبيه حنية * لها البلج الشفاف قبضة عاج

وقال صفوان بن ادريس من متأخرى الاندلس

والورد فى شط الخليج كانه * رمد الم بمقلة زرقاء

وقال الآخر فى الباذنجان

تعلق من اقماعه فكانه * قلوب نعاج فى مخالب عقبان

و ينبغى أن يكون المشبه به فى الصفة أو الصفات التى وقع التشبيه فيها اعم شهرة من المشبه وأشد تميزا بتلك الصفات * وقد نبه أبو محمد بن سنان الخفاجى على هذا قال وعلى هذا ا كره قول علقمة

كان ابريقهم ظبى على شرف * مفدم بسبا الكتان ملثوم

على أن يكون مفدم من صفة الظبى لان الظبى لا يكون مفدما بسبائب الكتان ولا ملثوما فكان التشبيه وقع بمالا يعرف ولا يشاهد وان كان المفدم راجعا الى الابريق فذلك صحيح أى يكون تقديره هو مفدم (قلت) قوله بسبا الكتان أراد بسبائب الكتان لحذف لضرورة اقامة الوزن وقد يصح أن يكون التشبيه بعكس ما ذكر اذا كان الغرض من التشبيه الاهتمام بالمشبه به كما اذا اشير الى البدر فقلت كانه الرغيف اظهارا لاهتمامك بشأن الرغيف وكذلك اذا قصد المشبه أن يذهب بالمشبه به حتى يصيره اعلا درجة من المشبه على جهة المبالغة فى وصفه بصفات الاشتراك كما اذا رأيت البحر زاخرا فقلت كانه فى تدفق أمواجه كف فلان ذاهبا الى أن كفه بالعطايا أعظم مدا من البحر ومنه قول الشاعر

و بدا الصباح كان غرته * وجه الخليفة حين يمتدح

قال بعضهم التشبيه أحد أنواع البلاغة وأبدع افانينها وهو موضوع للجلاء والكشف والمبالغة فى البيان والوصف والعبارة عن الخفى بالجلى والمتوهم بالمحسوس والحقير بالخطير والشىء بما هو أعظم منه أو أخس وكله لتأكيد البيان والمبالغة فى الايضاح وانظر أين قول القائل الذين كفروا أعمالهم لا ينتفعون بها من قوله تعالى أعمالهم كسراب بقيعة الآية وتأمل فرق ما بين الوصفين من البيان وما بين الكلامين فى الايضاح وان كان الغرض واحدا والمقصود سواء * ومن أنواع التشبيه اقامة المثال مقام الشاهد و يسميه بعضهم التذييل

المثالى وهو أن يقرر المتكلم معنى ثم يعمد بعده الى معنى آخر شبهه به اشهر منه فيذكره شاهدا عليه ودليلا على صدقه * ومن أمثلته قول ابى فراس الحمدانى

سيطلبنى قومى اذا جد جدهم * وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

وقول أبى الطيب اعيا زوالك عن محل نلته * هل تخرج الاقمار من هالاتها

وقول المعرى لواختصرتم من الاحسان زرتكم * والعذب يهجر للافراط فى الخصر

وقول ابى تمام واذا أراد الله نشر فضيلة * طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت * ما كان يعرف طيب عرف العود

ولبعض المشارقة مدحت الورى قبله كاذبا * وماصدق الفجر حتى كذب

وهو من بديع الكلام ومن أحسن ماوقع فيه لمتأخر قول ابى عبدالله بن خميس

عتقها فى الدن خمارها * والبكر لاتعرف غير الحجال

وقول صاحبنا ابى عبدالله بن الخطيب وهو بديع فى بابه

ماضرنى ان لم أكن متقدما * فالسبق يعرف اخر المضمار

ولئن غدا ربع البلاغة بلقعا * فلرب كنز فى أساس جدار

﴿ فصل ومما يتعلق ذكره بهذا الباب الاستعارة والتمثيل فلنلمم هنا بطرف منهما لانهما راجعان الى التشبيه ﴾

فاما الاستعارة فهى نقل اللفظ عن المشبه به الى المشبه مبالغة فى قرب الشبه وادخالا للمنقول اليه فى نوع المنقول عنه وليكون اتحاد اللفظ كالشاهد على دعوى اتحاد المعنى * ومن أمثلته قوله تعالى * واشتعل الراس شيبا وقول ذى الرمة

أقامت به حتى ذوى العود فى الثرى * وساق الثريا فى ملاءته الفجر

وقول طفيل الغنوى وحلت رحلى فوق ناجية * يقتات شحم سنامها الرحل

وقول جرير تحيى الروامس ربعها فتجده * بعد البلى وتميته الامطار

وقول ابى نواس بصحن خد لم يغض ماؤه * ولم تخضه أعين الناس

وقوله أيضا فاذا بدا اقتادت محاسنه * قسرا اليه اعنة الحدق

وقد تكلم بعضهم على الفرق بين الاستعارة والتشبيه بغير حرف فقال ان الاستعارة وان كان فيها معنى التشبيه فتقدير حرف التشبيه لايسوغ فيها والتشبيه بغير حرف يسوغ فيه تقدير الحرف * ثم قال ألاترى أن قول الوأواء الدمشقى

فامطرت لؤلؤا من نرجس وسقت * وردا وعضت على العناب بالبرد

يسوغ لك فيه تقدير حرف التشبيه ولا يسوغ ذلك فى قول ابن نباتة

حتى اذا بهر الاباطح والربا * نظرت اليك باعين النوار

لانه لا يصح أن تقدره بمثل أعين النوار (قلت) اما ماذكره فى بيت ابن نباتة فصحيح وأما بيت الوأواء ففيما ذكر فيه نظر والكلام على تحقيق الامر يخرج الى الطول وسأتكلم بعد على فصول من الاستعارة ان شاء الله وأما التمثيل فهو ان تراد الاشارة الى معنى فتوضع بالفاظ تدل على معنى آخر وذلك المعنى وتلك الالفاظ مثال للمعنى

الذى قصدت الاشارة اليه والعبارة عنه ومن أمثلته قول ابن سياده

الم تك فى يمنى يديك جعلتنى * فلا تجعلنى بعدها فى شمالكا

فعدل عن أن يقول كان عنده مقدما فلا يؤخره أو مقربا فلا يبعده أو محببا فلا يقلله الى ان قال كنت فى يمنى يديك فلا تجعلنى فى اليسرى ذهابا منه نحو الامر الذى قصد الاشارة اليه بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل ارادة الاغراب فى الدلالة ومن ذلك قول ابن الرومى وقد تولع به الاخفش على بن سليمان فكان يقرع عليه الباب اذا اصبح فاذا قال من القارع قال مرة بن حنظلة ونحو ذلك من الاسماء التى يتطير بذكرها وكان ابن الرومى كثير الطيرة له فى التطير أخبار غريبة فيمتنع من التصرف سائر يومه فكتب اليه ينهاه و يتوعده بالهجاء

قولوا لنحوينا ابى حسن * ان حسامى متى ضربت مضا

وان نبلى اذا هممت بان * ارمى نصلتها بجمر غضا

لا تحسبن الهجاء يحفل بالر * فع ولا خفض خافض خفضا

يقول فيها

عندى له السوط ان تلوم فى الس * ير وعندى اللجام ان ركضا

فقوله ان حسامى متى ضربت مضا وقوله وان نبلى وقوله عندى له السوط من هذا الباب ومن التمثيل قول الشاعر

فان ضبحوا منا زأرنا فلم يكن * شبيها بزأر الاسد ضبح الثعالب

فقد أشار الى قوتهم وضعف اعدائهم ومن ذلك أيضا قول كشاجم

لا أحب الدواة تحشى يراعا * تلك عندى من الدوى معيبه

قلم واحد وجودة خط * فاذا شئت فاستزد أنبوبه

هذه قعدة الشجاع عليها * سيره دائما وتلك جنيبه

القعدة بالضم ما اتخذته لركوبك والجنيبة ما قدته الى جنبك ومن ذلك ما كتب به الوليد بن يزيد الى مروان بن محمد وقد توقف عن بيعته اراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيتهما شئت وكتب الحجاج ابن يوسف الى المهلب بن ابى صفره عند حضه اياه على قتال الازارقة ان أنت فعلت كذا وكذا والا اشرعت اليك صدر الرمح فكتب اليه المهلب اذا أشرع الامير الى صدر الرمح قلبت له ظهر المجن ومما وقع للمتأخرين فى هذا الباب ابدع من قول ابى عبدالله بن خميس وهو من محاسن شعره

وما اشرأب رشاد فى ندى هوى * الا جثت حضماء الغى للركب

فانظر كيف عدل عن أن يقول ان الغى اذا حضره الهوى كان غالبا على الرشاد الى ماذكره من الاشرئباب والجثى جثا كدعا ورمى جثيا وجثوا بضمهما جلس على ركبتيه أو قام على أطراف اصابعه واجثاه غيره وهو جاث جمعه جثى بالضم والكسرة اه فدل على المعنى الذى أراد بافصح لفظ وابلغ عبارة وكذلك قول شيخنا ابى الحسن بن الجياب رحمه الله وقد وصف جزيرة الاندلس وما نالها من تكالب الاعداء عليها ومصابرة أهلها لهم على طول الايام فقال من قصيدة

عى الزمان بها فصارت مضغة * فلها على لهواته ترديد

وهو من بارع التمثيل ومن محاسن شيخنا ابى الحسن وقد كتب الى عند انصرافى عن قضاء الجماعة فى ولايتى الاولى

لا مرحبا بالناشد الفارك * اذ جهلت رفعة مقدارك

لو انها قد اوتيت رشدها * ما برحت تمشى الى نارك

اقسم بالبيت الرفيع الذى * منه بدت مشكاة انوارك

ومظهر العدل الحكيم الذى * يتلوا علينا طيب أخبارك
ما لقيت مثلك كفؤا ولا * اوت الى ا كرم من دارك

اذا تأملت الاستعارة والتمثيل وجدتهما شيئا واحد ولذلك تجد علماء البيان كثيرا ما يذكرونهما معا وقد يفرق بين البابين بان الاستعارة أصلها التشبيه والتمثيل أصله اقامة المثال مقام الشاهد وبيان ذلك فى الاستعارة أن طفيلا عدل عن أن يقول ان الرحل يذهب شحم سنام هذه الناقة شيئا فشيئا حتى يفنيه كما يذهب الآكل ما يقتاته جزأ لجزأ حتى ينفد الى أن عبر عن المشبه باللفظ الموضوع للمشبه به وهو الاقتيات فقال يقتات شحم سنامها الرحل وبيانه فى التمثيل ان ابن سيادة عدل عن أن يقول قد كنت ا كرمتنى فلا تعاملنى بعد بالاهانة وقربتنى فلا تقصنى فان ما يتناول باليمين على سبيل العناية به لا ينبغى أن ينقل بعد الى الشمال الى أن عبر عن الممثل بالالفاظ الموضوعة للمثل به فقال

ألم تك فى يمنى يديك جعلتنى * فلا تجعلنى بعدها فى شمالكا

فتأمل ذلك فانه صحيح وأما التقسيم فسئل على بن هارون عنه فقال هو ان يستقصى الشاعر تفصيل ما ابتدا به و يستوفيه ولا يغادر قسما يقتضيه المعنى الا أورده كقول بشار

بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه * وتدرك من نجى الفرار مثالبه
وراحوا فريق فى الاسارى ومثله * قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

وليس فى حال من دارت عليه الهزايم غير ما ذكر وأنشد فيه قدامة قول نصيب

فقال فريق القوم لا وفريقهم * نعم وفريق قال و يحك ما ندرى

ثم قال فليس فى أقسام الاجابة عن مطلوب اذا سئل عنه غير هذه الاقسام وذكر الجاحظ أن قتيبة بن مسلم لما قدم خراسان خطب الناس فقال من كان فى يده من مال عبدالله بن حازم شئ فلينبذه وان كان فى فمه فليلفظه وان كان فى صدره فلينفثه قال فعجب الناس من حسن ما فصل وقسم ووقف اعرابى على حلقة الحسن فقال رحمه الله من تصدق من سعة أو واسى من كفاف أوآثر من قوت فقال الحسن ما ترك لاحد عذرا ووقع عبيدالله ابن عبدالله بن طاهر فى أمر رجل خرج عن الطاعة انا قادر على اخراج هذه النعرة من رأسه والوحرة من صدره والنخوة من نفسه

وقال عبدالله بن على بعد قتل من قتل من بنى أمية لاسماعيل بن عمرو أساءك ما فعلت باصحابك قال كانوا يدا فقطعتها وعضدا ففتتها ومزادة فنفضتها وركنا فهدمته وجناحا فهضته قال له انى لخليق ان الحقك بهم قال انى اذا لسعيد

وكتب الصابى عن بختيار الى ابى تغلب فى وصف فرس أهداه اليه أما الفرس الذى سألت ايثارك به فقد تقدمنا بقوده اليك والله يبارك لك فيه ويجعل الخير معقد ناصيته والاقبال غرة وجهه وادراك المطالب تحجيل قوائمه ونيل الامانى طلق شأوه وفتح الفتوح غاية شده وسلامة العواقب مثنى عنانه ومن بارع التقسيم الذى وقع لمتأخرى العصر ما أنشدنيه صاحبنا أبو عبدالله ابن الخطيب لنفسه

فان وفيت بحق المدح فهو جنى * روض بانعامك السح الغمام سقى
وان عجزت فمن عذر وثقت به * من رام عد الحصا والقطر لم يطق
وان أتيت ببعض القصد ربما * يكفى من العقد ما قد حف بالعنق

قلت فليس فى أحوال الممتدحين لمخدوميهم القائمين مقام الاعتذار قسم يخرج عما ذكره وأما التفصيل فان صاحب العمدة بعد أن تكلم على التقسيم قال ومن أنواع التقسيم التقطيع ومثله بقول النابغة الذبيانى

فلله عينا من راى أهل قبة * اضر لمن عادى وا كبر نافعا
وأعظم احلاما وا كثر سيدا * وافضل مشفوعا اليه وشافعا

قال وسماه قوم منهم عبد الكريم التفصيل وانشد فى ذلك

بيض مفارقنا تغلى مراجلنا * ناسوا باموالنا آثار ايدينا

قال فقطع وفصل كما تراه وقال أبو الطيب

فياشوق ما ابقى ويالى من النوى * ويادمع ما اجرى ويا قلب ما أصبا

ففصل كما فصل اصحابه وجاء على تقطيع الوزن كل لفظ ربع بيت وقال

للسبي ما نكحوا للقتل ما ولدوا * والنهب ماجمعوا والنار ما زرعوا

قلت فهذا هو التفصيل الذى اراد ابو الحسن تبع فى تسميته بذلك عبد الكريم وغيره ممن أطلق عليه ذلك وجعله قسما للتقسيم وجعله صاحب العمدة قسما منه والاظهر ما ذهب اليه ابو الحسن لأن التقسيم من أوصاف المعنى تستوفى فيه أقسامه وهذا من أوصاف اللفظ تابع لتقطيع الأجزاء فلا تعلق له بالمعنى ولأجل ذلك أقول أن البيت الذى انشد ابن رشيق لأبى الطيب وهو قوله للسبي ما نكحوا يجب أن يثبت شاهدا على باب التقسيم لاستيفائه أقسام المعنى الذى اراد وان شئت شاهدا على التفصيل لكون الفاظه واقعة بحسب تقطيع الوزن وأما التبليغ فانه نوع من التتميم الذى يراد به استيفاء غاية المعنى الاانه خاص بالمقاطع ويسمى أيضا الايغال وهو أن يتم كلام الشاعر دون مقطع البيت ويبلغ به القافية فيأتى بما يتمم المعنى ويزيد فى فائدة الكلام لأن القافية محلا من الاسماع والخواطر فاعتناء الشاعر بها آكيد ولا شئ أقبح من بناء القافية على فضول الكلام التى لا يفيد وقيل للاصمعى من أشعر الناس قال من يأتى الى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرا أو الى الكبير فيجعله خسيسا بلفظه وينقضى كلامه قبل القافية فاذا احتاج اليها أفاد بها معنى قيل نحو من قال نحو ذى الرمة حيث قال

قف العيس فى اطلال مية * فسل رسوما كأخلاق الرداء

فتم كلامه ثم احتاج الى القافية فقال المسلسل فزاد شيئا ثم قال

أظن الذى يجدى عليك سؤالها * دموعا كتبديد الجمان

فتم كلامه ثم حتاج الى القافية فقال المفصل فزاد شيئا قيل له ونحو من قال نحو الاعشى حيث يقول

كناطح صخرة يوما ليفلقها * فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فتم مثله الى قوله قرنه فلما احتاج الى القافية قال الوعل قيل له وكيف صار الوعل له مزية على كل ما ينطح قال لأنه ينحط من قنة الجبل على قرنه فلا يضيره ومن أمثلته قول امرئ القيس

كان عيون الوحش حول خبائنا * وارحلنا الجزع الذى لم يثقب

فأفاد معنى زائدا فى التشبيه بقوله لم يثقب وكان الرشيد يعجب بقول مسلم بن الوليد

اذا ماعلت منا ذؤابة شارب * تمشت به مشى المقيد فى الوحل

وكان يقول قاتله الله أما كفاه أن جعله مقيدا حتى جعله فى وحل ومنه قول ابن الرومى

لها صريح كأنه ذهب * ورغوة كاللئالى الفلق

فزاد بقوله الفلق تمكينا فى التشبيه ومن أبدع ما وقع فيه لمتأخر قول ابى بكر بن مجبر وخليفة بن خليفة وستتصل فقوله وستتصل تبليغ بديع أفاد به بشارة الممدوح بأن سلسلة الخلافة ستتصل فى عقبه وحكى ان أبا زكريا يحيى بن مكى كاتب ابى العلا أخى أمير المؤمنين ابى يوسف المنصور قال لأبى بكر بن مجبر هذا نظمت قصيدة مقصورة الروى أمدح بها السيد أبا العلاء واعجزنى روى بيت واحد منها فما أدرى كيف أتممه فقال له ابو بكر

أنشدنيه فانشده قوله*سليل الأمام وصنو الأمام*م وعم الأمام*فقال الله من غير روية ولا تفكر قل ولا منتهى فوضعه ابن مكى فى قصيدته على ما تممه له ابو بكر ولم يأت فى قوافى قصيدته أشد تمكينا منه وله من قصيدة مدحت بها المقام السلطانى النصرى أيده الله

لم يبرح المجد يسموا ذاهبا بهم * حتى أجاز الثريا وهو ماقنعا

فقولى وهو ماقنع من التبليغ الذى أفاد زيادة فى المعنى ظاهرة وقد أوقع بعض المتأخرين التبليغ على نوع من المبالغة وهو أن يكون الوصف ممكنا فى العادة ولم يخرج الى حد الاغراق والغلو ومثله بقول امرىء القيس

فعاد عداء بين ثور ونعجة * دراكا لم ينضح بماء فيغسل

فهو على هذه طريقة ليس خاصا بمقاطع الابيات ولا مقصورا على التتميم كما تقدم واما التصدير فهو رد أعجاز الكلام على صدوره باعادة اللفظ الواقع فى صدر البيت وتكريره فى العجز ليكون فيه مناسبة ودلالة بأول الكلام على آخره اذا اللفظ الواقع فى الصدر يدل على اللفظ الواقع فى العجز فتعلم القافية قبل الانتهاء الى ذكره وقد قسمه ابن المعتز على ثلاثة أقسام أحدها ما يوافق آخر كلمة من البيت آخر كلمة من نصفه الاول كقول الشاعر

يلفى اذا ما كان يوم عرمرم * فى جيش رأى لا يفل عرمرم

الثانى ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة فيه كقول الشاعر أيضا

سريع الى ابن العم يشتم عرضه * وليس الى داعى الندا بسريع

الثالث ما يوافق آخر كلمة من البيت بعض ما فيه كقول الشاعر

عزيز بنى كليب اقصدته * سهام الموت وهى له سهام

ومن التصدير قوله تعالى أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة اكبر درجات واكبر تفضيلا وقوله تعالى ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن وفى الحديث من مقت نفسه أمنه الله من مقته وقال بعضهم أن الشكر من الله باحسن المواضع فازدد منه تزدد به وحافظ عليه تحفظ به وقد أنشد ابن المعتز لنفسه

يادائم الصدو التجنى * دعنى من الصدأ وفدعنى

أراد هذا البيت

فر فؤادى اليك عنى * فسله عما ارادمنى

واما الترديد فهو تكرار اللفظ لتكرر ما بازائه من اجزاء المعنى كقول بعضهم

جسمى معى غير أن الروح عندكم * فالجسم فى غربة والروح فى وطن

فليعجب الناس منى أن لى بدنا * لاروح فيه ولى روح بلا بدن

ونحو قول ابن الرومى

له نائل مازال طالب طالب * ومرتاد مرتاد وخاطب خاطب

واكثر ما يحسن الترديد اذا كان المعنى فى أحدى لفظيته حاصلا عن معنى الاخرى ونتيجة عنه ولاسيما اذا كانت أحدى اللفظتين مستعارة كقول ابى حيه

الا حى من أجل الحبيب المغانيا * لبسن البلى مما لبسن الليالى

فلباس البلى مسبب عن لباس الليالى وكذلك قول حبيب

راح اذا ما الراح كن مطيها * كانت مطايا الشوق فى الاحشاء

وكذلك قول ابى نواس

صفراء لاتنزل الاحزان ساحتها * لو مسها حجر مسته سراء

ومن ابدع الترديدقول زهير

أن تلق يوما على علاته هرما * تلق السماحة منه والنداخلقا

انتهى تفسير الالقاب التى سماها ابو الحسن وسأتكلم على سائر انواع البديع أو أكثرها فى اثناء شرح القصيدة أن شاءالله

ـــ وهذا أول القصيدة على بركة الله

لِلّهِ ماقَدْ هِجْتَ يايَوْمَ النَّوَى   عَلَى فُؤَادِى مِنْ تَبَارِيحِ الْجَوى

لَقَدْ جَمعْتَ الظُلْمَ وَالاظْلامَ اذْ   وَارَيْتَ شَمْسَ الْحُسْنِ فى وقتِ الضُّحَى

فَخِلْتُ يَوْمِى إذْ تَوَارَى نُورهَا   قَبْلَ انْتِهاءِ وَقْتِهِ قَدْ انْتَهى

وَما تَقَضّى عَجَبِى مِنْ كَوْنِها   غَابَتْ وعمْرُ الْيَوْمِ بَاقٍ ماانقضى

اللام فى قوله لله ماقدهجت فيهامعنى التعجب وكذلك قولك للهزيد ولله أنت وكذلك اذاجىء فيهافى القسم كقول الشاعر على أحدى الر وايتين لله يبقى على الايام ذو حيد معنى التعجب فيه موجود وكذلك العرب اذا قالت لله أنت ولله هذا الامر تريد أن الامر من عظمه هوا كبر من أن يحيط به الفكر أو أن يوصل الى حقيقته فيرد أمره الى الله هذا هو الاصل فيه وجرى فى القسم على هذه الطريقة وأن لم يكن اللفظ فيه يعطى من هذا التأويل مايعطيه للهزيد وشبهه الاعلى بعد ويقال هاج الشئ اذا ثار وهاجه غيره فيتعدى ولا يتعدى والتباريح الشدائد والجوى الحرقة وشدة الوجد تقول منه جوى الرجل بالكسر فهو جو وجعل يوم النوى ظالما لمواراة الشمس فى الوقت الذى لاتغيب الشمس فيه والظلم فى اللغة وضع الشىء فى غير موضعه وجعله مظلما لمغيب الشمس فيه وكنى بالشمس عن المرأة وانما خص وقت الضحى لانه فى العادة وقت الرحيل وذكرت بذكره شمس الحسن والكناية بتوار يها عن الرحيل قول ابى العلاء المعرى وهو من أبدع شىء فى معناه

وكنت لاجل السن شمس غدية * ولكنها للبين شمس أصيل

والبيت الرابع وهو قوله وماتقضى عجبى من كونها كانه عكس فيه قول ابى الطيب

رأت وجه من أهوى بليل عواذلى * فقلن نرى شمسا وماطلع الفجر

وقد استقصى الناظم هذا المعنى فى هذه الابيات وتفنن فيه ومن هذا المعنى قول أبى الطيب المتنبى

فان نهارى ليلة مدلهمة   على مقلة من فقدكم فى غياهب

والاصل فيه ان الخيل فى الغارات والجيوش فى الحروب تثير غبارا يخفى له نور الشمس فربما ظهرت الكواكب ويقال انها ظهرت يوم حليمة نهارا ثم استعملوه فى الامر الصعب من فراق الاحباب وغير ذلك ولذلك كانوا اذا وصفوا اقالوا بالشدة يوما يوم ذو كواكب وقالو لار ينك الكواكب ظهرا ومن أبيات الكتاب

فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتى   اذا كان يوم ذو كواكب أشهب

ومن ابياته أيضا

بنى أسد هل تعلمون بلاءنا   اذا كان يوما ذا كواكب أشنعا

وقال طرفة

ان تنوله فقد تمنعه   وتريه النجم يجرى بالظهر

وقال أبو تمام

عادت له أيامه مسودة   حتى توهم أنهن ليال

وقد جاء في قوله لقد جمعت الظلم والاظلام بنوع من التجنيس يسمى تجنيس الاشتقاق وقد ذكرته قبل ومن مستحسنه قول أبي فراس الحمداني

سكرت من لحظه لا من مدامته　　ومال بالنوم عن عيني تمايله
وما السلاف دهتني بل سوالفه　　ولا الشمول ازدهتني بل شمائله
ألوى بصبري أصداغ لوين له　　وغل صدري بما تحوى غلائله

والناظم كثير ما يستعمل هذا النوع من التجنيس حتى لا يكاد يخلي نظامه ولا نثاره منه

وَكَمْ رأتْ عيني نقيضَ مارأتْ　　مِن اطِّلاعِ نورِها تحتَ الدُّجا
فيالها مِنْ آيةٍ مُبصِرةٍ　　أبصرَها طرفُ الرَّقيبِ فامترى
واعتورَتْهُ شُبْهةٌ فضلَّ عنْ　　تحقيقِ ماأبصرَهُ وما اهتدى
وظنَّ أنَّ الشَّمسَ قدْ عادتْ لهُ　　فانجابَ جِنحُ اللَّيلِ عنْها وانجلا
والشَّمسُ ماردَّتْ لِغيرِ يُوشعٍ　　لمَّا غزا ولِعليٍّ إذْ غفا
سرَتْ سُرَى مُفتضِحٍ لكنَّها　　لمْ تفتضِحْ أسرارُها لمنْ وشا

الدجا الظلمة وزعم بعضهم انه جمع دجية يقول ان عينه رأت من ظهور النور ليلا حين زارته فيه نقيض مارأت من استيلاء الظلمة نهارا حين ترحلت وقوله فيالها من آية مبصرة يالها منادى على معنى التعجب ولذلك دخلت اللام كما تدخل في قولك ياللزيد ويا للعجب ولفتح اللام هنا موجبان أحدهما دخولها على الضمير والثاني دخولها على المنادى والمبصرة المضيئة قال الله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة وقال تعالى فلما جاءتهم آياتنا مبصرة وتقدير قوله تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة آية واضحة ومضيئة وامترى أي شك أذا لك نورها أم نور الشمس طلع بعدان غرب واعتورته أي تداولته يقال اعتور القوم الشيء اذا تداولوه وصحت فيه الواو لانه في معنى تعاوروا فحمل عليه كما فعلوا باجتوروا لانه في معنى تجاوروا وبعور لانه في معنى اعور وبيان ذلك ان اعتور واشتور واجتور كان حقها ان تعل لان الواو وهي العين وقعت متحركة بعد فتحة وما كان كذلك فسبيله ان ينقلب الفا كما انقلب في انقاد واختار وفي خاف وهاب وقام لكن لما كان اعتور واجتور واشتور من الافعال التي تكون من اثنين فصاعدا وما كان هكذا فبابه يجئ على تفاعل وهو الاصل فيه فلما كان الاصل في اعتور تعاور وفي اشتور تشاور وفي اجتور تجاور وهو في تشاور وتعاور صحيح لانه لا يصح اعلال عينه حمل عليه اعتور واشتور ولذلك قال سيبويه ولو قال قائل أين لي من الجوار افتعلو لقلت فيها اجتاروا الا ان تقول انه على معنى تفاعلوا فتقول اجتوروا وهذا يدلك من كلام سيبويه على أن موجب التصحيح كونه في معنى تجاوروا وكذلك عور لما كان الاصل فيه أن يأتي على افعل لان الاصل في الالوان والخلق الظاهرة وغير ذلك من الصفات أن يأتي على وزن افعل وافعال فاذا جاء شيء من ذلك على فعل فانما جاء على غير أصله فصحح عور وحول وصيد لان الاصل فيه ان يجئ على المثال الذي لا يعتل ولذلك كانت العرب لا تتعجب من هذا النوع الا باشد ونحوه فلا تقول ما أحوله ولا ما أعوره لان اصله أن يجئ على افعال وأفعل والمزيد لا يتعجب منه الا باشد ونحوه وانما قال الناظم واعتورته شبهة فاسند اعتور الى واحد ومعناه تداول وتداول لا يكون الا من اثنين لانه لما كانت الشبهة تعتاده مرة بعد اخرى كان ذلك شبيها بالتداول الذي يكون من اثنين

فتأمله وقوله فانجاب جنح الليل أى انكشف يقال انجاب السحاب اذا انكشف وزال وجنح الليل بضم الجيم وكسرها طائفة منه وقوله ولعلى اذ غفا كان وجه الكلام ان يقول وعلى من غير لام او يقول ولغير على لانه لما أدخل اللام على على وجب أن يكون معطوفا على المجرور باللام وهو قوله لغير فيكون التقدير والشمس ماردت لعلى وهو ضد المراد لكن لما كان المعنى والشمس ماردت الا ليوشع حمله على معناه فكانه قال والشمس ماردت الا لعلى ومن الحمل على المعنى قول الشاعر

قد سالم الحيات منه القدما الافعوان والشجاع الشجعما

وقول الآخر وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال الا مسحتا أو مجلفا

لما كان المعنى سالمت قدماه الحيات حمل الا فعوان عليه فنصب وكذلك البيت الثانى لما كان المعنى فيه لم يبق من المال الا مسحتا حمل المجلف عليه قال سيبويه وزعم الخليل انه يجوز ما أتانى غير زيد وعمرو وذلك ان غير زيد فى موضع الا زيد وفى معناه فحملوه على الموضع كما قال فلسنا بالجبال ولا الحديدا فلما كان فى موضع الا زيد وكان معناه كمعناه وحملوه على الموضع والدليل على ذلك انك اذا قلت غير زيد فكانك قلت الا زيد ألا ترى أنك تقول ما أتانى غير زيد والا عمرو فلا يقبح الكلام كانك قلت ما أتانى الا زيد والا عمرو فلتا وهذ الذى اجازه الخليل هو بعينه الذى استعمله الناظم فى هذا البيت كأنه قال والشمس ماردت الا ليوشع ولعلى وزعم الاستاذ أبو على الشلوبين رحمه الله ان قول سيبويه فيما أتانى غير زيد وعمرو برفع عمرو وانه معطوف على الموضع لا يريد به ان زيدا فى قوله غير زيد موضعه الرفع لانه لا عامل رفع هنا فليس كقوله فلسنا بالجبال ولا الحديدا الا ترى أن أصل الجبال هنا النصب وعامله حاضر يطلب به قال وانما معنى قول سيبويه أنه لما كان يجوز أن يقع فى موضع غير زيد الا زيد نطق بغير زيد وتوهم الا زيد قلت وما ذكره الاستاذ ابو على هو الذى قررته أولا من الحمل على المعنى ويشبه هذا قول الشاعر

وماهاج هذا الشوق الا حمامة تغنت على خضراء سمر قيودها

لما كان لا حمامة فى معنى غير حمامة خفض سمرا على أن يكون نعتا لحمامة المتوهم خفضها بعد غير كما توهم الشاعر فى قوله

بدا لى انى لست مدرك مامضى ولا سابق شيئا اذا كان جائيا

بخفض سابق ان مدركا مخفوض بالباء وانه قال لست بمدرك مامضى فتامله ويجرى فى بيت الناظم وجهان اخران احدهما ان يكون لعلى يتعلق بفعل محذوف يدل عليه معنى ماقبله تقديره وردت لعلى اذ كان معنى قوله ماردت لغير يوشع يدل عليه والوجه الثانى أن يكون المضاف محذوفا تقديره ولغير على ويدل عليه المعنى وتقدم غير فى قوله لغير يوشع ويقال غفا واغفا اذا نعس وقوله سرت سرى مفتضح البيت يريد أن حالها حال من يفتضح فى سراه للضياء الذى لا يفارقها لكن لم يفتضح سراها للواشى بسبب ماظن من أن ذلك هو نور الشمس وينظر هذا المعنى الذى تضمنته هذه الأبيات الى قول ابى الطيب

أمن ازديارك فى الدجى الرقبا اذ حيث كنت من الظلام ضياء

الا أن رقباء ابى الطيب حققوا الأمر ورقيب ابى الحسن امترى بسبب مااعتوره من الشبهة ومثل قول ابى الطيب قول الشاعر

زا رتهم عليه حسنه * كيف يخفى الليل بدرا طلعا

وقال بعض المشارقة فى نحو من هذا المعنى وهو بديع فى مغزاه

ومهفهف علق السقام بطرفه * وسرى فعرس فى معاقد خصره

مزقت اثواب الظلام بثغره * ثم انثنيت احوكها من شعره

وقال أبو نواس فيما ينظر أيضا الى ذلك

وخمار أنخت عليه ليلا * قلائص قد تعبن من السفار
فترجم والكرى فى مقلتيه * كمخمور شكى الم الخمار
ابن لى كيف سرت الى حريمى * وجفن الليل مكتحل بقار
فقلت له ترفق بى فانى * رأيت الصبح من خلل الديار
فكان جوابه ان قال كلا * وهل صبح سوى ضوء العقار
وقام الى الدنان فسد فاها * فعاد الليل منسدل الازار

ومنه قول ابن المعتز

فلما رآنى أيقنت بمعذل * قصير بقاء الوفر غير ضنين
فقامت وفى اجفانها سنة الكرى * تنفض بكفيها خواتم طين
فلما رعاها الليل حث جناحه * مخافة صبح فى الدنان كمين

وهذا من باب استخراج المعنى من معنى احتذى عليه وان فارق ماقصد به اليه وقال ابو تمام حبيب ابن أوس فى مثل قوله والشمس ماردت لغير يوشع البيت

لحقنا باخراهم وقد حرم الهوى * قلوبا عهدنا طيرها وهى وقع
فردت علينا الشمس والليل راغم * بشمس لهم من جانب الخدر تطلع
نضا ضوءها صبغ الدجنة وانطوى * لبهجتها ثوب السماء المجزع
فوالله ما أدرى أأحلام نائم * ألمت بنا أم كان فى الركب يوشع

وقال الرصافى البلنسى يخاطب بعض من أسمه موسى ابياتا بهذا المعنى أولها

مامثل موضعك ابن رزق موضع * زهر يرق وجدول يتدفع

ويقول

وعشية لبست رداء شحوبها * والجو بالغيم الرقيق مقنع
بلغت بنا أمد السرور تألفا * والليل نحو فراقنا يتطلع
فابلل بها زمن الغبوق فقد اتى * من دون قرص الشمس مايتوقع
سقطت ولم يملك نديمك ردها * فوددت ياموسى لوانك يوشع

وقد قال ابن مرج كحل فيما ينحوا هذا المنحى واشار الى قطعة الرصافى هذه

طفل المساء وللنسيم تضوع · والانس ينظم شملنا ويجمع
والزهر يضحك عن بكاء غمامة · ريعت لشيم سيوف برق تلمع
فانعم اباعمران واله بروضة · حسن المصيف بها وطاب المربع
ياشاذن البان الذى دون النقا · حيث التقى وادى الحما والاجرع
الشمس يغرب نورها ولربما · كسفت ونورك كل حين يسطع
افلت فناب سناك عن اشراقها · وجلا من الظلماء ما يتوقع
فامنت ياموسى الغروب ولم اقل · فوددت ياموسى لو انك يوشع

وقال المعرى

ويوشع رد يوحا بعض يوم · وانت متى سفرت رددت يوحا

ويوح اسم من اسماء الشمس وقد اختلف فيه فقال كثير من اللغويين يوح بباء معجمه بواحدة وكذلك

رواه أبو علي البغدادي وقال ابو عمر والمطرزي يوح بياء معجمة باثنتين وكان ينسب في ذلك الى التصحيف والذى نقل عن محمد ابن يزيد انه بالياء المعجمة باثنتين كما ذكره ابو عمر والمطرزي وعلى ماقاله المعري ويروى أن المعري اعترض عليه في هذه اللفظة ببغداد في حلقة ابن المحسن واحتج عليه بكتاب الالفاظ ليعقوب فقال هذه نسخ محدثة غيرها شيوخكم ولكن اخرجوا مافي دار العلم من النسخ العتيقة فاخرجوها فوجدوها مقيدة كما قال وقصته يوشع عليه السلام في رد الشمس عليه شهيرة وهو يوشع بن نون وذكر النسابون انه ابن اخت موسى صلى الله على نبينا وعليه وجاء في الخبر أن موسى عليه السلام وجهه الى اريحا وقيل الى الجبارين و بقيت منهم بقية نخشى ان يحول الليل بينه و بينهم فدعا الله تعالى ان يحبس عليه الشمس ففعل وقال ابن السيد ذكروا ان حبس الشمس كان يوم الجمعة وخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال غزا نبي من الانبياء فقال لقومه لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم يبن بها ولا آخر قد بنى بنيانا ولم يرفع سقفه ولا آخر قد اشترى غنما أو خلفات وهو منتظر ولادتها قال فغزا القرية حين صلاة العصر أو قريبا من ذلك فقال أنت مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها علي فحبست عليه حتى فتح الله عليه وأما حديث علي فخرج الطحاوي عن اسماء بنت عميس من طريقين ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يوحي اليه ورأسه في حجر علي رضي الله عنه فلم يصل العصر حتى غربت الشمس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اصليت ياعلي قال لا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ان كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس قالت اسماء فرأيتها غربت ثم رأيتها طلعت بعدما غربت ووقفت على الجبال والارض قال وهذان الحديثان ثابتان ورواتهما ثقات قلت فليس في الحديث انه غفا كما ذكر في البيت ويجب على الشاعر ان يجتنب ذكر الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم بما كان يشعر بالتشبيه ويضاد ما أمر به من التوقير لهم والتعزيز ويدل على الجرأة في القول وعدم الرعة في الدين ولا سيما المقصد به المبالغة حتى أفهم التفضيل عليهم كبيت المعري وقد تخلص الناظم من هذا الذى حذرنا منه لانه لم يزد على أن أخبر أن هذه المعجزة لم تظهر الا في زمن يوشع عليه السلام أو محمد صلى الله عليه وسلم

يَاقَاتَلَ اللهُ الوُشَاةَ فَلَكَمْ ... سِرٍّ عَلَى الأَلْسُنِ مِنْهُمْ قَدْ فَشَا

وَقَاتَلَ اللهُ الحُدَاةَ فَلَكَمْ ... شَرٍّ عَلَى الأَفْوَاهِ مِنْهُمْ قَدْ جَرَى

وَكَمْ حَدَا بِالقَلْبِ عَنِّي حَدْوُهُمْ ... فِي إِثْرِ كُلِّ أَرْحَبِيٍّ قَدْ خَدَا

مَا المُنْتُ فِي ذَنْبِ النَّوَى بِابْنِ دَايَةٍ ... وَلَا بَنَاتِ العِيدِ بَلْ مَنْ قَدْ حَدَا

ياقاتل الله يا حرف تنبيه أو حرف نداء والمنادى محذوف وقاتل الله الوشاة المراد به هنا الدعاء وهو مما لفظه لفظ الخبر ومعناه الطلب والوشاة جمع واش يقال وشى به الى السلطان وشاية أى سعى به ويقال أيضا وشى كلامه اذا كذب والسر الامر المكتوم وفشا الامر اذا ذاع والحداة جمع حاد والحد وسوق الاينق والغناء لها وبها وقد حدوتها حدوا وحداء وجعل ما يجرى على أفواه الحداة شرا لان حداءهم مما يحمل الابل على أن تسرع السير بالاحبة والارحبيات ابل منسوبة الى أرحب وهى قبيلة من همدان وابن داية هو الغراب وسمى بذلك لانه يقع على داية البعير والداية فقارة الكاهل و بنات العيد نوق من كرائم النجائب تنسب الى فحل منجب وقيل بل هى منسوبة الى العيد وهم حي تنسب اليهم الابل وضبطه بالعين المهملة و يقال خدت الناقة تخدى اذا أسرعت وقد قال أبو الشيص في هذا المعنى

مافرق الاحباب بعد الله الا الابل ... والناس يلحون غراب البين لما جهلوا
وما على ظهر غراب البين تطوى الرحل ... وما اذا صاح غراب فى الديار احتملوا

وما غراب البين الا ناقة أو جمل وقد زاد الناظم زيادة حسنة بقوله من قد حدا وذلك ان الناس جرت عادتهم بان يجعلوا الذنب فى البين للغراب ولذلك يقولون غراب البين فينسبونه اليه ويسمونه حاتما لانه يحتم بالفراق ويسمونه الاعور على جهة التطير له لاجل ذلك وان كان أصح الطير بصرا وقيل بل سمى بذلك لقولهم عورت الرجل عن حاجته اذا رددته عنها فبرأ أبو الشيص الغراب فى ذلك ونسب الذنب الى الابل لكونها هى التى تسير بالاحبة وبرأ الناظم الغراب والابل معا وجعل الذنب فى ذلك للحداة لان الرحيل فى الحقيقة انما هو منهم وانما أخذه من قول ابى الطيب المتنبى يصف الربع بعد ظعن أهله عنه

وما عفت الرياح له محلا ... عفاه من حدا بهم وساقا

ومثل قول ابى الشيص فى المعنى الذى ذهب اليه قول بعضهم

غلط الذين رأيتهم بجهالة ... يلحون كلهم غرابا ينعق
ما الذنب الا للاباعر انها ... مما يشتت جمعهم ويفرق
ان الغراب بيمنه تدنو النوى ... وتشتت الشمل الجميع الاينق

وقال الآخر

يسب غراب البين ظلما معاشر ... وهم أثروا بعد الحبيب على القرب
وما لغراب البين ذنب فأبتدى ... بذم غراب البين لكنه ذنب

وقال الآخر

زعموا بان مطيهم عون النوى ... والمؤذنات بفرقة الاحباب
لو أنها حتى لما ابغضتها ... ولها بهم سبب من الاسباب

وقال أبو العباس المبرد وقد أنصف الابل الذى يقول

الا فرعى الله الرواحل انها ... مطايا قلوب العاشقين الرواحل
على انهن الواصلات عرى النوى ... اذا ما نآى بالآلفين التواصل

تَسنَّمُوا عُوجَ الْمَنَاقِى لِيَتَهَا ... أَلْحَمَهَا عُوج الْمَنَاقِيرِ الْمَنَا
وَفِى السروج وَالْحُدُوجِ وَسْطَهَا ... أُسْدٌ نَدَارَى وَظِبَاءٌ تُدْوَى
تَرْنُوا إِلَىَّ مِنْ كُوًا وَصَاوِصٍ ... بِأَعْيُنٍ مُرَقْمَاتٍ لِلْكُوَا

المناقى جمع منقية وهى ذات النقى وهو الشحم يقال انقت الابل اذا صار فيها نقى والعوج جمع عوجاء والمنا والمنية الموت ويسوغ على تكلف وشذوذ ان يكون أراد المنايا فحذف على حد ما حذف الشاعر فى قوله

كأن ابريقهم ظبى على شرف ... مفدم بسبا الكتان ملثوم

اراد بسبائب الكتان وقد حمل على ذلك قول الشاعر

* تريك المنا برؤس الاسل * وزعموا ان مراده تريك المنايا ولا حاجة بنا الى دعوى ذلك وتكلفه وتسنموا اى ركبوا الاسنمة والمعنى انهم ركبوا اسنام الابل والعظيمة الاسنمة منها اعداد القطع النياق وجعلها عوجا لعظم اسنمتها ثم أخذ يتمنى لها الموت وهى المناحتى تأكل ذوات المناقير العوج من لحمها وهى سباع الطير والحمها اطعمها لحمها من قولهم ألحمت القوم اذا اطعمتهم اللحم يقال منه الحمت ولحمت قاله الاصمعى وانكر غيره الحمت وقد يكون المراد بالحمها امكن منها من قولهم ألحمته سيفى وهو مأخوذ من

الطعام المحرو في بعض روايات الحديث والله لا أحنه السيف وموضع المنار فع على الفاعلية بأحم وكان ينبغى ان لا يبقى لها الشر ولا يدعو عليها لانه قد برأها من ذنب الفراق فى البيت الذى قبل هذا وجمع فى البيت بين المناقير والمناق وذلك نوع من التجنيس مستحسن قد وقع التنبيه عليه قبل وهو الذى فى احدى كلمتيه حرف زائد على حروف الأخرى ويسمى تجنيس الترخيم وتجنيس التذييل والتجنيس الناقص والمنقوص وسماه بعض المتأخرين تجنيس التداخل وتجنيس التضمن وذلك لكون احدى الكلمتين داخلة فى الاخرى ولتضمن المزيدة لحروف الناقصة والحدوج جمع حدج وهو من مراكب النساء والمداراة الملاينة والمداجاة وقوله تدرا أى تختل لتصاد والدرية دابة يستتر بها الصائد فاذا أمكنه الرمى رمى قال الاصمعى وهو غير مهموز وقال ابو زيد مهموزا لانها تدرأ نحو الصيد أى تدفع ومراده فى البيت ان هؤلاء النساء المعبر عنهن بالظباء ممنوعات بالفوارس من قومهن فاذا صرن فى الحدوج دارت الخيل بهن فكن فى وسطها وفيما بينها حتى لا يوجد لهن سبيل الا بالحيلة من ملاينة الحامين لهن وهى المداراة والاحتيال عليهن والتلطف فى صيدهن والوصول اليهن وهو الادّراء وهذا المعنى كثير وهو من باب الارداف وسنفسر الارداف بعد ومن احسن ماوقع فيه لمتأخر قول ابى الغنائم

ظباء حتها الاسد وهى غنية ... بمن حلت عن سطوة وصيال

سجيتها ان ساورتها كتيبة ... تعارضها فى جوذر وغزال

تلم دون البيض بيض صوارم ... وتحطم دون السمر سمر عوال

وقوله ترنوا الى من كوى وصاوص الوصاوص جمع وصواص وهو خرق فى الستر ونحوه على مقدار عين تنظر منه ويقال لثقب البرقع ايضا وصواص والوصواص أيضا البرقع الصغير وللوصاوص فى بيت الناظم محملان أحدهما أن يكون جمع وصواص ويراد به خرق الستر أو ثقب البرقع فتكون اضافة الكوى اليه كاضافة دقيق الحوارى ونحوه وهى اضافة العام الى الخاص الثانى أن يكون جمع وصواص ويراد به البرقع حسبما قدمته فحذفت ياء الجمع وهى ياء فعاليل وتكون الاضافة على الوجه السائغ وقال الشاعر فى هذا المعنى

اذا عجن السوالف مصغيات ... وثقبن الوصاوص للعيون

ارين محاسنا وكنن أخرى ... من الاجساد والبشر المصون

وقال الطرماح

ثقبن وصاوصا حذر الغبارا ... الى من الهوادج للعيون

وفى مقصورة ابن دريد

ياهوليا هل نشدتن لنا ... ثاقبة البرقع عن عينى طلا

وقال الآخر

وكن اذا أبصرننى اوسمعن بى ... برزن فرقعن الكوى بالمحاجر

ولابى الشبل أحد شعراء الدولة العباسية

رأين الشيب قد البسنى أبهة الكهل ... فاعرضن وقد كن اذا قيل ابو الشبل

تسارعن فرقعن الكوى بالاعين النجل

وقال آخر فيما يشبهه

سددن خصاص الخيم حين دخلنه ... بكل لبان واضح وجبين

وما سمعت فى هذا المعنى اعذب لفظا ولا أبدع عبارة من قول مهيار الديلمى مولى الموسوية

خرقن خروقا لنا فى السجوف جعلنا العيون عليها رقوعا

وفى البيت الثانى وهو قوله وفى السروج والحدوج انواع من البديع منها اتفاق السروج والحدوج فى الوزن والمقطع وهو نوع من الترصيع يسميه المتأخرون بالمماثلة ومنها المجانسة بين تدارى وتدرا وهو تجنيس الاشتقاق وقد تقدم الكلام عليه ومنها المعادلة بين الفاظ البيت فى الترتيب برد الاسد الى السروج والظباء الى الحدوج لفا ونشرا ومن امثلتها قول الشاعر

ومقرطق تغنى صفات جماله عن كاسه الملأى وعن ابريقه

فعل المدام ولونها ومذاقها فى مقلتيه ووجنتيه وريقه

ومنها التسهيم قال أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى سألت على بن هارون وما رأيت أعلم بصناعة الشعر منه عن التسهيم فقال هذا لقب اخترعناه نحن قلت فما كيفيته فاجابنى بجواب لم يبرز فى عبارة صحيحة الا أن مفهومه أن صفة الشعر المسهم أن يسبق المستمع الى قوافيه قبل أن ينتهى اليها راويه حتى لو سمع السامع الشطر الاول استخرج الشطر الاخير من قبل أن يسمعه قال وأحسن ماقيل فى ذلك قول جنوب أخت عمرو ذى الكلب

فاقسمت ياعمرو لو نبها ك اذا نبها منك داء عضالا

اذا نبها ليث عريسة مفيتا مبيدا نفوسا ومالا

وخرق تجاوزت مجهوله بوجناء خرق تشكى الكلالا

فكنت النهار بها شمسه وكنت دجى الليل فيه الهلالا

وقد نقل ابن وكيع هذا الكلام الذى يسند الى على بن هرون ثم قال هذا اللقب غير دال على المعنى لفظه وارى الملقب انما قصد الاغراب قلت وقد شرح بعض المتأخرين معنى هذه التسمية فقال التسهيم ان يكون صدر الفقرة أو البيت مقتضيا لعجزه ودالا عليه بما يستدعى المجىء به ليكون الكلام فى استواء اقسامه واعتدال احكامه كالبرد المسهم فى استواء خطوطه يريد أن خطوط البرد لا تكون الوانها الا على ترتيب قد عرف فاذا نظر المقلب للثوب الى أول الصنعة عرف ماينتهى اليه آخرها فى كيفية ترتيب الاصبغة وارتباطها فى مجاورة بعضها بعضا الى طريقة مخصوصة وهذا الذى سموه بالتسهيم هو الذى يسميه قدامة توشيحا وان كان المتأخرون قد فرقوا بين اللقبين ولبعض الناس فى هذا المعنى كلام جامع حسن قال اقتضاء أول الكلام آخره يكون بان يوازى بين لفظين فى الصدر والعجز أو بين معنيين فيكون فى موضع أحدهما فى طرف العبارة دليل على الواقع فى الطرف الآخر أن يكون هنالك قرينة يحصل معها أول الكلام العلم بما فى آخره قلت فمثال القسم الاول قول الشاعر

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

ومثال القسم الثانى قول الآخر

ولو اننى أعطيت من دهرى المنا وما كل من يعطى المنى بمسدد

لقلت لايام مضين الارجعى وقلت لايام اتين ألا ابعدى

ومثال القسم الثالث قول الشاعر

وان وزن الحصا وزنت قوى وجدت حصا ضريبتهم رزينا

لان الذى يوجد مع الوزن الرزانة أو الخفة فدلت قرينة المدح على انه يريد الرزانة والتسهيم فى بيت الناظم ظاهر لانه لما قدم السروج وورد اليه أسد تدارى علم أن الذى يرد على الحدوج ظباء تدرا والبيت الثالث من هذه الابيات وهو قوله ترنو الى من كوا وصاوص مسهم مصدد

وَقَدْ زَهَا بَحْرُ السَّرَابِ ظُعُنًا   يَحْمِلْنَ رَقْمًا مِثْلَ نَخْلٍ قَدْ زَهَا
نَجَائِبٌ قَدْ حَلَّتْ حُمُولُهَا   قَلْبِيَ فِيمَا حَمَلَتْهُ مِنْ نَجَا
أَلْوَتْ بِخَفْضِ الْعَيْشِ عَنَّا أَحْرُفٌ   نَوَاصِبٌ جَاءَتْ لِمَعْنًى فِي السُّرَى

يقال زها السراب الشخص أى يرفعه والسراب الذى يتراءى كأنه ماء والظعن جمع ظعينة وهى المرأة فى الهودج والرقم ضرب من البرود والزهو البسر الملون يقال اذا ظهرت الحمرة والصفرة فى النخل فقد ظهر فيه الزهو وقد زها النخل وأزهى ومعنى البيت أنه شبه الظعن وقد رفعها السراب بالنخل التى تلون فيها الزهو لارتفاعها ولما فى الرقم الذى على هوادجها من الالوان وجمع فى البيت بين زها فى أول البيت وزها فى آخره وهو تجنيس المماثلة وقد تقدم القول عليه ومعنى البيت متداول قدما بين الشعراء قال امرؤ القيس

فشبهتهم فى الآل لما تكمشوا * حدائق دوم أو سفينا مقيرا
أو المكرعات من نخيل ابن يامن * دوين الصفا اللاءى يلين المشقرا

وقال أيضا

تبصر خليلى هل ترى من ظعائن   سوالك نقبا بين حزمى شعبعب
علون بانطاكية فوق عقمة   كجرمة نخل أو كجنة يثرب

المكرعات هى المغروسات فى الماء والانطاكية ثياب عملت بانطاكية والعقمة ضرب من الوشى وجرمة النخل ما يصرم من البسر فشبه ما على الهوادج من ألوان الوشى بالبسر الاحمر والاصفر مع خضرة النخل وقال ذو الرمة

رفعن عليه الرقم حتى كأنه * سلعوق نخل من جوانبها البسر

أى رفعن على البعير وقد قال أبو الطيب المتنبى له فى هذا المعنى وزاد زيادة حسنة

يشتاق عيشهم أنيني خلفهم * تتوهم الزفرات زجر حداتها
وكأنها شجر بدت لكنها * شجر جنيت المر من ثمراتها

أردت البيت الاخير ومما يتعلق بذكر السراب قول ابن الرومى يصف أنه قطعت به أرضا وذكر الآل والليل

تطوى الفلاة وكأن الآل أردية * وتارة وكأن الليل ساجان

والساج الطيلسان الاسود ثم شبه الليل والآل بالبحر فقال وهو بديع

كأنها فى ضحاضيح الضحى سفن * وفى الغمار من الظلماء حيتان

وقوله نجائب قد حلت حولها النجائب من الابل الكرائم المختارة واحدها نجيب والحمول الابل التى تحمل الهوادج والنجا أعواد الهودج ومعنى هذا البيت متداول للشعراء ومن أعذب ما قيل فيه قول بشار بن برد

غدا بعضهم ذات اليمين وبعضهم   شمالا وقلبى بينهم متوزع
فوالله ما أدرى بليل وقد مضت   حمولهم أى الفريقين أتبع

وقد جاء فى البيت الثانى بتجنيس التذييل فيما بين نجا ونجائب وتجنيس الاشتقاق فيما بين حلت وحول وقوله ألوت بخفض العيش الخفض الدعة يقال هم فى خفض من العيش والاحرف جمع حرف وهى الناقة الضامرة الصلبة ونواصب جمع ناصبة من قولهم نصب القوم أى ساروا يومهم وقد يكون من النصب وهو التعب وألوت أى ذهبت يقال ألوى فلان بحق أى ذهب ومنه قولهم ألوت به عنقاء مغرب أى صار بحيث لا يدرك وقد كملت له فى

هذا البيت التورية النحوية في الخفض والاحرف والنواصب وتمم البيت بقوله جاءت لمعنى في السرى فابدع في تكميل التورية اذا النحاة اذا ذكروا الحرف قالوا حرف جاء لمعنى ونبه عليه أبو العلاء المعرى بقوله

حروف سرى جاءت لمعنى أردته   برتني أسماء لهن وأفعال

ومن أكمل ماوقع لابي العلاء في ذلك قوله

وحرف كنون تحت راء ولم يكن   بدال يؤم الرسم غيره النقط

الحرف الناقة الهزيلة وشبهها بالنون في تقوسها واحد ادبارها وراء اسم فاعل من قولك رأيته اذا ضربته في رئته ودال اسم فاعل من قولك دلا يدلو اذا سار سيرا رفيقا قال الرجز * لا تقلواها وادلواها دلوا * والرسم أثر الدار اذا لم يكن له شخص قائم فان كان له شخص قائم فهو طلل ويعني بالنقط نقط المطر يريد انه يقصد رسم الدار الذي غيرته الامطار وكل فيه التورية حيث اوهم انه يريد حروف الهجاء ومن التورية الجارية على مصطلح النحاة ماأنشدنيه شيخنا الاستاذ ابو عبد الله بن هانيء رحمه الله

مالِلنوى مدت لغير ضرورة   ولطالما معرفتي بها مقصورة

ان الخليل وان دعته ضرورة   لم يرض ذلك فكيف دون ضرورة

والتورية تسمى التوجيه وبعضهم يجعلها نوعا من التجنيس وقد ذكرت ذلك قبل وهي أن يكون للفظ معنيان قريب وبعيد فتذكره موهما ارادة القريب وأنت تريد البعيد كما قال عمرو بن أبي ربيعة

ايها المنكح الثريا سهيلا   عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية اذا ما استقلت   وسهيل اذا استقل يمان

أراد بالثريا امرأة وهي الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث بن امية الاصفر بن عبد شمس واراد بسهيل سهيل ابن عبد الرحمن بن عوف وقيل سهيل بن عبد العزيز وأوهم أنه يريد النجمين وقد أولع المتأخرون من المشارقة بالتورية فاتوا فيها بكل ابداع وانشدت لبعضهم من أهل العصر القريب يصف واديا فيه عينان تجريان على موضع كثير الصخور

وواد حكى الخنساء لا في شجونها   ولكن له عينان تجرى على صخر

فجاء في عجز البيت بتورية بديعة وأما قول ابن النبيه

خذوا حذركم من خارجي عذاره   فقد جاء زحفا في كتيبته الخضرا

فهو الغاية في الاحسان الذي ما بعده مذهب وانشدني صاحبنا الفقيه الوزير ابو عبد الله بن الخطيب أعزه الله فيمن طلب أن يستعمل على بعض عمالات المجبى فخيف من تضييعه فادعى ان له مالا يفي بغرم ما يضيع بسببه من ذلك وحلف على دعواه

حلفت لهم بأنك ذو يسار   وذو ثقة وبر في اليمين

ليستندوا اليك بحفظ مال   فتأ كل باليسار وباليمين

ومن التورية البديعة قول بعضهم يصف القلم

وربا كم طويل المد ناحل   مجهد في خدمة البار

وقد وجدنا في بعض النسخ التي بأيدينا بالحاشية ما نصه ومن بديع التورية قول بعضهم

ياسا كنا قلبي المعنى * وليس فيه سواك ثاني

تخلني طائعا فؤادي * وصار اذ حزته مكاني

لأي شيء كسرت قلبي * وما التقى فيه ساكنان

يبادر الحس لميقاتها ودمعه من طرفه جار

وَفَوقَ هَاتِيكَ الحَوَايَا أحْوَرٌ أحْوَى لَهُ لحظٌ على السِّحْرِ احتَوى
قَدِ ادَّعَى رِقّ القُلُوبِ لحظُهُ وَشَهِدَ السِّحْرُ لَهُ فِيمَا ادَّعَى
أدْنَى الجَمَالُ مِنْهُ قَوْسَ حَاجِبِ وَضَمِنَ الطَّاعَةَ عَنْ أهْلِ الهَوى
كَأنّهُ كِسْرَى عَلى كُرْسِيِّهِ وَحَاجِبٌ بِالقَوْسِ مِنْهُ قَدْ دَنَا
مَلَّكَهُ الحُسْنُ القُلُوبَ وَاعْتَنَى مِنْ بَسْطَةِ المُلْكِ لَهُ بِمَا اعْتَنَى
وَسَامَهَا أنْ تَعْبُدَ النَّارَ الَّتِي لَهِيبُهَا مِنْ فَوْقِ خَدَّيْهِ احْتَمَى
فَهُوَ بِمَا قَدْ سَامَ أرْبَابَ الهَوَى حَذْوَ مُلُوكِ فَارِسٍ قَدِ احْتَذَى

الحوايا جمع حوية وهى كساء محشو حول سنام البعير وهى السوية أيضا قال عمير بن وهب الجمحى يوم بدر حين نظر الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيت الحوايا عليها المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع والحوية لاتكون الا للجمال والسوية قد تكون لغيرها والحوة سمرة الشفة يقال رجل احوى وامرأة حوا وقد حويت والحور شدة بياض العين فى شدة سوادها يقال امرأة حوراء ورجل احور واحورت عينه احورارا قال الاصمعى لاأدرى ما الحور فى العين وقال ابو عمرو الحور ان تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر قال وليس فى بنى آدم حور وانما قيل للنساء حور العيون لانهن شبهن بالظباء والبقر قلت نظير ماذهب اليه ابو عمرو تسميتهم المرأة بالخنساء وانما ذهبوا الى تشبيها بالبقرة ولو أرادوا أن بها خنسا لكان ذما وكسرى ملك الفرس وكل من يملك الفرس تسميه العرب كسرى كما تسمى كل من يملك الروم هرقل وسنذكر بعد فصلا فيما تسمى به العرب ملوك الامم ان شاء الله * وبسطة الملك سعته ويقال سمته كذا أى ألزمته اياه وأردته عليه ومنه سمت فلانا خسفا ويقال احتذى فلان حذو فلان أى اقتدى به وأصله من قولهم حذوت النعل بالنعل اذا قددت كل واحدة على صاحبتها ويقال حذو القذة بالقذة وقد انشدت قبل فى تشبيه الحاجبين بالقوس قول الشاعر

غدا موترا من حاجبيه حنية لها البلج الشفاف قبضة عاج

وقد اتفق لهذا القائل من تحقيق التشبيه بذكر الايتار وتصوير البلج فى صورة قبضة العاج ما بلغ به الغاية على قلة اصابة المتأخرين فى التشبيه وخلو دواوينهم من الاحسان فيه * ذكر حاجب وقوسه * وحاجب الذى أشار الى دنوه بالقوس من كسرى هو حاجب بن زرارة التميمى وكان قد وفد على كسرى فى جدب أصاب مضر بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال اللهم اشدد وطأتك على مضر وابعث عليهم سنين كسنى يوسف فاتى حاجب كسرى لما منع تميما من ريف العراق فاستأذن عليه فاوحى اليه أسيد العرب انت قال لا قال فسيد مضر أنت قال لا قال فسيد بنى أبيك قال لا فاذن له فلما دخل عليه قال له من أنت قال سيد العرب قال اليس قد أوحيت اليك أسيد العرب انت فقلت لا حتى اقتصرت بك على بنى أبيك فقلت لا قال له أيها الملك لم أكن كذلك حتى دخلت عليك فلما دخلت عليك صرت سيد العرب فقال كسرى املؤا فاه دراهم قال انكم معشر العرب غدر فان أذنت لكم أفسدتم البلاد وأغرتم على العباد وآذيتمونى * قال حاجب فانى ضامن للملك أن لا يفعلوا قال له فمن لى بان تفى أنت قال ارهنك قوسى فلما جاء بها ضحك من حوله وقالوا لهذه العصا يفى قال كسرى ما كان ليسلمها فى

شئ أبدا فقبضها منه وأذن لهم أن يدخلوا الريف ثم ان مضر أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله هلك قومك وأكلتهم الضبع يريدون الجوع والعرب تسمى السنة الضبع والذيب قال جرير

* من ساقة السنة الشهباء والذيب * فدعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم فاحيوا أى سقوا فصاروا فى الحيا والخصب ومات حاجب بن زرارة فارتحل عطارد بن حاجب الى كسرى يطلب قوس أبيه فقال له ما أنت الذى رهنتها قال اجل قال فافعل راهنها قال هلك وهو ابى وقد وفى له قومه ووفى هو للملك فردها عليه وكساه حلة فلما وفد الى النبي صلى الله عليه وسلم عطارد بن حاجب وهو رئيس تميم وأسلم على يديه اهداها الى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها فباعها من رجل من اليهود باربعة آلاف درهم وفيما كان من أمر قوس حاجب حين رهنها عند كسرى يقول ابو تمام فى قصيدته التى مدح بها أبا دلف العجلى

اذا افتخرت يوما تميم بقوسها * فخارا على ماوطدت من مناقب

فانتم بذى قار أمالت سيوفكم * عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

وسيأتى ذكر ذى قار بعد هذا ان شاء الله وقد جعل الناظم اللحظ معيارق القلوب وجعل السحر شاهدا بصحة دعواه ثم شبهه فى شدة سلطانه على القلوب واستيلائه عليها وتملكه اياها بكسرى فى سلطانه ومثل الخال حين أدنى قوس الحاجب من ذلك اللحظ ثم ضمن له طاعة أهل الهوى بحاجب حين أدى قوسه حتى دفعها الى كسرى وضمن له طاعة العرب واتبع هذا الغرض بماذكره من تملكه القلوب وماسامها من عبادة النار التى أضرمها الحياء بخديه تمثيلا لذلك بأحوال الملوك فارس وماحملوا أهل طاعتهم عليه من عبادة النار فاستقصى المعنى وكمله وتم له المقصد الذى قصد له وقال أبو اسحاق بن خفاجة فى معنى البيت السادس من هذه الابيات

عيني به عين مجوسية * تعبد من وجنته نارا

وقال ابراهيم بن سهل اليهودى فزاد فى المعنى

وألمى بقلبي منه جمر مؤجج * أراه على خديه يندى و يبرد

يسائلني من أى دين مداعبا * وشمل اعتقادى فى هواه مبدد

فؤادى حنيفي ولكن مقلتى * مجوسية من خده النار تعبد

وللحسام بن بهرام الحاجرى من المشارقه فيما يشبه هذا

عجبت لخال يعبد النار دائما * بخدك لم يحرق بها وهو كافر

وماأخضر ذاك الخد نبتا وانما * لكثرة ماشقت عليه المرائر

ومذ خبرونى أن غصنا قوامه * تيقنت أن القلب منى طائر

وهذا البيت الاخير بديع المعنى وعلى ذكر النار والمجوس أنشد هنا قول بعضهم

ابريقنا عاكف على قدح * كأنه الام ترضع الولدا

أوعابد من بنى المجوس اذا * توهم الكاس شعلة سجدا

وقال الآخر وهو القاضى ابو الفتح بن قادوس

وكلما رام نطقا فى معاتبتى * سددت فاه بنظم اللثم والقبل

وبات بدر تمام الحسن معتنقى * والشمس من فلك الكاسات لم تمل

فبت منها أرى النار التى سجدت * لها المجوس من الابريق تسجد لى

وجانس فى البيت الاول من هذه الابيات بين الحوايا واحوى واحتوى وهذا النوع من التجنيس داخل فى النوع المسمى بتجنيس الاشتقاق الذى قدمنا الكلام عليه وقد نص بعضهم على أن المعتبر فيه اتفاق مسموع حروف

الكلمتين دون ما يرجعان اليه فى الاصل وانما نبهت على ذلك لان أصول احوى مخالفة لاصول احتوى وجانس ايضا بين احوى واحور فاتفقت الكلمتان فى الصيغة وأكثر الحروف وقد ذكرت هذا النوع من التجنيس قبل ومن أمثلته قول الشاعر

مابعينى هذا الغزال الغرير * من فتون مستجلب بفتور

وقد فصل بعض المتأخرين هذا النوع على ضربين ضرب يتقارب فيه مخرجا مالم يتحد من حروفه وسماه المضارع وذلك نحو قوله تعالى وهم ينهون عنه وينئون عنه وضرب لا يتقاربان فيه كقول الشارع

نظرت الكثيب الاجرع الفرد نظرة * فرد الى الطرف يدمى ويدمع

قلت ومن هذا القبيل قوله احور واحوى وأما البيت الثانى فصدده

وَجْهٌ بَدَا بِمَشْرِقِ الْحُسْنِ بِهِ * بَدْرٌ مُنِيرٌ تَحْتَ لَيْلٍ قَدْ غَسَا

طَحَا فُؤَادِى فِى الْهَوَى بِي نَحْوَهُ * يَالَيْتَ قَلْبِى فِى الْهَوَى بِيَ مَاطَحَا

مَتَى يُرْجَى الصَّحْوُ مِنْ سُكْرِ الْهَوَى * صَبٌّ بِالْحَاظِ الْمَهَى قَدِ انْتَشَا

يقال غسا الليل يغسو اغسوا وغسى يغسى وأغسى يغسى اذا أظلم وقال الشاعر وهو ابن احمر

فلما غسى ليلى وأيقنت أنها * هى الارب جاءت بام حبوكرا

و يقال طحا به قلبه أى ذهب به قال علقمة بن عبده

طحا بك قلب فى الحسان طروب * بعيد الشباب عصر حان مشيب

ومنه طحا الرجل اذا ذهب يقال ما أدرى أين طحا و يا فى قوله و ياليت قلبى فى الهوى حرف تنبيه ولا يبعد أن يكون حرف نداء والمنادى محذوف على أن بعض الشيوخ يفرق بين يا هذه اذا وقعت قبل ليت ورب وحبذا وقبل الدعاء والامر فيجعلها اذا وقعت قبل ليت ورب وحبذا احرف تنبيه لاغير و يجعلها قبل الدعاء والامر للنداء ووجه ذلك عنده كثرة وقوع المنادى قبل الدعاء والامر وقلته قبل ليت ورب وحبذا وفيما ذكره نظر و يقال صحا فلان من سكره اى أفاق فهو صاح وانتشى فلان اذا سكر فهو نشوان بين النشوة بالفتح ورجل نشيان للاخبار بالياء بين النشوة بالكسر وانما قالوه بالياء للفرق بينه و بين النشوان والمهى جمع مهاة وهى البقرة الوحشية وتجمع مهوات والباء فى قوله وجه بدا بمشرق الحسن به للتجريد قال ابو الفتح ابن جنى وقد ذكر التجريد هو فصل من فصول العربية حسن ظريف رأيت أبا على رحمه الله به معنيا ولم يعقد عليه بابا لكنه وسمه فى بعض الفاظه بهذه السمة فانقت له واستقريته قال ومعناه أن العرب قد تعتقد أن فى الشئ من نفسه معنى آخر كانه حقيقته ومحصوله وذلك مثل قولهم لئن لقيت زيدا لتلقين منه الاسد ولئن سألته لتسألن منه البحر فظاهر هذا ان فيه من نفسه اسدا و بحرا وهو بعينه الاسد والبحر لا أن هناك شيئا منفصلا عنه وممتازا منه قال ومنه قوله تعالى لهم فيها دار الخلد وقول الاعشى

لات هناذكرى جبيرة أومن * جاء منها بطائف الاهوال

وهى نفسها الجائية بطائف الاهوال ثم قال وقد تستعمل الباء هنا فتقول لقيت به الاسد وجاودت به البحر أى لقيت بلقائى اياه الاسد ومنه مسألة الكتاب أما أبوك فلك أب قال سيبويه أى لك منه أو به فجعل الباء هنا تقع موقع من ومن التجريد قول الشاعر

فلئن بقيت لارحلن لغزوة * نحوى الغنائم أو يموت كريم

ومنه قول الشاعر

أبأت بنو مروان ظلما دماءنا * وفى الله ان لم ينصفوا حكم عدل

أى فى عدل الله وقد جعل بعضهم من التجريد مخاطبة الرجل نفسه كما قال طحا بك قلب فى الحسان طروب ومن هذا النحو قول ذى الرمة

وليل كأثناء الرويزى جبته * بأربعة والشخص فى العين واحد
أحم علافى وأبيض صارم * وأعيس مهرى وأروع ماجد

أراد بالاحم العلا فى الرحل منسوب الى علاف رجل من قضاعة تنسب اليه الرحال وأراد بالاروع الماجد نفسه وهو تجريد ظاهر لان قوله جبته بأربعة ثم عددها الاروع الماجد مشعر بأنه شخص آخر وهو معنى التجريد فتأمله قلت وقول الناظم وجه بدا بمشرق الحسن به من هذا القبيل الا ترى أنه لو قال منه موضع به لصح على هذا المعنى الذى ذكرناه وذلك أن الوجه هو البدر المنير بعينه وقوله تحت ليل قد غسى كنى بالليل عن الشعر وقد قال ابو الطيب

كشفت ثلاث ذوائب من شعرها * فى ليلة فأرت ليالى أربعا
واستقبلت قمر السماء بوجهها * فارتنى القمرين فى وقت معا

وقال ابن المعتز

سقتنى فى ليل شبيه بشعرها * شبيهة خديها بغير رقيب
فازلت فى ليلين بالشعر والدجى * وشمسين من كاس ووجه حبيب

وقال ابن المعتز أيضا ويروى لغيره

نشرت غدائر شعرها لتجننى * خوفا على من الرقيب المحنق
فكأننى وكأنها وكأنه * صبحان باتا تحت ليل مطبق

وقال ابن المعتز أيضا

موسومة بالحسن معشوقة * تميت من شاءت وتحييه
بات يرينها هلال الدجا * حتى اذا غاب ارتنيه

ولى من أبيات

ليل وليل ففرع وارد ودجا * طالا فواحزنى مما أكابده
شاهدت فى ذاك بدرا لا أهيم به * وهمت فى ذا ببدر لا أشاهده

ولى أيضا

غزال انس كم استد نيته فنئا * عنى وأعرض مزورا بجانبه
طالت على ليالى فى هواه كما * طالت عليه ليال من ذوائبه

ومما يتعلق بهذا المعنى قول بعضهم

حلقوا رأسه ليكسوه قبحا * غيرة منهم عليه وشحا
كان صبحا عليه ليل بهيم * فمحوا ليله وابقوه صبحا

وقوله ياليت قلبى فى الهوى بى ما طحا لا يصح أن يتعلق المجرور وهو بى بطحا لان ما النافية من حروف الصدر لا يعمل ما بعدها فيما يتقدمها وانما يتعلق بمحذوف يقدر له من معنى طحا أو تكون الباء هنا تبيينا بمنزلة التى تقع بعد مرحبا ذكر هذا الوجه الثانى بعضهم فى قوله تعالى قال انى لعملكم من القالين وما كان نحوه وفيه نظر

طَوَى زَمَانُ الوَصْلِ عنهُ دَهرهُ * فَهُو على أشجَانِهِ قد انطَوَى
وليس يَخلُوا دَهرَهُ مِنْ مُذَكِّرٍ * فِى كلِّ مَايسْمَعهُ وَمَا يَرَى

أَهْدَتْ إِلَيْهِ أُمُّ مَهْدِيٍّ أَسًى   أَضَلَّهُ عَنْ رُشْدِهِ وَمَا هَدَى

الاشجان جمع شجن والشجن الحزن يقال شجن بالكسر فهو شاجن وأشجنه غيره وشجنه أى أحزنه والاسى الحزن يقال أسى الرجل يأسى أسى أى حزن وقد اسيت لفلان أى حزنت له ونصب دهره على الظرف وفى يخلوا ضمير يعود على صب من قوله صب على أشجانه قد انطوى * ويجوز الرفع فى دهره على أن يكون فاعلا بيخلوا وقوله اهدت اليه من الهدية يقال اهديت له واليه وام مهدى كنية الحمامة يريد انها أثارت حزنه وحركت لواعج الجوى فى قلبه ببكائها وضرب الاهداء مثلا وسأل مؤدب ولد هشام ابن عبد الملك اسماعيل المخزومى بين يدى هشام عن كنية الفيل فقال أما الفيل الذى قدمت به الحبشة فاسمه محمود وكنيته أبو العباس والبعير ابو صفوان وابو ايوب والاسد ابو الحارث والذيب ابو جعدة والغزال ابو الحسين والثعلب أبو الحصين والحرباء ابو قادم والضفدع ابو غائص والفرس ابو طالب والبرذون ابو المضاء والبغل ابو الاثقال والحمار ابو زياد والغراب ابو زاجر والحمام ابو مهدى والجرادة أم عوف والضبع أم عامر والهرة أم خراش والدجاجة أم جعفر والفارة ام فاسق والحية ام يقظان والعقرب أم ساهر والخنفساء أم سالم والكلب ابو خالد والديك ابو حسان وابو المنذر وابن آوى ابو معاوية والدينار ابو الحسن والدرهم أبو ناجح فاستضحك هشام وظن أنه يعنى بابى معاوية بن ابى سفيان وقال تقدم هنا ودعا بالطست والماء فلما حضرا قال يا أمير المؤمنين قل له ما كنيتهما فقال هشام لمؤدب ولده ما كنيتهما قال لا أدرى فقال هشام لاسماعيل بحقى عليك ما كنيتهما فقال الطست ابو كامل والابريق ابو الفراق والماء ابو حيان والاشنان ابو النقا والمنديل ابو الهنا والمصباح ابو الرضى والخبز ابو جابر والملح ابو صابر والبقل ابو جميل والثريد ابو نافع واللحم ابو الخصيب والخل ابو عامر والزيت ابو المبارك والعسل أبو ميمون والجبن أبو مسافر واللبن ابو الابيض والكامخ ابو معاذ والفالوذج ابو العلاء والخبيص ابو الشهى والتمر ابو عون والسويق ابو عاصم والنعل ابو ساكن والريحان ابو النضر والنبيذ ابو الفرح والعصيدة أم رزين والقصعة ام ثرود فاستضحك هشام حتى استلقى وأمر له بعشرة آلاف درهم فاخذها قلت نقلت هذه القصة بطولها لما تضمنته من أن الحمام يكنى أبا مهدى والكنى كثيرة لو ذهبت الى استقصاء العربى منها والمولد فى هذا المجموع لخرج بى الى الطول الممل وقوله وما هدى من الهدى يقال هداه الله هدى قال الله تعالى وأضل فرعون قومه وما هدى ومن مليح ما ورد فى معنى البيت الثانى وهو قوله وليس يخلوا دهره من مذكر قول مسلم بن الوليد

يذكرنيك الدين والفضل والحجى * وقيل الخنا والعلم والحلم والجهل
فالقاك عن مذمومها متنزها * وألقاك فى محمودها ولك الفضل

وقال الآخر

يذكرنيهم كل خير رأيته * وشر فما انفك منهم على ذكر

يَا قَاتَلَ اللهُ الْحَمَامَ فَلَكَمْ   أَبْكَى عُيُونَ الْعَاشِقِينَ اِذْ بَكَى
هَاجَتْ بِدَوْرَانَ لِقَيْسٍ لَوْعَةً   وَأَذْكَرَتْهُ دَارَ حِبٍّ قَدْ نَأَى

يا حرف تنبيه أو حرف نداء والمنادى محذوف ومنه قول الله عز وجل فى قراءة الكسائى الا يا اسجدوا وقد حمل على الوجهين تقديره على انه حرف نداء يا قوم اسجدوا وقول الشاعر * الا يا اسلمى يا دارمى على البلى وقوله * الا يا اسلمى ثم اسلمى ثم يا اسلمى * وقولهم قاتل الله فلانا يستعمل عند الاستعظام لما يصدر عن الرجل أو غيره والتعجب منه وان كان أصله الدعاء بالشر فقد أخرجته العرب فى اكثر مخاطباتها عن ذلك

الى معنى التعجب والاستعظام وقد سمع بعضهم يقول قاتل الله أمة فلان ما أفصحها سألتها كيف كان المطر بارضكم فقالت غثنا ماشئنا وانما أراد التعجب من فصاحتها وكذلك يفعلون اذا أرادوا المبالغة فى مدح أحد بالبراعة فى الشعر قالوا قاتله الله ما اشعره وما أفصحه وهذا من ايراد المدح فى صورة الذم وهو من بليغ كلامهم وكأن قائل ذلك يريد أن الممدوح قد حصل فى رتبة من يشتم ويدعى عليه حسداله لما ظهر له من الفضل على أبناء جنسه ولما بان له من الشفوف اذ الفاضل هو الذى يحسد ويوقع فى عرضه والناقص لا يلتفت اليه ولا يرى قال الشاعر

ولا خلوت الدهر من حاسد * وانما الفاضل من يحسد

وعكس هذا الباب اخراج الذم فى صورة المدح لان ذلك أشد على المذموم من لفظ الذم بعينه لان فى ذلك مع الذم ضربا من الهزؤ به ومن ايراد الذم بصورة المدح قوله تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم ومن ذلك قول الشاعر

قبيلة لا يغدرون بذمة * ولا يظلمون الناس حبة خردل

وقول الآخر

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة * ومن اساءة أهل السوء احسانا

وقد يحمل قوله يا قاتل الله الحمام على ظاهره من الدعاء و يكون سبب دعائه عليها على هذا المأخذ ما تثيره من الاحزان وتهيجه من الغرام والحمام عند العرب ذوات الاطواق نحو الفواخت والقمارى وساق حر والقطا والوراشين وأشباه ذلك يقع على الذكر والانثى لان الهاء انما دخلت على انه واحد من جنس لا للتأنيث يقال حمامة ذكر وحمامة انثى وقيل الحمام كل ما كان بريا لا يألف البيوت وقد اختلفت عبارة الشعراء عن سجع الحمام فمنهم من يعبر عنه بالغناء ومنهم من يعبر عنه بالبكاء والنوح وقرىء على أبى الحسين ابن سراج قول الشاعر

لقد تركت فؤادك مستجنا * مطوقة على فنن تغنا

يميل بها وتركبه بلحن * اذا ما عن للمحزون انا

فقال ابن سراج انما تكون أصوات الحمام على قدر أحوال المستمع فاذا سمعها من يطرب فيتغنى سميت غناء واذا سمعها من يحزن سميت اصواتها بكاء وحزنا ونظم معنى هذا الكلام بن قاضى ميلة فقال

لقد عرض الحمام لنا بلحن * اذا صغى له ركب تلاحا

زها قلب الخلى فقال غنى * وبرح بالشجى فقال ناحا

قلت وكان قائل هذا البيت يريد ان يجيب عما وقع السؤال عنه فى بيت ابى العلاء المعرى حيث يقول

ابكت تلكم الحمامة أم غنـــت على فرع غصنها المياد

وقد قال حبيب بن أوس

لا تنشجن لها فان بكاءها * ضحك وأن بكاءك استغرام

هن الحمام فان كسرت عيافة * من حائهن فانهن حمام

ومن أبدع ما ورد فى بيت حبيب الاول قول الشاعر

نسب الناس للحمامة حزنا * وأراها فى الحزن ليست هنالك

خضبت كفها وطوقت الجيـــد وغنت وما الحزين كذلك

وأحسن ابو العلاء المعرى فى قوله

وغنت لنا في دار سابور قينة ... من الورق مطراب الاصائل مهال
رأت زهرا غضا فهاجت بمزهر ... مثانيه احشاء لطفن وأوصال
فقلت تغني كيف شئت فانما ... غناؤك عندي يا حمامة أعوال
وتحسدك البيض الخوالي قلادة ... بجيدك فيها من شذا المسك تمثال
فاقسمت ماتدري الحائم بالضحى ... أأطواق حسن تلك ام تلك أغلال

وعلى ذكر الاطواق قد اجاد التهامي في قوله

ولو بكت الورق الحائم شجوها ... بدمعي محا أطواقهن انسجامها

وقال الحاجري ... حكم الغرام الحاجري باسرها ... فغدت وفي أعناقها الاطواق

ودوران موضع ذكر البكري انه بين قديد والجحفة وضبطه بفتح الدال هكذا قيده بعض الضابطين من الشيوخ

﴿ ذكر قيس المجنون ﴾

وقيس هذا هو مجنون بني عامر وهو ابن الملوح وقيل بن معاذ أحد بني جعدة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وقد اضطربت الاقوال في مجنون بني عامر اضطرابا كثيرا وقد حكى عن الاصمعي قال سألت اعرابيا من بني عامر ابن صعصعة عن المجنون العامري فقال وعن أيهم تسألني فقد كان منا جماعة من المجانين فقلت عن الذي كان يشبب بليلى قال كل قد كان يشبب بليلى وحكى عن ابن الكلبي قال حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون وقال الاشعار التي يرويها الناس للمجنون ونسبها اليه وقال الجاحظ ما ترك الناس شعرا مجهول القائل في ليلى الا نسبوه الى قيس المجنون ولا شعرا فيه لبنى الا نسبوه لقيس بن ذريح وانما أشار الناظم الى قوله من قطعة سنذكرها بعد

ألا يا حمامي قصر دوران هجتما ❊ على الهوى لما تغنيتما ليا

وقال أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة كان المجنون يهوى ليلى بنت مهدي بن سعد العامرية وتكنى ام مالك وهما حينئذ صبيان فعلق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلهما فلم يزالا كذلك حتى كبرا وحجبت عنه ويدل على ذلك قوله

تعلقت ليلى وهي ذات ذؤابة ❊ ولم يبد للاتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم ياليت اننا ❊ الى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

وذكر عن أحد بني مرة أنه خرج الى أرض بني عامر ليلقى المجنون قال فدللت على محلته فاتيتها فاذا أبوه شيخ كبير واخوة له رجال واذا نعم كثير وخير ظاهر فسألتهم عنه فاستعبروا جميعا وقال الشيخ لهو كان آثر في نفسي من هؤلاء وأحبهم الي وانه هوى امرأة من قومه والله ما كانت تطمع في مثله فلما أن فشا أمره وأمرها كره أبوها أن يزوجها منه بعد ظهور الخبر فزوجها من غيره فذهب عقل ابني ولحقه خبل وهام في الفيافي وجدا عليها فحبسناه وقيدناه فكان يعض لسانه وشفتيه حتى خفنا أن يقطعهما فخلينا سبيله فهو يهيم في الفيافي مع الوحوش يذهب اليه كل يوم بطعامه فيوضع حيث يراه فاذا تنحوا عنه جاء فأكل منه قال فسألتهم أن يدلوني عليه فدلوني على فتى من الحي كان صديقا له وقالوا انه لا يأنس الا به ولا يأخذ أشعاره عنه غيره فأتيته فسألته أن يدلني عليه فقال ان كنت تريد شعره فكل شعر قاله الى أمس عندي وأنا ذاهب اليه غدا فان كان قال شيئا اتيتك به فقلت بل دلني عليه لآتيه فقال له ان نفر منك نفر مني فيذهب شعره فأبيت الا أن يدلني عليه فقال اطلبه في هذه الصحاري فاذا رأيته فادن منه مستأنسا ولا تره انك تهابه فانه يتهددك ويتوعدك ان يرميك بشيء فلا يروعنك واجلس صارفا بصرك عنه والحظه أحيانا فاذا رأيته قد سكن من نفاره فانشده شعرا غزلا وان كنت تروي من شعر قيس بن ذريح شيئا

فانشده اياه فانه معجب به فطلبته يومي الى العصر فوجدته جالسا على رمل قد خط باصبعه خطوطا فدنوت منه غير منقبض فنفر مني نفور الوحش من الانس والى جانبه احجار فتناول حجرا وأعرضت عنه فمكث ساعة كانه نافر يريد القيام فلما طال جلوسي سكن وأقبل يخط باصبعه فاقبلت عليه وقلت قد احسن والله قيس بن ذريح حيث يقول

ألا يا غراب البين ويحك نبني * بعلمك في لبنى وأنت خبير
فان أنت لم تخبر بشئ علمته * فلا عشت الا والجناح كسير
ودرت باعداء حبيبك فيهم * كما قد ترانى بالحبيب ادور

فاقبل على وهو يبكي فقال أحسن والله وأنا أحسن قولا منه حيث أقول

كان القلب ليلة قيل يغدى * بليلى العامرية أو يراح
قطاة غرها شرك فباتت * تجاذبه وقد علق الجناح

فامسكت عنه هنيئة ثم أقبلت عليه فقلت وأحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول

واني لمفن دمع عيني بالبكا * حذارا لما قد كان أو هو كائن
وقالوا غدا أو بعد ذاك بليلة * فراق حبيب لم يبن وهو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتي * بكفيك الا أن ما حان حائن

قال فبكى والله حتى ظننت أن نفسه قد فاضت وحتى رأيت دموعه قد بلت الرمل الذي بين يديه ثم قال أحسن لعمر والله وأنا والله أشعر منه حيث أقول

وادنيتني حتى اذا ماسبيتني * بقول يحل العصم وسط الاباطح
تناءيت عني حين لا لي حيلة * وخلفت ماخلفت بين الجوانح

ثم سنحت له ظبية فوثب يعدو خلفها حتى غاب عني وانصرفت وعدت من غد فطلبته فلم أجده وجاءت مرأة كانت تصنع له طعاما الى الطعام فوجدته بحاله فلما كان في اليوم الثالث غدوت وجاء أهله معي فطلبناه يومافلم نجده وغدونا في اليوم الرابع نستقرى أثره حتى وجدناه في واد كثير الحجارة خشن وهو ميت بين تلك الحجارة فاحتمله أهله فغسلوه وكفنوه ودفنوه فيقال انه لم تبق فتاة من بني جعدة ولا في الحريش الا خرجت حاسرة صارخة عليه تندبه واجتمع فتيان الحي يبكون عليه أحر بكاء وينشجون أشد نشيج وحضرهم حي ليلى معزين وأبوها معهم فكان أشد القوم جزعا وبكاء عليه وجعل يقول ماعلمنا أن الامر يبلغ كل هذا ولكني كنت امرأ عربيا اخاف من العار وقبح الاحدوثة مايخافه مثلي فزوجتها وخرجت عن يدي ولو علمت أن أمره يجري على هذا ما أخرجتها عن يده ولا احتملت ما كان علي في ذلك قال فاري يوم كان أكثر باكية وباكيا على ميت من يومئذ ويقال ان المجنون مر ذات يوم بزوج ليلى وهو جالس يصطلي في يوم شات وقد أتى ابن عم له في حي المجنون لحاجة فوقف عليه ثم أنشأ يقول

بعيشك هل ضممت اليك ليلى * قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك قرون ليلى * رفيف الاقحوانة في نداها

فقال اللهم إذ حلفتني فنعم فقبض المجنون بكلتي يديه قبضتين من الجمر فما فارقهما حتى سقط مغشيا عليه وسقط الجمر مع لحم راحتيه فقام زوج ليلى مغموما بفعله متعجبا ومر به نفر من أهل اليمن فوقفوا ينظرون اليه فانشد

الا أيها الركب اليمانون عرجوا * على فقد أمسى هواي يمانيا
نسائلكم هل سال نعمان بعدنا * وحب الينا بطن نعمان واديا

وهي أبيات يقول فيها

ألا يا حمامي قصر دوران هجتما * على الهوى لما تغنيتما ليا

وقد انشدت هذا البيت قبل ونبهت على أنه البيت الذي وقعت اليه اشارة الناظم

فأبكيتماني وسط صحبي ولم أكن * ابالي دموع العين لو كنت خاليا

فوالله اني لا أحب لغير أن * تحل بها ليلى البراق الاعاليا

ويا أيها القمريتان تجاوبا * بلحنكما ثم أسجعا علانيا

فان انتما أطربتما وأردتما * لحاقا باطلال الغضا فاتبعانيا

ومما ينسب الى المجنون أيضا في الحمام وقد مر بواد في أيام الربيع وحمامه تجاوب

ألا يا حمام الايك مالك باكيا * أفارقت إلفا أم جفاك حبيب

دعاك الهوى والشوق لما ترنمت * هتوف الضحى بين الغصون طروب

تجاوب ورقاقد أذن لصوتها * فكل لكل مسعد ومجيب

ويقال ان أباه حج به ليدعو الله عز وجل في الموقف أن يعافيه فسار معه ابن عمه زياد بن كعب بن مزاحم فمر بحمامة تدعو على ايكة فوقف يبكي فقال له زياد اي شيء هذا ما الذي يبكيك سر بنا نلحق الرفقة فقال

أأن هتفت يوما بواد حمامة * بكيت ولم يعذرك بالجهل عاذر

دعت ساق حر بعد ما علت الضحى * فهاج لها الاحزان ان ناح طائر

تغنى الضحى والصبح في مرجحنة * كثاف الاعالي تحتها الماء زاخر

كان لم يكن بالغيل أو بطن ايكة * أو الجزع من بطن الاشاءة حاضر

يقول زياد أن رأى الحي هجروا * أرى الحي قد ساروا فهل أنت سائر

واني وان غال التقادم حاجتي * ملم على أوطان ليلى فناظر

وحكي أن المجنون كان ذات ليلة مع أصحاب له من بني عمه وهو وله يتلظى ويتململ وهم يعظونه ويحدثونه حتى هتفت حمامة من سرحة كانت بازائهم فوثب قائما وقال

لقد غردت في جنح ليل حمامة * على الفها تبكي واني لنائم

كذبت وبيت الله لو كنت عاشقا * لما سبقتني بالبكاء الحمائم

ثم بكى حتى سقط على وجهه فما أفاق حتى حميت الشمس عليه في غدقلت والمعروف أن هذين البيتين لنصيب

واضْرَمَتْ مِن لَوْعَةِ النَّجْدِيّ في بُسْتَانِ ابْرَاهِيمَ مَا كَانَ خَبَا

اضرمت اشعلت واللوعة حرقة الحب يقال لاعه الحب يلوعه والتاع فؤاده أي احترق من الشوق والبستان الحديقة وخباطفئ يقال منه خبت النار تخبو إخبوّا والنجدي هذا هو اعرابي من نجد قدم العراق فسمع غناء حمائم في بستان ابراهيم بن المهدي فاشتاق الى وطنه فقال

وفي بستان ابراهيم غنت * حمائم بينها فنن رطيب

فقلت لها وقيت سهام رام * ورقط الريش مطعمها الحبوب

كما هيجت ذا شجن غريبا * على أشجانه فبكى الغريب

وابراهيم الذي ينسب اليه هذا البستان هو ابراهيم بن أمير المؤمنين محمد المهدي بن أمير المؤمنين ابي جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن علي ابي الاملاك بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم يكنى اباسحاق

وأمه شكلة أمةمولدة وهو أخو الرشيد وعم المأمون كان عاقلا فهما أديبا شاعرا راوية للشعر وأيام العرب خطيبا فصيحا حسن المعارضة وانما غض منه أنه كان أشد خلق الله اعظاما للغناء واحرصهم عليه وكان اذا قيل له فى ذلك قال انما اصنع الغناء تطربا لا تكسبا واغنى لنفسى لا للناس وذكر ابو الفرج الاصبهانى أن اسحاق الموصلى كان يفضله على جميع ولد عبد الله بن عباس لا يستثنى خليفة ولا غيره وذكر انه قيل له عند ذلك فالغناء الذى اشتغل به فقال ماتم له الفضل الا بذلك وهذا من اسحاق غلو شديد فنقله على سبيل الاغراب ولما اجمع بنو العباس على خلع المأمون هم ومواليهم وشيعهم لسبب ليس هذا موضع ذكره و بايعوا ابراهيم بن المهدى فبلغ ذلك المأمون فسار الى العراق فلما بلغ ابراهيم مسير المأمون اليه صلى بالناس يوم النحر واختفى فى اليوم الثانى ودخل المأمون بغداد و بث العيون فى طلب ابراهيم بن المهدى فظفر به وسيق اليه بحجل فى قيوده فوقف على طرف الايوان وقال السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته فقال المأمون لاسلم الله عليك ولا حفظك ولا رعاك ولا كلأك فقال له ابراهيم على رسلك ياأمير المؤمنين فلقد اصبحت ولى ثارى والقدرة تذهب الحفيظة ومن مد له فى الاغترار بالامل هجمت به الاناة على التلف وقد أصبح ذنبى فوق كل عفو واصبحت فوق كل ذى ذنب كما اصبح كل ذى عفو دونك فان تعاقب فبحقك وان تعف فبفضلك فاطرق مليا ثم رفع رأسه فقال ان هذين اشارا على بقتلك فالتفت فاذا المعتصم والعباس ابن المأمون فقال ياأمير المؤمنين اماحقيقة الرأى فى معظم تدبير الخلافة والسياسة فقد أشارا عليك به وماغشاك اذ كان منى اليك ما كان ولكن الله عودك من العفو عادة جريت عليها دافعا ما تخاف بما ترجو فكفاك الله فتبسم المأمون ثم قال ان من الكلام مايفوق الدرر ويغلب السحر وأن كلام عمى منه ثم عفا عنه وتمثل المأمون حين عفا عنه

فلئن عفوت لاعفون جللا ... ولئن تأرت لأوهنن عظمى
قومى هم قتلوا أميم أخى ... فاذا رميت اصابنى سهمى

ولما عفا عنه امر ان يمنع من دار الخاصة والعامة فتمثل

ياسرحة الماء قد سدت موارده ... اما اليك طريق غير مسدود
لحائم حام حتى لا حيام له ... محلا عن طريق الماء مطرود

فلما بلغ ذلك المأمون بكى وأمر باحضاره مكرما ولابراهيم بن المهدى فى مخاطبة المأمون اشعار حسان منها قوله

ياخير من ذملت يمانية به ... بعد الرسول لآيس أوطامع
وابر من عبد الاله على الهدى ... نفسا وأحكمه بحق صادع
قسما وما ادلى اليك بحجة ... الا التضرع من مقر خاشع
ما ان عصيتك والغواة تمدنى ... اسبابها الا بنية طائع
ان الذى قسم الفضائل حازها ... فى صلب آدم للامام السابع
لرحمت اطفالا كافراخ القطا ... وعويل معولة كقوس النازع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع اليك بشافع

ومما يتعلق بخبر ابراهيم مما يستظرف انه حين بويع استقرض من التجار مالا كثيرا فكان فيه لعبد الملك الزيات عشرة آلاف دينار فلما لم يتم أمره لوى التجار أموالهم فصنع محمد بن عبد الملك قصيدا يخاطب المأمون منها قوله

ألم تران الشئ للشئ علة — تكون له كالنار تقدح بالزند
كذلك جربنا الامور وانما — يدلك ما قد كان قبل على البعد
وظنى بابراهيم ان مكانه — سيبعث يوما مثل أيامه النكد
تذكر امير المؤمنين قيامهم — بأيمانه فى الهزل منه وفى الجد
اذا هز أعواد المنابر باسته — تغنى بليلى أو بمية أو هند
ووالله ما من توبة نزعت به — اليك ولا ميل اليك ولا ود
وكيف بمن قد بايع الناس والتقت — ببيعته الركبان غورا الى نجد
ومن هو فى بيت الخلافة تلتقى — به وبك الآباء فى ذروة المجد
فمولاك مولاه وجندك جنده — وهل تجمع القين الحسامين فى غمد
ومن صك تسليم الخلافة سمعه — ينادى به بين السماطين عن بعد
وأى امرىء سمى بها قط نفسه — ففارقها حتى يغيب فى اللحد
وتزعم هذى النابتية أنه — امام لها فيما تسر وما تبدى
يقولون سنى وأية سنة — تقوم بجون اللون صعل القفا جعد
وقد رابنى من أهل بيتك انى — رأيت لهم وجدا به ايما وجد
يقولون لا يبعد من ابن ملمة — صبور عليها النفس ذى مرة
فهذى امور قد يخاف ذوو النهى — مغبتها والله يهديك للرشد

وعرضها على ابراهيم وابن الزيات حينئذ خامل الذكر فسأله ابراهيم كتمها واستحلفه على ذلك واوى مال ابيه دون سائر التجار

واذ كرت عوفا بدار غربة — زغبا صغارا مثل أفراخ القطا

الزغب الفراخ التى لها زغب وهى الشعرات الصفر على ريشها وقد زغب الفرخ تزغيبا كنى بها عن الاولاد الصغار وعوف الذى ذكره هو عوف بن محلم الحرانى قال كنت آتى عبد الله بن طاهر فى كل سنة وكانت صلتى خمسة آلاف درهم فأتيت آخرما أتيته فشكوت اليه ضعفى ثم أنشدته

افى كل عام غربة ونزوح — اما للنوى من ونية فتريح
لقد طلح البين المدوف ركابى — فهل ارين البين وهو طليح
وارقنى بالرى نوح حمامة — فنحت وذو الشجو الغريب ينوح
على انها ناحت ولم تدر عبرة — ونحت واسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما — ومن دون افراخى مهامه فيح
عسى جود عبد الله ان يعكس النوى — فتضحى عصا التسيار وهى طريح
فان الغنى يدنى الفتى من صديقه — وعدم الغنى بالمقترين نزوح

فتوجع له عبد الله وقال صلتك عشرة آلاف فى كل سنة ولا تتعن الينا فانها توافيك فى منزلك ان شاء الله ففعل وعوف بن محلم هذا هو الذى دخل على عبيد الله بن طاهر فسلم عليه عبد الله فلم يسمع فاعلم بذلك فدنى منه وارتجل هذه الابيات

يا ابن الذى دان له المشرقان — طرا وقد دان له المغربان

ان الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي الى ترجمان
وبدلتني بالشطاط الحنا وكنت كالصعدة تحت السنان
وقاربت مني خطا لم تكن مقاربات وثنت من عنان
وانشأت بيني وبين الورى سحابة من غير نسج العنان
ولم تدع في لمستمتع الالساني وبحسبي لسان
ادعو به الله واثني به على الامير المصعبي الهجان
فقربانى بابى انما من وطني قبل اصفرار البنان
وقبل منعاى الى نسوة اوطانها حران والرقتان

ويشبه قوله زغبا صغارا مثل أفراخ القطا قول خطاب بن المعلى من شعراء الحماسة في ابياته الشهيرة

انزلني الدهر على حكمه من شاهق عال الى خفض
وغالني الدهر بوفر الغنى فليس لي مال سوى عرضي
ابكاني الدهر ويا ربما اضحكني الدهر بما يرضي
لولا بنيات كزغب القطا جعن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع في الارض ذات الطول والعرض
وانما أولادنا بيننا اكبادنا تمشي على الارض
ان هبت الريح على بعضهم يمتنع الجفن من الغمض

أردت البيت الرابع منها ومن مستحسن ماوقع لمتأخر في ذلك قول ابن زهر وقد غرب عن بلده فتذكر بنياله صغيرا

ولي وحد مثل فرخ القطا * ة خلفت قلبي رهينا لديه
احن اليه فيا وحشتي * لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقني وتشوقته * فيبكي علي وأبكي عليه
وقد تعب الشوق مابيننا * فمنه الي ومني اليه

أخبرني الحاج المحدث ابو عبدالله بن الخصار رحمه الله اذنا قال انشدني ابو مروان الباجي قال انشدني ابو بكر ابن زهر وذكر الابيات وقال بعض المشارقة

أباصالح أشكو اليك نوائبا * عرتني كما يشكوا النبات الى القطر
لتنظر نحوي نظرة لو نظرتها * الى الصخر يجرت العيون من الصخر
وفي الدار خلفي صبية قد تركتهم * يطاون أطلال الفراخ من الوكر
جنيت على روحي بروحي جناية * فأثقلت ظهري بالذي خف من ظهري

والبيت الاخير نهاية في الحسن وغرابة المعنى وممن سبق الى الاحسان في ذكر الاصاغر ووصف حاله وحالهم عند الوداع بكل مايصدع الاكباد ويطرب الجاد ابو عمر احمد بن دراج القسطلي من بلغاء الاندلس المقدمين على شعرائها فمن ذلك قوله

ولما تدانت للوداع وقد هفا * بصبري منها أنة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى * وفي المهد مبغوم النداء صغير
عيي بمرجوع الجواب ولفظه * بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت * له أذرع محفوفة ونحور

وقوله من كلمة مدح بها الحاجب محمد بن أبي عامر

ولله عزمي يوم ودعت نحوه * نفوسا شجاني بينها وشجاها
وربة خدر كالجمان دموعها * عزيز على قلبي شطوط نواها
وبنت ثمان لايزال يروعني * على النأى تذكارى خفوق حشاها
وموقفها والبين قدجد جده * منوطا بحبلي عاتقي يداها

وقوله أيضا يذكر رحيله بهم وماتجشمه من المشاق بسببهم

والنجم انواء تنوء بها النوى * وليس لها الا دموعى من قطر
ولامطلع الامهادي أو حجري * ولامغرب الا ضلوعي أو صدري
اذا ازدحموا في ضنك شربي تمثلوا * باسباط موسى عند منفجر الصخر
فما جهدوا فلكا كما جهدوا يدى * ولا أنقضوا ظهرا كما أنقضوا ظهر
كأن لهم وترا على وما انتحى * لهم حادث الا وفى نفسه وتري
ولولا هم لم أبد صفحة معدم * ولم اسمع الاعداء دعوة مضطر
ولاجدت للدنيا بخلة واصل * ولو برزت لى فى غلائلها الخضر
وناديت فى بيض النضار وصفرها * لغيرى فابيضى اذا شئت واصفرى
ولكن أبى مافى الفؤاد من الاسى * وأعضل مابين الضلوع من الجمر
ومالف عهد الله فى ثوب غربتى * من الآنسات الشعث والافرخ الذعر

ولبعضهم فى طفل رضيع

فلذة كبدى امسها بيدى * يقول ان حاول الكلام اغوا
لوطمع الواصفون أن يصفوا * مقدار حبى له لما بلغوا

ولما التقى المعتمد على الله ابو القاسم بن عباد والنصارى يوم الزلاقة وثبت لحملتهم عليه اصابته فى ذلك اليوم جراحة فتذكر طفلا له صغيرا يكنى اباهاشم فقال

أبا هاشم هشمتني الشفار * فلله صبري لذاك الاوار
ذكرت شخيصك تحت العجا * ج فلم يثنني ذكره للفرار

ومما يستحسن من هذا المسلك قول بعض أهل عصرنا وهو صاحبنا الفقيه القاضى أبو القاسم الخضر بن ابى العافية رحمه الله يذكر وفاة بنت له و يصف حال أمها من بعدها وقد ابدع وأحسن ماشاء فقال بعد ابيات

ولست اخشى على نفسي فان لها * عزيمة مثل حد الصارم الذكر
لكني خشيت على ثكلى مولهة * حزينة لم تدع صبرا لمصطبر
مثل القطاة على أفراخها قعدت * تقيل الظل بين الماء والشجر
أهوى الى وكرها صقر فاشعرت * حتى زقى فرخها من وخزة الظفر
طار يهوى بها فى جوه صعدا * حتى تغيب فى المهوى عن البصر
فرفرفت مااستطاعت ثم ألجأها * لوكرها صوت افراخ لها أخر

وَاطَّرَبَتْ تَوْبَةَ فاسْتَسقَى الحَيا * لَها بِبَطْنِ الْوَادِيَيْنِ وَدَعا

الحيا المطر واستسقى طلب السقيا وبطن الواديين موضع وتوبة هذا هو توبة بن الحمير بن جون بن كعب بن خفاجة ابن محمود بن عقيل ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وهو صاحب ليلى الاخيلية وهى بنت عبد الله بن

الرحال بن شداد بن معاوية وهو الاخيل بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وكان توبة يتعشقها ويقول فيها الشعر فخطبها الى أبيها فأبى أن يزوجها اياه وزوجها في بني الادلع وكان اذا زارها خرجت اليه في برقع فلما شهر أمره شكوه الى السلطان فاباحهم دمه ان اتاهم فكمنوا له في الموضع الذى كان يلقاها فيه فلما علمت به خرجت اليه سافرة حتى قعدت في طريقه فلما رأى سفورها فطن لها وعلم أنه قد رصدوا وانها سفرت لذلك تحذره فركض فرسه فنجا وقيل كان زوج ليلى قد حلف لئن لم تعلمه بمجيئه ليقتلنها ولئن انذرت توبة وأزمعوا من قتله ليقتلنها وكان غيورا فرصدوه بموضع ورصدته بآخر ولم تقدر على انذاره لليمين فلما رأته لم تزد على أن سفرت وألقت البرقع ففي ذلك يقول توبة

نأتك بليلى دارها لا تزورها … وشطت نواها واستمر مريرها
وكنت اذا مازرت ليلى تبرقعت … فقد رابني منها الغداة سفورها
علي دماء البدن ان كان زوجها … يرى لى ذنبا غير انى أزورها
وانى اذا مازرتها قلت يااسلمى … فهل كان في قولى اسلمى مايضيرها
حمامة بطن الواديين ترنمى … سقاك من الغر الغوادى مطيرها
أبيني لنا لازال ريشك ناعما … ولازلت في خضراء دان بريرها

وهذان البيتان هما اللذان أشار اليهما الناظم فاستسقى توبة في الاول ودعا في الثاني

وقد تذهب الحاجات يطلبها الفتى … شعاعا وتخشى النفس مالا يضيرها
ولو أن ليلى في ذرى متمنع … بنجران لالتفت على قصورها
ايذهب ريعان الشباب ولم أزر … غرائر في همدان بيضا نحورها
يقر بعينى ان أرى العيس ترتمى … بنا نحو ليلى وهي تجرى ضفورها
واشرف بالقور اليفاع لعلنى … أرى نار ليلى أو يرانى بصيرها
أرتنا حمام الموت ليلى وراقنا … عيون نقيات الحواشى تديرها

ويقال ان الاصمعى لماسمع قوله

على دماء البدن ان كان زوجها … يرى الى ذنبا غير انى أزورها
وانى اذا مازرتها قلت يا اسلمى … فهل كان في قولى اسلمى مايضيرها

قال شكوى مظلوم وفعل ظالم قال ابوعبيدة كان توبة شريرا كثير الغارة على بني الحارث بن كعب وخثعم وهمدان وكان يزور نساء منهم يتحدث اليهن فذلك قوله أيذهب ريعان الشباب البيت قال وكان توبة ربما ارتفع الى بلاد مهرة فيغير عليهم وبين بلاد مهرة وبلاد عقيل مفازة مقفرة لا يقطعها الطير وكان يحمل مزاد الماء فيدفنها على مسيرة كل يوم مزادة ثم يغير عليهم فيطلبونه فيركب بهم المفازة وانما كان يتعمد بغاراته حمارة القيظ وشدة الحر فاذا ركب المفازة رجعوا عنه وهو القائل

ولوان ليلى الاخيلية سلمت … على ودونى تربة وصفايح
لسلمت تسليم البشاشة أوزقا … اليها صدا من جانب القبر صائح
واغبط من ليلى بما لا أناله … الا كل ماقرت به العين صالح

وقد روى ان ليلى الاخيلية أقبلت من سفر فمرت بقبر توبة ومعها زوجها وهي في هودج لها فقالت والله لا أبرح حتى أسلم على توبة فجعل زوجها يمنعها من ذلك وتأبى الا أن تلم به فلما كثر ذلك منها تركها فصعدت اكمة عليها قبر توبة فقالت السلام عليك ياتوبة ثم حولت وجهها الى القوم فقالت ماعرفت له كذبة قط قبل هذا قالوا وكيف

قالت أليس القائل * ولو أن ليلى الاخيلية سلمت * وأنشدت الابيات ثم قالت فاباله لم يسلم على كما قال وكانت الى جنب القبر بومة كامنة فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت فى وجه الجمل فنفر فرمى بليلى على رأسها فماتت من وقتها فدفنت الى جنبه وكانت ليلى قد وفدت على الحجاج وامتدحته ووصلها فسألها يوما فقال بالله يا ليلى أرأيت من توبة أمرا تكرهينه أو سألك شيئا يعاب فقالت لا والذى أسئله المغفرة ما كان ذلك منه قط فقال اذ لم يكن فرحمنا الله واياه ويقال ان الحجاج قال لها هل كانت بينكما ريبة قط فقالت لا والله أيها الامير الا أنه قال لى ليلة وقد خلونا كلمة ظننت انه خضع فيها لبعض الامر فقلت له

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها   فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونه   وأنت لاخرى صاحب وخليل

فوالله ما سمعت منه ريبة قط بعدها حتى فرق بيننا الموت قال لها الحجاج فما كان منه بعد ذلك قالت وجه صاحبا له الى حاضرنا فقال اذا أتيت الحاضر من بنى عبادة بن عقيل فاعل شرفا ثم اهتف بهذا البيت

عفا الله عنها هل ابيتن ليلة   من الدهر لا يسرى الى خيالها

فلما فعل الرجل ذلك عرفت المعنى فقلت له

وعنه عفا ربى وأحسن حاله   بعز علينا حاجة لا ينالها

ولما قتل توبة رثته ليلى بمراث حسان ومراثيها فى تأبينه شهيرة كثيرة

وزدن سكراً قلبَ غيلانَ الذى   لم يصحُ عن سكرِ الهوى ولا سلا

ذكر ذى الرمة غيلان هذا هو ذو الرمة وهو ابن عقبة بن مسعود بن حارثة بن عمرو بن ربيعة بن ملكان بن عدى ابن عبد مناة بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر وقيل غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود بن حارثة بن عمرو ابن ربيعة بن ساعدة ابن كعب بن عوف بن ثعلبة بن ربيعة بن ملكان ويكنى أبا الحارث وذو الرمة لقب له يقال لقبته به مية صاحبته وكانت مية من ولد طابة بن قيس بن عاصم المنقرى وكان اجتاز بخبائها وهى جالسة الى جنب أمها فاستسقاها ماء فقالت لها أمها قومى فاسقيه وقيل بل خرق أداوته لما رآها وقال لها اخرزى هذه فقالت والله ما أحسن ذلك وانى لخرقاء والخرقاء التى لا تعمل بيدها شيئا لكرامتها على أهلها فقال لامها مريها أن تسقينى ماء فقالت لها قومى فاسقيه ماء فقامت فاتته بماء وكانت على كتفه رمة وهى قطعة من حبل فقالت اشرب ياذا الرمة فلقب بذلك وحكى ابن قتيبة أن هذه القصة جرت بينه وبين خرقاء العامرية وقيل انه انما لقب بذلك لقوله * أشعث باقى رمة التقليد وقد قيل بل كان يصيبه فى صغره فزع فكتبت له تميمة فعلقها بحبل فلقب بذلك ذا الرمة وانما اشار الناظم الى قوله

ولو لم يهجنى الظاعنون لهاجنى   حمائم ورق فى الديار وقوع
تباكين فاستبكين من كان ذا هوى   نوائح ما تجرى لهن دموع

ثبت هذان البيتان فى ديوان شعره من قصيدة وقد رويا لغيره وعلى ما ثبت فى ديوانه عول الناظم ويتعلق بذكر هذين البيتين حكاية ذكرها ابو بكر محمد بن حسن الزبيدى فى طبقات النحويين قال ذكر غير واحد من شيوخ أهل شذونة قال كان محمود بن ابى جميل عندنا غلاما جوادا وكان عاملا فى اخريات ايام الامير عبد الرحمن بن الحكم فعمل قبة بلغت النفقة فيها وفى وطائها خمسمائة دينار فلما كملت ضربها على النهر وصنع صنيعا جمع له اشراف الكورة ووافق ذلك اطلاع عبد الملك بن جهور بن يوسف ضياعه بشذونة فاستجلبه محمود مع بياض الكورة فشهد وشهدوا فلما انقضى طعامهم وصاروا الى المؤانسة وعندهم احد

بنى زرياب المغنى طلع عليهم عباس بن فرقاس زائرا لمحمود فقام اليه محمود والتزمه وسر جميعهم بوروده ثم عرض عليه الطعام فطعم ثم سارا الى المؤانسة واندفع بن زرياب يغنى ولولم يشقنى الظاعنون لشاقنى البيتين فاستعادوه الصوت اعجابا به فأعاده فلما تقضى غناء بن زرياب مد عباس يده الى العود فأخذه وغنى البيتين ووصلهما من عنده بديهة فقال

شددت بمحمود يداحين خانها　　زمان لاسباب الرجاء قطوع

بنى لمساعى الجود والمجد قبلة　　اليها جميع الاجودين ركوع

وكان محمود جوادا فقال ياأبا القاسم اعز ما يحضرنى من مالى القبة وهى لك بما فيها مع كسوتى هذه ونكون فى فى ضيافتك بقية يومنا ودعا بكسوة فلبسها ودفع اليه كسوته وكانوا يومهم كذلك فلما حان الافتراق قال له عبد الملك ياأباالقاسم هذه القبة لاتصلح لك ولابد لك من بيعها وهى عندى بخمسماية دينار فقال عباس هى لك وذكر أن ذا الرمة كان كثيرا ما يأتى الحاضرة فيقيم بالكوفة والبصرة وكان طفيليا يقصد الاعراس ووصفه بعضهم فقال كان ذوا الرمة مفوها اذا كلمك كلمك ابلغ الناس يضع لسانه حيث يشاء وقال الاصمعى ما أعلم احدا من العشاق شكى حبا أحسن من شكوى ذى الرمة يخبر فيحسن الخبر ثم يرد على صاحبه فيحسن الرد ثم يعتذر فيحسن التخلص وذكر عن ابن شبرمة انه قال سمعت ذا الرمة يقول اذا قلت كانه ثم لم أجد فقطع الله لسانى و يقال ان جريرا والفرزدق اجتمعا عند خليفة من خلفاء بنى أمية فسأل كل واحد منهما على انفراده عن ذى الرمة فكلاهما قال أخذ من طرائق الشعر وحسنه مالم يسبقه اليه أحد غيره فقال الخليفة أشهد لاتفاقكما فيه انه اشعر منكما وذكر بعضهم قال كان ذو الرمة قد نظر الى مى فهويها وشبب بها فكانت مية يصلها شعره ولا تراه حتى نذرت فى صواحبها انها يوم تراه تنحر بدنة وانه قصدها يوما فقلن لها يامية هذا ذوالرمة فلما نظرت اليه رأت رجلا نحيفا اسمر اللون وكانت من اجمل الناس فنادت واسوأتاه واضيعة بدنتاه فسمع ذلك ذوالرمة فقال

على وجه مى مسحة من ملاحة　　وتحت الثياب العار لو كان باديا

فكشفت ثوبها عن جسدها ثم قالت اشينا ترى لا ام لك فقال

ألم تر أن الماء يخبث طعمه　　وان كان لون الماء ابيض صافيا

فقالت أما ما تحت الثياب فقد رأيت وعلمت ان لاشين فيه ولم يبق الا أن أقول لك هلم حتى تذوق ما وراءه والله لاذقت ذلك ابدا فقال

فياضيعة الشعر الذى لج فانقضى　　بمى ولم أملك ضلال فؤاديا

ثم صلح الامر بينهما فعادا لما كانا عليه وقد قيل فى هذه الابيات غير هذا وانها قيلت على لسان ذى الرمة وانه كان اذا ذكرت له هذه الابيات يتمعض و يحلف أنه ماقالها قط قلت و يتعلق بذكر هذه الابيات مانقل عن الحافظ ابى محمد على بن أحمد بن حزم انه سار هو والحافظ ابو عمر بن عبد البر فى سكة الحطابين من اشبيلية فتفاوضا فى المداعبة بما أوجب ان قال الحافظ ابو محمد ارتجالا

وذى عذل فيمن سبانى　　يطيل ملامى فى الهوى و يقول

افى حسن وجه لاح لم ترغيره　　ولم تدر كيف الجسم أنت قتيل

فقلت له اسرفت فى اللوم عاذلى　　وعندى رد لو علمت طويل

ألم ترانى ظاهرى وانى　　على ما بدا حتى يقوم دليل

وذكر أن عصمة بن مالك الفزارى وكان راو ية ذى الرمة قال أتانى ذوالرمة فقال لى هيا عصمة ان مى منصرفة وان منقرا أخبث حى واقوفه لاثر وقد عرفوا آثار ابلى فهل من ناقة تأنى عليها مية فاتيته بناقة فركب و ردفت

حتى أشرفنا على منزل مى واذا فيه نسوة قد تجمعن فنزلنا وقلن انشدنا يا ذا الرمة فقال لى انشدهن يا عصمة وكان عصمة راويته فانشدهن قصيدته التى يقول فيها

نظرت الى أظعان مى كأنها ذرى النخل اوائل تميل ذوائبه
فاسبلت دمع العين والصدر كاتم بمغرورق نمت عليه سواكبه
بكا وامق حان الفراق ولم تجل جوائلها اسراره ومعاتبه

فقلن الآن فلتجل ثم أنشدت حتى بلغت الى قوله

اذا سرحت من حب مى سوارح على القلب أبته بليل عوازبه

فقلن لها قتلته قاتلك الله فقالت مى انه لصحيح فتنفس ذوالرمة تنفسا حارا ثم أنشدت حتى بلغت الى قوله

وقد حلفت بالله مية ما الذى احدثها الا الذى انا كاذبه
اذا فرمانى الله من حيث لا أرى ولازال فى ارضى عدو احاربه

فقالت له مى خف عواقب الله يا غيلان ثم أنشدت حتى بلغت الى قوله

اذا نازعتك القول مية أو بدا لك الوجه منها أونضا الدرع سالبه
فيالك من خد اسيل ومنطق رخيم ومن خلق تعلل جاذبه

فقالت احداهن هذا الوجه قد بدا وهذا القول قد تنوزع فمن لنا بان ينضو الدرع سالبه فاقبلت عليها مى وقالت قاتلك الله ماذا تجيئين به منذ اليوم ثم قمن وقت فجلست ناحية بحيث أراهما ولا أسمع كلامهما فوالله ما رأيتهما برحا من مكانهما وانما ذكرت هذه القصة لما تضمن آخرها مما يدل على مكانهما من العفاف والكرم ودخل على ذى الرمة بعضهم وهو يجود بنفسه فقال له يا غيلان كيف تجدك فقال اجدنى والله فى الموت لا غداة أقول

كأن غداة الزرق يامى مدنف تجود بنفس قد أحم حمامها

فانا والله الغداة فى ذلك لا فى تلك الغداة ومات من الجدرى وفى ذلك يقول

المر يانها انى تبدلت بعدها مفوفة صواغها غير اخرقا

وعاد ما عادَ مِنَ الوَجْدِ بها علَى حُمَيْدٍ وَشَجاهُ ما شَجَا

يقال عاد اليه الشىء يعود عودة وعودا رجع وعادنى الشىء عودا واعتادنى انتابنى والعيد ما يعتاد من شوق وهم وغيره والضمير فى بها راجع الى الحمام والباء للسبب أى عاد عليه بسببها و يقال شجاه يشجوه شجوا اذا أحزنه وفى قوله عاد ما عاد وشجاه ما شجا ابهام يفيد الاعظام والتهويل أى عاد عليه من الوجد أمر عظيم وشجاه خطب هائل وللابهام فى النفس موقع من الاعظام لا يكون مع الايضاح والتفسير فان المستمع اذا ابهمت عليه الامر لم يسنح له خاطره فى تكييف الحال التى ابهمت صفتها عليه الا توقع أن يكون قد غاب عنه ما هو أعظم مما كيف وهو اذا كشف له عن الصفة ركنت نفسه الى ما وصف فلم يرتق به الوهم الى غير الحد الذى وقفت الصفة عليه وهذا من باب اللفظ القليل يشتمل على معان كثيرة بايماء الهاء ولمحة تدل عليها و يسمى ما كان بهذه السبيل الاشارة ومنه قول امرىء القيس

بعزهم عززت وان بذلوا فذلهم انالك ما انالا

ومنه أيضا فى وصف الفرس

على هيكل يعطيك قبل سؤاله افانين جرى غير كز ولا وان

فجمع بقوله افانين جرى ما لو فسر لكان كثيرا

﴿ذكر حميد بن ثور الهلالى﴾

حميد هذا هو حميد بن ثور بن عبد الله بن عامر بن ابى ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة وهو ممن أسلم وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وأنشده قصيدته التي أولها

اصبح قلبي من سليمى مقصدا ... ان خطأ منها وان تعمدا

وفى آخرها

حتى ارانا ربنا محمدا ... يتلو من الله كتابا مرشدا

فلم نكذب وخررنا سجدا ... نعطى الزكوة ونقيم المسجدا

المسجد هنا اسم مصدر وانما أراد نقيم الصلاة وينبغي أن يكون ضبطه بفتح الجيم وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد تقدم الى الشعراء ان لا يشبب رجل بامرأة الاجلده فقال حميد بن ثور

ابى الله الا ان سرحة مالك ... على كل افنان العضاة تروق

وقد ذهبت عرضا وما فوق طولها ... من السرح الاعشة وسحوق

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ... ولا الفيء من برد العشى تذوق

فهل انا ان عللت نفسى بسرحة ... من السرح موجود على طريق

وقال أيضا فى المعنى

تجرم اهلها لان كنت مشعرا ... حنونا بها ياطول هذا التجرم

ومالى من ذنب اليهم علمته ... سوى انى قد قلت ياسرحة اسلمى

بلى فاسلمى ثم اسلمى ثم يا سلمى ... ثلاث تحيات وان لم تكلمى

وانما أشار الناظم الى قوله

وما هاج هذا الشوق الا حمامة * دعت ساق حر ترحة وترنما

من الورق حماء العلاطين باكرت * عسيب اشاء مطلع الشمس اسحما

اذا هزهزته الريح أو لعبت به * ارنت عليه مائلا أو مقوما

تنادى حمام الجلهتين وترعوى * الى ابن ثلاث بين عودين اعجما

بنت بنية الخرقاء وهى رقيقة * له بين اعواد بعلياء سلما

فلما اكتسى الريش السخام ولم تجد * لها معه فى باحة العش مجثما

اتيح لها صقر مسف فلم يدع * لها ولدا الا رماما واعظما

فاوفت على غصن ضحيا فلم تدع * لباكية فى شجوها متلوما

عجبت لها انى يكون غناؤها * فصيحا ولم تفغر بمنطقها فما

ولم ار مثلى شاقه صوت مثلها * ولا عربيا شاقه صوت اعجما

ساق حر ذكر القمارى قال الكميت

تغريد ساق على ساق تجاوبها * من الهواتف ذات الطوق والعطل

ولابى الحكم مالك بن المرحل فى ذكر ساق حر وهى من أظرف ما قيل فى ذلك

رب ربع وقفت فيه وعهد * لم اجاوزه والركائب تسرى

اسئل الدار وهى قفر خلاء * عن حبيب قد حلها منذ دهر

حيث لامسعد على الوجد الا * عين حر تجود أو ساق حر

يريد أنه لايساعده الا حر يبكى له أو حمام ينوح معه

وَمَلَأتْ بِالشَّجنِ قَلْبَ جَحْدَرٍ وَصدْرَهُ مِن شَجَنٍ وَمِن شَجَا

الشجن الحزن وقد تقدم تفسيره والشجى كذلك والشجا أيضا ماينشب فى الحلق من عظم وغيره وهو المراد هنا

﴿ ذكر جحدر ﴾

وجحدر هذا كان لصا مبرا والمبر الغالب اخذه الحجاج فسجنه فقال فى السجن

تاوبنى فبت لها كنيعا * هموم ما تفارقنى دوان
هى العواد لا عواد قومى * اطلن عيادتى فى ذا المكان
اذا ماقلت قد اجلين عنى * ثنى ربعانهن الى ثان
وكان مقرمنز لهن قلبى * فقد انفهنه والهم آن
أليس الله يعلم أن قلبى * يحبك ايها البرق اليمان
وأهوى ان ارد اليك طرفى * على عدواء من شغلى وشان
نظرت وناقتاى على تعار * مطاوعة لازمة ترحلان
الى نار يهما وهما بعيد * تشوقان المحب وتوقدان
ومماهاجنى فازددت شوقا * بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحن اعجمى * على غصنين من غرب وبان
فكان البان ان بانت سليمى * وفى الغرب اغتراب غير دان

والى هذه الابيات الثلاثة اشار الناظم

اليس الليل يجمع أم عمرو * وايانا فذاك بنا تدان
نعم وترى الهلال كما اراه * ويعلوها النهار كما علان
فما بين التفرق غير سبع * بقين من المحرم أو ثمان
فيا اخوى من كعب بن عمرو * اقلا اللوم ان لم تنفعان
اذا جاوزتما شعفات حجر * واودية اليمامة فانعيان
وقولا جحدر امسى رهينا * يحاذر وقع مصقول يمان
يحاذ رصولة الحجاج ظلما * وما الحجاج ظلام لجان
الى قوم اذا سمعوا بذكرى * بكى شبانهم وبكى الغوان
فان اهلك فرب فتى سيبكى * على مهذب رخص البنان
ولم أك قد قضيت حقوق قومى * ولا حق المهند والسنان

الكنيع المنقبض وانفهنه اعينه ولصفوان بن ادريس ابيات أنشدها فى العجالة لها تعلق بقول جحدر فى هذه القصيدة

نعم وترى الهلال كما اراه * ويعلوها النهار كما علان

رأيت أن انبها هنا وذلك انه ذكر ان جماعة من اصحابه انتدبوا معه ليلة ارتقاب الهلال الى ان يذهبوا الى الموضع

الذى جرت العادة عندهم بارتقابه فيه وكان معهم فتى وسيم الصورة فعرضوا عليه ان يذهب معهم فابى عن ذلك قال ابو بحر فقلت فى ذلك واظنه ذكران ذلك كان ارتجالا

يقول اذا رآنى مادهاه * كان بمهجتى أحدا سواه
وما ادراه بالشكوى ولكن * تدلله يؤيده صباه
وقالوا هل جنا شيئا عليه * هلال الافق يمنحه قلاه
جفاه فهو لايرنو اليه * فقلت لهم لامر ما جفاه
مخافة أن يقول الصب يوما * نعم ويرى الهلال كما اراه

وقد عادل الناظم بين أول الكلام واخره باعادة الشجن الى القلب والشجا الى الصدر وجانس بين الشجن والشجا وقد تكلمت على هذا النوع من التجنيس

وَأَوشَكَتْ تَختَطِفُ الحَوْبَاءَ مِن   جَانِحَتَى جَرِيرِ بنِ الخَطَفَا

أوشكت من أفعال المقاربة وخبرها تختطف والاعرف اقتران الفعل بعدها بان كما قال الشاعر

ولوسئل الناس التراب لاوشكوا * اذا قيل هاتوا ان يملوا ويمنعوا

وقد يجيء غير مقترن بها كما قال الاخر

يوشك من فر من منيته * فى بعض غراته يوافقها

فاذا كان مجردا من ان كان خبرا واذا كان مقرونا بها كان مفعولا عند سيبويه بمنزلة ان لوقلت قارب زيدان يقوم ويخرج عنده مايقترن الفعل معه بان من افعال المقاربة عن ان يكون ناقصا وفيه خلاف بين النحاة والحوباء النفس والجانحة واحدة الجوانح وهى الاضلاع التى تحت الترائب وهى مما يلى الصدر كالضلوع مما يلى الظهر وكان وجه الكلام ان يأتى بجرير غير منون لان ما كان مثل زيد بن عمرو مما كان ابن فيه صفة لعلم أو لقب أو كنية مضافا الى مثل ذلك فان التنوين يحذف فيه من الموصوف كما قرره أئمة النحو وانما نون الناظم جريرا هنا لاقامة الوزن ومثله قول الشاعر

جارية من قيس بن ثعلبة * كريمة اخوالها والعصبة

اضطر فاثبت التنوين وقال ابو الفتح بن جنى الذى ارى انه لم يرد فى هذا البيت وماجرى مجراه ان يجرى ابنا وصفا على ماقبله ولو اراد ذلك لحذف التنوين ولكن الشاعر اراد أن يجرى ابنا على ماقبله بدلا منه واذا كان بدلا لم يجعل معه كالشئ الواحد فوجب لذلك ان ينوى انفصال ابن مما قبله واذا قدر كذلك فقد قام بنفسه ووجب ان يبتدأ وعلى ذلك تقول كلمت زيدا ابن بكر كانك قلت كلمت ابن بكر لان ذلك حكم البدل اذ البدل فى التقدير من جملة ثانية غير الجملة التى المبدل منه منها وقلت ويؤيد القول الاول ان مثل كلمت زيدا ابن بكر فى كلامهم قليل جدا ولو كان على ماقاله ابن جنى لكان كثيرا لانه وجه سائغ مطرد فلقلته كان الوجه ان يحمل على انه ضرورة فتأمله فهو حسن وله نظير فى كلام سيبويه ونقل الشيخ ابو على الشلوبين عن بعض الناس انه يشترط فى حذف التنوين من الاسم الموصوف بابن ان يكون الاسم الذى يضاف اليه ابن ابا لا جدا فان كان جدا ثبت التنوين فيما قبله والالف فيه قال الشيخ ابو على وانه لقياس وان كنت لم اره لمتقدم قلت وهذا الذى ذكره الاستاذ ابو على يخرج اثبات التنوين فى بيت الناظم عن ان يكون ضرورة لان الخطفا ليس بابى جرير وانما هو جده حسبما نذكر بعد على ان بعض الناس قد رد ذلك وزعم ان لا فرق بين اسم الاب والجد وان لا بد من حذف التنوين واحتج على ذلك بحجج ليس هذا موضع التطويل بها وجانس الناظم بين الخطفا وتختطف وهو من تجنيس الاشتقاق وقد تكلمت عليه

﴿ ذكر جرير بن الخطفا ﴾

وجرير هذا هو جرير بن عطية بن حذيفة وهو الخطفا بن يزيد بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع ابن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن غنم ولقب حذيفة بالخطفا لقوله

يرفعن بالليل اذا ما اسدفا * اعناق حنان وها ما رجفا
* وعنقا بعد الكلال خيطفا *

وانما أومأ الناظم الى قوله

اطربت اذ هتف الحمام وربما * ابكاك بعد هواك سجع حمام
فاصطاد قلبك من وراء حجابه * من لا ترى لسنين غير لمام

والى قوله فاصطاد قلبك من وراء حجابه وقعت الاشارة بقوله واوشكت تختطف الحوباء من جانحتي جرير وانما نسب الناظم الاختطاف الى الحمام وان لم يكن قوله فاصطاد قلبك راجعا الى الحمام لان جريرا رتب اصطياد قلبه على سجع الحمام فلما كان بسببها ولاجل سجعها كانت كانها المصطادة والمختطفة من وراء الجوانح فتأمله فانه بين وجرير والفرزدق والاخطل مقدمون على شعراء الاسلام الذين لم يدركوا الجاهلية جميعا واختلف ايهم المقدم وقال ابو عبيدة كان ابو عمرو يشبه جريرا بالاعشى والفرزدق بزهير والاخطل بالنابغة وكان جرير أحسن الناس تشبيبا وذكر انه قال لولا ماشغلني من هذه الكلاب يريد الذين هجوه لشببت تشبيبا تحن منه العجوز الى شبابها كما تحن الناب الى سقبها وهو القائل

ان العيون التي في طرفها حور * قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له * وهن اضعف خلق الله اركانا
اتبعتهم مقلة انسانها غرق * هل ما ترى تارك للعين انسانا

ويقال ان الراعي سمع من يتغنى بشعر جرير وهو قوله

وعاو عوى من غير شئ رميته * بقافية انفاذها تقطر الدما
خروج بافواه الرواة كانها * قرى هندواني اذا هز صمما

فقال الراعي لعنة الله على من يلومني ان يغلبني هذا وكان مع حسن تشبيبه عفيفا وكان الفرزدق يقول ما احوجه مع عفته الى صلابة شعري واحوجني مع فجوري الى رقة شعره وقال ابو عمرو ابن العلاء كنت قاعدا عند جرير وهو يمل

ودع امامة حان منك رحيل * ان الوداع لمن تحب قليل

فمرت به جنازة فترك الانشاد وقال شيبتني هذه الجنائز قال قلت له لاي شئ تشتم الناس فقال يبدؤني ثم لا اعفوا ومما يستظرف انه بلغه عن بعض شعراء كليب شئ ساءه فدعاه الى مهاجاته فقال الكلبي ان نساءي بأمتهن ولم تدع الشعراء في نسائك مترقعا فلت يشبه قوله لم تدع الشعراء في نسائك مترقعا ماذكر من ان الفرزدق هم بهجاء عبد القيس فبلغ ذلك زيادا وهو منهم فبعث اليه لا تعجل وانا مهد اليك هدية فانتظر الفرزدق الهدية فكتب زياد اليه

ما ترك الهاجون لي ان هجوته * مصحا اراه في اديم الفرزدق
ولا تركوا عظما يرى تحت لحمه * لكاسرة ابقوه للمتعرق
سأ كسر ما أبقوا له من عظامه * وانكت مخ الساق منه وانتقي

فانا وما تهدى لنا ان هجوتنا * لكالبحر مهما يلق فى البحر يغرق

وذكر ابو عبيدة ان الفرزدق لقى جريرا بمنى وهما حاجان فقال الفرزدق لجرير

فانك لاق بالمنازل من منى * فخارا فخبرنى بمن انت فاخر

فقال جرير لبيك اللهم لبيك قالوا فكانوا يستحسنون هذا من جرير و يعجبون به وذكر ان الفرزدق وقف على جرير بالبصرة وهو ينشد قصيدته التى هجا فيها الراعى فلما بلغ الى قوله

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

اقبل الفرزدق على راويته فقال غضه والله فلا يفلح ابدا فلما بلغ الى قوله * بها برص باسفل اسكتيها * وضع الفرزدق يده على فيه وغطى عنفقته فقال جرير * كعنفقة الفرزدق حين شابا * فانصرف الفرزدق وهو يقول اللهم اخزه والله لقد علمت حين بدأ بالبيت انه لا يقول غير هذا ولكنى طمعت ان لا يأ به فغطيت وجهى فما أغنى ذلك شيئا و يقال أن يونس كان يقول ما ارى جريرا قال هذا المصراع الا حين غطى الفرزدق عنفقته فانه نبه عليه بتغطيته اياها قلت وانما احتذى الناظم فى هذه الابيات التى عدد فيها كل من طرب لسجع الحمام حذوا لكاتب ابى جعفرا حمد بن مسلمة بن وضاح فى قوله

ياساجع الايك وقيت الردى   ولا خلت منك مغانى الغصون
ولا عدمت الظل يوما ولا الحـ   ـب ولا ازرق صافى المتون
لا تدع الشوق على حالة   منك ولا تؤثر غدر القرين
انت الذى جددت رسم البكا   لمشتك صرف نوى أو منون
متمم أذكرته شجوه   بمالك فى سالفات القرون
وانت بينت على بانة   لجحدر ما غاله فى السجون
وعالج الشوق جهيد وقد   اصغى الى تلك الاغانى الفنون
هجت لعوف لوعة فانبرى   يمتح بالرى دلاء الجفون
اذكرته افراخه اذ غدوا   مسئلة النائى ورجم الظنون
وتوبة بالواديين اقتضى   تلك الاغاريد اقتضاء الديون
وهاج مبكاك ببستان ابراهيم   للنجدى ذكر القطين
فرح فساعدنى على لوعتى   فان رهنى غلق فى الرهون
لا تسكن الاشجان ماقت فى   غصن ولا رقا دموع العيون

واشار ابن وضاح فى البيت الخامس من هذه الابيات الى قول متمم بن نويرة يرثى اخاه مالكا

اذا رقأت عيناى ذكرنى به   حمام ينادى فى الغصون وقوع
دعوت هديلا فاحتزنت لمالك   وفى الصدر من وجد عليه صدوع

والهديل تزعم العرب انه فرخ كان على عهد نوح فصاده جارح من جوارح الطير قالوا فليس من حمامة الا وتبكى عليه قال الشاعر

ومامن تهتفين به لنصر   باسرع إجابة لك من هديل

والهديل أيضا صوت الحمام يقال هدل يهدل هديلا فالهديل فى بيت متمم على الوجه الأول مفعول وعلى الوجه الثانى مصدر من المعنى ومن أحسن ماقيل فى وصف الحمام قول ابن حصن انشده صاحب الذخيرة

وما هاجنى الاابن ورقاء هاتف   على فنن بين الجزيرة والنهر

مفستق طوق لازوردى كلكل موشى الطلى احوى القوادم والظهر
ادار على الياقوت اجفان لؤلؤ وصاغ على الاجفان طوقا من التبر
حديد شبا المنقار داج كانه شبا قلم من فضة مد فى حبر
توسد من فرع الاراك أريكة ومال على طى الجناح مع النحر
ولما رأى دمعى مراقا ارابه بكائى فاستولى على الغصن النضر
وحث جناحيه وصفق طائرا وطار بقلبى حيث طار ولا ادرى

وذكر بن سعيد فى كتاب المقتطف انه كان يقرأ على ابى الحسن الدباج بجامع العدبس باشبيلية قال فبلغه انى أقرأ على أبى بكر بن هشام كتاب الذخيرة واحفظ عليه محاسنها فقال انشدنى ماحفظته من محاسن شعرها فانشدته فقال لى أين أنت من قول ابن حصن وذكر الابيات قال فصرت اقرأ الكتاب المذكور بعد عليه

طَالَتْ لَيَالِى الدَّهْرِ عِنْدِىَ بَعدَمَا قَصَرْتها بِكُلِّ مَقْصُورِ الْخُطَا
فَانْ يُطِلْ لَيْلِى فَكَمْ قَصَرْتُهُ بِقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ بِيضٍ كَالدُّمَا
وكَمْ تَنَعَّمْتُ بِوصْلِ نَاعِمٍ وبِاقْتِنَاصِ بَاغِمٍ مِثْلِ الطَّلا

الخطا جمع خطوة وهى مابين القدمين وقاصرات الطرف هن اللواتى لا يعدن طرفهن حياء وتفسيره فى كتاب الله تعالى اللواتى لا يميل طرفهن الى غير بعولتهن والدمى جمع دمية وهى الصورة من العاج ونحوه والباغم من البغام وهو صوت الظبية يقال ظبية بغوم والمباغمة المحادثة بصوت رخيم قال ذوالرمة

يتقنصن لى جآذر كالدر يباغمن من وراء الحجاب

والطلا الولد من ذوات الاظلاف والجمع اطلاء قال الشاعر

بها العين والارام يمشين خلفة واطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وقوله فى البيت الاول قصرتها بكل مقصور الخطا يريد انه محجوب لا يترك يخرج من بيته فلا تطول خطاه لأجل ذلك ولا يريد أن قصر الخطا خلقة فيه فان ذلك عيب وقد بين ذلك كثير فى قوله

وأنت التى حببت كل قصيرة الى وما تدرى بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار الخطا شر النساء البحاتر

يريد المقصورات فى الحجال يقال فى ذلك المعنى امرأة قصيرة وقصورة ويروى بيت كثير بالوجهين ومنه قوله تعالى حور مقصورات فى الخيام ويسوغ ان يريد بمقصور الخطا انه اذا مشى لم يسرع المشى لنعمته ولما تعود من السكون والدعة وعدم المهنة وذلك مما يوصف به النساء ويمدحن به ويؤيده ما يوصفن به من ثقل الارداف كقول ابى العتاهية

الا ان جارية للامام * قد البس الحسن سربالها مشت بين حور قصار الخطا * تجاذب فى المشى اكفالها

وقد قال الشاعر

كانها حين تخطوا فى وصائفها * تخطوا على البيض أو خضر القوارير

وقد قال الآخر تمشى الهوينا اذا مشت فضلا (١) مشى النزيف المخمور فى صفد

---

(١) الفضل كعنق الثوب تتفضل فيه المرأة والتفضل التوشح وان يخالف بين اطراف ثوبه على عاتقه ورجل فضل بضمتين متفضل فى ثوب واحد

تطل من حرز بيت جارتها   واضعة كفها على الكبد

وقال الاعشى

غراء فرعاء مصقول عوارضها   تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل

وقد اكثر الناس في طول الليل مع الهجر والغم وقصره مع الوصال والسرور حتى لو استقصى ما قيل في ذلك لخرج هذا الكتاب الى الطول المفرط الممل وقد قال بعض المتأخرين

ليلي وليلى نفى نومي اختلافهما   حتى لقد صيراني في الهوى مثلا

يجود بالطول ليلي كلما بخلت   بالوصل ليلى وان جادت به بخلا

وهو من قول بعضهم

لا أظلم الليل ولا أدعي   ان نجوم الليل ليست تغور

ليلي كما شاءت فان لم تزر   طال وان زارت فليلي قصير

ومن ابدع ما وقع للمتأخرين في طول الليل قول بعضهم

كان الثريا راحة تشبر الدجا   ليعلم طال الليل لي أم تعرضا

عجبت لليل بين شرق ومغرب   يقاس بشبر كيف يرجى له انقضا

ولأبي العلاء المعري في طول الليل

وليلين حال بالكواكب جوزه   وآخر من حلي الكواكب عاطل

كان دجاه الهجر والفجر موعد   بوصل وضوء الفجر حب مماطل

قطعت به بحرا يعب عبابه   وليس له الا التبلج ساحل

ويونسني في قلب كل مخوفة   حليف سرى لم تصح منه الشمائل

من الزنج كهل شاب مفرق رأسه   واوثق حتى نهضه متثاقل

اراد بالحالي بالكواكب جوزه الليل و بالعاطل من حلي الكواكب فرسا أدهم وانما قصد انه لا شية فيه ولبعضهم في الليل الطويل من قصيدة واحسن ما شاء

تراه كملك الزنج من فرط كبره   اذا رام مشيا في تبختره ابطا

مطلا على الآفاق والبدر تاجه   وقد علق الجوزاء في أذنه قرطا

وقلت فيما يتعلق بطول الليل وذكرت انبلاج الصبح بعد ذلك

خليلي كم من ليلة قد سهرتها   اراقب فيها النجم والنجم حيران

وقد حال دون الصبح بحر من الدجا   الى ان نجا من غمده وهو عريان

ولبعضهم في قصر الليل

وليلة من الليالي الغر * لم تك غير شفق وفجر * قابلت فيها بدرها ببدري * حتى تقضت وهي بنت الدهر

ولأبي الحكم مالك بن المرحل في مثل ذلك

وعشية سبق الصباح عشاءها   قصرا فما أمسيت حتى اسفرا

مسكية لبست حلي ذهبية   وجلا تبسمها نقابا أحمرا

وكأن شهب الرجم بعض حليها   عثرت به من سرعة فتكسرا

البيت الاخير بديع المعنى وطابق الناظم بين طالت وقصرتها و يطل وقصرته كما جانس بين قصرتها ومقصور و بين قصرته وقاصرات وكذلك جمع في البيت الثالث بين ناعم و باغم وهو نوع من التجنيس يسمى تجنيس

التصحيف وهو ان تتفق الكلمتان فى شكل الحروف حتى لو اهملتا من الشكل والنقط لأمكن تصحيف احداهما بالاخرى قال الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا وقال البحترى

ولم يكن المغتر بالله اذ نأى ليعجز والمعتز بالله طالبه

وهو فى شعر المتأخرين كثير جدا وقد أشرت اليه قبل والصحيح ان هذا النوع لا مدخل له فى الفصاحة ولا فى أنواع البديع اذ لاحظ للسمع فيه وان كان المتأخرون يقصدونه ويولعون به وانما حسن ما حسن من ذلك لاجل ما يقترن به فى الاكثر من الموازنة بين الكلمتين أو اتفاق المقاطع أو المجانسة بين بعض الحروف أوغير ذلك مما يدخل فى فن البديع

فاجتمعَ الضِّدَّانِ مِنَّا ناعمٌ قد ارتوى وذا بِلٌ يَشكُو الظَّما

فلو رأتنا مُقلَة تعجبتْ كيفَ التقي بدرُ الدَّياجي والسُّهَا

شفا فُؤادي رَشفُهُ مِنْ بَعد ما أشفَى بقلبي طَرفُهُ على شَفَا

الناعم هو اللين الناضر يقال نعم بالضم نعومة ينعم ونعم ينعم مثل حذر يحذر ونعم بالكسر فى الماضى ينعم بالضم فى المضارع وهى لغة التداخل والذابل الذاوى يقال ذبل البغل اذا ذوى وكذلك ذبل الغصن وشبهه والظمأ العطش وهو مهموز وانما أبدل الهمزة ألفا لان حرف الروى فى القصيدة الالف والوجه أن يكون ابدال الهمزة هنا غير ابدال التسهيل لان الحرف المسهل حكمه حكم المحقق ولو كانت الهمزة محققة لم يسغ أن يجمع بينها وبين الالف فى القافية وهذا هو الذى يجرى على قياس الطريقة التى يذهب اليها ابن جنى وطائفة من المتكلمين على القوافى والدياجى الحنادس وهى الظلمة الشديدة وكانه جمع ديجات والسهى كوكب خفى فى بنات نعش الكبرى يختبر الناس أبصارهم فى رؤيته لخفائه وفى المثل أريها السهى وتريني القمر ويقال شفاه الله من مرضه اذا أذهب عنه المرض وشفا كل شئ حرفه قال الله تعالى وكنتم على شفا حفرة من النار وأشفيت على الشئ أشرفت عليه وأشفى المريض على الموت أى أشرف عليه والرشف المص يقال رشفه يرشفه ويرشفه وارتشفه أى امتصه وفى المثل الرشف أنقع أى اذا ترشفت الماء قليلا قليلا كان أسكن للعطش والرشوف المرأة الطيبة الفم وقوله فاجتمع الضدان منا يتصور فى من ان تكون للتجريد ويكون ناعم وذابل بدلا من الضدين وجاز فيهما البدل من غير قبح وان كانا مشتقين لان الصفة مقصودة واذا كانت الصفة مقصودة حسنت ولايتها العوامل وان كانت مشتقة وحيث تحسن ولاية العوامل يحسن البدل لانه على تقدير ولاية العامل ويسوغ ان تكون من للتبعيض وناعم مبتدأ ومنا خبره كانه قال منا ناعم ومنا ذابل ويجرى أيضا هذا الاعراب فى ناعم على أن تكون من للتجريد فيكون التقدير فاجتمع الضدان منا فينا ناعم وفينا ذابل أو منا ناعم ومنا ذابل وقوله تعجبت كيف التقى هو على حذف القول تقديره فقالت كيف التقى بدر الدياجى والسهى والقول يحذف كثيرا ومنه قوله تعالى فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتم أى فيقال لهم أكفرتم ويسوغ فيها وجه ثان وهو أن تكون الجملة وهى قوله كيف التقى بدر الدياجى والسهى مفعولا يعمل فيه تعجبت ويكون تعجبت مضمنا معنى قالت كانه قال قالت متعجبة والتضمين فى الفعل كثير فى كلام العرب وهو من بارع الكلام ومما يشهد بالفصاحة ويدل على الاتساع ومنه قول الشاعر قد قتل الله زيادا عنى ضمنه معنى صرف وكذلك قوله تعالى أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم وأنت لا تقول رفثت الى المرأة لكن ضمن الكلام معنى الافضاء فعدى بالى ويسوغ فى البيت وجه ثالث وهو ان تكون الجملة وهى قوله كيف التقى منقطعة

عما قبلها ويكون الناظم لما قال فلو رأيتما مقلة تعجبت عرض له في نفسه من التعجب ما حمله على ان قطع الكلام الذي كان بسبيله وأخذ في السؤال فانتقل عن الخبر الى الاستفهام وهو نوع من الالتفات وللتعجب وجهان أحدهما ان يكون تعجبه من التقاء شيئين قد تباينا في الخفاء والظهور والمألوف المعتاد أن لا يأتلف الشيئان غالبا حتى يتقاربا في الصفة والوجه الثاني ان البدر والسهى لا يجمعهما فلك واحد فالتقاؤهما متعذر بهذا اللحظ وانما احتذى الناظم في البيت الاول على قول أبي مرة المكي

ساعة ولى شمت العاذل * أدال منه الفرج العاجل

لم أنس اذ ودعته والتقى * البدن الناعم والناحل

كأنما جسمي الى جسمه * غصنان ذاغض وذا ذابل

يارب ما أطيب ضمي له * الي لولا أنه راحل

أردت البيت الثالث أثبت الهمزة في قوله البدن الناعم والذابل (١) وحقها أن تحذف في الوصل لكنها قد تثبت فيه وأكثر ما يوجد في أوائل النصف الثاني من أبيات الشعر يعاملونها معاملة أول البيت اذ كان منشد الشعر يسكت عند انقضاء النصف الاول من البيت كما يسكت عند انقضاء البيت ويؤيده انهم جاؤا بالخرم في أول النصف الثاني من البيت كما جاؤا به في أول البيت ومنه قول الشاعر

وعين لها حدرة بدرة * شقت مآقيها من أخر

وأنشدوا في مثله شاهدا عليه قول بعضهم

ارض عن الخير والسلطان نائية * الاطيبان بها الطرثوث والسرب

وقال الآخر

ومذهب جدد على الواحه * الناطق المزبور والمختوم

وقال ديك الجن

كلانا غصن شطب * فذا بال وذا رطب

اذا ما هاجت الريح * ومال المرط والاتب

أبانت منه ما طاب * ومني ما برى الحب

ضلوع ما لها روح * ولا يسكنها القلب

وقال ابو الحسن بن عياض

و ياليته يهوى لعل فؤاده * يلين اذا لاقى جوى و بلابلا

عسى الله أن يدني من القمر السها * فيجمعنا غصنين غضا وذابلا

ومن أبدع ما قيل فيما ينصوا الى هذا المعنى قول أبي المطاع بن ناصر الدولة الحمداني

أفدي الذي زرته بالسيف مشتملا * ولحظ عينيه أمضى من مضاربه

فما خلعت نجادي في العناق له * حتى لبست نجادا من ذوائبه

وكان أسعدنا في نيل بغيته * من كان في الحب أشقانا بصاحبه

ولابي بحر صفوان بن ادريس من قصيدة أولها

ياحسنه والحسن بعض صفاته * والسحر مقصور على حركاته

يقول فيها

(١) قوله والذابل هكذا في النسخة التي بايدينا ولكن لفظ البيت البدن الناعم والناحل .اهـ مصححه

بتنا تشعشع والعفاف نديمنا * خمرين من غزلى ومن كلماته
ضاجعته والليل يذكى تحته * نارين من نفسى ومن وجناته
وضممته ضم البخيل لماله * أحنو عليه من جميع جهاته
أوثقته فى ساعدى لانه * ظبى خشيت عليه من فلتاته
والقلب يدعو ان يصير ساعدا * ليفوز بالآمال فى ضماته
حتى اذا هام الكرى بجفونه * وامتد فى عضدى طوع سناته
عزم الغرام على فى تقبيله * فرفضت أيدى الطوع من عزماته
وأبى عفافى أن أقبل ثغره * والقلب مطوى على جمراته
فاعجب لملتهب الجوانح غلة * يشكوا الظما والماء فى لهواته

والبيت الاخير غاية فى معناه وقال بن الزقاق من الاندلسيين

ومرتجة الاعطاف أما قوامها * فلدن وأما ردفها فرداح
ألمت فبات الليل من قصر بها * يطير ولا غير السرور جناح
وبت وقد زارت بأنعم ليلة * تعانقنى حتى الصباح صباح
على عاتقى من ساعديها حائل * وفى خصرها من ساعدى وشاح

ولم أسمع مثل هذا البيت الاخير فى معناه مع المقابلة البديعة التى تضمن الا أن ظاهره انه استعمل الوشاح فى معنى النطاق لان النطاق هو ماتديره المرأة على خصرها وكذلك الحقاب وأما الوشاح فهو ماتتقلده المرأة متشحة به فتطرحه على عاتقها فيستبطن الصدر والبطن و ينصب جانبه الآخر على الظهر حتى ينتهى الى العجب وتلتقى طرفاه على الكشح الايسر فيكون منها فى موضع حائل السيف من الرجل وقد خطئ أبو تمام حبيب بن أوس فى قوله

من الهيف لو أن الخلاخل صورت * لها وشحا جالت عليها الخلاخل

لانه استعمل الوشاح فى موضع الحقاب وانما وصفوا الوشاح بالقلق والجولان والحركة لان مايلى الكشح منه اذا كان قلقا دل على دقة الخصر وضمور البطن فتأمله فانه ظاهر ولبعضهم وهو أبو بكر يحيى بن أحمد بن بقى الاشبيلى

عاطيته والليل يسحب ذيله * صهباء كالمسك الفتيق لناشق
وضممته ضم الكمى لسيفه * وذؤابتاه حائل فى عاتق
حتى اذا مالت به سنة الكرى * زحزحته شيئا وكان معانق
باعدته عن أضلع تشتاقه * كى لا ينام على وساد خافق

وذكر ان أبا القاسم الطبيب المعروف بالقطنى قال لابن بقى وقد أنشده هذه الابيات ياهذا كيف تكون وسادة له وكيف يتصور ذلك يريد قوله كى لا ينام على وساد خافق فاصلحه الى وساد وفى قوله زحزحته و باعدته نقدتا ولو كان باعدت عنه لكان أحسن وأشبه بمقصوده فى البيت وللمتقدمين والمتأخرين فى هذا البيت احسان كثير وطابق الناظم بين ناعم وذابل وارتوى و يشكوا الظما كما جانس بين شفا واشفى وشفا

عَمْرِى لَقَدْ ظَمِئْتُ لِلمَاءِ الذى * بينَ الصُّمُورِ الظَّامِئَاتِ والظَّما
وعزَّنِى وجدى بِخَوْدٍ غرَّنِى * عطفٌ لَهَا الآنَ بِقَلْبٍ قدْ قسا

لمْ يبقَ لي صدُورها تعلّلا الاّ بليْتَ ولعل وعسَا

العمور مابين الاسنان من اللحم واحدها عمر والظاميات القليلة اللحم ومنه قيل في الفرس ان فصوصه لظماء أى ليست مترهلة كثيرة اللحم والضمور فيما بين الاسنان من اللحم محمود مستحسن وهو مهموز من الظمأ الذي يراد به العطش كانها القلة اللحم وضموره اعطاش والظما الذي ختم به البيت غير مهموز وهو من قولهم شفة ظمياء اذا كان فيها سمرة وذبول ولثة ظمياء قليلة اللحم واما عمرى في اول البيت فقسم وانما أراد انه ظمى الماء الرضاب الذي بين لحم الاسنان وسمرة الشفتين وأقسم على ذلك وعزنى معناه غلبنى يقال عزه يعزه عزا اذا غلبه ومنه قولهم من عز بزاى من غلب سلب والخود الجارية الناعمة ويقال غره يغره غرورا يقال ماغرك بفلان أى كيف اجترأت عليه ومن غرك من فلان أى من أوطاك (١) عشوة ومنه ومراده أنه اغتر بما بدا من لين عطف هذه الخود وظن أن بقلبها من اللين مثل مابعطفها فكان القلب من القسوة بخلاف ماعليه العطف وقد قال الشاعر فيما ينظر الى هذا المعنى من بعد

وتجرح أحشاءى بعين مريضة * كما لان متن السيف والحد قاطع

وهو من قول جرير

ان العيون التى فى طرفها حور * قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك له * وهن أضعف خلق الله أركانا

والتعلل التلهى بالشىء والتجزؤ به يقال علله بالشىء أى لهاه به كما يعلل الصبي بالشىء ليلهى عن اللبن يقال فلان يعلل نفسه بتعلة ومراد الناظم انه لم يبق له اعراضها عنه مايعلل به نفسه الا التمنى أو الترجى الذي يردد أدواته وهى ليت ولعل وعسى ويصح أن تضبط أواخرها بالفتح وان تضبط بالكسر والتنوين وذلك أن ليت ولعل حرفان وعسى فعل ولا يصح دخول حرف الجر على واحدة منها الا بعد جعلها اسما ولك فيها بعد جعلها اسما وجهان أحدهما الحكاية وعلى هذا تكون أواخرها مفتوحة والثانى الاعراب ولك مع الاعراب وجهان وهما الصرف وعدمه وفيها تفصيل أماليت فلا يخلوا من أن تجعلها اسما للحرف أو للكلمة فاذا كانت اسما للحرف فالصرف من غير تفصيل اذ لامانع منه وان كانت اسما للكلمة فأما على لغة من يذكر الحروف فعدم الصرف واما على لغة التأنيث فوجهان لانه اسم مؤنث على ثلاثة أحرف ساكن الوسط فهو بمنزلة دعد وجمل واما العل فان كانت اسما للحرف وراعيت لغة التذكير فالصرف لاغير وان راعيت لغة التأنيث فعدم الصرف لاغير لان ذلك حكم الاسم المؤنث يسمى به مذكرا اذا كانت حروفه أربعة فصاعدا كزينب اذا سميت به رجلا وان جعلت لعل اسما للكلمة فمنع الصرف أيضا من غير تفصيل وسواء راعيت لغة التأنيث أو لغة التذكير واما عسى فان جعلته اسما للحرف صرفت لانه مذكر سمى به مذكر اذ هو فعل والافعال مذكرة لاغير وان كانت اسما للكلمة فعدم الصرف لاغير وقد جانس الناظم بين عمرى والعمور وبين ظمئت والظامئات والظما واستحسن هنا أن تكون همزة ظميت والظاميات مسهلة ليدخلا مع الظما فى تجنيس الاشتقاق على الوجه الذى قدمته وكذلك جانس بين عزنى وغرنى وبين التعلل ولعل وطابق بين لان وقسا

ضَنّتْ بمَزْورِ القرى منَ الكرَا كىْ لا أرَى طيفًا لها اذا سَرَي
فلوْ تجُودُ قدرَ ماضنّتْ حكَتْ جُودَ أميرِ المؤمنين المُرْتجَى

(١) يقال أوطأه العشوة مثلثة العين اذا غره اه من اختصار المنضد

خليفة الله المسمى المكنى خير الاسامى السامية والكنى

يقال ضننت بالشئ أضن به ضنا وضنانة اذا بخلت وهو ضنين قال الفراء وضننت بالفتح لغة والمزور القليل ومنه قولهم عطاء مزور والكرى النعاس تقول منه كرى الرجل بالكسر يكرى كرى وامرأة كرية على فعلة قال الشاعر

لا يستقل ولا يكرى مجالسها * ولا يمل من النجوى مناجيها

وأصبح كريا أى ناعسا ويقال قريت الضيف قرى وقراء أحسنت اليه اذا كسرت قصرت واذا افتحت مددت والاسامى جمع لأسماء جمع الاسم فاصله أسامى بالتشديد ثم حذفت ياء أفاعيل فصار اسامى بياء واحدة وقد زعم بعضهم ان حذف هذه الياء قياس والكنى جمع كنية أوكنية بالضم والكسر واكتنى فلان بأبى فلان اذا دعى به وقوله خليفة الله المكنى فيه ضعف عند أرباب النحو لانه فصل بين المسمى وخير الاسامى وقد قال أبو الفتح بن جنى تقول أكلت وشربت الماء والخبز فتجاوز بالشرب الماء ليوافقه وتفصل بين أكلت والخبز فصلا واحدا ولو قلت أكلت وشربت خبزا والماء لفصلت بين الاكل والخبز والشرب والماء فأوليتهما غير ما يضاهيهما قال ولذلك قال النحويون أول الاوصاف لآخر الاسماء وآخر الاوصاف لاول الاسماء وذلك نحو قولك ضرب زيد هندا الظريفة الظريف ليقل الفصل ولو قلت ضرب زيد هندا الظريف الظريفة لحصل هناك فصلان اثنان قلت ولولا ما نبهت عليه من الفصل فى بيت الناظم لكان داخلا فيما يستحسن من معادلة أول الكلام بآخره بان يرجع الاول الى الاول والثانى الى الثانى على الترتيب حسبما ذكره البيانيون قال الله تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ومنه قول الشاعر

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا * لدى وكرها العناب والحشف البالى

وهو كثير فى الكلام البليغ معدود فى محاسن البديع والفرق بينه وبين الاول ما ذكر من قبح الفصل بين العامل والمعمول أو بين الصفة والموصوف وشبه ذلك بالاجنبى وقد يزيل القبح عن بيت الناظم كون الاسم يطلق على الكنية والكنية تطلق على الاسم وينظر قول الناظم فلو تجود قدر ما ضننت حكت الى قول بعضهم * لوكما تنقص تزداد * اذ صرت خليفة

وقال ابن أبى عيينة * خالد لولا أبوه * كان والكلب سواء * لو كما ينقص يزدا * د اذا نال السماء وقد خرج من النسيب الى المدح فأجاد فى تخلصه الى ذكر ممدوحه والخروج من النسيب أو غيره الى المدح أو غيره هكذا بلطف التحيل مما يستحسنه المولدون حتى أكثروا منه وهو من بديع ما وقع لهم فيه قول أبى الطيب المتنبى وهو أكثر الناس استعمالا له

مرت بنا بين تربيها فقلت لها * من أين جانس هذا الشاذن العربا
فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يرى * ليث الشرى وهو من عجل اذا انتسبا

وقوله

بأى بلاد لم أجر ذوائبى * وأى مكان لم تطأه ركائبى
كأن رحيلى كان من كف طاهر * فأثبت كورى فى ظهور المواهب
فلم يبق خلق لم يردن فناءه * وهن له شرب ورود المشارب

وقوله

ولو كنت فى أسر غير الهوى * ضمنت ضمان أبى وائل
فدى نفسه بضمان النضا * رواعطى صدور القنا الذابل
وقناهم الخيل مجنوبة * فجاءت بكل فتى باسل

وكان أبو وائل أسره بعض الخوارج فضمن له فديته ذهبا وخيلا فجاء سيف الدولة فاستنقذ أبا وائل وقتل الخارجي وقول أبي تمام حبيب بن أوس

يقول في قومس صحبي وقد أخذت * منا الفلا وسرى المهرية القود
أمطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا * فقلت كلا ولكن مطلع الجود

وقول ابن وضاح بن محمد التميمي يمدح المستعين بالله

وقائلة والليل قد نشر الدجى * فغطى بهامابين سهل وقردد
أرى بارقا يبدو من الجوسق الذي * به حل ميراث النبي محمد
أضاءت به الآفاق حتى كأنما * رأينا بنصف الليل نور ضحى الغد
فقلت هو البدر الذي تعرفينه * والا يكن فالنور من وجه أحمد

وقول البحتري

تنصب البرق مختالا فقلت له * لو جدت جود بني يزداد لم تزد

وقوله

سقيت رباك بكل نوء جاعل * من وبله حقا لها معلوما
ولو انني أعطيت فيهن المنى * لسقيتهن بكف ابراهيما

وقال المعري

وقد حلفت أن تسئل الشمس حاجة * ولو سألتك اليسر برت يمينها

ومن أحسن ماوقع من ذلك للمتأخر قول ابن عمار

أندر بن من كلفت عينيك قتله * وقلت فتى لا يستقيد غريب
ستنصره من مهرة الخيل ترتمي * باعلام نصر في الوغى وتثوب
مزحت فاني يا ابنة القيل لم أكن * لأفشي سرا ضمنته قلوب
سأشهد قومي ان طرفك من دمي * برىء وان كان الفتور يريب
وكيف أرى في الغدر نهجا لسالك * وعهدي بالملك الوفي قريب
فتى نسخ الغدر اقتضاء وفائه * فلا تحكمي ان الوفاء غريب
وألف بين الذئب والظبي عدله * فلا تجزعي ان زار ربعك ذيب

وهي قصيدة طويلة ملاها احسانا وقد أبدع صاحبنا الفقيه البليغ أبو عبد الله بن الخطيب في قوله

فكأنما ليلى نسيب قصيدتي * والصبح فيه تخلص لمديح

وقال أبو الحكم مالك بن المرحل يذكر المعنى الذي لاجله يقدم الغزل على المدح فاحسن ماشاء

ضل المحبون الاشاعرا غزلا * يطارد المدح بالتشبيب أطوارا
لا يشتكي الحب الا في مدائحه * دعوى ليصغي أسماعا وأبصارا
كضارب العود وشى فيه توشية * وبعد ذلك غنى فيه أشعارا

وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في خروجهم بل يقولون بعد فراغهم من نعت الابل وذكر القفار وماهم بسبيله دع ذا وعد عن ذا أو يبتدؤن الكلام في السبيل التي يريدون الكلام فيها غير متصل بما قبله من غير دع ولا عد أو نحوهما

المُرْتَقِي مِنْ نِسْبَةِ المَجْدِ التي * تَسْمُوا إلى الفَارُوقِ أَعْلى مُرْتَقا

من نَبْعَةٍ أُصُولها ثابِتَةٌ وفرْعها الى السّماء قَدْ سَمَا

لَمْ يَعْدَمِ الوَحْى ولاَ الهُدَى بِهِمْ لَيْثاً بِمَا يُسْمى بِهِ الشِّبْلُ اكْتنا

الفاروق هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال سألت عمر بن الخطاب لاى شئ سميت الفاروق قال اسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام ثم شرح الله صدرى للاسلام فقلت الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى فما فى الارض نسمة أحب الى من نسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أين رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت أختى هو فى دار الارقم بن أبى الارقم عند الصفا فاتيت الدار وحمزة فى أصحابه جلوس فى الدار ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى البيت فضربت الباب فاستجمع القوم فقال لهم حمزة مالكم قالوا عمر بن الخطاب قال فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخذ بمجامع ثيابه ثم نثره نثرة فما تمالك ان وقع على ركبتيه فقال ما أنت بمنته يا عمر قال فقلت أشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله قال فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد قال فقلت يارسول الله ألسنا على الحق ان متنا وان حيينا قال بلى والذى نفسى بيده انكم على الحق ان متم وان حييتم فقلت ففيم الاختفاء والذى بعثك بالحق لتخرجن فاخرجناه فى صفين حمزة فى أحدهما وأنا فى الآخر حتى دخلنا المسجد قال فنظرت الى قريش والى حمزة فاصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الفاروق وذكر أيضا عن ابن عباس ان يهوديا كان له دين على منافق فقدمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان محقا فحكم له رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنافق قال فلما خرجا قال المنافق لليهودى لست أرضى بحكم محمد قال فقال له فبمن ترضى قال له بحكومة عمر قال قد رضيت قال ابن عباس فأتيا باب عمر فاستأذنا فخرج اليهما فقال ماشأنكما فخبره اليهودى بما كان فقال اصبرا ودخل الى منزله فأخذ سيفه فجرد فخرج فهبر به المنافق حتى برد قال ثم اعطى اليهودى حقه من ماله قال ابن عباس رحمه الله فهبط جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم فقال عمر الفاروق فقال النبى صلى الله عليه وسلم انظروا ما فعل عمر الساعة مما يرضى الرب فقد سمى الفاروق قال فأتاه الرسول بالقصة والفاروق فى اللغة كل ما فرق بين شيئين يقال رجل فاروق أى يفرق بين الحق والباطل وسمى عمر بذلك لتفرقته بين الحق والباطل وهو الذى تقتضيه القصة الأخيرة وقيل انه أظهر الاسلام بمكة ففرق بين الايمان والكفر وهو مقتضى القصة الأولى ولا يبعد أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه فاروقا فى القصة الأولى لاظهار لاسلام و يكون الله سماه فاروقا فى القصة الثانية لاظهار الحق وقوله المرتقى من نسبة المجد التى من هنا للتجريد لأن اعلى مرتقى هو نفس النسبة وقد يتصور فيها غير ذلك والنبعة فى البيت الثانى عبارة عن الفصيلة التى منها الممدوح وأصلها فى اللغة واحدة النبع وهو شجر يتخذ منه القسى وهو أكرم شجر القسى لانه يجمع بين اللين والشدة ولا يكون العود كريما حتى يكون كذلك قال أبو حنيفة النباتى النبع شجر اصفر العود رزينه ثقيله فى اليد واذا تقادم احمر قال وكل القسى اذا ضمت الى قوس النبع كرمتها قوس النبع أى فضلتها فى الكرم قلت ولكرم النبعة فى الشجر صارت كثيرا ما يعبر بها عن بيتة الكرم فيقال فلان من نبعة شرف ومجد ومراد الناظم أن أهل بيت الممدوح ينتمون الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو المراد بقوله أصولها ثابتة والى عمر صاحب المهدى وهو معنى قوله * وفرعها الى السماء قدسما * وانما أخذ الفاظ هذا البيت من الآية وهى قوله تعالى أصلها ثابت وفرعها فى السماء ومعنى قوله لم يعدم الوحى ولا الهدى بهم البيت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جدهم الأول وقد أيد الله به الوحى ويكنى اباحفص وأن جدهم الأخير هو عمر المذكور وكان من أكبر أصحاب المهدى

الذى اعانوه على اظهار الهدى الذى قام به و يكنى أيضا أباحفص والحفص فى اللغة هو الشبل أى ولد الاسد فجعل كل واحد منهما ليثا فى شجاعته ويكنى مع ذلك باسم الشبل فيقال له أبوحفص وقد قال الشاعر فى مثل هذا * وان حفصا كحفص الضيغم العادى * ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى كنى عمر بن الخطاب بابى حفص روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه يوم بدر انى قد عرفت أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها فمن لقى منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله ومن لقى اباالبخترى فلا يقتله ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يقتله فانما خرج مستكرها قال فقال ابوحذيفة انقتل آباءنا واخواننا وعشيرتنا ونترك العباس والله لئن لقيته لالجمنه السيف و يقال لالحمنه فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر بن الخطاب ياأباحفص قال عمر والله انه لأول يوم كنانى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بابى حفص ايضرب وجه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسيف فقال عمر يارسول الله دعنى فلاضرب عنقه فوالله لقد نافق فكان أبوحذيفة يقول ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ولاأزال منها خائفا الا أن تكفرها عنى الشهادة فقتل يوم اليمامة شهيدا وروى أن رجلا من قريش من عظماء بنى أمية قال لعمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة كيف اصبحت ياأباحفاص فقال له عمر اياى وكلام الجمة والجمة هم الحمق لولا موضعك من الشرف لادبتك اذلم تقل أيها الأمير فقل ياأباحفص فانها كنية أفتخر بها جدى لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم كناه بها

فَكَانَ لِلمُخْتَارِ مِنهُمْ صَاحِبٌ ... فى حلبَةِ الايمانِ صلى وتلاَ

وكَانَ للمهْدِى منهُمْ صَاحِبٌ ... فى حَلْبَةِ التوْحيدِ جلّى وشأى

ذَاكَ أَبو حفصٍ الذى الى علاَ ... سَمِيّه الهَادى أَبى حفصٍ نَمَا

الحلبة جماعة الخيل فى الرهان وأول الخيل فى الحلبة يقال له السابق والمجلى والثانى يقال له المصلى لأنه يتبع صلوى السابق والثالث المسلى والرابع التالى والخامس المرتاح والسادس الحظى والسابع العاطف والثامن المؤمل والتاسع اللطيم والعاشر السكيت والسكيت مخففا وهو الفسكيل أيضا وهو الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل هكذا رتبها بعضهم و بعض اللغويين رتبها على غير ذلك فأتى بالعاطف بعد التالى فجعله خامس الحلبة ثم المرتاح بعده ثم المؤمل ثم الحظى ثم اللطيم ثم السكيت وتقول العرب للفسكل القاشور و يقال فيه الفسكل بضم الفاء والسين والفشكل أيضا بالشين المعجمة وضم الفاء والكاف وكسرهما وأما السكيت مخففا فهو تصغير السكيت المشددة تصغير الترخيم فقوله صلى من لفظ المصلى فى الخيل أى جاء فى السبق ثانيا يتلو الأول وقوله جلى من لفظ المجلى أى جاء سابق الحلبة أولا وشأى سبق تقول شاوت القوم شاوا اذا سبقتهم ومنه قول امرىء القيس * وقال صحابى قد شأونك فاطلب والعلى والعلاء الرفعة والشرف وكذلك المعلاة وهى مفرد المعالى ومراده أن قبيل الممدوح كان منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب وهو عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو ماهو فى الفضل لكن بعد أبى بكر رضى الله عنه فلذلك جعله مصليا يتلوه فى الدرجة وكان منهم صاحب للمهدى وهو أحد أجداد الممدوح وجعله مجليا لانه كان عند المهدى أجل أصحابه وقوله فى حلبة الايمان صلى وتلا فيه تورية حسنة وذلك أنه أراد أن عمر رضى الله عنه جاء تاليا لأبى بكر بمنزلة المصلى فى الحلبة وأوهم أنه يريد الصلاة والتلاوة وقوله ذاك أبوحفص الذى الى علا حذف التنوين من حفص لالتقائه مع اللام الساكنة بعد وحذف التنوين لذلك قليل ومنه قراءة من قرأ فى الشاذ قل هو الله أحد الله

بحذف التنوين من أحد وقول الشاعر

فألفيته غير مستعتب * ولا ذاكر الله الا قليلا * وانما فعل الناظم ذلك لاجل اقامة الوزن

وزادَ عَبْدُ الواحدِ الهادي ابْنُهُ مَعالِمَ التَّوْحيدِ والهُدى عُلاَ
ثُمَّ أتمَّ اللهُ نورَ هَدْيِهِ بنَجلِهِ يحيي الامامِ المرتضى
ثُمَّ تجلَّتْ آيةُ اللهِ التي بَدا بِها الحقُّ اليقينُ وجلا
بنجلِهم بلْ نجمِهم بلْ بَدْرِهمْ بلْ شمسِهمْ ذاتِ السَّناءِ والسَّنَا

المعالم جمع معلم وهو الاثر وأصله فى اللغة أثر الطريق الذى يستدل به عليه ثم صار يستعمل فى غير ذلك والنجل النسل نجله أبوه أى ولده يقال فى الشتم قبح الله ناجليه وجلا الامر وضح ومنه قول زهير

فان الحق مقطعه ثلاث * شهود أو يمين أو جلاء

والسناء بالمد الرفعة والسنا بالقصر الضوء وأتى الناظم فى البيت الاول بعلا فى قافيته وهو منصوب المحل وقد اختلف النحويون فى الاسم المقصور المنون اذا وقف عليه هل ألفه هى الالف الاصلية أو بدل من التنوين على ثلاثة مذاهب فذهب أبو عمرو بن العلاء والكسائى الى انها الالف الاصلية سواء كان مرفوعا أو منصوبا أو مجرورا وحمل بعض الشيوخ قول سيبويه على هذا المذهب ووجه هذا القول ان الالف انما ذهبت فى الوصل لاجل التنوين فلما ذهب التنوين فى الوقف رجع المحذوف وذهب المازنى الى انها بدل من التنوين فى الاحوال كلها وحجته انها جاءت بعد فتحة لما جاءت فى قولك رأيت زيدا قال بعض شيوخنا وكثرة مجىء هذه الالف رويا فى حال الرفع والخفض يرد هذا القول ويقطع بقائله وأما المذهب الثالث فان يكون المعتل مقيسا على الصحيح ومحمولا عليه فتكون الالف أصلية فى الرفع والجر وبدلا من التنوين فى حال النصب وعلى هذا المذهب أكثرهم وهو مذهب الفارسى أبى على ويؤيده ان أبا عمر ووقف على مفترى وما أشبهه فى الرفع والجر بالامالة وفى النصب بالفتح لان ألف التنوين لا تمال إمالة اشعار وانما تمال الالف المنقلبة عن الياء اشعارا بما انقلبت عنه ويعضده أيضا وقوعها رويا فى الرفع والخفض قال بعضهم ولا توجد فى النصب رويا الا نادرا قال ولا أذكر منه الا قول جرير

أخذوا مواثق أمرهم بعزائم * فلا ترى أمرا سدى

وهى مقصورة وانما جاء على قول القائل * جعل القين على الدف أبر * يريد لغة من يقف فى الاحوال كلها بحذف التنوين من غير تعويض قلت فالالف فى بيت الناظم لابد أن تكون أصلية لانه جعلها حرف روى فاما ان يكون اعتقد مذهب من يراها أصلا فى الاحوال كلها وأما أن يكون أتى بها على قول من قال جعل القين على الدف أبر كالقول فى بيت جرير فتأمله وعلى هذه الطريقة ينبغى ان يحمل كل ما يأتى بعد من ذلك وسأنبه على بعض ذلك وقد أحسن الناظم فى البيت الاخير وجاء فيه بانواع من البديع منها انه جانس بين نجلهم ونجمهم وارتقى من النجم الى البدر ثم الى الشمس وتخلص الى القافية بذكر السناء والسنا فجاء بصفتى الشمس وهما النور ورفعة المكان مع المجانسة فى اللفظ بينهما وأوغل ايغالا حسنا وقد فسرت الايغال قبل

محمدٌ سليلُ يحيى بنُ أبي محمدٍ نجلُ أبي حفصٍ الرِّضا
مُستنصرٌ باللهِ منصورٌ بهِ مؤيَّدٌ بعونِهِ على العِدا

السليل الولد والمؤيد الممد بالايد وهو القوة يقال أيدته تأييدا أي قويته وتأيد الشيء تقوى ورجل أيداي قوي قال الشاعر وهو دعبل

اذا القوس وترها أيد * رمى فاصاب الكلا والذرا

وهذا البيت من أبيات المعاني ذكران دعبلا وقف عليه اعرابي وهو ينشد هذا البيت فقال الاعرابي ياهذا ماعنيت بقولك قال دعبل القوس قوس الله التي تسمى قوس قزح مطرت الارض بها وأعشبت فرعتها الابل فسمنت كلاها وأسنمتها فقال الاعرابي لله دركم ياحاضرة انكم لتسيرون معنافة ـاوون وتتنكبون عنا فتفوتون والعدا الاعداء بالضم والكسر وبالوجهين يروى قول الاخطل

ألا ياسلمي ياهند هند بني بدر * وان كان حيانا عدا آخر الدهر

وقال ثعلب يقال عدا وعدا بالكسر والضم فاذا أدخلت الهاء قلت عداة بالضم وقوله نجل أبي حفص الرضى حذف التنوين من حفص على حد حذفه في قوله قبل ذلك أبو حفص وقد نبهت عليه هـذا ان حمل الرضى على ان يكون وصفا كما تقول مررت برجل عدل ولك ان تجعل الرضى مضافا اليه الاسم قبله وهو أبو حفص فيكون حذف التنوين للاضافة وتكون الاضافة هنا على معنى المنسوب الى الرضى المعروف به كما قالوا طلحة الجود وهو بعيد والاول ابين وقد عدوا من أنواع البديع ان يطرد للشاعر اسم الممدوح أو غـيره مع أسماء آبائه في النظم من غـير كلفة ولا حشو فانها اذا اطردت دلت على قوة عارضـة الشاعر وقلة كلفته كقول دريد بن الصمة

قتلنا بعبد الله خير لداته * ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب

ولما سمع عبد الملك بن مروان هذا البيت قال كالمتعجب لولا القافية بلغ به آدم ومن ذلك قول الاعشى

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد * وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل

ذكران معنى قوله ترجو شبابك ترجو بقاءك قلت ووجهه انه يبغي حتى يبلغ سن الشيوخ فلا يخترم قبل ان يستوفي سن الشباب وقال الآخر

وشباب حسن أوجههم * من أياد بن نزار بن معد

وأنشدني الشيخ الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن يربوع رحمه الله للاديب أبي الحكم مالك بن المرحل رحمه الله

صحبت في عمري ناسا أولي حسب * حازوا الثناء بموروث ومطبوع
فلم أجد فاضلا فيمن صحبت سوى * محمد بن أبي العيش بن يربوع

وقال أبو تمام

مناسب تحسب من سروها * منازلا للقمر الطالع
كالدلو والحوت وأشراطه * والبطن والنجم الى التابع
نوح بن عمرو بن جوى بن عمـــر بن جوى بن الفتى ماتع

فاتى بستة وقابلها بستة لولا انه بنقص في ذكر الفتى في سادس جدوان كان لم يردفتاء السن وانما أراد الفتوة لكنه موهم والتالع الدبران كأنه تلع جيده اي مده وقال أبو تمام أيضا

عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب * بن سعد سهمكم لا يسهم

الا انه ظاهر عليه التكلف الذي يأباه الاطراد قلت وبيت دريد أبدع في هذا الباب من بيت الاعشى وان كان كل واحد منهما قد أتى بار بعة أسماء من غير تكلف لكن في بيت دريد ما نبه عليه عبد الملك من ان السامع يتوهم ان القافية قطعت بالشاعر عن الازدياد في رفع نسب المذكور وانه لو لم ينته البيت لانتهى بذكر الاسماء

الى غاية فوق ذلك وفى بيت الاعشى بيان ان الشاعر انما وقف عن الازدياد فى ذلك لتعذره لاجل الوزن فتشعر النفس بالعجز من الشاعر ولا تشعر به فى مثل بيت دريد فتأمل هذا فانه حسن جدا وهو مراد عبد الملك وقد جاء الناظم باربعة أسماء وهى اسم الممدوح وأسماء آبائه الا أن التكلف باد عليه لعدوله عن ابن ابى سليل ونجل فلا ينبغى ان يدخل فى باب الاطراد ولا يعد منه لان الاطراد الذى ذكره أهل البديع هو ماجاء من ذكر أسماء المذكور وآبائه على ترتيب سهل من غير تكلف فى النظم ولا تعسف فى السبك حتى تكون الاسماء فى اطرادها كاطراد الماء وسهولة انصبابه وأبو الحسن وان لم يقع له الاطراد فى هذا البيت على الوجه الذى يختار من عدم التكلف فانه لم يبعد من الاحسان لاتيانه باسم الممدوح وثلاثة من آبائه فى بيت واحد

مُلْكٌ سُلَيْمَانِيَّةٌ بَسْطَتُهُ ... مَافَوْقَهُ لِمُعْتَلٍ مِنْ مُعْتَلَا

جرَى مِنَ العَلْيَا إِلَى أَقْصَى مَدَى ... مَابَعْدَهُ لِمُخْتَطٍ مِنْ مُخْتَطَا

مُمْتَطِيًا أَسْنِمَةَ العَزْمِ الَّتِى ... مَافَوْقَهَا لِمُمْتَطٍ مِنْ مُمْتَطَا

صُبْحٌ بَدَا بَدْرٌ هُدَى طَوْدٌ عَلَا ... بَحْرٌ حلَا غَيْثٌ هَمَا لَيْثٌ سَطَا

نَجْمٌ سَرَى سَيْفٌ فَرَى رُكْنٌ سَمَا ... حِصْنٌ حَمَى رَوْضٌ ذَكَا غُصْنٌ زَكَا

قوله ملك سليمانية بسطته يريد انه عظيم الملك وانه قد نال منه وبلغ من سعته وبسطته مالم ينله أحد فى وقته فبهذا المعنى نسبه الى سليمان عليه الصلاة والسلام لعظمة ملك سليمان صلوات الله عليه ويقال اختطيت وخطوت بمعنى واحد ومختطى اسم مصدر من اختطيت والممتطى الامتطاء من قولهم امتطيت الناقة وهو من المط وهو المد يقال مططت بالقوم اذا مددت بهم فى السير والاسنمة جمع سنام وهو للابل لكن استعاره هنا للعزم والطود الجبل العظيم والغيث المطر وقد غاثى الله الارض يغيثها غيثا ويقال همى الماء يهمى هميا وهميانا اذا سال والسطو القهر بالبطش يقال سطا به يسطو سطوا وفريت الشى أفريه فريا قطعته لاصلحه قال الكسائى افريت الاديم قطعته على جهة الافساد وفريته قطعته على جهة الاصلاح قلت ومن الاول افرى الذئب بطن الشاة ومن الثانى قولك فريت الفرى اذا جئت بالعجب فى عملك وركن الشئ جانبه الاقوى وهو يأوى الى ركن شديد اى عز ومنعة وجبل ركين له اركان عالية وزكا الزرع يزكو زكاء اى نما وازكاه الله وقوله صبح بدا بدر هدى يتأتى فى اعراب هذه الاسماء ان تكون اخبار المبتدآت محذوفة تقديرها هو صبح هو بدر هكذا الى آخر البيتين وقد زعموا ان تكثير الجمل فى المدح ابلغ وانه يدل على التفخيم والتعظيم ويتأتى فيها ان تكون اخبارا لمبتدأ واحد محذوف ويكون التقدير هو صبح بدا بدر هدى الى تمامها وتعدد الاخبار فى باب المبتدا جائز وقد يسوغ فيها أن تكون صفات للملك فى قوله ملك سليمانية بسطته لانها وان كانت جوامد فانها مؤولة بالمشتق وهى فى معناه وانما أراد أن يقول شهيرا ومهتدى به أومنيرا فقال صبح وكذلك أراد أن يقول ساطع الضياء فقال بدر وأراد أن يقول منيع الجانب حام لمن لجأ اليه فقال طود والوصف بهذه الاسماء على التأويل وان لم يكن مطردا فقد يصير فى حيز المطرد كونها موصوفات قد وطأنها الصفات للوصف بها فتأمله وقد التزم الناظم الطاء قبل حرف الروى فى ثلاثة من هذه الابيات ان كان قصد ذلك والبيتان الرابع والخامس بناهما على نوع من التقسيم يسمى تقسيم التقطيع ويسميه بعضهم التفصيل وقد ذكرنه قبل وهو الذى أشار اليه الناظم فى الخطبة ومن أمثلته قول بعض الشعراء يصف سحابا

تسربل وشيا من خزوز تطرفت * مطارفهـا طرزا من البرق كالتبر
فوشى بلا رقم ونقش بلا يد * ودمع بلا عين وضحك بلا ثغر

وفى بيتى الناظم اتفاق كل جزءين من أجزائهما فى حرف المقطع وهو نوع من الترصيع

فَرْعٌ كَرِيمٌ مِنْ أُصُولٍ كَرُمَتْ قَدِ اصْطَفَاهُ مِنْهُمْ مَنِ اصْطَفَا
بَدْرٌ جَلَا بِهِ الالهُ مَا دَجَا وَجَبَلٌ أَرْسَى بِهِ مَا قَدْ دَحَا
إِنْ أَمَرَ الدَّهْرَ بِنَفْعٍ يَأْتَمِرْ وَانْ نَهَى الدَّهْرَ عَنِ الضَّرِّ انْتَهَى
يُعْطِى وَيُمْطِى وَالزَّمَانُ يَقْتَفِي آثَارَهُ مُمْتَثِلاً فِيمَا أَتَى

اصطفى افتعل من قولهم صفا الشئ يصفو صفاء والمعنى اختار الصفو وصفوة الله خالصه ومحمد صلى الله عليه وسلم صفوة الله من خلقه ومصطفاه ودجا من قولهم دجا الليل يدجو وارسى الشئ جعله يرسواى يثبت من قولهم رسى يرسو اذا ثبت ودحا من قولهم دحوت الشئ دحوا أى بسطته قال الله تعالى والارض بعد ذلك دحاها وأئتمر الامر امتثله ويقال اقتفى أثره وتقفاه أى اتبعه وقوله بدر جلا به الاله مادجا تمثيل أراد به أن دولته نسخت الفتن وأزالت الجور وقوله وجبل أرسى به ما قد دحا معناه أن البلاد سكنت بولايته بعد اضطرابها وهو تمثيل أيضا وقد قال أبو تمام

القوم ظل الله أسكن دينه * فيه وهم جبل الملوك الراسى

وقال ابن الرومى

هم جبل الملك الذى لو أزاله * وحاشاهم مازال للارض زلزال

وقوله أن أمر الدهر بنفع يأتمر معناه أن الايام انما تأتى بما يوافق أغراضه فكأنها ممتثلة له فيما يأمر به وينهى عنه ومثله قول أبى الطيب المتنبى

فتى تتبع الازمان فى الناس خطوه * لكل زمان فى يديه زمام

وينظر الى قول الآخر

أنت للدنيا اذا جا * رت خطام وزمام

وقوله يعطى و يمطى يعطى الاموال ويمطى المراكب وقد يريد بقوله يمطى يبوىء الرتب الرفيعة من الجاه والخطط فيتبع الزمان آثاره فى ترفيع من يرفعه وهو ابين وقد قال معاوية رضى الله عنه نحن الزمان من رفعناه ارتفع وقال ابو الطيب فيما ينظر الى هذا المعنى

أرد لى خيرا جدت أولم تجد به * فانك ما أحببت فى أتانى

كَمْ خَصَّ أَرْبَابَ النُّهَى افْهَامَهُ بِأَنْعُمٍ دَعَا الَيْهَا النَّقَرَا
وَعَمَّ أَرْبَابَ اللُّهَى أَنْعَامَهُ بِأَنْعُمٍ دعا الَيْهَا الْجَفْلَا .

النهى العقول الواحدة نهية سميت بذلك لانها تنهى عن القبيح والنقرا أن تدعو بعضا دون بعض وهو الانتقار يقال دعوتهم النقرا أى دعوة خاصة وقال طرفة بن العبد

نحن فى المشتاة ندعوا الجفلى * لا ترى الآدب منـا ينتقر

والجفلى أن تدعو النـاس كلهم قال أبوزيد دعوتهم الجفلى والاجفلى والاصمعى لم يعرف الاجفلى والآدب فى البيت الذى أنشدناه لطرفة معناه صاحب المأدبة واللهى العطايا دراهم كانت أوغيرها واحدتها لهوة ويقال أنه لمعطاء اللهى ومراد الناظم فى البيت الاول أن أرباب العقول ينفردون من الممدوح بما يفيدهم من أنواع المعارف التى يفهمهم اياها وينعم عليهم بها فيختصون بذلك منه لان الذين هم أهل لفهم المعارف ودقائق المعانى أفذاذ من النـاس ومراده فى البيت الثانى أن عطاياه ومواهبه يشمل جميع العافين والطلاب بها ويعمهم لانه لايخيب سائلا لـكثرة عطائه وعظيم كرمه وقد أنشد عبدالله بن جعفر قول الشاعر

ان الصنيعة لاتـكون صنيعة * حتى تصيب بها طريق المصنع

فقال هذا رجل يريد أن يبخل النـاس أمطر المعروف مطرا فان صـادف موضعا فهو الذى قصدت والا كنت أحق به ويشبه هذا ماينسب لابى الحسين بن سراج

بث الصنائع لا تحفل بموقعها * فيمن نأى أو دنا ما كنت مقتدرا

فالغيث ليس يبالى حيثما انسكبت * منه الغمائم تربا كان أو حجرا

وأخبرنا غير واحـد من شيوخنا أن الفقيه الـكاتب البليغ الفاضـل أبا القاسم خلف بن عبدالعزيز القتبورى أنشـدهم لنفسه من قصـيدة طويلة مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسـلم حين زار قبره عليه الصلاة والسلام وأنشدها

دعا الدعاة الى دين الهدى النفرا * وجاء بعد فـكان الداعى الجفلا

يريد أن دعوة الانبياء كانت خاصة ودعوته صلى الله عليه وسلم عامة كما جاء فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال وكان النبى يبعث الى قومه و بعثت الى الناس كافة وله فى هذين البيتين طباق ومقابلة وترصيع وتجنيس

فاعْمُمْ بِأَوْصافِ العُلى كَمالَهُ * واسْتَثْنِ فى وَصْفِ سِواهُ بِسِوا

لا تُجْرِ نَعْتَ مَنْ عَداهُ مطلَقًا * فى المَجْدِ بَلْ مقيَّداً بما عَدا

فَمَنْ يُقَرِّظْ مَنْ عَداهُ فَلْيَكُنْ * مُسْتَثْنِياً بما عَدا وما خَلاَ

قَدْ عَمَّمَ الْخَيْرَ وأَمَّ سُبْلَهُ * واقْتَصَّ آثارَ الرَّشادِ واقْتَفا

يقال عم يعم عموما شمل ومنه قولهم عمه بالعطية وقوله واستثن فى وصف سواه أى فى وصف غيره ذكر الاخفش فى سوى ثلاث لغات أن ضممت السين أوكسرت قصرت وان فتحت مددت ومن أبيات الـكتاب

ولا ينطق الفحشاء من كان منهم   اذا جلسوا منا ولا من سوائنا

وقول الاعشى

* وما قصـدت من أهلهـا لسوائـكا * واستعمل سوى فى قوله فى وصف سواه استعمال غـير فجاء به مخفوضا بالاضـافة والوجه فى سوى عـدم التصرف وأن لا تـكون إلا نصبا وقـد جعل سيبويه دخول من عليها من الضرورات مع أن من تدخل كثيرا على الظروف التى لا تتصرف ولو قال واستثن فى وصف سواه بتنوين وصف على أن يكون الضمير فى سواه عائدا على كماله زالت عنه هجنة ارتكاب الشاذ وأما قوله بسوى فليس من هذا لان سوى هنا لم تدخل عليها الباء حتى جعلها اسما ولك فيها وجهان الصرف ان جعلتها

اسما للفظ وعدمه ان جعلتها اسما للكلمة وأماماعدافى قوله مقيدا بماعدا وفى قوله مستثنيا بماعداوما خلا فليس فيه الا الحكاية لانه مركب والتقريظ مدح الرجل حيا كما أن التأبين مدحه ميتا و يقال فلان يقرظ صاحبه تقريظا بالظاء والضاد جميعا اذامدحه وأم الشئ قصده واقتص أثر الشئ أى اتبعه وكذلك اقتفى الشئ معناه اتبعه والمعنى فى البيت الاول وتاليه واحدوهو أن المادح هذا الامير أن يصفه بجميع أوصاف المعالى من غير استثناء وليس له ذلك فى غيره الا بتقييد وما أفاد فى واحد من هذه الابيات زيادة على ما أفاده فى الآخرين سوى ترداد العبارة والاطالة من غير طائل وقد يستحسن تنويع العبارة اذاجيء بالمعنى فى عبارات تفيد كل واحدة منهن ماتفيده الاخرى كقول ابن الرومى

هى الاعين النجل التى كنت تشتكى * مواقعها فى القلب والرأس أسود
فمالك تأسى الآن لما رأيتها * وقد جعلت مرمى سواك تعمد
تشكى اذا ما أقصدتك سهامها * وتأسى اذا نكبن عنك وتكمد
كذلك تلك النبل من صرفت له * ومن صرفت عنه من الناس مقصد
اذا عدلت عنا وجدنا عدولها * كوقعها فى القلب بل هو أجهد
تنكب عنا مرة فكأنما ..... * منكبها عنا الينا مسدد

فقد تسلسل فى المعنى وتصرف فيه وابرزه فى عبارات شتى ومال به الى جهات من المقاصد بخلاف أبيات الناظم فانه لم يفد فى واحد غير ما أفاده فى الآخر فهى فى باب الأقبح أدخل

مُلكُهُ حكى مُلكَ سليمانَ الّذى * لَمْ يتّجِهْ لِغَيْرِهِ وَلاَ انبغَا
حَضرَتُهُ أمُّ البِلاَدِ كُلِّهَا * وقطبُ مامِنْها دَنَا وَما قَصَا
انْ ذُكِرَتْ مُدْنُ الدُّنَا فهيَ التى * يختتمُ الفخرُ بها ويبتدا
لجنّةِ الخلدِ تَسرُ مَنْ رَآى * فيزْدَرِى الخلدَ وَسرُّ مَنْ رَآى
حُسْنَ البِلاَدِ كلّهَا مجْتمعٌ * لهَا وَكلُّ الصّيْدِ فِى جَوْفِ الفرَا

يقال انبغى له كذا أى سهل وتيسر وقد كان بعض الشيوخ يذهب الى أن العرب لا تقول انبغى بلفظ المضى وانها انما استعملت هذا الفعل فى صيغة المضارع لاغير وهذا يرده نقل أهل اللغة فقد حكى أبو زيد أن العرب تقول انبغى له الشيء ينبغى انبغاء والصحيح أن استعماله بلفظ المضى قليل والا كثر من العرب لا يقوله فهو فى ذلك نظير يدع وودع اذ كان ودع لا تستعمل الا فى القليل وقد استعمل سيبويه انبغى فى عبارته فى باب متصرف رويد ولا أحب لأبى الحسن أن يتسامح فى أن يحاكى بملك سليمان عليه السلام ملك أحد من الناس والله تعالى يقول قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى وعسى أن يكون قصد الناظم أن ممدوحه لم يبلغ أحد من ملوك زمانه مبلغه فى سعة الملك فيقف به التشبيه على هذا القدر ونعوذ بالله من الغلو * وام كل شى أصله وعماده قال ابن دريد كل شى انضمت اليه أشياء فهو ام لها وقيل ام النجوم المجرة لانها مجمع النجوم وام القرى مكة لانها توسطت الارض فيما ذكر وقيل لان الارض منها دحيت قلت ولا يبعد ان تكون سميت ام القرى لان جميع أهل القرى يقصدونها ويحجون اليها أولا حتوائها على البيت العتيق والمسجد الذى صلاة واحدة فيه بألف صلاة فقيل لها أم القرى لفضلها على هذا لانها فضلت القرى كما سميت فاتحة الكتاب ام الكتاب ولانها لا يجزى عنها

غيرها وجعل الناظم حضرة هذا الممدوح ام البلاد لكونها حضرة الامام الاعظم عندهم وكل البلاد منقاد اليها وتبع لها والقطب هو الشئ الذى عليه المدار ومنه قيل فلان قطب بنى فلان أى سيدهم الذى يدور عليه أمرهم وصاحب الجيش قطب رحى الحرب ولما كانت حضرة الملك وعلها مدار أمر البلاد جعلها لها قطبا ويقال دنا يدنو دنوا اذا قرب وقصا يقصو اقصوا اذا بعد والدنا جمع دنيا مثل الكبرى والصغرى والصغر والفرا الحمار الوحشى وقولهم كل الصيد فى جوف الفرا مثل يضرب للشئ يكون عظيما فيغنى لعظمه عن جميع أبناء جنسه كأنها كلها حاصلة فيه والاصل فيه أن الصائد اذا صاد الحمار الوحشى فكأنه حصل على جميع المصيدات لعظم حمار الوحش لانه يغنى عن جميعها وقد جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك فى أبى سفيان حين أسلم والازدراء التحقير يقال ازدريته أى حقرته والخلد الذى ذكره فى عجز البيت الرابع هو قصر بنى العباس بناه أبو جعفر المنصور وسماه بالخلد وسرمن رءآى موضع بقرب من بغداد كان يعرف بسامر أو هو اسم اعجمى فسكنه المعتصم من الخلفاء العباسيين وبنى فيه مدينة وأظنهم كرهوا لفظ سامرا فسموها بسرمن رأى وذكر بعضهم أن معنى هذا الأسم سرور من رأى قال والسر عند العرب السرور وقال فان جعلت سر فعلا ماضيا التزمت الفتح وكذلك ان فتحت السين قلت فعلى الوجه الاول تكون فتحة الراء من قوله فبزدرى الخلد وسرمن رأى اعرابية وعلى الوجه الثانى تكون فتحة بناء وذكر المسعودى ان المعتصم لما تقرى المواضع ليتخذ موضعا لسكناه انتهى الى موضع سرمن رآى وكان للنصارى هناك دير عادى فسأل بعض أهل الدير عن اسم الموضع فقال له يعرف بسامرا فقال ومامعنى سامرا قال نجد فى الكتب السالفة من الامم الماضية أنها مدينة سام بن نوح ومعنى البيت الخامس متداول بين الشعراء وقد قال المتنبى وهو بديع

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما * وأتى فذلك اذ أتيت مؤخرا

وقال أيضا

مضى وبنوه وانفردت بفضلهم * والف اذا ماجمعت واحد فرد

وأصله من قول الآخر

وليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد

ومثله قول بعضهم

حتى اذا ما اراد الله يسعدنى * رأيته فرأيت الناس فى رجل

وأصله من قول جرير

اذا غضبت عليك بنو تميم * حسبت الناس كلهم غضابا

وقد أخذ هذا المعنى ابو الحسن السلامى فاحسن كل الاحسان فى قوله

اليك طوى عرض البسيطة جاعل * قصارى المطايا ان يلوح لها القصر
فكنت وعزمى فى الظلام وصارمى * ثلاثة اشباه كما اجتمع النسر
وبشرت آمالى بملك هو الورى * ودار هى الدنيا ويوم هو الدهر

وينظر البيت الثالث من هذه الابيات الى قول أبى الطيب

لحب بن عبد الله اولى فانه * به يبدأ الذكر الجميل ويختم

وقوله فى على بن عبد الله وهو سيف الدولة وكتب بعض الفضلاء على هذا البيت من شعر المتنبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خفاء بما فى هذه الابيات من الطباق والتجنيس

حلَّ بِهَا أبهى البُدُور هالةً   أوفت على كلِّ البلادِ من علا

أشرقتِ الدنيا بها اذ أشرفت   منها على مزدرعٍ ومُستما

ما رأسُ غمدان إذا قِيس بها   اشراق أنوارٍ واشراف بنا

الهالة الدارة حول القمر واوفيت على كذا اشرفت عليه ويقال أتيته من عل قال

* كجلمود صخر حطه السيل من عل * ومن علا قال * باتت تنوش الحوض نوشا من علا *

ومن عل بالضم قال * كغرقئ بيض كنه القيظ من عل * ومن عال قال

* ظمأى النسامن تحت ريامن من عال * ومن معال قال * ونفضان الرحل من معال * والمستمى المتصيد والسماة الصيادون وقد سموا واستموا اذا خرجوا للصيد وغمدان قصر باليمن وهو قصر سيف بن ذي يزن وفيه يقول أمية بن أبي الصلت

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا * في راس غمدان دارا منك محلالا

وسنسوق ان شاء الله خبره عند ذكره ويقال أشرفت على كذا أي اطلعت عليه من فوق والموضع مشرف والبناجع بنية يقال بنية وبنا و بنية و بناو عبر بأبهى البدور عن الممدوح وبالهالة عن حضرته والباء في حل بها للتجريد بمثل ان لو قال حل منها وقد تقرر أن الباء تستعمل هنا كما تستعمل من والحضرة هنا هي الهالة و يسوغ أن تكون الباء بمعنى في أي حل فيها هالة وانما جعلها موفية على كل البلاد لحلوله فيها وعلوها به ثم ذكر من اشراق أنوارها واشراف مبانيها ما يحتقر راس غمدان في جانبه وما في قوله ما راس غمدان استفهامية بمنزلتها في قولك ما زيد اذا قيس بالامير أي هو متضائل أمره محتقرا اذا ذكر مع الامير فضمن الكلام هذا المعنى وان كان أصله الاستفهام وجانس بين أشرقت وأشرفت واشراق واشراف وانما نبه على ما ذكر من البدر والهالة أبو الطيب المتنبي في قوله

اعيي زوالك عن محل نلته * لا تخرج الاقمار من هالاتها

وهو غاية في البراعة ويتعلق بذكر الهالة ما حكاه ابو عبد الله بن عياش كاتب المنصور ابي يوسف يعقوب قال كان لابي بكر بن مجبر وفادة على المنصور في كل سنة فصادف في احدى وفاداته عليه فراغ المنصور من احداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتصلة بقصره في حضرة مراكش وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه وتخفض لدخوله وكان جميع من بباب المنصور يومئذ من الشعراء والادباء قد نظموا أشعارا أنشدوها اياه في ذلك فلم يزيدوا على شكره وتجزيته الخير فيما جدد من معالم الدين وآثاره ولم يكن فيهم من تصدى الى وصف الحال حتى قام ابو بكر بن مجبر فانشد قصيدته التي أولها

أعلمتني القي عصا التسيار * في بلدة ليست بدار قراري

واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها

طورا تكون بمن حوته محيطة * فكأنها سور من الاسوار

وتكون طورا عنهم محجوبة... * فكأنها سر من الاسرار

وكأنما علمت مقادير الورى * فتصرفت لهم على مقدار

فاذا أحست بالامام يزورها * في قومه قامت الى الزوار

يبدو فتبدوا ثم تخفى بعده * كتكون الهالات للاقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها والتفت الى الجراوى وكان يعلم قلة تسليمه لابى بكر وكثرة غضه منه فقال سلإله يا أحمد ثم أنشده

اذا لم تستطع شيئا فدعه   وجاوزه الى ما تستطيع

قال أبو عبدالله نخرج ابو بكر بن مجبر والشعراء يومئذ يلومونه أن لم يكن أول منشد حتى يخفوا اشعارهم بعده ويستروا عوارهم

وَدَّتْ مِيَاهُ الأَرْضِ أَنْ تَحْظَى بِمَا   قَدْ حظي المَاءُ الّذِى فِيهَا جَرَى

أَرْوَتَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ سُحُبُ   مِنْ جُودِكُمْ رَوْضَ الأَمَانِى فَارْتَوَى

كَمْ فِضَّةٍ جَامِدَةٍ أَنْفَقْتَ كَىْ   تَجْرِى ذَوْبَ فِضَّةٍ وَسْطَ الفَضَا

حَتَّى تَرَاهُ مُغْنِيًا مَنْ قَدْ جَبَا   مِنَ اللُّجَيْنِ مُغْنِيًا مَنْ قَدْ جَبَا

الفضاء ممدود وهو الساحة وما اتسع من الارض وانما قصره لاجل القافية والوزن ولفظة جبا الاولى من قولهم جبيت الخراج وجبوت جباية وجباوة وجبا الثانية من قولهم جبيت الماء فى الحوض وجبوته أى جمعته والجابية الحوض الذى يجبى فيه الماء للابل قال الشاعر

* كجابية الشيخ(١) العراقى تفهق * والجمع الجوابى ومنه قوله تعالى وجفان كالجواب واللجين الفضة جاء مصغرا كالثريا والكميت وكان أبو عبدالله المنتصر معنيه بذلك قد ساق الماء الى حضرة تونس من موضع ناء عنها على مجار قديمة عادية من بناء الاول فى قنوات كانت دائرة فجددها وانفق فيها أموالا عظيمة حتى أوصل الماء عليها الى حضرته وقوله أروت أمير المؤمنين سحب نصب أمير المؤمنين على النداء ولما كان الناس يصفون المقتصر على الامانى دون التشمير فى الطلب وأعمال مضاء العزم بانه لا يحصل على طائل من مقاصده حتى قال الشاعر وهو أبو تمام

من كان مرعى عزمه وهمومه * روض الامانى لم يزل مهزولا

فاستعار للامانى روضا ووصف راعيه بالهزال الجدبه جعل الناظم للامانى روضا مخصبا اذ قد ارواه هذا الامير بسحائب جوده يريد أن ذا الامانى ينال مقاصده من غير طلب ولا تعب فى أيام الممدوح لما أفاض من مواهبه وذكر الروض والارواء تمثيل وينظر هذا المعنى الى قول حبيب

اذا أخذته هزة المجد غيرت * عطاياه أسماء الامانى الكواذب

وكنى بذوب الفضة عن الماء تشبيها له بذلك وأراد بالفضة الجامدة الورق وانما وصفها بجامدة ليقابل بها الذوب فى عجز البيت وهو مثل قول ابن المعتز

وخمارة من بنات الهوى * دترى الزق فى بيتها شائلا

وزنا لها ذهبا جامدا * فكالت لنا ذهبا سائلا

وقد قال ابن حمديس فى مثل ذلك

وضعت بميزانها درهمى * فسيلت الكاس دينارها

وقال ابن حجاج

(١) هكذا بالشين فى النسخ التى بايدينا ووجدنا فى النهر لابى حيان السيح بالسين المهملة وقال قال الاعشى

نفى الذم عن آل المحلق جفنة * كجابية السيح العراقى تفهق

وخمارا

وخار اعد الكاس ظترا * لطارقه فلم ترضعه غيلا
أوفيه خلاص التبر وزنا * فيسبكه ويعطينه كيلا

والمعنى فى البيت الرابع أن الماء اذا فاض على الارض وأروى المزارع عظمت بذلك فوائدها وكثرت الجبايى المالية بسببها فأفاد جبايتها الغنى وانه أيضا يسيح على الارض فيغنى زارعها عن جمع الماء فى الجوابى وقوله مغنيا فى صدر البيت مأخوذ من الغنى غنى المال وفى عجزه من الاغناء وهو الاجزاء وجاء بتجنيس كامل بين قوله مغنيا ومغنيا وجباوجبا وجانس أيضا بين فضة والفضاء كما طابق بين جامدة وذوب

حلَّ البَرَايا مِنْ ذَراكَ جَنَّةً بِكَوْثر الاحسَان فيهَا يرتوَا
أجْرَيْتَ مِنْ عَينٍ ومِنْ عَينٍ بِها نَهْرَيْنِ قَدْ عمَّا البرَايَا والبرَا
وكَوْثَرَيْ مَالٍ وماءٍ فِيهِما لِلْخلقِ والأَرْضِ ثراءٌ وثَرا

البرايا جمع برية وهى الخلق يكون من برأ الله الخلق وهو سبحانه البارى قال الفراء وان أخذت البرية من البرا وهو التراب فاصلها غير الهمز والكوثر انهر فى الجنة والكوثر الكثير والذرا بالفتح كل ما استترت به يقال انا فى ظل فلان وفى ذراه أى فى كنفه وستره والثراء بالفتح والمد كثرة المال وبالقصر التراب الندى وأرض ثريا ذات ندى ويقال التقى الثريان وذلك أن يجئ المطر فيرسخ فى الارض حتى يلتقى هو وندى الارض وقال الاصمعى تقول العرب شهر ثرى وشهر ترى وشهر مرعى أى تمطر أولا ثم يطلع النبات فتراه ثم يطول فترعاه النعم والعين الأولى فى البيت الثانى يريد بها عين المال وهو الذهب والورق يشير الى مواهبه والعين الثانية يريد بها عين الماء الذى [illegible] البيت الثالث [illegible] عجز البيت الثانى الا انه أتى بالمعنى فى معرض غير المعرض الذى أتى به فى البيت الثانى فأفاد فيه من ايضاح المعنى غير ما أفاد أولا وقد قدمنا أن ذلك مستحسن وعادل فى البيت بين العجز والصدر فرد أولا البرايا الى عين المال والبرا الى عين الماء وكذلك رد ثانيا الثراء الى المال والثرى الى الارض وجانس بين عين وعين والبرايا والبرا ومال وماء والثرى والثراء وجاء بهذين البيتين بيانا لما تضمنه عجز البيت قبلهما وهو قوله * بكوثر الاحسان فيها يرتوى * شرح فيهما ما أجمله فيه

وَطَوْدُ زَغْوانَ دعوْتَ ماءَهُ فَلَمْ يزغْ عَنْ طَاعةٍ وَلاَ وَنا
بَلْ قَدْ أرَى نَقِيضَ تَقْطِيعِ اسْمِهِ في جَوْبِهِ الأَرْضِ مُجِيباً مَنْ دَعا
وأذْعَنَ الطَّوْدُ لِطَوْدٍ بَاذِخٍ أشمَّ يُسْتَذرَى بِهِ وَيُحْتَمَا
وكَفَّرَتْ طَاعَتُهُ لِمؤْمنٍ طَاعَةَ لِكَافِرٍ فيمَا مَضَى

الطود الجبل العظيم وزغوان جبل قريب من أرض تونس ولم يزغ لم يمل وونى فتر وضعف واعي وجوب الارض قطعها يقال جبت البلاد وجبتها أجوبها واجيبها واجتبتها أى قطعتها وباذخ شامخ وجبل أشم أى طويل الرأس ويستذرى به يلجأ اليه أى يتخذ ذرى وقد قدمنا تفسير الذرى ويحتمى أى يتخذ حمى والتكفير فى السيئات فعل ما يمحوها وهو نظير الاحباط فى الحسنات وطود زغوان يكون نصبا على حد النصب فى باب الاشتغال ويكون رفعا على الابتداء والنصب هنا أحسن لمكان الجملة الفعلية المتقدمة فى قوله أجريت من عين البيت وصف ما كان من وصول الماء الى تونس من جبل زغوان وعبر بما ذكر من دعاء الماء وأجابته

الى الدعوة من غير زيغ ولاونى على جهة التمثيل عن تيسر ذلك عليه وان كان قد تعذر على ا كابر الملوك قبله وأراد بقوله بل قد أرى نقيض تقطيع اسمه ان لفظ زغوان اذا قطعت حروفه تركب منها زاغ ونا ونقيضها مازاغ ولاونى وهو الذى أراد بقوله فلم يزغ عن طاعة ولاونى وهذا من قبيل الكناية عن التجنيس ويسمى التجنيس المعنوى والتجنيس المكنى عنه وقد ذكرت هذا النوع من التجنيس قبل وكذلك فى بيت الناظم كناية عن الطباق ثم قال أن ذلك الطود اذعن أى خضع وذل لهذا الامير يريد ما كان من اجابة مائه وجعله طودا باذخا لعزه وسمو مملكته وان الخلائق تلجأ اليه وفى قوله وأذعن الطود لطود باذخ تجريد لان الطود الباذخ هو الممدوح فتأمله ثم قال ان طاعة هذا الجبل لك فى اجابة مائه لما اردت وأنت ملك من ملوك أهل الايمان تكفير طاعته لما مضى من ملوك الكفر حين جلبوا ماءه فى القديم وذلك قبل الاسلام وفى الكلام حذف تقديره وكفرت طاعته لمؤمن الآن طاعته لكافر فيما مضى وقد طابق بين مؤمن وكافر فى البيت الاخير وجاء فى قوله وأذعن الطود لطود باذخ وفى قوله وكفرت طاعته لمؤمن طاعته لكافر بترديد حسن

وَعَادَ فِى عَصْرِكُمْ كَعَهْدِهِ ... فِى عَصْرِ مَنْ شَادَ الْحَنَايَا وَحَنَا

وسُقْتَ فِى مُلَاوَةٍ مَاسَاقَ فِى ... دَهْرٍ طَوِيلٍ كُلُّ جَبَّارٍ عَتَا

يَاعَجَبًا لِطَىِّ هَذَا الدَّهْرِ مَا ... يَنْشُرُهُ وَنَشْرِهِ مَاقَدْ طَوَا

كَأَنَّمَا الدَّهْرُ اسْتَدَارَ فَأَرَى ... مِنْ جَرْيِ ذَاكَ الْمَاءِ مَا كَانَ أَرَا

يقول قد عاد هذا الماء فى وصوله الى حيث اردت من حضرتك كعهده فى عصر الاوائل الذين شادوا الحنايا وحنوها وهى ابنية مقوسة من صنع القدماء كانوا يجيزون عليها ذلك الماء وفى هذه الحنايا يقول الاديب ابو بكر بن حبيش رحمه الله أنشدنيه بعض أصحابنا

تمتع من بقايا للحنايا * بابدع منظر تصبو اليه
تأمل صنع أرسمها البواقى * وقد مد الفناء لها يديه
كسطر بعض أحرفه تمحى * وبعض لاح مضروبا عليه

ثم قال انه ساق فى حين قريب ماساقه الجبابرة العتاة فى الدهر الطويل والملاوة الحين من الدهر يقال أقام عنده ملوة من الدهر وملوة وملوة وملاوة وملاوة وملاوة بالتثليث فيهما ومر عليه ملا من الدهر أى قطعة وتقدير الكلام وساق فى ملاوة قصيرة فحذف الصفة لدلالة طويل فى عجز البيت عليها فتأمله ثم أخذ يتعجب من أن الدهر يطوى الاشياء بعد نشرها ثم ينشرها بعد طيها وذلك كناية عن اثبات الشئ ثم محوه وازالته وعن محوه ثم اثباته فقد كان هذا الماء جاريا فى عهده الاول حيث اجراه هذا الامير ثم عفت طريقه وانقطعت جريته السنين الكثيرة ثم عاد الآن كعهده أولا وقوله كانما الدهر استدار فأرى البيت تقدير الكلام فارى الآن من جرى ذلك الماء ما كان ارى قبل ومعنى استداره انه عاد الى ما كان عليه كما يعود الشئ المستدير وفى الحديث ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وطابق الناظم بين قوله طى ما ينشر وقوله ونشره ماطوى

قَدْ كَانَ كَالنَّائِمِ حَتَّى نَبَّهَتْ ... عَيْنُ الْمَعَالِى عَيْنَهُ مِنَ الْكَرَا

واجْتَلَبَتْهُ هِمَّةٌ مُغْنِيَةٌ ... عَنِ الْعَنَاءِ مِنْ سَنًا وَمِنْ دَلاَ

يقال سنت الناقة تسنوا اذا سقت الارض والسحابة تسنو الارض والقوم يسنون لانفسهم اذا استقوا والسانية الناضحة وهي الناقة التي يستقي عليها ودلوت الدلو نزعتها وادليتها أرسلتها في البير ومنه الدالية وهي المنجنون تديرها البقرة والمعنى ان هـذا الماء كان في كونه مصروفا عن الوصول الى حضرة هذا السلطان كالنائم عن بلوغ هـذه المكرمة ثم لما عادالى جريته وسببله الوصول الى هذه المواضع التي وصل اليها كان كالمنتبه من كراه وجعل عين المعالي هي التي انبهته اذ كان الامير المذكور هو الجالب له وعن أمره سيق الى حيث سيق وعين المعالي يحتمل أن يريد بها نفس المعالي لان العرب تطلق عين الشئ عـلى نفسه وجعله نفس المعالي على جهة المبالغـة والمجاز كما تقول زيد رضى أى هو نفس الرضى وأما ان يريد بالعـين الخيار ويكون على حذف المضاف كانه قال خيرة أهل المعالي والعرب تطلق العين على الخيار تقول هم عين القوم أى خيارهم ثم قال أن همة هذا الممدوح وعزائمه التي أعملها في جلبه أغنت كل من كان يكابد العناء في السواني وفي الدوالي التي كانت تتكلف فهو الآن ينال الماء من غير تـكلف ووقع له في البيت الاول من هذين البيتين تورية حسنة وهي قوله نبهت عين المعالي عينـه من الـكرا وذلك انه أراد عين الماء وأشـعر أنه يريد العين المبصرة لما رشح من التورية بقوله نبهت اذ التنبيه لا يستعمل الا في العين المبصرة ونظيره في ترشيح الاسـتعارة من كلام المتقدمين قول بعضهم

وجدنا ابانا كان حـل ببلدة * سوى بين قيس قيس غيلان والفزر
فلما نأت عنـا العشـيرة كلها * انخنا فحالفنا السيوف على الدهـر
فما أسلمتنا عند يوم كريهـة * ولا نحن أغضينا الجفون على وتر

أراد جفون السيوف أى غمودها واشعر أنه يريد جفون العيون لما رشح من التورية بقوله أغضينا فان الاغضاء انما يستعمل في جفون العين ولصـاحبنا الفقيه البليغ أبي عبدالله بن الخطيب فيما يشبه هذا من قطعة بديعة وصف فيها الخيل فقال

* يعتد بها ملك شهم * لورام بها الشعرى لحقا * أوعارضها بالبرق كبا * أوأورد عين الشمس سقا

فرشح التورية بالعين بما ذكر من اورد وسقى فأحسن كل الاحسان وأبدع ماشاء

إذَا علاَ قَسيبهُ عوَّذَ ما جُنَّ مِنَ النَّبْتِ الْجميمِ ورَقا
ونَفثَ الْفِضَّةَ ذَوْباً وغدَا يَخطُّ ماكانَ الزَّمانُ قَدْ مَحَا
مِنْ صوَرٍ لِلْحُسْنِ يِنْسيِ ذِكْرُها ماكانَ فِي عَهْدِ الاَفَاريق الاُلاَ

القسيب صوت الماء وعوذ رقا والمعاذة والعوذة الرقية يرقى بها الانسان من فزع أو جنون سميت بذلك لانه يعاذ بها وجن النبت جنونا أى طال والتف وخرج زهره والجميم النبت الذى طال بعض الطول ولم يتم ونفث من النفث وهو شبيه بالنفخ وهو أقل من التفل وقد نفث الراقي ينفث وينفث ومنه النفاثات في العقد وهي السواحر والأفاريق جمع لقولك افريقي في النسب الى افريقية حذفت الياء التي للنسب لاجل التـكسير يريد عهد الاوائل من أهـل افريقية الذين ملكوها وسكنوها من الأمم المتقدمة والالى جمع أولى وهو مقلوب الأول قالوا ذهبت العرب الالى والمعنى في البيت الاول أنه تخيل صوت الماء معوذا وراقيا لما جن من النبت وأشعر أنه يريد جن جنون الخبل وهو يريد الطول والالتفاف اذ كان قد رشح التورية بما ذكر من التعويذ واحكمها بما تخيله من النفث والخط حسبما يذكر ولما كان الراقي من شأنه أن ينفث عند الاتيان برقيته جعل

مايتطاير من الماء عند جريه نفثا تشبيها له بذلك وشبه ذلك المتطاير بذوب الفضة وجعل ماظهر عن وصول ذلك الماء من البساتين والابنية التي أحدثت عليه والمزارع الانيقة وغيرذلك مما كان قد دثر بانقطاع الماء كالخط الذي يمحى ثم يجدد وتم له المعنى الذي أراد من تشبيه ذلك الماء بالراقي والمعوذ اذا الراقي أو المعوذ ربما ينفث عند التعويذ وهذا المعنى مأخوذ من قول ابي اسحاق بن خفاجة

وعشي أنس اضجعتني نشوة * فيه تمهد مضجعي وتدمث
خلعت علي به الاراكة ظلها * والغصن يصغي والحمام يحدث
والشمس تجنح للغروب مريضة * والرعد يرقي والغمامة تنفث

كأنْ بهِ قدْ ساحَ وَسْطَ تُونسٍ وصَاحَ بالنَّاسِ رِدُوا مَاءَ النَّدَا
وَزَارَ أرْضاً طَالَمَا زُرَّتْ على لَبَّاتِها أطْوَاقُهُ فِيما خَلاَ
وَرَوَّضَ الأرْضَ التي رَوَّضَهَا وجَادَ بالسقْيِ عَلَيْهَا وَجَدَا
وخرَّ فِيها سَاجِداً مُسَبِّحاً للهِ فَوْقَ سُبَحٍ مِنَ الْحَصا

يقال ساح الماء يسيح سيحا اذا جرى على وجه الارض وذلك الماء يسمى السيح ويقال زررت القميص أزره بالضم اذا شددت أزراره وأزررته اذا جعلت له زرا واللبة وسط الصدر وحكى اللحياني انها لحسنة اللبات كأنهم جعلوا كل جزء منها لبة ثم جمعوا وروض الارض صيرها روضا وجدا من الجدوى يقال جدا عليه يجدو واجدى بمعنى واحد ويقال خر لله ساجدا يخر خرورا أي سقط ومنه قولهم ضرب يده بالسيف فأخرها أي أسقطها ويقال أيضا خر الماء يخر خريرا اى صوت والخرير صوت الماء وعين خرارة من ذلك والسبح جمع سبحة وهي الخرزات وغيرها يسبح بها والسجود الخضوع ومنه سجود الصلاة وتونس هي حضرة الامير ابي عبدالله المستنصر ممدوح الناظم قال الرشاطي تونس مما بني بنو امية بينها وبين القيروان اربع مراحل وهي مدينة عظيمة وبها دار صناعة ومرسى المراكب منها يسمى رادس وهو موضع الرباط وآثارها لاتحصى والمدينة القديمة الرومية التي كانت قبل الاسلام تسمى قرطاجنة وآثارها أيضا لاتحصى كثرة وبنيانها عجيب كله صخر أصم ورخام هدمها المسلمون ولها قصة طويلة وبها قنطرة معقودة من صخور وهي مسيرة مرحلتين كان صاحب قرطاجنة اجرى الماء عليها حتى انتهى به الى قرطاجنة ثم يجري في جباب مدينة بالصخر عظيمة متلاصقة كثيرة وارتفاع القنطرة في الهواء اكثر من مائتي ذراع والمعنى أن هذا الماء قد أوشك ان يصل الى حضرة تونس فيفيض وسطها ويسمع الناس عنه فيردوه ويعظم به انتفاعهم وضرب الصياح لذلك مثلا وسماه ماء الندا لافضال هذا الامير به على رعيته وعظيم ماظهر من كرمه في انفاق الاموال العظيمة عليه قصدا انتفاعهم ورغبة فيما يعود بصلاحهم ثم قال كأن هذا الماء قد زرت أطواقه على لبات هذه الارض كما زرت عليها في الازمان الخوالي وضرب ذلك مثلا لاشتمال ذلك الماء على جميع الارض واحاطته بها وقد أنشد بن سعيد في المرقص لنفسه فيما ينظر الى هذا يصف جزيرة الصالحية بمصر واحداق النيل بها

وعانقها من فرط شوق لحسنها * فمد يمينا نحوها وشمالا

وقوله وروض الارض التي روضها أي وكأن به الآن قد روض الارض التي كان قد روضها في الزمان الاول ثم قال وخر فيها ساجدا البيت أي وكأن به قد خر في تلك الارض ويتصور ان يريد بخر سقط فيكون من الخرور وهو الذي يناسب قوله ساجدا وهو الظاهر كما قال تعالى خروا سجدا ويخرون للاذقان أو يريد صوت من الخرير

وهو الذي يناسب الماء والتسبيح وجعله ساجدا لوقوعه على وجه الارض وانبساطه تشبيها له بالساجد أو لخضوعه اذ الاشياء كلها تخضع لله تعالى كما قال والنجم والشجر يسجدان ومما ينسب لابن العريف في الاغصان

حارت عقول الناس في ابداعها * السكرها أم شكرها تتأود

فيقول أرباب البطالة تنثنى * ويقول ارباب الحقيقة تسجد

وقوله مسبحا أي منزها لله تعالى جعل صوته تسبيحا كما قال سبحانه وان من شئ الا يسبح بحمده وجعل الحصى كالسبح فكمل المعنى وأحسن في هذا البيت ماشاء وجانس بين ساح وصاح وبين زار وزرت وبين جاد وجدا وقد وصل هذا الماء الى حضرة تونس في أيام هذا الامير وسيق الى المسجد الاعظم بها وعظم موقعه عند الخاصة والعامة من أهل تلك الحضرة وأكثر البلغاء في ذكره والتهنئة بما تسنى من بلوغ الغرض فيه نظما ونثرا وممن هنأه بذلك الكاتب البارع أوحد وقته ابو المطرف بن عميرة رحمه الله فانشأ له في ذلك رسالة بديعة نوردها بعضا من فصولها فمن ذلك قوله فيها كتب العبد كتب الله للمقام العلى الكريم تأييدا علا أمر الورى * وسعودا تعلو فوق الذرى * وتنزل الى ما تحت الثرى * من فلانة وبركات الامارة أيدها الله تخرق المعتاد خرقا * وتجوب البلاد غربا وشرقا * وتبشر باغي الورود * بالعذب البرود * وماراى عارضا ولاشام برقا وانما هي هداية القيت في جنانها * وآية استأخرت الى زمانها * وهمة انبطت بعد طول الا كداء * وسقيت قبل قلب الرداء * ذلك بان أمرها يعلو كل أمر * ويوم منها كليلة القدر خير من ألف شهر * وهل يحتاج مع الاقرار الشاهد * أو يجوز مع وضوح النهار جحد جاحد وليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد * والحمد لله الذي أحيا بها هذا البلد الميت * وأرانا مصداق قوله ومارميت اذ رميت * تفويضا لمن قدر الاحوال طورا طورا * ودرج النبات ورقا ونورا * وقال لخلقه قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا * ومنها قوله وكان المسجد الجامع استسقى لقومه * واقتضى حق اسمه ليومه * ورأى ما بوعيه بسبب الخلق * من سيل الودق * رب ما ضبت ثميلته * وكذبت مخيلته فشفع للظماء في معين الماء * واستغاث بيد الجود * للركع السجود * ولجأ في اسباغ الطهور لسابغ الكرم المشهور * فلم يلبث ان سمع النداء لبيك * وهذه السقيا تنتهي اليك * وتسيل حواليك لاعليك * فان كنت دعوت بان تروى الضلوع الحرار * وترضى الصفوة الابرار * فالدعوة بحمد الله مجابة * والديمة لامقلعة ولامنجابة * نشأت بحرية لاعظم البحار هي منسوبة برية لانها من جانب البر مجلوبة * تعد كوثرية عند من يعقل ويحصل * كوثرية لان ماءها الى الكوثر يوصل * وكيف لا ومسيله * الى شطر الايمان وسيله وغرفاته للغرة والتحجيل مطيله * والنظر اليه كاستعماله عباده * وخروج الخطايا مع آخر قطرة فضيلة من الخبر مستفادة * فما أعظم منة جالبه * وأجل قدرهبته في مواهبه * وأحراه بأن يكون له من الثواب ما رفعه الى الدرجات العلى ويزينه من شرف الذكر بابهى الحلى ومنها التهنئة بهذا الاثر الكريم قد سبق اليها الحق وهو أبلج * والدهر وهو الخطيب الذي لا يتلجلج * ولسان الحال والليل والنهار شاهداه * والقول بعده البليغ لا يبلغ مداه * ولكن يقول هنيئا المجالس الذكر والحمد * وأول ماينظر فيه من عمل العبد * هذا الصنع الذي يهنئ فاعله عليه الاسلام وتحط عنده الآثام * وتتناوب كتب حسناته الاقلام * وتتهادى خبره مصر واليمن والعراق والشام * فان طرزت تاريخها فبتاريخ أيامه * وان غضت من ملوكها فعند مقايسة ظلم برهامه * والله يزيد ملكه عزا وظهورا ويجعل في عينيه نورا وفي قلبه نورا * ويبقيه مؤيدا منصورا * آمرا يقف الزمان أمامه مأمورا

وانْسَابَ فِي قَصْراً بِي فِهْرِ الَّذِي   بِكُلِّ قَصْرٍ فِي الْجَمَالِ قَدْ زَرَا

قَصْرٌ تَرَاءَى بَيْنَ بَحْرٍ سَلْسَلٍ   وَسَجْسَجٍ مِنَ الظِّلَالِ قَدْ صَفَا

بُحَيْرَةٌ أعلاَ الالهُ قدرَها قد عَذُبَ الماءُ بها وقدّرَها

ومُفعَمُ الأرجاءِ كمْ مِنْ ناظرٍ سافرَ فيه مِنْ رجاً إلى رجَا

انساب أي جرى من قولهم انسابت الحية أي جرت وأبو فهر قصر بتونس قد احتفل ملوك بني أبي حفص في مبانيه ومصانعه وفيها يقول الحافظ أبو عبدالله محمد بن أبي بكر القضاعي الأبار

نمت صعدا في جدة غرفاتها * على عمد مما استجاد لها الجد
تخيلن قامات وهن عقائل * سوى انها لاناطقات ولا ملد
قدود كساها ضافي الحسن عربها * وأمعن في تنعيتها النحت والقد
تذكر جنات الخلود حدائقا * زواهر لا الزهراء منها ولا الخلد
فاسحاره يهدى لها الطيب منبج * وآصاله تهدى الصبا نحوها نجد
أناف على شم القصور فلم تزل * تنهد وجدا للقصور وتنهد
رحيب المغاني لا يضيق بوفده * ولو ان أهل الارض كلهم وفد
تلاقى لديه النور والنور فانجلت * تفاريق عن ساحاته الظلم الربد

وزرابه أي قصر قال صاحب المحكم يقال أزرى به أي قصر به وحقره وهونه وأزرى بعلمي وزرا حكاه اللحياني قال ولم يفسره وعندي انه قصر به وكان الواجب أن يقول قصر أبي فهر بالتنوين الا انه حذف التنوين لما ذكر قبل ومثله قول الشاعر * عمرو الذى هشم الثريد لقومه * ويقال ماء سلسل وسلسال أي سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه من قولهم تسلسل الماء في الحلق أي جرى وسلسلته أنا صببته فيه وقد قيل ان معنى تسلسل اذا جرى أو ضربته الريح يصير كالسلسلة وقال أوس * غدير جرت في متنه الريح سلسل والسجسج هو الذى لاحر فيه مؤذ ولاقر ويقال رها الشئ رهوا سكن ومنه قولهم عيش راه خصيب وكل ساكن لايتحرك راه ورهو والمفعم الممتلئ والارجاء النواحي واحدها رجى مقصور منه الرجوان أي حافتا البئر والضافي السابغ وصف بحر بالقصر المذكور متسع الاقطار وضرب سفر الناظر مثلا لامتداده واتساعه ومنه قولهم خير المجالس ماطال فيه سفر البصر والناظر هنا العين ووقع للناظم في البيت الثالث نوع من التجنيس يسمى المركب فقد ذكرنه قبل وذلك لفظة قدرها في الصدر وقدرها في العجز وانما يسمى المركب لان الكلمة تكون فيه مركبة من كلمتين ونظيره قول الشاعر

تفرق قلبي في هواه فعنده * فريق وعندى شعبة وفريق
اذا ظمئت روحي أقول له اسقني * فان لم يكن ماء لديك فريق

وقوله في البيت الاخير كم من ناظر سافر فيه وصف اردافي أراد ان يصفه باتساع الارجاء فانتقل الى وصفه بان العين تسافر في أرجائه ويسوغ ان يريد الدلالة على بديع حسنه وعجيب مرآه أي ان الناظر لايزال يتردد في أرجائه ويعاود النظر في نواحيه وقد قال امرؤ القيس

ورحنا وراح الطرف ينفض رأسه * متى ماترق العين فيه تسهل

يقول ان العين متى ماتصعد النظر فيه تصوبه فلا تزال تعاود التأمل في حسنه وهو أيضا على هذا المعنى من أوصاف الارداف وقد قال حبيب بن أوس فيما يشبه هذا المعنى أو يقرب منه

لها منظر قيد النواظر لم يزل * يروح ويغدوا في خفارته الحسن

يريد ان الناظر لاينصرف عن منظرها لحسنه فهو انما يتردد أبدا فيه وقال أبو الطيب في مثله

وخصر تثبت الالحاظ فيه * كأن عليه من حدق نطاقا

وانما أصله كله بيت امرئ القيس المتقدم الذكر وقال بشار فى المعنى الذى ذهب اليه أبو الطيب
ومكللات بالعيون طرقننا ورجعن ملسا * ومن هذا المعنى قول ابن الرومى

لاشئ الا وفيه أحسنه * فالعين منه اليه تنتقل

فوائد العين فيه طارفة * كأنما أخرياتها الاول

ومالاحد فى هذا المعنى أبدع من قول ابن الخيمى من متأخرى المشارقة ونزع نزعة صوفية بديعة

ماينتهى نظرى منهم الى رتب * فى الحسن الا ولاحت فوقها رتب

والارداف الذى أشرت اليه هو ان يريد الشاعر دلالة على معنى من المعانى فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له فاذا دل على التابع أبان عن المتبوع بهذا فسره قدامة وأنشد عليه قول عمرو بن أبى ربيعة

بعيدة مهوى القرط أما لنوفل * أبوها وأما عبد شمس وهاشم

قال وانما أراد أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص به بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد وهو قوله بعيدة مهوى القرط ومثله قول امرئ القيس

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها * نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

قال وانما أراد رفه المرأة وان لها من يكفلها قلت والارداف يسمى التتبيع ويسميه بعضهم التجاوز وكانت العرب تعتمد هذا النوع وتحلى به نثرها ونظامها ويدل على ايثارها له ماحكى من أن حسان ورد على الحارث الجفنى وعنده النابغة الذبيانى وعلقمة بن عبدة فاستأذنه فى الانشاد فقال له أخشى عليك هذين السبعين وانك لاتحسن ان تقول

رقاق النعال طيب حجزاتهم * يحيون بالريحان يوم السباسب

أراد أنهم ملوك فعبر عن ذلك باوصاف إردافية لان النعال الرقاق لم يكن يلبسها الا الملوك والاشراف وكذلك ماذكر من تحية الريحان

كَأَنَّهُ مَلِكٌ جَبَا نَسِيمُهُ * مِنْ زَهْرِ الرَّوْضِ لَهُ مَا قَدْ جَبَا

قَدْ أَحسَنَتْ مُلْدُ الْغُصونِ قَتْوَهُ * فَعَالَهَا وَقَاتَ مِنهَا مَاقَتَا

أَدَّي إلَيهِ كُلُّ غُصنٍ نَاعِمٍ * أَتاوةَ الزَّهْرِ النَّضِيرِ وَأَتَا

ثُمَّ أَتَى مِنْ كَثْرَةِ التَّأْثِيرِ فِي * صَفْحَتِهِ الْغُصْنُ الْمَرُوحُ مَا أَتَا

فَقَيْدُ الْغُصْنِ بِقَيدٍ فِضَّةٍ * قَدْ دَارَ حَوْلَ السَّاقِ مِنْهُ والْتَوَا

سَلَاسِلٌ مَا اعْتَقَلَ الْغُصْنُ لَهَا * عَنِ الْمِرَاحِ مَعْقِدٌ وَلَا اعْتَقَا

جبا من الجباية وقد تقدم تفسيره والقتو الخدمة وقد قتوت أقتو قتوا وقال الشاعر

انى امرؤ من بنى فزارة لا * أحسن قتو الملوك والخببا

والملد جمع أملد وهو الغصن الناعم ويقال قات أهله يقوتهم قوتا وقياتة والاسم القوت وهو مايقوم به بدن الانسان من الطعام وكذلك يقال عال عياله يعولهم أى قاتهم وأنفق عليهم والاتاوة الخراج قال الشاعر

فى كل أسواق العراق اتاوة * وفى كل ماباع امرؤ مكس درهم

وقال الآخر

موالى حلف لاموالى قرابة * ولكن قطينا يسئلون الاتاويا

تقول منه أتوته أتوة واتاوة و يقال أيضا أتونه اتاوة رشوته وخص بعضهم به الرشوة على الماء وصفحة كل شيء جانبه والمريح والمروح الذى ضربته الريح وقال الشاعر * كانه غصن مريح ممطور * وقد يكون فعولا من من المراح وهو الفرح والنشاط استعارة للغصن لتثنيه وانعطافه اذ كانت حركاته تشبه حركة ذى الفرح والنشاط و يقوى ذلك ذكر المراح فى البيت الاخير و يقال أتيت الشئ أى جئته واعتقا احتبس وهو مقلوب اعتاق ومثله عقاه يعقوه أى عاقه على القلب قال الشاعر

ولو أنى رميتـك من بعيـد * لعاقك من دعاء الذئب عاق

والمعنى انه تخيـل ذلك البحر الذى وصف ملكا يجبى له النسيم أزهار الروض لما كان يسوقها اليه و يرميها فى جوانبه وصفحاته ثم تخيل الاغصان خادمة له لما تنثره له من أزهارها ولقيامها بازائه كما يقوم على بساط الملك أهل مملكته وخدامه وجعل ماتنثر عليه من زهرها كالخراج الذى تؤديه الرعية الى الملك وجعـل ذلك البحر يقوتها و يعولها لما كانت تتغذى بمائه وتسقى منـه كالملك الذى يجرى على خدامه ارزاقهم ثم تخيلها قد واقعت ذنبا من تأثيرها فى صفحته حين أمالتها الريح عليه وشبه مادار على سوقها من الماء بقيود الفضـة لاحاطتها بالساق وابيضاضها ولشبهها بالسلاسل اذا ضربتها الريح وجعلها مخالفـة لسائر السلاسل فى كونها لاتعوق المقيد بها من الاغصـان عن المراح ولا تحبسه وتخيل تلك الغصون انها قيدت بتلك القيود عقابا لها على التأثير فى صفحته ولفظة أتى فى البيت الثالث بمعنى أعطى أورشا من الاتاوة و يترجح ان يكون من معنى الرشوة عـلى قول من خص ذلك بالماء فيتمكن معنى البيت و يكون مراده ان الاغصان ترشوه بزهرها ليغذوها بمائه ولفظة أتى فى البيت الرابع هو من قولك أتيت الذنب وأتيت هذا اى الامر جئته وقد تـكون السلاسل فى البيت جمع سلسل وهو الماء العـذب الصافى حسبما تقدم التفسير له وأشعر انه يريد جمع السلسلة تور يته منه رشحها بماذكر من وصف القيد وقد قال بعض متأخرى المشارقة فيما ينظر الى هذا المنزع

دمشـق بنا شوق اليها مبرح * وان لج واش أو ألح عـذول

بلاد بها الحصباء در وتربها * عبـير وانفاس الشمال شمول

تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل

وفى البيت الاخير تور يته متمكنة من قوله تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق والتورية فيه موجهة على وجهين أحدهما انه ورى بالمسلسل والمطلق عن المقيد وضده والثانى انه ورى عن مصطلح أهل الحديث وتشبيه الماء الدائر على سوق الاغصان بالخلاخل والقيود معنى متـداول بين الشعراء كقول الشاعر يصف الغصن والماء دائر به

كأن يدا اصاغت هناك لساقه * من الفضـة البيضاء قيدا مسلسلا

الا أن الناظم استقصاه وزاد فيه فاحسن كل الاحسان ولابى العباس عبد الله بن المعتز يصف الدنان وهو بديـع جدا

مسـندة قامت ثلاثين حجة * كواضعة رجلا وقد رفعت رجلا

فاخرج بالمبزال منها سـبيكة * كما فتـل الصواغ خلخاله فتـلا

ولابى بحر صفوان بن ادريس فيما ينظر الى بعض هذا المنحى الذى نحا الناظم أو يقرب منه

وكأنما جاء النسـيم مبشرا * للروض يخبره بطول بقاء

فـكساه خلعة طيبه ورمى له * بدراهم الازهار رمى سخاء

وكأنما

وكأنما احتقر الصنيع فبادرت * للعذر عنه نغمة الورقاء

وفي هذه القصيدة يقول

والورد في شط الخليج كانه * رمد ألم بمقلة زرقاء

وقد أنشدته قبل وكان شيخنا أبو عبدالله الصديني رحمه الله يستحسن هذه القطعة كلها ويعدها من غرر كلام أبي بحر وجانس بين قات وقتا ويسمى هذا النوع تجنيس القلب وتجنيس العكس والتجنيس المخالف وهو ان تشتمل احدى الكلمتين على حروف الاخرى دون ترتيبها كقول البحتري

شواجر ارماح تقطع بينها * شواجر ارحام ملوم قطوعها

وقد ذكرته قبل وجانس الناظم أيضا بين أتا وأتى وقد تقدم تفسيرهما و بين اعتقل واعتقا وقد تقدم الكلام على نظيره

حَدَائِقٌ لِلمَاءِ فِيهَا كَوثَرٌ * وكَوثَرٌ لِلمَالِ مُرْوٍ مَنْ عفا

فِيهَا مِنَ الأَسْحَارِ خُضْرُ قِطَعٍ * وَقِطَعٌ ذَاتُ ابيضَاضٍ مِنْ ضُحَا

كَأَنَّهَا يَتِيمَةُ العَائِمِ فِي * مَايُشتَرَى مِنْ دُرِّهِ وَيُقْتَنَا

سَرَّ الغُصونَ رِيُّهَا حَتى انثَنَتْ * وَسَرَّ مَرْآهَا الحَمَامُ فَشَدَا

لَمْ يَفْتَقِدْ صَادٍ بِهَا وَصَادِحٌ * ارْوَاءَ إِحْسَانٍ وَلاَ حُسْنَ رُوَا

الحديقة الروضة ذات الشجر وقال تعالى وحدائق غلبا و يقال الحديقة كل بستان عليه حائط قلت سمي بذلك لاحداق الحائط به والكوثر الكثير من كل شيء والكوثر النهر عن كراع والكوثر نهر في الجنة منه يتشعب جميع أنهارها وهو للنبي صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى انا أعطيناك الكوثر وقيل الكوثر هاهنا الخير الذي يعطيه الله تعالى وهو كله راجع الى معنى الكثرة جعل فيها كوثرا من الماء المجتلب اليها وكوثرا من المال المستفاد منها وجعله يروي العفاة لكثرة مايسمح به للقاصدين تشبيها له بكوثر الماء وتمثيلا به وهو مثل قوله قبل وكوثري ماء ومال فيهما البيت المتقدم واعادته اللفظ والمعنى معا غير حسن ولا يليق ببراعته وقوله فيها من الاسحار خضر قطع البيت الاسحار جمع سحر وهو آخر الليل وقيل الوقت الذي قبل طلوع الفجر والضحى الوقت الذي تشرق فيه الشمس شبه خضرة ماتحتوي عليه تلك الحدائق من النبات والاشجار بظلمة السحر اذ كانت الخضرة قد تضرب الى السواد ولذلك كانت العرب قد تسمي الاسود أخضر وقيل في قوله تعالى مدهامتان ان معناه خضراوان لانهما يضربان الى السواد من شدة الري وشبه أيضا بياض الماء الذي يجري بينهما ببياض الضحى وانما خص السحر من سائر الليل لشدة عبق النسيم فيه كما يعبق النبات وليقابل به الضحى ولان للاسحار حسنا زائدا ليس لغيرها من الليل كما لخضرة النبات حسن زائد على سائر مايوصف بالخضرة ومعنى هذا البيت ينظر الى قول أبي محمد الخفاجي

ملك الزمان باسره فنهاره * في وجهه وظلامه في شعره

وأوقع الناظم التشبيه بغير أداة كما تقول زيد من الاسود أي في شجاعته وعمرو من البحار أي في كرمه ويتيمة العائم هي الدرة النفيسة التي يعز نظيرها يقال درة يتيمة أي منفردة في حسنها لايوجد مثلها الانادرا و يقال درة الغائص والعائم و يتيمة الغائص والعائم لان العائم يستخرجها من قعر البحر و يغوص عليها

فأضيفت اليه بمعنى أنها المختارة من دره كما يقال فلان رجل الزمان أى المعول عليه من رجاله ويستري يختار من قولهم استريت الابل والغنم والناس أى اخترتهم قال الاعشى

وقد أخرج الكاعب المسترا * ة من خدرها وأشيع القمارا

واستري الموت بني فلان اختار سراتهم ومثله يعتمي يقال اعتميت الشيء اخترته وهو قلب الاعتيام شبه تلك القطع البيض من الماء بيتيمة العائم فى نفاستها وانها واحدة فى الحسن وفى صفاء لونها وبياضها واوشدا ترنم والصادى العاطش والصادح اسم فاعل من صدح اذا صاح وار واء حسن المنظر وقال ابو علي الفارسي أجمعوا على تخفيف الهمزة من الرواء وجانس فى البيت الاخير بين صاد وصادح و بين حسن واحسان و بين رواء وأرواء وعادل بين صدر الكلام وعجزه وحل فى البيت الرابع والبيت الخامس الالفاظ على الالفاظ فى الترتيب وعادل بين أوائلها والاواخر فردار واء احسان الى الصادى وحسن رواء الى الصادح كما رد الصادى الى سر الغصون ريها والصادح الى سر مرآها الحمام وقوله ارواء احسان ولا حسن رواء ملحق من أنواع التجنيس بتجنيس القلب

مُرْتَاحَةٌ رِيَاضُهَا مُمْتَاحَةٌ ... حِيَاضُهَا من خير كَفٍّ مُجْتَدَا

لَمَّا رأى إفْضَالَهَا أفْضَى لَهَا ... بِمَا به وَصَّى السَّمَاحَ وَحَفَا

سَحَّتْ على الآمال منها سُحُبٌ ... تَفَرَّعَتْ منْ خَيْرِ بَحْرٍ يُعْتَفَا

لا يُمْتَرَى فى صدْقِ بشْرَى بِشْرِه ... بِكُلِّ دَرٍّ منْ نَدَاهُ مُمْتَرَا

طَوْدٌ رَسَتْ على الدُّنَا أرْكَانُهُ ... قَدْ رَكَنَ الدِّينُ إليْهِ وانْضَوَا

مرتاحة من الارتياح وهو النشاط وانما وصف به الرياض على جهة التشبيه لما يظهر فى شجرانها من الاهتزاز الذى هو من فعل ذى النشاط ورياض جمع روض وممتاحة من الامتياح وهو أن ينزل الرجل فى البئر فيملأ الدلو هذا هو الاصل فيه ثم قد صار يستعمل على كل مستفيد لاى شيء كان تشبيها بذلك وعلى جهة التمثيل وأراد بالكف كف الممدوح ومجتدا يطلب جداها والحياض جمع حوض وجعلها مستفيدة من كفه إما لانه هو الذى بذل الاموال حتى وصل الماء اليها وأما على جهة المبالغة فى الوصف بالكرم كما تقول البحر يستمد من كرم الامير وما أبدع قول القائل فى مثل ذلك

أصح وأقوى ما رويناه فى الندا * من الخبر المأثور منذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا * عن البحر عن جود الامير تميم

فتأمل كيف جعل السيول تروى عن الحيا اذ كانت تستمد منه والحيا عن البحر اذ كانوا يزعمون أن السحائب من البحر تستمد ثم جعل البحر يستمد من جود ممدوحه وأفضى لها من قولهم أفضيت الى فلان بسرى وحفا من قولهم حفيت اليه بالوصية أى بالغت يقول أن السماح لما رأى أفضال تلك الكف أفضى اليها بوصيته واستقصى فيها وذلك تمثيل وكناية يريد انها بلغت الغاية من الكرم ورأى وأفضى ووصى ثلاثة عوامل تنازعت المعمول وهو السماح والمختار عند سيبويه أعمال الاخير وهو وصى وسحت سالت وهطلت ويعتفى يسئل نواله ويلتمس جدواه والمراد أن كف هذا الامير فاضت على أماله مواهبها التى تشبه السحائب وجعل السحائب متفرعة من بحر جوده لما قدمناه من أنهم يزعمون ان السحائب من البحر تغترف وعنه تتولد فتم له المعنى الذى قصد والامتراء فى الشئ الشك فيه والامتراء أيضا طلب الدر من قولهم مرت الريح السحاب وامترته أى استدرته

ومريت الناقة اذا مسحت ضرعها للدر والبشر طلاقة الوجه يقال فلان حسن البشر أى طلق الاسرة وركن اليه يركن بالضم وركن بالكسر يركن ركونا فيهما اذا سكن اليه ومال وقال الله تعالى ولا تركنوا الى الذين ظلموا وثنويت اليه وانضويت أويت والمعنى أن بشره وما يبدو من طلاقة وجهه عند السؤال يبشران بكل ما يلتمس من مواهبه ولا يشك فى صدق بشراهما كما قال الشاعر

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا * غلقت لضحكته رقاب المال

وهو معنى متداول ثم جعله لعظمته وامتناع من يأوى اليه بمنزلة الطود الراسى وجعل الدين لما يعلم من نصرته له وحياطته حوزته كالمنضوى اليه والراكن الى جانبه وقد قال حبيب فى مثل هذا

القوم ظل الله أسكن دينه * فيهم وهم جبل الملوك الراسى

واشتملت هذه الابيات أيضا على أنواع من البديع منها الترصيع فى البيت الاول وفى الثانى قال قدامة الترصيع هو أن يتوخى تصيير مقاطع الاجزاء فى البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد فى التصريف كما يوجد فى أشعار كثير من القدماء المجيدين الفحول وغيرهم وفى أشعار أكثر المحدثين المحسنين ثم مثل ذلك بقول امرىء القيس

مخش مخش مقبل مدبر معا * كتيس ظباء الحلب العدوان

قال فاتى باللفظتين الاوليين مسجوعتين فى تصريف واحد وبالتاليتين لهما شبيهتين بهما فى تساوى التصريف قلت أراد بالتصريف ههنا تشاكل الوزن ثم قال وربما كان السجع ليس فى لفظة ولكن فى لفظتين مثل قوله فتور القيام قطوع الكلام تفترعن ذى غروب خصر فقد أتى بترصيع التصريف فى لفظتين من غير سجع بالحرف نفسه ثم أتى بأمثلة كثيرة قلت هذا مذهب المتقدمين وأما المتأخرون فقد جعلوا هذا الجنس أنواعا كثيرة سموا كل نوع منها باسم يختص به وجعلوا الترصيع واقعا على نوع واحد منها وقد سمى بعضهم ما وقع فيه أجزاء البيت أو بعضها على سجع مخالف لحرف الروى باسم التسميط شبهوه بسمط العقد وجعلوا الاجزاء المسجوعة بمنزلة حبات الدر المجتمعة فيه ومن أمثلته عندهم قول الشاعر

جواز قاصية جزاز ناصية * عقاد الوية للخيل جرار

وبيت الناظم الاول قد اشتمل على مثل ذلك وانما نقلت كلام قدامة ههنا ليعلم مذهب المتقدمين فيه ومخالفة المتأخرين لهم فى الاصطلاح وجانس بين افضالها وأفضى لها وهو التجنيس المركب كما تقدم وبين سمت وسمت وهو تجنيس التصحيف وبين يمترى ويمترى وبين البشرى وبشر وبين أركانه وركن وبين الدنا والدين وهو تجنيس القلب

يَمْتَنِعُ الجَيْشُ بهِ وَيَحْتَمِي ... اذَا امْرُؤٌ بِالجَيْشِ والجُنْدِ احْتَمَا

مَا واجهتْ وجهَ العَدُوِّ سُمْرُهُ ... إلاّ قَفَا خسامُهُ مِنها القَفَا

كَمْ قدْ هَدَى هُوَادِى الخَيْلِ الَى ... مَنْ ضَلّ عَنْ سُبُلِ الرّشَادِ وغَوَا

مِنْ كُلِّ سَامِى الطّرْفِ مِافى لَحْظِه ... مِنْ خَنَزٍ ولا بِأذنيه خَذَا

يقال حميته أحميه حماية أى دافعت عنه وهذا شىء حمى أى محظور لا يقرب ويقال قفيت الرجل اقفيه قفيا اذا ضربت قفاه ومنه قولهم شاة قفية أى مذبوحة من القفا وقد يكون قفا فى البيت من قولهم قفوت أثره وقفوا وقفوا اذا تبعته وهو أظهر لمطابقة واجهت ويقال هديته الطريق والبيت وهى لغة أهل الحجاز وغيرهم يقول

هديته الى الطريق بحرف الجر ومعناه أرشدته ويقال أقبلت هوادى الخيل اذا بدت أعناقها وقيل المراد أول رعيل منها والضلال والضلالة ضد الرشاد وقد ضللت أضل بالفتح فى الماضى والكسر فى المضارع قال الله تعالى قل ان ضللت فانما أضل على نفسى فهذه لغة نجد وهى الفصيحة وأهل العالية يقولون ضللت بالكسر أضل وهو ضال تال وهى الضلالة والتلالة والسامى الطرف هو الرافع رأسه يقال رددت من سامى طرفه أى قصرت اليه نفسه وأزلت نخوته وقد يكون كناية عن حدة العين وطموحها وهو مستحسن فى الخيل حسبما نذكره بعد والخذأ الخضوع من قولهم خذئت له وخذأت بالهمز فيهما ويقال بغير همز وكذلك استخذأت واستخذيت مهموزا وغير مهموز وقيل لاعرابى فى مجلس أبى زيد كيف تقول استخذأت أرادوا أن يتعرفوا منه أيهمز أم لا فقال العرب لاتستخذى وهمز ويستحب فى عين الفرس السمو والحدة قال ابو دؤاد حديد الطرف والمنكب * والعرقوب والقلب * ولذلك يصفونها بالقبل والشوص والحوص وليس عيبا فيها ولا هو خلقة انما تفعله لعزة أنفسها والخذا فى الاذن استرخاؤها غير مهموز يقال اذن خذواء وهو مكروه فى الفرس وانما المستحب فى أذنها الدقة والانتصاب قال الشاعر

يخرجن من مستطير النقع دامية * كأن آذانها أطراف أقلام

ويقال للاتان الخذواء أى المسترخية الاذن والمعنى فى البيت الاول أن الامراء من عادتهم أن يمتنعوا بجيوشهم ويدفعوا بها عن أنفسهم وان هذا الامير به يمتنع الجيش لشدة اقدامه وعظيم رهبة العدو له وانما أخذه من قول المتنبى

بالجيش يمتنع السادات كلهم * والجيش بابن أبى الهيجاء يمتنع

وهو ينظر الى قول أبى تمام

لو لم يقد عسكرا يوم الوغا لغدا * من نفسه وحدها فى عسكر لجب

وقد كرر أبو الحسن حازم هذا المعنى فى بعض قصائده فقال

مايحتمى بالجيش كلا بل به * وببأسه الجيش العرمرم يحتمى

والمعنى فى البيت الثانى انه لما عود من الظفر وعلم من أقدامه ماعاينت الاعداء رماحه الا أدبرت فيحكم السيوف فى أقفيتها وأصل المعنى فى ذلك ماذكر من أن أباجعفر المنصور قال لبعض الخوارج اخبرنى أى أصحابى كان أشد اقداما فى مبارزتك فقال ماأعرف وجوههم ولكنى أعرف أقفاءهم فقل لهم يدبروا اعرفك وقد أخذ معنى قول الخارجى ابن الرومى فقال

قرن سليمان قد أضربه * شوق الى وجهه سيتلفه

كم يعد القرن باللقاء وكم * يكذب فى وعده ويخلفه

لايعرف القرن وجهه ويرى * قفاه من فرسخ فيعرفه

وفى هذه الابيات أنواع من البديع منها التصدير الواقع فى البيت الاول والمقابلة الواقعة فى البيت الثانى والرابع والطباق فى البيت الثالث مع مااشتملت عليه من أوصاف الارداف ومن ألفاظ التجنيس وقد فسر قدامة المقابلة فقال هى ان يؤتى بمعان يراد التوفيق بينها او بين اخرى والمضادة فيؤتى فى الموافق بموافقه وفى المضاد بمضاده قلت فمثال الموافقة قول الشاعر

أسرناهم وأنعمنا عليهم * وسقينا دماءهم الترابا

فما صبروا لبأس عند حرب * ولا ادوا لحسن يد ثوابا

فجعل بازاء ان سقوا دماءهم التراب وقتلوهم أن يصبروا وبازاء ان أنعموا عليهم أن يثيبوا ومن هذا النوع هو

بيت الناظم المشار اليه ومثال المضادة قوله

فيا عجبا كيف اتفقنا فناصح * وفى ومطوى على الغش غادر

طَوِيلُ ذَيْلٍ وَسَبِيبٍ وَطُلَا   قَصِيرُ ظَنْبٍ وَعَسِيبٍ وَنَسَا

كَأَنَّ مَا أَشْرَقَ مِنْ تَحْجِيلِهِ   سِوَارُ عَاجٍ مُسْتَدِيرٌ بِالْعُجَا

يَلْقَى الصَّفَا الصُّمَّ بِوَقْعِ سُنْبُكٍ   لَا يَشْتَكِى مِنْ وَقَعٍ وَلَا حَفَا

تَرَاهُ فِى الْهَيْجَاءِ مَخْضُوبَ فَمٍ   مِنْ لَوْكِهِ لِلْجُمِّ مَخْضُوبَ الشَّوَا

السبيب شعر الناصية والعرف والذنب ويستحب فى الناصية السبوغ ويكره السفا وهو خفة الناصية وقصرها قال عبيد

مضبر خلقها تضبيرا * ينشق عن وجهها السبيب

وهو شعر الناصية والسفا فى البغال والحمير محمود قال الشاعر

جاءت به معتجرا ببرده * سفواء تردى بنسيج وحده

يعنى بغلة والطلا صفحات العنق واحدها طلية ويستحب من الفرس طول العنق ولينه ويكره فيها القصر والجسأة بالضم يبس المعطف قال الشاعر

ملاعبة العنان بغصن بان * الى كتفين كالقتب الشميم

يقال قتب شميم أى مرتفع وقد فرق سلمان بن ربيعة بين العتاق والهجن بالاعناق فامر بطست من ماء فوضعت بالارض ثم قدمت الخيل اليها واحدا واحدا فما ثنى سنبكه ثم شرب هجنه وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقا لان فى أعناق الهجن قصرا فهى لا تنال الماء عن تلك الحال حتى تثنى سنابكها وأعناق العتاق طوال فهى تشرب ولا تثنى سنابكها والعسيب منبت الذنب من الجلد والعظم ويستحب قصره وقال اعرابى اختره قصير الذنب طويل الذنب يريد قصير العسيب طويل الشعر والنساعرق يستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يصير الى الحافر فاذا هزلت الدابة ماجت فخذاه فخفى واذا سمنت انفلقت فخذاه فجرى بينهما واستبان كأنه حية واذا قصر كان أشد لزجه رجله قال الشاعر * بشنج موتر الانساء * واذا كان فيه توتير فهو أسرع لقبض رجليه وبسطهما غير انه لا يسمح بالمشى فلذلك كان شنج النسا يستحب فى العتاق خاصة ولا يستحب فى الهماليج لان العتاق تراد للجرى والهماليج للمشى والهملاج هو الحسن السير من الدواب والتحجيل بياض فى قوائم الفرس لا يجاوز الركبتين ولا العرقوبين لانه فى مواضع الاحجال والقيود والعجايتان عصبتان فى باطن يد الفرس وجمع العجاية عجاء بالهمز كانت الياء تحصنت بالتاء فلذلك لم تعل بقلبها همزة فلما حذفت التاء صارت الياء طرفا فاعلت وتقصر فى الشعر قال الراجز * وحافر صلب العجا مدملق * والصفا جمع صفاة وهى الصخرة الملساء والسنبك مقدم الحافر والجمع السنابك وفى الحديث يخرجكم الروم منها كفرا كفرا الى سنبك من الارض اى طرف منها تشبيها له بطرف الحافر ويقال وقع الرجل اذا اشتكى لحم قدميه فهو وقع ومنه قولهم فى المثل كل الحذاء يحتذى الحافى الوقع والحفا من قولهم حفى من كثرة المشى إذا رق حافره فهو حف بين الحفا وهو مقصور وأما الحفاء بالمد فمن قولهم رجل حاف بين الحفوة والحفية والحفاء وهو الذى يمشى بلا خف ولا نعل والمستحب ان تكون الحوافر صلابا غير نقدة والنقدان تراها تتقشر وان تكون سودا أو خضرا

لا يبيض منها شئ لان البياض فيها لا يكون الا عن رقة وان تكون قشورها صلابا و يقال لكت الشئ ألوكه اذا علكته وقد لاك الفرس اللجام وفلان يلوك أعراض الناس أى يقع فيهم والشوا اليدان والرجلان والشوى جمع شواة وهى جلدة الرأس وأما شوا الفرس فقوائمه لا غير لانهم يقولون فيه عبل الشوا ولا يكون هذا الرأس لانهم وصفوا الخيل بأسالة الخدين وعتق الوجه وهو دقته وقوله * تراه فى الهيجاء مخضوب فم * الرؤية هنا بصرية ومخضوب فم حال ومخضوب الشوى حال ثانية ومراده هنا بمخضوب الشوا انه يطأ القتلى فتختضب قوائمه من دمائهم وفى قصيدة أبى صفوان الاسدى التى يصف فيها الفرس ما ينظر الى البيت الاول من هذه الابيات

له تسعة طلن من بعد ان * قصرن له تسعة فى الشوا

التسعة الطوال عنقه وخداه و وظيفا رجليه و بطنه وذراعاه وفخذاه والتسعة القصار أربعة أرساغ ووظيفا يديه وعسيبه وساقاه هذا تفسير ابن الاعرابى لهذا البيت وقد رد عليه بان قيل انه ذكر الطوال عشرة والشاعر انما عدها تسعة وليس هذا موضع استقصاء الكلام على ذلك والوظيف مستدق الذراع والساق من الخيل والابل وقوله كأنما أشرق عن تحجيله البيت ينظر الى قول أبى العلاء المعرى فى صفة الفرس

وقد اغتدى والليل يبكى تأسفا * على نجمه والنجم للغرب مائل

بريح أعيرت حافرا من زبرجد * لها التبر جسم واللجين خلاخل

أردت البيت الثانى وعنى بخلاخل اللجين هنا الحجول وما سمعت فى التحجيل والغرة بابدع من قول ابن نباته

قد جاءنا الطرف الذى أهديته * هاديه يعقد أرضه بسمائه

أصبحت منه على أغر محجل * ماء الدياجى قطرة من مائه

فكأنما لطم الصباح جبينه * فاقتص منه فخاض فى أحشائه

لا تعلق الالحاظ من أعطافه * الا اذا كفكفت من غلوائه

ما كانت النيران يكمن حرها * لو كان للنيران بعض ذكائه

والقطعة كلها مختارة وقد أنشدت قبل قول ابن المعتز فى محجل الثلاث مطلق اليمنى

ومحجل غير اليمين كأنه * متبختر يمشى بكم مسبل

وقد احتوت هذه الابيات من أنواع البديع على الترصيع فى البيت الاول والطباق وعلى التجنيس الذى تضمنه البيت الثانى ما بين عاج والعجا وهو تجنيس القلب وجانس فى البيت الثالث بين وقع ووقع وقد ذكر بعض المتأخرين فى أنواع البديع نوعا سماه التعطف وهو ان تعلق الكلمة فى موضع من الصدر بمعنى ثم تعلق فى سوى الضرب من العجز بمعنى آخر كقول الشاعر

اذا ما نهى الناهى فلج بى الهوى * اصاخ الى الواشى فلج به الهجر

وانما سموه التعطف لانهم توهموا الكلمة كأنها على عطفى البيت وهو نوع من الترديد ومثله قول المتنبى

فساق الى العرف غير مكدر * وسقت اليه الحمد غير مجمجم

قلت وهذا الذى ذكره موجود فى البيت الاخير من هذه الابيات لوقوع مخضوب فيه على الوجه المذكور الى ما تضمنته هذه الابيات من الاوصاف الاردافية

كَأَنَّمَا أَقْضِمَ مَا أَوْطِئَ مِنْ * حَبِّ الْقَاوِبِ أَوْرَعَى حَبَّ الْقَنَا

تُوحِي إِلَى مَنْ يَمْتَطِيهِ أُذْنُهُ * بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ مِنْ أَخْفَى الْوَحَا

يَكَادُ لاَ يُبْصِرُهُ ذو مُقْلَةٍ مِنْ خِفَّةٍ وَ سُرْعَةٍ إِذَا دَأَى

أقضم أى جمل يقضم والفنا شجر له حب أحمر يتخذ منه القلائد يقال له عنب الثعلب وهو مقصور واحدته فناة قال زهير

كان فتاة العهن فى كل منزل * نزلن به حب الفنا لم يحطم

والوحى الاشارة والكلام الخفى يقال وحيت اليه الكلام وأوحيت وهو أن تكلمه بكلام تخفيه وأوحى أى أشار ومنه قوله تعالى فاوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ووحيت لك بخبر أى أشرت وصوت به رو يدا والوحا الصوت وكذلك الوحاة يقال سمعت وحاة الرعد وهو صوته الممدود الخفى و يقال دآى يدآى و يدء وادأيا اذا مر اسر يعا خفيفا والمعنى فى البيت الاول انه تخيل هذا الفرس لاختضاب فه عن لوك اللجم يعلف بدلا عن الحب الذى جرت العادة أن يعتلفه الدواب حب قلوب الاعداء أو رعى حب الفنا فلذلك احمر فه وانما قال ذلك لانه احمر حسبما مر فى تفسيره لكن قوله أو رعى حب الفنا غير مخلص المعنى لان المنقول عن أهل اللغة ان حب الفنا أحمر اللون فاذا كسر ظهر له لون غير لون الحمرة ولذلك قال زهير لم يحطم لانه شبه به فتاة العهن الاحمر وانما تشتد ما دام صحيحا ولاشك انه اذا رعى تكسر فذهبت حمرته أو غلب عليها من الالوان فتأمله ومعنى البيت الثانى انه صادق السمع نافذه فاذا سمع حسا تشوف باذنيه وتوجس بهما فتأهب بمتطيه لما عسى أن يحدث وذلك فى الغارات وعند دلج الليل حيث يشتد الحذر و يتقى ختل العدو وتقول العرب اذن الوحشى أصدق من عينه وقد قال أبو الطيب

وعينى الى أذنى أغر كانه * من الليل باق بين عينيه كوكب

ومن أحسن ماقيل فى ذلك قول المعرى يصف الفرس

كأن أذنيه أعطت قلبه خبرا * عن السماء بما يلقى من الغير

وقول ابن حمديس

ومنقطع بالسبق من كل حلبة * فتحسبه يجرى الى الرهن مفردا
كأن له فى أذنه مقلة يرى * بها اليوم أشخاصا تمر بها غدا
أقيد بالسبق الاوابد حوله * ولو مر فى آثارهن مقيدا

وقد قال المعرى

وأثبت الناس قلبا فى ظلام سرى * ولاربيئة الا مسمع الفرس

وقال ابن وضاح

ولقد غدوت مشرقا حتى اذا * مالم أشم برقا لافق المغرب
باغر أوجس للسماء بسمعه * فرمته بين المقلتين بكوكب

فولد توليدا حسنا وهو كثير فى أشعار القدماء والمحدثين ومعنى البيت الثالث انه اذا جرى كاد يسبق البصر بسرعته و ينظر الى قول بعضهم

وكأن أربعة تراهن طرفه * فتكاد تسبقه الى مارمق

وقد أبدع أبو القاسم بن هانى فى هذا المعنى فقال يصف الخيل

عرفت بساعة سبقها لا انها * علقت بها يوم الرهان عيون

يقول لم يعرف سبقها بمشاهدة العدو وانما عرف بقرب ساعة اللحاق لانها تسبق الطرف فلا يراها ومثله

ما أنشدت لابن نباتة

لا تعلق الالحاظ فى أعطافه   الا اذا كفكفت من غلوائه

وأصل هذا كله قوله تعالى أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك وقد تضمن البيت الاول من هذه الابيات نوعا من البديع يسمونه التفريع وهو أن يصف الشاعر شيئا بوصف تام يلتفت الى شئ آخر بوصف بمثل ماوصف به الاول فيجعله أصلا له ويفرعه منه كما قال

آحلامهم لسقام الجهل شافية * كما دماؤهم يشفى بها الكلب

وكقول ابن المعتز

كلامه اخدع من لحظه * ووعده اكذب من طيفه

وكقول الصنوبرى

ما اخطات نوناته من صدغه * شيئا ولا الفاته من قده

فكأنما أنفاسه من شعره * وكأنما قرطاسه من جلده

وهنا فرغ الناظم من صفة الفرس بوطئ قلوب الاعداء وصفة اختضاب الغم من لوك اللجم

فِي جَحْفَلٍ جَحْفَلَةِ التَّالِي بِهِ   قَدْ رَاحَمَتْ مِنْ مُؤْخَرِ الهَادِي الصَّلاَ

يَرْتَدُّ طَرْفُ الشَّمْسِ عَنْهُ حَاسِراً   وَتَرْجِعُ الأَرْوَاحُ عَنْهُ القَهْقَرَى

تَلَوَّنَتْ أَرْهَاجُهُ فَوْقَ الظُّبَا   حَتى تَبَدَّا ذَا اشْهِبَابٍ وَحَجَا

الجحفل الجيش والجحفلة للذى الحافر كالشفة للانسان والهادى المتقدم يقال هداه اذا تقدمه وقال امرؤ القيس

كان دماء الهاديات بنحره * عصارة حناء بشيب مرجل

يريد أوائل الوحش والتالى الذى يتلوه أى يتبعه والصلا ماعن يمين الذنب وشماله وهما صلوان وأصلت الفرس اذا استرخى صلواها وذلك اذا قرب نتاجها وانما سمى المصلى فى الحلبة مصليا لان رأسه عند صلا السابق والارواح جمع ريح وتجمع على أرواح ورياح والقهقرى الرجوع الى خلف وهو اسم المصدر والارهاج جمع رهج وهو الغبار والشهبة فى الالوان بياض على سواد وقد شهب الشئ بالكسر شهبا ومنه قولهم اشهب الرأس وفرس أشهب ويقال كتيبة جأواء بينة الجأى وهى التى يعلوها لون السواد لكثرة الدروع والمعنى فى البيت الاول واضح وما ذكر فيه من المزاحمة وصف أردا فى دل به على كثرة الجيش وقوله يرتد طرف الشمس عنه حاسرا يريد أن الشمس خفى نورها لكثرة ماثار من غبار هذا الجيش واستعار للشمس طرفا وعبر بحسوره عن خفاء النور وهى عبارة حسنة واستعارة بديعة وقوله وترجع الارواح عنه القهقرى يريد ان هذا الجيش لعظمه وتكاثفه قد سد مهب الريح فهى ترجع اذا انتهت اليه عن مسيرها ولا تستطيع مجاوزته وقد قال ابو الفرج الببغاء فى مثل قوله يرتد طرف الشمس عنه حاسرا و وصف الجيش

قاد الجياد الى الجياد عوابسا * شعثا ولولا بأسه لم تنقد

فى جحفل كالليل أو كالسيل أو * كالقطر صافح موج بحر مزبد

متوقد الجنبات تعتنق القنا * فيه اعتناق تواصل وتودد

متفجر بظبا الصوارم مبرق * تحت العجاجة بالصواهل مرعد

ردالظلام على الضحى واسترجع الا * اظلام من ليل العجاج الاربد
وكانما نقشت حوافر خيله * للناظرين أهلة في جلمد
وكان عين الشمس مطروف وقد * جعل الغبار لها مكان الاثمد

وهذه الابيات غاية في الابداع وقال ابو القاسم بن هاني يصف الحرب والجيش

ومضرمة الانفاس جمر وطيسها * شرنبثة الكفين فاغرة الفم
ضروس لها أبناء صدق تحشها * فمن خادر ورد وأشجع أيهم
رددت رماحها باول صدمة * وزعزعت خيليها بأول مقدم
وارعن يحموم كان أديمه * اذا شرعت ارماحه ظهر شيهم
هريت شدوق الاسد يطوى عجاجه * على عنقفير يا كل الناس صيلم
فاركانه من يذبل وعماية * وأعنانه من أعفر ويلملم
اذا أخذت أعلامه صدر مقنب * رأيت شروري جبل تحت نخل مكمم
فما تنطق الارماح غير تصاصل * ولا ترجع الابطال غير تغمغم
فيملأ سمعا من رواعد رجف * ويملأ عينا من بوارق ضرم
غطم خضم الموج أورق جحفل * لهام كمرداة الصفيح ململم
كان عليه اليم باليم تنكفي * غواربه والليل بالليل يرتمي

وقوله تلونت أرهاجه البيت يريد ان الغبار يغلب سواده تارة على بياض السيوف فيكون أجاجي وتارة يغلب بياض السيوف على سواد الغبار فيكون أشهب أو يريد ان هذا الجيش يمر بأرضين مختلفة الوان ترابها فتارة تكون التربة تضرب الى السواد فتغلب على بياض الحديد وتارة تكون على غير ذلك يصفه ببعد المسير والتقييم لاراضي الاعداء على اختلافها واتساعها وقد قال أبو الطيب في هذه المعنى فأحسن

حنت كل أرض تربة في غباره * فهن عليه كالطرائق في البرد

جَيشٌ جيُوشُ الرُّعبِ مِنْ قُدَّامه * تَسرِي وَتغزُوا قَبْلَهُ مَنْ قَدْ غزَا
تَرَاهُ كَالْبحرِ الْمُحيطِ كلمّا * زَعزَعَهُ عَصفُ الرِّيَاحِ وزفا
أَلقَتْ تَوَالِي خَيْلِهِ أَعرَافَهَا * مِن فَوقِ أَصلاءِ الهَوَادِي وَالْعُكَا

الزعزعة تحريكك الشيء تقول زعزعته فتزعزع وريح زعزعان وزعزع وزعزاع أي تزعزع الاشياء وسيل زعزع وعصف الرياح من قولك عصفت الريح اذا اشتدت فهي ريح عاصف وعصوف ويوم عاصف أي تعصف فيه الريح والزفيان شدة هبوب الريح يقال زفته الريح زفيانا أي طرته والهوادي هنا المتقدمات من الخيل والتوالي التي تليها وقد تقدم تفسير الاصلاء والعكاجع عكوة والعكوة بالضم أصل ذنب الدابة حيث عرى من الشعر من المغرز ومنه قول الشاعر

حتى توليك عكا أذنابها وعكوت ذنب الدابة عكوا اذا عقدته والبيت الاول مأخوذ من قول حبيب ابن اوس

لم يغز جيشا ولم ينهد الى بلد * الا تقدمه جيش من الرعب

وينظر الى هذا ما ذهبت اليه في قصيدة هنأت بها المقام العلي النصري أيده الله عند موت الطاغية وكان موته وهو محاصر لجبل الفتح ففرج الله عن المسلمين وذلك في سنة احدى وخمسين وسبعمائة وفي شهر المحرم منه وذلك

قولى وقد ذكرت الطاغية

ولو أملى له الامهال حتى * تسير اليه بالجيش اللهام
لجرعه سيوفك أى كاس * ممثلة من الموت الزؤام
ولكن كان سعدك فيه أمضى * فأعجله الحمام عن الحمام
وكنت متى تشب وقود حرب * على الاعداء مشعلة الضرام
جعلت النصر بين يديك فيها * طليعة جيشك السامى القتام
فتقضى فى عداك بكل أرض * سعودك قبل اثخان الحسام

وأصل هذا كله قول رسول الله صلى الله عليه وسلم نصرت بالرعب مسيرة شهر ومعنى البيت الثانى انه شبه ذلك الجيش فى اتساع أقطاره وكثرة جولان الفرسان فيه وتزاحمه وتراءى الدروع عليهم كالماء المتكسر بالبحر المحيط بالارض اذا حركته الريح فاضطربت أمواجه وتراكبت لججه والى تحقيق التشبيه فى تزاحم الامواج وركوب بعضها بعضا أشار فى قوله القت نوالى خيله البيت

تَصَاخَبُ الخِرْصانُ حِينَ تَلْتَقِي   مِنْهُ عَلَى جَمَاجِمٍ مِثْلِ العَلاَ
مَعْرُوفَةً اعْرَاقُـــا   مَاءٍ رَقَتْ   أَعْرَافُهَا وَلاَ نَوَاصِيهَا سَفَا
مُعْتَزَّةٌ نُفُوسُهَا   مُهْتَزَّةٌ   أَعْطَافُهَا إِلَى الصَّرِيخِ إِنْ دَعَا

تصاخب أى يسمع لها أصوات والصخب الصياح يقال صخب بالكسر فهو صخاب وصخبان واصطخب افتعل منه والخرصان جمع خرص وهو ما على الجبة من السنان ويقال فيه خرص وخرص وخرص بالتثليث والجبة ما دخل فيه الرمح من السنان وقد يطلق الخرص على الرمح والجماجم جمع جمجمة وهى عظم الرأس المشتمل على الدماغ والعلا جمع علاة وهى الزبرة التى يضرب عليها الحداد الحديدة وهى أيضا الصخرة والاعراق جمع عرق وعرق كل شىء أصله والهوادى هنا الاعناق والسفا خفة الشعر وهو عيب فى الخيل وقد تقدم والصريخ صوت المستغيث وتشبيه الجماجم بالعلا متداول بين الشعراء قديما وفى تصاخب الخرصان حين تلتقى عليها ما يدل على كثرة الجيش وعظمه وتزاحم الفرسان فيه وكذلك ماذكره من تنزيه أعراق الخيل ونواصيها عن السفا وقد ملح الاديب الماهر ابو الحكم مالك بن المرحل ماشاء و وصف النهر فقال

والارض قد ضربت بمرهف نهرها * صفحا والتى فى المكان فصاحا
فاسمع الى غريبه فى حصبائه * كالقين جر على العلاة سلاحا

وملوصفها بممن أن اعرافها ومناسبها معروفة ما يدل على عتقها وانها من كرام الخيل المنسوبة وهذه كلها أوصاف اردافية بديعة وكذلك ماذكر من اعتزاز نفوسها وما عندها من اهتزاز الاعطاف لاجابة الصريخ يدل أيضا على كرمها ويشير الى مبادرة فرسانها الى نصرة المضطر واغاثة الملهوف وجانس بين أعراقها وأعرافها ومعتزة ومهتزة مع ما ضمن البيت الثانى والبيت الثالث من الترصيع

ذَوَائِبُ الرَّايَاتِ تَهْفُو فَوْقَهَا   مُظَلِّلاَتٍ كُلَّ ظَهْرٍ وَمَطَا
قَدْ خَالَفَتْ فِعْلَ العُقَابِ فِى القَطَا   كُلُّ عُقَابٍ سَالَمَتْ فِيهِ القَطَا

يرمي بها من كلّ ثغرٍ ثُغرةً كلُّ امرئٍ ما زال يُصمي ما رمى

يقال هفا يهفو اذا خفق وهفا الطائر بجناحيه خفق وطار وقال الشاعر

وهو اذا الحرب هفا عقابه * مرجم حرب تلتظى حرابه

والمطا الظهر والعقاب الراية الضخمة شبهت بالعقاب من الطير قال الشاعر

ورب ظل عقاب قد وقيت به * مهرى من الشمس والابطال تجتلد

ومنه البيت الذى أنشدناه آنفا وهو * وهو اذا البحر هفا عقابه * والقطا طائر معروف سمى بذلك لثقل مشيه من قولهم قطا يقطو اذا ثقل فى المشى والواحدة قطاة والقطاة أيضا العجز وهو ما بين الوركين وقيل هو معقد الردف من الدابة خلف الفارس وجمعها كذلك قطا والثغر موضع المخافة من فروج البلدان والثغرة بالضم نقرة النحر التى بين الترقوتين والثغرة أيضا الثلمة يقال ثغرناهم أى سددنا عليهم ثلم الجبل وهذه مدينة فيها ثغر وسلم وأصميت الصيد اذا رميته فقتلته وأنت تراه وفى الحديث كل ما أصميت ودع ما أنميت أى دع ما رميته فغاب عنك ثم مات والمعنى فى البيت الاول لا يحتاج الى تفسير وفى البيت الثانى ان حال العقاب وهى الراية مع القطاة وهو العجز من الفرس مخالف حال عقاب الطير مع القطا لان شأن العقاب أن تعدو على القطاة وتفترسها وهذه العقاب مسالمة للقطاة لا يخشى منها عليها حين تخفق عليها وتظللها وقد قال ابن صفوان الاسدى فى مقصورته التى يصف فيها الفرس

وفيه من الطير خمس فمن * رآى فرسا مثله يقتنا

غرابان فوق قطاة له * ونسر ويعسوب قد بدا

و ينظر الى هذا المذهب الذى ذهب اليه الناظم وكانه عكس معناه قول المعرى يصف الناقة

يكاد غراب غير الخطر لونه * ينادى غرابا رام ريتها قع

الغراب رأس الورك والخطر بكسر الخاء ما يتعلق بوركى الناقة من البول والبعر لانها تبول وتبعر فيتعلق بذنبها ثم تضرب بذنبها على عجزها فيتعلق ذلك بوركيها وغيرهما من كفلها وأراد أنها هزلت حتى طمع فيها الطير وقد ذكر حبيب عقاب الطير مع عقاب الرايات فى بيت واحد وان كان معنى ما ذكر غير المعنى الذى ذكر الناظم فقال

وقد ظللت عقبان راياته ضحى * بعقبان طير فى الدماء نواهل

ثم ذكر فى البيت الثالث ان هذه الخيل يقصد بها المواضع المخوفة والاطراف المصاقبة لبلاد العدو فتثخن فيهم وتصيب موضع النكاية وكنى عن ذلك بالثغرة على جهة التمثيل لان الثغرة من المواضع التى اذا أصابه الرامى من الرمية أتى عليها وقد يريد بالثغرة الثلمة يسدها على العدو حين يغزو بلادهم والاول أبين وجانس بين العقاب والعقاب والقطا والقطا والثغر والثغرة

مِنْ كُلِّ مَنْ يَسْرُوا الْهُمُومَ كلما تَسَرْبَلَ اللَّيْلَ الْبَهِيمَ واسْرَا

أَسْرَوْا وَمَا حَبَوْا اكْرَن جفْنا إِلَى أَنْ صَبَّحُوا الاَعْدَاءَ بِالْحَبُّ كرَا

يحكى القَنا فى أنف كلّ منْسَرٍ مِنْ فُتْخِهِ مَنَاسِرًا ذَاتَ شَنَا

يسروا الهموم أى يكشفها ويزيلها من قولك سروت الثوب عنى سروا اذا ألقيته عنك قال الشاعر

سرى ثوبه عنك الصبا المتخايل * وانسرى الهم انكشف وسرى عنه كذلك واسترى

أى أسرى قال كثير

أروح واغدوا من هواك واسترى * وفى النفس مما قد علمت علاقم

وحباه حبوة اعطاه والحبا العطاء والكرى النعاس والحبوكرا الداهية وام حبوكرا أعظم الدواهى قال الشاعر

فلما غشى ليلى وأيقنت انهـا * هى الاربى جاءت بام حبوكرا

والمنسر بكسر الميم قطعة من الجيش تمر أمام الجيش الكبير قال لبيد يرثى قتلى هوازن

سما لهم ابن الجعد حتى أصابهم * بذى لجب كالطود ليس بمنسر

والمنسر مثل المجلس لغة فيه والمنسر أيضا للسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها وانف كل شىء أوله والفتخ جمع افتخ يقال أسد أفتخ اذا كان عريض الكف ويقال عقاب فتخاء سميت بذلك للين جناحها والشغا اشغا العقاب وهو فضل منقارها الاعلى على الاسفل وتعقفه وعقاب شغواء والمعنى فى البيت الاول ان هذا الجيش يحتوى على كل من يزيل عنه الهموم ويكشفها بسرى الليل وأدراع الظلام اذ كان السرى هو الذى ينال به بعيد الاغراض ويبلغ به عظيم الاخطار والمعنى فى البيت الثانى أنهم أسروا الى الاعداء ومنعوا الجفون من لذيذ النوم حتى صبحوا أعداءهم بالداهية العظمى من قتلهم وسبى ذراريهم وغير ذلك من وجوه النكاية فيهم وأراد فى البيت الثالث بالمنسر كل قطعة تتقدم الجيش وبالانف أوائلها وأراد بالفتخ الاسود أو العقبان وكنى بهم عن الابطال وجعل الرماح لهم كالمناسر ذات الشغا للعقبان وقد أحكم فى هذا البيت التورية بذكر الانف والمنسر والفتخ وقد ذكر بعض أهل البيان فى أنواع الائتلاف ائتلاف اللفظ مع اللفظ وفسره بأن يكون فى الكلام معنى يصح معه عدة معان فيختار منها مابينه و بين بعض الكلام ائتلاف وملايمة ومثل ذلك بقول البحترى يصف الابل

كالقسى المعطفات بل الاسهـ * ـم مبرية بل الاوتار قال فتشبيهها بالقسى من حيث هو كناية عن الهزال فصح معه تشبيهها بالعراجين والاهلة فاختار من ذلك كله تشبيهها بالاسهم والاوتار لما بينها و بين القسى من الملايمة وحسن النسق قلت والصحيح عندى ان جميع ما ذكر ليس من باب ائتلاف اللفظ باللفظ وانما هو من باب ائتلاف المعنى بالمعنى لان المعانى هى التى ائتلفت هنا من الاوتار والقسى والاسهم وانما ينبغى أن يعد من ائتلاف اللفظ مع اللفظ ما كان مثل قول مهيار

ومد برسيان عيناه والابريق * فتكا ولحظه والمدام * الابريق هنا السيف سمى بذلك لبريقه وقد كان يصح أن يقول سيان عيناه والصمصام أو الهندى فاختار الابريق لمناسبته لفظا للمدام اذ الابريق يطلق على اناء الخمر وليس هذا من المعنى فى شىء وانما هو مراعاة مجرد اللفظ ومن هذا القبيل بيت الناظم هذا فانه لو قال فى أول كل منسر لصح المعنى الذى أراد فعدل عنه الى الانف لمناسبته للمنسر وكذلك قوله من فتخه لو قال عوضا عنه من أسده لكان صحيحا ولم يخرج عن المعنى الذى أرا فاختار الفتخ لمناسبته المنسر والشغا فتأمله فانه حسن جدا وقد جانس بين المنسر والمناسر وكذلك جانس فى البيت الذى قبله بين حبوكرا والحبوكرا كما جانس فى البيت الاول بين يسر واسترى

يَحْمِلْنَ كُلَّ حَامِلٍ إِلَى العِدَا وشكَ الرَّدَى اذا وَعَاصَوْتَ الوَعا

يُوجِرُ أَنفَ القِرنِ كُلَّ ثَعْلَبٍ كَثَعْلَبِ الَّى وِجَارٍ قَدْ أَوَا

كَأَنَّهُ اذا يَصِرُّ مُكْرَهَا عَلَى اقتحامِ الكَلْمِ دِرْصٌ قَدْ ضَاَى

وعامن قولهم وعيت الحديث أعيه وعيا اذا حفظته ومنه اذن واعية ولوعا الجلبة والاصوات وأراد به هنا الجلبة فى الحرب وقد قالوا يوم الوعا بالعين المهملة فى يوم الحرب كما قالوا الوغا بالغين المعجمة وأصلها أيضا الاصوات والجلبة ويقال أوجرته الرمح أى طعنته فى صدره والثعلب طرف الرمح الداخل فى جبة السنان والثعلب أيضا الحيوان المعروف والوجار والوجار سرب الضبع شبه ولوج ثعلب الرمح فى أنف القرن بولوج الثعلب فى الوجا اذا أوى اليه وقد قال ابو الطيب

وكل أصم يعسل جانباه * على الكعبين منه دم ممار

يغادر كل ملتفت اليه * ولبته لثعلبه وجار

ويقال صر القلم والباب وغيرهما يصر صريرا اذا صوت والدرص ولد الفار واليربوع وأشباه ذلك وفى المثل ضل دريص نفقه يضرب مثلا لمن يعيا بأمره ويقال صئا الفرخ يصأى صيئا اذا صاح وكذلك الخنزير والفيل واليربوع وفى المثل جاء بماصأى وصمت أى بالمال الكثير من الناطق والصامت ويقال فيه أيضا جاء بماصاء وصمت شبه صوت الرمح وهو صريره اذا طعن فاكره على اقتحام الكلم أى الجرح بصوت الدرص وقد أبدع فى الاتيان بالثعلب مع الوجار والدرص فناسب بين الالفاظ وأحكم التورية فى قوله يوجر أنف القرن كل ثعلب وجاء بوعا والوعا والثعلب والثعلب ويوجر والوجار فاحسن فى التجنيس هذا مع ماضمنه البيت الاول من الترصيع والترديد

فَكَمْ طُلاً منهمْ بِهِنْدِيٍّ فَرَا ... وَكَم حَشاً مِنهُمْ بِخطِّيٍّ حَشَا

كأنّمَا أرْماحُهُ ارْشِيَةٌ ... بِهَا النُّفُوسُ الفَائِضَاتُ تُستقى

تقدم تفسير الطلا وفرا قطع وشق حكى ابن الاعرابى فرا أوداجه وأفراها والحشا ما ضمت عليه الضلوع وحشا من قولهم حشوت الوسادة وغيرها اذا ملأتها والهندى السيف سمى بذلك لانه يطبع من حديد والخطى الرمح ينسب الى موضع باليمامة يقال له الخط وهو خط هجر وانما تنسب الرماح اليه لانها تحمل من بلاد الهند فتقوم به والارشية جمع رشاء وهو الحبل ويقال فاظ الرجل بالظاء يفيظ فيظا وفيوظا وفيظانا اذا مات وربما قالو فاظ يفوظ فوظا وفواظا قال رؤبة * لايدفنون منهم من فاظا * أى من كثرة القتلى ويقال أيضا فاظت نفسه أى خرجت روحه عن أبى عبيدة والكسائى وأبى زيد قال الراجز * ففقئت عين وفاظت نفس * وقال الاصمعى سمعت أبا عمرو يقول لا يقال فاظت ولكن يقال فاظ اذا مات وحكى أبو عبيد والفراء فاضت نفسه بالضاد أى خرجت قالا وهى لغة بنى تميم وأنكر الاصمعى فاض بالضاد فى هذا المعنى وقال انما يفيض الدمع والماء قلت وينبغى ان يكون ضبط الفائضات هنا بالضاد على اللغة الضعيفة لان التورية بذلك تتم مع ذكر الارشية والاستقاء فتأمل ذلك فانه حسن وانما أخذه الناظم من قول بعض بنى نمير وقد قيل له كيف صنع قومك حين غزتهم حنيفة فقال اتبعوهم حتى لحقوهم فجعلوا المران أرشية الموت فاستقوا بها أرواحهم قلت وأصل هذا المعنى من قول عنترة

يدعون عنتر والرماح كأنها * أشطان بير فى لبان الأدهم

ولا خفاء بما اشتمل عليه البيت الاول من التجنيس والترصيع والمقابلة

مَلِكٌ اذَا عُدَّ المُلوكُ فَاسْمُهُ ... مُعْتَمَدٌ تَقْدِيمُهُ بَادِى بَدَا

قَدْ قَسَمَ الايّامَ بَينَ أنْعُمٍ ... لِمَنْ عَفَا وَأبْؤُسٍ لِمَنْ عَدَا

يقال افعل هذا الامر بادي بدا أي أول حكاه سيبويه و يقال أيضاً في معناه بادي بد و بادي بدي وأصله الهمز وانما ترك لكثرة الاستعمال وفيه لغات غير ذلك وهي مركبة مثل معدى كرب وقالي قلا والانعم جمع نعم بالضم وهو خلاف البؤس يقال يوم نعم و يوم بؤس والجمع أنعم وأبؤس وللناشي في معنى الاول من هذين البيتين

لو يكتب المجد أسماء الملوك اذا * أعطاك موضع باسم الله في الكتب

وقد قال المتنبي فيما ينظر الى هذا فبالغ وغلا

كتبت في صحيفة المجد باسم * ثم قيس و بعد قيس السلام

فلم يثبت لاحد بعد قيس في المجد شيئا وهو من قول الآخر

* أيام ذكرك في دواوين الصبا صدر الصحائف * وأما البيت الثاني منهما فقد قال الحسين بن مطير

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس * ويوم نعيم فيه للناس أنعم

فيمطر يوم الجود من كفه الندا * و يمطر يوم البؤس من كفه الدم

فلو ان يوم البؤس خلى عقابه * على الناس لم يصبح على الارض مجرم

ولو ان يوم الجود خلى يمينه * على الناس لم يصبح على الارض معدم

ولمروان بن أبي حفصة وهو بديع

تشابه يوماه علينا فاشكلا * فلا نحن ندرى أي يوميه أول

أيوم نداه الغمر أم يوم بأسه * وما منهما الا أغر محجل

وقال آخر

فتى دهره شطران فيما ينوبه * ففي بأسه شطر وفي جوده شطر

فلا من بغاة الخير في عينه قذى * ولا من زئير الحرب في أذنه وقر

و ينظر اليه في المنزع لا في المعنى قول أبي دلف

يوماي يوم في أوانس كالدما * بيض و يوم في قتال الديلم

هذا حليف غلائل مكسوة * مسكا وصافية كلون العندم

ولذاك ضافية الدروع وضمر * يكسوننا رهج الغبار الاقتم

وليومهن الفضل لولا لذة * سبقت بطعن الديلمي المعلم

و يشبه هذا ما ذكر من ان النعمان كان اتخذ يوم نعيم و يوم بؤس فمن لقيه يوم النعيم أعطاه وأحسن جائزته ومن لقيه يوم البؤس قتله وقيل ان الذي اتخذ يومى النعيم والبؤس انما هو المنذر بن ماء السماء جد النعمان بن المنذر وقد ذكر أبو علي القالي بسند يرفعه الى يونس بن حبيب انه كان يقول كان المنذر بن ماء السماء جد النعمان ابن المنذر ينادمه رجلان من العرب خالد بن المظلل وعمرو بن مسعود الاسديان وهما اللذان عنى الشاعر بقوله

ألا بكر الناعي بخيري بني أسد * بعمرو بن مسعود و بالسيد الصمد

فشرب ليلة معهما فراجعاه الكلام فاغضباه فامر بهما فجعلا في تابوتين ودفنا بظاهر الكوفة فلما أصبح سأل عنهما فاخبر بذلك فندم وركب حتى وقف عليهما فامر ببناء الغريين تثنية غرى كقتب بناءان مشهوران بالكوفة وجعل لنفسه يومين يوم بؤس و يوم نعيم في كل عام فكان يضع سريره بينهما فاذا كان في يوم نعيمه فأول من يطلع عليه وهو على سريره يعطيه مائة من ابل الملوك وأول من يطلع عليه في يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان و يأمر به فيذبح و يغرى بدمه الغريان فلم يزل كذلك ماشاء الله فبينما هو ذات يوم من أيام بؤسه اذ طلع عليه

عبيد بن الابرص فقال له الملك الا كان الذبح غيرك يا عبيد قال عبيد أتتك بحائر رجلاه فقال الملك أو أجل بلغ اناه قال أنشدني يا عبيد فقد كان يعجبني شعرك فقال حال الجريض دون القريض و بلغ الحزام الطبيين فقال أنشدني أقفر من أهله ملحوب * فالقطبيات فالذنوب

القطبية كعرنية ماء ومنه قول عبيدة

أقفر من أهله عبيد * فليس يبدي ولا يعيد

عنت له عنة كؤد * وحان منه لها ورود

فقال أنشدني هبلتك أمك فقال المنايا على الحوايا فقال بعض القوم أنشد الملك هبلتك أمك فقال لا يرحل رحلك من ليس معك فقال له آخر ما أشد جزعك من الموت فقال

لا غرو من عيشة نافدة * وهل غير ما ميتة واحده

فابلغ بني وأعمامهم * بان المنايا هي الراصده

لها مدة فنفوس العبا * د اليها وان كرهت قاصده

فلا تجزعوا لحمام دنا * فللموت ما تلد الوالده

فقال له المنذر لابد من الموت ولو عرض لي أبي في هذا اليوم لم أجد بدا من ذبحه فأما اذا كنت لها وكانت لك فاخترمني ثلاث خصال ان شئت من الاكحل وان شئت من الابجل وان شئت من الوريد فقال ثلاث خصال مقادها شر مقاد وحاديها شر حاد ولا خير فيها لمرتاد فان كنت لابد قاتلي فاسقني الخمر حتى اذا ذهلت لها ذواهلي وماتت لها مفاصلي فشأنك وما تريد فأمر له المنذر بحاجته الى الخمر فلما أخذت فيه الخمر وقرب للذبح أنشأ يقول

وخيرني ذو البؤس في يوم بؤسه * خصالا أرى في كلها الموت قد برق

كما خيرت عاد من الدهر مرة * سحائب ما فيها لذي خيرة انق

سحائب ريح لم توكل ببلدة * فتتركها الا كما ليلة الطلق

وأمر به ففصد فلما مات طلي بدمه الغريان

كَمْ مُعْتَفٍي سِلْمٍ وَهَيْجَاءَ إِلَى * نَارِ قِرَاهُ وَظُبَاهُ قَدْ عَشَا

سَمَا إِلَيْهَا حِينَ أَعْشَاهُ الطَّوَى * فَأَذْهَبَتْ أَنْوَارُهَا عَنْهُ الْعَشَا

يَغْدُوا الْعِدَا فِي بِيدَاهُ فِي الْوَغَى * ضَرْبٌ وَطَعْنٌ كَفَمِ الزِّقِّ غَذَا

وَكَمْ غَذَا مِنْ مُعْتَفٍي عَوَارِفٍ * وَمُعْتَفِي مَعَارِفٍ بِهَا غَذَا

لَيْثٌ كِفَاحٍ رَائِعٌ مَنِ اعْتَدَى * غَيْثٌ سَمَاحٍ مُمْطِرٌ مَنِ اعْتَفَى

قد تقدم تفسير المعتفي والسلم بفتح السين وكسرها الصلح والهيجاء الحرب بمد و يقصر و يقال عشا الى النار وعشاها عشوا وعشوا واعتشاها واعتشى بها اذا رآها ليلا على بعد فقصدها قال الحطيئة

متى تأته تعشو الى ضوء ناره * تجد خير نار عندها خير موقد

وضرب نار القرى مثلا لافاضة نداه و بث عطاياه وقصد الوفود اليه بذلك والطوى الجوع يقال طوى بالكسر يطوى طوى فهو طاو وطيان وطوى بالفتح يطوى طيا اذا تعمد لذلك والعشا مقصور مصدر الاعشى

وهو الذي لا يبصر بالليل و يبصر بالنهار والمرأة عشواء وأعشاه الله فعشى بالكسر يعشى عشا والعوافي جمع عافية وهي هنا طلاب الرزق كسباع الطير أنشد ثعلب

يعز علينا ونعم الفتى * مصرعك ياعمرو للعافيه

وهي من أبيات المعاني يعني ان قتلت فصرت أكلة للطير والضباع وغذا الماء سال والعرق يغذو غذوا أي يسيل دما وغذوته أغذوه من الغذاء يقال غذوت الصبي باللبن فاغتذى أي ربيته به والعوارف جمع عارفة وهي المعروف والمعارف العلوم وقد تقدم تفسير ذلك والكفاح من قولهم كافح القوم اذا استقبلهم في الحرب بوجهه وهو من قولهم لقيته كفاحا واعتدى افتعل من العدوان وكان الوجه أن يقول يغذو العوافي بنصب الياء لكن سكنها لضرورة الوزن كما قال النابغة

ردت عليه أقاصيه ولبده * ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد * أي الثرى

والمعنى في هذه الابيات أن عفات هذا الامير طائفتان طائفة تمشوا في السلم الى نار قراه فتنال عظيم مواهبه وهم أنواع الناس القاصدون حضرته والآملون لرفده وفيهم من أرباب الفهم وطلاب العلم من يفيدهم أنواع المعارف لتبصره في العلوم وطائفة تمشوا الى نار سيوفه وهي عافية الوحوش وسباع الطير فتطعم أشلاء أعدائه الذين يقتلهم في الحروب وجعل للظبا نارا لبريقها ولمعانها اذا جردت أو تكون نار الظبا عبارة عن شدة البأس كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين حين نظر الى مجتلد القوم الآن حمي الوطيس وقد قال الشاعر

أذكى وأوقد للاعادي والقرى * نارين نار وغى ونار زناد

ثم قال ان كلتا الطائفتين كان جهد الجوع قد أعشى بصرها فأذهبت أنوارها تين النارين العشا عنهما حين أضاءت لهما لما استفادتاه عندهما من عظيم الفوائد والمطاعم فاستحال الطوى شبعا والشدة رخاء والعشا إبصارا والجهل علما وكر على المعنى بالتفسير فأوضحه في البيت الثالث والرابع فذكر أن الضرب والطعن يغذوان العوافي من عداه وان طلاب المعارف والعوارف تغذوهم ضروب علومه ونداه وما ذكره الناظم من أن عوافي الطير والسباع تغتذي بما يقتل من أعدائه معنى متداول بين الشعراء فقد قال النابغة

اذا ماغدوا بالجيش حلق فوقهم * عصائب طير تهتدي بعصائب
يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم * من الضاريات بالدماء الدوارب
تراهن خلف القوم خزرا عيونها * جلوس الشيوخ في ثياب المرانب
جوانح قد أيقن أن قبيله * اذا ما التقى الجمعان أول غالب

وقد قال ابو نواس

واذا مج القنا علقا * وتراءى الموت في صوره
راح في ثني مفاضته * اسد يدمى شبا ظفره
تتأى الطير غزوته * ثقة بالشبع من جزره

ولما سمع محمود الوراق أبا نواس ينشد هذه الابيات قال له ما تركت للنابغة شيئا حيث يقول اذا ماغزوا وانشد الابيات قال محمود فقال لي اسكت فان أحسن الاختراع لما أسأت الاتباع وقد أحسن أبو تمام في قوله

وقد ظللت عقبان راياته ضحى * بعقبان طير في الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها * من الجيش الا انها لم تقاتل

وقال مسلم بن الوليد

قد عود الطير عادات وثقن بها * فهن يتبعنه في كل مرتحل

وقال

وقال ابو الطيب

وذى لجب لا ذو الجناح أمامه * بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهى ضعيفة * تطالعه من بين ريش القشاعم
اذا ضوءها لاقى من الطير فرجة * تدور فوق البيض مثل الدراهم

وقد قال ابو فراس الحمدانى فيما يشير الى هذا المعنى

واظمأ حتى ترتوى البيض والقنا * واسغب حتى يشبع الذئب والنسر

وقد اشتملت هذه الابيات على أنواع من البديع منها انه عادل فى البيت الاول بين الفاظ عجزه وصدره فرد مار القرى الى السلم ونار الظبا الى الهيجاء ومنها انه جانس بين عشا والعشى و يغذو وغـذا والمعارف والعوارف ومنها انه استوفى فى البيت الثالث والرابع والخامس شرح ما أجمله فى الاول وهو صحة التفسير ومنها الترصيع الواقع فى البيت الرابع والخامس وقد جاء فى البيت الثالث بنوع من التضمين فادخل فيه بعض بيت من شعر الحماسة وهو الذى يقوله الفند الزمانى فى حرب البسوس

صفحنا عن بنى ذهل * وقلنا القوم اخوان
عسى الايام أن يرجعـ * ـن يوما كالذى كانوا
فلما صرح الشر * فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوا العدوا * ن دناهم كما دانوا
شددنا شدة الليث * غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين .... * وتخضيع واقران
وطعن كفم الزق * غدا والزق ملآن
وفى الشر نجاة حـ * ـين لاينجيك احسان
وبعض الحلم عند الجهـ * ـل للذلة اذ عان

فضمن الناظم بيته طائفة من بيت الفند وهو قوله وطعن كفم الزق غدا والتضمين عندهم هو قصدك الى البيت أو بعضه لتأتى به فى شعرك كالمتمثل نحو قول محمود بن الحسين كشاجم

ياخاضب الشيب والايام تظهره * هـذا شباب لعمر الله مصنوع
أذكرتنى قول ذى لب وتجربة * فى مثله لك تأديب وتوزيع
ان الجديد اذا ما زيد فى خلق * تبين الناس ان الثوب مرقوع

قال بعضهم وقد أنشد هذه الابيات هذا جيد فى بابه وأجود لو لم يكن بين البيت الاول والآخر واسطة لان الشاعر قد دل بذلك على انه متهم بالسرق وعلى ان هذا البيت غير مشهور وليس كذلك بل هو كالشمس اشتهارا ولو أسقط البيت الاوسط لكان تضمينا عجيبا لان ذكر الثوب قد أخرج الثانى من باب الاول الا فى المعنى وأجود التضمين أن يصرف الشاعر وجه البيت المضمن عن معنى قائله الى معناه كنحو قول بعض المحدثين و ينسب الى ابن الرومى

ياسائلى عن خالد عهدى به * رطب العجان وكفه كالجلمد
كالاقحوان غداة غب سمائه * جفت اعاليه وأسفله ند

فصرف قول النابغة فى وصف الثغر

تجلو بقادمتى حمامة أيكة * بردا اسف لثاته بالأثمد

كالاقحوان غداة غب سمائه * البيت

الى معناه للذى أراد ومن حسن التضمين قول ابى فراس الحمدانى يتغزل فى غلام من الفرس

قاتلى شادن رخيم الدلال * كسروى الاعمام والاخوال

كيف أرجو ممن يرى الثار عندى * فرجا فى تعطف أو وصال

مادرت اسرتى بذى قارانى * بعض من جدلوا من الابطال

أيها المزرى جرائر قومى * بعد ماقد مضت عليها الليالى

لم اكن من جناتها علم اللـــه وانى بحرها اليوم صال

فضمن البيت الاخير والمعنى الذى أراد ان بنى شيبان وهم ربيعة قوم أبى فراس كانوا قد هزموا الفرس يوم ذى قار وذلك مشهور وسأذكر خبر هذا اليوم بعد هذا فنزع ابو فراس فى هذه الابيات منزعا ظريفا وذهب مذهبا غريبا ذكر فيه ان هـذا الغلام على تأخر زمانه وزمان أبى فراس عن الذين شهدوا تلك الهزيمة ذهب الى الاخذ بثار قومه من أبى فراس وان لم يكن من جنات تلك الحرب ولا من الذين أثاروا تلك الهزيمة وأما البيت المضمن فهو من شعر الحارث بن عباد البكرى يقوله فى حرب البسوس بعد ان كان اعتزل الحرب فلم يدخل فيها الى أن قتل ابنه بجير فلما ان بلغه قتله ظن ان مهلهلا يقنع به فى دم أخيه كليب وكان كليب التغلبى قـد قتله جساس و بسببه كانت الحرب فلما بلغ الحارث قتـل ابنه قال نعم القتيل قتيلا أصلح الله به بين ابنى وائل يريد بين بكر وتغلب وعزم أن لا يطلب بثاره الى ان بلغه ان مهلهلا قال لبجير لما قتل بؤ بشسع نعلى كليب يريد انه لا يفى دمه من دم كليب بشئ الا بشسع نعليه فعند ذلك حمى الحارث بن عباد وغضب وعزم على الدخول فى الحرب وقال فى ذلك

قربا مربط النعامة منى * لقحت حرب وائل عن حيال

والنعامة فرسه وهى أبيات يقول فيها

لم أكن من جناتها علم اللـــه وانى بحرها اليوم صـال

أى لم أدخل فى هذه الحرب ولا جنيتها وأنا اليوم أصلى بنارها ومن ذلك قول بعض المشارقة

اذا الوهم أبدى لى لماها وثغرها * تذكرت مابين العـذيب وبارق

ويذكرنى من قـدها ومدامعى * مجرعو الينا ومجرى السوابق

وانما ضمن بيت أبى الطيب

تذكرت مابين العذيب وبارق * مجرعو الينا ومجرى السوابق

ومثله قول بعض الجبانيين من أهل تونس

لاعذر لى ان لم أهم بمعذر * فى وجنتيـه فتنـة المتأمل

خط على خد قويم مثل ما * دبت على الكافور أرجل أنمل

انى من القوم الذين اذا هووا * لا يسئلون عن السواد المقبل

ولديهم ان العـذار اذا بدا * مما يعد من الطراز الاول

ضمن قول حسان بن ثابت فى آل جفنة يمدحهم

يغشون حتى لاتهر كلابهم * لا يسئلون عن السواد المقبل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم * شم الانوف من الطراز الاول

فنقله عن معنى المدح الى ذكر العذار فأبدع ولا سيما البيت الثالث فهو نهاية فى الابداع وقـد ضمنت العجز من بيت امرىء القيس وهو قوله

نطعنهم سلكى ومخلوجة * ردك لامين على نابل

فقلت مهفهف القد بديع الحلى * يعطو بجيد الرشأ الخاذل

رمى بنبل اللحظ لى مهجة * غادرها فى شغل شاغل

وانعطف الصدغان فى خده * ردك لامين على نابل

وللفقيه القاضى الخطيب أبى البركات بن الحاج أعزه الله وكتبه على جزء فيه كلام لعبد الحق بن سبعين وأنشدنيه

الا فدعوا ماقال عنكم فانه * محى السيف ماقال ابن دارة أجمعا

وشرح ما أراد ان أصحاب ابن سبعين يعبرون عنه بابن دارة لان شكل سبعين فى رسوم الحساب الرومية دارة هكذا ه وكان ابن سبعين اذا كتب اسمه يكتب عبد الحق بن و يرسم دارة فغاص الفقيه أبو البركات هذا الغوص هنا وأتى بتضمين لانظير له وانما ضمن عجز البيت الثانى من قول الشاعر

خذوا العقل ان أعطاكم العقل قومكم * وكونوا كمن سيم الهوان فاربعا

ولا تكثروا فيها الضجاج فانه * محى السيف ماقال ابن دارة أجمعا

وهو مما جرى عندهم مثلا وقد ضمن بعض المتأخرين قول الشاعر

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * متى أضع العمامة تعرفونى

فقال يهجو اشيخا يعرف برشيد الدين كان أصلع أجلع والاجلع الذى أسنانه بارزة

أقول لمعشر جهلوا وغضوا * من الشيخ الرشيد وانكروه

هو ابن جلا وطلاع الثنايا * متى يضع العمامة تعرفوه

ولبعضهم فى السواك (١) * فجل بذاك واكتسب المزايا *

وأنشد قومه تيها وعجبا * أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

ولابراهيم الاشبيلى اليهودى

تأمل لظى شوقى وموسى يشبه * تجد خير نار عندها خير موقد

ضمن العجز من قول الحطيئة

متى تأته تعشو الى ضوء ناره * تجد خير نار عندها خير موقد

وله يصف الخمر

اذا الحبابة فى أكواسها نجمت * فالصبح بالكوكب الدرى منحور

ضمن قول علقمة

أوردتها وصدور العيس مسنفة * والصبح بالكوكب الدرى منحور

ومنهم من يقلب البيت فيضمنه معكوسا كقول العباس بن الوليد بن عبد الملك فى أبيات كثيرة لمسلمة بن عبد الملك * لقد أنكرتنى انكار سوء

كقول المرء عمرو فى القوافى * لقيس حين خالف كل عذل

عذيرك من خليلك من مراد * أريد حياته ويريد قتلى

والبيت لعمرو بن معدى كرب يقوله لابن اخته قيس بن هبيرة بن مشكوح وانما هو

أريد حياته ويريد قتلى * عذيرك من خليلك من مراد

و ينظر الى تضمين العباس تضمين صاحب الشذور لقول امرىء القيس حيث يقول

تبدت لنا شمسا تصد وتتقى * صدود الظباء الحائمات العواطش

---

(١) هكذا بياض بالاصل

بناظرة من وحش وجرة مطفل * وجيد كجيد الريم ليس بفاحش

وأكثر الناس انما يضمنون بيتا أو عجزه بكماله ومنهم من يضمن بعض الفاظ البيت أيا كان كما فعل الناظم هنا وكقول الشاعر

عوذ لما بت ضيفا له * أقراصه مني بياسين
وعوذ الماء بسمر القنا * وبالافاعي والثعابين
فبت والارض فراشي وقد * غنت قفانبك مصارين

وكقول الشاعر

ولقد سعى للخرى فلم يقل * يوم الوغى لكن تضايق مقدم

أشار الى قول عنترة

اذ يتقون بي الاسنة لم أخم * عنها ولكني تضايق مقدم

وقد ضمنت نحو هذا التضمين فقلت في أبيات تكتب في منزل

يارا كبا يطوى المطى به الفلا بيدا فبيدا * متوسدا أعضادها يرمى بها البلد البعيدا
دع عنك أعمال الركاب وخط عنهن القتودا * وأنزل به بيتا لآل البيت بالعلياء شيدا
للضيف فيه حكمه * منهم ويولون المزيدا * لم يذخروا عنك الطريف اذا أتيت ولا التليدا
خلق لهم ورثوه عن * عمرو الذى هشم الثريدا *

ضمنت بعض البيت من قول الشاعر

عمر والذى هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف

ومن أحسن ماوقع فيه التضمين ما أنشدناه صاحبنا الفقيه الأديب البارع أبو جعفر بن خاتمة أعزه الله وقد بعث اليه الفقيه القاضي أبو البركات بن الحاج أبقاه الله بطبق فيه أنوار مفتقة منظمة تنظيما عجيبا فكتب اليه ما اخترت منه

بدت بجلا الاظلام نير نورها * فلولا الشذا قلنا هي الانجم الزهر
فكهنا بها حتى الصباح تنعما * يناخها مني لك الحمد والشكر
أقول لندماني وقد ظل معجبا * بحسن الذى أبدى بها النظم والنثر
وهل هو الا الروض حيا بزهره * وساق الثريا في ملاءته الفجر

ضمن بيت ذى الرمة

أقامت به حتى دوى العود في الثرى * وساق الثريا في ملاءته الفجر

وذكر الاستاذ الجليل أبو جعفر بن الزبير رحمه الله قال أنشدني أبو الخطاب بن خليل قال أنشدني القاضي ابو حفص عمر بن عمر الفاسي لنفسه وقد أهديت له جارية فوجدها ابنة سرية كان قد تسراها فردها وكتب الى مهديها

يامهدى الرشأ الذى ألحاظه * تركت فؤادى نصب تلك الاسهم
ريحانة كل المنى في شمها * لولا المهين واجتناب المحرم
ماعن قلى صرفت اليك وانما * صيد الغزالة لم يبح للمحرم
ان الغزالة قد علمنا قبلها * سر المهات وليتنا لم نعلم
ياويح عنترة الذى قد شفه * ماشفني فشدا ولم يتكلم

ياشاة ماقنص لمن حلت له * حرمت على وليتها لم تحرم

ضمن بيت عنترة والعرب تطلق الشاة على البقرة الوحشية فكنى عنترة بالشاة عن المرأة تشبيها لها بها ويقال انها كانت زوجة لابيه فبذلك حرمت عليه ولابى الحسن بن جعفر الاشبيلى

وذى صلف خط العذار بخده * كخط زبور فى عسيب يمان
فقلت له مستفهما كنه أمره * لمن طلل أبصرته فشجانى
فقال ولم يملك عزاء لنفسه * تمتع من الدنيا فانك فان
فما كان الا برهة ورأيته * كتيس الظباء الحلب العدوان

فضمن أبياتا من شعر أمرىء القيس وقد أحسن أبو الحسن حازم فى تضمينه جميع قصيدة امرىء القيس وصرف معانيها الى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن أبدع ماله فيها

نبى هدى قد قال للكفر نوره * الا أيها الليل الطويل الا انجل
تلى سورا ماقولها بمعارض * اذا هى نصته ولا بمعطل

وهذا البيت ومابعده نهاية فى حسن التضمين لانه صرف البيت عن المعنى الذى أراده امرؤ القيس الى معنى آخر شريف فحاز قصب السبق فى هذا الباب

لقد نزلت فى الارض ملة احمد * نزول اليمانى ذى العياب المحول
أتت مغربا من مشرق وتعرضت * تعرض أثناء الوشاح المفصل
ففازت بلاد الشرق من زينتها * بشق وشق عندنا لم يحول

مُقَدَّمٌ قَبْلَ السُّؤَالِ جُودُهُ فَمَا يَقُولُ مَنْ يُرَجِّيهِ مَتَى
جَرَى إِلَى نِهَايَةِ الْجُودِ الَّتِى مَابَعْدَهَا وِجْدَانُ مُمْنٍ لَا لَا
أَوْ لَمْ يُوَصِّلْ أَهْلَهُ الدَّهْرُ إِلَى آلَائِهِ لَمْ يَصِلُوا إِلَى أَلَا

أراد بالى التى ختم بها البيت الثانى حرف العلة وبالتى ختم بها البيت الثالث واحدة الآلاء وهى النعم وتفتح همزتها وهو الاشهر وقد تكسر فيقال الى قلت وقد يختار ان يكون هنا ضبطه بالكسر ليتماثل اللفظان فى التجنيس والسؤال فى البيت الاول يسوغ أن يريد به الاستجداء والطلب فيكون موافقا لقول الشاعر

أعطاك قبل سؤاله * فكفاك مكروه السؤال

ويسوغ أيضا أن يراد به الاستفهام عن وقت العطاء أى انه لمبادرته بالعطاء لا يستبطأ نواله فيقال متى يكون والاول أظهر وان كان عجز البيت يؤيد هذا التفسير الاخير والمعنى فى البيت الثانى أنه قد استولى فى الجود على الامد الذى مابعده غاية وعبر عن الغاية بالى لانها حرف موضوع للدلالة على معناها ثم ذكر أن الدهر لو لم يوصل الناس الى نعم هذا الممدوح لم يصلوا الى نعمة لان النعم كلها منه نعوذ بالله من الغلو

طَابَتْ بِهِ الأَيَّامُ لِي حَتَّى لَقَدْ ذَكَرْتُ فِيهَا قَدْ خَلَا عَيْشًا حَلَا
فَيَا خَلِيلَيَّ اسْقِيَانِي أَكْؤُسًا تُسْكِرُ مِنْ خَمْرِ الصِّبَا مَنْ قَدْ صَحَا
بَلَغْتُ آرَابَ الْمُنَى فِي دَوْلَةٍ أَوْلَتْ يَدَيْ أَسْنَى الأَيَادِي وَالْأَلَا

فخلّيا فكرى يقضى أربا ... من ذكر ما قد انقضى وما خلا

أين الزمان الناضر الطلق الذي ... كم قرّ فيه ناظرى بما رأى

أملأ سمعى ويدى من كل ما ... تهواه نفسى من غناء وغنا

يقال حلا الشئ يحلو حلاوة ويقال حلى فلان بعينى بالكسر وفى عينى وبصدرى وفى صدرى ويقال أيضا حلا فلان بعينى وفى عينى قال الاصمعى حلى فى عينى بالكسر وحلا فى فى بالفتح وقد تقدم تفسير اللهى والزمان الطلق المعتدل من قولهم يوم طلق بين الطلاقة أى مشرق لا حر فيه ولا برد ومن قولهم طلق الوجه أى ضاحك مشرق وقد يراد به السمح من قولهم فلان طلق اليدين أى سمحهما والغناء بالمد من السماع والغنى اليسار وهو مقصور يقول ان الايام طابت بدولة هذا الممدوح حتى تذكر بطيبها ما مضى من طيب أيام الصبا ثم أخذ يذكر معاهد الشباب وقوله تسكر من خمر الصبا من قد صحا جاء به على جهة التمثيل ومراده ان دولة هذا الامير بما ينال فيها من المآرب وبطيب أيامها تذكر عهود الصبا من نسيها وقد عادل فى البيت الاخير بين صدره وعجزه بأن رد الغناء للسمع والغنى لليد وهو مثل قول عمار

أعلل نفسى بالمكارم والعلا * وأذنى وكفى بالغناء وبالغنى

وقد جانس الناظم بين حلا وخلا ويدى والايادى ويقضى وانقضى والغناء والغنى وطابق بين السكر وصحا

فى بقعة كجنة الخلد التى ... يرى بها كل فؤاد ما اشتهى

تجرى بها الانهار من ماء ومن ... خمر ومن رسل وأرى قد صفا

اقسم الايام بين منظر ... ومسمع يسبى العقول والنهى

ومنعم بمطعم ومشرب ... يرضى العيون والانوف واللها

ومركب للأنس ومجلس ... فى مدرس ومحضر فى منتدى

وملثم لمرشف ومهصر ... لمعطف من أهيف طاوى الحشا

فالدهر عيد والليالى عرس ... والعيش أحلام كأحلام الكرى

الأرى العسل ويطلق أيضا على النحل يقال ارت النحل تأرى اريا أى عملت العسل والنهى العقول واحدها نهية سميت بذلك لأنها تنهى عن القبيح وكرره لما اختلف اللفظ كما قال الاخر * وهند أتى من دونها النأى والبعد * واللهى بفتح اللام جمع لهاة وهى الهنة المطبقة فى أقصى سقف الفم وتجمع أيضا لهوات ولهيات والمنعم اسم المصدر من نعم أو نعم والمدرس موضع درس العلوم يقال درست الكتاب درسا ودراسة والمنتدا مجتمع القوم ومنه دار الندوة للدار التى كانت قريش تجتمع فيها بمكة والملثم اسم مصدر لثم والمرشف موضع الرشف والمهصر اسم مصدر هصر اى امال تقول هصرت الغصن أى أملته والأهيف الضامر البطن والخاصرة يقال امرأة هيفاء ورجل أهيف وطاوى الحشا ضامر البطن وقوله فى البيت الثانى تجرى بها الأنهار من ماء ومن خمر الخ أما جريان الانهار من الماء فعلى ظاهره وأما جميع ما ذكره بعد فانما أراد الكثرة كما يقال عند فلان أنهار من الدراهم أى انها من الكثرة

لو جرت لكانت نهرا وانما تبع قوله تعالى فيها أنهار من ماء غير آسن الآية وقد قيل في قوله تعالى من جبال فيها من برد انه لا يراد به الجبال حقيقة وانما يراد الكثرة أى لو جمع لكان كالجبال وكذلك قوله عليه السلام في الحديث صلى خلفه أمثال الجبال من الملائكة يعني في الكثرة أى كثير من الملائكة وقوله قد صفا من الايغال الحسن أراد تخليصه من الشمع وسلامته مما يشينه وانما أشار الى قوله تعالى وأنهار من عسل مصفى وقوله يرضى العيون والانوف واللهى يريد بحسن مرآه وطيب شذاه ولذة مذاقه وقد جاء الناظم بأكثر هذه الأبيات مرصعة مماثلا أكثر ألفاظها بعضها البعض وقوله فالدهر عيد والليالي عرس يريد به الزمان الذى وصف أى كان الدهر اذ ذاك عيدا والليالي عرسا وأما قوله والعيش أحلام كاحلام الكرى فكلام مستأنف لما ذكر ما مر له من طيب العيش ولذته وذكر أنه قد ذهب عنه فلم يبق منه غير ذكره أخذ يسلى نفسه بأن يقول ان ذلك شأن الدنيا وحال العيش يذهب طيبه كما تذهب الاحلام فلا يبقى منها الا الذكر وليس قوله والعيش أحلام كاحلام الكرى معطوفا على قوله فالدهر عيد والليالي عرس فتأمله وقد قال أبو تمام

ثم انقضت تلك السنون وأهلها * فكأنها وكأنهم أحلام

وقال المتنبي

هون على بصر ما شق منظره * فانما يقظات العيش كالحلم

وقال ابن الرومي

يأسف المرء على ما فاته * من لبانات له لم يقضها
وتراه فرحا مستبشرا * بالذى قضى كأن لم يمضها
انها عندى وأحلام الكرى * لقريب بعضها من بعضها

قَدْ أَغْتَدِي وَالشُّهْبُ تَجْرِي خَلْفَهَا * شُهْبٌ مِنَ الصُّبْحِ سَرِيعَاتُ الْخُطَا
وَالْفَجْرُ قَدْ لَاحَ مُحَيَّاهُ وَقَدْ * قُدَّ أَدِيمُ اللَّيْلِ عَنْهُ وَانْفَرَى
كَأَنَّ ضَوْءَ الصُّبْحِ شُهْبٌ غَارَةٍ * تَقَاذَفَ الْحُضْرُ بِهِنَّ وَارْتَمَى

يقال أفريت الشيء أى شققته فانفرى وتفرى أى انشق قالوا تفرى الليل عن صبحه والحضر بالضم العدو ويقال احضر الفرس احضارا واحتضر أى عدا واستحضرته أعديته والتقاذف الترامي والشهبة لون يغلب بياضه السواد وشبه اقبال بياض الصبح حين غلب على سواد الليل بقطعة من خيل شهب الالوان تسرع خلف النجوم والنجوم منهزمة أمامها فالشهب في صدر البيت الاول جمع شهاب وهو النجم وهو مخفف من شهب كما يقال كتاب وكتب وقد يكون جمع أشهب وعبر به عن النجم أيضا لبياضه والشهب في عجزه جمع أشهب وكذلك الشهب في البيت الاخير وقد أكثر الناس في هذا المعنى قال ابن دراج القسطلي

وكأنما في الجو فارس أبلق * يشتد في آثار فارس أشعل

وقال أيضا وهو بديع في معناه

حتى بدا الصبح مشمطا ذوائبه * يطارد الليل موشيا أكارعه

ولابي القاسم بن هاني

كأن عمود الصبح خاقان معشر * من الترك نادى بالنجاشي فاستخفا

وسنذكره بعد وقال الامير تميم بن المعز

كان السحاب الغر اصبحن أكؤسا * لنا وكان الراح فيها سنا البرق
الى ان رأيت النجم وهو مغرب * وأقبل رايات الصباح من الشرق
كان سواد الليل والصبح طالع * بقايا مجال الكحل فى الاعين الزرق

ومن أبدع ما فى هذا المعنى قول ابن المعتز

قد اغتدى والليل فى اهابه * كالحبشى فر من أصحابه
والصبح قد كشف عن أنيابه * كأنه يضحك من ذهابه

وقال ابن حمديس الصقلى فولد معنى غريبا

ورب صبح رقبناه وقد طلعت * بقية البدر فى اولى بشائره
كأنما أدهم الاظلام حين نجا * من أشهب الصبح ألقى نعل حافره

أَوْجَسَتِ الْعَقْرَبُ مِنْهَا نَبْأَةً * فَأَمَّتِ الْغَرْبَ وَجَدَّتْ فِى النَّجَا
ورَكَنَ الْغَفْرُ إِلَى الشُّهْبِ الَّتِى * أَجْفَلْنَ جَمَّاءَ غَفِيراً وَانْضَوَا
وَأَصْبَحَ السِّمَاكُ يُزْجِى عَرْشَهُ * أَمَامَهُ مَخَافَةً أَنْ يُحْتَوَا

أوجست الاذن وتوجست سمعت حسا والنبأة الصوت الخفى والعقرب نجم وهو من بروج السماء وأمت قصدت والنجا الاسراع وهو ممدود الا ان الناظم قصره لاجل الوزن والقافية يقال نجوت أى أسرعت وسبقت والغفر ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر وهى من الميزان والشهب النجوم وقد فسر ويقال جاء القوم جماء غفيرا وجم الغفير وجاء الغفير ولم يحك سيبويه الا الجماء الغفير وقال هو من الاحوال التى دخلتها الالف واللام والغفير فى قولهم جاء غفيرا والجماء الغفير وصف لازم للجماء لانك لا تقول الجاء ولا جاء وتسكت والسما كان كوكبان نيران السماك الاعزل وهو من منازل القمر والسماك الرامح وليس من المنازل ويقال انهما رجلا الاسد وعرش السماك أربعة كواكب صغار أسفل من العواء يقال انها عجز الاسد وهى بين يدى السماك الاعزل منحدرة عنه فى الجنوب واليه تنسب ويزجى يسوق يقال أزجيت الابل اذا سقتها قال ابن الرقاع

تزجى أغن كان ابرة روقه * قلم أصاب من الدواة مدادها

والمعنى أنه لما شبه ضوء الصبح بشهب الغارة وكانت النجوم تغيب عنده تخيلها قد أحست بتلك الغارة فاخذت فى الارتحال ثم ذكر ان العقرب سمعت منها نبأة فجدت فى السير نحو الغرب وأسرعت وان شهب النجوم لما اجفلت كلها ركنت اليها كواكب الغفر لترحل فى كنفها وتحت خفارتها كأنها لا تستقل بالرحيل وحدها لصغرها وان السماك ساق عرشه أمامه خوفا أن تستولى خيل الغارة عليه

وَمَدَّ لِلَّيْثِ أَخُوهُ رُمْحَهُ * وَقَرَّبَ الْعَوَّاءَ مِنْهُ وَاشْتَلَا
وَقَدْ عَدَاهُ اللَّيْثُ عَنْ نَثْرَتِهِ * وَحَدَّقَ الطَّرْفَ إِلَيْهِ وَدَأَى
وَفَرَّتِ الْجَوْزَاءُ مِنْ أَمَامِهِ * وَقَدَّمَ الْحَادِى الثُّرَيَّا وَمَضَى

الليث يريد به الاسد وهو من المنازل وأخوه يريد به أخا السماك والضمير عائد عليه وقد قدمنا أنهما سماكان فذكر أولا السماك الاعزل وهو ذو العرش وذكر الآن السماك الرامح وله نجم يقدمه يقولون أنه رمحه وبه سمى

الرامح والعواء من منازل القمر بمد و يقصر وهي خمسة أنجم يقال انها ورك الاسد واشتلا استنقذ وعداه عن الشئ عاقه عنه والعوادي العوائق قال الشاعر * وعدت عواد دون وليك تشعب * والنثرة كوكبان بينهما مقدار شبر وفيهما لطخ بياض كأنه قطعة سحاب وهي عندهم ما بين فم الأسد وأنفه ينزلها القمر والطرف العين ولا يجمع لانه مصدر فيكون واحدا و يكون جماعة قال الله تعالى لا يرتد اليهم طرفهم وهما كوكبان يقدمان الجبهة يقال انهما عينا الاسد و يدلان سميا طرفا و ينزلهما القمر والتحديق شدة النظر ودأى يدأى دأيا ودآى يدآى دأوا اذا ختل قال * كالذيب يدآى للغزال يختله * والجوزاء نجم سميت بذلك لانها تعترض في جوز السماء أى في وسطها وجوز كل شئ وسطه والمعنى انه لما وصف أحد السماكين بأنه يزجي عرشه خوفا عليه وصف أخاه وهو السماك الرامح بأنه قد مد رمحه نحو الاسد حتى خلص العواء منه بأن أدناها من نفسه واستنقذها من مخالبه ثم ذكر أيضا ان الاسد عاق السماك عن أن يصل الى النثرة وانه قد أحد النظر اليه ومد الطرف قصد ان يختله فيفترسه وان الجوزاء فرت قدام الاسد وان الثريا أسرعت خوفا منه أيضا فقدمها الحادي ومضى وهذه كلها تخيلات

وقدْ أرَادَ الْحَمَلُ الْحَمَلَ عَلَى ... حُوتٍ عَنِ الدَّلْوِ عَدَاهُ وثَنَا

وقدْ أرَى أخْبِيَةً مَضْرُوبَةً ... لِلسَّعْدِ مِنْ غَيْرِ عِمَادٍ تُبْتَنَا

وظَلَّ يَرْعَى مَائِحًا مِنْ دونِهَا ... قَدْ نَاطَ بِالْفَرْغِ الرشَاءَ وَدَلا

وَقدْ تَوَقَّى ذَابِحًا مِنْ خَلْفِها ... أَوْتَرَ قَوْسًا لِلنَّعَامِ وارْتَمَا

الحمل أوله البروج والحوت أيضا برج في السماء وهو كواكب كثيرة في مثل خلقة السمك وفي موضع البطن من أحد شقي كواكبها نجم منير يسمى بطن الحوت والدلو أيضا برج في السماء و يسمى أيضا الحوت وسعد الاخبية ثلاثة أنجم وتحت واحد منها نجم رابع وسعود النجوم عشرة أربعة منها في برج الجدي والدلو ينزلها القمر وهي سعد الذابح وسعد بلع وسعد الأخبية وسعد السعود وهو كوكب منفرد نير وأما الستة التي ليست من المنازل فسعد ناشرة وسعد الملك وسعد البهام وسعد الهمام وسعد البارع وسعد مطر وكل سعد من هذه الستة كوكبان بين كل كوكبين في رأى العين قدر ذراع وهي متناسقة و يقال رعيت النجوم ارعاها أى رقبتها والمائح الذي ينزع من البئر وقد متح يمتح و يقال ناط الشئ ينوطه نوطا أى علقه وفي السماء فرغان هما من منازل القمر الاول فرغ الدلو المقدم والدلو أربعة كواكب واسعة مربعة فاثنان منها هما الفرغ الاول واثنان هما الفرغ الآخر سميا بفرغ الدلو وهو مصب الماء بين العرقوتين وقد يقال الفرغ الاول عرقوة الدلو العليا والفرغ الثاني عرقوة الدلو السفلى والرشا كواكب كثيرة صغار على صورة السمكة وهو الحوت الذي تقدم ذكره وفي بطنها كوكب نير ينزله القمر والرشا نير أيضا الحبل والنعام والنعائم منزلة من منازل القمر وهي ثمانية أنجم والقوس برج من بروج السماء والمعنى أنه تخيل الحمل يريد الحمل على الحوت لما عاقه عن الدلو وجعل سعد الاخبية قد ضرب أخبيته من غير عماد وان الفرغ منوط بالرشا فقد دلاه المائح وان الذابح الذي يضاف اليه سعد قد ارتمى النعام بالقوس وأكثر هذه الابيات التي تضمنت وصف النجوم لم يخلها من تورية بها يتمكن له المعنى الذي أراد والتخيل الشعري الذي اعتمد ومما أنشدنيه بعض أصحابنا في التورية وقد ذكر سعد الاخبية وسعد السعود قول أحدهم

لما حللتم باللوا * حيث التفاف الالويه

أبصرت في بنزرت * مالم أرفي افريقيه
سعد السعود قادلـ ـبلدة سعد الاخبيه

فكمل التورية بذكر البلدة وأحسن وذكرت بذلك ما كنت صنعته على جهة الدعابة في بعض الناس وكان كثيرا مايحضر عند الطعام ويدعى الى الولائم فلاتفوته

قالوا أبو بكر متى * ماحضر الاكل طلع
وان تكن وليمة * يخب فيها ويضع
ماأعجب السعد الذى * ساعد ذاك اللكع
فقلت حقا قلتم * لكنه سعد بلع

وهنا فرغ من ذكر النجوم وقد ذكرها جماعة من الشعراء من أبرعهم في صفتها أبو القاسم بن هانى الاندلسى حيث يقول فى قصيدته الشهيرة

بعيشك نبه كأسه وجفونه * فقد نبه الابريق من بعد ما اغفا
وقد فككت الظلماء بعض قيودها * وقد قام جيش الليل للصبح واصطفا
وولت نجوم للثريا كأنها * خواتم تبدو فى بنان يد تخفا
ومر على آثارها دبرانها * كصاحب ردء كمنت خيله خلفا
وأقبلت الشعرى العبور ملبة * بمرزمها اليعبوب تجنبه طرفا
كأن بنى نعش ونعشا مطافل * بوجرة قد أضللن فى مهمه خشفا
كأن سهيلا فى مطالع أفقه * مفارق الف لم يجد بعده الفا
كأن سهاها عاشق بين عود * فآونة يبدو وآونة يخفا
كأن معلى قطبها فارس له * لواآن مركوزان قد كره الزحفا
كأن قدام النسر والنسر واقع * قصصن فلم تسم الخوافى به ضعفا
كأن أخاه حين دوم طائرا * أتى دون نصف البدر فاختطف النصفا
كأن عمود الصبح خاقان عسكر * من الترك نادى بالنجاشى فاستخفا
كأن لواء الصبح غرة جعفر * رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

وقد احتذى الناظم حذوه فى قصيدة له طائية افتتحها بقوله

أمن بارق أورى بجنح الدجا سقطا * تذكرت من حل الابارق فالسقطا
وكم ليلة قاسيتها نابغية * الى أن بدت شيبا ذوائبها شمطا
وبت أظن الشهب مثلى لهاهوى * وأغبطها فى طول الفتها غبطا
على انها مثلى عزيزة مطلب * ومن ذا الذى ماشاء من دهره يعطا
كأن الثريا كاعب أزمعت نوى * وأمت باقصى الغرب منزلة شحطا
كأن نجوم الهقعة الزهر هودج * لهاعن ذرى الحرف المناخة قد حطا
كأن رشاء الدلو رشوة خاطب * لهاجعل الاشراط فى مهرها شرطا
كأن السهى قد دق من فرط شوقه * اليها كما قد دقق الكاتب النقطا
كأن سهيلا اذا تناءت وانجدت * غدا يائسا منها فاتهم وانحطا
كأن خفوق القلب قلب متيم * تعدى عليه الدهر فى البين واشتطا

كأن كلا النسرين قدريع اذ رأى * هلال الدجى يهوى له مخلبا سلطا
كأن الذى ضم القوادم منهما * هوى واقعا للارض أوقص أوقطا
كأن أخاه رام فوتا أمامه * فلم يعدان مد الجناح وان مطا

ولعلى بن محمد الكوفى

متى ارتجى يوما شفاء من الضنا * اذا كان جانيه على طبيب
ولى عائدات ضفنهن بجفن فى * لباس سواد فى الظلام قشيب
نجوم أراعى طول ليلى بروجها * وهن لبعد السير ذات لغوب
خوافق فى جنح الظلام كأنها * قلوب معناة بطول وجيب
ترى حوتها فى الشرق ذات سباحة * وعقربها فى الغرب ذات دبيب
اذا ماهوى الا كليل منها حسبته * تهدل غصن فى الرياض رطيب
كأن التى حول المجرة أوردت * لتكرع فى ماء هناك صبيب
كأن رسول الصبح يخلط فى الدجا * شجاعة مقدام بجبن هيوب
كأن اخضرار الفجر صرح ممرد * وفيه لآل لم تشن بثقوب
كأن سواد الليل فى ضوء صبحه * سواد شباب فى بياض مشيب
كأن نذير الشمس يحكى ببشره * على بن داود أخى ونسيب
ولولا اتقاءى عتبه قلت سيدى * ولكن اراها من أجل ذنوب
نسيب أخاه وهو غير مناسب * قريب صفاء وهو غير قريب

وقال ابن طباطبا العلوى

كأن اكتتام المشترى فى سحابه * وديعة سر فى ضمير مذيع
كأن سهيلا والنجوم أمامه * يعارضها راع أمام قطيع
وقد لاحت الشعرى العبور كأنها * تقاذف طرف بالدموع هموع
وأضجعت الجوزاء فى أفق غربها * فباتت كنشوان هناك صريع
الى أن أجاب الليل داعى صبحه * وكان ينادى منه غير سميع

وقال الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد

لقد حلت سعدى فهل لك مسعد * وقد أنجدت دار فهل أنت منجد
رعيت بطرفى النجم لما رأيتها * تباعد بعد النجم بل هى أبعد
تنير الثريا وهى قرط مسلسل * ويعقل منها الطرف در مبدد
وتعترض الجوزاء وهى ككاعب * تميل من سكر بها وتميد
وتحسبها طورا أسير جناية * ترنح عند المشى وهو مقيد
ولاح سهيل وهو للصبح راقب * كما سل من غمد جراز مهند
أردد طرفى فى النجوم كأنها * دنانير لكن السماء زبرجد
رأيت بها والصبح ماحان ورده * قناديل والخضراء صرح ممرد
ولاح لنا من مربط الشمس أشقر * اذا ماجرى فالريح تكبو وتركد

وقال أبو على الحاتمى

وليل أقمنا فيه نعمل كاسنا * الى أن بدا للصبح فى الليل عسكر
ونجم الثريا فى السماء كانه * على حلة زرقاء جيب مدنر

وقال أبو العلا المعرى

ياابن مستغرب الصفوف ببدر * ومبيد الجموع من غطفان
أحد الخمسة الذين هم الا * غراض فى كل منطق والمعانى
والشخوص التى خلقن ضياء * قبل خلق المريخ والميزان
لو تأنى لنطحها حمل الشهب * تردى عن رأسه السرطان
أو ادارا والسماك طعنا لها * عاد كسير القناة قبل الطعان
أو رمتها قوس الكواكب زال * الحص منها وخانها الابهران
أو عصاها حوت النجوم سقاه * حتفه صائد من الحدثان

فَنَنْتَضِى صَوَارِمَ الْعَزْمِ إِذَا * مَاجَرَّدَ الصبحُ ظُباهُ وانْتَضا
ونَنْبَرِى لِنُجْعَةِ الرَّوْضِ إِذَا * ماهبّ مَطْلُولُ النَّسيمِ وَانبرَا
وتَنْسَرِي الاشْجانُ عَنْ قُلوبِنَا * إِذَا الظَّلامُ عَنْ سَنَا الصبحِ انْسَرَى

يقال نضا سيفه وانتضاه أى سله وعزمت على كذا عزما وعزما بالضم وعزيمة وعزيما اذا فعلته وقطعت عليه وانبريت للشئ اعترضت والنجعة بالضم طلب الكلا فى موضعه تقول منه انتجعت والمطلول الذى طله الندى أى بله وجعلها مطلولة للينها كما يقال ريح بليل والنسيم الريح الطيبة يقال منه نسمت الريح نسيما ونسمانا ونسيم الريح أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد وتنسرى تنكشف يقال انسرى عنه الهم اذا انكشف وسرى عنه منه وسروت الثوب عنى وسريت لغة اذا القيته عنك قال الشاعر

سرى ثوبه عنه الصبا المتمايل * أى كشف وقد تقدم تفسيره خبر عن نفسه انه كان ينبعث عند طلوع الفجر لانتجاع الرياض واراغة الصيد وطلب القنص فتنكشف الهموم عنه بذلك ويتسلى عن أشجانه وقد رد العجز على الصدر فى جميع هذه الابيات

نسأَلُ أَيدِي خيلِنَا وَشْكَ القِرَى * فَتجْعَلُ الجِرابَ تَعْجِيلَ الجدَا
إذَا بِنَا هَبَطْنَ بطْنَ أبطحٍ * أَجزْنَ حزْنًا مِنْ رَوابٍ ترتبا
فَلَمْ تَدعْ مَكانَ صيدٍ لم تطَا * مَرَابِضَ الوَحشِ بِهِ ولا مَكَا

الوشك السرعة والجدا العطية وكذلك الجدوى والابطح مسيل واسع فيه دقاق الحصا والحزن ماغلظ من الارض والروابى جمع رابية والرابية والربوة ما ارتفع من الارض وربوت الرابية علوتها وترتبا تفتعل من ربوت وقد يكون معناه أنها تجعل مرتبأ وهو المرقبه يقال فيه ربأت القوم وارتبأت وهو مهموز ويكون على هذا مما سهله الناظم لاجل القافية والمكا جحر الثعلب والارنب ونحوه والمعنى أنهم يطلبون القنص فيتجعل لهم بما تريغه خيلهم فى الاباطح والروابى من مرابض الوحوش وجحرة الارنب وغيرها وجاء بالسؤال والجواب على وجه التمثيل وقد قال أبو الطيب فى هذا المعنى

وخيل اذا مرت بوحش وروضة * أبت رعيها الا ومرجلنا يغلي

وقال الشاعر

اذا ما ركب قال ولدان حينا * تعالوا الى أن يأتي الصيد نحطب

يشير الى سرعة مجيئهم بالصيد وثقتهم بالظفر به وقال ابن المعتز في مثله ووصف البازي

قد وثق القوم له بما طلب * فهو اذا جلى لصيد واضطرب

عروا سكاكينهم من القرب *

وقال الآخر

مبارك اذا رأى فقد رزق * وقال أبو علي بن رشيق القيرواني في وصف

قوس البندق وهو مثل قول امرىء القيس وابن المعتز

طيرا أبابيل جاءتنا فما برحت * الا وأقواسنا الطير الابابيل

ومينها بحصى طين مسومة * كان معدنها للرمي سجيل

نغدوا على ثقة منا بما طيبها * فالنار تقدح والطنجير مغسول

أردت البيت الاخير وقد أنشدنا قبل قول الرمادي في صفة الفرس

قامت قوائمه لنا بطعامنا * غضا وقام العرف بالمنديل

قوله غضا احتراس عجيب اذ لو لم يذكره لتوهم أنهم ينقلون عليه أزوادهم وقد وقع التنبيه غير مرة على مثل هذا التجنيس الواقع في البيت الثالث

نَسْتَنْزِلُ الأَوْعالَ مِنْ أَوْعارِها شفعاً ووتراً مِنْ زَكا ومِنْ خَسا

ونَسْتَثِيرُ الصَّيْدَ مِنْ خَمائِلٍ قَدْ أَخْمَلَتْ ذارَيْنِ في طِيبِ الشَّذا

كأَنَّما أَرْواحُها إِذا ارْتَمَتْ بِزَهْرِها مُرْتَمِياتٌ بِالجِذا

يقال خسي وازكى نخسي فرد وزكى زوج قال الكميت

مكارم لا تحصى اذا نحن لم نقل * خسى وزكى فيما نعد خلالها

العرب تنطق بهما منونتين وتنطق بهما غير منونتين قال ابن الانباري من صرفهما جعلهما نكرتين ومن لم يصرفهما جعلهما بمنزلة مثنى وثلاث قلت وليس ما قاله بينا وقال بعضهم خسى وزكى لا ينونان ولا تدخلهما الالف واللام لانهما على مثال فعل مثل ذهب وضرب قلت لعله يريد أنهما منقولان من الفعل وحكيا لانهما لم يجردا عن الضمير فصار سبيلهما سبيل ما سمي به من الجمل كما قال الشاعر بني شاب قرناها تصر وتحلب وكان يقول الشيخ الذي يقال عنه خسى والشيء الذي يقال لمزكى الا ان خسى دون همز لم تنطق به العرب فعلا الا أن نقول أصله الهمز فاستعمل مبدل الهمزة فتأمله وقد ذكره الخليل في باب الياء والاوغال جمع وعل والاوعار جمع وعر ونستثير الصيد نزعجه وننهضه والخميلة الشجر المجتمع الكثيف والخمائل جمعها وقال الاصمعي الخميلة رملة تنبت الشجر واخملت فلانا صيرته ساقطا لا نباهة له والارواح جمع ريح ظهرت الواو لانها تقلب في الريح ياء للكسرة قبلها فلما زالت الكسرة رجعت والجذا جمع جذوة يقال جذوة وجذوة وجذوة وهي الجمرة والجمع جذا وجذا وجذا قال مجاهد في قوله تعالى أو جذوة من النار أي قطعة من النار شبه ما ترتمي به الرياح من مصفر الزهر بقطع الجمر وقال ابن الاعرابي النور الابيض والزهر الاصفر وذلك انه يبيض ثم يصفر وقيل غير ذلك وعلى قول ابن

الاعرابى عول الناظم وقد تقدم التنبيه على مثل ماوقع فيه من تجنيس فى البيت الثانى والاول

جوٌّ خَلاَ لِكُلِّ سِرْبٍ قدْ خَلاَ　　فِيهِ إِلَى رَعْيِ الْجَمِيمِ وَالْخَلاَ

قدْ أَضْحَكَتْ نُوَّارَهُ بَاكِيَةٌ　　قدْ ضَحِكَ الْبَرْقُ بِهَا حتى زَجَا

وَقدْ سَاتْ جُيُوبَهُ الرِّيحُ وَقدْ　　رِخيطَ بِخَيْطِ الْقَطْرِ مِنْهُ مَا انسأَى

يُهْدِي إِذَا ابْيَضَّتْ ذُرَاهُ بِالنَّدَا　　إِلَى الْمُنَدَّى فِيهِ مُبْيَضُّ النَّدَا

الجوما اتسع من الاودية قاله ابو عمرو فى قول طرفة * خلالك الجو فبيضى واصفرى * و يقال خلالك الشىء اذا انفردت به ومنه قوله تعالى يخل لكم وجه أبيكم وخلوت اليه اذا اجتمعت معه فى خلوة قال الله تعالى واذا خلوا الى شياطينهم والخلا الرطب من الحشيش وهو مقصور واحدته خلاة وفى المثل عبد وخلافى يديه أى انه مع عبوديته غنى و يقال أيضا فى المثل عبد وخلى فى يديه والجميم النبت الذى طال بعض الطول ولم يتم وقد تقدم تفسيره و يقال ضحك حتى زجا أى انقطع ضحكه وأراد بالباكية هنا السحابة لانهمالها و يقال سأبت الثوب والجلد أسأه سأيا مددته الى فانشق والندا المطر والبلل والندا الشحم قال

كثورا لعداب الفرد يضربه الندى * تعلى الندا فى متنه وتحدرا

فالندا الاول المطر والثانى الشحم و يقال ندت الابل اذا رعت فيما بين العلل والنهل تندو اندوا فهى نادية وتندت مثله وأنديتها انا وندبتها تندية وهى منداة والموضع أيضا مندى قال علقمة

ترادعلى دفن الحياض فان تعف * فان المندى رحلة فركوب

قال الاصمعى اختصم حيان من العرب فى موضع فقال أحدهما مركز رماحنا ومخرج نسائنا ومسرح بهمنا ومندى خيلنا والمعنى أنه ذكر خلو الوادى للسرب الذى انفرد فيه وحده يرعى مافيه من الرطب والجميم ثم أخذ يصف الوادى بالخصب وتوالى الامطار عليه وكثرة لمعان البروق فى أرجائه وجعل البروق والانوار ضاحكة والسحائب باكية فطابق طباقا حسنا ثم استعار لذلك الجو ثوبا عبر بها عن العشب الذى كساه حتى صار عليه كالثوب وذكر أن الريح كلما أثرت فيها بافساد تولى اصلاح ذلك الغيث وجعل تأثير الرياح فيه كالشق واصلاح الغيث فيه كالخياطة وشبه القطر بالخيوط وهو مأخوذ من قول أبى تمام

فسقاه مسك الطل كافور الصبا * وانحل فيه خيط كل سماء

لكن الناظم زاد فيه زيادة مليحة وقد أحسن بعض المتأخرين فى هذا المعنى وذكر الغيث فقال

ومن العجائب ان آتى من نسجه * وخيوطه بيض بساط أخضر

وما أبدع قول الآخر وان لم يذكر فيه ماوقع هنا من ذكر الخيط

وحائك فى الارض صوب المزن محكمة * ينيرها بغواديه ويسديها

فتشبيه العشب بالحلل عجيب وقد قال ابن اللبانة فيما يشبه هذا وان فارق ماقصد به اليه

والليل قد سدى والحسم ثوبه * والصبح يرسل فيه خيطا أبيضا

ثم ذكر ان هذا الوادى اذا جاد عليه الندى وهو الطل فابيضت به أعالى العشب لكثرته أكسب المواشى التى ترعى فيه وتندى لخصبه وطيب مرعاه مبيض الندى وهو الشحم وقد اشتملت هذه الابيات على أنواع من البديع منها التجنيس الحاصل فى البيت الاول والرابع ومنها الطباق المنبه عليه ومنها التصدير الواقع فى البيت الثالث

والترديد الى ما تضمنته هى وما قبلها من الارداف فانه أراد أن يصف الصيد بالسمن وطيب اللحم فانتقل الى وصف الخمائل التى خلا الى رعيها بطيب الندى وكثرة الرى وترا كم الكلا ثم انتقل عما قصد اليه من وصف الخمائل الى ذكر السحائب فجاء بارداف بعد ارداف

وَقَدْ نَقْفِي الطَّيْرَ أَقْنَى أَزْرَقَا   يَضْرِبُ دَفَّيْهِ بِضَافٍ ذِي دَفَا
تَهْفُوا وَتَصْطَكُّ قُلُوبُ الطَّيْرِ   رَانَ صَكَّ الهَوَاءَ بِجَنَاحٍ وَهَفَا
وَكَمْ أَثَرْنَا وَأَسَرْنَا قَنَصًا   بِمَا سَمَا مَسْمَعُهُ وَمَا خَذَا

يقال قفاه قفوا وقفوا واقتفاه وتقفاه تبعه وقفيته غيرى و بغيرى أتبعته إياه والقنا ارتفاع أعلى الأنف واحديداب فى وسطه وسبوغ فى طرفه وقيل هو تنوء وسط القصبة وأشرافه وضيق المنخرين ورجل أقنى وامرأة قنواء وقد يوصف بذلك البازى والفرس وهو فى الفرس عيب وفى الصقر والبازى مدح قال ذو الرمة

نظرت كما أوفى على رأس رهوة * من الطير أقنى ينفض الطل أزرق
طراق الخوافى واقف فوق ريعة * ندى ليله فى ريشه يترقرق

وقيل هو فى الصقر والبازى اعوجاج فى منقاره والدفان الجنبان و يقال دفى دفا فهو أدفى وهو من الطير ما طال جناحاه وذنبه وهو المراد فى كلام الناظم ومن المعز والوعول الذى طال قرناه حتى انصبا على أذنيه من خلفه ومن الناس الذى يمشى فى شق وقيل هو الاجنى وقيل هو المنضم المنكبين ومن الابل ما طال عنقه واحدودب وكادت هامته تمس سنامه والانثى من ذلك كله دفواء وقوله تهفوا وتصطك أى تطرب وهو من قولهم هفت الصوفة فى الهواء هفوا وهفوا ذهبت وكذلك الثوب وهفا الفؤاد ذهب فى أثر الشئ والصك الضرب الشديد بالشئ العريض وقيل هو الضرب عامة بأى شئ كان يقال صكه يصكه صكا واصطك الحجران صك أحدهما الآخر و يقال أثرت الصيد هجته واستخرجته من أماكنه وأسرته أوثقته وخذيت الاذن خذا وخذت خذوا وهى خذواء أى استرخت من أصلها وانكسرت مقبلة على الوجه وقيل هى التى استرخت من أصلها على الخدين فافوق وقد تقدم تفسيرها وانما وصف فى البيت الاول والثانى باز يا أرسله على الطير وأما قوله بما سما مسمعه وما خذا فالذى سما مسمعه هو الفرس والذى خذا مسمعه هو الكلب وسمو المسمع فى الفرس مستحسن وخذو الاذن من صفات الكلب وعادل بين صدر البيت وعجزه بان رد سما مسمعه الى أثرنا اذ كان الفرس هو الذى يهيج الصيد و يثيره ورد ما خذا مسمعه الى اسرنا اذ كان الكلب هو الذى يقتنص مع التسهيم الذى تضمنه البيت والطباق المعنوى الذى فى سما وخذا ومع ما احتوى عليه البيت الاول من التجنيس والبيت الثانى من التصدير والترديد ومع أوصاف الارداف التى احتوت عليه الابيات الثلاثة وقد وصف يوسف بن هارون الاندلسى البازى فى قصيدته الشهيرة التى مدح بها أبا على اسماعيل بن القاسم القالى صاحب الآمالى فقال

ومكبل لم يجترم جرما ولا * دامت صحابته بغير كبول
متلفت كتلفت المرتاع يقـ * سم لحظه فى الجول بعد الجول
حتى اذا ما السرب عن للحظه * أوما بقادمتيه خل سبيل
ولت جماعتها وشدو راءها * فكأنه بطل وراء رعيل
عجلت وأدركها ردى فى أثرها * ان الردى قيد لكل عجول

ثم وصف الكلب فقال

ولقد غدوت بأهرة متضائل * سر القلوب لدبه غير ضئيل
ولربما اشتم الصعيد بأنفه * حسا فقام له مقام دليل
متتبع لطلابه فكأنه * فى القيظ يطلب ظله لمقيل

ووصف أبو اسحاق ابن خفاجة كلب صيد فقال

واخطل لو تعاطى سبق برق * لطار من النجاح به جناح
يسوق الارض يسئل عن بنيها * فتخبر أنفه عنها الرياح
اقب اذا طردت به قنيصا * تنكب قوسه الاجل المتاح
أضل به ابنه ليل بهيم * فشد على مخنقه صباح

وقال ابو بكر بن على بن حبيش اللخمى يصف البازى

وأرسل من شهب البزاة معلم * غداواقعافى الشهب من خوفه النسر
كان على هاديه صفحة مهرق * مشت فوقه نمل بأرجلها حبر
تدر بعطفيه سحالة فضة * ويرنو بأجفان يطوقها التبر
ترى فيه من لون وعين بدائعا * كأن رمادا قلبت وسطه جمر
ولما التقته الطير خاضعة له * تبين فى اعطافه الزهو والكبر
جوارحه عند النزال سلاحه * فمن مرهف ظفر ومن زرد نحر
يكون ربىء الجيش ان جاش روعهم * ويضمن زاد السفر ان سغب السفر
وينقض نجما مشرقا وبكفه * مخالب أمثال الاهلة تصفر
تخدم للاملاك فهو مخدم * وذل لخفقه الكرامة والبر
اسر اعتزاز النفس وانقاد طائعا * فجوزى مايجزى به الطائع البر
وعوض أنس الانس من وحشة الفلا * فقربه ملك وقربه قصر
وعلمه قرب الملوك وقارها * فليس له كالطير روع ولا نفر
رأى سرب طير كالعذارى فشاقه * وحسن العذارى للشوق به عذر
وتيه منهن رائقه الحلى * بأعطافها زهو وفى لحظها سحر
موردة المنقار مخضوبة الشوى * مواطئها حمر وموردها خمر
كان عليها بردوشى تخايلت * به فأصاب الارض أعلامه الحمر
وفى النحر منها رقشة عجب كما * يفصل بالياقوت والسبج الدر
مشت مشية الحسناء وتثقلها الحلى * ويصرعها من لحظها الغنج والفتر
شكت من جناح مائل لاتقله * كما من وشاح جائل يشتكى الخصر
ويبهرها الاسراع فى طيرانها * فتدنى الخطا كالخود ناء بها سكر
ترى لقطت حب القلوب وأمسكت * فقد دمى المنقار واختضب الظفر
يغازلها الصقر المدل بعزة * فيبدوا لها دل يذل له الصقر
فطورا ترى منها المحاسن جهرة * كما انجاب عن حسناء فى غفلة ستر
وطورا توارى عنك تيها ونفرة * كما ستر العذراء عن عاشق خدر
ويضعف رعبا خطرها وجناحها * فيضعف منها فى محبتها الصبر

ويقرب منها مونسا وبه هوى * فتبعد عنه وحشة وبها ذعر
وتوليه صدا اذا تصدى لوصلها * وشأن الغوانى فى مواصلها الهجر
فيأنف من حكم الغرام وربما * أذل به ليث الشرى جؤذر غر
ويبصر رق النفس فى رقة الهوى * فيتركه والرق ينكره الحر
وينسخ بالاغلاظ رحمة حبه * وكل كبير النفس لذته القهر
ويهدى اليها الحين بعد تلاعب * بها مثل ما بالناس يفعله الدهر
فيا قاضيا بين المحبين عاصيا * غدرت وما من شيمة العاشق الغدر

وقال عبد الجليل بن وهبون يصف بازيا

وصارم فى يديك منصلت * لو كان للسيف فى الوغى روح
بجتاب مما لبست ضافية * لها على معطفيه توشيح
متقد اللحظ من شهامته * فالجو من ناظريه مجروح
والريح تهفو كانما طلبت * سليلها فى يمينك الريح

وكَمْ بعثنا رائداً وصائداً * فلَمْ يَخِبْ كوكبُنا ولا خوَى
مِنْ بينِ مُستامٍ بأحلى نَوْمِهِ * طِيبَ الحَياةِ رابحٍ فيما اشترَى
ومُستَتِمٍ إلى القَنيصِ مُصْحِرٍ * أمامَ مَنْ اصحَرَ مِنّا واستَمَى

الرائد الذى يرسل فى الناس النجعة ويقال خوت الكواكب خيا وأخوت وخوت اذا امحلت فلم تمطر قال كعب بن زهير

قوم اذا خوت النجوم فانهم * للطارقين النازلين مقارى

وقال الاخطل * فأنت الذى ترجوا الصعاليك سيبه * اذا السنة الشهباء خوت نجومها * وقوله من بين مستام باحلى نومه أى يترك نومه اللذيذ لدواعى الانس التى هى أطيب وهو فيها أربح وعبر عن اليقظة بالحياة اذ كان النوم وفاة وقد قال الله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها وذكر الموت والحياة هنا من الطباق المعنوى والمستام مفتعل من قولك استمت بالسلعة وانما أتى بالاستيام والشراء والربح على جهة التمثيل لايثاره السهر على النوم وقوله ومستم الى القنيص يقال استمى القوم اذا خرجوا يطلبون الصيد وقد تقدم تفسيره وأصحر أى برز فى الصحراء ووصف الرائد الذى يبعثونه للناس أماكن الصيد والصائد الذى يثير الصيد من مكامنه واتباعهم إياه وجاء بقوله فلم يخب كوكبنا ولا خوى على جهة التمثيل يريد أنهم ظفروا بما ابتغوا من ذلك ولم يخيبوا فيما قصدوا له وقد جانس بين مستام ومستم ورد العجز فى البيت الاخير على الصدر

يَقْدُمُنا وتارةً نَقْدُمُهُ * فيقتفى طوْراً وطوْراً يُقتفَى
مُشَرِّقاً وتارةً مغرّبا * مُقرِّبَ الشأْوِ بعيدَ المُرْتَمَى
مُوَجِّهاً شطرَ الشطو روجهَهُ * إذا عنِ الزاويةِ الوجهَ زوَى
كمْ قد أثارَ إذ سرَى من دَرْبٍ * بشَطِّ ماءٍ زغْرَبٍ عيرَ صرا

فاقتفرَ الصيدَ بكلِّ لاحقٍ   لما اقتفاه لاحقٌ نهدُ القرا

يقال شأو مغرب ومغرب بفتح الراء وكسرها أي بعيد والشأو الغاية والامد ويقال عدا شأوا أي طلقا ويقال قصدت شطره أي قصدت نحوه قال

أقول لام زنباع أقيمي * صدور العيس شطر بني تميم

ومنه قوله تعالى فول وجهك شطر المسجد الحرام والشطور جبل بقرطاجنة والزاوية موضع بها وزوى هنا بمعنى صرف من قولهم زوى فلان المال عن وارثه أي صرفه عنه والربرب القطيع من بقر الوحش والشط جانب النهر والوادي والزغرب الماء الكثير قال الكميت

وفي الحكم بن الصلت منك مخيلة * نراها وبحر من فعالك زغرب

والصرى والصرى بفتح الصاد وكسرها هو الماء الذي طال مكثه وتغير وقد صرى الماء بالكسر ويقال قفرت أثره أقفره بالضم وكذلك اقتفرت قال الشاعر * ولا يزال لامر القوم يقتفر * وكذلك تقفرت ولاحق في صدر البيت الاخير يراد به المدرك من قولهم لحقه ولحق به لحاقا اذا أدركه ولاحق في عجزه يراد به الضامر من قولهم لحق لحوقا اذا ضمر وأراد الفرس ويقال فرس نهد أي جسيم مشرق ونهد الفرس بالضم نهودة والقرى الظهر والمعنى في هذه الابيات لا يحتاج الى شرح وانما وصف فيها الصائد الذي بعثوه وفرسه الذي أدرك به الصيد وقد اشتملت على أنواع من التجنيس وعلى طباق وترصيع وتسهيم فتأملها

كم عفّرَ اليعفورَ بالبيدِ وكم   أسرعَ في صرعِ اللآى وما لآى

ولم يغادرْ أعصما معتصما   بذروةٍ ولا عفا عن العفا

أضحى الربيء واثقا بسبقه   فلم يضائلْ شخصَه ولا كما

وصاح من بعد بما أبصره   فلم يخافتْ صوتَه ولا مكا

يقال عفره في التراب يعفره عفرا وعفره تعفيرا أي مرغه واليعفور الخشف وولد البقرة الوحشية أيضا وقال بعضهم اليعافير تيوس الظباء واللئا الثور الوحشي والانثى لئاة ويقال لثا بلئا أي أبطأ وفعلته بعد لأي أي أي بعد بطئ وشدة والاعصم من الظباء والوعول الذي في يديه بياض قاله الاصمعي وقال أبو عبيدة الذي باحدى يديه بياض والاسم العصمة والوعول عصم والعفا الجحش وكذلك العفو والعفو يريد ان الاعصم لم يمنعه منه امتناعه في أعالي الجبال وانه أيضا لم يترك العفا ولا تجاوزه وضرب عنه مثلا والربيء والربيئة الطليعة وضاءل شخصه أي صغره من قولهم ضؤل ضئالة اذا صغر ورجل متضائل شخت وكمى شخصه أي ستره من قولهم كمى فلان شهادته يكميها اذا كتمها وانكمى استخفى وتغطى ومنه سمي الشجاع الكمي لانه كمى نفسه أي سترها بالدرع والبيضة والمخافتة والتخافت أسرار المنطق والخفت مثله ومكا يمكو امكاء ومكوا اذا صفر قال الله تعالى وما كان صلاتهم عند البيت الامكاء وتصدية وقال عنترة * تمكو فريصته كشدق الاعلم * وانما وصف الفرس بسرعة السبق فاتى بمعنى حسن وذلك ان من شأن الطلائع أن يخفوا أنفسهم ويضائلوا أشخاصهم خوفا من أن تحس بهم الوحش أو تراهم فتأخذ في الفرار فتعجز الصائد وكذلك اذا رأوا الصيد فارادوا أن يعلموا به لم يرفعوا أصواتهم لئلا تسمعهم بل يخافتون ويصفرون كما قال زهير

فبينا نبغي الصيد جاء غلامنا * يدب ويخفي شخصه ويضائله

فذكر الناظم ان هذا الطليعة لا يتكلف شيأ من ذلك ثقة بسبق ذلك الفرس وعلمه ان الوحش لا تعجزه وهو من قول علقمة الفحل

اذا ما اقتنصنا لم نخاتل بجنة * ولكن ننادى من بعيد ألا اركب

ومثله قول زهير بن أبى سلمى

اذا ما غدونا نبتغى الصيد مرة * متى نره فاننا لا نخاتله

و ينظر اليه قول الشاعر

* مبارك اذا رأى فقد رزق * و ينظر اليه من بعيد قول أبى فراس

ولا أصبح الحى الخوف بغارة * ولا الجيش ما لم تأته قبلى النذر

يريد انه لا يأخذهم على غرة بل يعلمهم بنفسه قبل ان يغير عليهم لثقته بالظفر والظهور وان النصر لا يخلفه وهذا من استخراج معنى من معنى احتذى عليه وان فارق ما قصد به اليه وقد قال أبو عبيد الله القضاعى

ونقتضى الملك الجبار مهجته * يوم الوغى جهرة لا نرقب الخلسا

ولا خفاء بما تضمنته هذه الابيات من ضروب التجنيس وأوصاف الارداف

أجْرَى وأجْرَى صَحْبُهُ جِيَادَهُمْ فَبَذَّهُمْ لِلْهَادِيَاتِ وَهَدَا

فَكُلٌّ مَا أَدْرَكَهُ مِنْ قَنَصٍ وَأَدْرَكُوا دَفَوْا عَلَيْهِ وَدَفَا

شُهْبُ سُرًى مَا فِيهِمُ مَنْ يَبْتَغِى فِى قِرَّةٍ دِفْئًا وَلاَ يَشْكُوا دَفَا

قَدْ وَكَلُوا أَعْيُنَهُمْ بِأَعْيُنٍ يُكْمَنُ لِلصَّيْدِ بِهَا وَيُكْتَمَا

بذهم سبقهم والهاديات أوائل الوحش قال امرؤ القيس

كأن دماء الهاديات بنحره * عصارة حناء بشيب مرجل

و يقال هداه اذا تقدمه قال طرفة

للفتى عقل يعيش به * حيث تهدى ساقه قدمه

و يقال دفوت الجريح أدفوه دفوا اذا اجهزت عليه وكذلك دافيته وادفيته فى الحديث انه صلى الله عليه وسلم أتى باسير فقال لقوم اذهبوا به فأدفوه يريد الدفء من البرد ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك الهمز أى التسهيل فذهبوا به فقتلوه فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم وانما عداه الناظم بعلى لانه ضمنه معنى أجهز وقوله شهب سرى يريد انهم ماضون فى سراهم لا يثنيهم عنه برد ولا حر كما يقولون فلان شهاب حرب اذا كان ماضيا فيها و يسوغ أن يريد بالشهب هنا النجوم السائرة وشبههم بها فى ادمان السرى و يقال دفئ الرجل دفاءة مثل كره كراهة ودفئ دفئا مثل ظمئ ظمئا والدفء بالكسر هو الشئ الذى يدفئك تقول ماعليه دفء والدفاء بكسر الدال و بالمد ما يستدفأ به وحكى بعضهم انه سمع اعرابية تقول الصلاء والدفاء نصبته على الاغراء والامر والقرة بالكسر البرد يقال أشد العطش حرة على قرة و يسوغ فى هذا الموضع ان يضبط يبتغى دفئا بسكون الفاء وان يضبط بفتح الفاء و يكون مقصورا من الدفاء و يكون على الوجهين مكسور الدال وأما قوله ولا يشكوا دفا فلا يسوغ فيه الا فتح الدال لانه مصدر دفئ وانما يريد انهم لا يبالون فى البرد ولا يشكون فى الحر وفى كلامه حذف تقديره ولا يشكو فى حر دفا يدل عليه قوله فى قرة كما قالوا فى قوله تعالى وجعل لكم

سرابيل تقيكم الحر تقديره عندهم والبرد والدفا مهموز لكن الناظم أبدل همزته ألفا لاجل الروى وقد تقدم الكلام على نظيره والعيون جمع عين وهى الربيئة الذى يرقب الصيد والاعين جمع عين والمراد بها هنا النواحى التى يكون فيها الربيئة ويكمى يختفى وقد تقدم تفسيره ومعنى البيت واضح وقد جانس بين العيون والاعين ويكمن ويكمى

وأحدقت بهم رماة حدق ... قد استحقوا مالعمرو يدعا

قد لزموا أكنانهم وملئوا ... كنائنا من المريش الممتها

وانسرحوا من الدجا وانسربوا ... فى قتر مرصدة وفى دجا

وأقصدوا الاسحار فى أسحارهم ... مما رأوا بكل سهم قد رأى

يقال حدق به وأحدق اذا استدار ورماة الحدق قال ابن قتيبة اختلف الناس فيهم فذكر بعضهم انهم طيء وقال آخرون هم النوبة وهم يرمون بالنبل عن قسى عربية فالعرب تسميهم رماة الحدق وهم أصحاب ابل وغنم وبقر وخيل عتاق كالعرب وكل حاذق بالرمى يقال فيه من رماة الحدق تشبيها بهم وعمرو هذا هو عمرو صاحب القترات وكان رجلا صائدا من ارمى العرب وهو من بنى ثعل من طيء وقد ذكره امرؤ القيس فقال

فاوردها ماء قليلا أنيسه * يحاذرن عمرا صاحب القترات

يريد الناظم انهم استحقوا أن يوصفوا بانهم أحذق الناس بالرمى والاكنان جمع كن وهو وقاء كل شيء وستره وكذلك الكنة والكنان ومنه قيل للبيت كن والكنائن جمع كنانة وهى الجعبة المتخذة للسهام ويقال راش السهم ريشا وارتاشه ركب عليه الريش والسهم مريش ومرتاش ويقال امهيت الحديدة اذا سقيتها الماء واحددتها قال الشاعر

راشه من ريش ناهضة * ثم أمهاه على حجره

ومنه قيل للسيف الرقيق مهو وانسرحوا من الدجا أى خرجوا من الدجا من قولهم انسرح اذا خرج من ثيابه وانسربوا دخلوا من قولهم انسرب الوحشى فى سربه أى دخل والقترة ناموس الصائد وهو البيت الذى يستتر فيه ليرى به القنص وبه سمى عمرو صاحب القترات والمرصدة المعدة قال الاصمعى والكسائى رصدته أرصده ترقبته وأرصدت له أعددت له وفى الحديث الا أن أرصده لدين على ومن ذلك سميت الزبية رصدة والدجا فى صدر البيت يراد بها الظلم ذهب ابن جنى الى أنه جمع واحدته دجية والدجا التى ختم بها البيت جمع دجية وهى قترة الصائد والاقصاد ان ترمى الشيء أو تضربه فيموت مكانه ومعناه هنا أصابوا والاسحار أولا جمع سحر وهى الرئة ويقال فيها سحر ومنه قول عائشة رضى الله عنها توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحرى ونحرى وقد تحرك فيقال سحر وسحر مثل نهر ونهر لمكان حرف الحلق ويقال للجبان قد انتفخ سحره ومنه قولهم للارنب المقطعة الاسحار والمقطعة السحور والمقطعة النياط وهو على التفاؤل ومن الناس من يضبطه المقطعة بكسر الطاء من سرعتها وشدة عدوها كانها تقطع سحرها ونياطها والسحر أيضا الكبد والسحر سواد القلب ونواحيه والسحر ما التزق بالحلقوم والمرى من أعلى البطن والاسحار ثانيا جمع سحر وهو آخر الليل ورأوا من الرؤية ورأى من قولهم رأيته اذا أصبت رئته والمعنى فى هذه الابيات انه وصف حالة الصيادة وحذقهم بالرمى وانهم لزموا المواضع التى يستترون فيها للصيد بعد ان أعدوا من السهام ما

ملئوا به الكنائن وانهم لما خرجوا من الظلام دخلوا فى القترالتى أعدوها واستخفوا فيها ليمكن لهم ختل الصيد وانهم رموا فى الاسحار القنص فأصابوا منه الرءين والمقاتل وقد ضمن الناظم كل بيت منها نوعا من التجنيس بديعا مع ما أتى به من بارع الوصف وصناعة العبارة وحسن البيان واستيفاء الغرض

رَاسُوا لِأَصْمَاءِ الكُلَى أَسْهُمَهُمْ ... بِقَادِماتٍ وَخَوَافٍ وَكُلَا

فَلَمْ نَزَلْ نُنْزِهُ الأَبْصَارَ فِى ... فَرَاقِدٍ بِالْبَارِقَاتِ تُقْتَفَا

وَنَجْتَلِيهَا وَهْىَ تَعْدُوا الْجَمْزَى ... كَمَا اجْتَلَاهَا حِنْدِجٌ بِجَمْزَا

فَبَعْضُهَا قَدْ طَاحَ فِى حِبَالَةٍ ... وَبَعْضُهَا مِنْ رَأْسِ نِيقٍ قَدْ رَدَا

وَبَعْضُهَا سَهْمٌ بِضُمْرٍ سُهَّمٍ ... وَبَعْضُهَا أَصْمَاهُ سَهْمٌ مَا نَمَا

القادمات والقوادم أربع ريشات فى مقدم الجناح والواحدة قادمة والمناكب اللواتى بعدهن الى أسفل الجناح والخوافى من بعد المناكب والاباهر من بعد الخوافى والكلا الريشات الاربع التى فى آخر الجناح أراد بالكلى الاولى الكلى المعروفة ويعبر عنها عن المقاتل بالكلى الثانية الريش والفرقد ولد البقرة والانثى فرقدة والفرقدان كوكبان فى بنات نعش الصغرى وقد قالوا فيهما الفراقد كانهم جعلوا كل جزء منهما فرقدا قال الشاعر

لقد طال ياسوداء منك المواعد * ودون الجدا المأمول منك الفراقد

ويقال برق الشئ يبرق بريقا وبرقا وبرقانا لمع فهو بارق وهى بارقة والبارقات كل ماله بريق من السلاح ومنه قول حسان بن ثابت لعتبة ابن أبى وقاص وكان كسر رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد

بسطت يمينا للنبى تعمدا * وأدميت فاه قطعت بالبوارق

وتقتفى تتبع ونجتليها ننظر اليها وتعدو الجمزى أى تسرع وهو عدو دون الحضر وفوق العنق يقال جمز يجمز جمزا وجمزى وحندج هو اسم امرىء القيس بن حجر وانما سمى امرأ القيس لقباله ومعناه رجل الشدة والقيس الشدة وانما أشار الى قوله

ذعرت بها سربا نقيا جلوده * وأكرعه وشى البرود من الخال

كأن الصوار اذ تجهد عدوه * على جمزى خيل تجول باجلال

وجمزى اسم موضع ويقال طاح ويطيح طيحا وطوحا اذا أشرف على الهلكة والنيق حرف من حروف الجبل وردى سقط يقال ردى فى البيرو تردى اذا سقط فيها والسهم الاول النصيب والسهم الثانى واحد السهام والسهم جمع ساهم وهو العابس الوجه وأراد بالضمر السهم كلاب الصيد واصميت الرمية أنفذتها واصميت الصيد اذا رميته فقتلته وأنت تراه والضمير الذى فى نما من البيت الاخير يعود على بعضها لا على السهم فان المعنى لا يصح الا على ذلك والنامى الناجى قال الشاعر

وقافية كأن السم فيها * وليس سليمها أبدا بنام

ونما فى البيت الاخير معناه تأخر أراد ان السهم الذى أصماه ما تأخر عن مقتله يقال نما الشئ نميانا اذا تأخر ويكون قوله ما نما بدلا من قوله أصماه سهم ابدلت الجملة من الجملة لانها فى معناها وقد يكون نما هنا من قولهم نما الصيد اذا رميته فاصبته وذهب عنك فات بعدما غاب وانميته أنا وفى الحديث كل ما أصميت ودع ما انميت وهو اظهر لاتيانه باصماه معه ويسوغ أن يكون ما نمى على المعنى مغاقى موضع الحال من الضمير المنصوب فى أصماه

عدد في البيت الاول أنواع الريش التي بهاراشوا أسهمهم ليصيبوا مقاتل الصيد بها وقد قال جميل بن معمر

ماصائب من نابل قذفت به * يد وممر العقدتين وثيق
له من خوافي النسر حم نظائر * ونصل كنصل الراعبي فتيق
على نبعة زوراء ايما خطامها * فمتن وايما عودها فعتيق
باوشك قتلا منك يوم رميتني * نوافذ لم يعلم لهن خروق

قول جميل ايما خطامها ير يد اما واستثقل التضعيف فابدل الياء من احدى الميمين وينشد قول عمرو ابن أبي ربيعة

رأت رجلا ايما اذا الشمس عارضت * فيضحى وايما بالعشى فيخصر

ثم وصف الوحش وانهم لم يزالوا ينزهون الابصار فيها حين تحكم فيها السهام والسلاح وينظرون اليها حين تشتد في العدو وحين ينشب بعضها في الحبالة ويردى بعضها حين ظفر الكلاب ببعضها وأصمت السهام طائفة اخرى منها وقد أتى الناظم في البيت الثانى بتورية عجيبة فذكر الفراقد وأراد أولاد البقر والبارقات وأراد به لامعات النصول وأوهم أنه يريد فراقد النجوم و بارقات السماء وقد جانس بين الكلا والكلا والجزى وجزى وسهم وسهم وسهم

حتى إذا ما امتلأت حقائب * مِنَ الوُحُوشِ وخَلاَ مِنهَا المَلاَ
مِلنا إلى مَوْلِيَةٍ مَوْشِيَةٍ * قَدْ حَدِبَ الغَيثُ عليها وَحَنا
والآسُ والرَّيحانُ قد ضُمِّنَ وقد * أَلْقَى عليه كلُّ طاهٍ ما طَها
وكَفَّ كلُّ خابزٍ مملوكَهُ * في سَعَفِ الدَّوْمِ وأَصلاهُ لَظَى
مِنْ بَعْدِ ما أَحمى الصَّفيحَ تَحتَهُ * ثُمَّ حَشَى مِنْ فَوْقِهِ جَمْرَ الغَضا
كأنَّ ما أُجِنَّ مِنْهُ وَجَلا * قُرْصَةُ شَمْسٍ حِينَ أَخْفَى وخَفا

الحقائب جمع حقيبة وهي ما يجعل الرجل فيه متاعه من خرج أوغيره وحقيبة الجمل هي التي تكون وراء الرحل تحشى تبنا أوحشيشا والملا جمع ملاة وهي فلاة ذات حر وسراب وقيل الملا واحد وهو الفلاة والمولية الارض التي جادها الولى وهو المطر الذى بعد الوسمى سمى وليا لانه يلي الوسمى وكذلك الولى يأتى على فعل وفعيل والجمع أولية يقال منه وليت الارض وليا فهى مولية وقد تقدم تفسيره ويقال حدب عليه وحنا أى عطف وهى هنا عبارة عن تعاهد الغيث اياها وكثرة سقيه لها جاء به على جهة التمثيل والريحان نبت معروف وقيل الريحان كل نبت طيب الريح وقيل الريحان أطراف كل بقلة طيبة الريح اذا خرج عليها أوائل النور وأما الآس ففسروه بانه ضرب من الرياحين قال ابن دريد الآس هو المشموم أحسبه دخيلا غير أن العرب تكلمت به وجاء في الشعر الفصيح قال الشاعر * بمشمخر به الظيان والآس * قال أبو حنيفة الآس بارض العرب كثير ينبت في السهل والجبل وخضرته دائمة أبدا ويسمو حتى يكون شجرا عظاما وفي دوام خضرته يقول رؤبة * يخضر ما أخضر الالا والآس * وقد قيل في قوله تعالى والحب ذو العصف والريحان العصف ساق الزرع والريحان ورقه والطاهى الطابخ والمملوك هنا العجين الذى شد عجنه يقال ملكت العجين أملكه ملكا بالفتح اذا شددت عجنه ومنه قول قيس بن الخطيم

ملكت بها كفى فانهرت فتقها * يرى قائم من دونها ماوراءها

ر بدشددت وسعف الدوم أغصانه وأجن ستر يقال جنه الليل واجنه ستره وجلا أظهر واخفاستر وخفي من الاضداد يقال خفيت الشيء أخفيه أي أظهرته وخفيته أخفيه أي كتمته وهو هنا بمعنى أظهر ومثله خفا المطر الفار اذا أخرجهن من أنفاقهن أي من جحرتهن قال الشاعر

خفاهن من أنفاقهن كأنما * خفاهن ودق من سحاب مركب

والمعنى في هذه الابيات انه لما فرغ من وصف الطراد أخذ يقول ان حقائبهم امتلأت مما قتلوه من الوحوش وخلت منها مواضعها من البيداء وانهم مالوا الى الموضع المخصب الذي ارتاد لهم الرائد المذكور واعده فوجدوه قد نضد بالآس وصف بانواع الازهار والقيت عليه أنواع المطابخ ثم أخذ يصف الخابز وكيف يصنع بما يجيد عجنه اذا أراد طبخه وتلك الصفة هي صفة النوع الذي يسميه أهل هذا الافق الاندلسي بالمرمدة وقد أجاد العبارة عنها وأبدع التورية في ذكر المملوك واصلائه لظى فاوهم انه يريد العبد وهو يريد العجين وانما أخذه من قول الحريري في سؤالاته مقامته الفقهية حيث يقول قال ما ترى فيمن أصلى مملوكه النار قال لا اثم عليه ولا عار ثم شبه الرغيف في حالتي ستره بالغضا واظهاره بعد الطبخ بالشمس حال الخفاء والظهور وكان ذكر القرصة هنا حسنا لايقاعها في اللغة على الخبزة وعلى عين الشمس وما الاحد في وصف الخابز مثل ما لابن الرومي حيث يقول في أبياته الشهيرة

ما أنس لا أنس خبازا مررت به * يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة * وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة * في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

وقد طابق الناظم في البيت الاول بين امتلاءت وخلا وفي الاخير بين أجن وجلا وأخفى وخفا مع المعادلة بين أول البيت وآخره وماثل في البيت الثاني بين مولية وموشية الى التورية المنبه عليها وكل ذلك قد تقدم التنبيه على أمثاله

والسَّعْدُ قَدْ أَلْقي إلى أَخْبِيَةٍ　　مَا كَشَطَ الذَّابِحُ مِنْهُ وَنَجا
وَقَدْ أَجادَ كُل طَاهٍ نَضْجَ مَا　　قَدْ صَفَّهُ حِذَاءَنَا مِنَ الحِذَا
نُتْحَفُ مِنْ كُلِّ قَنِيصٍ يُشْتَوَى　　بِكلِّ رَشْرَاشٍ نَضِيجٍ يُشْتَهَا
يَفُوحُ مِنْ طِيبِ المَرَاعِي لَحْمَهُ　　أَكْثَرَ مِمَّا فَاحَ مِنْ طِيبِ الفَحَا

نجا سلخ يقال نجوت جلد البعير عنه وأنجيته اذا سلخته قال الشاعر

فقلت أنجوا عنها نجا الجلد انه * سيرضكيما منها سنام وغاربه

قال الفراء اضاف النجا الى الجلد لان العرب تضيف الشيء الى نفسه اذا اختلف اللفظان كما قالوا حق اليقين ودار الآخرة قلت وهو مؤول عند البصريين وحذاءنا ازاءنا يقال جلس بحذائه أي جلس بازائه وحاذاه والحذا جمع حذية بالكسر وهي القطعة من اللحم تقطع طولا والقنيص يطلق على الصيد ويطلق على الصائد والمراد هنا الصيد ويقال شواء رشراش وهو الخضل الندى الذي يقطر ماؤه ويقال فاحت ريح المسك تفوح وتفيح فوحا وفيحا وفؤحا وفوحانا وفيحانا وكذلك انواع الطيب اذا تضوعت ولا يقال فاحت في ريح خبيثة والفحا ابزار القدر وهو مقصور ويقال بكسر الفاء وبالفتح والمعنى في هذا البيت الاخير ان ذلك القنيص الذي وصفه كان يرعى الاعشاب الفائحة المراعي العطرة فاكتسب لذلك لحمه عطارة فهو يفوح من ذلك

و يتضوع أرجه أكثر مما يتضوع من طيب الابازير التى تلقى فيه وعلى ذكر الشواء أنشد هنا قول السرى الرفاء فى جمل مشوى

أنعته معصفر البردين * أبيض صافى حمرة الجنبين
خلف شهرين على الخلفين * ثم رعى بعدهما شهرين
فجسمه شبران فى شبرين * ياحسنه وهو صريع الحين
بين ذراعين مفصلين * كسارق جد من اليدين
وطرف يستوقف الطرفين * يريك مرآة من اللجين
مذهبة المقبض والوجهين * شق حشاه عن شقيقتين
أختين فى القد شبيهتين * كما قرنت بين كأتين
أوكرتى مسك لطيفتين

وسائر الابيات بين المعنى وقد أحسن فى التورية بذكر السعد والاخبية والذابح وجانس فى البيت الثانى بين حذاء نلوا لحذا ومائل فى الثالث بين قنيص ونضيج وجاء فى الرابع بفاح والفحا وهو تجنيس القلب وقد تقدم الكلام على أمثال ذلك كله

وَالأَرْىُ تُدْنِى والثِمَارُ تُجْتَنى وَالرِسْلُ يُمْرَى والقَنِيصُ يُشْتَوَا
وقَدْ صَفا العيشُ لَنَا بِمَنْزِلٍ قَدْ سالَ صَفْوَ مائِه مِن الصفَا
فانْعَقَّ فيهِ ثَعْلَبٌ عَنْ أَرْقَمٍ وانْشَقَّ صَلْدُ الصَّخْرِ عنْهُ وانفَثا

الارى العسل والرسل اللبن وقد أرسل القوم أى صار لهم اللبن من مواشيهم والصفاجمع صفاة وهى الصخرة الملساء يقال ماتندى صفاته و يقال أيضا فى جمعها اصفاء وصفى والثعلب أراد به مخرج الماء وأصله فى اللغة الحجر الذى يسيل منه ماء المطر وقيل اذا نشر التمر فى الجرين فخشوا عليه المطر عملوا له حجرا يسيل منه ماء المطر وهو أيضا مخرج الماء من الديار أو الحوض والارقم الحية وأراد به هنا النهر لشبهه بها وتشبيه الماء الجارى بالحية شهير فى أشعارهم قال * ينساب مثل الحية المذعور * وقد أحسن الاديب أبو عبد الله محمد ابن ادريس بن مرج كحل وتمم هذا التشبيه حيث يقول

أرأت جفونك مثله من منظر * ظل وشمس مثل خد معذر
وجداول كاراقم حصباؤها * كبطونها وحبابها كالاظهر

وانفثا انفلق يقال فأوت رأس الرجل وفأيته فأوا وفأيا اذا فلقته بالسيف وقال الشاعر
* حتى انفثا الفأو عن أعناقها سحرا * وانفأ القدح انشق ومنه الفأو وهى ما بين الجبلين كانما افلقا ومنه الفئة وهى الطائفة والفرقة كانها فرقت من طائفة أخرى والمعنى فى هذه الابيات لا يحتاج الى تفسير لبيانه وقد أتى فى البيت الاول منها بتقسيم عجيب وتفصيل بارع شريف وهو من محاسن هذه المقصورة ولقد استوفى فيها جميع ما تقصد البادية لاجله و يعتمد المقام فيها بسببه الى ما احتوى عليه البيت من المماثلة والترصيع والتفويق وقد تضمن قوله فانعق فيه ثعلب عن أرقم تورية حسنة وانما وصف خروج الماء من حيث يسيل فعبر عن الماء بالارقم تشبيها له به ثم قرن بذكر الثعلب وأراد به مخرج الماء وأوهم انه يريد الحيوان المعروف وقد جانس بين صفا والصفا وانعق وانشق

لله ما صيابة خضت بهم عصر الصبا بحر نعيم قدرها
من كل بحر للعلوم زاخر وكل طود للحلوم قد رسا
كم أوقد الكباء للسارى وكم صب القدور فى الجفان وكبا
وكم له من قبب معروفة فى قنن مرفوعة وفى صوا
قد أشرقت بأوجه وأنؤر معشية النور منيرات العشا

يقال قوم صياب أى خيار قال الشاعر

من معشر كحلت باللؤم أعينهم * فقد الاكف لئام غير صياب

ويقال هو فى صيابة قومه وصوابة قومه أى فى صميم قومه قاله الفراء وقد تقدم تفسير رها وما من قوله لله ماصيابة اما أن تكون زائدة كانه قال لله صيابة واما أن تكون نكرة موصوفة وصيابة صفة لها وهو أحسن لان من مدلول ما النكرة الابهام وهو لائق بهذا الموضع لان المراد به التعجب على ان ما الزائدة لا تخلو من الدلالة على تأكيد وهو أيضا مما يحسن فى هذا المكان والكباء ضرب من العود قال الشاعر

* ورندا ولبنى والكباء المقترا * يقال منه كبى ثوبه بالتشديد بخره واكتبى وتكبى أى تبخر وكباصب يقال كبوت الكوز وغيره اذا صببت مافيه والقنن جمع قنة وهى أعلى الجبل ومثله القلة والصوى ماغلظ من الارض وارتفع ولم يبلغ أن يكون جبلا والانؤر جمع نار ومعشية النور معناه ان العيون لا تستطيع أن تنظر اليها لشدة لمعانها تقول أعشى بصرى لمع البرق ولمع النار قال الشاعر

* به كاظ يعشى الناظرين اذاهم لمحوا شعاعه *

والعشا جمع عشوة بضم العين وهى الشعلة من النار والمعنى انه وصف اخواناله من أهل المجد والشرف كانوا أهل علم وحلم وكرم صحبهم فى عصر الشباب وخاض بهم بحرا من النعيم والعيش الرغد ثم وصفهم بأنهم لكرمهم ورفاهتهم وعلوهممهم كانوا يوقدون للسارى الكباء عوضا من الحطب وانما احتذى فيه قول أبى الطيب المتنبى فى قوله وذكر ناقته

تركت دخان الرمث فى أوطانها * طلبا لقوم يوقدون العنبرا
وتكرمت ركباتها عن مبرك * تقعان فيه وليس مسكا أذفرا

أردت البيت الاول ثم ذكر قبابهم وانهم يتخذونها فى القنن والمواضع المرتفعة ليرى نارهم السارى فيقصد اليها وتلك عادة أجواد العرب فمنهم الذى يقول لعبده

ياسعد ان الليل ليل قر * والريح فيها برد وصر
عسى يرى نارك من يمر * ان جلبت ضيفا فأنت حر

وجعل تلك القبب معروفة لاشتهارها بقرى الاضياف ولكثرة القصاد ووصف فى البيت الاخير اشراق تلك القباب بأنوار وجوههم وأشعة نارهم وان نور وجوههم يعشى الناظر وشعل نارهم تنير للطارق وعادل بين صدر البيت وعجزه فرد معشية النور الى الاوجه ومنيرات العشا الى الانؤر وقد جانس فى البيت الثانى بين العلوم والحلوم وفى الثالث بين الكباء وكبا وفى الرابع بين قنن وقبب وهو تجنيس التصحيف على ماتقدم وبين معروفة ومرفوعة وبين معشية النور ومنيرات العشا وهو نوع من تجنيس القلب

عَاطَيْتَهُمْ مِنَ السُّرُورِ أَكْوُساً   يُغْنِى عَنِ الْكَاسِ بِهَا وَيُكْتَفَا
مِنْ كُلِّ مَنْ تُلْفِيهِ نَشْوَانَ إِذَا   يَصْحُوا وَيُلْفَى صَاحِيًا إِذَا انْتَشَا
لَنَا انْتِقَالٌ كَانْتِقَالِ الشُّهْبِ فِى   آفَاقِهَا مِنْ مُنْتَوًى لِمُنْتَوَا
فَنَسْتَجِدُّ مَرْتَعًا فَمَرْتَعًا   وَنَسْتَجِيدُ مُرْتَعًا فَمُرْتَعًا

المعاطاة المناولة وقد تقدم تفسير النشوان والصاحى والشهب هنا النجوم والمنتوى المنزل يقال انتوى القوم منزلا بموضع كذا وكذا أى استقرت به نواهم واشتقاقه من النوى وهو الوجه الذى ينو به المسافر من قرب أو بعد والآفاق النواحى واحدها أفق وأفق والمرتع اسم المكان من رتع وهو مفعل يقال خرجنا نلعب ونرتع أى نلهو وقوم راتعون واصله من رتعت الماشية ترتع رتوعا اذا أكلت ماشاءت والابل رتاع ومرتعى مفتعل من راتعى وهو اسم المكان أيضا يقال رعى البعير وارتعى وقد قرأ نافع وابن كثير يرتع و يلعب بكسر العين على أنه من ارتعى وقرأ الباقون يرتع بسكونها على أنه من رتع ونستجد أى نتخذه جديدا فجديدا ونستجيد أى نختاره جيدا وقد ذهب فى البيت الثانى من هذه الابيات مذهب ابن الرومى فى قوله

يصحيه ذهن وباقى صحوه كرم ❋ مستحكم فهو صاح وهو نشوان

أراد الناظم أنه اذا كان صاحيا حسبت به سكرا لكثرة ما يعطى من أمواله التى لا يعطيها الا من خومر عقله بسكر واذا سكر حسبته صاحيا لرصانة عقله وان السكر لا يذهب بذهنه ولا يبلغ به مبلغ من يخرجه الى ما يشينه و يمكن أن يكون معنى البيت انهم لا يستبيحون الخمر ولا ينتشون الا بأنواع من السرور وكانت لهم بمثابة الكئوس فاذا انتشى أحدهم بالسرور كان فى الحقيقة صاحيا لانه لم يشرب مسكرا وهو فى صحوه لا يزال نشوان لما يصيبه من السرور والبيت الاول يدل على هذا المعنى الثانى ومثله قول القاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى

وقد كفانى انتجاع الغيث معرفتى ❋ بأن دليلى من سيبه بدل
تجنبت نشوات الخمر عنه ❋ وعلمتنا المطايا انه ثمل

وقد طابق الناظم فى البيت الثانى بين نشوان اذا يصحوا وصاح اذا انتشى وجانس فى الرابع بين نستجد ونستجيد ومرتع ومرتعى

مَا شِئْتَ مِنْ مَشْتًى بِشَاطِى لُجَّةٍ   بَيْنَ قِصَابٍ وَقِبَابٍ وَبُنَا
وَمِنْ مَصِيفٍ فَوْقَ شَاطِى نَهَرٍ   بَيْنَ قُصُورٍ وَجُسُورٍ وَقُرَا
وَمَرْبَعٍ عَلَى مِيَاهِ مُزْنَةٍ   بَيْنَ مُرُوجٍ وَبِطَاحٍ وَرُبَا
وَخَرْفَةٍ عَلَى مِيَاهِ حَمَّةٍ   بَيْنَ غُصُونٍ وَحُصُونٍ وَقُرَا

ما مصدر بمعنى وصولة وصلتها شئت وهى مع الصلة مؤولة بالمصدر كأنه قال مشيئتك أى منازل مشيئتك و يكون قد أخبر بالمصدر عن اسم العين كما نعت به فتقول مررت برجل عدل ورضى ورأيت رجلا قصدك من رجل وما شئت من رجل وقد يسوغ أن تجعل ما بمعنى الذى يكون التقدير ما شئته وحذف الضمير والاول أحسن

والمشتى اسم المكان الذى يشتى فيه تقول شتوت بموضع كذا أى أقمت به زمن الشتاء والشاطىء من الوادى والنهر الشط والجانب وهو مهموز لكن الناظم سهل همزته بأن أبدلها ياء وسكنها وكان الوجه أن لا يسهل بالبدل لان الهمزة المتحركة اذا كان ما قبلها متحركا سبيلها فى التسهيل أن تكون بين الساكن و بين الحرف الذى منه حركتها لا يستثنى من ذلك عند سيبويه والخليل الا المفتوحة بعد ضمة أو كسرة فتسهيلها بابدالها حرفا من جنس حركة ما قبلها واستثنى الاخفش المضمومة بعد الكسرة والمكسورة بعد الضمة وما عدا ما ذكر فانها تسهل بين بين هذا هو المعروف من كلام العرب الفصيح وقد زعم سيبويه ان من العرب من يجعل الهمزة المتحرك ما قبلها مبدلة حرفا من جنس حركة ما قبلها ان كان فتحة فالف وان كان كسرة فياء وان كان ضمة فواو قال وليس ذا بقياس متلئب وهو فى الشعر مطرد قلت وعلى هذا يحمل ما فعله الناظم هنا وتحقيق القول فى هذه المسئلة أن يكون الناظم قد أبدل الهمزة ياء ابدالا محضا لا لقصد التسهيل لكن على حد ما تبدل الحروف بعضها من بعض فلذلك عامل الياء فى شاطى معاملة ياء غاز و رام فلم يحركها بالكسر كالا تحرك الياء من رام فى الجر اذا قلت مررت برامى غرضك فلو كان ابداله على جهة التسهيل لزم أن تحرك الياء لان الهمزة تكون كانها منطوق بها فهى فى حكم الموجود وذلك قياسها فى التسهيل وقد تكلم أبو الفتح بن جنى على قول الشاعر

وكنت أذل من وتد بقاع * يشجج رأسه بالفهر واج

و زعم أن ابدال الهمزة من واج ياء ليس على حد التسهيل وانما هو ابدال محض اذ لو كانت مبدلة على حد التسهيل لما جاز أن تكون الجيم حرف الروى لان التسهيل تكون فيه الهمزة كانها موجودة و يدلك على أن العرب تفعل ذلك فتبدل الهمزة ابدالا محضا لا على حد التسهيل قول زهير

جرىء متى يظلم يعاقب بظلمه * سريعا والا يبد بالظلم يظلم

أبدل الهمزة من يبدأ ياء ثم حذفها للجزم ولولا ان ابدالها كان محضا لا لقصد التسهيل لما حذف الياء للجزم لان الياء المبدلة فى التسهيل لا تحذف لان الهمزة فى التسهيل تكون كانها موجودة ولجة الماء بالضم معظمه وكذلك اللج ومنه بحر لجى وأراد به الناظم هنا لجة البحر والمصيف اسم المكان من صاف بالموضع اذا قام فيه زمن الصيف والجسور جمع جسر بالكسر والفتح وهو القنطرة التى يعبر عليها والمروج جمع مرج وهو الفضاء وقيل المرج أرض ذات كلأ ترعى فيه الدواب والحمة كل عين فيها ماء حار يستشفى بالغسل منه وهو موجود ببلاد الاندلس كثيرا وخصوصا فى بلاد الشرق منها حيث المواضع التى يصفها الناظم يقول ان انتقالهم فى المنازل التى وصفها كان بحسب فصول السنة وما يليق بكل فصل منها وأراد أن يدل بذلك على شرف الاقليم وان جميع ما افترق فى غيره قد اجتمع فيه ولا خفاء بما اشتملت عليه هذه الابيات من ترصيع ومقابلة والعرب تختلف فى الربيع فمنهم من يجعله الفصل الذى تدرك فيه الثمار وهو الخريف ودخوله عند حلول الشمس برأس الميزان ثم فصل الشتاء بعده ودخوله عند حلول الشمس برأس الجدى ثم الصيف وهو الذى تدعوه العامة الربيع ودخوله عند حلول الشمس برأس الحمل وهو أفضل فصول السنة ثم القيظ بعده وهو الذى تدعوه العامة الصيف ودخوله عند حلول الشمس برأس السرطان ومن العرب من يسمى الفصل الذى يتلو الشتاء وتأتى فيه الكمأة والنور الربيع الثانى وكلهم يجمعون على أن الخريف ربيع

نَصِيفُ مِنْ مُرْسِيَةٍ بِمَنْزِلٍ ضَفَا بِهِ الدَّوْحُ عَلَى ماءٍ صفَا
نَقْطَعُ دُنْيانَا بِوَصْلِ الأُنْسِ فى مُغْتَبِقٍ مِنْ رَوْضَةٍ ومُغْتَدَا

وتَنَاجي بالمُنى أنفسنا ... حيثُ تداعى الطيرُ منها وانتجا

مُساقطين لِلقيط دُرَرٍ ... في سَمَرٍ في قَمرٍ قدْ استوا

مُلتقطين لِسقيط زَهَرٍ ... مِنْ شجرٍ في سحرٍ قدِ اعتلا

يقال ضفا الدوح والظل وغيرهما يضفوا اذا سبغ وثوب ضاف أي سابغ والغبوق الشرب بالعشى تقول غبقت الرجل أغبقه بالضم فاغتبق هو والمغتبق هنا اسم المكان والاغتداء الغدو والمغتدى الموضع الذى يغتدى اليه أى يقصد بالغدو والتناجي التسار يقال انتجى القوم وتناجوا أى تساروا والسمر المسامرة وهو الحديث بالليل والقمر بعد ثلاث الى آخر الشهر والمراد به هنا ضوءه والمعنى انه وصف الموضع الذى ذكر انهم كانوا يقيمون فيه زمن المصيف وما يشتمل عليه من الظلال والمياه بينها وانهم كانوا يصلون الانس فيه بين الغدو والعشى و يحدث لهم ما يشاهدون من حسن المنظر و يسمعون من عجيب أصوات الطير حيث تتداعى وتنجى أنواعا من المنى كما قال بعض شعراء الحماسة

ولما حللنا موضعا طله الندى * أنيقا و بستانا من الزهر حاليا

اجدلنا طيب المكان وحسنه * منى فتمنينا فكنت الامانيا

ثم ذكر مجتمعهم للسمر ليلا وقد استوى القمر حين كانوا يساقطون طرف الاحاديث فتلتقط عنهم كما تلتقط نفائس الدرر فوصفهم بحسن الحديث وبراعة الطبع وكمال الادب و يروى عن عبد الملك انه سئل عن الباقى من لذته فقال محادثة الاخوان فى الليالى القمر على الكثبان العفر القمر جمع قمراء يقال ليلة قمراء أى مضيئة والعفر جمع اعفر يقال كثيب أعفر أى أحمر والاعفر أيضا الابيض وليس بالشديد البياض وسئل معاوية عن الباقى من لذته فقال محادثة الرجال وقال المهلب بن أبى صفرة العيش كله فى الجليس الممتع وعلى ذكر المساقطة لدرر الحديث ننشد قول أبى عبادة

ولما التقينا واللوا موعد لنا * تعجب رأى الدر حسنا ولاقطه

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها * ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وقد حكى عن بعض ولد أبى عبادة أنه قال ابتدأ أبى يعمل هذه القصيدة يريد التى وقع فيها البيتان فقال

امن بعد ان أقوى الغوير فواسطه * قال فقلت فى نفسى ارتكب رويا صعبا

ينقطع فيه وما عسى ان يقول فلما بلغت الى قوله فلما التقينا واللوا موعدنا البيتين قلت ليقل بعد ذلك ما شاء فقد استولى على خصل السبق و بلغ الغاية وقال ابو حية

اذا هن ساقطن الحديث كأنه * سقاط حصى المرجان من سلك ناظم

رمين واقصدن القلوب فلم تجد * دما مائرا الاجوى فى الحيازم

وقد قال بعضهم و ينسب ذلك الى جعفر المصحفى

كلمتنى فقلت درسقيط * فتأملت عقدها هل تناثر

وازدهاها تبسم فأرتنى * عقد در من التبسم آخر

وقد أحسن ابو الحسن على بن محمد التهامى فى قوله

ولم انسها يوم التقى در دمعها * ودر الثنايا فذها وتؤامها

فلم أدر أى الدر انفس قيمة * الدمعها أم ثغرها أم كلامها

ثم وصف الناظم في البيت الاخير التقاط القوم لما يتساقط عليهم من انواع الازاهير في السحر وخص الاسحار لان الانوار يزداد فيها طيبها ويكثر عبقها واوما الى ما هم عليه من الظرف ورقة النفوس ومن ابدع ماقيل في وصف الروض والظلال واطراد المياه قول بعضهم

وقانا وقدة الرمضاء روض * وقاه مضاعف الظل العميم
قصدنا نحوه فحنى علينا * حنو الوالدات على الفطيم
يراعي الشمس أنى قابلتنا * فيحجبها ويأذن للنسيم
وسقانا على ظمأ زلالا * الذ من المدام مع الكريم
يروع حصاه حالية الغواني * فتلمس جانب العقد النظيم

يريد ان الحالية من الغواني تشاهد حصاه فتظن لبياضه وحسنه أن عقدها انتثر هنالك فترتاع وتلمسه اختبارا وقد جانس بين ضفاوصفا وسمر وقر وسحر وشجر وطابق في البيت الثاني بين نقطع والوصل ورد العجز على الصدر في البيت الثالث وقابل بين الفاظ البيت الرابع وبين الفاظ الخامس مع الترصيع البارع والقلب الحاصل من مساقطين للقيط . ملتقطين لسقيط

يُهْدِي إِلَيْنَا كُلُّ جَانٍ مُرْتَقٍ فِي الدَّوْحِ أَحْلَى مَا اجْتَنى وَمَا اجْتَبَا
مِنْ بَيْنِ مَا ابْيضَّ وَما اسْوَدَّ إِلَى مَا اصْفَرَّ وأَحْمَرَّ احْمِرَاراً وقَنَا

يقال جنيت الثمرة اجنيها جنا واجتنيتها بمعنى والجنى ما يجتنى من الشجر واجتبى اصطفى وقنا اشتدت حمرته وأحمر قاني شديد الحمرة وهو مهموز الا أن الناظم ابدل همزته الفا لاجل الروي كما تقدم في امثاله ووصف الناظم انواع الثمرات التي بتلك المواضع وما تحتوي عليه من الاصناف ذوات الالوان وان الجناة يأتونهم منها بخيار ما يجنونه كما قال الاول * هذا جناي وخياره فيه * اذ كل جان يده الى فيه * وقيل في قوله تعالى ازواجا من نبات شتى معناه مختلف الالوان والطعوم

كَمْ مِنْ مَعانٍ فِي مَعَانِي نَهْرِها قَدْ رَكَنَ الْحُسْنُ إِلَيْهِ ورَكا
وَفِي الْمَغَانِي الْجَبَلِيَّاتِ الَّتِي أَجلَّهَا أَيَلْتها الْحُسْنُ ثَوَا
مَجْمَعُ كُلِّ شَاذِنٍ وَنَاشِدٍ عِنْدَ عُيُونِ الْعِينِ قَلْباً مُسْتَبا
كَمْ حُشِرَ النَّاسُ عَلَى صِرَاطِه فِي مَوْقِفٍ لِلأُنْسِ مَشْهُودٍ سِوَا
وَنُعِّمَتْ أَعْيُنُ أَبْنَاءِ الْهَوَى وعُذِّبَتْ أَفْئِدَةٌ مِنْهُمْ هَوَا

المعان المباءة والمنزل وامار كا فمعناه لجأ ولا أذكر عن اللغويين الا اركيت على زنة أفعلت الا أنهم قالوا ارتكيت على فلان أي عولت ومالي مرتكى الا عليه فلعله وارتكى وغيره الناسخ والله اعلم فيكون المعنى قد ركن الحسن اليه وعول عليه يريد اجتماع الحسن فيه وضرب الركون والتعويل واللجأ تمثيلا واين موضع بمرسية أفادني بعض اصحابنا أنهم كانو يسمونه فذلكة الأنس لاجتماع انواع الأنس فيه مأخوذ من فذلكة الحساب وهي عند اهله عبارة عن جملة العدد والمغاني جمع مغنى وهي المواضع التي كان بها اهلوها من قولهم غني بالمكان أي اقام به وثوى بالمكان يثوي ثواء وثويا اقام به والجبليات التي في الجبل والشاذن ولد الظبية والناشد الطالب للضالة يقال

نشدت الضالة انشدها نشدة ونشدانا أى طلبتها وانشدتها اذا عرفتها واختلفوا فى قول أبى دواد * ونصيخ احيانا كما استمع المضل لقول ناشد * فقيل هو المعرف وقيل هو الطالب لان المضل يشتهى أن يجد مضلا مثله ليتعزى به والعين جمع عيناء وهى الواسعة العين ومنه يقال البقر الوحش عين والمستبى المأسور والمرأة تسبى قلب الرجل وتستبيه أى تملكه وتأسره وحشر جمع والحشر الجمع ومنه الحشر والصراط موضع بايالة المذكور ومشهود يشهده الناس ويحضرونه ويقال مكان سوى وسوى بالضم والكسر أى معلم وقيل معناه عدل بين الفرق التى تشهده ووسط فيما بين الناس وبذلك فسر قوله تعالى فأجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى قال الشاعر

وجدنا أبانا كان حل ببلدة * سوى بين قيس قيس عيلان والفزر

ويكون مراده على هذا التفسير الثانى أنه عدل بين الفريقين الذين ذكرهما من محبوب ومحب خلى وهائم والافئدة جمع فؤاد وهو القلب ويقال فى قوله تعالى وأفئدتهم هواء أى لا عقول لها فيكون مراد الناظم أن عقولهم سلبها الهوى والمعنى فى هذه الابيات غنى عن التفسير لبيانه وقد اشتملت على انواع من الفاظ التجنيس وهى معان والمغانى وركن وركا واجلها وابلها وشاذن وناشد والهوى وهوا ولقد احكم التورية فى البيت الرابع حيث ذكر مع الصراط الحشر والموقف فأوهم أنه يريد الصراط المعروف وانما يريد الموضع ثم جاء فى البيت الاخير بنعمت وعذبت فتمكن المعنى وتأكدت التورية الا ان ذكر الصراط والموقف والحشر والنعيم والعذاب ينبغى أن يكون جدها لا يشاب بشىء من الهزل فى الفكر فى هولها شاغل عن ذلك وقابل نعمت بعذبت وأعين بأفئدة

مَوَاقِفُ كَمْ قَدْ حمى الطرْفَ بِهَا عَنِ الكَرَى وَسْنَانُ طَرْفٍ فَاحْتَمَا

يُخْتَطَفُ القَلْبُ بِهَا إِنْ لمْ يَكُنْ خِلْواً وقَلْبُ الخِلْوِ فِيهَا يُخْتَطَا

فَتَعْتَدِى أَنْفُسٌ وَأنفسٌ بِأَعْيُنِ العِينِ عَلَيْهَا يُعْتَدَا

تَقَسَّمَ النَّاسُ بِهَا قِسْمَيْنِ مِنْ بينِ خَلِىٍّ قَلْبُهُ وَمُصْطَبا

إِذَا اجْتَنَى زَهْرَ الجَمَالِ وامِقٌ فِيهَا أَجَنَّ خِلْوُهَا زَهْرَ الرُّبَا

وَلِلرَّبِيعِ حَوْلَهُمْ مَجَامِرٌ تَعَطَّرَ الجَوُّ بِهِنَّ وَاجْتَبَا

يقال حميته أحميه حماية أى دفعت عنه ومنعته وشىء حمى أى محظور واحتمى امتنع والطرف العين ويكون واحدا ويكون جماعة ولا يجمع لانه مصدر والوسنان الناعس والخلو هنا الخالى من الهوى ويختطف يسلب ويختطى يتجاوز والمراد به هنا يترك ويعتدى عليه يظلم يقال عدى عليه وتعدى عليه واعتدى عليه بمعنى واحد والمصطبى مفتعل من صبا يصبو الى الشىء اذا حن ومال واصبته المرأة وتصبته والطاء فيه بدل من التاء والوامق المحب يقال ومقه يمقه أى أحبه والربى جمع ربوة وهى ما ارتفع من الارض وفيها أربع لغات ربوة وربوة وربوة ورابية وانما خص الربى لان الروض فيها أحسن منه فى الوهاد لذلك قيل روض الحزن وذلك لبعده عن السيول وقد قال الله تعالى كمثل جنة بربوة وقال وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين والمجامر جمع مجمرة ويقال فيه مجمر بكسر الميم ومجمر بضمها ولما كانت المجامر يستعمل فيها انواع الطيب من العود وغيره استعار للربيع مجامر لطيب انواره والجو ما بين السماء والارض واكتبى تبخر بالكباء وهو العود الهندى يقال منه تكبى

وا كتبي لما كان الجو يتعطر من روائح تلك الازهار جعله كالمكتبي بتلك المجامر التي استعارها للربيع ولما ذكر الناظم ان تلك المواضع يجمع الناس اليها في موقفها المشهود جعل يعدد كم من طرف ساهر هنالك قد جاء عن الكرى طرف وسنان من الفتور كما قال

وكأنها بين النساء أعارها * عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت * في جفنه سنة وليس بنائم

ثم وصفهم بأنهم بين هائم يستبي قلبه وخلي يسبي حسنه فالهائم يجتني هنالك ماشاء من زهر الجمال والخلي يجتني ماشاء من زهر الربى وجعل للجمال زهرا لما كان الخد يشبه بالورد وبالشقائق والعين تشبه بالنرجس والثغر يشبه بالاقحوان وكنى عن ذلك كله بالزهر وعن النظر اليه وتمتع العين به بالاجتناء وقد يكون عنى بزهر الجمال نضرته وحسنه وعجيب مرآه كما يقال زهرة الدنيا بهذا المعنى وعلى ذكر الطرف ومايوصف به من الفتور وتشبيهه بالوسنان نذكر قول بعض المشارقة وهو غاية في الظرف

يامن اذا مانمت أوقع بالكرى * غضبا لطيف خياله المتعاهد
أما الرقاد فلو يكون بصحة * ما كان ناظرك السقيم براقد

وأنشدني بعض أصحابنا الغرناطيين لاحد المتأخرين

بخديك من روض المحاسن روضة * أقيم عليها من لحاظك حارس
ومن عجب أن اللواحظ قلدت * حراسة ذاك الروض وهي نواعس

وأنشدت لبعض المشارقة أيضا

عجبوا من عذاره بعد حولين أما طال وهو غض النبات
كيف يزكو زرع بخديه والناظر وسنان فاتر الحركات

وهذه كلها توليدات عجيبة ومعان غريبة وفي البيت الثاني من البيتين الآخرين تورية بديعة ولا خفاء بما احتوت عليه هذه الابيات من التجنيس والطباق مع المقابلة

حَتَّى إِذَا الشَّمْسُ اخْتَفَتْ فِي غَرْبِهَا   وَأَمْسَتِ الزُّهْرُ الدَّرَارِي تَخْتَفَا
تَعَوَّضُوا مِنَ الْعَبِيرِ عَنْبَرًا   يَجِلُّ عَمَّا يُشْتَرَى وَيُسْتَرَا
وَقَطَعُوا اللَّيْلَ بِأَحْلَى سَمَرِ   يَجْهَرُ فِيهِ بِالْهَوَى وَيُدْتَجَا

اختفت أي استترت والمنقول في هذا المعنى استخفت قال صاحب التاج يقال استخفيت منك أي توار يت ولا تقل اختفيت وقد نقل صاحب المحكم أنه يقال استخفى واختفى أي استتر واياه اعتمد الناظم وتختفي تظهر يقال اختفيت الشئ اذا أظهرته واستخرجته ومنه قيل للنباش المختفي لانه يستخرج الاكفان والدراري جمع دري وهو الكوكب الثاقب المضيء نسب الى الدر لبياضه والزهر جمع أزهر وهو النير ولذلك يسمى القمر الازهر ويقال الازهران للشمس والقمر والعبير الزعفران كذلك قال أبو عبيدة وقال الاصمعي اخلاط تجمع بالزعفران والعنبر الطيب المعروف ويستري بالسين يختار يقال استريت الشئ أي اخترته واستري الموت بني فلان أي اختار سراتهم والانتجاء التسار وقد تقدم تفسيره ويجهر يرفع الصوت به والسمر قد تقدم بيانه والمعنى انهم كانوا اذا غابت الشمس وظهرت النجوم تعوضوا من صفرة الاصيل بسواد الليل وجعل الاصيل عبيرا لاصفراره والليل عنبرا لسواده ثم جعله يجل عن جنس العنبر المعروف الذي من شأنه أن يشترى ويختار أي هو أرفع من ذلك ثم

ذكرأنهم يقطعون الليل بالحديث الحلوتارة يجهرون فيه بأمر الهوى وتارة يتسارون به وقوله تعوضوا من العبير عنبرا نظيره قول ابن عمار

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى * والنجم قد خلع العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره * لما استرد الليل منا العنبرا

ولابى الحسين بن سراج من قطعة كتب بها الى أبى الحسن بن اليسع

لما رأيت اليوم ولى عمره * والليل مقتبل الشبيبة دان
والشمس تنشر زعفرانا فى الربى * وتفت مسكتها على الغيطان
أطلعتها شمسا وأنت عطارد * وحففتها بكواكب الندمان
وأتيت بدعا فى الانام مخلدا * فبما قرنت ولات حين قران

وقد قال أبو العلاء المعرى

ثم شاب الدجا وخاف من الهـ * ـجر فغطى المشيب بالزعفران

وجانس بين قوله اختفت وتخفى والعبير والعنبر ويشترى ويسترى وطابق بين يجهر ويتنجى لكن ليس بطباق محض لان الطباق المحض هو أن تأتى بالشئ وبما هو ضده من جهة المعنى كقول جرير

وباسط خير فيكم بيمينه * وقابض شر عنكم بشماليا

فقوله باسط وقابض وخير وشر من المطابقة المحضة وغير المحضة ما يتنزل منزلة الضد لكونه نوعا من الضد أوقريبا منه فالاول كقول الرضى

أبكى ويبسم والدجا ما بيننا * حتى أضاء بثغره ودموع

فتنزلت لفظة التبسم فى المطابقة منزلة الضحك اذ كان منه وكذلك يتنجى تنزلت منزلة يسراذ كان الانتجاء نوعا من الاسرار والثانى كقول الشاعر

بانا نورد الرايات بيضا * ونصدرهن حمرا قد روينا

فالحمر ليس بضد للبيض وانما ضد البيض السود لكن يتنزل منزلة الضد لانه من المخالف الذى يقرب من المضاد

فَكَمْ أَغَانٍ كَنَظِيمِ الدُّرِّ فِي * تِلْكَ الْمَغَانِى قَدْ وَشَاهَا مَنْ وَشَا
وَكَمْ حَدِيثٍ كَنَثِيرِ الزَّهْرِ فِى * تِلْكَ الْمَبَانِى قَدْ حَكَاهُ مَنْ حَكَا
وَكَمْ بَدَتْ لِى بِمُنِيرٍ أَوْجُهٌ * مُنِيرَةٌ سَلَيْنَ هَمِّى فَانْسَلَا
وَكَمْ بِحِصْنِ الْفَرَجِ السَّامِى أَنَا * مِنْ فُرَجٍ سَرَّيْنَ وَجْدِى فَانْسَرَا
وَكَمْ بِمُنْتَقُودٍ وَالْمَرْجِ أَنَا * مِنْ نُزَهٍ تَنَزَّهَتْ عَنِ الْخَنَا
وَكَمْ قَصَرْنَا زَمَنًا لِلسَّعْدِ فِى * قَصْرِ ابْنِ سَعْدٍ بِالسُّرُورِ وَالْهَنَا

الاغانى جمع أغنية يقال بينهم أغنية يتغنون بها أى نوع من الغناء ووشاها حسنها وزينها وهو من وشيت الثوب اذا نمقته ومنير جبل بمرسية يسمى منيرا ومنيرة مضيئة مشرقة وسلين أذهبن فانسلا ذهب قال امرؤ القيس تسلت عمايات الرجال عن الصبا * وليس صباى عنى هواها بمنسل

يقال سلاه وسلا عنه وسليه وسلى عنه بالكسر سلوا وسلوا وسليا وسلوانا نسيه واسلاه عنه وسلاه فتسلى وحصن الفرج موضع بمرسية والسامى العالى والفرج جمع فرجة وهى الخصاصة بين الشيئين والفرجة الراحة من حزن أو مرض قال الشاعر ربما تجزع النفوس من الامر * رله فرجة كحل العقال

وقيل الفرجة بالفتح فى الامر والفرجة بالضم فى الجدار والباب والمعنيان متقاربان وأراد بالفرج هنا رؤية ماينفرج برؤيته همه ويسر بن كشفن فانسرى فانكشف ومنتقود حصن عقر به من مرسية وهو قصبتها والمرج موضع هنالك والتنزه التباعد والاسم النزهة ومكان نزه ونزيه وقد نزه نزاهة ونزاهية وأرض نزهة بديعة قال بعض اللغويين ومما تضعه العامة غير موضعه قولهم خرجنا نتنزه اذا خرجوا الى البساتين والخضر والرياض وانما التنزه البعد حيث لايكون ماء ولاندى ولاجمع ناس ونزه نفسه عن القبيح نحاها والخنا الافحاش فى الكلام يقال خنى فى كلامه بالكسر وأخنى اذا أفحش واستعمل الناظم التنزه على وجه وأما التنزه فجرى فيها على عرف العامة وقصر ابن سعد بمرسية وهو منسوب الى الامير أبى عبدالله محمد ابن سعد بن مردنيش الجذامى أمير شرق الاندلس وأبوه سعد أمير أفراغة وهو الذى حاصره الطاغية بن رذمير بها وأصانه الله بظاهرها تملك ولده كورة تدمير ودخل مرسية فى العشر الوسط من جمادى الاولى سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة وكان غريب السيرة فى الثوار عظيم القوة شديد البأس وثيق البنية شهير الشهامة والفروسية ينادم كبار الابطال ومساعير الحروب وربماهزه الارتياح فى مجالس راحته فيفضل على ندمائه ويخرج حتى عن فرشه وأبنيته وانهمك فكان يضاجع ازيد من مائتى جارية تحت لحاف واحد وتوفى عاشر رجب عام سبعة وستين وخمسمائة وقداستولى على كثير من بلاد الاندلس أفادنيه بعض فضلاء أصحابنا وذكر انه نقله من خط الشيخ الاديب ابى الحكم بن المرحل رحمه الله والمعنى فى هذه الابيات كما اغنى عن التفسير لبيانه وقد أكثر الناس فى وصف الحديث وفى ذكر الغناء ما لو استقصى هنالاخرج الى الطول الممل لكن نأتى من ذلك بنبذة لاتخرجنا عن القدر الذى يحتمله هذا الموضع فمن أعجب ماجاء فى الحديث قول ابن الرومى

وحديثها السحر الحلال لوانه * لم يجن قتل المسلم المتحرز
ان طال لم يملل وان هى أوجزت * ود المحدث أنها لم توجز
شرك العقول ونزهة ما مثلها * للمطمئن وعقلة المستوفز

وقال عمر و بن أبى ربيعة

وانا ليجرى بيننا حين نلتقى * حديث له وشى كوشى المطارف
حديث كوقع القطر بالمحل يشتفى * به من جوى فى داخل القلب لاطف

وقال بشار

وكأن رجع حديثها * قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها * هاروت ينفث فيه سحرا

وقال الآخر

لو كنت ساعة بيننا مابيننا * وشهدت حين نكرر التوديعا
لعلمت أن من الدموع محدثا * ورأيت أن من الحديث دموعا

ومما يتعلق بذكر الغناء قول أبى فراس وكتب بها الى سيف الدولة يحثه على سماع الغناء وهو حسن

محلك الجوزاء بل أرفع * وصدرك الدهناء بل أوسع
وقلبك القلب الذى لم يزل * للهزل والجد به موضع

رفه بقرع العود سمعا غدا * قرع العوالى جـل مايسمع

وقد أنشدت قبل هذا

جاءت بعود تناغيه فيتبعها * فانظر عجائب مايأتى به الشجر
غنت على عوده الاطيار مفصحة * رطبا فلما ذوى غنى به البشر
فلا يزال عليـه أو به طرب * يهجه الاعجمان الطـير والوتر

وهى لابن قاضى ميلة وقد جاء فى البيت الاول والثانى بنوع من الترصيع حسن وطابق فيهما بين التنظيم والتنثير مع موازنة الفاظ أحدهما للآخر والمجانسة بين أغان والمغانى و بين المغانى والمبانى وكذلك جانس فيما بعدهما بين منير ومنيرة والفرج وفرج وسلين وسرين وانسلى وانسرى ونزه وتنزهت وقصرنا وقصر والسعد وسعد

تَجُولُ فِى هَالاَتِ أَقْمَارٍ عَفَا مِنْ حُسْنِهَا صَرْفُ الزَّمَانِ مَاعَفَا
وتَقْصُرُ اللَّحْظَ عَلَى قَصْرٍ بِهِ أَبْقَى الزَّمَانُ عِبرَةً لِمَنْ بَقَا
كَالحِيرَةِ البَيْضَاءِ إِنْ نَاسَبَهَا وَنَاسَبَتْهُ بَهْجَةً فَبِالحَرَا

الهالة دارة القمر و يقال عفت الدار ونحوها عفاء وعفوا درست وعفتها الريح وعفتها درستها يتعدى ولا يتعدى و بقى لغة فى بقى قال صاحب المحكم بقى بقاء و بقى بقيا الاخيرة لغة بلحارث بن كعب قلت وهى أيضا لغة طيئ وذلك أنه مطرد فى لغتهم نحو بل كل ما كان على فعل أوفعل من المعتل اللام إلى فعـل فيقولون رضى فى رضى وغنى فى غنى ومنه بيت الكتاب

أفى كل عام مأتم يبعثونه * على محمر ثو بتموه وما رضا

إلا أنها على لغة بلحارث أصل وعلى لغة طيئ فرع عن فعـل والحيرة بلد إلى جانب الكوفة كانت به ملوك بنى ماء السماء وهم آل محرق وتوصف بالبيضاء قال الشاعر وهو أبو الطمحان الاسدى وقيل أبو الطحماء وقد حلق رأسه صاحب الشرطة

وبالحيرة البيضاء شيخ مسلط * اذا حلف الايمان بالله برت
لقد حلقوا منى غدافا كأنه * عنا قيد كرم اينعت فاسبطرت
وظـل العذارى حين حلق لمتى * على عجـل يلقطنها حيث خرت

وقال الآخر

فالتفاتا الى القرون الخوالى * هل ترى اليوم غير قرن فان
أين رب السرير والحيرة البيـ * ضاء أم أين صاحب الايوان

ولا يبعد أن يكون انما سميت حيرة لبياضها من قولهم حورت الثياب اذا بيضتها وقد قيل ان الحوار يين إنما سموا بهذا الاسم لانهم كانوا قصار ين و يقال للنساء حوار يات لبياضهن وقيل للمشترى الاحور لشدة بياضه ومن ذلك الحوارى وهو ما بيض من الدقيق وقالوا الاحورى للابيض الناعم والجفنة المحورة أى المبيضة بالسنام فالياء فى الحيرة على هذا أصلها الواو وقلبت ياء لاجل الكسرة كما فعل بقيل وريح على أن صاحب العين انما أثبت الحيرة فى مادة الحاء والياء والراء وماذكرته سائغ فيه والحرا الخليق تقول بالحرا أن يكون ذلك وانه لحرا بكذا وحر وحرى فمن قال حرا لم يغيره عن لفظه فيما زاد على الواحد وسوى بين المذكر والمؤنث والجمع والمفرد لانه مصدر ومن قال حر وحرى ثنى وجمع وأنث والمعنى أنه جعل منازل ذلك القصر كالهالات وجعل الحسان التى كن به كالاقمار

وذكر ماغير الزمان وصرفه من آى تلك المنازل حتى درس ذكرأهم أمعنوا النظر فى آثار ذلك القصر الذى ذهب أهله وأبقى الدهر فيه معتبرا لمن بقى بعدهم وشبهه فى حسنه وبهجته وماأبقى الدهر من بنيانه بالحيرة التى ذهب سلطان الملوك الذين كانوا ينزلونها وبقيت آثارهم بها كما ذهب سلطان الامراء الذين كانوا بهذا القصر من بنى سعد و بقيت منازلهم الدارسة الآن تخبر عنهم وقد وصف البحترى إيوان كسرى وذكر ذهاب أهله عنه فى قصيدته السينية الشهيرة التى أولها (صنت نفسى عما يدنس نفسى) يقول فيها بعد أبيات

و إذا ماجفيت كنت جديرا * أن أرى غير مصبح حيث أمسى
حضرت رحلى الهموم فوجه * ت إلى أبيض المدائن عنسى
أتسلى عن الخطوب وآسى * بمحل من آل ساسان درس
ذكرتنيهم الخطوب التوالى * ولقد تذكر الخطوب وتنسى
وهم غافلون فى ظل عال * مشرف يحسر العيون ويخسى
طلل لم يكن كأطلال سعدى * فى قفار من البسابس ملس
ومساع لولا المحاماة منى * لم تطقها مسعاة عنس وعبس
نقل الدهر عهدهن عن الجد * ة حتى رجعن أنضاء لبس
لو تراه علمت أن الليالى * جعلت فيه مأتما بعد عرس
وهو ينبيك عن عجائب قوم * لايشاب البيان فيهم بلبس
فاذا مارأيت صورة أنطا * كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وأنوشر * وان يزجى الصفوف تحت الدرفس
تحسب العين أنهم جد أحيا * ء لهم بينهم أشارة خرس
من مشيح يهوى بعامل رمح * ومليح من السنان لترس
يغتلى فيهم ارتيابى حتى * تتقراهم يداى بلمس

ماقيل فى حذق التصوير أبدع من هذا يقول انى لشدة حذق المصور لهن ارتاب فيهن هل هن احياء أم لا حتى المسهن والدرفس الراية بلسان كسرى واستلب ضرار بن الخطاب راية كسرى يوم القادسية فعوض منها ثلاثين ألفا وكانت قيمتها ألف ألف ومائتى ألف نقله أصحاب المغازى وعلى ذكر الصور أنشد هنا قول المتنبى

وأحسن من ماء الشبيبة كله * حيا بارق فى فازة أنا شائمه
عليها رياض لم تحكها سحابة * وأغصان دوح لم تغن حمائمه
وفوق حواشى كل ثوب موجه * من الدر سمط لم يثقبه ناظمه
إذا ضربته الريح ماج كانه * تجول مذاكيه وتدأى ضراغمه
ترى حيوان البر مصطحبان * يحارب ضد ضده ويسالمه
وفى صورة الرومى ذى التاج ذلة * لابلج لاتيجان إلا عمائمه

وقد وصف بعض أصحابنا الصور بدار الامارة العلية أسماها الله وهو الوزير أبو عبدالله بن الخطيب أعزه الله فقال وأحسن

مطارد فرسان ومجرى سوابح * ومكنس غزلان وغابة ذى لبد
تكنفها عدل الخليفة يوسف * فترعى الظباء العفر فيها مع الاسد

ودخل أبو بحر صفوان بن ادريس ديار بن همشك والخراب قد استولى عليها فقال

وديار تشكوا الزمان وتشكى * حدثتنا عن عزة بن همشك

وأناس عتوا على الدهر حتى * هب فى جمعهم بعاصف هلك
طالما قسموا لديها رقابا * ودماء على خضوع وسفك
تركوا فى الثرى الثراء وخلوا * ملكهم نهبة لأعظم ملك
أخذوا حظهم من العز حتى * تركوه وكل آخذ لترك

ومن العجائب التى يجرها هذا المعنى ذكرها هنا ما حدثنا به بعض أصحابنا قال كان الوزير أبو عبد الله ابن الحكيم قد أشخصنى من سبتة الى غرناطة وأسكننى فى بعض الأماكن المتصلة بداره فلما كان شهر رمضان الذى قتل الوزير أبو عبد الله فى صبيحة يوم الفطر بعده وشرع أبو عبد الله بن خميس فى قصيدة عيدية فى مدحه على رسمه معه فقال
لمن المنازل لا تجيب صواها * محت معالمها وصم صداها
واجبلت قريحته فلم يستطع أن يزيد على هذا البيت كلمة واحدة الى أن انقضى شهر رمضان وقتل الوزير أبو عبد الله فى صبيحة يوم العيد وقتل معه أبو عبد الله بن خميس وهدمت ارجاء الدار التى كان الوزير يسكنها واستولى النهب عليها قال فمررت بعد أيام قليلة عليها وهى خلاء والبيت الذى قاله ابن خميس مكتوب على بعض حيطانها قد كتب تحته بخط آخر كالمجيب له ... لابن حكيم فكانت من أكبر العبر . وذكر عن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أنه قال خرجت من منازلنا بسويقة جنح الليل وذلك قبل خروج محمد اخى فاذا أنا بنسوة توهمت أنهن خرجن من دارنا فأدركتنى الغيرة عليهن فاتبعتهن لانظر اين يردن فالتفتت احداهن فقالت .

سويقة بعد ساكنها يباب * لقد أمست أجدبها الخراب

قال فقلت لهن أمن الانس انتن فلم يراجعنى فخرج محمد بعد هذا فقتل وفى هذه المنازل يقول سعيد بن عقبة وقد نزل ببطحاء سويقة فاستوحش لخرابها الى ان خرجت ضبع من دار عبد الله بن حسن فقال

إنى مررت على دار فأحزننى * لما مررت عليها منظر الدار
وحشا خرابا كأن لم تغن عامرة * بخير أهل المعتر وزوار
لا يبعد الله قوما كان يجمعهم * جنبا سويقة أخيار لاخيار
الرافعين لسارى الليل نارهم * حتى يؤم على ضوء من النار
والرافعين عن المحتاج خلته * حتى يحوز الغنى من بعد اقتار

ووجد على حائط قصر بدمشق لبنى أمية

يا أيها القصر الذى * كانت تحف به المواكب
أين المراكب والمضا * رب والحقائب والنجائب
ما بال قصرك واهيا * قد عاد منهد الجوانب

ووجد فى الحائط الآخر من حيطانه جوابها

يا سائلى عما مضى * من دهرنا ومن العجائب
فالقصر قد أودى فاض * حى بعد منهد الجوانب
وعن الجنود أولى العقو * د ومن بهم كنا نحارب
وبهم قهرنا عنوة * من بالمشارق والمغارب
وتقول لم لم يدفعوا * لما أتت عنك النوائب
هيهات لاينجى من المو * ت الكتائب والمقانب

وَكُدْيَةُ الرَّشِيدِ مَا أَكْدَى بِهَا   مِنْ قَنَصِ الأُنْسِ الشَّرِيدِ مَنْ سَمَا
كَمْ قَدْ سَعِدْنَا إِذْ صَعِدْنَا حَوْلَهَا   مِنْ سَرْحَةٍ لِصَرْحَةٍ وَمُسْتَوَى
وَكَمْ إِلَى الْقَنْطَرَةِ الْبَيْضَاءِ قَدْ   مَشَى بِنَا الأُنْسُ رُوَيْداً وَرَهَا
وَكَمْ لَنَا بِالزَّنْقَاتِ وَقْفَةٌ   حَيْثُ اسْتَدَارَ النَّهْرُ مِنْهَا وَانْحَنَا

كدية الرشيد موضع هنا لكم ويقال اكدى طالب الماء اذا احفر فبلغ الكدية فلم يمكنه أن يحفر لصلابتها ويستعمل فى كل من طلب شيئا فلم يظفر به وفى كل من كان عطاؤه تافها قال الله تعالى وأعطى قليلا وأكدى والاول هو المراد هنا وسما طلب الصيد يقال سما واستما اذا خرج للصيد والشريد الشارد يقال شرد اذا نفر والسرحة واحدة السرح وهى شجر عظام طوال وأما قول حميد

أبى الله الا ان سرحة مالك * على كل افنان العضاة تروق

فانما كنى به عن المرأة وقد تقدمت ذكر ذلك والصرحة المتن من الارض قال عبيد * فتضاء لاح لها بالصرحة الذيب * والمستوى الموضع الذى يصعد اليه ويستوى عليه من قولهم استويت الى موضع كذا اذا صعدت اليه واستويت عليه اذا ارتقيت عليه ومنه قوله تعالى ... اذا استويتم عليه والقنطرة البيضاء موضع هنالك ورها يرهو فى السير أى رفق قال القطامى * يمشين رهوا فلا الاعجاز خاذلة * ولا الصدور على الاعجاز تتكل * والرهو أيضا السير السهل يقال جاءت الخيل رهوا والزنقات موضع بمرسية وقوله مشى بنا الانس رويدا أى مشى بنا مشيا رويدا ورويدا هنا حال من المصدر المفهوم من لفظ مشى ويجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف على ضعف وانما حسن الوجه الاول وضعف الثانى لان حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه فى ولاية العامل قبيح الا فى مواضع استثناها النحويون . ليس هذا منها فلما كان قولهم سرت قريبا أو أقمت قليلا ومشيت رويدا كثيرا فى كلامهم علم أنه من باب الحال لا من باب حذف الصفة اذ لو كان من باب حذف الصفة لم يحسن عندهم حتى يستعملوه كثيرا ولهذا فى النحو نظائر يستدل عليها بالاثر ويسوغ أن يكون رويدا تصغير مرود أو ومرود على حذف الزيادة والمعنى أن تلك الكدية بألفها الحسان فما يخيب من ذهب الى الفوز بقربهم وان كان الشراد والنفار من شأنهم فى غير ذلك الموطن ثم ذكر التقاءهم حول تلك الكدية من المواضع المنخفضة حيث السرح الى المتون المرتفعة فنالوا ما أرادوا وسعدوا ببلوغ اربهم وأنهم كانوا اذا مشوا الى القنطرة مشوا مشيا رفيقا لما يحتوى عليه طريقهم من الانس وما يشاهدون من عجائب الحسن فهم لا يسرعون فى سيرهم ليطول تمتعهم بذلك الى أن يقفوا بالزنقات حيث مستدار النهر ومنحناه وقد جانس بين الرشيد والشريد وكدية وأكدى وسعدنا وصعدنا وسرحة وصرحة

وَقَدْ تَرَاأَى الْجُرُفَانِ مِثْلَ مَا   دَنَى خَلِيلٌ مِنْ خَلِيلٍ قَدْ صَفَا
رَامَا اعْتِنَاقاً ثُمَّ لَمْ يُمْكِنْهُمَا   فَبَكَيَا نَهْراً لإِخْفَاقِ الْمُنَا
نَهْرٌ تَلاَقَى الدَّوْحُ وَالرَّوْحُ بِهِ   وَسَبَحَ الزَّهْرُ عَلَيْهِ وَطَفَا
يَكْسَى لُجَيْنَ الْبَدْرِ حِينَ يَنْتَضِي   مِنْ ذَهَبِ الآصَالِ مَا كَانَ اكْتَسَى

الاخفاق الخيبة يقال طلب حاجة فأخفق اذا لم ينلها والدوح الشجر العظيم من أي نوع كان والروح نسيم الريح وطفا الشيء فوق الماء يطفوا طفوا وطفوا اذا علا ولم يرسب والمعنى انه وصف الجرفين القائمين على ذلك النهر وان أحدهما دنى من الآخر وجرى النهر بينهما ثم تخيلهما خلين أرادا أن يعتنقا فأعوزهما ذلك فبكيا فجرى ذلك النهر من دموعهما وانما نحى فى ذلك منحى أبي بحر صفوان بن ادريس حيث يقول فى وصف الجبلين

كأنهما خلا صفاء تعاتبا * وقد بكيا من رقة ذلك النهرا

وبيت صفوان أحسن وينظر الى هذا المعنى قول بعض المشارقة

كانما بغداد فى جانبي * دجلتها حب له عاشق
والجسر ما بينهما قائد * والنهر من غيرته خافق

ثم شبه فى البيت الرابع ضوء البدر باللجين لبياضه وضوء الشمس عند الغروب بالذهب لاصفراره وذكر أن ذلك النهر يزول عنه عند مغيب الشمس ما كان لبس من ذهب الآصال ويكتسي لجينا من ضوء البدر وهو مأخوذ من قول أبي العلاء المعري ووصف الماء

يظن به ذوب اللجين فان بدت * له الشمس اجرت فوقه ذوب عسجد

وقد قلت وانا فى سن الصغر أبياتا الممت فيها بهذا المعنى ووصفت زورقا ركبته وهي

وغريبة الانشاء سرنا فوقها * والبحر يسكن تارة ويموج
عجنا نؤم بها معاهد طالما * كرمت فعاج الانس حيث نعوج
وامتد من شمس الاصيل امامنا * نور له مرأى هناك بهيج
فكان ماء البحر ذائب فضة * قد سال فيه من النضار خليج

وقد جانس فى البيت الثالث بين الدوح والروح وجاء فى البيت الاخير بتصدير حسن بين يكسي واكتسى

يَسجُدُ فِيهِ البَدْرُ لِلّهِ كَمَا * خَرَّ الكَلِيمُ سَاجِداً عِنْدَ طُوَى
وَتَلتَقِي الشُّهْبُ بِهِ تَمَثُّلاً * كَمَا التَقَى وَفْدُ الحَجِيجِ بِمِنَى
تُسبِّحُ اللهَ القُلُوبُ عِنْدَمَا * تُبْصِرُ مَرْآهُ العُيُونُ وَتَرَى
تَرَى الدَّوَالِيبَ عَلَى جُسُورِهِ * دَائِرَةً بَيْنَ فُرَادَى وَثُنَا
كَمَا أَدَارَ الدَّارِعُونَ عِنْدَمَا * رَامُوا الطِّرَادَ دَرَقاً يَوْمَ الوَغَى

السجود هو الخضوع وطوى الموضع الذى نودي فيه موسى عليه السلام وهو الكليم قال الله تعالى وكلم الله موسى تكليما والحجيج الحاج يقال حاج وحجيج كما قالوا غاز وغزى وعاد وعدى للعادين على أقدامهم ومنى معروف وتسبح تنزه والدواليب جمع دولاب وهو فارسي معرب وفرادى افرادا يقال جاء القوم مثنى مثنى وثناء ثناء اى جاءوا اثنين اثنين وكل ما جاء من الفاظ العدد على مفعل وفعال جاء غير مصروف للعدل الوزن والوصف والطراد مطاردة الاقران فى الحرب وهو حمل بعضهم على بعض والمعنى انه وصف ظهور مثال البدر وأمثلة النجوم فى ذلك النهر لصفاء مائه وتخيل البدر قد خر فى قعر ذلك النهر خاضعا ساجدا لله تعالى كما سجد موسى عليه السلام بطوى ثم شبه النجوم حين تراءت فى النهر فى اجتماعها وتكاثرها وخضوعها لله تعالى بالحاج حين

تلتقي وفوده بمنى وذكر أن القلوب تسبح الله وتنزهه اذا رأت ذلك المنظر وذلك مما يدل على من قدرة الله تعالى وعجيب صنعه وبارع اختراعه

وفى كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

ولما كان الماء اذا كسرته الريح يشبه الدروع جعل كل ناحية من النهر كلابس الدرع والدواليب الدائرة كالدرق التى يديرها الدارعون وأما وصف النجوم بأنها تترآى فى الماء فمعنى ذكره الشعراء قديما وحديثا قال العجاج

باتت تظن الكوكب السيارا * فريدة فى الماء أو مسمارا

وقال البحترى يصف بركة

اذا النجوم تراءت فى جوانبها * ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وقال أبو العلاء المعرى

تبيت النجوم الزهر فى جمراته * شوارع مثل اللؤلؤ المتبدد

فاطمعن فى اشباحهن سواقطا * على الماء حتى كدن يلقطن باليد

فدت الى مثل السماء رؤوسها * وعبت قليلا بين نثر وفرقد

وقال على بن محمد الايادى وذكر بحيرة دار المعز

اذا بث فيها الليل أشخاص نجمه * رأيت وجوه الماء بالنار تحرق

وقال أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبرى

ولما تعالى البدر وامتد ضوؤه * بدجلة فى تشرين بالطول والعرض

وقد قابل الماء المفضض نوره * وبعض نجوم الليل يقفو سنا بعض

توهم ذو العين البصيرة أنه * يرى باطن الافلاك من ظاهر الارض

وقد ولد بعضهم من ترائى البدر فى الماء معنى بديعا فقال يمدح

تواضع كالبدر استبان لناظر * على صفحات الماء وهو رفيع

ومن دونه يسمو الى النجم صاعدا * سمو دخان النار وهو وضيع

وقال ابن سارة

تأمل حالنا والجو طلق * محياه وقد طفل المساء

وقد جالت بنا عذراء حبلى * تجاذب مرطها ريح رخاء

بنهر كالسجنجل كوثرى * تعاين وجهها فيه السماء

وقال الرصافى البلنسى فى المعنى الذى فسرنا به البيت الاخير ووصف نهرا مالت عليه سرحة وهو بديع ما عمل فى معناه أبدع منه ومنه أخذ الناظم معنى البيتين الاخيرين وقصر عنه

ومهدل الشطين تحسب أنه * متسيل من درة لصفائه

فاءت عليه مع العشية سرحة * صدئت لفيئتها صفيحة مائه

فتراه أزرق فى غلائل سمرة * كالدارع استلقى لظل لوائه

أردت البيت الاخير وللرصافى المذكور فى وصف الدولاب وهو أيضا من أبدع ما قيل

وذى حنين يكاد شجوا * يختلس الأنفس اختلاسا

اذا غدا للرياض جارا * قال له المحل لامساس

يبتسم الزهر حين يبكى * بأعين ما رأين بأسا
من كل جفن يسل سيفا * صار له غمده رئاسا (١)

وقال الاستاذ أبو الحسن على بن ابراهيم بن سعد الخير

لله دولاب يفيض بسلسل * فى روضة قد أينعت أفنانا
قد طارحته به الحمائم شجوها * فيجيبها ويرجع الالحانا
فكأنه دنف يدور بمعهد * يبكى ويسأل فيه عمن بانا
ضاقت مجارى طرفه عن دمعه * فتفتحت أضلاعه أجفانا

وقال أبو عبد الله بن سعيد وزير صاحب افريقية

ومحنية الاصلاب تحنو على الثرى * وتسقى بنات الترب در الترائب
تعد من الافلاك ان مياهها * نجوم لرجم المحل ذات ذوائب
وأطرب بها رقص الغصون ذوابلا * فدارت بأمثال السيوف القواضب

وقال أبو جعفر أحمد بن مسلمة بن وضاح

وباكية والروض يضحك كلما * ألحت عليه بالدموع السواجم
تخلص من ماء الغدير سبائكا * فتثبتها فى الروض مثل الدراهم

وقلت فى مثل ذلك

وذى فلك مادار إلا قضى بأن * يعاد الى الروض الشباب جديدا
نجود بنوء الفرغ فيه كواكب * فتسقى وهادا رهبا ونجودا
إذا الكوكب المائى منهن قورنت * به أنجم الازهار كن سعودا

وقلت فى مثل ذلك

وذات سير اذا حثت ركائبها * حنت فراقك فى مرأى ومستمع
كأنها فلك دارت كواكبه * على الرياض بنوم غير منقشع
تماثل السحب صوبا بل تخالفها * إذا استهل حيا الهتانة الهمع
هذى من الماء تعلى كل منخفض * وتلك حر تنزل منه كل مرتفع

وقلت فى مثل ذلك

وذات حنين تستهل دموعها * سجاما اذا يحدوا ركائبها الحادى
تعجبت ان ليست تريم مكانها * ولم تخل من تأويب سير وأسئاد
وأرصدتها فى الروض أية عدة * فكانت لدفع المحل عنه بمرصاد
تخالف ماء المزن حكما وماؤها * وكل على روض الربى رائح غاد
فينجد هذا بعد ان كان متهما * وذاك تراه متهما بعد انجاد
لئن قذفت ذوب اللجين على الثرى * لقد خلصته القضب حليا لاجياد

وقلت فى مثله وعنيت الاقداس

ومترعة يعل الروض منها * إذا علت من الماء الفرات

---

(١) رئاس السيف مقبضه أوقبيعته

بداد ولا بها فلكا ولاحت * بدائره كواكب سائرات
إذا ما الروض قابلهن كانت * عليه بكل سعد طالعات
تراها ان شعاع الشمس لاقى * بياض الماء مشرقة الأيات
وأعجب أنهن ذوات نوء * غزير وهى تغرب خاويات

يقال خوت النجوم تخوى اذا امحلت وذلك اذا سقطت عند الغروب فلم تمطر فبذلك استحكمت التورية فى خاويات وقال الآخر

ودولاب إذا أن * يزيد القلب أشجانا
سقى الغصن وغناه * فما ينفك نشوانا

وَكَمْ نَسِينَا جِسْرَ وَضَاحٍ بِمَا أَوْضَحَ لِلْعَيْنِ الْجُسَيْرُ وجلا
منَازِلُ لِلْحُسْنِ تُنْسِي جِلِقًا وَنَهْرُهَا السَّلْسَالُ يُنْسِي بَرَدَا
يَكَادُ يُعْشِي نُورُهَا مَنْ اجْتَلاَ وَيُرْعِفُ النَّوْرَ بِهَا مَنِ اجْتَنَا
وَتَقْطَعُ الْمُشْتَي بِقُطْرِ جَنَّةٍ مِنْ فَحْصِ قُرْطَاجَنَّةٍ رَحْبِ الذَّرا
تَسْرِي الرِّيَاحُ فِي ذَرَاهَا فَتَرَى أَزْهَارَهَا عَلَى الرَّيَاحِينِ ذَرَا

جسر وضاح موضع بمرسية واظنه القنطرة المذكورة قبل وكذلك الجسير بمرسية أيضا وجلا أظهر وجلق بالتشديد وكسر الجيم واللام موضع بالشام كان به آل جفنة من ملوك غسان وبردى نهر هنالك على فعلى وقد ذكر النابغة الذبيانى جلق فقال

حلفت يمينا غير ذى مثنوية * ولا علم إلا حسن ظن بصاحب
لئن كان للقبرين قبر بجلق * وقبر بصيداء الذى عند حارب

وكذلك ذكر جلق وبردى حسان بن ثابت رضى الله عنه فقال

لله در عصابة نادمتهم * قدما بجلق فى الزمان الاول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم * قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم * بردى يصفق بالرحيق السلسل
(أراد ماء بردى)
يغشون حتى لاتهر كلابهم * لايسألون عن السواد المقبل

والسلسال والسلسل الماء العذب الصافى سمى بذلك لسهولة دخوله فى الحلق من قولهم تسلسل الماء فى الحلق جرى واجتلى الشئ نظر اليه وقد تقدم تفسيره وتفسير يعشى والرعاف الدم يخرج من الانف وقد رعف الرجل يرعف ويرعف ورعف بالضم لغة فيه ضعيفة والقطر بالضم الناحية والجانب والجمع الاقطار والذرى بالفتح كل ما استترت به من ظل وغيره ومنه قولهم أنا فى ظل فلان وفى ذراه أى فى كنفه وستره ودفئه ومنه قولهم استذريت بالشجرة أى استظللت بها وصرت فى دفئها واستذريت بفلان أى التجأت اليه وصرت فى كنفه والذرى أيضا اسم لما ذرته الريح وذرى الشئ بالضم أعاليه الواحدة ذروة وذروة بالضم وقرطاجنة موضع على البحر بساحل مرسية والمعنى فى البيت الاول واضح وذكر فى الثانى ان هذه المنازل من حسنها تنسى جلق على اشتهاره فى

الحسن ونهرها ينسى بردى على اشتهاره بالعذوبة والطيب ثم ذكر فى البيت الثالث ان تلك المواضع مشرقة كثيرة الاضواء حتى يكاد نورها يعشى العيون وهو مأخوذ من قوله تعالى يكاد سنا برقه يذهب بالابصار وان نورها كثير العبق والطيب حتى يكاد طيبها يرعف المجتنى كما يرعف المسك أنف الذى يدنو منه وهذا مما يدخل فى باب إئتلاف المعنى بالمعنى لانه لو وصف النور بغير الارعاف مما يدل على المبالغة فى قوة شذاه لوفى بالمراد لكن أتى بالارعاف لمناسبته للاعشاء إذ كل واحد منهما آفة تلحق الجارحة عند مباشرة المرئى أو المشموم فتأمله ثم قال تسرى الرياح فى ذراها يصلح أن يضبط الذال بالفتح وبالضم على التفسيرين اللذين تقدما ومراده ان الرياح تهب بها فتلقى ازهارها على أنواع الرياحين فترى ملقاة ذرى هنالك ولا خفاء بما اشتملت عليه هذه الابيات من التجنيس

لَا تَعْدَمُ الآذانُ فى أرْجائِها ... طَيْرًا ضَغَا مِنْ فَوْقِ سَرْحٍ وَثَغَا

كَلاً ولَا يُعْدَمُ فى كَلائِهَا ... رَامٍ رَأى صَيْدًا وثَانٍ قَدْ كَلَا

كأَنَّهُ والرّاسِيَاتُ حَوْلَهُ ... مُحْدِقَةٌ بَيْتٌ مُنِيفٌ ذُوجَهَا

كَمْ سَاقَ مِنْ غَرْبِيِّهِ مُقْتَنِصٌ ... صَيْدًا وِمِنْ غَرْبِيِّهِ وَكَمْ دَآي

يقال ضغا يضغو ضغوا وضغاء إذا صوت والسرح المال السائم يقال أرحت الماشية وأنفشتها وأسمتها وأهملتها وسرحتها سرحا هذه وحدها بلا الف ومنه قوله تعالى وحين تسرحون وسرحت هى بنفسها يقال سرحت بالغداة وراحت بالعشى وماله سارحة ولا رائحة أى شئ والثغاء صوت الشاة والمعز وما شاكلها والثاغية الشاة وقد ثغت تثغو أى صاحت يقال ماله ثاغية ولا راغية أى ماله شاة ولا بعير يريد الناظم أنها تجمع بين أنواع من الطير وأنواع من المواشى أى لخصبها تجمع بين كل صنف من اللحم والكلأ والكلاء الموضع الذى ترفأ فيه السفن ومنه كلاء البصرة واشتقاقه من قولك كلأت الشئ كلاءة اذا حفظته وحرسته لانه يحفظ السفن ويدفع عنها الريح فوزنه على هذا فعال وكذلك هو عند سيبويه وهو عند بعضهم فعلاء لان الريح تكل فيه فلا تخرق ومما يرجح مذهب سيبويه ان أبا حاتم ذكر ان الكلاء مذكر لا يؤنثه أحد من العرب ولو كان فعلاء لكان مؤنثا لمكان همزة التأنيث ولا يسوغ أن تكون الهمزة للالحاق لان الالحاق معدوم فى هذا البناء وقد قالوا كلاء القوم سفينتهم تكليئا وتكلئة على مثال تكليم وتكلمة أدنوها من الشط وهذا أيضا مما يشهد بأن وزنها فعال ورأى صيدا أصاب رئته وثان قد كلا أصاب كلاه يقال كلاه كليا اذا أصاب كليته وكلا ردع وزجر يريد أنهم كثيرا ما يصيبون القنيص بالرمى فيرمونه تارة فى رئته وتارة فى كليته والمعنى أنهم لا يخطئون مقاتله والراسيات الجبال ويقال بيت أجهى وجهى إذا كان مكشوفا لا سقف له ولا ستر وقد جهى جهاشبه ذلك المرسى والرواسى قد أحاطت به ودارت حواليه ببيت منيف أى سام مرتفع لا سقف له إذ كانت الجبال التى تكنفه وتحيط به وتمنع عنه الريح كالحيطان المحيطة بالبيت وقد أبدع بذكر الجها هنا وتمم التشبيه وهو من الايغال البديع وقد دأى له يدأى دأيا اذا ختله قال الشاعر

* كالذيب يدأى للغزال يختله * هذا ان كان ضبطه بالدال المهملة وان كان بالذال المعجمة فهو بمعنى طرد يقال ذأى الابل يذأها ذأوا اذا ساقها وذأه يذأه ذأوا اذا طرده والاول أنسب للصيد والثانى أنسب لساق وانما يشكل ضبط هذه الكلمة وما كان مثلها لان هذه المقصورة لم تصل الينا منها نسخة على ما يشترط من الصحة والغربى جانب الغرب ولعله كرر الغربى فى عجز البيت لانه أراد الغربى من جانب البر والغربى من جانب البحر

فيكون قد جمع فى البيت بين الاشارة الى صيد البر والى صيد البحر ولعله خص الغربى لان وضع المرسى المذكورة اقتضى ذلك ولست على تحقيق من ذلك ولا وجدت من يحققه وساغ الاستغناء بالعطف عن التثنية فيهما على هذا الوجه ان صح لان تقديره كم ساق من غربيه البرى وغربيه البحرى فهو على تقدير الصفة كما قال الحجاج وقد بلغه موت المحمدين ابنه وأخيه محمد ومحمد فى يوم * أراد محمدا ابنى ومحمدا أخى * وفى ذلك يقول الفرزدق * ان الرزية لا رزية مثلها * فقدان مثل محمد ومحمد

وقد ذكر لى بعض من زعم أنه سكن تلك المواضع أن الغربى اسم لموضع هنالك معروف الآن لا أثق بتعريفه ولا أرتهن فيه وقد جمع فى البيت الثانى من هذه الابيات بين كلا وكلائها وكلا وهو تجنيس حسن وقد جاء بتورية محكمة فى قوله رأى وكلا فانه يتوهم أن يكون رأى من الرؤية وكلا مخفف من كلا بمعنى رقب واحدهما مناسب للآخر لانهما جميعا من فعل العين

وَتَرتمي الفُلْكُ إلى الصَّيْدِ إذا ... ماأزعجوهُ للبحارِ فارْتما

وتَتبارَى السّابحاتُ نحوَهُ ... كالسّابحات حينَ تعْدُوا المَرَطَا

فكَمْ سرَى للشّاطِيءِ البَحْرِ بِنا ... عزْمٌ جلاهمْ النُّفوس وسَرا

الفلك السفينة تقع على الواحد وعلى الجمع وتذكر وتؤنث وأزعجوه الجنوه يريد أن الصيد اذا فر أمامهم فالجئوه الى البحر فارتمى نحوه ارتمت السفن الى البحر لتأخذه هنالك والسابحات أولا السفن من قولهم سبح فى الماء سبحا وسباحة اذا عام والسابحات ثانيا الخيل من قولهم سبح الفرس اذا مد يديه فى الجرى قال امرؤ القيس

مسح(١) اذا ما السابحات على الونا * أثرن غبارا بالكديد المركل

وتعدوا المرطا تسرع العدو يقال مرط يمرط مروطا إذا أسرع والاسم المرطى شبه تسابق الفلك إلى الصيد لأخذه إذا ارتمى فى البحر بتسابق الخيل حين تسرع اليه وسرى الاول من البيت الثالث من سريت أسرى وهو سير الليل وسرى الثانى من سروت إذا كشفت يقال سرى ثوبه إذا كشفه وجلا أيضا كشف والباء فى بنا للتعدية يريد ان العزم سرى بهم وحملهم حتى أتوا شاطئ البحر فانجلى عنهم الهم بنظرهم اليه وبما حصلوا عليه من الخيرات فيه وقد أتى الناظم بالبيت الاول مصدرا وجمع بين السابحات والسابحات وبين سرى وسرى فاحسن التجنيس

وَكَمْ أزَرْنا كلَّ جوْنٍ جَزْنَةَ ... يُحْجي من الصَّيْدِ إلَي مايُجتَنا

يَحْوي حَشاها بَعْدَ حمْلٍ تَارةً ... ونارَةً تَحملُ مِنْ بَعْدِ الخوَا

يَحْمِلُها مَلاّحُها وهِيَ له ... حامِلَةٌ فَتزدَهي وتُزْدَها

متى أرَدْنا القَصْرَ يقْصرُ خطْوَها ... وإنْ أرَدْنا المَدّ مدّ وَمَتا

والجونة السوداء المشربة حمرة وهى أيضا البيضاء وتسمى الشمس الجونة قيل لاسودادها إذا غابت وقد يكون لبياضها وصفائها وهو الاظهر وعرضت على الحجاج درع لجمل لا يرى صفاتها فقال له أنيس الجرمى

---

(١) المسح من الخيل المتتابع فى عدوه كما يسح الماء اه

وكان قصبها إن الشمس لجونة يعني شديدة البريق والصفاء والمراد هنا بالجونة السوداء وانما يصف سفينة مطلية بالقار وقد علتها حمرة الدهان وتحجى تساق يقال حجت الريح السفينة إذا ساقتها والحاء في تحجى مقدمة على الجيم و يجتحي يستأصل وهو مقلوب يجتاح يقال اجتاحهم من الجائحة واجتاحهم أي أهلكهم والجيم في يجتحي مقدمة على الحاء ووقع في بعض النسخ يحتجي بتقديم الحاء على الجيم فان كان ذلك ثابتا فمعناه يستاق ومراده ان هذه السفينة تساق إلى ما يستاق من الصيد و يجتلب بالاصطياد والحيل وأز رنا جعلناها تزور والمراد أنها تساق الى الصيد ليستأصل بالقتل يعني صيد البحر و يخوى حشاها يخلو بطنها يقال خوى خوى إذا خلى بطنه ووصف حال السفن وانها تشحن تارة وتفرغ أخرى والملاح النوتي سمي بذلك لملازمته الماء الملح وقال النابغة

يظل من جوفها الملاح معتصما * بالخيزرانة بعد الاين والنجد

وتزدهي تحمل يقال زهاه وازدهاه إذا حمله ووصف حمل الملاح لها وقوده إياها وحملها هي له إذ هي التي تسير به وتوصله الى حيث شاء من البحر و يقال متوت الحبل وغيره متوا إذا مددته يقول إنهم متى أرادوا أن يكون سيرهم رو يدا قصر من خطوها وان أراد أن يسرعوا امد في السير فاسرع وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول الحسن بن هانئ في سفينة أمر الأمين باقامتها ليركبها في دجلة

بنيت على قدر ولائم بينها * طبقان من قير ومن الواح
فكأنها والماء ينطح صدرها * والخيزرانة في يد الملاح
جون من العقبان يبتدر الدجا * يهوى بصوت واصطفاق جناح

وقال الاعمى التطيلي يصف سفينة

تجرى فللماء ساق عائم درب * وللرياح جناحا طائر حذر
قد قسمتها يد التدبير بينهما * على السواء فلم تسبح ولم تطر

ولابن دراج القسطلي

نعب الغراب بنا فطار بأهلها * سربا على مثل الغراب الناعب
خرق الجناح الى الرياح مظلل * لشمائل لعبت به وجنائب

ولابي عامر محمد بن يحيي بن يبقى في مثل ذلك

وخافقة الحشاذات ارتياع * كأن بها نزاعي او زماع
تخال شراعها والريح تهفو * عليه جوانحي يوم الوداع
كأنا تحت خافقتي عقاب * نسير و بين جانحتي شجاع

ولمهيار الديلمي

من الغادي تحط به وتعلو * نجائب من ازمتها الرياح
فرت كل شائلة زفوف * لها من غيرها اليد والجناح
ململمة لها ظهر مصون * وبطن تحت راكبها مباح
ترى صوت الشمال يسل منها * طرائد لا يكف لها جماح
تراوح رجل سائقها يديه * ولا التعريس منه ولا الرواح

ولابي بحر صفوان بن ادريس رحمه الله يصف ليلة ركب فيها البحر لصيد الحيتان وكان ساكنا او لهائم افرط في الارتجاج آخرها .

وفتيان كما انتقيت لئال * يلوح الدهر منهم في حلاه

الفتهم بليل قد تجلت * بأوجههم وأكؤسهم دجاه
على حبشية بلقاء خاضت * عباب البحر واقتعدت مطاه
كأن شراعها شيب بفودى * نجاشى تثور ذوابتاه
وبحر كالسماء له حباب * لها بكوا كب الافق اشتباه
تبدت فى ذرى الامواج درا * كمثل الزهر تحمله رباه
فطاردنا هنالك الحوت صيدا * بكيد نستبيح به حماه
نربه اننا نقربه برا * فنأكله ولم يأكل قراه
كأن الموج لما ان فرغنا * هنا لك فى تصيدنا ذراه
جبال ذمرد والحوت فيها * سبائك كاللجين لمن يراه
رآنا البحر نرزؤه بنيه * فضعضع من منانا مابناه
وهبت ريحه فينا زفيرا * فكادت تلتظى منه المياه
وكاد يردنا للاصل منا * لان الدر موطنها حشاه
فطرنا والدعاء لنا جناح * وبعد اليأس افلتنا رداه

وللمنصفى يصف زورقا من ابيات لم يحضرنى فى هذا الوقت غير هذا البيت الذى اصاب فيه موقع التشبيه

كأنها مقلة للجوشا خصة * ومن مجاذيفها اهداب اجفان

وهو عكس قول القائل يصف عيناشتراء يجرى منها الدمع ابدا

شترت فقلت أزورق فى لجة * مالت باحدى دفتيه الريح
وكأنما انسانها ملاحها * قدخاف من غرق فظل يصيح

وانما احتذى الناظم فى قوله يحملها ملاحها وهى له حاملة قول مسلم بن الوليد يصف السفينة

كشفت اهاويل الدجا عن سهولة * بجارية محمولة حامل بكر
إذا اقبلت راعت بمقلة قرهب * وان ادبرت راقت بقادمتى نسر
اطلت بمجدا فين يعتورانها * وقومها كبح اللجام من الدبر
كأن الصبا تحكى بها حين واجهت * نسيم الصبا مشى العروس إلى الخدر

أردت البيت الاول وممن وصف السفن فاجاد واحسن ماشاء على بن محمد الايادى حيث يقول فى اسطول المعز

اعجب لاسطول الامام محمد * ولحسنه وزمانه المستغرب
لبست به الامواج احسن منظر * يبدو لعين الناظر المتعجب
من كل مشرفة على ماقابلت * اشراف صدر الاجدل المتنصب
دهماء قد لبست ثياب تصنع * تسبى العقول على ثياب ترهب
من كل ابيض فى الهواء منشر * منها واسحم فى الخليج مغيب
كباءة فى البر يقطع شدها * فى البحر انفاس الرياح الشزب
محفوفة بمجاذف مصفوفة * فى جانبين دوين صلب صلب
كقوادم النسر المرفرف عريت * من كاسيات ريا شه المنهدب
تحتثها ايدى الرجال إذا ونت * بمصعد منهن بعد مصوب
خرقاء تذهب إن يدلم تهدها * فى كل أوب للرياح ومذهب

جوفاء تحمل موكبا فى جوفها * يوم الرهان وتستقل بمركب
ولها جناح يستعار يطيرها * طوع الرياح وراحة المتطرب
يعلو بها حدب العباب مطاره * فى كل لج زاخر مغلولب
تسمو بأجرد فى الهواء متوج * عريان منسرح الذؤابة شوذب
يتنزل الملاح منه ذؤابة * لو رام يركبها القطا لم يركب
وكأنما رام استراقة مقعد * للسمع إلا أنه لم يشهب
وكأنما جن بن داود هم * ركبوا جوانبها بأعنف مركب
سجروا جواحم نارها فتقاذفوا * منها بألسن مارج متلهب
من كل مسجون الحريق إذا انبرى * من سجنه انصلت انصلات الكوكب
عريان يقدمه الدخان كأنه * صبح يكر على ظلام غيهب
ولواحق مثل الاهلة جنح * لحق المطالب فائتات المهرب
يذهبن فيما بينهن لطافة * ويجئن فعل الطائر المتقلب
كنضانض الحيات رحن لواغبا * حتى نقعن ببرد ماء مشرب
شرعوا جوانبها مجاذف اتعبت * شأو الرياح لها ولما تتعب
تنصاع من كثب كما نفر القطا * طورا وتجتمع اجتماع الربرب
والبحر يجمع بينها فكأنه * ليل يقرب عقربا من عقرب
وعلى كواكبها اسود خلافة * تختال فى عدد السلاح المذهب
فكأنما البحر استعار بزيهم * ثوب الجمال من الربيع المعجب

كتبت هذه الابيات كلها هنا على طولها استحسانا لها ويشبه قول المنصفى كأنها مقلة للجو شاخصة البيت قول أبى عبد الله بن الحداد يصف أسطول ابن صمادح وهو حسن جدا

وتراءت لناظر كعيون * دأبها مثل خائفيها سهاد
ذات هدب من المجاديف تحكى * هدب باك لدمعه اسعاد
جم فوقها من البيض نار * كل من أرسلت عليه رماد
ومن الخط فى يدى كل ذمر * الف خطه على البحر صاد

وللقسطلى

وحال الموج دون بنى سبيل * يطير بهم إلى الغول ابن ماء
أعير له جناح من صباح * يرفرف فوق جنح من مساء

ولابى الحسن بن حريق

فكأنما سكن الاراقم جوفها * من عهد نوح خشية الطوفان
فاذا رأينا الماء يطفح نضنضت * من كل خرت حية بلسان

وقد خرجت فى هذا الفصل الى الطول الذى لست بصدده وقد احتوت هذه الابيات ماعدا البيت الاول على انواع من الطباق لاتخفى على من تأملها

نَحَا بِها نَحْوَ الْخَلِيجِ عزمُنَا * ووَخَى أَرْجاءِ الْمُرُوجِ قَدْ وَخا
وأَمَّ أَرْجاءَ الذِّرَاعِ بَعْدَهُ * ثُمَّ انْتَحى مِنَ السَّوَاقِى ماانْتَحا

وَيَمَّمَ الْبُرْجَ الذِي قَدْ شِيدَ فِي ... مُصْطَفَقٍ مِنْ يَمِّهِ وَمُلْتَقَى
تَرْقَى إِلَى الْجَزِيرَةِ الْعُلْيَا التِي ... إِلَى فِرَاخِ الطَّيْرِ مِنْهَا يُرْتَقَى

يقال وخى الامر اذا قصده قال الشاعر

قالت ولم تقصد به ولم تخـه * ما بال شيخ آض من تشيخه

كالكرز المربوط بين افرخه * والوخى مصدر وخى قال الشاعر * فقلت وخيك ابصر اين وخيهم * والوخى الطريق والخليج واد هنالك وانتحى قصد والذراع والسواقى مواضع أيضا والمصطفق موضع اضطراب الماء حيث يلقى بعضه بعضا من قولهم صفقت الريح الاشجار فاصطفقت أى اضطربت ومنه قول الشاعر ويوم كظل الرمح قصر طوله * دم الزق عنا واصطفاق المزاهر

أى حركتها واضطرابها وهذه كلها اماكن هنالك ذكر قصدهم اياها بتلك السفن والمعنى فى الابيات كلها بين والبيت الاخير منها مصدر تصدير احسنا

وَتُوشِكُ الْمَرَّ لاشكمريرة ... اذا أَرَى النَّحْلُ جَنَاهُ وَأَرَى
وَنَرْتَقِي إِلَى اجْتِنَاءِ ثَمَرٍ ... مِنْ شَجَرٍ أَعْجِبْ بِهِ مِنْ مُجْتَنَى
وَنَنْثَنِي إِلَى اجْتِلَاءِ سَمَكٍ ... فِي شِبَاكٍ أَعْجِبْ بِهِ مِنْ مُجْتَلَا
كَأَنَّهَا أَسِنَّةٌ قَدْ نَشِبَتْ ... فِي نَثْرَةٍ زَغْفٍ ثَنَاهَا مَنْ ثَنَا
يُسْمَعُ لِلْحُوتِ بِهَا تَخَشْخُشٌ ... خَشْخَشَةَ الأَكْمَامِ فِي نَخْلٍ خَشَا
يَا شَدَّ مَا اسْتَخْرَجَ كُلُّ صَائِدٍ ... بِالشِّصِّ مَا مِنْهَا اخْتَفَى وَمَا اخْتَفَى

توشك تسرع واشكمريرة موضع بقرطاجنة وأرى النحل جناه أظهر وأرى عمل العسل يقال أرت النحل تأرى أريا وتأرت وائترت إذا عملت العسل والارى أيضا العسل والجنا العسـل أيضا وتماثلت لفظتا أرى وأرى وحكمهما مختلف فأرى الاولى أصلها أرأى لزمها التسهيل ووزنها افعل وهمزتها زائدة وأرى الثانية وزنها فعل وهمزتها أصلية ومراده أنهم يسرعون المرور إلى ذلك الموضع فى ابان ظهور العسل به لاجتنائه والنثرة الدرع السلسة الملمس وقيل هى الواسعة قال ابن جنى ينبغى أن تكون الراء فى النثرة بدلا من اللام لقولهم نثل عليه درعه ولم يقولوا نثرها فاللام اعم تصرفا وهى الاصل وقد نقل بعض أهل اللغة نثر درعه والزغف والزغفة(١) الدرع الواسعة الطويلة شبه السمك فى الشبك باسنة الرماح إذا نشبت فى الدرع الواسعة وقد ثنيت والتخشخش والخشخشة الصوت يقال خشخشت السلاح وغيره فتخشخش وقال علقمة بن عبده

تخشخش ابدان الحديد عليهم * كما خشخشت يبس الحصاد جنوب

والاكمام والكمام والاكمة جمع كم وهو وعاء الطلع ويقال خشت النخلة اذا أحشفت شبه تصويت الحوت بين ايدى الصائدين بصوت الاكمام المحشفة وشدما استخرج معناه التعجب وتقديره شدد على فعل بالضم ثم أدغم

---

(١) فى اختصار المنضد الزغف من الدروع اللينة الواسعة الطويلة من قولهم زغف فى حديثه يزغف زغفا تزيد فيه وكذب

وكل فعل ثلاثى أردت التعجب منه فأنك تحوله الى فعل تقول ضرب زيد اذا اردت التعجب منه وكذلك تقول سمع اذا تعجبت من سمعه وذلك لا ينكسر فى كل فعل على ثلاثة أحرف واذا فعلت ذلك فلك فى الفعل وجهان أحدهما أن تجربه على طريقة غيره من الفعل فتسنده الى كل اسم والوجه الثانى أن تعامله معاملة نعم و بئس فتسنده الى ما تسندهما اليه ومن ذلك قوله تعالى ساء مثلا القوم وقوله كبرت كلمة تخرج من أفواههم ويا حرف تنبيه والشص آلة يصطاد بها السمك وقد تقدم أن اختفى يستعمل على وجهين يستعمل بمعنى اظهر وهو المعروف ومنه قيل للنباش المختفى وقد تقدم التنبيه عليه ويستعمل بمعنى أستتر وان كان الاشهر فى كلام العرب اذا اريد معنى استتر أن يقال استخفى على استفعل فاختفى الاول فى البيت بمعنى استتر والثانى بمعنى اظهر والتقدير شدما استخرج ما استتر منها وشدما اظهر وصف الناظم ما كانوا عليه من التنعم بالنعم وانهم يعمدون الى اجتناء العسل ثم يرتقون الى اقتطاف أنواع الثمرات ثم الى مصائد السمك ووصف حالها فى الشبك وكثرة ما يستخرج منها ومن أحسن ما قيل فى صيد الشبك

قول السرى الرفاء

وجدول بين حديقتين * مطرد مثل حسام القين
كسوته واسعة القطرين * تنظر فى الماء بألف عين
راصدة كل قريب الحين * تبرزه مجنح الجنبين
كمدية مصقولة المتنين * كأنما صيغ من اللجين
رزقا هنيئا بملاء اليدين * بغير كد وبغير أين

وقوله أيضا فى ذلك

ومنزل مختلف السروب * مؤتلف الطراق والشروب
باكره مختفل الشؤبوب * بغدق من وبله صبيب
تكافأت فيه هدايا الطيب * من شمأل الرياح والجنوب
فانشق عن ابيض كالقضيب * جعد كبطن الحية المقلوب
ترى على ساحله الخصيب * كل فتى لرزقه طلوب
غاد بحين السمك المجلوب * كل رداء بالردى مشوب
مثقل يسرع فى الرسوب * صفرا ويطفو وافر النصيب
وابنة قين ماهر نجيب * عقفاء ذات مخبر مريب
كحمة العقرب فى التدريب * فى مثل رأس الصعدة الصليب
ركب أنبوبا على أنبوب * يبرزه مجنح الجنوب
مختلف الأنواع والضروب * كل معراة من العيوب
فى نثرة مزرورة الجيوب * رزق إلى صاحبه حبيب

وقال أيضا فى ذلك

قد اغتدى نشوان من خمر الكرى * أسحب بردى على برد الثرى
والصبح حمل بين أحشاء الدجى * بذات أحداق ترى ما لا يرى
ملاءة ما نسجت لترتدى * تعلو إذا انحطت ببيض كالدمى
لم تدر لما قصرت منها الخطا * أظلها منها رداء أم ردى

وقال فى ذلك

وشاحب اللبسة والأعضاء * أشعث بادى العهد بالرخاء
أغبر يبغى الرزق من غبراء * خفيفة ثقيلة الارجاء
كأنها هلهلت الرداء * كافها لحظ بنات الماء
بأعين لم توت من اغضاء * كثيرة ترى على الاحصاء
فأقبلت تملأ عين الرائى * بكل صافى المتن والاحشاء
* والصبح حل فى حشا الظلماء *

وقال أيضا فى ذلك

وطيب النشر عبق * بريق الماء شرق
يشقه ذو رعدة * مثل حشى الصب الغلق
ينسل بين وشيه * مثل الحسام المؤتلق
يبعث فيه جسدا * أعضاؤه طرا حدق
تريك درعا خلقت * لجوشن الماء طبق
اذا نجا من غرق * رد فعاد فى غرق
أخذ ماعن له * وضامن ما قد أبق

وقد تفنن السرى فى هذه القطع كلها تفننا عجيبا وأعاد فيها معنى قوله ينظر فى الماء بألف عين بأنواع من العبارات مختلفة الأساليب وقد أنشدنى بعض أصحابنا من أهل فاس المحروسة بالله وهو الأديب البارع أبو الحسن الشكيك لنفسه مما يكتب فى ملوطة

يالابسى لالقيت بوسا * ولا عليك اعتدت عداك
حتى ترى للعدو عنى * تنشد إن راغ عن فناك
جوارحى كلها عيون * لحيث وجهتها تراك

و يشبه قول السرى ينظر فى الماء بألف عين قول بعضهم

إنى لأحسد فيه المشط والنشفه * لذاك فاضت دموع العين مختلفه
هذا يعلق فى صدغيه أنمله * وذا يقبل رجليه بألف شفه

وجانس بين أرى وأرى ومجتلى ومجتنى واختفى واختنى وجاء فى البيت الثانى والثالث بنوع من الترصيع حسن ووازن بين ألفاظهما

حَتى إذَا قالَتْ لَنا شَمْسُ الضُّحَى * قِيلُوا فَقِلْنَا بَيْنَ عَيْنٍ وَجبَا
مَوَارِدٌ كأَنَّهَا ذَوْبُ النُّهَا * عَلى حَصًى كَقِطَعٍ مِنَ المَهَا
يَلْعبُ فِيهَا بالحِجا طَافِى الحِجَا * فَهْوَ حَقِيقٌ بِالمَسَرَّاتِ حَجَا

يقال قال القوم قيلا وقائلة وقيلولة ومقالا ومقيلا الاخيرة عن سيبويه وتقيلوا ناموا فى القائلة وأراد بالعين عين الماء والجبا أراد به ماحول العين من قولهم جبا البير لما حولها يريد انهم ناموا بين العين وجباها على تلك الموارد حين اشتد حر الشمس وجعل ما كان من اشتداد حرها عليهم بمنزلة القول منها لهم والامر بأن يقيلوا وذلك تمثيل والمها

جمع مهماة وهى البلورة وقيل هى الدرة شبه ماءها فى صفائه و بياضه بذوب البلور وحصاه فى بياضه وحسنه بقطع البلور و يشبه قول السرى الرفاء من أبيات كتبها الى صديق له مع ماء و رد فارسى فى قارورة بيضاء أهداهما اليه

بعثت بها بيضاء حالية النحر * مشهرة الجلباب حورية النجر
مضمنة ماء صفا مثل صفوها * فجاءت كذوب الدر فى جامد الدر

والحجا بالكسر العقل والحجا بالفتح جمع حجاة وهى نفاخة الماء من قطر وغيره وهو الحباب وتقول هو حجا بكذا أى خليق به وحج وحجى فمن قال حج وحجى ثنى وجمع وانث ومن قال حجا لم يثن ولم يجمع ولا أنث لانه مصدر فى الاصل والطافى ماعلا فوق الماء يقال طفا الشئ يطفو طفوا وطفوّا وصف حباب الماء وانه لحسن منظره يلعب بالعقول وهو لبهائه وحسنه حقيق بادخال المسرة على من ابصره ولا اخفاء بما اشتملت عليه الابيات من الفاظ التجنيس ثم التصدير الواقع فى البيت الثانى والترصيع المشتمل عليه البيت الاخير

حَتى إذَا مَا ارْتَدّ عَنْهَا عَزْمُنَا ... لِلأَوْبِ بَعْدَ كلِّ غُنْمٍ وَانْثَنَا
طَارَتْ بنَا فَتْخَاءُ لِلَّوْحِ انْتَمَتْ ... وَلَيْسَ فِى اللُّوحِ لَهَا مِنْ مُنْتَمَا
لَهَا جَنَاحٌ مِنْ شِرَاعٍ خَافِقٌ ... تَطِيرُ فِى المَاءِ بِهِ لاَ فِى المَلاَ
صَبَتْ إلى امتِطَائِهَا أنْفسُنَا ... إذْ شَعَرَتْ أنّ النّسِيمَ قَدْ صَبَا
مَدّتْ لِلَثْمِ المَاءِ إذْ لاَنَ لَهَا ... مِنَ المَجَاذِيفِ لِسَانًا قَدْ جَسَا

الأوب الرجوع وارتد رجع والفتخاء اللينة الجناح من العقبان واللوح كل صفيحة عريضة من صفائح الخشب وهو بفتح اللام واللوح بضم اللام الهواء قال اللحيانى هو اللوح واللوح قال صاحب المحكم لم يحك فيه الفتح غيره وانتمت انتسبت والشراع قلاع السفينة والملا الصحراء وصبت مالت وصبا النسيم هب من مهب الصبا و يقال جسا الشئ جسوا وجسوّا اذا صلب وصف الناظم السفينة التى ركبوا فيها حين انثنى عزمهم الى الأوب عن المعاهد التى كانوا بها وجعلها فتخاء تشبيها لها بالعقاب ثم ذكر أنها تخالف العقاب فى أنها ليست مما ينسب الى الطيران فى اللوح وانما تنتمى الى اللوح الذى أنشئت منه وأن الشراع جناحها الذى يطيرها فى الماء لا فى الفضاء الذى شأن العقاب ان تطير فيه ثم ذكر حنين انفسهم الى ركوبها حين هبت لهم ريح الصبا بما يشتهون واستعار لها من المجاذيف لسانا وصفه بالصلابة تحقيقا للحال ووصف الماء باللين ليطابق به جسا وانما احتذى فى تشبيهها وتشبيه الشراع بالجناح حذو الحسن بن هانى فى الأبيات التى أنشدناها قبل وقد اشتمل الثانى من هذه الأبيات على تجنيس وتصدير والرابع على تجنيس والخامس على الطباق الذى نبهنا عليه

مَرّتْ عَلَى النّفّاخِ وَالرِّيحُ بِهَا ... مَا نَفَخَتْ وَالبَحْرُ رَهْوٌ مَا جَفَا
وَسَامَتَتْ رَابِطَةَ الشّعْبِ وَقَدْ ... حَدَا بِهَا حَادِى النّسِيمِ وَحَبَا
وَجَاوَزَ الصّهْرِيجَ وَالجَوْنَ بِنَا ... جَوْنُ الشِّرَاعِ سَابِحٌ جَوْنَ القَرَا

النفاخ موضع على البحر هنالك ونفخت هبت بشدة قال الشاعر * كأنما نفخت فيه الأعاصير * والرهو الساكن و به فسر قتادة و مجاهد قوله تعالى واترك البحر رهوا وجفا أى ماج حتى رمى بالز بدوهو مهموز

تقول منه جفا الوادى يجفا جفأ والجفاء مايرى به قال تعالى (فأما الزبد فيذهب جفاء) وأبدل الناظم الهمزة ألفا لأجل الروى ويسوغ أن يكون غير مهموز من الجفاء ويكون المعنى أن البحر اذا اضطربت أمواجه براكبه كان فعله بهم فعل أهل الجفاء وهو نقيض الرفق وقد يكون من جفا يجفو اذا نبا ولم يلزم مكانه ومنه قولهم جفا جنبه عن الفراش وتجافى قال الله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ولما كان هذا البحر اذا اضطربت أمواجه كثرت فيه الحركة عبر عن فعله بالجفاء بهذا المعنى يريد أنهم مرواعلى ذلك الموضع والبحر ساكن والريح لينة وسامت قابلت ووازت فى طريقها مأخوذ من السمت وهو الطريق ورابطة الشعب موضع على البحر أيضا ويقال حجت الريح السفينة ساقتها وقد تقدم والصهريج والجون موضعان وجون الشراع أبيض الشراع وسابح عائم وجون القرا أسود القرا والقرا الظهر وقد تقدم أن الجون من الأضداد وصف شراع هذا الجفن بالبياض وظهره بالسواد لأجل القار وقد انشدت قبل هذا لابن دراج

أعيرله جناح من صباح * يرفرف فوق جنح من مساء

وجانس بين نفخت والنفاخ وبين الجون والجون والجون وطابق بين الجون والجون

حَاذَى بِنَا قُبَيْبَةَ بْنَ طَاهِرٍ يَفْرِى أَدِيمَ المَاءِ فَرْيًا مَنْ حَذَا

وانصَاعَ عَنْ دَارِ الأُسُودِ مِثْلَمَا يَنْصَاعُ سِرْبُ الوَحْشِ مِنْ أُسْدِ الشَّرَا

وَصَفَّ قِبْلِيَّ المُصَلَّى لَمْ يَقِفْ فِيهِ وَلاَ صَلَّى بِهِ وَلاَ تَلاَ

بَلْ جَاءَ سَبَّاقًا لِكُلِّ سَابِحٍ حَتَّى أَتَى الرَّمْلَةَ فِيمَا قَدْ أَتَى

يُلْقِي عَلَيْهِ فِلَقَ الدُّرِّ اذَا شَقَّ أَدِيمَ المَاءِ شَقًّا وَسَآى

حاذى وازى وقبيبة بن طاهر موضع هنالك ويفرى يشق وقد تقدم تفسيره والأديم الجلد واستعاره لوجه الماء ويقال حذا النعل حذوا وحذاء قدرها وقطعها شبه شقه الماء بشق الحاذى للجلد اذا حذا النعل وقد قال طرفة

يشق حباب الماء حيزومها بها * كاقسم الترب المفائل باليد

وانصاع ذهب سريعا ودار الأسود موضع هنالك والسرب القطيع من النساء أو الطير أو الظباء أو البقر أو الحمر أو الشاء والشرى موضع تنسب اليه الأسود شبه سرعة ذهابه عن ذلك الموضع بسرعة ذهاب السرب من الوحش اذا فر من الأسد وذكره أسد الشرى فى آخر البيت مع دار الأسود فى صدره من باب ائتلاف اللفظ باللفظ وصف قبلى المصلى موضع بقرية من قرى طاجنة وصلى أى جاء ثانيا للسابق من المصلى فى الحلبة وتلا أى جاء تاليا يريد أنه تقدم جميع السفن وقد أوضح المعنى بقوله بل جاء سباقا والسابح يريد به هنا الفلك أى لكل فلك عائم وساآى شق من قولهم سأيت الثوب شققته شبه بفلق الدر الحباب الذى يحدث عن شقه الماء وقد أحكم التورية فى البيت الثالث لجمع فيه بين ذكر الصف والقبلى والمصلى ويقف وصلى وتلا فأوهم أنه يريد الصلاة وقيامها والتلاوة وكذلك جاء بالسباق والسابح على جهة التورية أيضا والبيت الاخير حذا فيه حذو طرفة فى البيت الذى أنشدناه قبل وتشبيه الحباب بفلق الدر مأخوذ من قول ابن الرومى

لما صريح كأنه ذهب * ورغوة كاللآلئ الفلق

ثُمَّ تَنَادَيْنَا بِقَصْدِ مَنْزِلٍ جَمَعْنَا فِيهِ السُّرُورُ وَنَدَا

وَوَاجَهَتْ أَحْداقُنا حَدائِقًا ... قَدْ أَحْدَقَتْ بِها سَواقٍ وَأَضَا

وَغابَتِ الْجَوْنَةُ حَتَّى لَمْ يَلُحْ ... لِلْعَيْنِ مِنْ حاجِبِها إِلاَّ شَفَا

وَأَمْسَتِ الأَعْيُنُ مُقْتَبِسًا ... مِنْ قَبَسٍ نُورًا عَلَيْهِ يُهْتَدَى

تنادينا نادى بعضنا بعضاوندا جمع يقال ندوت القوم أى جمعتهم فى الندى قال الشاعر

ومايندوهم النادى ولكن * لكل ثلة منهم فيام (١)

أى مايسعهم المجلس من كثرتهم والحدائق جمع حديقة وهى أرض ذات شجر وهى أيضا كل روضة قد أحدق بها حاجز واحدقت أى أحاطت والأضا جمع أضاة وهى غدير صغير ويجمع أيضا على أضوات واضين والجونة هنا الشمس وحاجب الشمس ناحية منها قال

تراءت لنا كالشمس تحت غمامة * بدا حاجب منها وضنت بحاجب

والشفا هنا معناه القليل يقال مابقى من الشمس والقمر الاشفا أى قليل وذكر الحاجب مع العين على طريق التورية وهو من باب ائتلاف اللفظ مع اللفظ كما قد مناوقبس جمع قابس وقبس موضع هنالك ويهتدى اما ان يكون أراد يهتدى به ثم حذف الباء واوصل الفعل بنفسه وقد أنشد ابن الأعرابى على ذلك

ان مضى العام ولم آتكم * بعناج يهتدى أحوى طمر

أى بأحوى طمر ثم حذف الحرف وقد يكون يهتدى معناه يلتمس منه الهداية كما يكون استخرجته بمعنى طلبت منه أن يخرج وقد أول البيت الذى أنشد ابن الأعرابى بذلك وقد يكون المراد يهتدى اليه ووصل الفعل بنفسه ألا ترى انك تقول هديته الطريق وهديته الى الطريق وكذلك لا يمتنع ان تقول اهتديت الطريق واهتديت الى الطريق وجمع فى البيت الأول بين تنادينا وندا وفى الثانى بين الاحداق والحدائق واحدقت وفى الرابع بين قبس وقبس وكلها ألفاظ تجنيس

وَرُفِعَتْ نارٌ لَنا زَهْراءُ قَدْ ... قادَ إِلَيْها المُعْتَفِي طِيبُ القُدَا

وَكُلُّ طاهٍ مُشْتَوٍ قالَ أَتَى ... بِما طَهَى وَما اشْتَوَوْا وَما قَلاَ

وَأُتْرِعَتْ لِلشّارِبِينَ أَكْؤُسٌ ... مِمّا حَلاَ مَطْعَمُهُ وَما حَذَا

يقال قدا اللحم والطعام يقدو قدوا وقدا يقدى قديا وقدى بالكسر يقدى قدا كله بمعنى واحد إذا شممت له رائحة طيبة ويقال شممت قداة القدر فهى قدية على فعلة أى طيبة الريح وما أقدى طعام فلان أى ما اطيب طعمه ورائحته يريد ان المطابخ التى لديها يهتدى الطالب اليها بطيب روائحها وقد تقدم تفسير الطاهى ومن أحسن ماقيل فى وصف النار والقدر قول السرى

ودهماء تهدر هدر الفنيق * إذا ما امتطت لهبا مسعرا
تجيش بأوصال وحشية * رعت زهرات الربى أشهرا
كأن على النار زنجية * تفرج بردا لها أصفرا

ثم وصف الجمر فأحسن

---

(١) (أى جماعة)

وذو أربع لايطيق النهو * ض ولا يألف السير فيمن سرى
نحمله سبجا أسودا * فيجعله ذهبا أحمرا

ويقال حوض ترع بالتحريك وكوز ترع أى ممتلئ وقد ترع الاناء بالكسر يترع ترعا أى امتلأ واترعته انا
ويقال حذا الخل فاه يحذيه حذيا إذا قرصه يقال شراب يحذى اللسان يريد أنهم أحضر لهم أنواع المشروبات
المختلفة الطعوم وياء المعتفى كان الوجه فيها الفتح لأنه منصوب لكن أسكنها الاجل الوزن كما قال النابغة

ردت عليه أقاصيه ولبده * ضرب الوليدة بالمسحاة فى الثأد(١)

ومثل هذا وان كان من ضرائر الشعر فقد عد من الضرائر المستسهلة التى لا ينكر على المولد ارتكابها ومثله
صرف مالا ينصرف وقصر الممدود ولا يبعد أن يكون الناظم أراد المعتفين وحذف النون للطول كما قال الشاعر
أنشده سيبويه

الحافظو عورة العشيرة لا * يأتيهم من ورائنا وكف(٢)

فنصب عورة على ان لقائل ان يقول ان حذف النون فى مثل هذا لم يجئ الا مع طول الصلة بالمفعول كما وقع
فى البيت الذى أنشدته آنفا والظاهر من اطلاق النحاة ان ذلك غير معتبر فتأمله وقد جانس فى البيت الاول بين
قاد والقدا وعادل فى البيت الثانى بين الفاظ عجزه وصدره مع التصدير الحسن والترديد الذى اشتمل عليهما وطابق
فى الثالث بين حلا وحذا كما جانس بينهما

فَاجْتَمَعَ الأُنْسُ بِجَمْعٍ فِتْيَةٍ عَلَى عَجُوزٍ وَاسْمُهَا وَاسْمُ الفَتَى
حَارَبَتِ الأَشْجَانَ عَنْهُمْ وَعَتَتْ مِنْ طَارِقِ الهَمِّ عَلَى مَا قَدْ عَتَا
فَلَمْ تَدَعْ هَمًّا عَتَا حَتَّى اقْتَدَتْ كَادَتْ تُشِيبُ كُلُّ هَمٍّ قَدْ عَتَا

العجوز الخمر سميت بذلك لعتقها والوسم العلامة وعتا يعتو عتوا وعتيا استكبر وجاوز الحد وأراد بعتت هنا
غلبت واستطالت وطارق الهم ما يعترى منه وأصله قولهم أتى فلان طروقا اذا أتى بليل وقد طرق يطرق فهو طارق
وانما استعمل هنا لان المهموم يتزايد عليه همه بالليل والهم بالكسر الشيخ الفانى والمرأة همة ويقال عتا الشيخ يعتو
عتيا وعتيا كبر وولى وصف اجتماع القوم على الخمر وهى العجوز وقوله واسمها واسم الفتى أى عليها علامة الفتى
وسمته يعنى اشراقها وحسن مرآها وقد يكون الفتى هنا مرادا به الشباب كما لو قال سمتها سمة الشباب وهو أبين وقد
يريد فتاء السن وقصره كانه قال سمتها سمة الشباب ثم جعلها محاربة للاشجان وغالبة على الهموم اذ كانت تطرد
الهموم عن شرابها حتى تكاد تعيد الشيخ الفانى شابا لما تدخل عليه من السرور وأنواع النشاط والفرح وقد قال
ابن الرومى فيما يشير الى معنى البيت الاول

من عذيرى من أضعف الناس ركنا * وبعينيه صولة الحجاج
شاذن يرتعى القلوب ببغدا * د ولا يرتعى الكلا بالنباج
ولئن قلت شاذن ان قلبى * لأسير بغادة مغناج
يومها للنديم يوم سرور * والتذاذ وحبوة وابتهاج
أقبلت والربيع يختال فى الرو * ض وفى المزن ذى الحيا الثجاج

---

(١) الثأد الندى ومكان ثئد ند اه (٢) الوكف محركة الميل والجور والعيب والاثم وكف كوجل اه

ذو سماء كأدكن الخذ فدغيـ * مت وأرض كأخضر الديباج
فظللت فى نزهتين وفى حسـ * سنين بين الارمال والاهزاج
بفتـاة تسرنا فى المثانى * وعجوز تسرنا فى الزجاج
أخذت من رؤوس قوم كرام * ثأرها عند أرجـل الاعلاج

أردت البيت الذى قبل البيت الاخير وقـد طابق بين فتية وعجوز وأتى فى البيت الثانى بتصدير حسن من عنت وعناو جانس فى الثالث بين هم وهم وعناو عنا

غَنِيتُ عَنهَا بِكُؤُسِ أدَبٍ تُسقِي فيُستَشفَى بِها ويُشتَفي
وَآثَرَتْ نَفسِي عَلَيهَا شَرْبَةً مِنْ ضَرَبٍ يُجْنَى وَرِسلٍ يُمترَا
فَسِيقَ مِنهُ ذَائِبٌ وجامِدٌ وَسِيقَ مالَمْ يأْدِ مِنهُ وأدَا

يستشفى يلتمس الشـفاء ويشتفى ينال الشفاء يقال استشفيت اذا طلبت الشفاء واشتفيت اذا نلتـه والضرب العسـل الابيض الغليظ يذكر و يؤنث واستضرب العسل صار ضربا والرسل اللبن وقد تقـدم تفسيره و يمترى يستدر و يقال أدى اللبن يأدى أديا إذا اختر و يثلث ليروب ولما كانت مذاكرة الأدب والمحاضرة بطرائف الاخبار مما يزيل الهموم و يورث السرو ر كما تفعل معاطاة الـكئوس استعار للادب كؤوسا جعلها يستشفى بها و يشتفى ثم ذكر أنه آثر على شرب الخمر شربة من لبن وعسل يصف نفسه بالتقوى والعفاف و يشير الى ان الخمر انما آثر شربها من آثره واقترف الاثم فيها من يقترفه لما اختصت به من ادخال السرو ر ونفى الهم و بسط الانس فاذا كان ذلك حاصلا فيما يتعاطى من غرائب الآداب وعجاذبة الاخبار وطرف الاشعار كان شرب غـيرها من اللبن والضرب أولى و يشـبه قوله وآثرت نفسى عليها شربة قول بعض القرشيين وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولاه بعض اعماله فبلغه أنه قال

اسقنى شربة الذ عليها * واسق بالله مثلها ابن هشام

فعزله واقدمه عليه فلما دخل عليه قال له أنت القائل اسقنى شربة الذ عليها البيت قال نعم يا أمير المؤمنين

عسـلا باردا وماء سحاب * اننى لا احب شرب المدام

قال آلله الذى لا إله إلا هو قال آلله قال ارجع إلى عملك وقوله فسيق له منها ذائب وجامد راجع الى الضرب وقوله وسيق مالم يأدمنه وأدى راجع الى الرسل وعادل بين أول الـكلام وآخره كما طابق بين ذائب وجامد و بين لم يأدوادى وتقدير الـكلام وسيق مالم يأدمنه وما ادى لحذف الموصول كما قال الشاعر

لـكم مسجد الله المزوران والحصا * لـكم قبضـه من بين أثرى واقترا

أى من بين من أثرى ومن اقتر ولا يبعدان يكون قوله لم يأدوأدى كل ذلك من صلة ما و يكون الموصول شاملا لهما وقد قال ذلك بعضهم فى قول حسان

فمن يهجوا رسول الله منكم * و يمدحه و ينصره سـواء

وعلى هذا المأخذ لا يحتاج الى ادعاء حذف الموصول

فَكَمْ لَنَا مِنْ غَدْوَةٍ لِعُسُلٍ رُضابُها أحلَى رضابٍ يُجتَنَى
لَمْ يَنفَرِقْ لنَا عَنِ الصُّبْحِ دُجًى حتى فرَقنا بَينَ صُبْحٍ وَدُجا

جِسْمٌ مِنَ الأَنْوَارِ قَدْ أَوْهَمَنَا ... أَنَّ مِنَ الأَنْوَارِ جِسْماً يُغْتَذَا

وَرَوْحَةٍ إِلى مُرَاحٍ حَفَلٍ ... زَكَتْ بِرَعْيِ كُلِّ نَبْتٍ قَدْ زَكَا

قَدْ عَلَّقَتْ مِنْ كُلِّ قُرْبٍ قِرْبَةً ... وَمِنْ كِلَا الحَقْوَيْنِ قَدْ أَدْلَتْ دَلَا

العسال أراد بها النحل التى تعمل العسل ورضاب النحل ريقها وهو العسل والصبح والدجى معروفان وقوله فرقنا بين صبح ودجى الدجى النحل واحدتها دجية حكاه المطرز فى الياقوت ويسمون النحلة أيضا ام دجية كأنهم كنوها بذلك لانها تكون اما لاخرى مثلها وعبر عن العسل بالصبح تشبيها له به لبياضه واشراقه والأظهران يكون صبح فى قوله حتى فرقنا بين صبح ودجى جمع صبوح فيكون مخففا من صبح بضم الباء والتخفيف فيما كان على فعل قياس مطرد وفعول يجمع على فعل قالوا عمود وعمد وزبور وزبر وقدوم وقدم وكذلك جمعوه أيضا اذا كان صفة نحو صبور وصبر والصبوح اسم لما يشرب بالصباح من لبن أو عسل أو خمر أو غير ذلك فيكون معنى البيت على هذا انهم عمدوا عند الصباح الى خلايا العسل فلم ينشق الظلام عن الصبح حتى استخرجوا صبوحهم من العسل وخلصوه من النحل وكملت له التورية والتجنيس بذكر الدجى والصبح فتامل هذا الوجه الثانى فأنه حسن غريب وان كان الوجه الأول يقويه البيت الذى بعد هذا وقوله جسم من الأنوار يريد العسل والأنوار جمع نور وانما جعله من النور لأن النحل رعته فكان العسل عن رعيها اياه كما قال الله تعالى ثم كلى من كل الثمرات الى قوله يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه وأما قوله أوهمنا أن من الأنوار جسما يغتذى فالأنوار هنا جمع نور والمعنى أنهم توهموا حين رأوا الضرب وعاينوا بياضه واشراقه أنه نور تجسم فصار يغتذى والمراح بالضم حيث تأوى الأبل والغنم بالليل والحفل جمع حافل وهى الممتلئة الضرع وزكت نمت وصارت ناعمة وفى خصب من قولهم زكا الرجل اذا تنعم وكان فى خصب وقوله كل نبت قد زكا أى نما قالوا زكا الزرع يزكو زكاء والقرب والقرب من الشاكلة الى مراق البطن مثل عسر وعسر والشاكلة الخاصرة والقربة قربة الماء معروفة والحقوان الخصران والدلا بالفتح جمع دلاة وهى الدلو وادلت أرسلت وقال تعالى فأدلى دلوه يريد أن ضروعها ملأى باللبن وشبهها لامتلائها بالقرب والدلا ومراده أنهم كانوا يغدون أول النهار لاجتناء العسل ويروحون آخره لأحتلاب اللبن وقد جانس بين الأنوار والأنوار وبين قرب وقربة وبين دجى ودجى وصبح وصبح على المأخذ الثانى وجاء بالترديد فى البيت الثانى وبالتصدير فى الرابع

وَكَمْ تَنَعَّمْتُ بِرَوْضٍ مُجْتَنَى ... أَزْهَارُهُ مِنْ لَفْظِ خِلٍّ مُجْتَبَا

إِنْ طَاوَلَ الأَقْوَامَ فِى شَأْوِ النُّهَى ... طَاوَلَهُمْ بَاعاً وَإِنْ حَاجَى حَجَا

مَتَى تَقِسْ مُبَرِّزاً مِنْ غَيْرِهِمْ ... بِهِمْ تَجِدْهُ دُونَ مَنْ مِنْهُمْ شَدَا

مِنْ كُلِّ خِرْقٍ مُنْصِفٍ مُتَّصِفٍ ... بِالعَدْلِ مَا مَارَ امْرَأً وَلَا مَرَا

أراد بالروض روض الأدب وازهاره بدائعه والنه أو الطلق وطاولهم معناه كان اطول باعا منهم والمراد أنه سبقهم وطال هنا وزنه فعل بفتح العين وهو متعد ومعناه الغلبة وكل فعل اردت به معنى الغلبة فانك تصوغه على فعل يفعل بفتح العين فى الماضى وضمها فى المضارع وهو أمر مطرد تقول ضاربته فضربته اضربه بضم الراء فى المضارع لا تريد انك أوقعت الضرب به وانما تريد انك غلبته فى الضرب وظهرت عليه فيه وكذلك

سامعتة فسمعته اسمعه بفتح الميم فى الماضى وضمها فى المضارع وظارفته فظرفته اظرفه أى ظهرت عليه فى الظرف فان اردت ان الظرف وقع منك قلت ظرفت بضم الراء ولا يتعدى وكذلك طال اذا اردت به معنى امتد وهو مقابل عرض فتقديره فعل بضم العين ولا يتعدى وتقول حاجيت فلانا أى فاطنته فحجوته أى كنت افطن منه وهو من باب الغلبة التى ذكرناو منه الحجا لانه العقل والفطنة يصف هذا الخل الذى ذكره برجحان العقل ونفوذ الفهم وانه يفوق الاقوام فطنة وذكاء وتقول برز الرجل فى الشئ اذا فاق فيه و برز الفرس سبق وتقول فلان يشدو شيئا من الأدب وغيره فهو شادای يأخذ طرفا منه يقول ان الشادى المبتدأ منهم فوق المبرز من غيرهم والخرق بالكسر السخى الكريم ومارى جادل تقول ماريت الرجل اماريه مراء اذا جادلته ومرى جحد الحق يقال مراه حقه أى جحده وقرىء افقرونه على مارى وصفه بالكرم والانصاف والعدل وعدم المماراة وجانس فى الاول من هذه الابيات بين تجتنى و يجتبى وفى الأخير بين منصف ومتصف ومارى ومرى وطابق فى الثالث بين مبرز ومن شدا

لَيْسَ يُصِيبُ كَاشِحٌ فِى عِرْضِهِ وقَوْلِهِ مِنْ لَحْنٍ وَلاَ لَخَا

صَانَ اللِّسَانَ عَنْ سِوَى الْحَقِّ فَلَمْ يَفُهْ بِقَوْلٍ بَاطِلٍ وَلاَ لَغَا

فَما هَذَى مِفصَلُهُ وَلاَ نَبَا مِقْصَلُهُ عِنْدَ الضِّرَابِ بَلْ هَذَى

كَمْ ضُرِبَتْ عَلَى الطَّرِيقِ قُبَبٌ لَهُ وَكَمْ نَادَى الضُّيُوفَ وَنَدَا

اللخا كثرة الكلام فى الباطل تقول رجل الخى وامرأة لخواء وقد لخى بالكسر لخى واللخن النتن وقبح الريح يصفه بصدق اللسان وسلامة العرض وذكر اللخن تمثيلا لقبح العرض و يقال لغا يلغو لغوا اذا قال باطلا و يقال هذى فى منطقه يهذى و يهذو هذوا وهذيانا اذا تكلم بكلام غير معقول و يقال هذأه بالسيف وغيره يهذاه هذأ قطعه قطعا وحيا اسرع من الهذوهو مهموز وحكى الجوهرى هذوت بالسيف فى معنى هذذت أى قطعت قطعا اسريعا وعلى هذا الأخير اعتمد الناظم ان قلنا إنه لم يبدل الهمزة الفا والمفصل بالكسر اللسان وهو بالفاء والمقصل بالقاف من صفات السيف يقال سيف مقصل وقصال أى قطاع يريد انه اذا نطق نطق بالصواب واذا ضرب مضى سيفه على الضريبة غير ناب وجاء بذكر السيف والضراب وعدم النبو تمثيلا وانما اراد اصابة المفصل فى الكلام وظهور الحجة ولا يبعد ان يكون الكلام على حقيقته و يريد وصفه بالمضاء فى الحرب وقهر الاعداء والقبب جمع قبة و يجمع على قبب وقباب وندا جاد يقال ندوت اى جدت وقالوا فلان سن للناس الندى فندوا ولذلك قال ابو نواس

سن للناس الندا فندوا * فكأن البخل لم يكن

وصفه بالكرم لان عادة الاجواد ان يجعلوا منازلهم على الطرق لينالها الضيوف وهو من الاوصاف الاردافية وقوله نادى الضيوف قد يكون النداء حقيقة أى انه يدعو الضيوف الى نفسه و يعرض عليهم جدواه وقد يكون مراده ان قبابه المضروبة على الطريق ونيرانه التى توقد على الاعالى اذا رآها الطارق علم انها انما اريد بها الضيوف فكان ذلك بمنزلة الدعاء لهم والنداء وقد قال الشاعر

ضربوا بمدرجة الطريق قبابهم * يتقارعون بها على الضيفان

وقد جانس بين اللخن واللخا والمفصل والمقصل وهذى وهذى وندى وندى وعادل فى البيت الاول بين أول الكلام وآخره

نُسقَى كؤُسَ الانْسِ فى حَدَائِقٍ ... بأَكْؤُسِ الاحْدَاقِ فِيهَا يُنْتَشَا

قَدِ ارْتَدَى البَنَفْسجُ النَّضرُ بِها ... مِنْ زُرْقةِ الجَوِّ الصَّرِيحِ ماارْتَدَا

ومَلأ السَّوْسَنُ بالتِّبرِيدَا ... وفتَّحَ الأَنْمُلَ مِنْ فَرْطِ السَّخَا

ومَنَحَ الوَرْدُ النَّسِيمَ عَرْفَهُ ... مَنْحَ الجَوَادِ عِرفَهُ مَن اجْتَدا

ولمْ يَجِدْ كَجُودِه شَقِيقُهُ ... فاظْهَرَ الخَجْلَةَ مِنهُ واستَحا

الحدائق قد تقدم تفسيرها واستعار للانس كؤوسا والجامع بينهما الذى حسنت لاجله الاستعارة هو ازالة الهموم واحداث السرور ثم وصف الحدائق بأنها ينتشى فيها بأكؤس الاحداق ومراده ان الرياض لما تحتوى عليه من الانوار وبديع الازهار وحسن المنظر كلما شاهدها الانسان أحدثت عنده من السرور والابتهاج مايحدث للنشوان ولما كان ذلك انما يحدث بواسطة العين كما ان مايحدث عن السكر انما هو بواسطة الكؤوس استعار للاحداق أكؤسا وقد يريد بالاحداق احداق الحسان واستعارها الاكؤس لما يحدث عنها من سكر الهوى والاول أبين وهو الذى يقتضيه مساق الكلام والجو ما بين السماء والارض وقد تقدم تفسيره وأراد به هنا مايلى السماء لان ذلك هو الذى يتصف بالزرقة ويعنى بالصريح الذى خلصت زرقته ولم يستحل بالغيم الى غيرها من الالوان والانمل رؤوس الاصابع والسخاء الجود شبه ما ابيض من نور السوسن بالانامل فى الشكل واللون وداخله بالتبر لاصفراره وقد أحسن كل الاحسان وتمم المعنى بقوله وفتح الانمل من فرط السخا ويقال منح اذا أعطى والعرف بالفتح الريح والعرف بالضم المعروف وقد تقدم تفسير اجتدى ولما كان النسيم يستفيد الطيب من ريح الورد جعل الورد كالمتفضل عليه بذلك وشبهه بالجواد الذى يمنح عرفه الطلاب والخجل التحير والدهش من الاستحياء وشقيقه أراد شقيق النعمان وأضافه الى الورد لان الحدائق تجمعه واياه والاضافة تكون بأقل مناسبة وأدنى جامع وقد يكون المراد بشقيقه أخاه وجعله شقيقا للورد لشبهه به فى اللون لان الشقيق صالح أن يطلق عليه ورد لغة اذ الورد هو الاحمر وبالجملة فهذه اللفظة صالحة للمعنيين وانما مراد الناظم ان الشقيق ليس له عرف يطيب به النسيم كما للورد فقصر عن صنيع الورد فكأن احمراره انما هو من الحياء والخجل الذى ظهر عليه لذلك ولبعضهم

كأن الشقائق والاقحوا * ن خدود تقبلهن الثغور
فهاتيك أخجلهن الحيا * ء وهاتيك أضحكهن السرور

ولابى بكر بن القوطية يصف الورد والسوسن الاندلسى

قم فاسقنيها على الورد الذى فغما * وباكر السوسن الغض الذى نجما
كأنما ارتضعا خلفى سمائهما * فأرضعت لبنا هذا وذاك دما
جسمان قد كفر الكافور ذاك وقد * عق العقيق احمرارا ذا وما ظلما
كأن ذا طلية نصت لمعترض * وذاك خد غداة البين قد لطما
أولا فذاك أنابيب اللجين وذا * جمر الغضا حركته الريح فاضطرما

وأَظْهَرَ الخِيرِيُّ صِدْقَ نِسبَةٍ ... لَمَّا انْتَمَى لِلخَيرِ فِيهَا واعْتَزَا

وصَرَّحَ النَّمَّامُ عَمَّا نَمَّ مِنْ ... أسرَارِهِ تَحْتَ الدُّجا وَما كَنَّا

وحدَّقَ النَّرْجِسُ فِيهِ حَدَقاً ... فَرَاقَ مِنْهَا الطَّرْفُ طَرْفٌ قدْ سجا

والياسمينُ مُؤيسٌ نضيرُهُ ... مِنْ أنْ يُرَى نظيرُهُ ويُجتَلا

الخير بالكسر الكرم يقول الياء في الخيري للنسب وهو منسوب الى الخير وقد ظهر الصدق في معنى هذه النسبة بما بث من عرفه وأفشى من طيبه وأفاد من عبق نشره وانما يشير الى أنه في ذلك مخالف للشقيق والنمام نبت طيب الريح لا يفوح الا ليلا ونم أظهر وأفشى من قولهم نم الحديث ينمه اذا أفشاه وأظهره ونم الشئ سطعت رائحته والمعنيان صالحان في البيت وصرح فلان بما في نفسه أى أظهره ويقال كنوت عن كذا بكذا وكنيت والكناية أن يتكلم بالشئ ويريد به غيره وقال الشاعر

واني لا كنوا عن قرير بغيرها ... وأعرب أحيانا بها فأصرح

يريد أن هذا النور أفشى ليلا كل ما كان قد أسره نهارا من رائحته وعبقه وقوله وما كنا تمثيل لشدة الاظهار وعدم التستر والتحديق شدة النظر وسجا يسجوا سجوا اذا سكن وطرف ساج أى ساكن لما كان النرجس يشبه بالعين نسبه الى التحديق وذكران عيونه الساجية تروق العيون وأراد بالطرف الجمع وقد تقدم أنه يكون للجماعة والاثنين والواحد بلفظ واحد والضمير في فيه عائد الى النمام تخيله يحدق النظر الى النمام حين نم باسراره والنضير بالضاد الحسن الناعم والنظير بالظاء المماثل يقال نظر ونظير كما يقال ند ونديد يريد انه لحسنه اذا نظر الناظر اليه ورأى نضرته يئس ان يرى مثله أو نظيره وقد أتى الناظم في هذه الابيات والتي قبلها على جملة من وصف الانوار اقتضت ان نذكر بعضا مما للشعراء في ذلك على سبيل الاختصار قال ابن الرومي يصف البنفسج وهو بديع

بنفسج جمعت اوراقه فحكى ... كحلا تشرب دمعا يوم تشتيت

اولا زورد بة تزهي برونقها ... وسط الرياض على حمر اليواقيت

كأن وضعاف القضب تحمله ... اوائل النار في اطراف كبريت

وقال ايضا

ادرك ثقاتك انهم وقعوا ... في نرجس معه ابنة العنب

فهم بحال لو بصرت بها ... سبحت من عجب ومن طرب

ريحانهم ذهب على درر ... وشرابهم درر على ذهب

واليوم مدجون لجونته ... منه بمطلع ومحتجب

ظلت تسايرنا وقد بعثت ... ضوأ يلاحظنا بلا لهب

ارا د بالذهب على الدر ما اصفر من النرجس على ما ابيض منه وبالدور على الذهب حباب الكاس على محمر الشراب وهو كقول ابي نواس

كأن صغرى وكبرى من فواقعها ... حصباء در على ارض من الذهب

وقال ابو نواس

لدى نرجس غض القطاف كأنه ... اذا ما منحناه العيون عيون

مخالفة اشكالهن فصفرة ... مكان سواد والبياض جفون

وهذا يدل على صحة ما قال بعضهم من ان النرجس هو البهار وهو

ايضا مدلول قول ابن الرومى * ريحانهم ذهب على درر

وقال ابن الرومى يفضل النرجس على الورد

خجلت خدود الورد من تفضيله * خجلا تورده عليه شاهد
لم يخجل الورد المورد لونه * الا وناحله الفضيلة عاند
للنرجس الفضل المبين وان ابى * آب وحاد عن الطريقة حائد
فصل القضية ان هذا قائد * زهر الرياض وان هذا طارد
شتان بين اثنين هذا موعد * بتسلب الدنيا وهذ واعد
واذا احتفظت به فامتع صاحب * بحياته لوان حيا خالد
ينهى النديم عن القبيح بلحظه * وعلى المدامة والسماع مساعد
هذى النجوم هى التى ربتهما * بحيا السحاب كما ربى الوالد
فانظر الى الولدين من ادناهما * شبها بوالده فذاك الماجد
اين العيون من الخدود نفاسة * ورياسة لولا القياس الفاسد

وكان ابن الرومى يذم الورد وقد نوقض فى هذه القصيدة وليس هذا المجموع بموضع استقصاء ما قيل فى ذلك ومن قوله فى ذمه

وقائل لم هجوت الورد منفردا * فقلت من قبح مافيه ومن معطه(١)
كانه سرم بغل حين ابرزه * عند الخراءة باقى الروث فى وسطه

وقال بعضهم فى السوسن

سقيا لارض اذا مانمت نبهنى * بعد الهدوء بها قرع النواقيس
كان سوسنها فى كل شارقة * على الميادين اذناب الطواويس

وقال ابن الجهم

ما اخطأ الورد منك شيئا * طيبا وحسنا ولا ملالا
أقام حتى اذا انسنا * بقربه اسرع انتقالا

ولابن حديس فى شقائق النعمان

نظرت الى حسن الرياض وغيمها * جرى دمعه منهن فى اعين الزهر
فلم ترعينى بينها كشقائق * تميل بها الارواح فى القضب الخضر
كما مشطت غيد القيان شعورها * وقامت لرقص فى غلائلها الحمر

وقال ابن دراج القسطلى يصف الخيرى

غدا غير مسعدنا ثم راحا * يساعدنا طربا وارتياحا
وخير فاختار دين الصبو * ق وخ فليس يرى الاصطباحا

وقال فى النيلوفر

يلاقى الصباح بيمنى جواد * ويخفى الظلام بيمنى بخيل
يبيح الضحى ماحوى من نسيم * ويمنعه عند وقت الافول

(١) معط كفرح خبث

وللبحتري

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا * من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غلس الدجى * اوائل ورد كن بالامس نوما
يفتحه برد الندى فكأنما * يبث حديثا كان قبل مكتما
ومن شجر رد الربيع لباسه * عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة * وكان قذى للعين إذ كان محرما

وقلت في النعمان على سبيل التورية

حدايق انبتت فيها الغوادي * ضروب النور رائقة البهاء
تجود بكل هطال كفيل * لها في كل يوم بار نواد
فما يبدوا بها النعمان الا * نسبناه الى ماء السماء

وأنشدنا شيخنا الفقيه الحسيب ابو عبد الله بن ابي العيش بن بر بوع قال انشدني الرئيس ابو حاتم العزفي لبعضهم

ونيلوفر يصفر وجدا وغيرة * كستهيد الاشواق ثوب شحوب
يبث إلى الخيرى من سر وجده * ويشكوله من لوعة ووجيب
فيفضحه عند الاصيل فيختفي * حياء من الأزهار فعل مريب

وهذا توليد عجيب ومنزع غريب قال شيخنا أبو عبد الله وختم هذه القطعة بقوله وكان وصف فيها نزهة صنعوها بخارج بلدهم

وأبنا وقد نلنا من اليوم صفوه * وقد رنقت شمس الضحى لغروب

قال شيخنا أبو عبد الله فلما بلغ الرئيس أبو حاتم بالانشاد الى هنا قال لي وددت لو باتوا هنالك يريد أنهم لو أقاموا ليلا لتمادى في الوصف وانما قال ذلك لفرط استحسانه للقطعة وقد جانس بين الخيرى والخير و بين الغمام ونم وبين حدق والحدق وبين نضيره ونظيره

لا ظميء الرَّوضُ الذي كُنَّا بهِ * نَرُوضُ أفرَاسَ الصِّبا ولاَ ضَحا
سقَى المَنارَ فَديارَ ديرَةٍ * فالدَّيرَ فالشُّطُورَ هطَّالُ الحَيا
وَوالت السُّحبُ بعينٍ تَوْبَةٍ * بمثلِ عيني تَوْبَةٍ طُولَ البُكا
وساجلَتْ أدمعَ عيني عزوَةٍ * بكلِّ مُنْحلِّ العَزَالِي والعُرا
واستقبلَ القِبلَةَ منهُ عارضٌ * مُعْتَرِضٌ في جوِّهِ واهي الكُلا
فبلَدِ الرَّيحانِ والرَّوحِ الذي * رَاحَ عليهِ الحسْنُ وقفاً وغدَا
إلى الرَّصيفِ المُغتَدَى بِرَصفِهِ * فالهيْكلِ الأعْلي القديمِ المُبتَنى

يقال ضحيت للشمس وضحيت بفتح الحاء وكسرها ضحاء بالمد اذا برزت والمستقبل أضحى في اللغتين وفي الحديث ان ابن عمر رضي الله عنه رأى رجلا محرما قد استظل فقال اضح لمن أحرمت له رواه المحدثون بفتح الهمزة وكسر الحاء من أضحيت وقال الاصمعي انما هو اضح لمن أحرمت له بكسر الالف وفتح الحاء من

ضحيت أضحى لانه انما أمره بالبروز للشمس ومنه قوله تعالى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى واستعار للصبا افراسا تابعا فى ذلك زهيرا فى قوله

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله * وعرى أفراس الصبا ورواحله

قال بعض من تكلم على بيت زهير لما كان المعتاد أن يقال فمين تصابا ركب هواه وجرى فى ميدانه وجمح فى عنانه حسن أن يستعار للصبا اسم الافراس وأن يعبر عن النزوع عنه بأن يعرى أفراسه ورواحله وانما أوردت هذا الكلام هنا لان الاستعارة نقل اللفظ عما وضع له فى أصل اللغة الى ماليس كذلك لشبه جامع بين المنقول والمنقول اليه ولا يستحسن منها الا ما كان الجامع بين المستعار والمستعار منه واضحا كقوله واشتعل الرأس شيبا ألا ترى أن شمول الشيب للرأس ودبيبه فيه شيئا فشيئا واحالته عن لونه الأول الى البياض بمنزلة النار التى تشتعل فى الحطب اذا علقت به وتسرى فيه حتى تحيله الى غير حاله الأول وكذلك قول الشاعر

وجعلت كورى فوق ناجية * يقتات شحم سنامها الرحل

لما كان الشحم يقتات وكان الرحل هو الذى يخفونه ويذهبه شيئا فشيئا كان ذلك بمنزلة الاقتيات وحسنت الاستعارة لقرب الشبه الجامع فاذا تقرر هذا فلا شك أن الأفراس بعيدة من الصبا لا جامع من الشبه بينها وبينه لكن اذا كانت الاستعارة مبنية على وصف كثر فى المستعار له حتى صار كالأصل فيه وان لم يكن الا فرعا كما كثر وصف المتصابى بركوب الهوى والجرى فى الميدان والجموح فى العنان حسبما بيناه كان ذلك مما قرب الاستعارة وان كان الجامع فى الأصل بعيدا فتأمل ذلك كله فأنه حسن والمنار وجميع ماذكر معه فى البيت مواضع بقرطاجنة والحيا المطال المتتابع المطر وعين توبة موضع هنالك وقوله بمثل عينى توبة أراد توبة بن الحمير وقد تقدم ذكره والتعريف به مستوفى قات وقول الناظم ووالت السحب بعينى توبة البيت دعا لهذا الموضع أن تبكى فيه السحب بمثل عينى توبة يريد فى مواصلة البكاء وانها لا تفتر ولو ارد الكثرة لقصر وأفسد المعنى لأن جميع ما بكى توبة فى عمره لو جمعت فيه دموعه لم يكن فى جانب بعض قطر السحاب شيئا مذكورا نعم يصح ذلك عند قصد المبالغة فى وصف المشبه به وليس هذا له بموضع الا ترى أن قول الشاعر

وبدا الصباح كأن غرته * وجه الخليفة حين يمتدح

صح فيه تشبيه الصباح بالوجه الواضح البشر مع أن المشبه به ينبغى ان يكون له شفوف على المشبه لان قصد الشاعر المبالغة فى وصف الممدوح وأن يجعل نور وجهه أعظم من نور الصباح فحسن الكلام وظهرت براعته ولولا ذلك لم يكن له وجه فتأمل ماقلناه فانه حسن ومما يسوغ قول الناظم انه لما استعار البكاء للسحب قصيرها فى جنس الباكين وقد علم أن توبة وعروة من أعظم المحبين بكاء وأن لهما التقدم فيه حتى ضربت بهما الأمثال حسن أن يقع تشبيه بكاء السحب بهما ويكون المراد أنها تبكى البكاء الذى ما بعده غاية كما عرف من بكاء هذين المحبين فتأمله ومثله قول الشاعر

رب ليل أمد من نفس العا * شق طولا قطعته بانتحاب

وانما ساغ تشبيه الليل فى الطول بنفس العاشق لأن كل واحد منهما خرج فى طوله عن المعتاد من مثله فالتشبيه فى الحقيقة انما وقع فى أن لكل واحد منهما حالا غريبة وبيت الناظم يجرى هذا المجرى وقد قال بعضهم يقع مرة بالصورة ومرة بالصفة ومرة بالحالة والطريقة وهذا الموضع على هذا المأخذ لما وقع التشبيه فيه بالحالة والطريقة على أن هذا البيت الذى أنشدته آنفا وهو قوله رب ليل أمد من نفس العاشق قد يحمل على قصد المبالغة ويكون قصد قائله أن يجعل طول نفس العاشق أمد من الطويل من الليالى كما قدمت قبل فى قول الشاعر

* وبدا الصباح كأن غرته * ألاترى أنه يشتكى فيه مايقاسى من الغرام فأدمج فيه وصف النفس بالامتداد والمبالغة فيه فتأمله والمساجلة المفاخرة بأن تصنع مثل صاحبك فى جرى أوسقى وأصله من السجل وهو الدلو وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب

من يساجلنى يساجل ماجدا * يملأ الدلو الى عقد الكرب

ومنه قولهم الحرب سجال والعزالى جمع عزلاء وهى فم المزادة الاسفل وان شئت فتحت اللام وقلت عزالى مثل الصحارى والصحارى والعذارى والعذارى قال الكميت

مرته الصبا بالغور غور تهامة * فلما ألحت عليه الشمال

والعرى جمع عروة وهى من الدلو والكوز ونحوهما مقبضه يقال حل الغمام عزاليه وهى عبارة عن كثرة المطر تشبيها له بالدلو اذا انحلت عزلاؤها فانصب ماؤها وقد قال مهيار

لاعداك الغيث يادار الوصال * كل منحل العرى واهى العزالى

﴿ ذكر عروة بن حزام ﴾

وأما عروة الذى سماه فهو عروة بن حزام العذرى شاعرا سلامى أحد المتيمين الذين قتلهم الهوى وكان يهوى عفراء بنت عمه عقال ولا يعرف له شعر الافيها وكان أبوه حزام هلك وترك ابنه عروة صغيرا فى حجر عمه عقال وكان هو وعفراء يلعبان معا و يكونان معا حتى تألف كل واحد منهما صاحبه تألفا شديدا وكان أبوها يقول لعروة لما يرى من إلفهما أبشر فانها امرأتك ان شاء الله فكانا كذلك حتى لحقت عفراء بالنساء ولحق عروة بالرجال فاتى عروة عمة له يقال لها هند وقال لها فى بعض مايقول ياعمة انى لا كلمك وانى منك لمستحى ولكن لم أفعل هذا حتى ضقت ذرعا بما أنا فيه وكلمها فى شأن تزويجه عفراء فذهبت عمته الى أخيها فقالت له ياأخى قد أتيتك فى حاجة أحب ان تحسن فيها الرد فقال لها قولى فلن تسألى حاجة الارددتك بها قالت تزوج عروة ابن أخيك ابنتك عفراء فقال ماعنه مذهب ولا بنا عنه رغبة ولكنه ليس بذى مال وليس عليه عجلة فطابت به نفس عروة وسكنت بعض السكون وكانت أمها سيئة الرأى فيه تريد لابنتها ذامال ووفر وكانت عفراء قد برعت كمالا وجمالا فلما تكاملت سنه وبلغ أشده عرف أن رجلا ذايسار ومال كثير يخطبها فأتى عمه فقال له ياعم قد علمت حقى وقرابتى وانى ولدك ورببت فى حجرك وقد بلغنى أن رجلا خطب عفراء فان أسعفته بطلبته قتلتنى وسفكت دمى فأنشدك الله رحمى وحقى فرق له وقال له يابنى أنت معدم ولست مخرجها الى سواك وأمها قد أبت أن تزوجها الا بمهر غال فاضطرب واسترزق الله فجاء الى أمها وألطفها وداراها فأبت أن تجيبه الا بما تحتكمه من المهر و بعد أن يسوق شطره اليها فوعدها بذلك وعلم أنه لا تنفعه قرابة ولا غيرها الا المال الذى يطلبونه فعمل على قصد ابن عم له موسر كان مقيما بالرى وأخبر عمه وامرأته بعزمه فصوباه و وعداه أن لا يحدثا حدثا حتى يعود وصار فى ليلة رحيله الى عفراء فجلس عندها ليله هو وجوارى الحى يتحدثون حتى أصبحوا ثم ودعها وشد على راحلته وصحبه فى طريقه فتيان فكانا يكلمانه فلا يفهم لفكره فى عفراء حتى يرد القول عليه مرارا فقدم على ابن عمه فلقيه وعرفه حاله وما قدم له فوصله وكساه وأعطاه مائة من الابل فانصرف بها الى أهله وقد كان رجل من أهل الشام نزل فى حى عفراء ممن له اتصال بسلطان بنى أمية فنصر و وهب وأطعم وكان ذامال فرأى عفراء وكان منزله قريبا من منزلهم فأعجبته وخطبها الى أبيها فاعتذر اليه وقال له قد سميتها لابن أخى وما اليها لغيره سبيل فقال له انى أرغبك فى المهر فقال لا حاجة لى بذلك فعدل الى أمها فوافق عندها قبولا لبذله ورغبة فى ماله فأجابته ووعدته وجاءت الى عقال فقالت له أى خير فى عروة حتى تحبس ابنتى عليه وقد جاءها

الغنى فوالله ماندرى أعروة حى أم ميت فلم تزل به حتى قال لها ان عاودنى خاطبا أجبته فوجهت اليه أغد اليه خاطبا فلما كان من الغد نحر جزر اعدة وأطعم و وهب وجمع الحى معه على طعامه وفيهم عفراء فلما طعموا أعاد القول فى الخطبة فأجابه وزوجه وساق اليه المهر وحولت اليه عفراء وقالت قبل أن يدخل بها

يا عروان الحى قد نقضوا * عهد الأله وحاولوا الغدر

فى أبيات طويلة فلما كان الليل دخل بها زوجها وأقام فيهم ثلاثا ثم ارتحل بها الى الشام وعمد أبوها الى قبر عتيق فجدده وسواه وسأل الحى كتمان أمرها وقدم عروة بعد أيام فنعاها أبوها اليه وذهب به الى ذلك القبر فمكث يختلف اليه أياما وهو مضنى هالك حتى جاءته جارية من الحى فأخبرته الخبر فتركهم وركب بعض إبله وأخذ معه زادا ونفقة ورحل الى الشام فقدمها وسأل عن الرجل فأخبر به ودل عليه فقصده وانتسب له فى عدنان فأكرمه وأحسن ضيافته فمكث أياما حتى أنسوا به ثم قال لجارية لهم هل لك فى يد تولينها قالت وماهى قال تدفعين خاتمى هذا إلى مولاتك قالت سوأة أما تستحى بهذا القول فأمسك عنها ثم أعاد عليها وقال لها ويحك هى والله بنت عمى وما أحد منا الا وهو أعز على صاحبه من الناس فاطرحى هذا الخاتم فى صبوحها فان أنكرت عليك فقولى لها أصطبح ضيفك قبلك ولعله سقط منه ففرقت له الامة وفعلت ما أمرها فلما شربت عفراء اللبن رأت الخاتم فعرفته فشهقت ثم قالت أصدقينى عن الخبر فصدقتها فلما جاء زوجها قالت له أتدرى من ضيفك هذا قال نعم فلان بن فلان للنسب الذى انتسب له عروة فقالت كلا والله بل هو عروة بن حزام ابن عمى وقد كتمك نفسه حياء منك وقد قيل فى هذا الخبر بل جاء ابن عم لزوجها فقال له أتركتم هذا الكلب الذى قد نزل بكم هكذا فى داركم يفضحكم فقال له ومن تعنى قال عروة بن حزام العذرى ضيفك هذا قال وانه لعروة قال نعم قال بل أنت والله الكلب وهو الكريم القريب ثم بعث اليه فدعاه وعاتبه على كتمان نفسه اياه وقال له بالرحب والسعة نشدتك الله ان رمت هذا المكان أبدا وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان وأمر خادما له بالاستماع لهما واعادة مايسمعه منهما عليه فلما خلوا تشاكيا ما وجدا بعد الفراق فطالت الشكوى وهو يبكى أحر بكاء ثم أتته بشراب وسألته أن يشرب به فقال والله مادخل جوفى حرام قط ولا ارتكبته منذ كنت ولو استحللت حراما لكنت قد استحللته منك فأنت حظى من الدنيا وقد ذهبت منى بعدك فما أعيش وقد أجمل هذا الرجل الكريم وأحسن وأنا مستحى منه ولا أقيم بعد علمه بمكانى وانى عالم انى أرحل الى منيتى فبكت وبكى وانصرف فلما جاء زوجها أخبره الخادم بما دار بينهما فقال لها ياعفراء امنعى ابن عمك من الخروج فقالت لا يمتنع هو والله أكرم وأشد حياء من أن يقيم بعد ماجرى بينكما فدعاه وقال له ياأخى اتق الله فى نفسك فقد عرفت خبرك وان رحلت تلفت والله لا أمنعك من الاجتماع معها أبدا ولئن شئت لأفارقنها ولأنزلن عنها لك فجزاه خيرا وأثنى عليه وقال انى أمور لابد من رجوعى اليها فان وجدت بى قوة على ذلك والا عدت اليكم وزرتكم حتى يقضى الله من أمرى مايشاء فزوده وأكرمه وشيعوه فانصرف فلما رحل عنهم نكس بعد صلاحه وتماثله وأصابه غشى وخفقان فكان كلما أغمى عليه ألقى على وجهه خمار لعفراء كانت زودته اياه فيفيق قال ولقيه فى الطريق عراف اليمامة فرآه وجلس عنده وسأله عما به وهل هو خبل أو جنون فأنشأ يقول

مابى من خبل ولابى جنة * ولكن عمى يا أخى كذوب
اقول لعراف اليمامة داونى * فانك ان داويتنى لطبيب

ويقول فيها

عشية لاعفراء منك بعيدة * فتسلو ولاعفراء منك قريب
عشية لاخلفى مكرولا الهوى * امامى ولايهوى هواى غريب
ووالله لا انساك ماهبت الصبا * وما عاقبتها فى الرياح جنوب

واني لتعروني لذكراك فترة * لها بين جلدي والعظام دبيب

وقال قصيدته النونية الشهيرة التي يقول فيها

تحملت من عفراء ما ليس لي به * ولا للجبال الراسيات يدان

فيارب انت المستعان على الذي * تحملت من عفراء منذ زمان

كأن قطاة علقت بجناحها * على كبدي من شدة الخفقان

وفيها يقول

جعلت لعراف اليمامة حكمه * وعراف نجد ان هما شفياني

فما تركا من حيلة يعلمانها * ولا شربة إلا بها سقياني

ورشا على وجهي من الماء ساعة * وقاما مع العواد يبتدران

وقالا شفاك الله والله مالنا * بما حملت منك الضلوع يدان

فويلي على عفراء ويلا كأنه * على الصدر والأحشاء حد سنان

فلم يزل في طريقه مريضا حتى مات قبل ان يصل الى حيه بثلاث ليال و بلغ عفراء وفاته فجزعت جزعا شديدا وقالت ترثيه

الا أيها الركب المخبون ويحكم * بحق نعيتم عروة بن حزام

فلا تهنأ الفتيان بعدك لذة * ولا رجعوا من غيبة بسلام

وقل للحبالى لا ترجين غائبا * ولا فرحات بعده بغلام

ولم تزل عفراء تردد هذه الابيات وتندبه حتى ماتت بعده بايام قلائل انتهى حديث عروة

وقوله استقبل القبلة منه عارض العارض السحاب يعترض في الافق ومنه قوله تعالى قالوا هذا عارض ممطرنا والكلى جمع كلية والمراد هنا كلية السحاب وهي أسفله يقال أنبعجت كلاه وكلية المزادة جليدة مستديرة تحت عروتها تخرز مع الاديم وكذلك كلية الاداوة ومنه استعير للسحاب كلية لان كلية المزادة اذا وهت أنبعث منها الماء قال الشاعر

وماشنتا خرقاء واهيتا الكلى * سقى بهما ساق ولما تبللا

بأضيع من عينيك للماء كلما * تذكرت ربعا أو توهمت منزلا

والواهي المنخرق المنشق يقال وهى السقاء يهي وهيا إذا انخرق وانشق وفي المثل خل سبيل من وهى سقاؤه ومن هريق بالفلاة ماؤه لمن لا يستقيم أمره ويقال وهت عزالى السماء بمائها وكل شئ استرخى رباطه فهو واه وقد تقدم تفسير الريحان واما الروح فيطلق على نسيم الريح و يكون من الاستراحة وقد قيل في قوله تعالى فروح وريحان رحمة ورزق والرصيف والهيكل وماذكر معهما كل ذلك واضح بقرطاجنة وما قارب بها وقد جانس بين الروض وروض والديار وديرة والدير وعين تو بة وعيني تو بة وعر وة والعرى وعارض ومعترض والريحان والروح وراح والرصيف والرصف والمعتنى والمبتنى

وَلاَ نَبا عَنِ السَّيلِ مُسْبَلُ * كَأَنَّ خَفْقَ بَرْقِهِ عِرْقٌ نَبَا

وجادَ رَأْسَ العيْنِ والمَزْجَ حَيَا * يَجْبُو البِلاَدَ رِيُّها إِذَا حَبَا

مُنْهَمِرٌ عَلَى الضِّيَاعِ مِنْهُم * عَلَى الصَّفَا المُدْبِقِ حَوْلَ المُسْتَقي

فالشَّرَفِ الأعْلي المُطِلِّ فَوْقَهُ ... إلي مَصَبِّ المَاءِ في وَادِي الحصا

فمنبتِ القَيصُومِ مِنْ بُطْنَانِهِ ... إلي ضَوَاحِي شَجَرَاتِ ابْنِ الضُّحا

فَسَرْحَةِ البَطْحاءِ فالغَرْسِ الذي ... بالرَّمْلَةِ العَفْرَاءِ مِنْ سقْطِ اللِّوَا

فالجَبَلَيْنِ المُشْرِفَيْنِ فَوْقَهُ ... المشْرِقَيْنِ مِنْ سَنَاءٍ وَسَنَا

المسيل موضع بقرطاجنة والمسبل الهاطل يقال أسبل المطر والدمع اذا هطل و يقال أسبلت السماء والاسم السبل وهو المطر بين السماء والارض حين يخرج من السحاب ولم يصل الى الارض وخفق البرق اضطرابه ونبا عن الشئ ينبو نبوا ونبوة زايله كانه قال ولازايل المسيل مسبل ونبا ارتفع ومنه قولهم عرق نبا اذا نبض أى انه يرتفع حين ينبض و يقال حبوت الرجل حبوا اذا أعطيته والاسم الحبوة والحبوة والحباء وحبا الشئ دنا وحبوت الخمسين دنوت منها والحبي السحاب الذى يشرق من الافق على الارض قيل هو من حبا الصبي اذا انجروا شرف بصدره وقيل بل هو من حبا اذا دنا يقرب به من الارض كما قيل سحاب أى يسحب أهدابه وقد قيل فى الحبى انه السحاب الذى بعضه فوق بعض وقول الناظم يحبو البلاد ربها اذا حبا معناه يعطى البلاد ربها اذا دنا سحابه وأشرف على الارض ورأس العين والمرج موضعان بحيث ذكر والمنهمر السائل والمنهمى كذلك والضياع مواضع هنالك وكذلك الصفاء والمحدق حول المستقى أى المحيط به والمستقى أيضا موضع وكل ماذكر فى هذه الابيات من المواضع فانها بقرطاجنة وجهاتها والقيصوم نبت قال الشاعر

* بلاد بها القيصوم والشيح والغضا * وضاحية كل شئ ناحيته البارزة يقال هم ينزلون الضواحى ومكان ضاح أى بارز ومنه مافى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب لحارثة بن قطن ومن بدومة الجندل ان لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل الضاحية هى الظاهرة التى فى البر من النخل والبعل الذى يشرب بعروقه من غير سقى والضامنة ماتضمنت امصارهم وقراهم من النخل وقول جرير

فما شجرات عيصك فى قريش * بعشات الفروع ولا ضواح

أى ليست فى نواح وانما هى وسيطة فيهم وكذلك قوله ضواحى شجرات ابن الضحى يريد الخارجة عن القرى البارزة فى النواحى والاطراف يريدان السقيا تعم من بطنان وادى الحصا حتى تخرج الى الضواحى من الشجرات النابتة فى نواحيه والرملة العفراء أى الحمراء وسقط اللوى منقطع الرمل وهو الجدد بعد الرملة والسناء بالمد الارتفاع والسنا بالقصر الضوء وقطع الهمزة من قوله المشرقين وهى همزة الوصل وانما فعل ذلك لاجل الوزن وسوغ ذلك وقوعها أول المصراع الثانى من مصراعى البيت والعرب تقيم المصراع مقام البيت كثيرا فلذلك ساغ قطع همزة الوصل كانه قدر الكلام مستقلا عما قبله وجعل المصراع مستأنفا فعامل الهمزة كما يعاملها فى أول البيت وقد ذكرت طرفا من ذلك فى أول الكتاب وأنشدت عليه ما للعرب فى ذلك ومما يشهد بصحة ماذكرته انهم قد يأتون بالخرم والخزم فى أول المصراع الثانى كما يأتون بهما فى أول البيت فمثال اتيانهم بالخرم فى أول المصراع الثانى قول الشاعر

وعين لها حدرة بدرة * شقت مآقيها من أخر

ومثال الخزم فيه قول الآخر

كل مارابك منى رائب * ويعلم الجاهل منى ماعلم

وقد أخذ الناظم قوله كأن خفق برقه عرق نبا من قول الشاعر أنشده أبو على البغدادى قال أنشدنا محمد بن

السرى السراج

بدا البرق من نحو الحجاز فشاقنى * وكل حجازى له البرق شائق
سرى مثل نبض العرق والليل دونه * واعلام ابلى كلها والا سالق

وقول أبى تمام

اليك سرى بالمدح ركب كأنهم * على الميس حيات اللصاب النضانيض
نشيم بروقا من نداك كأنها * وقد لاح أولاها عروق نوابض

وقد جانس بين المسيل ومسبل ونبا ونباو بحبو وحباومنهمر ومنهم والضواحى وابن الضحى والمشرفين والمشرقين والسناء والسنا وعادل فى البيت الاخير بين أول الكلام وآخره بأن رد السناء الى المشرفين والسنا الى المشرقين

وأَصبحتْ بالبُخترِينَ بَمَدّهُ تَمشي الغَوادِي بَختَرِياتِ المَشَى
وذَنّ فِي ذَنِينَةٍ أُنفُ الحَيَا وَدَرَّ دُرُّ القَطرِ فِيها وذَرا
فالحافَةِ البَيضاءِ مِن شَخشُوبَةٍ ذاتِ الصَّيَاصِي والشَّما رِيخِ العُلا

أراد بالبختر بن موضعا هنالك والبخترة والبخترمشية حسنة وقد بختر وتبختر ورجل بختير و بخترى حسن المشى والانثى بخترية والبخترى من الابل التى يتبختر أى يختال وقالوا فلان عيس البخترية وانما دعا لذلك الموضع ان تتعاهده السحائب ولا تسرع عنه المسير اذ كان من شأن الذى يتبختر فى مشيته أن لا يسرع ويقال ذن أنف الرجل يذن ذنينا اذا سال والذنين مخاط يسيل من الانف والذنان بالضم مثله وذنينة موضع هنالك واستعار للحيا أنفا وذنانا لسيلانه وقد قال أبو العلاء المعرى

متى ذن أنف البرد سرتم فليته * عقيب التدنى كان عوقب بالجدع

معناه انه شبه ما يكون فى أيام البرد من الندى والامطار بالذنين الذى يسيل من الانف وقيل فى تفسيره غير ذلك ويقال درت الحب والملح وغيره أدره درا فرقته ويقال أيضا ذريت الحب ونحوه وذروته اذا أطرته وأذهبته وكذلك ذرت الريح التراب وفى التنزيل تذروه الرياح وقرأ ابن مسعود وابن عباس تذريه الرياح استعار للقطر درا لشبهه به وجعل الريح تذروه وتذره والصياصى الحصون والشماريخ جمع شمراخ وهو رأس الجبل وشخشوبة موضع بحيث ذكر وقد جانس بين البختر بن و بختريات وذن وذنينة ودر ودر وذرا

مجمع ماصاد من الوحش وما راد ومرعى ماثغا وما رغا
لا تعدم الوحش ولا الطير به ماء صفا وظل دوح قد ضفا
فتسنح الطير به لما لما وتسرح الوحش به ثبا ثبا

الصائد ما عيشه مما يلتمس من الحيوان وذلك أنواع السباع والرائد ما يلتمس الكلا والثغاء صوت الشاء والمعز والرغاء صوت ذوات الخف يقال رغا البعير يرغو رغاء اذا صاح وثغت الشاة تثغو ثغاء أى صاحت ويقال ماله ثاغية ولا راغية فالثاغية الشاة والراغية البعير يريد ان ذلك الموضع يجمع أصناف الحيوان من أنواع الوحش وأنواع الانعام والطير لخصب مرعاه وكثرة مياهه وظلاله وتقول سنح الظبى يسنح سنوحا اذا مر من ميامنك الى

ميامنك والسنيح والسانح ماولاك ميامنه من ظبي أوطائر أوغيرهما وفي المثل من لي بالسانح بعد البارح وسنح وسانح بمعنى قال الاعشى * جرت لهما طير السناح بأشأم * قال أبو عبيدة سأل يونس رؤبة وأنا شاهد عن السانح والبارح فقال السانح ماولاك ميامنه والبارح ماولاك مياسره وقيل السانح ماأتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غيره والبارح ماأتاك عن يسارك والعرب تختلف في عيافة ذلك فالا كثر يتيمن بالسانح و يتشاءم بالبارح ومنهم من يخالف قال الشاعر

أبا السنح الايامن أم بنحس * تمر به البوارح حين تجرى

وقال زهير

جرت سنحا فقلت لها اجيزى * نوى مشمولة فمتى اللقاء

والثبا جمع ثبة وهى الجماعة والثبا جمع ثبة وهي الجماعة أيضا وكلاهما مما حذف لامه وعوض منه تاء التأنيث و يجمع أيضا ثبة على ثبات وثبين وثبين وأثابين قال الراجز * دون أثابى من الخيل زمر * وكثر الجمع بالواو والنون فيما حذف لامه وعوض منه تاء التاء قالوا ثبون وسنون وعضون وتسرح ترعى وقد تقدم الكلام على مثل قوله وتسرح الوحش به ثبا ثبا في ان الالف انما ساغ هنا أن تكون رويا أحد وجهين وهو أن يكون الناظم ذهب مذهب من يرى ان الالف في المقصور المنون اذا وقف عليه أصلية أو أتى على لغة من قال * جعل القين على الدف ابر * وقد جانس بين صاد و راد وثغا و رغا وصفا وضفا وتسرح وأسنح و رصع البيت الاخير ترصيعا حسنا مع مماثلة الالفاظ فيه وموازنتها

وَارْتَقَتِ السُّحْبُ لِسُقْيَا مَا ارْتَقِي   عَنْهَا قَلِيلاً فِي الشَّمَالِ وَسَمَا

مُقْبِلَةً مِنْ لُجِّ بَحْرٍ أَخْضَرٍ   لِمِثْلِ بَحْرٍ أَخْضَرٍ مِنَ الْكَلَا

حَتَّى إِذَا عَدَا بَشِيرُ بَرْقِهَا   بُحَيْرَةَ الْقَصْرِ اشْمَعَلَّ وَعَدَا

مِنْ كُلِّ رَضَّافٍ هَيْدَبٍ كَأَنَّهُ   مُجَلَّلُ أَدْهَمُ يَمْشِي الْهَيْدَبَا

ضَاحِكُ ثَغْرٍ مَا بِهِ جَهَامَةٌ   يَبْكِي بِعَيْنٍ لَيْسَ فِيهَا مِنْ عَمَا

تَجْذِبُهُ سَلَاسِلُ مِنْ ذَهَبٍ   فِي رَاحَتَيْ رِيحِ جَنُوبٍ أَوْ صَبَا

شَمَخَتْ ذُرَاهُ وَدَنَا هَيْدَبُهُ   فَاسْتَشْرَقَ الرَّاعِي إِلَيْهِ وَشَمَا

قوله وارتقت السحب لسقيا ما ارتقى عنها قليلا في الشمال أي سقي الاماكن التي ارتفعت في جهة الشمال عن الاماكن التي تقدمت والكلا العشب رطبه و يابسه وقد تقدم تفسيره وهو مهموز فقلب همزته الفا لاجل الروى يريد ان السحائب أقبلت من جهة البحر وذلك أغزر لمائها وفي الحديث اذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة ومن الناس من يزعم أن السحاب تستمد من البحر وقد قال المعرى

وقد يجتدى جود الغمام وانما * من البحر فيما يزعم الناس يجتدى

ومعنى قوله عدا بشير برقها بحيرة القصر جاوزها ومالي عن فلان معدى أي لا اتجاوز الى غيره ولا قصد دونه واشمعل أسرع وتفرق وعدا من العدو وأراد به الاسراع في المشي يقول اذا جاوز برقها هذا الموضع تفرق وأسرع في المضي أي لا حاجة له بسقيا ما وراء ذلك و بحيرة القصر موضع بحيث ذكر والهيدب السحاب الذى

يتدلى و يدنو مثل هدب القطيفة وقيل هيدب السحاب ذيله وقيل هيدب السحاب ماتهدب منه اذا أراد الودق كأنه خيوط قال الشاعر و وصف السحاب

دان مسف فويق الارض هيدبه * يكاد يدفعه من قام بالراح

والضافى السابغ وقد تقدم والجلل الفرس الذى ألبس الجل والهيد باضرب من مشى الخيل شبه السحاب وقد تدلى هيدبه بالفرس الادهم الذى ألبس الجل فتدلت أطرافه عليه وانما جعله أدهم لسواد السحاب والجهام السحاب الذى لاماء فيه أو الذى هراق ماءه و رجل جهم الوجه وجهم الوجه وهو الكالح وقد جهم جهومة وجهامة وجهمه يجهمه استقبله بوجه كريه والعين مطر أيام لا يقلع وقيل هو المطر يدوم خمسة أيام أو ستة والعين من السحاب ما أقبل من ناحية قبلة العراق وعن يمينها قال ثعلب اذا كان المطر من ناحية القبلة فهو مطر العين ومراد الناظم بالعين هنا المطر الدائم والعماء السحاب المرتفع وقيل الكثيف وقيل الكثير المطر وقيل هو الرقيق وقيل هو الاسود وقيل هو الابيض وقيل هو الذى هراق ماءه ولم يتقطع تقطع الجبال والذى يصلح لهذا الموضع ان يكون واقعا على الذى هراق ماءه وعلى الغيم الرقيق لانه لاماء فيه و يقال شصا السحاب اذا ارتفع وشصا بصره شخص والذرى الاعالى واستشرفت الشئ اذا رفعت بصرك تنظر اليه و بسطت كفك فوق حاجبك كالذى يستظل من الشمس قال ابن مطير

فياعجبا للناس يستشرفوننى * كأن لم يروا بعدى محبا ولا قبلى

وانما عداه الناظم بالحرف لانه ضمنه معنى نظر وقد أحكم الناظم فى البيت الخامس من هذه الابيات التورية وأبدع فيها فخبر عن السحاب أنه ضاحك يريد ظهور البرق فيه ثم قال مابه جهامة فأوهم أنه يريد العبوس والكلوح الذى يناسب أن ينفى عن الضاحك وانما مراده أن ينفى عنه أن يكون جهاما قد هراق ماءه وقال يبكى بعين ليس فيهامن عمى فأوهم أنه يريد بالعين الجارحة و بالعمى عدم الابصار وانما يريد بالعين المطر الدائم و بالعمى الغيم الذى هراق ماءه أو الغيم الرقيق كما تقدم فتم التورية من جميع وجوهها وأحسن ماشاء ولما كان البرق يشبه سلاسل الذهب وكانت الريح هى التى تحدو السحاب وتسوقها تخيل تلك السلاسل فى يد الريح ثم ذكر ان أعاليه سامية وهيدبه دان من الارض فدل بذلك على عظمه وانه قد ملأ الافق وعم الجو حتى استبشر الرائى بما ظهر من صدق مخايله واستشرف ينظر اليه فرحا بصوبه وثقة باخصاب ماشيته وأكثر هذه الاوصاف من أوصاف الارداف وانما احتذى الناظم فى هذه الابيات وفى أكثر معانيها حذو عبدالله بن المعتز فى قوله يصف السحاب

رأيت فيها برقها منذ بدت * كمثل طرف العين أو قلب يجب
ثم حدت بها الصبا حتى بدا * فيها لى البرق كأمثال الشهب
تحسبه فيها اذا ما انصدعت * أحشاؤها عنه شجاعا يضطرب
وتارة تحسبه كأنه * ابلق مال جله حين وثب
حتى اذا مارفع اليوم الضحى * حسبته سلاسلا من الذهب

وللاديب ابى حفص احمد بن برد فى السحاب والبرق

ويوم تفنن فى طيبه * وجاءت مواقيته بالعجب
تجلى الصباح به عن حيا * قد أسقى وعن زهر قد شرب
ومازلت احسب فيه السحا * ب ونار بوارقه تلتهب
بخاتى توضع فى سيرها * وقد قرعت بسياط الذهب

ولابي عثمان الخالدي في وصف السحاب والبرق ماينظر الى هذا

ادن من الدن لي فداك ابي * واشرب وسق الكبير وانضب
اماترى الطل كيف يلمع في * عيون نور تدعوا الى الطرب
في كل عين للطل لؤلؤة * كدمعة في جفون منتحب
والصبح قد جردت صوارمه * والليل قد هم منه بالهرب
والجو في دحلة ممسكة * قد كتبتها البروق بالذهب

وقال السري الرفاء

هفا طربا في اوان الطرب * فانحب اقداحه بالنخب
وغني ارتياحا الى عارض * يغني وعبرته تنسكب
غيوم تمسك أفق السما * وبرق يكتبه بالذهب

وينظر قوله فاستشرف الرائي اليه وشما الى قول بعضهم

وحدينها كالقطر يسمعه * راعي سنين تتابعت جدبا
فأصاخ يرجوا ان يكون حيا * ويقول من فرح ايا ربا

ويتعلق بما تضمنه البيت الخامس من وصف البرق بالضحك قول ابن المغيربي في الشذور

فمن روضة غناء زخرف وشيها * ومن جدول يسعى بهاسعي اسود
ومن اقحوان كالثغور مؤشر * ومن زهر مثل الخدود مورد
ومن ناثر دمعا باجفان باسم * ومن منجز وعدا باصوات موعد

وقد ولد الرئيس ابو العباس بن ابي طالب العزفي من تشبيه البرق بالسلاسل توليدا ما اظنه سبق الى مثله فقال يخاطب الوزير ابا عبد الله بن الحكيم واصفا له بسرعة البديهة اذ كتب له

له قلم لو يجاري البروق خلت * السلاسل فيها قيودا

وهذه النهاية في الاحسان وقد جانس في هذه الابيات بين عداوعدا وهيدب والهيدبا وشمت وشما

فَقَلِّدَ الفَرْتَ فَمَرْج دَارِشدٍ * فالسَّهْلَةَ التَّلْعاء أَصْنافَ الحُلا
فالبَسَ الوَادِيَ مِنْ غَرْبِيِّهَا * فالدَّخْلَةَ الغَرَّاءَ أَنْوَاعَ الكُسا
فلمْ يَدَعْ شَاجِنَةً تُفضي إلى * شُجْنَةٍ قُرْبانُها الاقرا
ومَالَ صَوْبُ المُزْنِ بالسّقي إلى * مَامَالَ في شِقِّ الجَنُوبِ وَصَفَا
وبَاتَ بالسِّلْسِلَةِ البَرْقُ لَهُ * سَلَاسِلٌ بِها الغَمامُ يُهْتَدَى
ثُمَّ تَوَخَّى الاخْوَيْنِ وَنَحا * مِنْ سَقْيِ أَرْجاءِ العُيُونِ مَانَحا
واشْتَكَرَتْ عَلى الشُّكُورِ مُزْنَةٌ * وأَنْكَأَتْ عَلى أَعالِي المُتَكا
ودَخَلَ الدَّخَالُ كُلُّ خَارِجٍ * مِنْ بَحْرِهِ كَأَنَّهُ رِجْلُ الدَّبا

فقد رَفِعَ المجلسِ الاعلى الذى أو هنّهُ أحداثُ الليالى فوهى
وساقَ للمستقي قطار قطره حادٍ من المزن المرن وسقى

كل ماذكر فى هذه الابيات مواضع بقرطاجنة واحوازها درّ اكثرها ولم يبق لها بعد تغلب العدو عليها اثر وقوله السهلة التلعاء يريد الطويلة والعرب تطلق الاتلع والتلع والتليع على الطويل وتقول فى الانثى تلعاء وان كان اكثر ما يستعمل فى طول العنق يقال تلع تلعا وامراة تلعاء بينة التلع وعنق اتلع وتليع واراد باصناف الحلى ماظهر عنه من الانوار والازهار التى زانت تلك المواضع كما تزين الحلى لابسها واحسن فى ذكر التقليد والحلى مع التلعاء اذ كان التلع من أوصاف العنق والتقليد مناسب له وهذا مما نقول فيه انه من ائتلاف اللفظ مع اللفظ فقد كان يسوغ له ان يأتى هنا باللبس و يأتى فى البيت الثانى بالتقليد لكن عدل الى ذكر التقليد هنا لما ذكرناه من الائتلاف اللفظى واراد بانواع الكسى ماظهر عنه من ضروب العشب والشاجنة واحدة الشواجن وهى اودية كثيرة الشجر وقال الشاعر

لما رأيت عدى القوم يسلبهم * طلح الشواجن والطرفاء والسلم

وشجنة من مواضع قرطاجنة والقريان جمع قرى وهو مجرى الماء فى الروض و يجمع فى القليل على أقربة يريد ان ذلك السحاب لم يدع واديا تفضى مجار به الى ذلك الموضع الا قراه وضرب القرى مثلا للسقيا وقد أنشد صاحب الامالى لبعضهم

نسجته الجنوب وهى صناع * فترقى كأنه حبشى
وقرى كل قرية كان يقرو * ها قرى لايجف منه القرى

وشق الجنوب ناحيتها و يقال صغا يصغو او يصغى صغوا أى مال وكذلك صغى بالكسر يصغى صغا وصغيا ومنه صغت النجوم اذا مالت للغروب و يقال صغو فلان معك وصغوه وصغاه وقالوا أكرموا فلانا فى صاغيته وهم الذين يميلون اليه و يطلبون ما عنده ومنه أصغيت الاناء أملته وفلان مصغى أناؤه اذا انتقص حقه وأصله ان الاناء اذا أميل ذهب بعض ما يحتوى عليه من الماء والسلسلة موضع هنالك وأراد بالسلاسل مضطرب البرق كما تقدم و يهتدى يقاد قود الهدى والهدى الاسير لما كانت سلاسل البرق تقدم الغمام شبه الغمام بالاسير فيها ونوخى قصد يقال توخيت مرضاتك أى قصدت ونحا أيضا قصد والاخوان والعيون من معاهد قرطاجنة واشتكرت السماء اشتد وقعها قال امرؤ القيس

تظهر الود اذا ما أشجذت * وتواريه اذا ماتشتكر

والشكور موضع هنالك والمتكا كذلك وتوا تكأت تحملت واعتمدت والمتكأ أصله الهمز فابدل الناظم همزته الفا لاجل حرف الروى واعلم ان للابدال هنا وجهين أحدهما أبدل تخفيفا على حد ما يفعله من لغته التخفيف فتبدل من الساكنة الواقعة بعد الفتحة الفا وهذه ساكنة للوقف والوجه الآخر ان تبدل من الهمزة الفا لا على سبيل التخفيف ولكن كما قد تبدل بعض الحروف من بعض والاول قياسى والثانى ليس بقياسى لكن ان حمل الابدال هنا على الوجه القياسى لم يجز أن تكون الالف المبدلة رويا مع غيرها من الالفات لان الحرف المبدل من الهمزة فى باب التخفيف حكمه حكم الهمزة والهمزة كأنها قد نطق بها فيؤدى ذلك الى اختلاف حرف الروى والدليل على أن الهمزة المبدلة فى التخفيف حكمها حكم الهمزة المنطوق بها انهم اذا خففوا همزة رؤية قالوا رويه ولم يدغموا الواو فى الياء كما يفعلون لو لم يكن الواو بدلا من همزة وانما ذلك لان الهمزة حكمها باق والادلة على ماذكرناه كثيرة وقد نص ابن جنى على ما نصصت عليه من امتناع أن يكون مثل هذه الالف مع غيرها من الالفات رويا فلم يبق الا أن

يكون الناظم أبدلها على الوجه الثاني ان كان ابدالها على ذلك الوجه ليس بقياسي فافهمه فانه جليل الفائدة وقد قدمنا طرفا منه قبل هذا أراد ان هذه السحائب اشتد وقعها على الشكور ومالت بصوبها على المتكا والدخال موضع والرجل الجماعة الكثيرة من الجراد خاصة كما يقال لجماعة البقر صوار ولجماعة النعام خيط ولجماعة الحمير عانة ويعني بالخارج من البحر السحاب وصفه بذلك لارتفاعه من البحر وخروجه من ناحيته وشبهه في عظمه برجل الدبا وذلك لان الجراد اذا ظهر ملأ الآفاق وقصر فج المجلس الاعلى موضع هنالك أصبح دائر الرسم قد اختلقته الحوادث وأزالت بهجته والمسقى أيضا موضع والقطار الابل المقطورة وهي التي يقرب بعضها الى بعض على نسق يقال قطرت الابل أقطرها قطرا وقطرتها وجاءت الابل قطارا أي مقطورة وانما شبه بها الامطار اذ كانت تمطر الارض على توال ونسق وجعل المزن لها كالحادي والمرن المصوت يريد صوت الرعد وشبهه بصوت الحادي اذا حدا بالابل وقد جانس بين شاجنة وشجنة وقريانها وقرى والسلسلة والسلاسل وتوخى والاخوين واشتكرت والشكور ودخل والدخال وساق وسقي وقطار وقطر واتكأت والمتكا والمزن والمرن وطابق بين دخل وخارج

كأنما تشويره ببرقه نار بأطراف الشوار تصطلا
ونفخت ريح الصبا في مجمر منه على النفاخ نفاح الشذا
يستنشق المسك الذكي ناشق به ويستنشي به طيب النشا
كأن هنديا يشم منه أو كأن هنديا عليه ينتضا

التشوير الاشارة من قولهم شور اليه بيده أي أشار قال ابن السكيت واشتقاقهما واحد والشوار جبل هنالك شبه البرق اذا تراآى في أعلى ذلك الجبل بنار تصطلى بأعاليه وانما أراد أن ينبه على قربه من الارض وأفاد بذلك أيضا تحقيق النار التي وقع التشبيه بها بذكر الصفة التي تزيل عن نفس السامع ما عسى أن يتوقعه من أنها ليست من جنس النيران المعهودة أو أنها على صفة تبعدها من هذه النار ونظيره قولك رأيت زيدا وكأنه أسد دامي البراثن يفترس من يدنو منه فتأتي بصفة الاسد تحقيقا للشبه انه الاسد المعروف وقد يستفاد من قوله يصطلى كون ذلك البرق لا يكاد يخلو لان المصطلى لا يدع النار تخبو لحاجته الى وقودها ولذلك قال امرؤ القيس

* كأن على لباتها جمر مصطلى * والشذا شدة ذكاء الرائحة ويقال نفح الطيب ينفح أي فاح وله نفحة طيبة والنفاخ موضع هنالك لما كانت الازهار والعشب يزداد طيبها عند سقي السماء لها فتطيب الريح بطيبها تخيل ذلك البرق الذي ظهر بأعالي ذلك الجبل مجمرا تنفخ فيه الريح فينفح عنه الطيب والنشا نسيم الريح الطيبة يقال نشيت منه ريحا نشوة بالكسر أي شممت واستنشيت مثله وانما مراده أن يبالغ في وصف ذلك الموضع بطيب الروائح وأرج العرف والهندي في صدر البيت الاخير يراد به العود الهندي كما قال عدي بن زيد

رب نار بت أرقبها * تقضم الهندي والقارا

والهندي في عجزه يراد به السيف والمعنى ان ذلك الجبل تتأرج منه الروايح حتى تخال العود الهندي يفوح منه ويتألق البرق عليه حتى تخال السيف يسل لديه وجانس بين تشوير والشوار وبين نفخت والنفاخ وبين النفاخ ونفاح وبين يستنشق ويستنشي وبين هندي وهندي

وأمست الحفل من ضروعه على الخليج والذراع تمترا

بِرَاحَةٍ مَخْضُوبَةٍ لِلْبَرْقِ أَوْ مَحْجُوبَةٍ مِن رِيحِهِ لَيْسَتْ تُرَا
حَتَّى يُرَى بِالطَّرْفِ الغَرْبِيِّ قَدْ شَرَّدَ غِرْبَانَ الدَّيَاجِي وَنَفَا
حَتَّى إِذَا مَاسَرَّحَ العِنَانَ عَنْ سَرْحَةِ وَادِي بَرْنَجٍ سَدَّ الكُوَا
وَبَرْقَعَ الجَوَّ الذِي أَمَامَهَا بِكُلِّ غَيْمٍ مُلْحَمٍ فِيهِ السَّدَا

الحفل جمع حافل يقال ضرع حافل أى ممتلئ لبنا والخليج والذراع موضعان ونمترى تستدر وقد تقدم تفسيره استعار للغمام ضروعا لطلب الماء منه وجعلها حفلا لغزارة الودق فيه وقد قال الحسين بن مطير

كثرت بكثرة مائه أطباؤه * فاذا تحلب فاضت الاطباء

والاطباء للذى الحافر والسباع كالضروع لغيرها ولما كان ظهور البرق فى الغمام مقرونا بانصباب الودق استعار للبرق راحة تخيلها هى التى تحتلبه وجعلها لاحراره مخضوبة وهو كقول الآخر

فشق حداد الليل عنه براحة * مخضبة أو درعه بسنان

وقد قال الشاعر فيما يشير الى المعنى الذى اشتمل عليه البيتان الاولان من هذه الابيات

سقى الرباب مجلجل الاكنا * ف لماع بروقه
جون تكفكفه الصبا * وهنا وتمرى به خريقه
مرى المسيف عشاره * حتى اذا درت عروقه
ودقا يضئ ربابه * غابا يضرمه حريقه
حتى اذا ماذرعه * بالماء ضاق فما يطيقه
هبت له من خلفه * ريح شآمية تسوقه
حلت عزاليه الجنو * ب فثج واهية حروقه

استعار للريح راحة ذكران ضروع الغمام بها تحتلب اذ كانت الريح هى التى تلقحه وتسوقه وجعل تلك الراحة محجوبة لان العيون لا تبصرها والطرف الغربى موضع واستعار للدياجى وهى الظلم غربانا لسوادها وأخبر عن البرق أنه شردها لما كان ضوؤه ناسخا لها ومذهبا لديجورها وقوله سرح العنان أى أرسل العنان وهى كناية عن حث السير وسرحة وادى برنج موضع وكذلك الكوى يريد أنه لما ذهب عن السرحة استقبل الكوى فسد أرجاءها يقال سحاب قد سد الافق اذا كان قد ملاه وعمه وكان الانسب للكوى أن يأتى بسد دون سائر العبارات وهو كما قسمناه من باب ائتلاف اللفظ مع اللفظ ويقال برقعه فتبرقع أى ألبسه البرقع يريد ان السحاب برقع الجو الذى أمام الكوى فى ستره بغيمه وجعل ذلك الغيم بمنزلة اللحمة للسدى يعنى بذلك التئامه وتكاثفه

وَمَرَّ بِالْمَمْشِي الغَمَامُ زَاحِفًا فِي جَوِّ مَزْحَفِ الكَسِيرِ وَمَشَى
بِجَبْهَةِ الشَّاةِ الَّتِي قَدْ نَاطَحَتْ غَوَارِبَ اللُّجِّ وَأَعْنَانَ السَّمَا
مَعَاهِدٌ مَابَرِحَتْ مَعْهُودَةً بِالأُنْسِ فِي مُغْتَبَقٍ وَمُغْتَدَى

كَمْ مَحْضَرٍ فِيهَا وَمَبْدًى مَنْ يَشَأْ ... نَدًى بِهِ السَّرْحَ وَمَنْ شَاءَ انْتَدَى

وَمَنْزِلٍ لِمُغْزِلٍ مَا بَرِحَتْ ... بِمُقْلَتَيْهَا تَدْرِى مَنِ ادَّرَى

المشى موضع وزاحفا ماشيا وانما قال زحف الكثير لانه أراد أن يصفه بالبطء وذلك يدل على ثقله بالماء وقد قال أبو الطيب

ومن الخير بطء سيبك عنى * أسرع السحب فى المسير الجهام

ولانه اذا أسرع المسير لم يبالغ فى سقى الارض و يقال للصبى هو يزحف وذلك قبل أن يمشى وكذلك البعير اذا أعيي يجر رسنه وابل زواحف و يقال أزحف الرجل اذا أعيي بعيره ودابته وذلك كله يدل على البطء كما ذكرناه وجبهة الشاة موضع مرتفع خارج فى البحر ولذلك وصفه بمناطحة أعنان السماء وغوارب اللج وأعنان السماء نواحيها وما اعترض من اقطارها كانه جمع عنن وغوارب اللج أعالى موجه شبهت بغوارب الابل وانما قال ناطحت لانه المناسب لجبهة الشاة والتورية حاصلة فيه والمعاهد جمع معهد وهو المنزل الذى يتعاهده القوم فكلما أنتوا أرجعوا والمعهودة المعروفة والمغتبق اسم للزمان من اغتبق اذا شرب بالعشى والمغتدى وقت الاغتداء وانما أراد فى الآصال والبكر والمحضر موضع الحضارة والمبدى موضع البداوة والسرح الماشية و يقال نديت الابل وغيرها اذا رعيتها بين العلل والنهل وقد تقدم تفسيره وانتدى حضر الندى وهو مجلس القوم ومتحدثهم وقد تقدم والمعنى أن فيه لمن أراد رعى مواشيه ماشاء من خصب المراعى وفيه لمن أراد أن يجالس الكرام و يتحدث الى القوم ماشاء من ذلك والمغزل الظبية ذات الغزال وكنى بها عن المرأة وتدرى تختل وادّرى ختل والمراد تصيد من رام أن يصيدها ولا خفاء بما اشتملت عليه هذه الابيات من أنواع التجنيس والطباق

يَنِيرُ مَا بَيْنَ الْمَنَارَيْنِ بِهَا ... قَصْرٌ لَهُ قَصْرُ سَعِيدٍ قَدْ عَنَا

وَيَكْتَسِى مِنْ وَجْهِهَا إِنَارَةً ... مَنَازِلٌ بَيْنَ مُنِيرٍ وَالْحِمَا

تَنْشَى بِهَا مَغَانِياً مَنْ يَرَهَا ... يَجْعَلْ لَهَا مَغَانِى الشِّعْبِ فِدَا

المناران موضع هنالك وعنى خضع وذل والمعنى أن قصر سعيد تضاءل له واحتقر لما قوبل به

﴿ ذكر قصر سعيد وخبره ﴾

وقصر سعيد هو قصر سعيد بن العاصى بن سعيد وهو أبو أحيحة بن العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وكان واليا على الكوفة لعثمان رضى الله عنه و والى المدينة لمعاوية وكان قصره هذا بالعرصة الحمراء خارج المدينة وهو الذى عنى الشاعر بقوله

القصر فالنخل فالجماء بينهما * أشهى الى القلب من أبواب جيرون

الى البلاط فما حازت قرائنه * دور نزحن عن الفحشاء والهون

قد يكتم الناس أسرارا فأعلمها * ولا ينالون حتى الموت مكنون

وأبواب جيرون بدمشق و يروى حازت قرائنه من المحاذاة والقرائن دور كانت لبنى سعيد بن العاصى متلاصقة سميت بذلك لاقترانها والنخل الذى عناه نخل كان لسعيد بين قصره و بين الجماء وهى أرض كانت له فصار القصر و جميع ذلك لمعاوية بن أبى سفيان بعد وفاة سعيد وذلك ان سعيد بن العاصى لما حضرته الوفاة وهو فى قصره هذا قال له ابنه عمرو لو نزلت الى المدينة فقال أى بنى ان قومى لن يضنوا على بأن يحملونى على رقابهم

ساعةمن نهار فاذا أمامت فادفنهم فاذا واريتني فانطلق الى معاوية فانعني له وانظر في ديني واعلم أنه سيعرض عليك قضاءه فلا تفعل واعرض عليه قصري هذا فاني انما اتخذته نزهة وليس بمال فلما مات أوذن به الناس فحملوه من قصره حتى دفن بالبقيع ورواحل عمرو مناخة فعزاه الناس على قبره وودعوه وكان أول من نعاه الى معاوية فتوجع ثم ترحم عليه ثم قال هل ترك دينا قال نعم قال كم هو قال ثلاثمائة الف قال هي علي قال قد ظن ذلك وأمرني أن لا أقبله منك وأن أعرض عليك بعض ماله فتبتاعه فيكون قضاء دينه منه قال وما هو قال قصره بالعرصة قال قد أخذته قال هو لك على أن تحملها الى المدينة وتجعلها بالوافية قال نعم فحملها الى المدينة وفرقها في غرمائه وكان أكثرها عداة فأتاه شاب من قريش بصك فيه عشرون الف درهم بشهادة سعيد على نفسه وبشهادة مولى له عليه فأرسل الى المولى فأقرأه الصك فلما قرأه بكى وقال نعم هذا خطه وهذه شهادتي عليه فقال له عمرو من اين يكون لهذا الفتى عليه عشرون الف درهم وانما أنت صعلوك من صعاليك قريش قال أخبرك عنه مر سعيد بعد عزله فاعترض له الفتى فمشى معه حتى صار الى منزله فوقف له سعيد فقال الك حاجة فقال لا إلا أني رأيتك تمشي وحدك فأحببت أن أصل جناحك فقال الى ائتني بصحيفة فأتيته بها فكتب على نفسه هذا الدين وقال انك لم تصادف عندنا شيئا فخذ هذا فاذا جاءنا شيء فائتنا فقال عمرو لا جرم والله لا يأخذها الا بالوافية أعطه اياها فدفع اليه عشرين الف درهم وكان سعيد يأتيه الرجل فيسأله فلا يكون عنده ما يعطيه فيقول ما عندي ما أعطيك ولكن اكتب علي فيكتب عليه كتابا فيقول أترونني أخذت منه ثمن هذا الا ولكن يجيء فيسألني فينزف دم وجهه في وجهي فأكره رده فأتاه مولى لقريش بابن مولاه وهو غلام فقال ان أباه هذا قد هلك وقد أردنا تزويجه فقال ما عندي ولكن خذ في أماني فلما مات سعيد بن العاصي جاء الرجل الى عمرو بن سعيد فقال اني لقيت أباك بابن فلان فأخبره بالقصة فقال له عمرو فكم أخذت فقال عشرة آلاف درهم فأقبل عمرو على القوم فقال من رأى أعجز من هذا يقول له سعيد خذ في أماني ما شئت فيأخذ عشرة آلاف لو أخذت مائة الف لأديتها عنك والابيات التي أنشدناها لأبي قطيفة وهو عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط قالها حين نفاه ابن الزبير عن المدينة حسبما قدمناه ومنبر والحمى موضعان بأحواز قرطاجنة وقوله يجعل لها مغاني الشعب فدا أي بود لو كانت مغاني الشعب تفدى هذه المغاني من البلى الذي استولى عليها والاعداء الذين أحاطوا بها

﴿ ذكر مغاني الشعب ومغاني الشعب هي التي يقول فيها أبو الطيب المتنبي ﴾

مغاني الشعب طيبا في المغاني * بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها * غريب الوجه واليد واللسان
طبت فرساننا والخيل حتى * خشيت وان كرمن من الحران
غدونا ننفض الاغصان فيه * على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الشمس عني * وجئن من الضياء بما كفاني
والقى الشرق منها في ثيابي * دنانيرا تفر من البنان
لها ثمر تشير اليك منه * بأشربة وقفن بلا أواني
وأمواه تصل بها حصاها * صليل الحلي في جيد الغواني

ويعرف هذا الشعب بشعب بوان وكان كما قال أبو العباس المبرد قال كنت مع الحسن بن رجاء بفارس فخرجت الى شعب بوان فنظرت الى تربة كأنها الكافور ورياض كأنها الثوب الموشى وماء ينحدر كأنه سلاسل الفضة على حصباء كأنها حصى الدر فجعلت أطوف في جنباتها وأدور في عرصاتها فاذا في بعض جدراتها مكتوب

اذا أشرف المكروب من رأس تلعة * على شعب بوان أفاق من الكرب

والماء بطن كالحرير لطافة * ومطرد يجرى من البارد العذب
وطيب رياض فى بلاد مربعة * وأغصان أشجار جناها على قرب
يدير علينا الكأس من لوحظته * بعينيك مالمت المحبين فى الحب
فبالله ياريح الشمال تحملى * الى شعب بوان سلام فتى صب

قال أبو العباس فأخبرت سليمان بن وهب بما رأيت فقال قد رأيت تحت هذه الابيات

ليت شعرى عن الذين تركنا * خلفنا بالعراق هل ذكرونا
أم يكون المدى تطاول حتى * قدم العهد بيننا فنسونا
إن جفوا حرمة الصفاء فانا * لهم فى الهوى كما عهدونا

تجَاوَرَتْ أمْوَاهُها فَمَا اشْتَكى فيهَا امرُؤٌ مِنْ ظَمأٍ ولاَ اشْتَكا
لَمْ تَقْتَسِمْ فِيهَا المِيَاهُ بِالْحسَى كَقَسمِهَا فى مأسَلٍ وذِى حُسا
لَيسَتْ وأيمُ الله مِثْلَ بقعَةٍ يُجاوِرُ الأيْمُ بِهاضَبَّ الكُدَا
فى كلِّ وَادٍ مابِهِ مُسْتَمتَعٌ ومَطْعَمٌ الاّ كَشِيشٌ وكُشَا

اشتكى فى صدر البيت الاول افتعل من الشكوى واشتكى فى آخره اتخذ شكوة وهى مثل القربة من جلد الرضيع فاذا كان جلد الجذع فما فوقه سمى وطبا يقول إن هذه المواضع تجاورت الأمواه فيها فهى لقرب بعضها من بعض لا يشتكى المار فيها من ظمأ كما يشتكى فى غيرها من الارض وكما يكون فى الصحارى وأرض الاعراب ولا يتخذ شكوة ولا شيئا يحمل فيه الماء لعدم حاجته الى ذلك والحسى جمع حسوة بالضم وهى قدر ما يحتسى مرة ومأسل موضع فى ديار بنى مرة قال امرؤ القيس

كدينك من أم الحويرث قبلها * وجارتها أم الرباب بمأسل

وذو حسى موضع فى ديار بنى مرة قال النابغة

عفا ذو حسى من فرتنا فالفوارع * فجنبا أريك فالتلاع الدوافع

يقول ان هذه الأرض كثيرة المياه والانهار فلا تقتسم فيها المياه حسوة حسوة فيقترع عليها كما يفعل فى أرض الاعراب وأيم الله قسم وأصله يمن الله والايم الحية قال ابن السكيت أصله أيم مخفف مثل بين وبين وهين وهين والضب دويبة والجمع ضباب وأضب وفى المثل أعق من ضب لانه ربما جاع فأكل حسوله والانثى ضبة ويقولون لا أفعله حتى يرد الضب لان الضب لا يشرب ماء ومن كلامهم الذى يضعونه على ألسنة البهائم قالت السمكة وردا ياضب فقال الضب

أصبح قلبى صردا * لايشتهى أن يردا * الا عرارا عردا * وصليانا بردا * وعنكثا ملتبدا * ويقولون ضب كدية والكدية الموضع الصلب والضباب مولعة بها قال الشاعر

سقى الله أرضا يعلم الضب أنها * بعيد من الآفات طيبة البقل
بنى بيته فيها على رأس كدية * وكل امرىء فى حرفة العيش ذو عقل

وقال الآخر

ويحفر فى الكدى خوف انهيار * ويجعل بيته رأس الوجين

وقال الآخر

ترى الشرق قد أفنى دوائر وجهه * كضب الكدى أفنى أنامله الحفر

أقسم الناظم على هذه الارض أنها أفضلها وكثرة خصبها واطرادمياهها تباين أرض الصحراء التي لا يوجد بها ماء ولا يكاد يكون بها من الحيوان الا الحيات والضباب والكشيش صوت الافعى والحية وهو من جلد الافعى لا من فيها قال الشاعر

كأن صوت شخبها المرفض * كشيش افعى ازمعت لعض

فهي تحك بعضها ببعض

وقد كشت تكش والكشى جمع كشية وهي شحمة بطن الضب قال وأنت لو ذقت الكشى بالا كباد لما تركت الضب يعدو بالواد وقد أكل الضب على مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأكل هو عليه السلام وقال ليس بأرض قومي فأجدني أعافه وهذا تصريح بأنه لم تكن بمكة الضباب (١) ومعنى ما قاله الناظم ان أراضي الاعراب لا يسمع بها الا الكشيش ولا يوجد بها طعام الا الكشى يذمها بذلك ويفضل أرضه عليها وقطع الناظم الهمزة من أيم الله والمنقول أنها همزة وصل وذلك أن أصل هذه الكلمة يمن الله ثم حذفت لامه وهي النون وعوض منها همزة الوصل كما فعلوا بابن واسم واثنين وغيرهما مما ذكره النحاة في بابه وقد ذهب الفراء ومن تبعه الى تسويغ القطع في همزة أيمن وذكروا أن قطعها هو الاصل لانه جمع يمين عندهم واستدلوا بقول الشاعر

فتجمع أيمن منا ومنكم * والبصريون لا يوافقون على ذلك بل يزعمون أن أصل أيمن يمن فسكن أوله وزيدت همزة الوصل فيه كما فعلوا بامرىء ولا أذكر الآن خلافا في أيم الله ان همزته همزة وصل فان لم يكن قطعه مذهبا لاهل الكوفة فان الناظم قطعه لضرورة الوزن كما يشاكل به الايم وقد جانس الناظم بين اشتكى والحسى وذو حسى وأيم الله والايم والكشيش والكشى وعادل بين أول الكلام وآخره في البيت الاخير فرد الكشيش الى المستمع والكشى الى المطعم وجاء ذلك بارداً غاية البرد فيه عجيب فذكر ان المغاني التي تغشاها تلك المغزل ليست من البلاد الجدبة ولا من المنازل القليلة الخير وان باديتها ليست كبوادي الاعراب الذين نشئوا على شظف العيش وانما أراد أن يصفها بالنعمة والرفاهية فانتقل الى وصف المغاني

---

(١) ومما يجر اليه ذكر الضب ما ذكر ان خالد بن عبد الله القسري ولى حمدان بعض البلاد فلما جاء المهرجان أهدى كل عامل الى خالد ما جرت عادة العمال باهدائه وأهدى حمدان قفصا مملوأ بضباب وكتب اليه

جبا العمال عمال الخراج وجبوتى * محلقة الاذناب صفر الشواكل

رعين الدبا والنقد حتى كأنما * كساهن سلطان ثياب المراجل

ترى كل ذيال اذا الشمس عارضت * سما بين عرسيه سمو المخايل

سبحل له نزكان كانا فضيلة * على كل حاف في البلاد وناعل

النزك ذكر الضب والعرب تزعم أن له نزكين والجبوة ما يجبيه العامل يقال جبيت الخراج وجبوته بالياء والواو والنقد ضرب من النبت

أكلت الضباب فما عفتها * واني لاهوى لحوم الغنم

وركبت زبدا على تمرة * فنعم الطعام ونعم الادم

وقد نلت ذاك كما نلتمو * فلم أرفيها كضب هرم

وما في البيوض كبيض الدجا * ج وبيض الجراد شفاء القرم

ومكن الضباب طعام العريـ * ـب ولا تشتهيه نفوس العجم

كَمْ مِنْ ظِبَاءٍ فِي الْحَرِيرِ دُونَها ... تَشُبُّ بِالْهِنْدِيِّ نِيرَانَ الْقِرَا

وَمِنْ أُسُودٍ فِي الْحَدِيدِ دُونَها ... تَشُبُّ بِالْهِنْدِيِّ نِيرَانَ الْوَغَا

الهندى فى البيت الاول العود الهندى والهندى فى البيت الثانى السيف وقد تقدم تفسير ذلك فيما قبل وانما أراد أن يصف هذه المرأة بأنها مخدومة يخدمها الجوارى الحسان يرفلن فى الحرير و يوقدن نار القرى بالمندل و يباشرن المهن دونها وذلك لعزتها وشرفها وكثرة خولها وانها أيضا محمية يمنعها الكماة والابطال يمشون فى دروع الحديد و يوقدون نار الحرب بالسيوف غيرة عليها وحماية لها وقد وصف قومها بالكرم والشجاعة وهذا كقول أبى بكر بن عمار

قداح زند المجد لاينفك من * نار الوغى الا الى نار القرا

وان كان الناظم قد نقل المعنى من ايجاز العبارة الى الطول فذلك يغتفر له بالزيادة التى زادها مما يدل على الرفاهية من ايقاد النيران بالطيب واستخدام الجوارى الرافلات فى الحرير و بمقابلة الظباء بالاسود والحرير بالحديد والهندى بالهندى والقرى بالوغى مع التجنيس الذى تضمنه البيتان وألم الناظم بهذا المعنى فكرر فيه اللفظ بعينه فى قصيدة له رائية فقال

فيشب بالهندى نيران الوغى * ويشب بالهندى نيران القرى

وقد قال أبو الطيب المتنبى فيما يشير اليه عجز البيت الاول وذكر الناقة

تركت دخان الرمث فى أوطانها * طلبا لقوم يوقدون العنبرا

وقد أنشدناه قبل

مَنْ نَاشِدٌ قَلْبِيَ عِنْدَ شَادِنٍ ... إِذَا انْتَوَى حَلَّ وَإِنْ حَلَّ انْتَوَى

تَنْحَدِرُ الْعِيسُ إِلَى الْبَحْرِ بِهِ ... وَتَارَةً تَسْمُو إِلَى وَادِي الْقُرَى

يُمَارِسُ الشَّوْقَ إِلَى مُرْسِيَةٍ ... اذا تَلَاقَى الظِّلُّ فِيهَا وَالْجَنَى

حَتَّى إِذَا مَا بَارَكَ الْوَسْمِيُّ مِنْ ... أَرْجَاءِ قُرْطَاجَنَّةٍ بَدَا بَدَا

وَأَصْحَرَ الْحَادِي بِهِ فِي أَفْيَحٍ ... قَدِ اكْتَسَى مِنَ الرَّبِيعِ مَا اكْتَسَى

كَمْ صَافَ فِي دَوْحٍ وَفِي دَوْحٍ وَكَمْ ... بَيْنَ الْقُصُورِ وَالْبُحُورِ قَدْ شَتَا

الناشد الطالب وقد تقدم والشاذن ولد الظبية وكنى به عن المرأة وانتوى انتقل وتحول وفى الحديث تنتوى حيث ينتوى أهلها وانما أراد انها كثيرة الحل والارتحال بحسب المواضع والفصول وجاء بالابيات التى بعد تفسيرا لذلك فقال انها تارة تهبط الى البحر وتارة ترتفع الى الوادى وسماه وادى القرى لكثرة ما عليه من القرى و يقال مارست الامر أمارسه مراسا وممارسة اذا عالجته والجنى ما يجنى من حمل الشجر وقوله اذا تلاقى الظل فيها والجنى أى اجتمع لها الشيئان معا وهما المقصود من الشجر كما قال الله تعالى ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا وقد قال الشاعر

اذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى * فابعدكن الله من سمرات

ولا يبعد أن يكون تقدير الكلام حيث تلاقى الظل والظل والجنى والجنى كناية عن تكاثف الظلال وتكاثر القطوف فحذف المعطوف وله نظائر فى كلامهم والوسمى مطر أول الربيع وهو بعد الخريف سمى بذلك لانه يسم الارض بالنبات وبدا أظهر وبدا خرج الى البادية يريد أنهم يشتاقون الى مرسية فى زمن الصيف حين تشتهى الظلال والثمار فاذا بدا لهم أول بارق من بوارق الشتاء رجعوا الى قرطاجنة حيث باديتهم وذلك لاعتدال هوائها فى ذلك الوقت ويقال أصحر الرجل اذا خرج الى الصحراء وهى البرية والافيح الواسع يريد أنهم يصيرون الى المسارح المتسعة والمراعى المعشبة وقوله كم صاف فى دوح وفى روح قد تقدم تفسير الدوح والروح والمراد أنهم يصيفون بمرسية حيث الظلال والثمار ويشتون بالساحل وقد جانس الناظم هنا بين ناشد وشادن وبدا وبدا ودوح وروح وطابق بين قوله اذا انتوى حل وان حل انتوى وبين تصدر وتسمو وأحكم الترصيع فى البيت الاخير بين لفظتى دوح وروح والقصور والصور

سَقَى الحَيَا هَالاَتِ بَدْرٍ لَمْ يَخَفْ ... مِنِ انتِقَاصٍ مُنْذُ تَمَّ وَوَفَا
وَلاَ يَزَلْ يَنْهَلُّ فِى دَارَاتِهِ ... غَيْثٌ إِذَا مَا وَسَمَ الرَّوْضَ وَلاَ
سَقَى الرَّبِيعَ كُلُّ غَادٍ رَائِحٍ ... إِذَا امْتَرَتْ رَبِيعَهُ الرِّيحُ هَمَا
وَبَاكَرَ الجِنَانَ حَنَّانٌ إِذَا ... سَقَى جَنِينَ النَّبْتِ غَنَّى وَشَدَا
وَصَبَّحَ الصِّبَاحَ غَيْثٌ قَطْرُهُ ... حَرٌّ بِسُقْيَا كُلِّ قُطْرٍ وَحَرَا
وَانْهَمَرَ الغَيْثُ الرُّكَامُ بَعْدَهُ ... عَلَى الرِّيَاضِ وَالبِيَاضِ وَانْهَمَا
وَكَرَّ فِى مَدْرَجِهِ مُنْتَحِيًا ... مَنَازِلَ الدَّرَّاجِ فِيمَا قَدْ نَحَا
وَلاَحَ لاَتْ بَنِى سِرَاجٍ سُرُجُهُ ... وَنَوَّرَتْ مِنْ أُفْقِهِ مَا قَدْ دَجَا

قد تقدم تفسير الهالات ويقال وفى الشئ وفيا على فعول أى تم وكنى بالبدر عن الحبيب وبالهالات عن المنازل والدارات جمع دارة وقد تكون جمع دار والدارة أخص من الدار قال أمية بن أبى الصلت يمدح عبد الله بن جدعان

له داع بمكة مشمعل * وآخر فوق دارته ينادى

ووسم الروض سقاه الوسمى وولى سقله ثانيا بعد الوسمى وهو الولى تقول منه وليت الارض وليا ومراده بالدارات هنا الديار ولكن لما تقدم ذكر البدر حسن ذكر الدارات وان كان الوزن لا يمنعه أن يقول فى دياره تورية وايهاما انه يريد دارات البدر وهو مما قدمته فى المناسبة اللفظية وقوله سقى الربيع كل غاد رائح فاما ان يكون الربيع موضعا عندهم ولم أجد من أتحقق ذلك منه الا أن ذلك هو الذى يقتضيه مساق الكلام لاتيانه معه باسماء المواضع وأما أن يريد زمن الربيع والربيع ربيعان الربيع الاول وهو الفصل الذى تأتى فيه الكمأة والنور وهو ربيع الكلا والربيع الثانى وهو الفصل الذى تدرك فيه الثمار وفى الناس من يسميه الربيع الاول وقال بعضهم العرب تجعل السنة ستة أزمنة شهران منها الربيع الاول وشهران صيف وشهران قيظ وشهران الربيع الثانى وشهران خريف وشهران شتاء وأنشد

ان بنى صبية صيفيون * أفلح من كان له ربعيون

فجعل الصيف بعد الربيع الاول وجمع الربيع أربعاء وأربعة مثل نصيب وانصباء وأنصبة قال يعقوب يجمع ربيع الكلا أربعة وربيع الجداول أربعاء والغادي الرائح يريد به السحاب يروح بالسقيا ويغدو وقوله اذا امترت بيعة الريح هما الربيع هنا المطر في زمن الربيع تقول منه ربعت الارض فهي مربوعة وامترت احتلبت وقد تقدم وقوله وباكر الجنان الجنان موضع هنالك والحنان السحاب الذي يسمع فيه صوت الرعد سمي بذلك تشبيها له بحنين الابل أي صوتها وجنين النبت ما استتر منه وكل شئ مستور فهو جنين حتى انهم ليقولون ضغن جنين ووصف النبت بذلك كناية عن صغره وانه في أول خروجه وأكثره بعد مستتر في بطن الارض وهو فعيل بمعنى مفعول وقد يكون أيضا فعيلا من جن النبت جنونا اذا طال والتف وخرج زهره وما أبدع قول الشريف أبي الحسن الرضي الموسوي

أرسى النسيم بواديكم ولا برحت * حوامل المزن في أجداثكم تضع

ولا يزال جنين النبت ترضعه * على قبوركم العراصة الهمع

فاستعارة الحوامل والوضع والارضاع للمزن والجنين للنبت مع نموه عن الماء الذي يشرب من المزن كما يغني الطفل عن الرضاع غاية في البراعة وقال السري الموصلي

أقول لحنان العشي مغرد * يهز صفيح البارق المتوقد

تبسم عن ري البلاد حبيه (١) * ولم يبتسم الا لانجاز موعد

ويادرها الشرقي لازال رائح * يحل عقود المزن فيك ومغتد

عليلة أنفاس الرياح كأنما * يعل بماء الورد نرجسها الندى

يشق جيوب الورد عن ثمراته * نسيم متى ينظر الى الماء يبرد

وقوله غنى وشدا يريد بالغناء والشدو ما يسمع من أصوات الرعد فيه لما جعل السحاب ساقيا جعل ذلك غناء اذ كان الغناء كثيرا ما يستعمل عند الشرب وينظر الى قول الشاعر وقد أنشدناه قبل

ودولاب اذا ان * يزيد القلب أشجانا

سقى الغصن وغناه * فما ينفك نشوانا

والصباح موضع بأرباله وصبه سقاه في الصباح وحر حقيق والقطر واحد الاقطار والحرا ناحية الشئ يقول ان هذا الغيث لكثرته وغزارة صوبه حقيق أن يسقي جميع الاقطار والنواحي وكان الاشبه بقصد الناظم في ايثاره التجنيس المماثل أن يكون ضبط هذا الموضع حرا بسقيا كل قطر وحرا فيجانس حرا بحرا وقد تقدم أنه يقال فلان حر بكذا وحرا بكذا والركام المتراكم والرياض جمع روض والبياض الارض التي لا شجر فيها وقوله وكر في مدرجه أي رجع ادراجه والمدرج المسلك والمذهب وكر رجع والدراج موضع ومنتحيا قاصدا وبنو سراج قربة هنالك ولألأت أضاءت والسرج جمع سراج وأصله سرج وخفف بالسكون وأراد بها هنا البروق ودجا أظلم دعا لهذا الموضع أن تنوره البروق وتضئ به وهو من باب الارداف المتقدم ولا خفاء بما اشتملت عليه هذه الابيات من التجنيس والطباق وأوصاف الارداف

يُهْدِي إِلَى بَنِي بَشِيرٍ بِشْرَهُ * وَلاَ يَمَلُّ مِنْ سُرًى وَمِنْ سُرَا

مُلْقِيًا بَنِي سُرُورٍ بَعْدَهَا * مَسَرَّةً وَمُرْضِيًا بَنِي رِضَا

---

(١) الحبي السحاب

وحلَّ فى بَنى عِصامٍ عُصْمَهُ وفضّ عزلاءَ المزادِ وفرَا

بنو بشير موضع و ينبغى أن يضبط بشره بفتح الباء من قولهم بشرت الرجل ابشره بالضم بشرا و بشورا من البشرى و يكون المراد ما يظهر من مخايله بشارة بالسقيا وقد يتجه أن يضبط بالكسر و يكون عبارة عن اضاءة البرق واشراق سناه من قولهم فلان حسن البشر أى طلق الوجه مشرقه و يكون المعنى أنه يفيد بنى بشير الاشراق والضياء من أنوار برقه والاول أظهر وقوله ولا يعل من سرى ومن شرا أما السرى فالمراد به سير الليل وأما الشرا فاللمعان يقال شرى البرق بالكسر يشرى اذا كثر لمعانه قال الشاعر

أصاح ترى البرق لم يغتمض * يموت فواقا و يشرى فواقا

و بنو سرور و بنو رضى موضعان والعصم جمع عصام وهو رباط القربة وسيرها الذى تحمل به قال الشاعر

وقربة أقوام جعلت عصامها * على كاهل منى ذلول مرحل

وأصله عصم وخفف و بنو عصام موضع بأربولة والمزاد جمع مزادة وهى الراوية والعزلاء فمها الاسفل وقد تقدم واصل الفض الكسر بالتفرقة والمراد به ههنا والشق الفتح وقد تقدم تفسير فرى وكل ماذكره من حل العصم وفض العزلاء وفريها انما هو تمثيل يراد به غزارة الصوب وكثرة الانهمال اذ كانت المزادة اذا فضت عزلاؤها وحل عصمها جرى الماء منها وقد جانس بين بنى بشير و بشره و بين سرى وشرى و بين سرور ومسرة و بين مرضيا و بنى رضى و بين بنى عصام وعصمة

حتى اذا ما ضاحكت مرسيةً بكت على رسم حبيبٍ قد خلا

ونَدَبَتْ معاهداً أنحى العدا فيها على رسم الهدى حتى عفا

وانتقلت ما بين شطّ نهرها وسندِيها من ذرا الى ذرا

قوله ضاحكت مرسية يريد قابل مرسية برقها والعرب تسمى عارض السحاب اذا برق الضاحك والمفاعلة غالبا لا تكون الا من اثنين تقول ضاحكته أى ضحكت اليه وضحك الى وقد يتصور ذلك هنا بأن تكون السحاب قابلت مرسية ببرقها وقابلتها مرسية بأنوارها وعجيب زهرتها وعبر عن كلا الامرين بالضحك وقوله بكت على رسم حبيب قد خلا جعل صوبها هنالك بكاء على من زال عنها من الاحباب وندبا للمعاهد التى استولى عليها الروم وعطلوها من كلمة الايمان ولله الامر من قبل ومن بعد و يشبه قول الشاعر

كأن السحاب الغر غيبن تحتها * حبيبا فما ترقى لهن مدامع

وقد أحسن القائل

مررنا على الروض الذى قد تبسمت * رباه وأرواح الاباريق تسفك

فلم أر شيئا كان أحسن منظرا * من المزن يجرى دمعه وهو ضاحك

والاظهر أن مراده بقوله بكت على رسم حبيب قد خلا ان الحبيب هنا هو الاسلام الذى خلت منه فهى تبكى على آثاره العافية والمعاهد التى كانت هنالك

تجنبُ أولاها وأخراها الصبا الى جناب الهُذَلِيّينَ الأُلى

ويلتقى بنى خيارٍ خيرُها اذا بنى سعدٍ بها السعدُ التقى

وترتقي مزجيةً عنانها مرخيةً عنانها إلى دنا
إلى زقاق الجنة الأعلى الذي من شاطئ الكوثر من باب المنى
إلى بنا الرشاقة البيض التي ألحاظها رشاقة لمن رنا

الهذليون موضع بمرسية والألى جمع الأولى وهو مقلوب من الاول قالوا ذهبت العرب الالى وقد تقدم وتجنب تقود من قولهم جنبت الدابة اذا قدتها الى جنبك وجنبت الاسير جنبا بالتحريك وقالوا خيل مجنبة شدد للكثرة وبنو خيار موضع بمرسية وكذلك بنو سعد وقوله وترتقي مزجية عنانها أى سائقة والعنان بفتح العين السحاب والضمير يعود على الصبا والعنان عنان الدابة وارخاؤه ارساله ورخار بض بمرسية وذكر ارخاء العنان هنا تمثيلا وانما أراد مسارعتها الى ذلك الموضع وزقاق الجنة موضع وقوله بشاطئ الكوثر أراد النهر وعبر عنه بالكوثر ليكون أنسب لذكر الجنة وهو ما قدمناه في ائتلاف اللفظ باللفظ و باب المنا باب من أبواب مرسية والبنا جمع بنية والرشاقة موضع بمرسية وقوله الحاظها رشاقة لمن رنا يريد الحاظ ساكنيها والرشاقة الرماة يقال رشقته بالنبل أرشقه رشقا وقد جانس بين تجنب وجناب و بني خيار وخيرها و بني سعد والسعد ومزجية ومرخية وعنانها وعنانها والرشاقة ورشاقة ومرخية ورخا ورد في البيت الثاني العجز على الصدر

واجتاز باب الجوزة الغيث إلى سقي المغاني العجميات الدنا
فالزنقات المشرقات المجتلى المورقات المونقات المجتنى
وارتقت السحب إلى التاج الذي قد التقى الدوح عليه وارتقى
معنى له اسم قد عنى مشتقه به من المعنى الصحيح ما عنا
كأنه يأمر كل مهجة بالشكر لله على ما قد حبا

باب الجوزة والمغاني العجميات بمرسية والدنا جمع الدنيا تأنيث الأدنى يعني القريبة والزنقات كذلك بمرسية والمجتلى المنظر والمورقات الكثيرة ورق الشجر والمونقات جمع مونقة من قولك آنقني الشئ اذا أعجبني وانما يريد ذات الظل والجنا والتاج موضع هنالك يعرف ببني اشكرنه وقوله معنى له اسم قد عنى مشتقه يعني ان اشتقاقه من الشكر وان معناه فيه موجود صحيح وقوله كأنه يأمر كل مهجة البيت يريد ان هذا الموضع لما اجتمع فيه من المنظر العجيب والظلال الانيقة والقطوف الدانية يأمر المهج بالشكر لله على ما جمع لاهله من النعم فلذلك سمي هذا الاسم الذي لفظه لفظ الامر بالشكر متصلا بمثل نون الجماعة وكأنما اراد بها المهج مختوما بمثل هاء الضمير وكأنما يراد به المنعم وقد ضمن هذه الابيات أنواعا من البديع منها الترصيع في البيت الثاني والتصدير في الثالث والتجنيس بين المجتنى والمجتلى والمونقات والمورقات والتقى وارتقى

وارتفعت عن سمتها سحائب سواحب أذيالها على الثرا
وأسعدت قصر ابن سعد سحب تصعد من منحدر لمستما
واجتلب النسيم أخلاف الحيا على البروج والمروج وامترا

وَظَلَّلَتْ رَايَاتُهُ الدَّوْسَ الذِي   قَدْ أَشْبَهَ الفِرْدَوْسَ حُسْنًا وحَلَا

وصُهِّرَ الجَوُّ بِبَرْقٍ سَاهِرٍ   عَلَى الصُّهَيْرِجِ الْمُنِيرِ الْمُجْتَلَا

وسَاوَرَتْ بَنِي سِوَارٍ حَيَّةٌ   مِنْ بَرْقِهِ تُحْيِي وَلَا تُعْيِي الرُّقَا

السمت الطريق وسواحب من سحبت ذيلى اذا جررته وانما أراد قربهامن الأرض وقصر ابن سعد هو قصر ابن مردنيش وقد تقدم والمصدر الهبوط والمسقى الصعود وهو مفتعل من سموت والأخلاف جمع خلف بالكسر وهو حلمة ضرع الناقة والبروج والمروج مواضع بمرسية والدوس موضع هنالك وشبه السحاب بالرايات وهو معنى متداول وقد قال على بن الجهم يصف سحابة

وسارية ترتاد أرضا تجودها * شغلت بها عيناطويلا هجودها
أتتنابها ريح الصبا فكأنها * فتاة تزجيها عجوز تقودها
فما برحت بغداد حتى تفجرت * بأودية ماتستفيق مدودها
فلما قضت حق العراق واهله * أتاها من الريح الشمال بريدها
فمرت تفوت الطرف سبقا كأنها * جنود عبيد الله ولت بنودها

يريد انصراف عبيدالله بن خاقان عن الجعفرى الى بغداد من سر من رأى حين قتل المتوكل وهو معكوس من قول أبي العتاهية

ورايات يحل النصر فيها * تمر كأنها قطع السحاب

والفردوس حديقة في الجنة والفردوس البستان وفردوس الجنة هو المراد وقوله وصهر الجو ببرق ساهر يقال صهرته الشمس اذا اشتد عليه حرها وانما شبه البرق بالنار وجعل الجو يصهر به وجعل البرق ساهرا اذ كان لايهدأ ليلا والعرب تجعل حركة البرق ولمعانه يقظة وسهرا وتجعل سكونه وخفاءه نعاسا وقد قال الشاعر

متى شاءها كليل موهنا عمل(١) * باتت طراباو بات الليل لم ينم

وقال امرؤ القيس

* أحار ترى بريقا هب وهنا *

وقد قال أبو العلاء   * ياساهر البرق أيقظ راقد السمر *

وهو معنى يتداوله الناس قديما وحديثا والصهريج موضع والمنير المجتلى المشرق المنظر وقوله وساورت بني سوار حية بنوسوار موضع هنالك وساورت واثبت وسورة الحية وثوبها ومنه قوله وبت كأني ساورتني ضئيلة شبه البرق في اضطرابه بالحية وقوله تحيي ولا تعيي الرقا أي هي مخالفة لحال الحيات فالحيات شانها أن تقتل وتعيي الراقي وحال هذه بالعكس في أحياء ماتساوره وفي أنها لاتعيي راقيها و ينظر هذا المعنى الى قول القائل

ونعت البراقع مقلوبها * تدب على ورد خد ند
تسالم من وطئت خده * وتلدغ قلبي الشجي الأبعد

فقوله تسالم من وطئت خده مثل المعنى الذي ذهب اليه الناظم وقد جانس بين سحائب وسواحب وبين اسعدت وابن سعد وتصعد و بين الدوس والفردوس و بين ساورت و بني سوار وصهر الجو والصهريج الى الترصيع الذي ضمنه الأول والثالث

---

(١) عمل البرق كفرح دام فهو عمل

وَجَلَّلَ الشَّطَّ الجَنُوبِيَّ حَيًا لاَ يَنجَلِي الاَّ اِذَا الجَدْبُ انْجَلاَ

وَحَلَّ فِي بَنِي سُعُودٍ عِقْدَهُ كُلُّ حَبِيٍّ عاقِدٍ فِيهَا الحُبَا

وَعاجَ بِالوَادِي مَعَاجَ جَزِعٍ باكٍ علي أجزاعِهِ والمُنْحَنَا

فالجِسْرِ فالرَّمْلَةِ مِنْ جَرْعائِهِ إِلي الغَدِيرِ فالكَثِيبِ فالنَّقَا

جلل عم يقال سحاب مجلل وهو الذى يعم الأرض بالمطر والشط الجنوبى الذى فى ناحية الجنوب وقوله وحل فى نبى سعود عقده شبه انتشار القطر بانتشار العقد إذا حل وقد قال بعضهم يصف السحاب والبرق فاحسن ماشاء

عارض اقبل فى جنح الدجا * يتهادى كتهادى ذى الوجا

أتلفت ريح الصبا لؤلؤه * فانبرى يوقد عنها سرجا

وكأن الرعد حادى مصعب(١) * كلما صال عليه وسجا

وكأن البرق كاس سقبت * فى لهاة المزن حتى لهجا

وكأن الجو ميدان وغى * رفعت فيه المذاكى رهجا

وقوله كل حي عاقد فيها قد تقدم تفسير الحبا والحبا جمع حبوة وهي اسم لهيئة المحتبي وجاء به على جهة التمثيل لان المحتبي لا ينتقل مادام عاقدا حبوته يريد أن السحاب أقام هنالك ولم ينتقل و بنو سعود موضع والاجزاع جمع جزع وهو منعطف الوادي والمنحنى كذلك من قولك انحنى الشئ اذا انعطف وكل ما ذكر فى البيت الأخير مواضع هنالك وجانس بين الحبا والحبا و جزع والاجزاع

وأغرورقت عَلَى الخَلِيجِ عَيْنُهُ وَاخْتَلَجَ البَارِقُ مِنهُ وَنَزَا

ثُمَّ سَعَى إِلَي الجُسَيْرِ مُزْجِيًا مِنْ دِرَّةِ القَطْرِ لَهُ مَاقَدْ زَجَا

وأسْرَعَتْ لِلْفَرْسِ أفْرَاسٌ لَهُ شُقْرٌ تَقُودُ دُهْمًا ذَاتَ وَنَا

صَاغَ لَهَا البَرْقُ بُرًى مِنْ ذَهَبٍ ثُمَّتَ أَبْرَى دُهْمَهَا بِمَا بَرَا

يقال أغرورقت عيناه بالدموع أى امتلأتا واستعاره هنا للسحاب والخليج نهر هنالك وعينه يريد عين السحاب وانما قال اغرورقت ترشيحا للتورية ويسوغ أن يكون استعار للسحاب عينا تشبيها له بالعين الباكية وقوله اختلج البارق منه ونزا أى استطار والنزو الوثوب يريد اضطرابه وانما جاء باختلج لانه قد ذكر العين والاختلاج مما يوصف به العين يقال خلجت عينه تخلج وتخلج خلوجا واختلجت اذا طارت وخلجه بعينه أى غمزه فهو من باب مناسبة اللفظ للفظ وكذلك ذكر البارق هنا لأنه من صفة البصر ولاشك ان الناظم يقصد هذا وأمثاله مما هو أخفى منه يدل على ذلك ماتقدم من كلامه مما انحى فيه هذه المناحى وأشباهها وقوله ثم سما الى الجسير مزجيا الجسير موضع والمزجى السائق والريح تزجى السحاب أى تسوقها ودرة القطر صبه يقال للسحاب درة أى صب والجمع درر قال الشاعر

سلام الاله وريحانه * ورحمته وسماء درر

---

(١) مصعب كمكرم فحل

وكذلك يقال للبن درة أى كثرة وسيلان وقالوا درت حلوبة المسلمين أى فيئهم وقوله ماقد زجا أى ماطاوع صوبه وتيسر وسارع فى الانهمال وهو من قولهم زجا الخراج يزجو زجاء اذا تيسرت جبايته وقوله واسرعت للفرس افراس الفرس موضع وأراد بالافراس الشقر البروق وانما شبهها بها فى السرعة واللون وأراد بالدهم السحائب وحرك الهاء من الدهم بالضم لضرورة الوزن قال سيبويه رحمه الله وأما فعل اذا كان صفة فانه يكسر على فعل كما كسر وافعولا على فعل لأن أفعل من الثلاثة وفيه زائدة كما أن فعولا فيه زائدة وعدة حروفه كعدة حروف فعول الا انهم لا يثقلون فى أفعل فى الجمع العين الا أن يضطر شاعر لها وجعلها ذات ونى لثقلها والونى الكلال والاعياء قال امرؤ القيس

مسح اذا ما السابحات على الونى * أثرن غبارا بالكديد المركل

ولما كانت البروق تترا أى أمامها جعلها قائدة لها وقوله صاغ لها البرق برى من ذهب البرى جمع برة وهى حلقة من صفر تجعل فى أنف البعير وأبرى دهمها أى جعل فى آنافها البرى يقال أبريت الناقة اذا جعلت البرة فى أنفها وقوله بما برا يريد بما صاغ من قولهم برة مبروة شبه التواء البرق فى مقدمة السحاب بالبرى فى آناف الابل الدهم وانما وصف السحاب بانها دهم لسوادها وهى دلالة على كثرة الماء فيها وجعلها من ذهب لاحمرار البرق وقد جانس الناظم بين الخليج واختلج ومزجيا وزجا و بين الفرس والأفراس و بين برى وأبرى و برا وطابق بين أسرعت و ونى وشقر ودهم

وَالْتَفَّ فِي مُلَاءَةٍ مِنْ بَرْقِهِ حَبِيُّهَا بِسِكَّةٍ ثُمَّ احْتَبَا

وطَبَّقَ الْبَرْكَ بِبَرْكٍ مُطْبِقٍ مُرْوٍ لِذَاكَ الْقُطْرِ بِالْقَطْرِ الرِّوَا

وَانْتَابَتِ النُّوَّابَ سُحْبٌ كُلَّمَا أَذْكَى بِهَا نِيرَانَهُ الْبَرْقُ سَخَا

الملاءة الريطة والجمع ملاء وقد تقدم تفسير الحبا ويقال احتبى الرجل اذا جمع ظهره وساقيه بعمامته وقد يحتبى بيديه استعار للبرق ملاءة وجعل السحاب محتبيا وهى عبارة عن اجتماعه وعدم انتقاله وقد أحسن فى العبارة و براعة الاستعارة وسكة موضع وقوله وطبق البرك البرك موضع أى أصاب بمطره جميعه يقال طبق الغيم تطبيقا اذا أصاب بمطره جميع الارض وسحابة مطبقة وقوله ببرك مطبق البرك الصدر ومطبق ساتر لجميع الافق من قولك أطبقت الشئ غطيته واستعار للغمام بركا وانما ضربه مثلا لحلوله بذلك الموضع ولزومه إياه وأصله ان الجمل اذا برك بالموضع التى بركه فيه وقد قال امرؤ القيس يصف المطر

والقى بيسيان(١) مع الليل بركه * فانزل منه العصم من كل منزل

و يقال ماء رواء أى عذب ان فتحت الراء مددت وان كسرتها قصرت وقيل هو الذى للواردة فيه رى وقوله وانتابت النواب أى سقته مرة بعد أخرى والنواب موضع يقال انتاب فلان القوم انتيابا اذا أتاهم مرارا وقوله كلما أذكى بها نيرانه البرق سخا يتجه أن يكون سخا من الجود يقال سخا يسخو وسخى يسخى اذا جاد يريد انه يجود بالسقيا على الارض ومن شأن الاجواد أن يذكوا نيرانهم للقرى ليقصدها السارى فيفيضوا عليه احسانهم و يتجه أن يكون أيضا قوله سخا من قولك سخوت النار أسخوها سخوا اذا أوقدت فاجتمع الجمر ففرجته وذلك لتشتعل النار ولما كان البرق يترا أى متفرقا كان فى رأى الناظر كالنار التى تفرج والمعنى الاول أشهر وقد جانس بين الحبلى واحتبى والبرك والبرك وطبق ومطبق والقطر والقطر وانتاب

(١) بسيان جبل

والنواب ومرو والروا ورد العجز على الصدر في عجز البيت الثاني

تَنْحُوا إِذَا عَنِ الْخُنَيْسِ خَنَسَتْ ... تَلاً عَلَى تَلِّ بُونَى قَدْ بَأَى
وتَقْصِدُ السَّدَّ الذِي بِحُسْنِهِ ... وَخِصْبِهِ أَزْبَى عَلَى سُدِّ سَبَا

تنحو تقصد والخنيس موضع وخنست تأخرت ورجعت والتل بمرسية وتل بونى موضع ذكره مالك بن أسماء بن خارجة فى شعره فقال

حبذا ليلنا بتل بونى * اذ نسقى شرابنا ونغنا
من شراب كأنه دم جوف * يترك الشيخ والفتى مرجحنا
حيثما دارت الزجاجة درنا * يحسب الجاهلون انا جننا
ومررنا بنسوة عطرات * وسماع وقرقف فنزلنا

وفى هذه القصيدة يقول فى جارية له

أمغطى منى على بصرى بالحب * ب أم أنت أكمل الناس حسنا
وحديث ألذه هو مما * يشتهى السامعون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا * نا وأحلى الكلام ما كان لحنا

ولما أنشد مالك هذا الشعر للفرزدق قال أفسدت شعرك بذكر بونى قال ان ذلك كان ببونى قال وان كان وانما قال الفرزدق ذلك استثقالا للفظه وكلام الفرزدق هذا يدل على ان الالفاظ الحوشية المستثقلة كانوا يكرهونها فى الشعر و بثا نخر والبأو الكبر والفخر يقال بأوت أباى بأوا والسد بمرسية وسد سبا هو سد مأرب وكان من حسنه وخصبه ما ذكره الله تعالى فى كتابه قال تعالى لقد كان لسبأ فى مسا كنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور الى آخر الآية وسيأتى خبر سد سبا مستوفى بعد هذا ان شاء الله تعالى

وانْحَدَرَتْ عَنْ سَمْتِهَا سَحَائِبٌ ... سَوَاحِبٌ أَذْيَالَهَا فَوْقَ الْبَرَا

البرا التراب وقد تقدم و وقع هذا البيت مكرر الالفاظ من البيت الذى تقدم قبل هذا لم يخالف بين ألفاظهما الا أنه قال هنا انحدرت وقال هنالك ارتفعت وقال هنا فوق البرا وهنالك على الترا

وانْتَابَ مُنْتَابًا وَمَنْجَابًا حَيًا ... لَيْسَ بِمُنْجَابٍ إِذَا انْجَابَ الْحَيَا
وَوَسْمَ الطَّوْسَ حَيًا إِذَا هَمَي ... تُنَاهُ كَالطَّاوُسِ مِمَّا قَدْ وَشَا
وَقَلَّدَ الوُسْطَى بِمَا قَدْ رَاقَ مِنْ ... مَنْظُومِ أَزْهَارٍ وَمَنْثُورِ نَدَا
وانْتَظَمَ اليَاقُوتَتَيْنِ صَيِّبٌ ... إِذَا أَصَابَ الرَّوْضَ مُعْطَالاً حَلاَ

منتاب ومنجاب موضعان وقوله ليس بمنجاب أى بمنكشف يقال انجابت السحابة اذا انكشفت وقوله و وسم الطوس حيا الطوس موضع هنالك و يشبه أن يكون وسم من الوسمى و يشبه أن يكون من وسمت الشئ اذا جعلت عليه سمة وهى العلامة و يكون المعنى أن الحيا علم الارض بالنبات وقوله تناه كالطاوس أى صيره كالطاوس

فى حسن منظره و بديع زيه وحسن الوانه وقوله وقلد الوسطى بماقدراق البيت الوسطى موضع ولكن جاء الناظم هنا بقلدو بمنظوم ومنثور وأوهم أنه يريد بالوسطى وسطى العقد وهو يريد الموضع فورى تورية حسنة وناسب بين الالفاظ وقوله وانتظم الياقوتتين صيب الياقوتتان موضع هنالك والمعطال هو الذى خلا جيده من الحلى والقلائد و يقال منه عطلت المرأة وتعطلت فهى عطل وعاطل ومعطال وقد يستعمل فى الخلو من الشئ وان كان أصله فى الحلى تقول عطل الرجل من المال والادب و يقال حليت المرأة أحليها حليا وحلوتها اذا جعلت لها حليا يريد أنه يجد الروض عاطلا من منظوم الازهار ومنثور الندى فيقلده من ذلك ما يكون له كالحلى وجاء بانتظم مع الياقوتتين و بالمعطال وحلا فتمت التورية وهو من باب الائتلاف وقد جانس بين انتاب ومنتاب و بين منجاب ومنجاب و بين الطوس والطاوس وطابق بين منثور ومنظوم و بين معطال وحلا

مُسَدِّداً نِبَالَهُ لِنُبْلَةٍ ومُشْرِعاً قَنَاتَهُ إلى القَنَا

ثُمَّ ارْتَقَى إلى قُرَى النَّهْرِ التى قَدِ ارْتَقَتْ صَوْبَ الْغَمامِ وَاقْتَرَا

مُسْتَقْصِياً طَالِعَةَ النَّهْرِ إلى أَقْصَى مَعَانٍ مِنْ مَغَانِيهَا القَصَا

النبال السهام العربية ونبلة موضع باحواز مرسية والقناة الرمح والقنا موضع هنالك أيضا و يقال أشرعت الرمح قبله أى سددته شبه القطر بالسهام والرماح وجعل السحاب مسددا الى هذين الموضعين و يقال اقتريت البلاد اذا تتبعتها تخرجت من أرض الى أرض وكذلك قروت وقريت والمعان المباءة والمنزل وقد تقدم والمغانى جمع مغنى والقصاجمع القصوى وهى البعيدة وطالعة النهر يريد به المواضع التى فى أعلاه يريد أن الغمام يرتقى الى قرى الوادى و يتتبعها و يستقصى طالعتها ومغانيها الى آخرها وقد جانس الناظم بين نبال ونبلة و بين قناة والقنا وارتقى واقترى و بين قرى واقترى ومعان ومغانى ومستقص والقصا مع مقابلة فى البيت الاول وترديد فى الثانى

تِلْكَ مَغانِيهَا التى نَحتَلُّها بِشَاطِئِ النَّهْرِ اذَا القَيظُ ذَكَا

ثُمَّ نَحُلُّ بَعْدَهَا مَغَانِياً بِشاطِئِ البَحْرِ اذَا القَيظُ خَبَا

كَمْ زُرْتُ فِى تِلْكَ المَغَانِى الغُرِّ مِنْ غانِيَةٍ تَنْظُرُ عَنْ عَيْنَىْ رَشَا

لَمَّا غَلَا مَا أَرْخَصَتْ مِنْ وَصلِهَا أَرْخَصْتُ مِنْ دُرِّ الدُّمُوعِ مَاغَلَا

مَاحَكَمَتْ عَينِى عَلَى قَلْبِى لَهَا حَتَّى أَنَالَتْهَا بِعَيْنَيْهَا الرَّشَا

القيظ حارة الصيف و يقال ذكت النار تذكو ذكا اذا اشتعلت وخبت النار تخبوا خبوا اذا طفئت والغانية الجارية التى غنيت بزوجها قال الشاعر

أحب الايامى اذ بثينة أيم * واحببت لما أن غنيت الغوانيا

وتكون أيضا التى غنيت بحسنها وجمالها وهى المراد هنا والرشا ولد الظبية وهو مهموز وأبدل الهمزة على الوجه الذى تكلمت عليه قبل وقوله لما غلا ما ارخصت البيت يقول انها منعتنى وصلها بعد ان كانت بذلته فسمحت عينى بالدموع وقد كنت جلدا لا أبكى وجاء بالغلاء والرخص تمثيلا وقد قال المعرى فيما يشبه هذا

وقفت بها لصون الود حتى * أذلت دموع عين ما تصان

وقال أبو الغنائم من متأخرى المشارقة

أأحبابنا ان الدموع التى جرت * رخاصا على حكم الهوى لغوال

وقوله ماحكمت عينى على قلبى لما أراد بحكم العين على القلب ان العين هى التى نظرت وعن نظرها كان هوى القلب فكان ذلك كالحكم من العين عليه وقوله حتى أنالتها بعينيها الرشا يريد أنه لما نظر اليها كان من وحى عينيها اليه ما مكن الوجد فى قلبه وقضى عليه بالغرام فكان ذلك كالرشوة من عينيها العينه كما يقع القضاء على قلبه بالهوى وقد طابق الناظم بين خبا وذكا وبين غلا ما ارخصت وارخصت ما غلا وجانس بين المغانى والغانية

فى ذِمَّةِ اللهِ فُؤادٌ مارعَى ذِمَّتَهُ ظَبْيٌ بِقَلْبِي قَدْ رَعَى

طَلاً كانَّ لونَ سَقمِي كُلَّما قابَلَهُ كَساهُ رَدْعاً وَطَلا

لم تُلِفْ مِنْ يُعْدى عَلَيْهِ أنفُسٌ مَظْلومَةٌ أوْدَى بِها وَما وَدَى

ظَبْيٌ قَدْ انتَصَتْ لهُ سالِفَةٌ قَدِ انتَصَى الدُّرُّ لَها مَنِ انتَصا

أراد بقوله فى ذمة الله فى أمان الله وبه فسر قوله عليه السلام المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم أى بأمانهم وقد يكون معنى قوله فى ذمة الله فى جوار الله من قولهم اذمه أى أجاره وهو قريب من المعنى الاول والمراد به الدعاء دعا لفؤاده أن يكون فى أمان من الله أو جوار لما رأى من اخفار ذلك الظبى ذمته وهو من قبيل ما يكون بلفظ الخبر ويراد به الطلب وقوله مارعى ذمته أى حرمته والذمة والذمام الحرمة ورعى من قولهم مارعى ذمته يريد ما حفظ من رعى الحرمة أى حفظها وقوله ظبى بقلبى قد رعى يريد من المرعى أى أنه مقيم بقلبه لا يزال ماثلا به فهو له بمنزلة المرعى للظباء وقوله طلا كان لون سقمى البيت الطلا الولد من ذوات الظلف والجمع اطلاء والمراد هنا ولد الظبية وهو كناية عن المرأة والردع هنا الزعفران يطلى به يقول ان هذه المرأة غاية فى صفاء اللون ورقة البشرة فهى لصفاء بشرتها كالمرآة التى تتراآى فيها صور الأشياء اذا قابلتها فاذا قابلها لون سقمى وهو الصفرة تراآى لونها أصفر فكأنها كسيت أو طليت ردعا وقد قال الشاعر هو أبو عمر بن عبد ربه

يالؤلؤا يسبى العقول أنيقا * ورشا بتعذيب القلوب خليقا

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله * درا يعود من الحياء عقيقا

واذا نظرت الى محاسن وجهه * أبصرت وجهك فى سناه غريقا

يامن تقطع خصره من رقة * مابال قلبك لايكون رقيقا

أردت البيت الثالث وهذه القطعة هى التى لما سمعها أبو الطيب المتنبى حكم لأبى عمر قائلها بأنه شاعر الاندلس ومثله قول بعض المتأخرين

ووجه غزال رق حسنا أديمه * يرى الصب فيه وجهه حين يبصر

تعرض لى عند اللقاء به رشا * تكاد الحيا من محياه تقطر

ولم يتعرض كى أراه وانما * أراد يرينى أن وجهى أصفر

ويشبهه قول أبى غالب

وما الخيلان أبصر من رآها * اذا رد الحديث الى اليقين

ولكن فوق صفحته صقال * تمثل فيه أحداق العيون

وأصل هذا ما ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مسح وجه قتادة بن ملحان فكان لوجهه بريق حتى كان ينظر في وجهه كما ينظر في المرآة وقوله لم تلف من يعدى عليه البيت يعدى يعين من العدوى وهو طلبك الى وال أن يعينك على من ظلمك و ينتقم لك يقال استعديت على فلان الامير فاعدانى أى استعنت به فأعانني والاسم العدوى وهى المعونة و يقال فى معناه آدى يودى وفى حديث الاراشى أنه قال من يؤدنى على أبى الحكم بن هشام وقد كان الذى يناسب مقصد الناظم فى ايثاره لنوع التجنيس واعتماده إياه أن يستعمل هنا يؤدى عوض يعدى ليجانس به أودى وودى ولعله كذلك وغيره الناسخ وقوله أودى بها أى أهلكها يقال أوديت بفلان اذا أهلكته ويقال أودى به الموت أى ذهب به قال

فاما تريني ولى لمة * فان الحوادث أودى بها

و يقال أودى فلان اذا هلك وقوله وما ودى بر يد من الدية يقال وديت القتيل أديه دية اذا أعطيت ديته يقول ان النفوس التى ظلمها هذا الظبى وأهلكها حبه فلم تجد من يقضى لها عليه ولا يعينها على طلبه لم يبذل فيها عقلا ولا دية وهو كقول أبى مروان بن أبى حفصة أنشده المبرد له

ان الغوانى طالما قتلننا * بعيونهن ولا يدين قتيلا
من كل آنسة كأن جمالها * ضمن أحور فى الكناس كحيلا
أردين عروة والمرقش قبله * كل أصيب وما أطاق ذهولا
ولقد تركن أبا ذؤيب هائما * ولقد تبلن كثيرا وجميلا
وتركن لابن أبى ربيعة منطقا * فيهن أصبح سائرا محمولا
الا اكن ممن قتلن فأننى * ممن تركن فؤاده مخبولا

وقال جرير بن الخطفا

ان العيون التى فى طرفها حور * قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك له * وهن أضعف خلق الله أركانا

فسر بعضهم ثم لم يحيين قتلانا فقال معناه لم يقدن من أنفسهن فتحيى بالقود من قوله تعالى ولكم فى القصاص حيوة وقال الوأواء الدمشقى

قالت وقد فتكت فينا لواحظها * ما ان نرى لقتيل الحب من قود

وهو معنى متداول قديما وحديثا ومنه ما ذكر الزبير بن أبى بكر قال قال لى مسلمة بن عبد الله بن جندب الهذلى خرجت أريد العقيق ومعى ريان السواق فلقين نسوة فيهن امرأة لم أر أجمل منها فأنشد ريان بيتين لأبى وهما

ألا ياعباد الله هذا أخوكم * قتيلا فهل فيكم له اليوم ثائر
خذوا بدمى ان مت كل خريدة * مريضة جفن العين والطرف ساحر

ثم قال لى شأنك بها يا ابن الكرام فالطلاق له لازم ان لم يكن دم أبيك فى نقابها فأقبلت على وقالت لى أنت ابن جندب قلت نعم قالت ان قتيلنا لا يودى وأسيرنا لا يفدى فاغتنم نفسك واحتسب أباك وقوله ظبى قد انتصت له البيت انتصت ارتفعت قال امرؤ القيس

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش * اذا هى نصته ولا بمعطل

فسر أهل اللغة السالفة فقالوا هى ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط الى قلت الترقوة وانتصى اختار يقال انتصيت الشئ اذا اخترته وقد جانس الناظم بين ذمته وذمته و رعى و رعى وطلا وطلا وأودى و ودى وانتصت وانتصى

إنْ تَنْحَدِرْ فِي وَصْفِهِ فَإِنَّهُ ... بَدْرٌ عَلَى غُصْنٍ عَلَى دِعْصِ نَقَا
وَإنْ تَسَامَيْتَ فَقُلْ دِعْصُ نَقًا ... عَلَيْهِ غُصْنٌ فَوْقَهُ بَدْرُ دُجَا
فَرْعٌ أَثِيثٌ فَوْقَ فَرْعٍ نَاعِمٍ ... قَدْ مَاسَ مِنْ سُكْرِ الشَّبَابِ وَانْثَنَا
وَغُرَّةٌ شَبَّ بِقَلْبِي نُورُهَا ... نَارًا فَأَمْسَى لِلشُّجُونِ مُصْطَلَا

الدعص قطعة من الرمل مستديرة وجرت عادة الشعراء أن يشبهوا الارداف بها للينها وارتفاعها واستدارتها حتى عكس ذو الرمة التشبيه فقال

* ورمل كأوراك العذارى قطعته *

والنقا الكثيب وما ضمنه الناظم البيت الاول والثاني من الانحدار والتسامي مذهب حسن ومنزع بديع وانما اهتدى اليه من قول امرىء القيس

ورحنا وراح الطرف ينفض رأسه * متى مأترق العين فيه تسهل

أراد ومتى ما تتسهل العين فيه تترق هكذا تقدير البيت وهو الذي يعطيه المعنى وهو من باب حذف المعطوف وقد جعل بعضهم منه قوله تعالى وتلك نعمة تمنها علي ان عبدت بني اسرائيل قال تقديره ولم تعبدني فحذفت الجملة المعطوفة كما حذف المفرد المعطوف في قوله وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ومن حذف الجملة المعطوفة بالفاء قوله تعالى فأرسلون يوسف أيها الصديق تقديره فأرسلوه فأتاه فقال وقوله فرع أثيث البيت الفرع الاول يريد به الشعر كما قال * وفرع يغشى المتن اسود فاحم *

والفرع الثاني يريد به الغصن وكنى به عن القد والكثيب الكثير الملتف يقال اث النبات يئث أثاثة أي كثر والتف ونبات أثيث وشعر أثيث ويقال ماس يميس ميسا وميسانا اذا مال وتبختر وغصن مائس وقوله وغرة شب بقلبي نورها البيت تقول شببت النار والحرب أشبها شبا وشبوبا اذا أوقدتها والشبوب ما توقد به النار والمصطلى موقد النار وقد طابق بين تنحدر وتساميت وجانس بين فرع وفرع ونور ونار

وَنَاظِرٌ يَمْنَعُ كُلَّ نَاظِرٍ ... مِنْ وَرْدِ خَدٍّ نَاضِرٍ انْ يُجْتَنَا
يُرَاعُ طَرْفِي حِينَ يَرْنُو طَرْفُهُ ... فَلَيْسَ يَرْعَى وَإِذَا أَخْلَى ارْتَعَا
وَمَارِنٌ أَشَمُّ قَدْ تَنَزَّهَتْ ... أَوْصَافُهُ عَنْ خَنَسٍ وَعَنْ قَنَا
خَطُّ قَوِيمٌ بَيْنَ قَوْسَيْ حَاجِبٍ ... وَشَارِبٍ كِلَاهُمَا قَدِ انْحَنَا

قوله وناظر يمنع كل ناظر معناه ان العين لا تستطيع النظر الى وردخده مادام ناظرا اليها خوفا من سطوة الحاظه وصولة جفونه وأنه لا يتمتع بالنظر اليه الا اذا غفل أو نام وهو معنى قوله واذا اخلا ارتعا يقال أخليت المكان اذا وجدته خاليا ويقال أيضا أخليت بمعنى خلوت وضرب الاخلاء والارتعا مثلا لتمكن الناظر من النظر اليه والناضر بالضاد هو الناعم ومنه قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة وقوله فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وقوله أن يجتنى موضعه من الاعراب خفض على بدل الاشتمال من وردخد تقديره في المعنى يمنع من اجتناء وردخد وقد يكون موضعه نصبا على المفعول من أجله تقديره على طريقة البصريين

مخافة أن يجتنى فيكون على حذف المضاف وعلى طريقة الكوفيين أن لا يجتنى فيكون على حذف لا وقوله فليس يرعى يسوغ أن يراد به النظر من قولهم رعيت النجوم اذا رقبتها ويسوغ أن يكون من المرعى على جهة الاستعارة والتمثيل وقوله ومارن اشم المارن مالان من الانف وفضل عن القصبة والشمم ارتفاع فى قصبة الانف مع استواء أعلاه فاذا كان فيها احديداب فهو القنى والخنس تأخر الانف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الارنبة ولما كان المارن يطلق أيضا على مالان من الرمح قال الشاعر

هاتيك تحملنى وأبيض صارما * ومذ ربا فى مارن مخموس

وكان القنى يطلق على الرماح جمع بين المارن والقنى فى هذا البيت ايثارا لمجرد المناسبة اللفظية وأخذا بطرف من التورية ويقوى هذه التورية أيضا ان الخنس كذلك مما يوصف به السلاح و يستعار له قال الشاعر يصف درعا

لها عكن ترد النبل خنسا * وتهزأ بالمعابل والقطاع

القطاع جمع قطع وهو السهم العريض وقيل النصل وقد قدمنا التنبيه على أمثاله الا أن القنى من الاوصاف الحسنة وليس مما يوصف الحسان بالتنزه عنه وفى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أقنى الانف الا أن يكون ذلك عندهم مستحسن فى الرجال دون النساء فتأمله وقوله خط قويم يريد به الأنف وقد تم فى هذا البيت التورية حين قرن ذكر الخط بالقوسين مع تقدم المارن والقنى فأوهم أنه يريد بالخط جمع الخطى وهو الرمح على حد نجى و زنج وانما يريد واحد الخطوط وقد قال أبو الوليد الرقشى فى فتى طر شاربه

قد بينت فيه الطبيعة أنها * لبديع أفعال المهندس باهره

عنيت بمبسمه فخطت فوقه * بالمسك خطا من محيط الدائرة

ولا يخلو البيت الاول من هذه الأبيات أيضا من تورية أخرى وذلك أن قوله وناظر يمنع كل ناظر أراد به الطرف وحقيقه فى اللغة السواد الأصغر الذى فيه انسان العين وأوهم أنه يريد ناظرا لبستان وشبهه وهو الحافظ ومكن ذلك بذكر الورد والاجتناء بما ذكر فى البيت الثانى من الاخلاء والارتعاء وقد قال بعضهم

عجبوا من عذاره بعد حولين أما طال وهو غض النبات

كيف يزكو نبت بخديه والناظر وسنان فاتر الحركات

وقد أنشدت هذين البيتين قبل وقد جانس بين ناظر وناضر و بين براع و يرعى وهو من تجنيس القلب وطابق بين قويم وانحنى وفى قوله حاجب وشارب مماثلة وترصيع مع ماضمن الأبيات من الاستعارة ومن التمثيل والائتلاف اللفظى والتورية حسبما ذكرته

وَمَبْسِمٌ يَزْدَحِمُ الْبَرْقُ بِهِ اذا انبرى ما بينَ ظَلْمٍ ولَمَا

وَعُنُقٌ كأنَّهُ جِيدُ طلاً قدْ عطَفَ اللِّيتَ التفاتاً وعَطَا

وَصَحْنُ صدْرٍ مُنبِتٌ رُمَّانتىْ حُسْنٍ وَبَطْنٌ مُنْطوٍ طَىَّ المُلاَ

ومِعْصَمٌ شَكَى السِّوَارُ رِيَّهُ لمَّا تَشاكَتْ رَىَّ ساقَيْهِ البُرَا

وراحةٌ تخالُها مخضوبةً إذا بِها عَنْ خدِّهِ اللَّحظُ اتقا

الظلم بالفتح ماء الاسنان و بريقها وهو كالسواد داخل عظم السن من شدة البياض كفرند السيف واللمى سمرة فى الشفة يقال رجل المى وامرأة لمياء شبه لألاء الاسنان بالبرق ولما كان الظلم يترآى كالسواد فى العظم وكان اللمى سواد فى الشفة اشتد ضياء الأسنان بين السوادين كما تزايد ضوء البرق عند الظلمة ولأجل هذا التزايد والاشتداد قال يزدحم والطلا ولد الظبية وقد تقدم غيرما مرة والليت بالكسر صفحة العنق وعطا أى نص جيده ليتناول يقال عطوت اعطو اذا تناولت وفى المثل عاط بغير انواط أى يتناول مالامطمع فيه ولامتناول ويستعمل كثيرا فى الغزل قال الشاعر

وتعطوا البديد اذا فاتها ٭ بجيد ترى الحد فيه أسيلا

والملاجم ملاءة وهى الريطة وقد تقدم وأراد بالرمانتين الثديين ولقد أحسن أبو اسحاق الصابى فى قوله

مرضت من الهوى حتى اذا ما ٭ بدا مابى لاخوانى الحضور
تكنفنى ذوو الاشفاق منهم ٭ ولاذوا بالدعاء وبالنذور
وقالوا للطبيب أشرفانا ٭ نعدك للمهم من الأمور
فقال شفاؤه الرمان مما ٭ تضمنه حشاه من السعير
فقلت لهم أصاب بغير عمد ٭ ولكن ذاك رمان الصدور

وقال ابن الرومى وذكر الثديين

لها ثديان مثل حقاق عاج ٭ وثغر زانه حسن اتساق
يقول القائلون اذا رأوه ٭ أذاك الدر من هذى الحقاق

وقال فيما يتعلق بذكر البطن وهو من التشبيه الحسن

وتحت زنانير شددن عقودها ٭ زنانير أعكان معاقدها السرر

وحضن الصدر وسطه من قولهم لوسط الدار حضنها وقد تقدم تفسير الملا وهو هنا مقصور من المد لأجل الشعر والمعصم موضع السوار من الساعد وكنى بالرى عن امتلائه وشكاة السوار منه لأجل غصصه به وضيقه والبرى الخلاخيل والعرب تطلق على كل حلقة من سوار وقرط وخلخال وما أشبه ذلك برة قال الشاعر

٭ وقعقعن الخلاخل والبرينا ٭

وقد قال خالد بن يزيد

تجول خلاخيل النساء ولا أرى ٭ لرملة خلخالا يجول ولا قلبا

ولاجل ذلك يصفونها بالخرس والصمت وقد قال ابن عمار وهو حسن

تشير الى قرطاها وتصى ٭ خلاخلها الى نغم الوشاح

ودخل أبو بكر الكشدى على أبى بكر المخزومى الاعمى وزهون بنت القليعى الغرناطية بين يديه تقرأ عليه فقال الكشدى

٭ لو كنت تبصر من تكلمه ٭

فقالت زهون لغدوت أخرس من خلاخله

الشمس تطلع من أزرته ٭ والغصن يمرح فى غلائله

وقال بعضهم فى عكس هذا المعنى يذم امرأة

خلخالها الدهر فى اصطخاب ٭ ووشحها كظلم صموت

وقوله وراحة نخالها البيت الراحة الكف والمعنى ان كفه رخصة صافية الاديم وان حمرة خده تتقد فان اتقى

عن خدمها الكف تراءت حمرة خدها في كفها كتست منها كالخضاب وذلك لصفاء أديم الكف ورقته وعن اتقاد الخد كما يظهر عليها اذا نصبت أمام المصباح وقد قال النابغة في الاتقاء باليد سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

وَمَعْطِفٌ لَيِّنٌ وَخَصْرٌ ذَابِلٌ ظَامٍ وَرِدْفٌ نَاعِمٌ قَدِ ارْتَوَى

وَفَخِذَانِ آخِذَانِ فَوْقَ مَا تَمَّا بِهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُغْتَذَى

يَكَادُ يَبْدُو خَصْرُهُ مُنْخَزِلاً مِنْ رِدْفِهِ إِذَا تَمَشَّى الْخَيْزَلَى

وَقَدَمَانِ لَبِسَتْ كِلْتَاهُمَا مَا زَانَهَا مِنَ الْجَمَالِ الْمُحْتَذَى

كنى بالذبول والظمأ عن الضمور وبالارتواء والنعمة عن ضد ذلك وقد ولد أبو بكر بن حبيش من هذا المعنى توليدا حسنا فقال

هلال محياها تخالف حكمه * بمرآه صام الخصر والردف يفطر

وقوله يكاد يبدو خصره منخزلا الانخزال الانقطاع والخيزلى والخوزلى والخيزرى والخوزرى مشية فيها تفكك ويشبه قول ابن عبد ربه

يامن تقطع خصره من رقة * مابال قلبك لا يكون رقيقا

وقد أنشدته قبل وقوله وقدمان لبست البيت المحتذى المنتعل والحذاء النعل يقال احتذيت النعل قال الشاعر

* كل الحذاء يحتذى الحافي الوقع * وانما جعل الجمال هنا محتذى لان الذى يناسب القدم الانتعال وقد قال لبست فاقتضى لبس القدم أن يكون احتذاء واستعمل كلتاهما فى البيت الرابع فاعلا بلبست والوجه فى كلا وكلتا وكل اذا كانت بالحالة التى تكون عليها فى التوكيد أن لا يباشرها من العوامل الا الابتداء ومباشرتها غير الابتداء من العوامل قليلة فمن ذلك قول كثير

يميل اذا مالت عليه دلاؤهم * فيصدر عنه كلها وهو ناهل

وقال سيبويه فى قول العرب كليهما وتمرا ان تقدير الكلام أعطنى كليهما و زدنى تمرا فهو على هذا القليل وعليه يتخرج قول الناظم لبست كلتاهما فاما قول على رضى الله عنه

فلما أتانا بالهدى كان كلنا * على طاعة الرحمن والبر والتقى

فمحمول على ان كان رفعت ضمير الشان وكلنا رفع بالابتداء ويجوز على بعد ان يكون الضمير فى لبست عائدا الى القدمين وأفرده على حد ما أفرده الشاعر فى قوله

* بها العينان تنهل * ثم أجرى كلتاهما توكيدا للضمير وعى فيه المعنى اذ معناه معنى المثنى وان أفرد لفظا والاول أظهر فتأمله وأجرى فى البيت الاول لفظ ظام مجرى غاز وان كان مهموزا فأبدله على حد الابدال فى سألت وذلك على أحد الوجهين والابدال فى قول الشاعر

وكنت أذل من وتد بقاع * يشجج رأسه بالفهر واج

وعليه أنشده سيبويه وقد قابل بين خصر و ردف وذابل وناعم وظام وقد ارتوى وجانس بين فخذين وآخذين و بين منخزلا والخيزلى

نَشْوَانُ مِنْ خَمْرِ الصِّبَا يَحْسَبُهُ ... نَشْوَانَ مِنْ خَمْرِ الدِّنَانِ مَنْ نَجَا

مَاءُ الْحَيَاةِ وَالْحَيَا فِي خَدِّهِ ... يَجْرِي بِحَيْثُ اتَّقَدَتْ نَارُ الْحَيَا

ظَبْيٌ أَذَالَ اللَّيْثَ إِذْ أَدَى لَهُ ... يَا مَنْ رَأَى ظَبْيًا لِلَّيْثِ قَدْ أَدَى

أَزَالَ عَنْهُ الْقَلْبَ إِذْ أَزَى لَهُ ... فَخَرَّتْ فِي عَاطٍ لِسَاطٍ قَدْ أَزَى

كَمْ قَدْ دَرَى بِلَحْظِهِ مَنْ رَامَ أَنْ ... يَدْرِيَهُ وَمَا دَرَى كَيْفَ دَرَى

النشوان السكران والدنان جمع دن وهو كالخابية ونجى اما ان يكون من نجوت فلانا اذا استنكهته واما أن يكون من نجوته اذا ساررته والمراد على المعنيين أنه يشم من فمه رائحة الطيب كما يشم من فم من شرب الخمر وذلك اما لان ريحها طيب أولأنهم كثيرا ما يستعملونها مطيبة بأنواع الطيب ولا يبعد أن يكون كنى بقوله نجا عن لثم الفم ويكون المراد مذاق ريقه وهذا الأخير أولى الوجوه وقوله ماء الحياة والحيا ريد بالماء صفاء البشرة ورونقها ولألاء الوجه الذى يترا آى كالماء ونسبه الى الحياة اشارة الى أنه يحيي قربه والنظر اليه كما قال

لو أسندت ميتا الى صدرها * عاش ولم ينقل الى قابر

وكذلك نسبه الى الحيا ومراده النعمة لان الحيا يطلق على الخصب يقال أحيا القوم أى صار وا فى الخصب والنعمة و يقال أتيت الارض فأحييتها أى وجدتها خصيبة وأما الحياء آخر البيت فقصو ر من الحياء وهو الاستحياء وأضاف النار للحمرة التى تحدث عنده ولا يبعد أن يكون الحيا فى صدر البيت مقصو را من الحياء أيضا و يكون قد جعل له فى صدر البيت ماء بالنظر الى الصفاء والرقة التى تحدث عند الخجل وجعل له فى عجز البيت نارا بالنظر الى الحمرة والاتقاد و يكون البيت على هذا مصدرا و جمع الخد بين الماء والنار معنى متداول مطروق للشعراء وقوله ظبي أذال الليث الاذالة الاهانة يقال أذال فرسه وغلامه أى أهان وفى الحديث نهى عن اذالة الخيل وهى امتهانها بالعمل عليها والحمل و يقال فى المثل أخيل من مذالة وهى الامة لانها تهان وهى تتبختر وقوله أدى له معناه ختله يقال أديت له وأدوت أى ختلته والذيب يأدو للغزال أى يختله ليأ كله وقال الشاعر

* أدوت له لآخذه فهيهات الفتى حذرا *

وقوله * يامن رأى ظبيا لليث قد أدى * يا تنبيه واستفتاح للكلام ومن رأى لفظه لفظ الاستفهام والمراد به التعجب وفى الكلام معنى التهويل كانه لعظم ما قام بنفسه من غرابة كون الظبي يختل الاسد قطع الكلام الذى كان بسبيله من الوصف واستفتح كلاما يسئل فيه عمن رأى امثل هذه الأعجوبة فتأمله فانه حسن وقد يكون يا للنداء ومن موصوله و يكون المراد يامن رأى مثل هذه الأعجوبة أقبل فحدثنى أى ليس فى الدنيا من رآها وقوله أزال عنه القلب اذ أزى له يقال أزى له أزيا اذا أتاه لمختله قلت واصله أن يقعد بأزائه قصد الخداع والعاطى من أوصاف الظبي وقد فسرناه واصله التناول والساطى القاهر بالبطش يقال سطا به يسطو سطوا وقوله فخرت فى عاط لساط قد أزى معناه التعجب أى لم أدر حقيقة الأمر كيف هى وهو أن يختل الظبى الذى لا بطش عنده وغايته أن يتناول البرير وأطراف الشجر الاسد الذى شأنه البطش والافتراس فخار فكرى فى ذلك وقوله كم قد درى بلحظه أى ختل فصاد من رام أن يختله ليصيده قال الشاعر

فان كنت لا أدرى الظباء فاننى * أدس لها تحت التراب الدواهيا

وهو فى المعنى يشبه قول الحريرى

ولكم من سعى ليصطاد فاصطيد * ولم يلق غير خفي حنين

وقوله وما درى كيف درى أى وما علم كيف ختله يقال دريته ودريت به أى علمت قال

* لاهم لا أدرى وأنت الدارى *

فان كان الضمير المستتر فى قوله وما درى راجعا الى المختول فهو مثل الصدر من بيت مهيار

لم يدر من أين أصيب قلبه * وانما الرامى درى كيف رمى

وان كان الضمير عائدا على الخاتل فهو من قول المتنبى

ان التى سفكت دمى بجفونها * لم تدر ان دمى الذى تتقلد

ومن قول ابن أبى فنن

أذاهبة نفس المتيم ضيعة * وقاتلها لم يدر ماصنع السهم

وأصل هذا المعنى الثانى قول النابغة

فى أثر غانية رمتك بسهمها * فأصاب قلبك غير ان لم تقصد

وجاء فى البيت الاول بترديد وتعطف وفى الثانى بتصدير على أحد الاحتمالين وكذلك فى الثالث والرابع والخامس وجاء بأنواع من التجنيس

يا أهلَ وُدِّي وبِوُدِّي أنَّكُمْ * صَبَوْتُمْ فتَعْذِرُونَ مَنْ صَبَا

سلُوا أُرَيْشاءَ الصَّرِيمِ أيُّها * بِصارِمِ اللَّحْظِ على قلبي سَطَا

وأيُّها راشَ لِقلبي أسهُمًا * كأنَّهُ لم يَكفِهِ ماقدْ نضا

وَإنْ رأيْتُمْ باللِّوَى أظَيْبِيا * سانِحَةً فاغمِدُوا بيضَ الظُّبا

وَحاذِرُوا تِلكَ الأُطَيْلاءَ التي * ألحاظُها فاعِلَةٌ فِعلَ الطِّلا

واحتقِرُوا مُلْدَ القَنا إنْ أُشرِعَتْ * لَكُمْ قُدُودٌ دونَها مُلْدُ القَنا

الباء فى قوله بودى للالصاق أى ذلك متصل بودى لا يفارقه أى لا ازال أحب ذلك ويتصور أن تكون ظرفية كأنه قال وفى ودى أى فيما أحب والاريشاء تصغير ارشاء جمع رشأ وهو ولد الظبية والجمع اذا كان موضوعا للقلة يصغر على معنى التقليل فيقال فى أبيات أبيات وفى أكلب أكيلب وحسن موقع والتصغير هنا لان فيه تنبيها بذكر القليل على انفرادهن بالحسن وانهن قلائل فى جمالهن قد عدم من الشبيه فما يوجد مثلهن فتأمله والتصغير ان لم يكن له معنى يحرزه كان قبيحا فى الشعر لانه لا موجب له الا اقامة الوزن فاذا حصل بازائه معنى حسن موقعه وعذب اللفظ به كقول أبى فراس يصف حاله حين اسر

وقال أصيحابى الفرار أو الردى * فقلت هما أمران أحلاهما مر

فدل بالتصغير على انه ما أسر ولا قدر العدو عليه الا بعد أن فر عنه الجيش فلم يبق معه الا النفر القليل من خواصه وكذلك قول الرصافى

بلادى التى ريشت قويدمتى بها * فريخا وآوتنى قرارتها وكرا

فدل بالتصغير على انه نشأ بها صغيرا ولو قال قادمتى لم يناسب فريخا والصريم رملة تنسب اليها الظباء وينطلق على كل ما انصرم من معظم الرمل قال الشاعر

أقول له لما أتاني نعيه * به لا بظبي بالصريمة أعفرا

وقوله سلوا ان يشاء الصريم أيها سلوا هنا معلقة عن العمل لاجل استفهامه بأي وجاز ذلك في سال وأن كان التعليق مشروطا بكون الفعل من أفعال القلوب لان سأل وان لم يكن قلبيا فانه سبب لفعل القلب وهو العلم و يسوغ عندي أن يكون على غير وجه التعليق و يكون على حذف القول كانه قال سلوا أن يشاء الصريم فقولوا أيها سطا بصارم اللحظ و يدلك على صحته أن قوله أيها سطا هو اللفظ الذي يقع به السؤال وحذف القول في مثل هذا كثير ولا يبعد أن يحمل على هذا الوجه كل ما جاء مما يوهم التعليق في سأل فتأمله و يقال رشت السهم إذا أزقت عليه الريش فهو مريش و يقال نضا السيف أذا سله والاظيبي تصغير اظب جمع ظبي لانه صغر على الوجه الذي ذكرته قبل وقد تقدم تفسير السانح وقوله فأغمدوا بيض الظبا معناه القوا بايديكم فانه لا دفاع لكم عن أنفسكم فلا معنى لسلكم السيوف و يمكن أن يكون المراد أغمدوا بيض الظبا فان عيون تلك الظباء تكفي و يكون مثل قول مهيار

بين بصرى وضمير عرب * يامن الخائف فيهم ماجنا

كلما شنت عليهم غارة * أغمدوا البيض وسلوا الاعينا

والمعنى الاول أظهر وهو الذي يدل عليه مساق كلامه بعد والاطيلاء تصغير اطلاء جمع طلا والطلا بكسر الطاء مقصور من الطلاء وهو الخمر وأصل الطلاء ماطبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه ومن أطلقه من العرب على الخمر انما أراد اسمها لانه الخمر بعينها وقوله واحتقر واملد القنا معناه ان القدود وان كن محميات بالرماح فلا عبرة بالرماح بالنظر اليها فاحتقر والقنا وحاذر واأشباههامن القدود وقد قال الشاعر فيما يشبه هذا

جمال جنها الاسد وهي غنية * بمن حملت عن سطوة وصيال

وقد أنشدته قبل

لَيْتَ الظِّبَاءَ لَمْ تَصِدْ مَنْ رَامَ أَنْ يَصِيدَهَا وَلَا ادَّرَتْ مَنْ ادَّرِي

يَاظُبْيَةً حَازَتْ فُؤَادِي فَغَدَا قَلْبِيَ مِنْ جِسْمِي بَعِيدَ الْمُنْتَوَى

يَالَيْتَ شِعْرِي مَنْ سَبَيْتِ قَلْبَهُ هَلْ يَرْجِعُ السَّابِي إِلَيْهِ مَاسَبَا

حَكَّمْتِ فِي قَلْبِي لَحْظًا مِنْكِ قَدْ أَهْدَى إِلَيْهِ النَّوْمَ جَفْنِي فَارْتَشَا

قد تقدم تفسير ادري في غير ماموضع و بعيد المنتوى أي بعيد المكان والمنزل يقال انتو يت منزلا بموضع كذا وقوله حازت فؤادي ير يد ملكته وأسرته وقوله من سبيت قلبه السبي والاستباء الاسر وقد سبيت العدو سبيا وسباء واستبيته اذا أسرته والمرأة تسبي قلب الرجل ومن في قوله من سبيت قلبه موصولة ومعنى ليت شعري في كلامهم ليتني علمت من قولك شعرت بالشئ أشعر به شعرا أي فطنت له قال سيبو يه في قوله ليت شعري أصله شعرتي ولكنهم حذفوا الهاء كما قالوا اذهب بعذرها وهو أبو عذرها وموضع من إما رفع و إما نصب والرفع على حد رفع زيد من قولك علمت زيد ما صنع وعلمت زيد أبو من هو رفعته لانه وما بعد الاستفهام شئ واحد في المعنى فوقع التعليق عنه اذ كانه في خبر الاستفهام و واقع بعده وأما النصب وهو المختار عندهم فلان العامل تسلط عليه من غير مانع ومما يتعلق بهذا المعنى ان سيف الدولة أغار على قبائل العرب فأسر وسبي ونهب ثم شفع فيهم كرائمهم فأطلق الاساري و رد النهب فقال أبو فراس الحمداني

وما أنس لا أنس يوم المغا * ر محجبة لفظتها الحجب
دعاك ذووها بسوء الجوا * ر لما لا تشاء وما لا تحب
فوافتك تعثر فى مرطها * وقدرات الموت عن كثب
وقد خلط الخوف لما طلعـ * ـت دل الجمال بذل الرعب
فلما بدت لك دون البيـ * ـوت بدالك منهن جيش لجب
أمرت وأنت الكريم المطاع * ببذل الامان ورد النهب
وقد رحن من مهجات القلو * ب با وفرغنم وأعلى نشب
فالا يجـدن برد القلو * ب فلسنا نجود برد السلب

ومثله قول أبى فراس أيضا فى الاسر

أرث لصب بك قد زدته * على بلايا أسره أسرا
قد عدم الدنيا ولذاتها * لكنه ماعدم الصبرا
فهو أسير الجسم فى بلدة * وهو أسير القلب فى أخرى

وقوله حكمت فى قلبى لحظامنك معناه ان طرفه أهدى نومه الى طرفها فلذلك كان طرفه أبدا ساهرا ولحظها أبدا نائم وانما وصف نفسه بالسهر لانه شأن المحب ووصف لحظها بالنوم تشبيها له بالنائم لاجل الفتور الذى يوصف به وهذا التشبيه مما كثر واشتهر وتداولته الشعراء قال الشاعر

وكأنها بين النساء أعارها * عينيه أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت * فى عينه سنة وليس بنائم

وجعل مابذله طرفه لطرفها من النوم انما بذله على سبيل الرشوة لتحمل جنايته على القلب وتأخذه بعقوبته وعلى ذكر النعاس أنشد هنا قول ابن الزقاق وهو حسن وان كان المقصد غير المقصد الذى تقدم

ومقلة شاذن أودت بنفسى * كأن السقم لى ولها لباس
بسل اللحظ منها مشرفيا * لقتلى ثم يغمده النعاس

أَخَذْتِ قَلْبِي دُونَ طَرْفِي فِي الهَوَى * ظُلْمًا بِمَا قَدْ جَرَّ طَرْفِي وَجَنَى
وَلَمْ تَكُونِي كَمُدَارِي الغُرِّ فِي * إِبْرَاءِ مَالَمْ يَكْوِهِ بِمَا كَوَى
مَا اسْتَبْدَلَ القَلْبُ فَلَا تَسْتَبْدِلِي * مِنْهُ وَلَا تَرْضَى بِمَا لَا يُرْتَضَى
وَلَا تَبِيعِي خُلَّةً بِخُلَّةٍ * فَإِنَّ بَيْعَ المِثْلِ بِالمِثْلِ رِبَا

قوله أخذت قلبى دون طرفى معناه أنك أسرت قلبى فاحتلته وتركت طرفى والطرف هو الذى جنى الجناية وجر الجريرة فانه الذى نظر وبسببه كان الغرام الذى هو الذنب عندك وأنت ظالمة فى حكمك على القلب بما جناه غيره وللفقيه أبى عبد الله بن الخطيب فى هذا المعنى

وما كان الا أن جنى الطرف نظرة * غدا القلب رهنا فى عقوبة ذنبه
وما العدل أن يأتى امرؤ بجريرة * فيؤخذ فى أوزارها حار جنبه

وقال الآخر فيما ينحو هذا المعنى

يا وجد شأنك والفؤاد وخلني * ما المرء مأخوذا بزلة جاره

ولأبي الفتح كشاجم فيما ينظر الى هذا المعنى أو يأخذ بطرف منه

أخي قم فعاوني على شيبة بغت * فاني منها في عذاب وفي حرب
اذا ما مضى المنقاش يأتي بها أتت * وقد أخذت من دونها جارة الجنب
كجان على السلطان يجزي بذنبه * تعلق بالجيران من شدة الرعب

وأصل هذا كله قوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وفي جناية الطرف على القلب يقول ابراهيم بن المهدي

اذا كلتني بالعيون الفواتر * رددت عليها بالدموع البوادر
فلم يعلم الواشون ما دار بيننا * وقد قضيت حاجاتنا بالضمائر
أقاتلتي ظلما بأسهم لحظها * أما حكم يقضي على طرف جائر
فلو كان للعشاق قاض من الهوى * اذا لقضى بين الفؤاد وناظر

وقال في مثله خالد الكاتب

أعان طرفي على جسمي وأحشائي * بنظرة وقفت جسمي على دائي
وكنت غرا بما يجني على بدني * لا علم لي ان بعضي بعض أدوائي

وقوله ولم تكوني كداوي العر العر بالضم قروح مثل القوباء تخرج بالابل متفرقة في مشافرها وقوائمها يسيل منها مثل الماء الاصفر فتكوى الصحاح لئلا تعديها المرضى يقال منه عرت الابل فهي معرورة قال النابغة

لحملتني ذنب امرىء وتركته * كذي العر يكوى غيره وهو راتع

ومن الناس من يقول ان الصحاح اذا كويت برئت ذوات العر والاول هو الصحيح وعلى الثاني عول الناظم هنا ومعنى البيت انها وان احتملت قلبه وحكمت فيه لحظها دون الطرف فانها لم ترح الطرف بذلك مما عراه من البكاء والسهر ولو كانت كداوي العر في ان البرىء يكوى فيبرأ المريض لكان الطرف يبرأ بما فعلت بالقلب وقوله ما استبدل القلب معناه لم اتخذ بدلا منك فكيف تتخذين أنت البدل أو تبيعين خليلا بخليل والخلة بالضم الخليل قال الشاعر

الا أبلغا خلتي جابرا * فان خليلك لم يقتل

ويستوي فيه المذكر والمؤنث لانه في الأصل مصدر يقال خليل بين الخلة والخلولة وقوله فان بيع المثل بالمثل ربا من المنازع الفقهية ويشبهه قول أبي تمام الطائي فيما يحكى عنه من أنه دخل على أحمد بن أبي دؤاد وأحمد في مجلس حكمه فأنشده أبياتا يستمطر بها نائله وينشر فضائله فقال سيأتيك ثوابها يا أبا تمام ثم اشتغل بتوقيعات في يده فأحفظ ذلك أبا تمام فقال احضر أيدك الله فانك غائب واجمع فانك مفترق ثم أنشد

ان حراما قبول مدحتنا * وترك ما نرتجي من الصفد
كما الدنانير بالدراهم في الصـ * ـرف حرام الا يدا بيد

فأمر بتوفير حبائه وتعجيل عطائه ويشبه أيضا ما ذكر من أنه لما ولي طاهر بن عبد الله بن طاهر خراسان جعل الشعراء يهنؤنه فيهم تمام بن أبي تمام فأنشده

هناك رب الناس هناكا * ما من جزيل الملك أعطاكا
قرت بما أعطيت يا ذا الحجا * والبأس والانعام عيناكا
أشرقت الارض بما نلته * وأورق العود بجدواكا

فاستضعف الجماعة شعره وقالوا يا بعد ما بينه وبين أبيه فقال طاهر لبعض الشعراء أجبه فقال

حياك رب الناس حياكا * ان الذى أملت أخطاكا
مدحت خرقا منهبا ماله * ولو رآى مدحا لآساكا
فهاك ان شئت بها مدحة * مثل الذى أعطيت أعطاكا

فقال تمام أعز الله الأمير ان الشعر بالشعر ربا فاجعل بينهما صنجا من الدراهم حتى يحل لى ولك فضحك وقال الا يكن معه شعر أبيه فمعه ظرف أبيه أعطوه ثلاثة آلاف درهم فقال عبد الله بن اسحق لو لم يعط الا لقول أبيه فى الأمير أبى العباس ير يد عبد الله بن طاهر

يقول فى قومس صحبى وقد أخذت * منا السرى وخطا المهرية القود
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا * فقلت كلا ولكن مطلع الجود

قال ويعطى لهذا ثلاثة آلاف

سَمْعِي رَمانِى وَلِسانِى قَبْلَهُ * مِنْ لُجَجِ الأَهْوَاءِ فِيما قَدْ رَمَا
لوْكانَ لَحظٌ دُونَ لَفظٍ لَمْ يَكُنْ * يَصلى مِنَ الأَشْجانِ قلبي مَا اصطَلا
فلِمْ أَخذْتِ الطَّرْفَ مِنى بالذى * جَرَّ على القَلْبِ اللِّسَانُ وَجنا
لاتَظلِمي إِنسَانَ عَينى فى الهوَى * فلَيْسَ لِلإِنسَانِ الاَّ ماسَعَى

يقول لم ينفرد بالجريرة فى رمى فى بحار الغرام لحظى وحده بل شاركه السمع فى الجناية لأنه كما جنى على النظر فكذلك جنى على السمع وقد قال بشار بن برد وكان أعمى

لقد عشقت أذنى كلاما سمعته * رخيما وقلبى للمليحة أعشق
ولو عاينوها لم يلوموا على البكا * كريما سقاه الخمر بدر محلق
وكيف تناسى من كأن حديثه * بأذنى وان غيبت قرط معلق

وقال بشار أيضا

ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة * والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لاترى تهذى فقلت لهم * الأذن كالعين توفى القلب ماكانا

ومر أبو تمام بابرشهر من أرض فارس فسمع جارية تغنى بالفارسية فشاقه شجى الصوت فقال

أيا سهرى بليلة أبر شهر * ذممت الى يوما فى سواها
سمعت بها غناء كان أحرى * بان يقتاد نفسى من عناها
ومسمعة تفوت السمع حسنا * ولم تصممه لايصمم صداها
مرت أوتارها فشجت وشاقت * فلو يستطيع حاسدها فداها
ولم أفهم معانيها ولكن * ورت كبدى فلم أجهل شجاها
فكنت كأننى أعمى معنى * بحب الغانيات وما يراها

وقيل لأبى تمام هل أخذت هذا من أحد فقال نعم أخذته من قول بشار بن برد ياقوم أذنى لبعض الحى عاشقة البيتين وقد قال الشريف أبو الحسن الموسوى الرضى

طرضا بى ركب الحجاز وسايله * متى عهده باكناف جمع

واستملا حديث من سكن الخيـ * ف ولا تكتباه الا بدمع
فانني ان أرى الديار بطرفي * فلعلي أرى الديار بسمع

وقال أبو عبادة البحتري يصف أبيات شعر ذكرها

وكأنها والسمع معقود بها * وجه الحبيب بدا لعين محبه

وقال ابو يعقوب الخريمي في هذا المعنى وقد كان عورثم عمي وتروى لأبي علي البصير

قالت أتهزأ بي غداة لقيتها * يا للرجال لصبوة العميان
عين البصير ترى فيعشق قلبه * ما بال من ليست له عينان
فاجبتها نفسي فداؤك انما * أذني وعيني في الهوى سيان
عين البصير زعمت رائد قلبه * وكذاك رائد قلبي الاذنان

وقد عكس أبو نواس هذا المعنى فقال

ومنتظر رجع الجواب بلحظه * اذا ما انثنى من لينه فضح الغصنا
اذا جعل اللحظ الخفي كلامه * جعلت له عيني لتفهمه اذنا

وقد أغرب الناظم هنا بذكر اللسان وانما أراد ان اللسان هو الذي فاتحها بالقول واستدعى منها الجواب فكان السبب في سماع الفاظها التي جرت عليه جريرة الغرام والذي ذكره الناظم حسن فان موقع الالفاظ من النفس لا يتمكن الامع المحاورة وعند مراجعة الكلام وقد يكون مراد الناظم أنه سأل عن هذه المرأة فأخبر عنها ببدائع من الأوصاف كانت سببا في أن تمكن حبها من فؤاده فتكون جريرة اللسان والسمع عليه من هذا الوجه ولولا اللسان والسمع على هذا الوجه لم يعلم الفؤاد من محاسنها بمجرد النظر ما علمه وفي الحديث النهي عن أن تصف المرأة لزوجها المرأة حتى كأنه ينظر اليها ومما يتعلق بهذا المعنى قول النابغة الذبياني في صفة المتجردة امرأة النعمان بن المنذر

تجلو بقادمتي حمامة أيكة * بردا اسف لثاته بالاثمد
كالاقحوان غداة غب سمائه * جفت أعاليه وأسفله ند
زعم الهمام بأن فاها بارد * عذب اذا ما ذقته قلت ازدد
زعم الهمام ولم أذقه أنه * يشفى بريق لثاتها العطش الصد

وقال ابن الرومي يصف جارية لعبد الملك بن صالح و بعد ان استوفى جميع صفاتها وقد كان اقترح عليه وصفها وكانت سوداء

وصفت فيها الذي هويت على الا * وهم ولم نختبر ولم نذق
الا بأخبارك التي وقعت * منك الينا عن ظبية البرق
حاشا لسوداء منظر سكنت * فراك الا عن مخبر يفق

والى أبيات النابغة هذه أشار الأديب أبو عبد الله بن مرج كحل في قوله

وعندي من لواحظها حديث * يخبر ان ريقتها مدام
وفي أعطافها السكرى دليل * وما ذقنا ولا زعم الهمام

ثم قال فلم أخذت الطرف البيت معناه انك عذبت طرفي بالبكاء والسهر ولم يكن منفردا بالجناية وقوله لا تظلمي انسان عيني في الهوى انسان العين المثال الذي يرى في سوادها و يجمع على أناسي قال ذو الرمة يصف إبلا غارت عيونها من التعب والسفر

* آناسي ملحود لها في الحواجب *

وأما قول الناظم فليس للانسان الا ماسعى فبديع لأنه وافق به لفظ الاية وأحكم التورية بين انسان العين وانسان البشر وقوله أخذت قلبي دون طرفي البيت مع قوله فلم أخذت الطرف ظاهره التناقض الا أن يكون قوله أخذت قلبي دون طرفي معناه حزته واحتلته و يكون معنى قوله فلم أخذت عاقبته من الأخذ بالجرائم وفيه نظر فتأمله و وقع للناظم هنا ايطاء بين قافيتين من غير طول يباعد ما بين البيتين ولا خروج من فصل الى آخر وهذان هما المسوغان للتكرار في حرف الروي أو المخففان للقبح فيه فقال أخذت قلبي دون طرفي في الهوى ظلما عاقد جر طرفي وجنا ثم قال بعد خمسة أبيات فلم أخذت الطرف مني بالذي جر على القلب اللسان وجنا ولم يخرج عن النسيب ولا عن المعنى الذي هو بسبيله

كَانَ الصِّبَا ظِلالَنَا مُدَّ إِلَى ... أَنْ قَلَصَ الظِّلُّ الْمَدِيدُ وأَزَى
قَدْ كَانَ عَيْشِي نَاعِمًا ذَا جِدَّةٍ ... دَهْرًا فَأَضْحَى ذَا بِلاً وذَا بِلاَ
وحَالَ دَهْرٌ كَانَ لاَ يَحُولُ عَنْ ... وَلاَ إِنَاقٍ حَالَةٍ ولاَ إِنَا
كَانَ الشَّبَابُ كَالْكَمِيِّ مُعْلِمًا ... حَتى إِذَا نَازَلَهُ الشَّيْبُ انْكَمَا
وكَيْفَ لاَ يَشْتَعِلُ الْفَوْدُ وَقَدْ ... تَلَهَّبَ الْفُؤَادُ وَجْدًا والتَظَا

يقال قلص الظل اذا انقص وازوى و يقال أزى يأزى ازيا وازيا اذا تقبض عن الاصمعي وقوله فأضحى زاو يا أي ذابلا قابل به ناعما وذا بلا أي صاحب بلى وقابل به ذا جدة والانا الساعة وآناء الليل ساعاته يقول حال الدهر عن موالاتنا وكان لا يحول على حال من الاحوال ولا في ساعة من الساعات وأتى بذلك على جهة التمثيل لمؤاتاة الدهر لهم ثم انقلابه عليهم وقوله كان الشباب كالكمي معلما الكمي الشجاع وقد تقدم لم سمي بذلك والمعلم من الشجعان هو الذي يجعل لنفسه علامة يعرف بها قال الشاعر

مازال فينا رباط الخيل معلمة * وفي كليب رباط اللوم والعار

وقوله انكمى أي استخفى يريد ان الشباب كان كالكمي معلما بالسواد وله الصولة والظهور حتى اذا جاءه الشيب ونازله استخفى منه واستتر فظهر الشيب وعلا

ثم قال وكيف لا يشتعل الفود الفود جانب الرأس يقال بدا الشيب بفود به أي بجانبي رأسه وقال بعضهم اذا كان للرجل ضفيرتان يقال لفلان فودان وانما أراد اشتعاله بالشيب كما قال الله تعالى واشتعل الرأس شيبا والفؤاد القلب والالتظاء الالتهاب والمعنى أنه لما التهب الفؤاد ظهر اشتعال ناره في الفود وانما يريد ان الهموم التي يكابدها قلبه هي التي أشابته وقد قال الفقيه الرئيس أبو العباس بن أبي طالب العزفي رحمه الله في قصيدة هي من قلائده

لم تشتعل نار المشيب بمفرقي * حتى أراق الدهر ماء شبابي

وانما اهتدى اليه أبو العباس من الآية ومن قول الشاعر

* هريق شبابي واستشن أديمي *

ولله در صاحبنا الوزير أبي عبد الله بن الخطيب اذ يقول وان لم يكن من ذكر الشيب في شيء

سلام على تلك المعاهد انها * مرابع الافي وعهد صحابي
ويا آسة العهد انعمي فلطالما * سكبت على مثواك ماء شبابي

وقد جانس الناظم بين ذابلا وذابلا و بين قوله وقوله ولا انا عن ولا إنا وهو من التجنيس المركب و بين الكمى وانكاو بين الفود والفؤاد والأشبه بمنزع الناظم أن يكون ضبط الفؤاد هنا بالتسهيل فيكون النطق بالهمزة واوا إيثارا لتماثل التجنيس وقابل بين ناعم وذابل و بين جد وبلى

وَلاَ ثِمٍ أنحى وأنحت بِمَدِّهِ ❊ لاَ ئِمَةٌ لاَ حِيَةٌ فِيمَنْ لَحَا

ظَنَّتْ بِأنَّ اللَّوْمَ يَثْنِي خَاطِرِي ❊ عَنْ صَبْوَةٍ لِسَلْوَةٍ فَمَا انْثَنَا

واسْتَطْرَفَتْ جَرْيِي بِمِيدَانِ الصِّبَا ❊ لَمَّا رَأَتْ طِرْفَ الشَّبَابِ قَدْ كَبَا

وَبَيْنَ جَنْبِيَّ فُؤَادٌ لَمْ يُرَعْ ❊ جَنَابُهُ شَيْبٌ بِفَوْدَيَّ بَدَا

لَمْ يَعْدُ مَاقَدْ ضَرَّهُ أَنْ سَرَّهُ ❊ وَأَوْجَبَ الْحَظُّ لَهُ مَاقَدْ نَفَا

واعْتَاضَ مِمَّا قَدْ أفَاتَ دَهْرُهُ ❊ بِمَا أفَادَ مِنْ يَدٍ وَمَا حَبَا

أنحى عليه مال عليه والأصل فى الانحاء الاعتماد فى السير على الجانب الأيسر ثم صار يستعمل فى الميل فى كل وجه واللحى اللوم يقال لحيت الرجل لحيا اذا لمته وقوله واستطرفت جرى بميدان الصبا استعار للصبا ميدانا وللشباب طرفا كما استعار زهير الافراس فقال

❊ وعرى أفراس الصبا ورواحله ❊ وقد تقدم الكلام عليه وجعله كابيا الذهاب النشاط والقوة وعدم الاضطلاع بما كان يضطلع به فى عصر الصبا وقد قال أبو عبد الله بن خيس

تأتت له الاهواء أدهم سابقا ❊ وغصت به الأيام أشهب كاب

فأحسن ماشاء لمقابلته الأدهم بالأشهب والسابق بالكابى على انه مأخوذ من قول ذى الوزارتين أبى عبد الله بن أبى الخصال رحمه الله

وقد كنت أسرى فى الظلام بأدهم ❊ فها أنا أغدوا فى الصباح بأشهب

وفى بيت كل واحد منهما زيادة على الآخر وقال أبو عمرو بن غياث الشريشى

صبوت وهل عار على الحران صبا ❊ وقيد بعشر الاربعين الى الصبا

وليس مشيبا ماترون وانما ❊ كميت الصبا مما جرى عاد اشهبا

وكتب الى صاحبنا الفقيه أبو القاسم بن أبى العافية رحمه الله مجيبا عن كتاب كتبت به اليه وكنت بحال مرض شديد بقطعة ألم فيها بطرف من هذا المعنى وهى

تفديك أنفسنا وان قلت فدا ❊ فهى الكثيرة لاتعادل أوحدا

فاسلم سلمت من المكاره كلها ❊ وبقيت صدر المنتدى بحر الندا

حتى تجيل الشيب أشهب واضحا ❊ فتجوز غايات الحياة مدا مدا

فاذا انقضى الأجل المسمى زرتم ❊ فى الخلد جدكم الكريم محمدا

وافى كتابكم فبت لأجله ❊ ريان اشكوا من تباريح الصدا

ريان من وردى بعذب خطابه ❊ ظمئان من حر الصبابة مكمدا

فنشرته ولثمته فكأننى ❊ طالعت منك به الفضائل واليدا

ودعوت ربى فى بقائك سالما * والله ينجز فى الدعاء الموعدا

أردت البيت الثالث وقوله وبين جنبي فؤاد لم يرع البيت هذا ينظر الى قول المتنبي

وفى الجسم نفس لا تشيب بشيبه * ولو ان ما فى الوجه منه حراب
لها ظفران كل ظفر أعده * وناب اذا لم يبق فى الفم ناب
يغير منى الدهر ماشاء غيرها * وأبلغ أقصى العمر وهى كعاب

وهو أيضا معكوس من قوله

إلا يشب فلقد شابت له كبد * شيبا اذا خضبته سلوة نصلا

وقوله لم يعد ماقد ضره ان سره البيت مراده ان الدهر ان ضره بذهابه بالشباب فقد سره بما أفاد من الوصول الى حضرة هذا الأمير والحظوة عنده هذا هو الظاهر من قصده لقوله بعد ذلك ظل أمير المؤمنين عنده البيت وقد يكون مراده ان الدهر سره بما كسبه الشيب من الوقار والحلم وقد قال بعض العلماء

وددت بأن الشيب عاجل لمتى * وقرب منى فى الشباب مزاره
لآخذ من عصر الشباب نشاطه * وآخذ من عصر المشيب وقاره

وقال أبو الطيب المتنبي

منى كن لى ان البياض خضاب * فيخفى بتبييض القرون شباب
ليالى عند البيض فوداى فتنة * وفخر وذاك الفخر عندى عاب
فكيف أذم اليوم ما كنت اشتهى * وأدعو بما أشكوه حين أجاب
جلا اللون عن لون هدى كل مسلك * كما انجاب عن ضوء النهار ضباب

وقال ابن الرومى

من كان يبكى الشباب من أسف * فلست أبكى عليه من أسف
كيف وشرخ الشباب عرضنى * يوم حسابى لموقف التلف
لاصوحبت شدة الشباب ولا * عدمت ما فى المشيب من خلف

ولا خفاء بما أودع الناظم هذه الأبيات من التجنيس والترصيع والطباق

ظِلُّ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عِنْدَهُ * أَنْعَمُ مِنْ ظِلِّ الشَّبَابِ وَالصِّبَا
فَانْ ذَوَى دَوْضُ الصِّبَا فَجُودُهُ * يُعِيدُ غُصْنًا نَاعِمًا مَاقَدْ ذَوَا
فَلَا تَظُنَّنِي أَنَّنِي آسَى لِمَا * قَدْ بَزَّنِي صَرْفُ الزَّمَانِ وَبَزَا
قَدْ مَارَسَتْ نَفْسِي حَالَيْ دَهْرِهَا * فَلَمْ يَدُمْ سُرُورُهَا وَلَا الأَسَا
وَوَاصَلَتْ عَيْنِي الكَرَى وَفَارَقَتْ * فِي حَالَتَيْ إِقَامَةٍ وَمُنْتَأَى

يقال بزه الشئ يبزه بزا انزعه منه وسلبه إياه ومنه من عز بز و يقال بزه بزوا وأبزاه قهره و بطش به وفى قصيدة أبى طالب بن عبد المطلب

كذبتم وبيت الله نبزا محمدا * ولما نقاتل دونه ونناضل

أى يؤخذ مناقهرا صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومثله بزا فى بيت الناظم و يمكن أن يكون نبزا فى بيت

أبي طالب أصله نبزز من بز يبز وأبدل الثاني من الحرفين المضاعفين ياء والاعلال سابق الادغام وصرف الزمان حدثانه ونوائبه والمراس الممارسة والمعالجة يقول أن تقلص ظل الشبيبة عنه فظل هذا الأمير أنعم له واضفى عليه وجوده يعيد له الأيام كأيام الشباب من حسنها وبهائها فلذلك لا يأسى على ما ذهبت الأيام من صباه قلت والصحيح ماقال الشاعر

لاتكذبن فما الدنيا بأجمعها * من الشباب بيوم واحد بدل

وقال الآخر

ما كنت أوفى شبابي حق غرته * حتى انقضى فاذا الدنيا له تبع

وقول أبي العلاء المعري

وقد تعوضت من كل بمشبهه * فما وجدت لايام الصبا عوضا

وقول الاخر

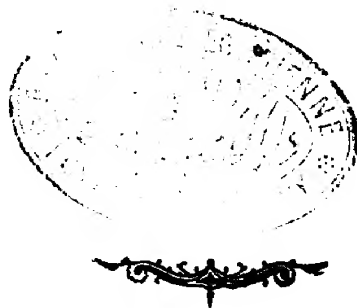
شيئان لو بكت الدماء عليهما * عيناى حتى تؤذنا بذهاب
لم تبلغا المعشار من حقيهما * فقد الشباب وفرقة الاحباب

وانما نزع الناظم فى ذلك منزع أبى بكر بن مجبر فى قوله

رحل الشباب وما سمعت بعبرة * تجرى لمثل فراق ذاك الراحل
قد كنت أزهى بالشباب ولم أخل * ان الشبيبة كالخضاب الناصل
ظل صفالى ثم زال بسرعة * ياويح مغتر بظل زائل
ان شئت ظلا لايزول بحالة * فاعمد الى ظل الامام العادل

وقد طابق بين ذوى وغض و بين السرور والاسى و بين الاقامة والمنتأى و بين فارقت و واصلت وجانس بين بز و بزاو عادل فى البيت الاخير بين الصدر والعجز

﴿ تم الجزء الاول و يليه الجزء الثانى وأوله كم موقف ﴾



﴿ الجزء الثاني من ﴾

كتاب

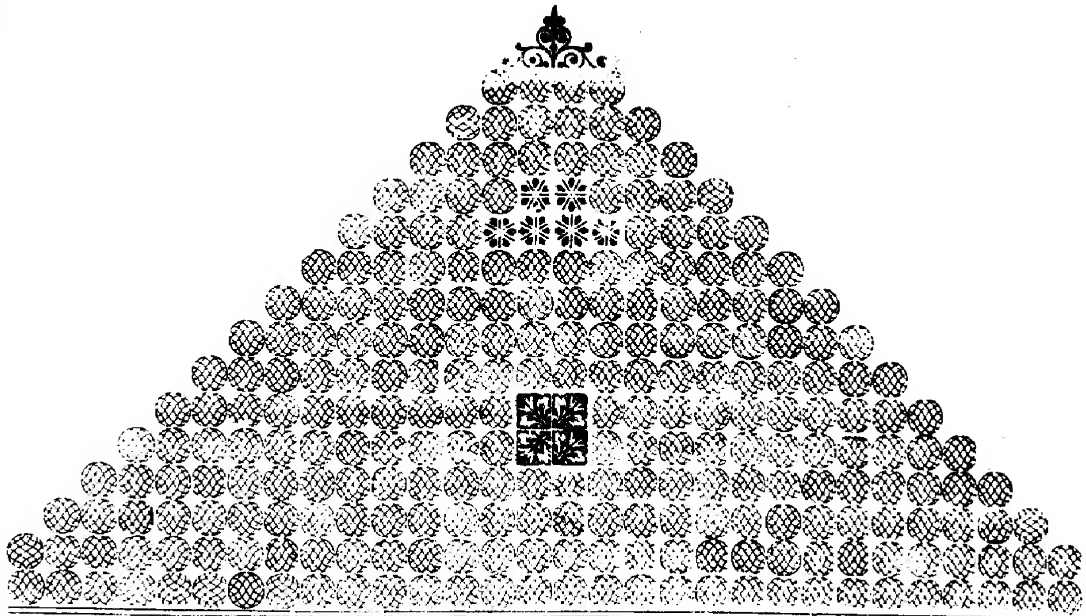
﴿ رفع الحجب المستورة ۞ في محاسن المقصورة ﴾

شرح العالم الامام القاضي ابو القاسم محمد بن احمد الغرناطي المولود بسبتة في السادس لشهر ربيع الاول سنة ٦٩٧ هـ المتوفى بغرناطة قاضيا بها في اوائل شعبان سنة ٧٦٠ هـ على قصيدة مقصورة الامام الاوحد ابي الحسن حازم بن حسن بن حازم الانصاري القرطاجني رحمهما الله



طبع هذا الكتاب الجليل القدر على نفقة من حل ذروة العلياء ۞ وتوشح بفضائل النبلاء والعلماء ۞ وحاز الفضائل والمكارم ۞ والمفاخر والمعالم ۞ ودانت له السعادة في كل مكان وزمان ۞ ورمقته عين العناية في كل آن ۞ الجامع بين السيف والقلم ۞ والعلم والكرم ۞ منبع الجود في أوطانه ۞ وحاتم طي زمانه وبرمكي اوانه ۞ العالم العلامه والحبر الفهامة فارس الفرسان وفريد هذا الزمان وأرومة الافاضل المشهورين ۞ وفخر السادات المزواريين السيد الحاج التهامي المزواري باشا مراكش الحمراء ونواحيها ۞ وحاكم سهولها وجبالها الذي لازال بعون الله ينقب عن الكتب المفيدة ۞ والتآليف النادرة العزيزة ۞ ليتحف بنشرها الراغبين ويهدي بنور فوائدها الغافلين جزاه الله جزاء الخير وخير الجزاء ۞ وأجزل عليه جزيل العطاء ۞ وقد تم الطبع على يد وكيله السيد قاسم الدكالي غفر الله ذنوبه وستر عيوبه

﴿ مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر سنة ١٣٤٤ هجرية ﴾



بسم الله الرحمن الرحيم



وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كَمْ مَوْقِفٍ حَمَّلَنِي ثِقْلَ الجَوَى ... حَمْلَ المَهَارَى فِيهِ صِيرَانُ المَهَا
قَسَّمْتُ أَلحَاظِي وَدَمْعِي عِنْدَمَا ... تَقَسَّمَتْ نَفْسِي النَّوَاجِي وَالنَّوَى
مَا بَيْنَ ظُعْنٍ سُطِّرَتْ جِمَالُهَا ... وَدِمَنٍ جِمَالُهَا قَدْ امَّحَا
دَارٌ سَفَا مَرُّ الأَعَاصِيرِ عَلَى ... مَرِّ الأَعَاصِيرِ بِهَا مَا قَدْ سَفَا
تَحْثِي السَّفَا عِنْدَ المَصِيفِ فَوْقَهَا ... كُلُّ عَصُوفٍ قَدْ سَفَتْ فِيهِ الحَثَى
قَدْ كَانَ فِي نَشْرِ الكِبَاءِ لِلصَّبَا ... شُغْلٌ بِهِ فَصَارَ فِي سَفْرِ الكِبَا

المهارى جمع مهرى ينسب الى مهرة بن حيدان وهى قبيلة تنسب اليها الأبل وكان اصله مهارى ثم حذفت احدى الياءين ثم صير كحبالى والصيران جمع صوار وهو القطيع من البقر قال الشاعر

إذا لاح الصوار ذكرت ليلى * واذكرها اذا نفح الصوار

أراد بالصوار الأول قطيع البقر وبالثانى وعاء المسك والمها جمع مهاة وهى البقرة الوحشية وقد تقدم وكنى هنا بالصيران عن النساء يريد ان الذى حمله عظيم ما يجده وارتحال المهارى بحبائبه نصب صيران على انه مفعول يعمل فيه حمل المهارى وثقل على انه مفعول حملنى والنواجى جمع الناجية وهى الناقة السريعة والظعن جمع ظعينة وهى الهودج كانت فيه امراة أو لم تكن فيه قال أبو زيد لا يقال حمول ولا ظعن الا للابل التى عليها

الهوادج كان عليها نساء أولم يكن وهذا بعير تطعنه المرأة أى تركبه والظعينة المرأة مادامت فى الهودج فاذا لم تكن فيه فليست بظعينة ويقال ظعن بضم العين وهو الأصل وظعن بسكونها وهو مخفف منه والدمن جمع دمنة وهى اثر الديار و تمحى انفعل من المحو وادغمت النون فى الميم يقول انه قسم الحاظه ودموعه فجعل الألحاظ للظعن والدموع للدمن وقد يكون المعنى أنه جعل لكل فريق حظامن لحظه وحظامن دمعه فتكون الدموع مقسمة بين الظعن والدمن والألحاظ كذلك واما قوله تقسمت نفسى النواجى والنوا فمراده ان الركائب ذهبت ببعض حبائبه فى جانب و ببعضهم فى طريق اخرى وهو يشبه قول بشار

حدا بعضهم ذات اليمين و بعضهم * شمالا وقلبى بينهم متوزع

فوالله ما أدرى بليل وقد مضت * حمولهم أى الفريقين اتبع

و ينظر الى قول العباس ابن الأحنف

تفرق قلبى من مقيم وظاعن * فلله درى أى قلبى اتبع

وقوله دار سفا البيت يقال سفت الريح التراب تسفيه سفيا اذا ذرته والأعاصير فى اول البيت الرابع جمع اعصار وهو ريح تثير الغبار وترتفع الى السماء كانها عمود قال تعالى فاصابها إعصار فيه نار والأعاصير فى عجزه الأزمان وهو جمع اعصار واعصار جمع عصر وعصر وهو الأظهر وقوله دار سفاس الأعاصير رفع دار على اضمار مبتدأ لا يجوز اظهاره تقديره تلك دار وهى دار ويجوز فيه النصب على اضمار فعل لا يظهر ايضا تقديره أذكر دارا وانما لم يجز إظهار الرافع ولا الناصب مع ذكر الدار اوالديار ونحو ذلك لكثرة ما جرى فى اشعارهم مع تقدم ذكر المنازل فجرى عندهم كالمثل نص على ذلك صاحب الكتاب وانشد عليه قول ذى الرمة

دار لمية أذى تساعفنا * ولا يرى مثلها عجم ولا عرب

وقول الشاعر أعتاد قلبك من سلمى عوائده * وهاج أهواءك المكنونة الطلل

ربع قواء أذاع المعصرات به * وكل حيران سار ماؤه خضل

قال سيبويه فاذا رفعت فالذى فى نفسك ما أظهرت واذا نصبت فالذى فى نفسك غير ما أظهرت يريد أنك اذا رفعت قدرت مبتدأ محذوفا وهو فى المعنى الخبر واذا نصبت فانما تقدر الفعل وهو غير المنصوب فى المعنى يقول كثر سفى الريح للتراب على مر الأزمان فى هذه الدمن حتى امحت وتغير جالها وقوله تحثى السفا السفا التراب و يقال حثا التراب يحثو و يحثى والحثا دقاق التبن قال * كأنه غرارة ملأى حثا * والعصوف الريح الشديدة يقال عصفت الريح فهى عاصف وعصوف اذا اشتدت وصف تلك الدمن بان الرياح تحثى التراب عليها وتذروا فيها دقاق الهشيم وانما خص المصيف لأن التراب فيه لم يلبده المطر فيستد ذروالرياح له وهذه كلها أوصاف أردافيه تدل على تغير حال الديار وما صارت اليه بعد سكانها وقد قال النابغة

توهمت آيات لها فعرفتها * لستة اعوام وذا العام سابع

كان مجر الرامسات ذيولها * عليه حصير نمقته الصوانع

وقوله قد كان فى نشر الكباء البيت الكباء ضرب من العود وهو ممدود وقد تقدم تفسيره والكبا الكناسة وهو مقصور والجمع اكباء مثل معا وامعاء والكبة مثله والجمع كبون والنشر الرائحة قال الشاعر

* وريح الخزامى ونشر القطر * والنشر الاذاعة يقال نشرت الخبر أنشره وأنشره اذا اذعته والسفر الكنس يقال سفرت البيت أى كنسته يقول كانت ريح الصبا تنشر روائح الطيب فى تلك الدار حيث كان بها حبائبه فصار شغلها بعدهم ما تكنسه فيها من التراب وتحمله من الكناسات وقد جانس بين المهارى والمها و بين النواجى والنوى و بين الجمال والجمال و بين الاعاصير والاعاصير و بين الكباء والكبا و بين تحثى

السفا وسفت الحنى وفى قوله سطرت جالها وجالها قد امحى طباق معنوى و وقع له ما بين البيت الثانى والثالث تضمين لان قوله بين ظعن متعلق بقسمت الا أن يقدر البيت الذى افتتحه بقسمت مستقلا بنفسه و يقدر فعل آخر يتعلق به ما بين فى البيت بعده كأنه قال تقسمها ما بين ظعن ودمن فقد تزول عنه هجنة التضمين بذلك على تكلف

ألووا بكل مغرم كأنما ... قد لويت أضلعه على لوا
من كل ساهى الفكر مغشى على ... فؤاده من كثرة الوجد غمى
تململوا فوق ذرى أكوارهم ... كأنما باتوا على حد المدا

الو واذهبوا يقال الوى فلان بحق أى ذهب به ومنه الوت به عنقاء مغرب اذا كان لا يطمع فيه أى ذهبت به ولو يت حنيت وعطفت واللوى بالفتح وجع فى الجوف تقول منه لوى بالكسر بريد أنهم ذهبوا بكل من ينطوى على ألم الغرام حتى كأن به وجعا وساهى الفكر غافل الفكر بريد أنه ذاهب العقل قد دلهه الوجد و يقال قد تركت فلانا غمى أى مغشيا عليه وهو من قولهم أغمى عليه وأجرى غمى صفة على ساهى الفكر وقوله تململوا فوق ذرى أكوارهم أى أعالبها بريد أنهم لم يستقروا من شدة الألم يقال فلان يتململ فوق فراشه والاكوار جمع كور وهو الرحل باداته و يجمع أيضا على كيران والمدى جمع مدية أى كأنهم باتوا على أطراف السكاكين من كثرة الاضطراب والألم وقد جانس بين الووا ولويت ولوى

قد وسم الحب جسوما منهم ... بصفرة من النحول وضنا
ووسم الوخد رءوسا منهم ... بشمطة من المشيب وجلا
أعدت جسوم العيس أجسامهم ... قد كدن لا يبصرن من فرط الضوا
وأعدت الانفس منها أنفس ... منهم فرقت من غرام وهوا

الضنى المرض يقال منه ضنى بالكسر ضنى شديدا فهو ضنا وضن مثل حرا وحر والوخد ضرب من السير وقد تقدم والشمطة بياض شعر الرأس يخالط سواده والجلى ابتدأ الصلع يقول ان الحب أضنى جسومهم وصفر الوانهم وان نصب السير أشابهم وغير أحوالهم هذا ان ثبت ضبط هذا الموضع الوخد بالخاء وان ثبت بالجيم فيريد وجد الغرام وقوله أعدت جسوم العيس أجسامهم يقال أعدى فلان فلانا من خلقه أو من علة به أو جرب وفى الحديث لاعدوى أى لا يعدى شئ شيأ والضوى الهزال وقد ضوى بالكسر يضوى ضوى يقال أعدت جسوم هؤلاء القوم جسوم العيس فهى مثلها فى الهزال وأعدت نفوسهم نفوسها فلذلك ظهرت أمارات الشوق عليها حتى كثر حنينها ولاحت عليها علامات الغرام والابل كثيرا ما توصف بالطرب الى الأصوات الحسان و بالحنين الى الاوطان وانها اذا يحدو بها حاد حسن النغمة سارت سيرا يزيد عن السير المعهود منها أضعافا وذلك أنها لاتشعر بالتعب من شدة ما تكون فيه من استغراق الأنفس و ربما أمعنت فى السير حتى يكون سببا لهلا كها ولبعضهم فيما يتعلق بذكر الابل

أقول لنضر أنفد السير نيها * فلم يبق منها غير عظم مجلد
خذى بى رمالك الله بالشوق والهوى * وهاجك تحنان الحمام المغرد

فرت سريعا خوف دعوة عاشق * تشق بى الظلماء فى كل فدفد
فلما ونت فى السير عاودت دعوتى * فكانت لها سوطا الى صحوة الغد

وقد وازن بين الجسوم والرؤس و بين الصفرة والشمطة و بين الضنى والجلى مع الترصيع الذى ضمنه البيتين والمقابلة التى اشتملت عليها هذه الأبيات

وَأَصْبحَتْ مِمَّا ارْتَقَتْ أَنْفاسُها * أَنْفُسُها بَيْنَ التَّراقِى وَاللَّها
عَوَى الحَنِينَ رَأْسَها وَعاجَهُ * لِلدَّارِ فانْعاجَ الَيْها وَانْعَوَى
وَقَدْ عَنِى لِلْوَجْدِ جارِى دَمْعِها * فَسَحَّ مِنْ فَوْقِ الثَّرَى حتى عَنا
وَساعَدَتْ رَوَاغِياً صَوَاهِلٌ * وَجاوَبَتْ لِمًا بِشَكْوِها لِمَا

التراقى جمع ترقوة وهو العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق وهو فعلوت وقد تقدم تفسير اللها بفتح اللام ومراده انها بلغت الغاية من النصب والجهد فانفاسها تعاوا الصعداء حتى كادت أنفسها تزهق وهو المعنى بقوله بين التراقى واللها كما قال الله تعالى كلا اذا بلغت التراقى فرفع الانفاس على انها فاعل بارتقت والانفس على انها مبتدأ خبرها بين أو على انه اسم لأصبح وقوله عوى الحنين رأسها يقال عويت رأس الناقة أى عجته فانعوى فانعاج و يقال عجت البعير أعوجه عوجا ومعاجا اذا عطفت رأسه بالزمام وانعاج عليه أى انعطف والحنين الشوق وتوقان النفس يقال حن اليه يحن حنينا فهو حان وقوله وقد عنى للوجد جارى دمعها يقال عنى يعنو اذا خضع وذل ومنه قوله تعالى وعنت الوجوه للحى القيوم وهو كناية عن اجابته وسيلانه كما قال أبو فراس

اذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى * وأذللت دمعا من خلائقه الكبر

أى أجريت دمعا كان من شأنه أن لا يجيب ولا يسيل وقد يكون من قولهم دمع عان أى سائل وقوله فسح من فوق الثرى حتى عنى أى حتى أنبت يقال عنت الأرض بالنبات تعنو عنوا وتعنى أيضا اذا ظهر نبتها يقال لم تعن بلادنا بشئ ولم تعن اذا لم تنبت قال ذو الرمة

ولم يبق بالخلصاء مما عنت به * من الرطب الا يبسها وهجيرها

وقوله وساعدت رواغيا صواهل الرواغى الابل يقال رغا البعير رغاء والصواهل الخيل وقد صهل الفرس يصهل صهيلا بالكسر واللمى جمع لمة وهى الاصحاب من الثلاثة الى العشرة وانما أراد هنا الجماعات يقول ان الابل تطارح الخيل والخيل تطارح الابل هذه بالرغاء وهذه بالصهيل والفرق من الناس تجاوب الفرق بشكواها والوجه أن يكون لما الاخير رفعا على الفاعلية ولما المتقدم مفعولا مقدما لأمرين أحدهما المناسبة بين صدر البيت وعجزه فكما قدم المفعول على الفاعل فى الصدر فكذلك يكون العجز يتقدم فيه المفعول وثانيهما أن لما المختوم به البيت لو حمل على انه مفعول لم يسغ الا على رأى من يرى ان الالف المنصوب المنون أصلية فى الوقف أو على لغة من قال (جعل القين على الدف ابر) وقد نبهت عليه قبل وانما ذكرت هذا لأن النحاة يقولون فى مثل ضرب موسى عيسى ان تقديم الفاعل واجب هنا لعدم ما يدل على تأخيره لكن ما ذكرت فى بيت الناظم قرينة يغاير بها قول القائل ضرب موسى عيسى و بيانه ان المعنى لا يختلف فى بيت الناظم لان المجاوب مجاوب فى المعنى فتأمل ماذكرته فانه صحيح ونظير قوله وساعدت رواغيا صواهل البيت الى قول أبى منصور الكاتب من قطعة ننشد جميعها هنا استطرافا لها وهى

ماض من أيامنا هل يغرم * هيهات والازمان كيف تقوم
يوم بارواح يباع ويشترى * وأخوه ليس يسام فيه درهم
لى وقفة فى الدار لا رجعت بما * أهوى ولا يأسى عليها يقدم
وكفى بأنى للنوائب عاتب * ولصم أحجار الديار مكلم
ومن البلادة فى الصبابة اننى * مستخبر عنهن من لايفهم
واذا البليغ شكا اليها بثه * عبثا فما بال المطايا ترزم
كل كنى عن شوقه بلغاته * ولربما أبكى الفصيح الاعجم
أردت هذا البيت
نرجو سلوا فى رسوم بينها الا * أغصان سكرى والحمام متيم
هذى تميل اذا تنسمت الصبا * والورق تذكر شجوها فترنم
وانما أخذ أبومنصور قوله ولربما أبكى الفصيح الأعجم من قول حميد وقد أنشدته
فلم أر مثلى شاقه صوت مثلها * ولا عربيا شاقه صوت أعجما

وأَذْكَرْتَهُنَّ المَهارَى العَهْدَ إِذْ * كانَتْ مِهاراً فى ذُرَاها تُفْتَلاَ
وَقَدْ وَقَفتُ العيسَ فى مَعاهِدٍ * يُجيبُ فى أطْلاَلِها البُومَ الصَّدَا
وَقَدْ أقمتُ لِلعُلَى صُدُورَها * فَلَمْ تَقِفْ بى دُونَ أعجازِ الفلاَ
فى فِتْيَةٍ ما لامْرِىءٍ مِنهُمْ سوَى * كَسْبِ المَواضِى وَالقنَا مِنْ مُقتَنَا
كأنَّهمْ ما غَذَّوا مِنْ طُولِ ما * قَدْ أغْذَفُوا لُثْمَهُمْ فَوْقَ اللِّحا

المهارى جمع مهرى وقد تقدم تفسيره والمهار جمع مهر ويقال فلوته عن أمه وافتليته اذا فطمته قال الاعشى
ملمع لاعه الفؤاد الى * جحش فلاه عنها فنعم الفالى
وبذلك سمى المهر فلوا ويقال أيضا فلوته وافتليته ادار بيته قال الشاعر * نجيب فلاه فى الرباط نجيب * وقال الشاعر
وليس يهلك منا سيد أبدا * الا افتلينا غلاما سيدا فينا
والمعنيان سائغان فى بيت الناظم وانما عبر عن الصغر يقول ان الخيل حين رأت الابل تذكرت زمان كونها فى البادية صغارا حيث نشأت مع الابل وينظر الى قول أبى الطيب
مررت على دار الحبيب فحمحمت * جيادى وهل تشجوا الجياد المعاهد
وما تنكر الدهماء من رسم منزل * سقتها ضريب الشول فيها الولائد
وقوله وقد وقفت العيس البيت البوم طائر معروف شأنه ان لا يألف الا المواضع المقفرة الخالية والصدا ذكر الهام والصدا أيضا الصوت الذى يجيب صوتك فى الجبال وغيرها وأكثر ما يكون فى المواضع غير المعمورة يريد أنها صارت خلاء لا يألفها الا البوم الذى لا يألف الا الخرابات ولا يجيبه فيها الا الهام أو يكون مراده لا يجيبه الا صدا الجبال وهو من أوصاف الارداف وقوله وقد أقمت للعلى صدورها يقال أقمت الشئ اذا أزلت عوجه ومنه أقمته على الطريق أى حملته عليه من غير أن يجور عنه أو يخرج يمينا أو شمالا وصدورها أوائلها وانما خص

أوائلها لانها اذا استقامت فى مشيها تبعها سائرها فاستقام الجميع وقوله فلم تقف بى دون اعجاز الفلا * اعجاز الفلا أواخرها يريد أنه أوغل فى قطع الفلا حتى انتهى الى آخرها وقوله للعلى أى لاجل العلى يريد أن قطعه للفيافى انما كان فى طلب المعالى ولاجلها وقوله فى فتية مالامرئ منهم سوى يعنى أنهم أهل كرم وشجاعة فهم يهبون كل شئ ولا يقتنون الا الرماح والسيوف اعدادا للحرب وهو يشبه قول أبى العلاء المعرى

فتى يهب اللجين المحض جودا * ويدخر الحديد له عتادا

وقال أبو فراس الحارث بن سعيد الحمدانى

(بخلت بنفسى أن يقال مبخل * وأقدمت جبنا أن يقال جبان)

ومالى بقايا ما وهبت مفاضة * ورمح وسيف قاطع وحصان

وقوله كأنهم ماعذروا من طول ما البيت يقال عذر الغلام اذا انبت شعر عذاره وأغدفوا أرسلوا يقال اغدفت المرأة قناعها أى أرسلته على وجهها قال عنترة

أن تغد فى دونى القناع فاننى * طب بأخذ الفارس المستلئم

وأغدف الليل أرخى سدوله ويقال لحى ولحى بكسر اللام وضمها يقول أنهم لا تظهر لحاهم لطول التثامهم كما لا ترى للذين لم يعذروا لحى وقوله من طول مايتعلق بالجرور عما فى كأن من معنى التشبيه ولا يصح أن يتعلق بعذروا لان المعنى لا يصح عليه وقد كان اتخاذ اللثام من شأن شجعان العرب وفرسانهم فى مواطن الحروب وقال النعمان بن بشير بن سعد الانصارى

معاوى الا تعطنا الحق تعترف * لحى الاسد مسدولا عليها العمائم

أيشتمنا عبد الاراقم ضلة * فماذا الذى تجرى عليك الاراقم

فمالى ثار دون قطع لسانه * فدونك من ترضيه عنك الدراهم

وكان سبب هذه الابيات أن يزيد بن معاوية عتب على قوم من الانصار فأمر كعب بن جعيل التغلبى بهجائهم فقال له كعب كيف أهجو الانصار أرادى أنت فى الكفر بعد الاسلام ولكنى أدلك على غلام من الحى نصرانى كأن لسانه لسان ثور يعنى الاخطل فكان فيما قال

ذهبت قريش بالمكارم كلها * واللؤم تحت عمائم الانصار

فلما قال الاخطل هذا البيت دخل النعمان على معاوية فحسر عمامته عن رأسه ثم قال يامعاوية أترى لؤما فقال ماأرى الا كرما فعندها قال النعمان الابيات وكانت أيضا فرسان العرب اذا كان أيام عكاظ فى الشهر الحرام وامن بعضهم بعضا تقنعوا حتى لا يعرفوا وذكر عن طريف بن تميم العنبرى وكان من الشجعان انه كان لا يتقنع كما يتقنعون فوافى عكاظ سنة وقد حشدت بكر بن وائل وكان طريف قد قتل قبل ذلك شراحيل الشيبانى فقال حصيصة بن شراحيل أرونى طريفا فأروه إياه فجعل كلما مر به طريف تأمله ونظر اليه حتى فطن له طريف فقال له مالك تنظر الى مرة بعد مرة فقال أتوسمك لأعرفك فلله على لئن لقيتك فى حرب لاقتلنك أو تقتلنى فقال طريف عند ذلك

أوكلما وردت عكاظ قبيلة * بعثوا الى عريفهم يتوسم

فتوسمونى اننى أنا ذاكم * شاك سلاحى فى الحوادث معلم

تحتى الأغر وفوق جلدى نثرة * زغف ترد السيف وهو مثلم

وانما اخذه الناظم من قول المتنبى

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ * كانهمو من طول ما التثموا مرد

وقد قال ابن وكيع فى تفسير هذا البيت ان كان فى اخذ حقه ممن يتلطف فى اخذه بالحيلة والرأى فالمشائخ اصلح له وان كان يريد من يقاتل بغير فكر فى عاقبة فالمرد خير له وقد قال المأمون من نهض بعد الأربعين لم يبلغ مجدا يريد ان المجاوز لهذا السن تضعف قوته وتقصر فى طول الحياة امنيته قلت وهذا النقد ساقط عن الناظم لأنه دل بقوله عذر واعلى انهم شبان

مِنْ كُلِّ مَنْ يَعْتَدُّ أَعْلَى نِسْبَةٍ ... بِهَا يُحَلِّي أَنْ يُقَالَ ابْنُ جَلاَ

وَكُلِّ نِضْوٍ فَوْقَ نِضْوٍ قَدْرَعَتْ ... مِنْهُ الفَلاَ مَا كَانَ مِنْهَا قَدْ رَعَى

تَمَزَّقَتْهُ الحَادِثَاتُ وَالسُّرَى ... فَآضَ كَالغُصْنِ السَّلِيبِ المُلْتَحَى

العرب تطلق ابن جلا وتريد به المنكشف الأمر الذى لا يخفى قال الشاعر وهو سحيم بن وثيل

(أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * متى اضع العمامة تعرفونى
وانى مكاننا من حميرى * مكان الليث من وسط العرين
وانى لا يعود الى قرنى * غداة الروع الاقى قرين
بذى لبد تصد الركب عنه * ولا تؤتى فريسته لحين
عذرت البزل ان هى خاطرتنى * فمابالى وبال ابنى لبون
وماذا تدرى الأعداء منى * وقد جاوزت رأس الاربعين
أخو خمسين مجتمع اشدى * ونجذنى مداورة الشؤون
وان علالتى وجراء خيلى * لذو شق على الضرع الظنون
كريم الخال من سلفى نزار * كنصل السيف وضاح الجبين
وان قناتنا مشظ شظاها * شديد لبها عنق القرين

وجلا غير منون لأنه أراد الفعل فحكاه مقدرا فيه ضمير الفاعل والفعل اذا سمى به غير منتزع عنه الفاعل لم يكن هنا الا حكاية كقول الشاعر وهو تأبط شرا

كذبتم و بيت الله لا تأخذونها * بنى شاب قرناها تصر وتحلب

وكما قال الشاعر

والله مازيد بنام صاحبه * ولا مخالط الليان جانبه

وانما أراد أنا ابن الأمر الذى يقال له جلا و بنى التى يقال لها شاب قرناها و والله ما زيد بالذى يقال فيه نام صاحبه وقد تمثل الحجاج بن يوسف بهذا البيت عند دخوله الكوفة

﴿ ذكر دخول الحجاج الكوفة ﴾

ذكر عن عبد الملك بن عمر الليثى قال بينما نحن بالمسجد الجامع بالكوفة واهل الكوفة يومئذ ذووا حال حسنة يخرج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من مواله اذا آت فقال هذا الحجاج قد قدم اميرا على العراق فاذا به قد دخل المسجد معتما بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلدا سيفا متنكبا قوسا يؤم المنبر فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم فقال الناس بعضهم لبعض قبح الله بنى امية حيث تستعمل مثل هذا على العراق حتى قال عمير بن ضابئ البرجمى الا أحصبه لكم فقالوا أمهل حتى ننظر فلما رأى عيون

الناس اليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا * متى أضع العمامة تعرفونى

وقال يا أهل الكوفة إنى لأرى رؤسا قد اينعت وحان قطافها وانى لصاحبها كانى انظر الى الدماء بين العمائم واللحى

هذا أوان الشد فاشتدى زيم * قدلفها الليل بسواق حطم
ليس براعى ابل ولا غنم * ولا بجزار على ظهر وضم

ثم قال قد لفها الليل بعصلبى(١) * أروع خراج من الدوى
* مهاجر ليس باعرابى *

وقال قدشمرت عن ساقها فشدوا * وجدت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وترعردّ * مثل ذراع البكر أواشد

إنى والله ياأهل العراق ما يقعقع لى بالشنان ولا يغمز جانبى كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وان أمير المؤمنين قد نثل كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودا وأصلبها مكسرا فرما كم بى لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة واضطجعتم فى مراقد الضلال والله لأجرمنكم جرم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الأبل فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون وانى والله ماأقول الاوفيت ولا أهم الاأمضيت ولا أخلق الافريت وان أمير المؤمنين أمرنى باعطائكم اعطياتكم وان أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن ابى صفرة وانى اقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه ثلاثة أيام الاضربت عنقه ياغلام إقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحدمنهم شيأ فقال الحجاج أكفف ياغلام ثم أقبل على الناس فقال أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيأ هذا أدب ابن نهية أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أولتستقيمن إقرأ ياغلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ الى قوله السلام عليكم لم يبق احد فى المسجد الاقال وعلى أمير المؤمنين السلام ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كبرا فقال أيها الأمير إنى من الضعف على ماترى ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى أفتقبله بدلا منى فقال له الحجاج نفعل ايها الشيخ فلما ولى قال له قائل أتدرى من هذا أيها الأمير قال له لاقال هذا عمير بن ضابئ البرجمى الذى يقول أبوه

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى * تركت على عثمان تبكى حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فوطئ بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه فلما ردوه قال له الحجاج أيها الشيخ هلا بعثت الى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار إن فى قتلك أيها الشيخ لصلاحا للمسلمين ياحرسى اضرب عنقه فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل و يأمر وليه أن يلحقه بزاده ففى ذلك يقول عبدالله ابن أبى الزبير الاسدى

تجهز فاما أن تزور ابن ضابئ * عميرا واما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما * ركوبك حوليا من الثلج أشهبا
فاضحى ولو كانت خراسان دونه * رآها مكان السوق أوهى أقربا

ومراد الناظم بالبيت أن كل واحد منهم يرى أن أعظم ما يوصف به أنه يأتى الأمور جهارا غير متهيب لها ولا

---

(١) القوى الشديد الخلق العظيم

عتنف وذلك لشهر تهواقدامه وقوله وكل نضو فوق نضو النضو المهزول ولما كان السير فى الفيافى وقطع القفار مما يهزل الابل ويذهب لحمها لما تعانيه فى ذلك من النصب جعل الفيافى والفلا كالراعية للحم هذا البعير كما قال

وحملت رحلى فوق ناجية * يقتات شحم سنامها الرحل

أراد أن الرحل هو الذى أذهب لحمها ومعنى البيت أن هؤلاء الفتية ما منهم الا فتى مهزول من نصب السير راكب على جمل مهزول من قطع الفلا قد رعت الفيافى لحمه الذى كان قد نبت بما رعى منها حين رعى نبتها وتقلب فى روضها وهو مأخوذ من قول أبى تمام حبيب بن اوس يصف بعيرا

رعته الفيافى بعد ما كان حقبة * رعاها وماء الروض ينهل ساكبه
فاضحى الفلا قد جد فى برى نحضه * وكان زمانا قبل ذلك يلاعبه
فكم جزع وادجب ذروة غارب * وبالأمس كانت أسمكته مذانبه

وقد أخذ الامير ابو فراس هذا المعنى فأحسن فيه فقال

برملتى عالج رسوم * يطول من دونها الرسيم
أنخت فيهن يعملات * ما عهد ارمالها دميم
أجدبها قطع كل واد * أخصبها نبته العميم
ردت على الدهر فى سراها * ما وهب النجم والنجوم
تلك سجايا من الليالى * للبؤس ما يخلق النعيم

أراد بالنجم النبات الذى لا ساق له وهو المراد فى قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان وأراد بالنجوم الكواكب وانما أراد المرعى نسبه الى النبت الذى ليس له ساق اذ كان معظم ما ترعاه الابل والى الكواكب لاجل مساقط الانواء وقول الناظم ينظر من بعيد الى قول أبى الطيب المتنبى وان لم يكن فى معناه

ومقانب لمقانب غادرتها * أقوات وحش كن من أقواتها

وهذا من استخراج معنى من معنى احتذى عليه وان فارق ما قصد به اليه وانما نظر أبو الطيب فيه الى أبيات أبى تمام التى أنشدتها وأصل هذا المعنى الذى تضمنه بيت الناظم قول الاول يصف الابل

ردت عوارى غيطان الفلا ونجت * بمثل أمثاله من حائل العشر

وقوله تعرقته أى أذهبت ما عليه من اللحم من قولهم عرقت العظم أعرقه عرقا اذا أكلت ما عليه من اللحم وتعرقت العظم مثله قال الشاعر

أكف لسانى عن صديقى فان أجأ * اليها فانى عارق كل معرق

ورجل معروق العظام ومعترق أى قليل اللحم والملحى الذى أزيل عنه لحاؤه وهو قشره وفى المثل بين العصا ولحائها يقال لحوت العصا الحوها لحوا اذا قشرتها وكذلك لحيتها ويقال أيضا لحيتها ألحيها لحيا والسليب الذى لا ورق عليه يقال شجر سلب وهو جمع سليب يقول ما منهم الا من أذهب لحمها يكابده من الحوادث ويقاسى من كلف السرى حتى صار لضموره وانسلاب اللحم عنه كالغصن الذى سلب ورقه ولحاؤه وفى البيت الثانى ترديد وتصدير

يَشْدُوا إذا جَنَّ الدُّجا تَعِلّلاً * لَهُ إذا أعْلَى الحَنِينَ وَاشْتَكَى
يَشكُو إلىَّ جَملِى طُولَ السُّرَى * صَبرٌ جَمِيلٌ فَكِلاَنَا مُبْتَلَى

يقال شدا يشدو اذا أنشد بيتا أو بيتين مد بهما صوته بالغناء ويقال للمغنى الشادى وقد شدا شعرا اذا غنى

به أو ثم يقول إنه ينشمه متمثلا لجله النضو اذا حن وفهم منه الشكوى من طول السرى هذا البيت وهو من ابيات كتاب سيبويه أنشده شاهدا على رفع صبر جميل مع ان معناه معنى الأمر بالصبر وذكر ان النصب في هذا الموضع اكثر واجود لأنه يأمره وهو اذا نصب بدل من اللفظ بالفعل ورفعه عند سيبويه على تقدير امرك صبر جميل ولا يجوز إظهار المحذوف هنا مع الرفع كما لا يجوز اظهار الفعل الناصب مع النصب لأن معناه ومعنى النصب واحد وقد زعم بعض الناس ان قوله صبر جميل مبتدأ لا خبر له وجعل اسم فعل ناب مناب الفعل والفاعل ووقع موقعه قال واستغنى عن الخبر بما فيه من معنى الفعل والفاعل ونظيره عندهم من كلام العرب قولهم حسبك ينم الناس لأن المعنى أكفف ولذلك أجيب كما يجاب الأمر فضمنه الناظم هنا وقد تقدم الكلام على التضمين

إنّي إذَا العُيونُ أُعْدَتْ مُهجتي فأصبَحَ السُّقْمُ علَيها قَدْ عدَا

دَاوَيْتُ نُكْسَ حالِها بِصِحَّةٍ مِنْ عَزْمَتِي أَعْيَتْ عَلى النُّكْسِ الدَّوَا

فكَمْ سَرَى عَنْهُ الهُمومَ مَنْ سَرَى وكَمْ تَدَاوَى مِنْ هَوًى مَن الدَّوَا

قوله اعدت مهجتي يريد من العدوى وقد تقدم تفسيرها وقوله فاصبح السقم عليها قد عدا أى ظلمها وتجاوز الحد يقال منه عدا عليه عدوا وعدوا وعداء وقال الله تعالى فيسبوا الله عدوا بغير علم والعدوان الظلم لما كانت العيون توصف بانها سقيمة وذلك لفتورها كما قال

نظرت اليك بحاجة لم تقضها * نظر السقيم الى عيون العوّد

جعل سقمها هو الذى أعدى مهجته حتى أصابها سقام الهوى وقوله داويت نكس حالها النكس بالضم عود المرض بعد النقه يقال نكس الرجل ينكس نكسا والنكس بالكسر الرجل الضعيف واصله السهم ينكسر فوقه فيجعل فى الكنانة أعلاه أسفله ليتميز فشبه به الرجل الضعيف والدوا بالفتح والقصر الأحمق يقول انه يداوى ما يصيبه من الهموم والآلام بعزم صحيح لا يثنيه شئ يعيي على الضعيف الذى لا رأى له وقوله فكم سرى عنه الهموم أى كشف يقال سروت الثوب عنى اذا كشفته وقد تقدم وسرى الثانى من السرى ومن ادّوى أى من كان به دوى وهو المرض ووزنه افتعل وأصله ادتوى فأبدلت التاء دالا وقد يمكن ان يكون سرى الثانى من السرو فيكون المراد على التفسير الأول كم كشف الهموم عنه من اعمل السرى وانتقل يطلب العز ويلتمس المعلوات ويكون على التفسير الثانى كم كشف الهموم عنه من كان سريا فلم يرض لنفسه بالأخلاد دون السمو الى العلى واعمال العزم فى طلبها يقال سرى يسرو وسرى بالكسر سروا فيهما وسرو يسرو وسراوة أى صار سريا ومن المعنى الأول قول الشاعر

سأعمل نص العيس حتى يكفنى * غنى المال يوما أو غنى الحدثان

فللموت خير من حيات يرى لها * على المرء بالأقلال وسم هوان

وقال ابو تمام فى قريب منه

وطول مقام المرء فى الحى مخلق * لديبا جتيه فاغترب تتجدد

فانى رأيت الناس الشمس زيدت محبة * الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وقال ابن الجهم

لا يمنعنك خفض العيش تطلبه * نزوع نفس الى اهل وأوطان

تلقى بكل بلاد إن حللت بها * أهلا بأهل وجيرانا بجيران

وقال الآخر

أعصى العواذل وارم الليل عن عرض * بذى سبيب يقاسى ليله خببا
حتى تصادف مالا أو يقال فتى * لاقى التى تشعب الفتيان فانشعبا

وقال الآخر

دعينى اطوف فى البلاد لعلنى * أفيد غنى فيه لذى الحق محمل
أليس عظيما أن تلم ملمة * وليس علينا فى الحقوق معول

وقد طابق بين الصحة والنكس وجانس بين نكس ونكس وسرى وسرى وتداوى وادوى

وَماعتَادِى حينَ أستَعْدِى على * دَهرِى سِوى ظَمْآنَ رَيَّانَ الشَّبَا
وَصارِمٍ مُصارِمٍ لِغِمْدِهِ * مُوَاصِلٍ ضَرْبَ الهَوَادِى والطُّلاَ
تُخْلِى جُسُومُ الكُومِ مِنْ أَرْوَاحِها * بهِ وهامَاتُ الكُمَاتِ تُخْتَلاَ

العتاد العدة يقال اخذ للامر عدته وعتاده أى اهبته ويقال عتده تعتيدا واعتده اعتادا أى أعده ومنه قوله تعالى وأعتدت لهن متكأ واستعدى أستعين وهو من معنى العدوى وهى المعونه وقوله سوى ظمآن ريان الشبا أراد به الرمح وصفه بالظمأ لضموره كما قالوا الأسل النواهل يريدون العطاش والشبا الطرف يريد طرف الرمح وصفه بالرى لكثرة ما يسقى من الدماء وقد كنت صنعت فى وصف الرمح قطعة أثبتها هنا لالمامها بشئ من هذا وهى

وأصم ممطول الكعوب اذا اقتضى * مهج الكماة فدينه لا يمطل
متوقد حتى أقول اذا بل * يبدى منه أم ذبال مشعل
لولا التهاب النصل اينع عوده * مما يعل من الدماء وينهل
فاعجب له أن النجيع بطرفه * رمد ولا يخفى عليه مقتل

وقوله وصارم مصارم لغمده أى هاجر للغمد يريد انه لا يغمد لكثرة ما يستعمل فى قتل الأعادى وفى الحروب وقال المتنبى

وبيض مسافرة لا يقمـ * ن لا فى الرقاب ولا فى الغمود

وقال حبيب بن اوس

فلا تطلبوا أسيافهم فى غمودها * فقد سكنت بين الطلا والجماجم

ثم ذكر أنه مع ذلك يواصل ضرب الأعناق وهذان من الاوصاف الأرادفية وقوله تخلى جسوم الكوم الكوم جمع كوماء وهى الناقة العظيمة السنام وتخلى تترك خالية من اخليت المكان وقوله وهامات الكمات تختلى أى تقطع وهو من قولهم اختليت الخلا وخليته أى جززته وهو على التشبيه وقال الشاعر

تخلى الجماجم والأكف سيوفنا * ورماحنا بالطعن تنتظم الكلا

والكمات جمع كمى وقد تقدم والهامات جمع هامة وهى الرأس يريد انه ينحر به الأبل للضيفان ويقتل به الشجعان فى الحرب يصف نفسه بالكرم والشجاعة وهذا كقول الشاعر وهو ابن الرومى

ماضم سيفا له غمد ولا برحت * ضريبتاه من الأعناق والجزر

وقال مهيار

للشباب صباحها ورواحها * عقر الكماة بها وعقر النيب

وقد جانس بين عتادى واستعدى وصارم ومصارم وتخلى وتحلى والكوم والكماة وطابق بين ظمئان وريان ومصارم ومواصل واوغل فى البيت الأول بقوله ريان الشبا

وَمُسْرَجٍ على الزَّفيرِ مُشْرَجِ مُلَمْلَمِ الصَّهْوَةِ مَلْمُومٍ وَآى

كأنَّهُ مُنحَصِرُ الانفَاسِ مِنْ رَبْوٍ وانْ لم يَنحَصِرْ ولاَ رَبا

أراد الفرس والمسرج المشدود عليه السرج والمشرج المغلق واصله المشدود العرى يقال اشرجت العيبة اذا شددت عراها وداخلت بين اشراجها وهى العرى ولذلك قال حبيب فى وصف الفرس

صهملق فى الصهيل تحسبه * اشرج حلقومه على جرس

أى اغلق والزفير اغتراق النفس يقول كانه زفر فشدت عرى جوفه وهو زافر وانما عبر عن عظم جوفه والفرس يمدح بعظم الجوف وانما أخذه الناظم من قول الجعدى

خيط على زفرة فتم ولم * يرجع الى دقة ولا هضم

فقوله خيط على زفرة كقول الناظم مشرج على الزفير وهو من المعانى الغراب البديعة يقول زفر فخيط على زفرته حتى اذا زفر بعد لم يضق عن الزفير وقد قال أبو الطيب المتنبى فى هذا المعنى

وعينى الى أذنى أغر كأنه * من الليل باق بين عينيه كوكب

له فضلة عن جسمه فى اهابه * تجيئ على صدر رحيب وتذهب

والململم والملموم بمعنى واحد وهو المستدير الصلب يقال كتيبة ململمة وملمومة أى مجتمعة مضموم بعضها الى بعض وصخرة ملمومة وململمة أى مستديرة صلبة والصهوة موضع اللبد من الفرس والوآى الموثق الخلق وأصله فى اللغة الحمار الوحشى ثم يشبه به الفرس وغيره قال الشاعر

راحوا بصائرهم على أكتافهم * وبصيرتى يعدوا بها عتد وآى

وقوله كانه منحصرا لأنفاس من ربو الربو النفس العالى يقال ربا يربو ربوا اذا أخذه الربو ويقال ربا الفرس اذا انتفخ من عدو أو فزع قال الشاعر

كأن حفيف منخره إذا ما * كتمن الربو كير مستعار

يقول تحسبه لعظم جوفه وسعة منخره منحصر الأنفاس وان كان لم ينحصر ولا أصابه ربو وقد جانس بين مسرج ومشرج فى البيت الاول وصدر فى البيت الثانى فرد ربا على ربو مع الترديد الذى له بمنحصر ولم ينحصر

وأعيَسٌ مُخيَّسٌ يَسْرِي اذَا ما وَصَلَ البِيدَ بِبيدٍ وَوَصَا

يَنْجُو اذا مَامَدَّ فى عُرْضِ الفلاَ بالخَطوِ أخْفَافاً خِفافاً وَسَدَا

اذَا اقتَرَى تحتَ ظَلاَمٍ أوْضُحًى زَفَّ كما زَفَّ الظَّلِيمُ وَزَفَا

كادَ النجَاءُ أنْ يُزيلَ شَخْصَهُ عَنْ ظِلّهِ وجِسْمَهُ عَن النَّجا

هَالَ العُيونَ غارِبٌ مِثْلُ النَّقا مِنْهُ ولكِنْ هالَهُ سَيرٌ نَقا

يَهفُو بِهادِيهِ حِذارَ أَرْقَمٍ   لَوّاهُ في سالِفَتَيهِ مَنْ لَوَى

الأعيس واحد العيس وهي الابل البيض يخالط بياضها شئ من الشقرة والانثى عيساء و يقال العيس كرائم الابل والمخيس المذلل و يشرى يلج في السير يقال شرى في سيره أي لج واستشرى مثله و يقال وصيت الشئ بكذا اذا وصلته به قال ذو الرمة

نصي الليل بالايام حتى صلاتنا * مقسمة يشتق انصافها السفر

ومنه قولهم أرض واصية أي متصلة النبات وقد وصيت الارض اذا اتصل نبتها ونبت واص وقوله ينجو اذا ماص في عرض الفلا أي يسرع و يسبق يقال نجوت انجو نجاء اذا سبقت وأسرعت والناجية والناجة الناقة السريعة واستنجى أسرع وفي الحديث إذا سافرتم في الجدوبة فاستنجوا أي أسرعوا والعرض بالضم الجانب والناحية والسدو مد اليد نحو المشي يقال سدت الناقة تسدوا وهو تدرعها في المشي واتساع خطوها و يقال ما أحسن سدو رجليها وأتى يديها والسدو ايضا ركوب الرأس في السير وقوله اذا انبرى تحت ظلام أوضحى انبرى اعترض وقد تقدم تفسيره وزف أسرع يقال زف الظليم والبعير يزف زفيفا وأزفه صاحبه و زف القوم في مشيهم وقال تعالى فأقبلوا اليه يزفون والظليم الذكر من النعام و يقال زفا الظليم زفيا اذا نشر جناحه وقوله كاد النجاء أن يزيل شخصه النجاء الاسراع وهو ممدود وقوله وجسمه عن النجا النجا الجلد وهو مقصور يقول يكاد من سرعة عدوه أن يخرج عن ظله وجلده وقد قال ابن حديس وهو بديع

و يكاد يخرج سرعة عن ظله * لو كان يرغب في فراق رفيق

ومنه أخذ الناظم وقصر عنه وقال أبو العلاء المعري

ولما لم يسابقهن شئ * من الحيوان سابقن الظلال

وأما قوله وجسمه عن النجاء فمن قول أبي نواس يصف كلب صيد

كأن متنيه لدا انسلابه * متنا شجاع لج في انسيابه
كأنما الاظفور في قنابه * موسى صناع رد في نصابه
تراه في الحضر أذاها هابه * يكاد أن يخرج من إهابه

وهو من قول ذي الرمة يصف ثور بن ندى

لا يذخران من الايغال باقية * حتى تكاد تفرى عنهما الاهب

وقال كثير في فرس

اذا جرى معتمدا لامه * يكاد يفرى جلده عن لحمه

وقوله هال العيون غارب الغارب ما بين السنام والعنق والنقا الكثيب من الرمل وهال أفزع وأثار بدأ عجب العيون فعبر عن ذلك بهال كما يقال جمال رائع أي يروع العيون لعظمه و براعته وقوله ولكن هاله سير النقا أي هزله وضمره وكل شئ أرسلته من رمل أو تراب فقد هلته لما شبه الغارب بكثيب الرمل استعار لذهاب اللحم عنه الهيل تحقيقا للتشبيه بالكثيب اذا هيل الرمل عن جوانبه وقوله سير النقا أي أذهب نقيه يقال نقوت العظم ونقيته اذا استخرجت نقيه وانتقيت العظم مثله يقول قد كان غارب هذا الذي يشبه النقا يروع العيون و يهولها عظما لكن قد أذهبه بعد ذلك السير حتى صار كالكثيب الذي هيل الرمل عنه حتى تضاءل وقوله يهف بهاديه أي يرفع هاديه و يذهب به من قولهم هفا الشئ في الهواء اذا ذهب كالصوفة ونحوها والباء هنا للتعدية كما قال تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم وأراد بالارقم الزمام شبهه به لشكله ولمحاذرة البعير له كما يحاذر الحية والسالفة ناحية مقدم

العنق ومعنى البيت يشبه قول أبي الطيب يصف الخيل

يناز عن فرسان الصباح أعنة * كأن على الاعناق منها أفاعيا

وقد رصع الناظم في البيت الاول والثاني وجانس بين وصل و وصاوا خفافاو خفافاو زف و زفاو النجاء والنجا وهال وهال والنقا ونقاو قابل في البيت الرابع بين الشخص والجسم والظل والنجامع معادلة أول الكلام بآخره

كَمْ زَاحَمَتْ خَيْفَانَةٌ بِشِكَّتِي   عَيْرَانَةً تَحْمِلُ وَحْلِي بِشَكَا

وَكَمْ نَوَى عَزْمِي أَنْ يَقْرِي النَّوَى   وَالرَّحْلَ مِنْ غَارِبِهَا مَا قَدْ نَوَا

بِتِلْكَ أَسْتَعْدِي عَلَى دَهْرِيَ أَوْ   بِمُعْتَدٍ عَلَى الصَّفَا إِذَا عَدَا

نَاصِي الْعَوَالِي جِيدُهُ فَكَادَ لَا   يُمَكِّنُ مِنْ نَاصِيَتِهِ مَنْ نَصَا

كَمْ مَرَّ بِالنَّاظِرِ مَرَّ بَارِقٍ   فَمَا دَرَى نَاظِرُهُ أَيْنَ رَدَا

وَكَمْ طَوَى الْبَيْدَاءَ فِي تَلَطُّفٍ   فَلَمْ يُثِرْ سِرْبَ الْقَطَا لَمَّا قَطَا

الخيفانة الفرس الخفيفة السريعة وانما أصلها في اللغة الجرادة اذا صارت فيها خطوط مختلفة من بياض وصفرة وجمعها خيفان ثم تشبه بها الفرس في خفتها وضمورها قال امرؤ القيس

واركب في الروع خيفانة * كسا وجهها سعف منتشر

والشكة بالكسر السلاح والعيرانة الناقة تشبه بالعير في سرعتها ونشاطها أي بالحمار الوحشي و يقال ناقة بشكى على فعلى مقصور كجمزى أي سريعة وقد بشكت أي أسرعت تبشك بشكا يريد أنه يسير على الابل و يجنب الخيل معها اعداد اللقاء وعليها السلاح وقوله وكم نوى عزمي أن يقري النوى يريد أنه أزمع على أن يوغل في السير و يبعد في قطع الفيافي حتى يذهب السير البعيد مع ملازمة الرحل لحم غاربها وجاء بلفظ القرى تمثيلا وقد تقدم له مثل هذا المعنى وقوله بتلك استعدي أي استعين يريد انه يرحل فينال بغيته و يظفر بمطلوبه وجعل ذلك أعانة له على حوادث الدهر تمثيلا ثم قال أو بمعتد على الصفا ومعتد مفتعل من العدوان يعني انه يصيب الحجارة في عدوه فيفتتها لصلابة حوافره وضرب الأعتداء مثلا وقد قال الشاعر

متى ماتقع أرساغه مطمئنة * على حجر يرفض أو يتدحرج

وقوله اذا عدا أي اذا أسرع وهو من العدو وقوله ناصي العوالي جيده أي اتصل جيده بالعوالي لطوله يقال هذه فلاة تناصي فلاة أي تتصل بها وسكن الياء للضرورة كما قال

* ردت عليه أقاصيه ولبده *

و يسوغ أن يضبط جيده بالنصب و يكون العوالي فاعلا و يكون المعنى أن العوالي تتصل بجيده وتتطاول اليه لطوله واذا ناصي جيده العوالي فقد ناصته هي وذلك هو الذي تدل عليه بنية فاعل و يذهب عن الناظم بذلك ارتكاب هجنة السكون في المنقوص نصبا وقد أنشد سيبويه قول الشاعر

قد سالم الحيات منه القدما * الأفعوان والشجاع الشجعما

* وذات قرنين ضموز ضرزما(١) *

ثم قال وانما نصب الافعوان والشجاع لانه قد علم أن القدم هاهنا مسالمة كما انها مسالمة قال ومثل هذا البيت

---

(١) افعى ضرزم كزبرج شديدة القضم

انشاد بعضهم لاوس بن حجر

تواهق رجلاها يداها ورأسه * لها قتب خلف الحقيبة رادف

قال يريد انه انما رفع يداها لانها مواهقة فهي فاعلة في المعنى ونصافبض على ناصيته يقول انه لطول عنقه لا يكاد يصل الذي يريد أن يأخذ بناصيته اليه وهو كقول الآخر

وملجمنا ما إن ينال قذاله * ولا قدماه الارض الا أنامله

وقوله كم مر بالناظر مر بارق أي ذهب بالبصر كذهاب البرق وكما قال تعالى يكاد سنا برقه يذهب بالابصار والناظر في المقلة السواد الأصغر الذي فيه انسان العين والباء للتعدية وقوله فادرى ناظره أي الناظر اليه ولا يبعد أن يريد بقوله كم مر الناظر مر على الناظر كما يقال مررت بزيد ويكون الناظر يراد به على هذا الوجه الشخص الناظر اليه و يكون قوله فادرى ناظره أي ماعلمت عينه أين ذهب وذكر درى على هذا المعنى جئ به على جهة الكناية عن عدم تعلق البصر به لسرعته وقد أنشدت قبل لابي القاسم بن هانى

عرفت بساعة سبقها لا أنها * علقت بها يوم الرهان عيون

و يقال ردى الفرس بالفتح يردى رديا ورديانا اذا رجم الارض رجما بين العدو والمشي الشديد قال الأصمعي قلت لمنتجع بن نبهان ما الرديان قال عدو الحمار بين آريه ومتمعكه وقوله وكم طوى البيداء في تلطف يريد انه يمشي افانين من المشي فتارة يمر كالبرق وتارة يمر مرا رفيقا فلو صادف سرب القطا لم ينفرها ولا نما خص القطا لأنها تنفر من اقل شئ و يقال قطا يقطو اذا ثقل مشيه وقطا يقطو للذي يقارب المشي وهذا المعنى مأخوذ من قول المعري يصف الأبل بخفة الوطء

وليست تحس الارض منها بوطأة * فتذعر سربا أو تروع صوارا

تدوس أفاحيص القطا وهو هاجد * فتمضي ولم يقطع عليه غرارا

وقال المعري أيضا فبالغ في المعنى وزاد

ولو وطئت في سيرها جفن نائم * لمرت ولما ينتبه من منامه

وقد ماثل الناظم بين خيفانة وعيرانة وجانس بين يشكتي و يشكي هو من نوع التجنيس المركب و بين نوى والنوى و بين استعدى ومعتد وعدا وبين ناصي وناصيته ونصا وبين درى وردى و بين ناظر وناظر وبين القطا وقطا

مالكَ يا قلبي في تلكُّوءٍ * عن العُلى بينَ ولُوعٍ ولكا

لا تطلبِ الدُّنيا هَواكَ نحوها * بما به كلُّ جهولٍ يُطلبا

دَار غدَتْ أحوالُها مَنكوسةً * فأصبحتِ الأسواءُ فيها تُشتها

مَنْ لمْ يقلْ بشهوةٍ فيها يُقلْ * مِنَ العِثار ويقلْ لهُ لَعا

وقلَّ ما يُقالُ في الدُّنيا لعاً * مِنْ عَثرةٍ لكلِّ شهْوانَ لعا

يقال تلكأ عليه أي اعتل وأبطأ و يقال لكي به لكا غير مهموز فهو لك به أي لزمه ولكا بالمكان أقام والولوع العلاقة يقال ولع به ولوعا بفتح الواو وولعا فهو ولع و ولوع والولوع أحد المصادر التي جاءت على فعول كوضوء وطهور وحكى سيبويه وقود بفتح الواو وحكى أيضا قبلته قبولا والمعنى انه يعاتب قلبه على ابطائه عن طلب المعالي بين ولوع باعراض الدنيا ولزومه لشهواتها وعدم نهوضه الى طلب العلى وقوله لا تطلب الدنيا

هواك نحوها معناه لا تستميل الدنيا هواك نحوها واصله في اللغة الدعاء يقال طباه يطبوه وطباه يطبيه اذا دعاه والطبي افتعل منه أبدلت التاء طاء وادغمت فيها الطاء التي هي فاء الكلمة وقوله دار غدت أحوالها معكوسة يريد ان النفوس فيها مجبولة على اشتهاء ما يخالف المكارم وينافي المحامد وان معالي الأمور في عكس ما تدعو اليه الشهوات وهو سبب النجاة في الآخرة في مجانبتها مجانبة الأسواء وقوله من لم يقل بشهوة فيها يقل أي من لم يكن رأيه إيثار شهواتها والعرب تعبر بالقول عن الرأي والاعتقاد فتقول فلان يقول بكذا أي يراه ويعتقده وانما يطلقونه تجوزا لان الاعتقاد لا يعرف في الغالب الا بالقول فسمي قولا إذ كان القول دليلا عليه وقوله يقل من العثار من الأقالة يقال أقال الله عثرتك وأقالكها ثم قال ويقل له لعالعا كلمة يدعى بها للعاثر قال الأعشى

بذات لوث عفرناة إذا عثرت * فالتعس ادنى لها من ان أقول لعا

ومعناها انتعش وهي اسم للفعل ويجاء بعدها باللام على جهة التبيين فيقال لعا لك ولعا لعاثر بمنزلتهما في سقيا لزيد يقول ان الذي لا يرى اختيار الشهوات تقال عثرته اذا عثر وقوله وقلما يقال في الدنيا لعا البيت العرب تطلق قلما وتريد بها النفي وهي وان كان اصلها الفعل فانها قد اخرجت عن موضوعها في الاصل من الفعلية واختزل عنها الفاعل وصير حكمها حكم الحرف اذ كانت لا تدل الا على ما يدل عليه حرف النفي وقد تكون دالة على التقليل على اصلها ويكون الفاعل مع ذلك مختزلا عنها أيضا قال أبو علي الفارسي طالما وقلما وكثرما أفعال لا فاعل لها مظهرا ولا مضمرا وقال أبو الفتح بن جني ينبغي ان يكتب طالما وقلما موصولتين بما غير مفصولتين منها وذلك أن كل واحدة منهما قد خلطت بما وجعلت جزأ واحدا معها وهيأت ما طال وقل لوقوع الفعل بعدهما فلما اتصلت بهما معنى وجب ان تتصل بهما خطا وكان ذلك يجب في كثرما الا ان الراء لا تتصل بما بعدها ويقال رجل شهي وشهوان وشهواني وامرأة شهوى واللعا واللعو الشره الحريص والأنثى لعاة وهي من صفة الكلاب والذئاب يقول لا يدعى بالأقالة لمن يؤثر الشهوة شرها وحرصا واجرى لعا صفة على شهوان وقد جانس الناظم بين تلكو ولكاو بين يقل بمعنى يعتقد ويقل من اقالة العثرة ويقل من القول وبين لعا ولعا ورد العجز على الصدر في البيت الثاني

غَيْرِي مَنْ يَرْتَاحُ أَو يَرْتَاعُ إِنْ عَنَّ لَهُ مَا يُرْتَجَى أَوْ يُتَّقَى
لأَحْذِيَنَّ العِيسَ كُلَّ مَهْمَهٍ تَشْكُو النَّوَاجِي فِي نَوَاحِيهِ الحَذَى
تَرْفَعُ فِيهِ جَارَهَا العِيسُ إِذَا مَا رَفَعَ الآلُ الشُّخُوصَ وَحَزَى
تَرَى اللِّئَامَ فِيهِ مَنْجُوجاً عَلَى مَا مَجَّتِ العِيدَانُ فِيهِ مِنْ أَثَا
لَمْ يَلْتَفِتْ فِيهِ امْرُؤٌ لِشَبَحٍ غَيْرِ وُحُوشٍ سُنَّحٍ وَلَا رَنَا

يرتاح تأخذه الأريحية وهي الخفة الى الشيء والهشة وقد رحت لذلك الأمر اراح راحا وراحة وارتحت يقول إنه قد عرف تقلب الزمان وتلونه فما يستفزه اقباله ولا تهوله حوادثه وقوله لأحذين العيس كل مهمه أي لأقطعن بها المهامه وانما هو على التشبيه جعل المهمه لها كالحذاء وهو النعل لملازمة أخفافها له ومناسمها وقد تقدم تفسير العيس والنواجي جمع ناجية وقد تقدم والحذاء ما يطأ عليه البعير من خفه والفرس من حافره شبه بالنعل وقوله ترفع فيه جارها يريد راكبها وجعله جارها لأنه استجار بها من هول تلك المهامه فاجارته منه وأنقذته من مهالكها وهو استعارة والآل هنا الذي يكون ضحى يرفع الشخوص ويزهاها يقال حذا الآل الشخوص

اذا رفعها مهموزا وغير مهموز وقوله ترى اللغام فيه ممجوجا اللغام من البعير بمنزلة البزاق أو اللعاب من الأنسان ولغم البعير لغامه لغما رمى به وأما اللثا فهو شئ يسقط من السمر وقيل اللثا شئ ينضحه ساق الشجرة أبيض خاثر ولثيت الشجرة لثا فهى لثية والثت خرج منها اللثى يقول ان هذه المهامه تمج البعران فيها لغامها والشجر لثاها وكلاهما يدل على الشدة فالبعران انما تفعل ذلك عند شدة النصب والعيدان انما يخرج منها اللثى اذا اشتد حر الشمس فهما وصفان اردافيان يدلان على طول السير وشدة الحر اذا اجتمعا وقوله لم يلتفت فيه امرؤ لشبح الشبح والشبح هو الشخص والجمع أشباح وشبوح والسنح جمع سانح وقد مضى تفسيره ورنى يرنو رنو انظر يقول ما يرى في هذا المهمه لبعده وانقطاعه شخص الاشخوص الوحوش وقد جانس الناظم بين برتاح وبرتاع ولأحذين والحذا والنواجي والنواحي وشبح وسنح وعادل في البيت الأول بين آخر الكلام وأوله فرد يرتجي الى يرتاح ويتقي الى يرتاع وجاء في البيت الأول بتسهيم حسن وطابق بين يرتجي و يتقي وفي البيت الثاني والثالث والرابع ترديد واتيانه باللثى مع اللغام في البيت الرابع داخل في باب الأئتلاف والمناسبة المعنوية وترديد البيت الثاني داخل في باب التصدير

كَمْ قدْ رأَتْ عينايَ مِنْ مَناظِرٍ تَرُوقُ أَوْ تَرُوعُ عينَيْ مَنْ رأى

وقلَبَتْ قَلبي اللّيالِي بَيْنَ ما قَدْ لانَ مِنْ خُطوبِها وَما قَسَى

فَلَمْ يطِرْ لِمُونِسٍ مَسَرَّةً وَلَمْ يَطِشْ لِمُوحِشٍ ولاَ نزَى

يقال راق الشئ اذا أعجب وراقه من الناس الجميل جدا وراعنى الأمر أفزعنى وقسى اشتد ويوم قسى شديد من حرب أوغير ذلك ومنه المقاساة وهى المكابدة و يقال نزا به قلبه اذا طمح ونزا أيضا وثب والنزو والنزوان الوثوب يريد أنه تعاوره الخير والشر وتقلب عليه الزمان بالشدة والرخاء وعانى لين الخطوب وشديدها ورأى النعيم والبؤس فلم يطغه النعيم ولا أضرعه البؤس وهكذا ينبغى أن يكون حال من عرف الدنيا وعلم تقلبها وانها لاتدوم على حال وقد قال البحترى

ومن عرف الأيام لم يرخفضها * نعيما ولم يعدد تصرفها بلوى

وقال أبو الطيب

فقد ذقت شدة أيامى ولذتها * فما حصلت على صاب ولا عسل

وقال الآخر

هذا الذى سبق القضاء به * والدهر بالانسان ذو دول

ماقر فى أيدى قوابله * حتى أذيق الصاب بالعسل

وقد جانس بين تروق وتروع و بين قلبت وقلبي و بين يطر و يطش ورد الصدر على العجز فى البيت الأول وطابق بين لان وقسى ومونس وموحش

ومُشبِهٍ ذَوْبَ اللآلِي والمَهَا وَرَدْتُهُ بَيْنَ مَهاةٍ ولأى

وذَنَبُ السِّرْحانِ يَسمُو صاعِداً ومَعْطِسُ السِّرْحانِ يَشْتَمُّ البرَى

يَسْتَافُ أرْواحَ الصَّعيدِ عَلّها تَهْدِى إلى مُفْتادٍ أوْ مُشْتوَى

أَوْ لِمُنَاخِ مُخْدِجٍ سَاقِطَةٍ لِجَنْبِ سِقْطٍ بَيْنَ غِرْسٍ وسَلَى

وقَدْ طَوَى تَنَائِفاً حتى انْطَوَى مِنْ طَيِّهِ البِيدَ ومِنْ فَرْطِ الطَّوَى

يَشْرَبُ طَوْراً قانِياً ذَا حُمْرَةٍ يَقْتَضُهُ مَا بَيْنَ بَطْنٍ ومِعَا

وتَارةً فَضِيضَ ماءٍ أَزْرَقٍ يُفْضِي الى بطْنٍ دَمِيثٍ مِنْ مِعَا

المهاجع مهاة وهى البلورة وقيل هى الدرة وتجمع أيضا على مهوات والمهات بقرة الوحش سميت بذلك لبياضها على التشبيه بالبلورة والدرة والجمع أيضا مها ومهوات واللائى الثور الوحشى واللآلى جمع لؤلؤة وأبدل الهمزة ياء أراد وما مشبه ذوب اللؤلؤ والبلور من صفائه وردته بين بقرة وحشية وثور وحشى وانما مراده أنه فى موضع ناء عن الأنس لا يرده الا الوحش لبعده وذلك سبب صفائه اذ هو غير مورود فلا يلم به ما يكدره ويشبه قوله ومشبه ذوب اللآلى قول الرصافى وقد أنشدته قبل

ومهدل الشطين تحسب أنه * متسيل من درة لصفائه

وقوله وذنب السرحان يسموا البيت ذنب السرحان هو الفجر الأول تسميه العرب بذنب السرحان على التشبيه بذنب الذئب وقوله ومعطس السرحان يريد أنف الذئب والسرحان هو الذئب وانما أراد أنه ورد هذا الماء فى أخريات الليل وحين ترتاد السباع أقواتها فتستاف البرى وهو التراب وشأن الذئاب أن تطلب الشئ بالسوف وقد قال الناظم فى قصيدة له ميمية

بأرض غدا أذن الجواد دليله * بها ودليل السيد فيها خياشم

وقد قال الشريف أبو الحسن الرضى وسأذكره بعد

اذا فات شئ سمعه دل أنفه * وان فات عينيه رأى بالمسامع

وقصد الناظم أن الفجر لم يكن ضوءه منتشرا فلا يكون للسباع وصول الى ادراك الأشياء حينئذ الا بالشم وقوله يستاف أرواح الصعيد البيت يقال ساف الشئ سوفا وساوفه واستافه أى شمه قال الشماخ

اذا ما استافهن ضربن منه * مكان الرمح من أنف القدوع

والصعيد وجه الارض وعل لغة فى لعل قال

* يا أبتا علك أو عساكا *

وهى مستعملة شهيرة والمقتأد موضع الافتئاد وهو الاشتواء يقال افتأدت اللحم اذا شويته والمشتوى موضع الاشتواء وقوله أو لمناخ مخدج معناه أو لعلها تهدى لمناخ مخدج يقال أخدجت الناقة وكل ذات ظلف وحافر فهى مخدج ومخدجة اذا جاءت بولدها ناقص الخلق والسقط بكسر السين وفتحها وضمها الولد يلقى لغير تمام والغرس الجلدة التى تخرج على رأس الولد وقيل هو الذى يخرج على وجهه وقيل هو الذى يخرج معه كأنه مخاط وجمعه أغراس والسلا الجلدة التى يكون فيها الولد يكون ذلك للناس والخيل والابل يقول ان السرحان يشم أرواح التراب لعله يهتدى الى موضع قد اشتوى فيه لحم فتبقى له بقية منه أو أثر من دمه أو يهتدى الى مناخ ناقة أخدجت فسقطت الى جانب سقطها فيأكل من ذلك وانما يريد أن يصف بعد الموضع الذى ذكر أنه ورد فيه الماء وانه لانقطاعه وبعده اذا بلغته الحوامل من الأبل ألقت ما فى بطونها من شدة تعب السير وسقطت وهو يشبه قول زهير

وكيف اتقاء امرىء لايؤ * ببالقوم فى الغزو حتى يطيلا
بشعث معطلة كالقسى * غزون مخاضا وأدبن حولا

يريد أنه يغزو بها حوامل فيطيل بها السير حتى تلقى ما فى بطونها من التعب فكأنها لألقائها أولادها لم تحمل والحول جمع حائل وهى التى لم تحمل وقال ذو الرمة ووصف الأبل

فلم تهبط على سفوان حتى * طرحن سخالهن وصرن آلا

أى طرحن أولادهن من شدة الجهد وصرن شخوصا لالحم عليهن والآل الشخص ومثله قول الآخر أنشده أحمد بن يحيى

وبهماء يستاف الدليل ترابها * وليس بها الا اليمانى مخلف
تجاوزتها وحدى ولم أرهب الردى * دليلى نجم أو حوار مخلف

المخلف المتروك يقول ليس بهذه البهماء شئ يهتدى به الا النجوم بالليل والحيران المنبوذة على الطريق التى قد اسقطتها النوق ويشبه هذا قول الآخر يصف الخيل

ومجنبات مايذقن عذوفا * يقذفن بالمهرات والامهار

وهذا المنزع الذى اعتمده الناظم هنا يسمى الادماج بيناهو يصف الذيب أدمج فى وصفه بعد الموضع الذى ردمعه فيه ثم قال وقد طوى تنائفا أى قطعها والتنائف جمع تنوفة وهى المفازة وكذلك التنوفية كما قالوا ودو ودوية لأنها أرض مثلها فنسبت اليها وصرف التنائف ضرورة وانطوى ضمر حتى اعوج من الهزال والطوى الجوع يقال قطع التنائف حتى هزل من ذوب السير ومن الجوع وقوله يشرب طورا قانيا ذا حمرة القانى الشديد الحمرة يريد به الدم و يفتضه أى يشربه عند خروجه من قولهم افتضضت الماء اذا أصبته ساعة يخرج والمعا واحد الأمعاء يريد أنه يفترس الفريسة فيشرب الدم من جوفها و ينظر الى هذا المعنى وان كان المقصد انه مختلفين البيت الذى أنشدته

وبهماء يستاف الدليل ترابها * وليس بها الا اليمانى مخلف

والمخلف المستقى من قولهم من أين خلفتكم أى من أين تستقون يريد أن هذه البهماء ليس بها ماء ولا مستقى الا السيف تعرقب به الناقة أو ينحرها فيشرب ماء الكرش ومثله قول علقمة

وقد أصاحب فتيانا شرابهم * خضر المزاد ولحم فيه تنشيم

قال ابن الاعرابى خضر المزاد الكروش لأنهم كانوا يفتضونها فيشربون عصارتها و يقال نشم اللحم اذا تغيرت رائحته ومثله قول الآخر

وشربة لوح لم أجد لسقائها * بدون ذباب السيف أوشفرة حلا

وقال زيد الخيل

نصول بكل أبيض مشرفى * على اللائى بقى فيهن ماء
عشية نوثر الغرباء فينا * فلاهم هالكون ولا رواء

وقال الآخر

وشارب ماؤه بطن صاحبه * ريا فأحياه ميت بعد ما ماتا

وقوله ونارة فضيض ماء الفضيض الماء العذب وقال أبو عبيدة الفضيض الماء السائل والبطن هنا الغامض من الارض والجمع بطنان والمعى هنا المذنب من مذانب الأرض والدميث المكان اللين فوالرمل وانما وصف الماء الذى يشرب منه هذا الذيب الذى يأوى الى هذه القفار التى قطعها وهذا كله داخل فى باب الارداف وقصده

أن يصف كثرة ايغاله فى الفلوات المقفرة التى تأوى بها السباع والذئاب وقد وصف الفرزدق الذئب فقال وذكر أنه ضافه ليلا

وأطلس عسال وما كان صاحبا * دعوت لنارى موهنا فأتانى
فلما أتى قلت أدن دونك اننى * وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أقد الزاد بينى وبينه * على ضوء نارى تارة ودخانى
وقلت له لما تكشر ضاحكا * وقائم سيفى من يدى بمكان
تعش فان عاهدتنى لاتخوننى * نكن مثل من ياذيب يصطحبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى * رماك بسهم أوشبات سنان

وقال الشريف أبو الحسن الرضى رضى الله عنه يصف ذئبا

وعارى الشوى والمنكبين من الطوى * أتيح له بالليل عارى الاشاجع
أغبر مقطوع من الليل ثوبه * أنيس بأطراف البلاد البلاقع
قليل نعاس العين الا غيابة * تمر بعينى حائم القلب جائع
ألم وقد كاد الظلام تقضيا * يشرد فراط النجوم الطوالع
اذا فات شئ سمعه دل أنفه * وان فات عينيه رأى بالمسامع
تظالع حتى حك بالارض زوره * وراغ وقد روغته غير ظالع
اذا غلبت إحدى الفرائس خطمه * تداركها مستنجدا بالاكارع
اذا حافظ الراعى على الشاة غره * خفى السرى لايتقى بالطلائع
ولما عوى والرمل بينى وبينه * تيقن صحبى أنه غير راجع
تأوب والظلماء تضرب وجهه * الينا بأذيال الرياح الزعازع
له الويل من مستطعم عاد طعمة * لقوم عجال بالقسى النوازع

وقال حميد بن ثور فى وصف الذيب أيضا

ترى طرفيه يعسلان كلاهما * كما اهتز عود الساسم(١) المتتابع
ينام باحدى مقلتيه ويتقى * باخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وقال الآخر فى صفة الديب

يهم بنى محارب مزداره .... * أطلس يخفى شخصه غباره ...
فى شدقه شفرته وناره * هو الخبيث عينه فراره ....
* بمشاه ممشى الكلب وازدجاره ... *

وقد جانس الناظم بين اللآلى ولأى والمها ومهات والسرحان والسرحان وساقطة وسقط وطوى وانطوى والطوى وفضيض ويفتض وبطن وبطن ومعاومعا

وَمَنْهَلٍ تُمْسِي النُّجُومُ عَوْماً * سَابِحَةً فِيهِ إذَا اللَّيْلُ سَجَا
عَفَاهُ مِنْ ذِى قَدَمٍ وَمَنْسِمٍ * وَسُنْبُكٍ فَرْطُ التَّنَائِي فَعَفَا

(١) الساسم كعالم شجر أسود

لمْ يَتْرُكِ الهَوْلُ إِلَيْهِ مَسْلَكاً　　إِلاَّ وَصَدَّ النَّفْسَ عَنْهُ وعَدَا
يَهابُ مِنْ آسادِهِ وارِدُهُ　　مَاهابَ مِنْ سَمَيْهِنَّ الشَّنْفَرَا

المنهل المورد وهو عين ماء ترده الابل فى المراعى وتسمى المنازل التى فى المفاوز على طرق السفار مناهل لان فيها ماء والناهلة المختلفة الى المنهل وسجى سكن ودام وبذلك فسر قوله تعالى والليل اذا سجى وقوله تمسى النجوم عوما سابحة فيه يريد أنه لصفائه تترآءى النجوم فيه وقد تقدم هذا المعنى قبل وتكلمنا عليه هنالك وانما أراد هنا وصفه بالصفاء لعدم الوارد ويفسره البيت بعده وقوله أعفا من ذى قدم البيت القدم للانسان والمنسم خف البعير والسنبك طرف الحافر ويقال عفا الماء اذا لم يطأه شئ يكدره يقول منعه من ورود الأناسى وذوات الخف والحافر افراط البعد فلم يطأه شئ يكدره والفرط تجاوز الحد فى الأمور يقال أفرط فى الأمر اذا جاوز فيه الحد والاسم منه الفرط بالتسكين ويقال اياك والفرط فى الامر ثم قال لم يترك الهول اليه البيت الهول الفزع يقال هاله الشئ يهوله هولا اذا أفزعه ومكان مهول أى مخوف وكذلك مهال وهلته فاهتال أى أفزعته ففزع والمعنى أن الخوف لم يترك طريقا يؤدى الى هذا المنهل الا ومنع من سلوكه وصرف عنه النفوس يقال عدوته عن الأمر اذا صرفته وقد تقدم ثم قال يهاب من آساده وارده البيت الشنفرى رجل من بنى سلمان وكان فاتكا من فتاك العرب وشيطانا من شياطينهم

﴿ ذكر الشنفرى وما كان من خبره ﴾

وكان من حديثه أن أباه كان فاتكا شجاعا ذا بأس وكان قد برح بمن حوله من العرب حتى تأذى به قومه وأسلموه وإنه تزوج امرأة من فهم وحملها الى دار قومه فأقامت عندهم حتى ولدت له الشنفرى فلما يفع قتل أبوه وطل دمه قومه فلم يطلبوه فوجدت أمه لذلك فاحتملت بابنها الى دار قومها فلما أدرك ابنها أخبرته باغفال قومه ثار أبيه وكان لا يزال يغير على غامد وهى قبيلة من الازد وهم الذين قتلوا والده حتى برح بهم الى أن نذر وا به فكمن له أسد بن جابر ومعه ابنان له حزوران فى مطمئن من الارض على ماء لا بد للشنفرى من وروده فرقبوه حتى اذا كان الليل أقبل يريد الورود حتى اذا قرب من الزبية توجس ورجع فقال الغلامان لأبيهما يا أبانا رآنا فرجع الخبيث فقال لم يركا ولكنه شيطان وانما هو حدس ونطس فالبثا ومكث الشنفرى ساعة ثم عاد من الليل وقد خلع احدى نعليه فشدها على قلبه خيفة من سهم يأتيه وجعل يضرب بنعله الارض ويمشى برجله الاخرى فسمع الغلامان حسه فقالا يا أبانا إنا نونس وطأ الضبع ورجل الضبع نقيض اذا خطت يسمع على بعد فقال الشيخ كلا ليست الضبع ولكنه الخبيث خلع إحدى نعليه وصفق بالاخرى فى الارض وهى فى رجله ليلبس علينا فاثبتا حتى اذا كان بالقرب من الموضع توجس فوقف ثم أحد النظر يمينا وشمالا وجعل ينتشق الريح ويقول

آونس ريح الموت فى المكاسر ٭ من أمم نهار ... ...
هذا اسد بن جابر ... ... ٭ بنبعة وأسهم طوائر ... ...
ومرهف ماضى الشباة باتر ٭ أخطأت ما أملت يابن الغادر

(لست بوراد ولا بصادر) ثم نكص راجعا يضحك ثم عدا منحدرا يدهدئ الصخور حتى اذا كان بأسفل الوادى رفع عقيرته يتغنى ويقول ويسمع من كان يرقبه ليئوبسه من نفسه

أنا السمع الأزل فلا أبالى ٭ ولو صعبت شناخيب العقاب
ولا ظمأ يؤخرنى وحر ٭ ولا خمص يقصر من طلاب

فقال الغلامان يا أبانا قد والله رآنا ولن يعود الينا فانهض بنا فقال الشيخ لا وأبيكما لا رآكما وما هذا منه الا حدس وظن فاثبتا له فانه سيعود فثبتا له وعاد الشنفرى حتى اذا كان بازاء الموضع وقف وهو يقول

ياصاحبي هل الحذار مسلمي * أوهل لحتف منية من مصرف

إني لأعلم أن حتفي في التي * أخشى لدى الشرب القليل المنزف

ثم هجم على الماء فشرب ووانبه القوم فأخذوه قبضا وأتوا به قومهم فأكبوه لوجهه من بوطة بداء وجعل بعضهم يقول اقتلوه وبعضهم يقول لا فانه منكم ورآه غلام قد كان قتل أباه فتناول شفرة فقطع بها يده فلما نظر الى يده قال يامعشر الأزد قد أخذتم ثاركم بقطع يدي قالوا ويلك وهل في قطع يدك من ثار على كثرة من قتلت منا ثم قتلوه انتهى والحديث أطول من هذا والى ما ذكرناه من حديث الشنفرى وهيبته أن يرد الماء خوفا من أن يكون هنالك أسد بن جابر آسره أشار الناظم بقوله يهاب من آساده وارده ما هاب من سميهن الشنفرى وسميهن هو أسد بن جابر يريد أن وارد هذا الماء يخاف الاسود التي ترده كما خاف الشنفرى سميهن أسدا حين أراد أن يرد الماء الذي أسر عليه يقال فلان سمي فلان إذا كان اسماهما متفقين

تَرْدَحِمُ الوُحُوشُ فِيهِ سُحْرَةً * وَتَلْتَقِي فِيهِ إِذَا صَرَّ الدَّبَا

تُرَى بِهِ أَظْلَافُهَا نَوَاصِلاً * بَيْنَ حَدِيثٍ وَقَدِيمٍ مُنْتَضَى

يملأ ماقدْ سَاخَ مِنْهُنَّ الْحَصَى * كَصَدَفِ الْبَحْرِ على الدُّرِّ احْتَوَى

وَرَدْتُهُ وَالْبُومُ يَسْتَدْعِي بِهِ * فِي آخِرِ اللَّيْلِ مُنَافَاةَ الصَّدَا

الدبى الجراد الصغار وصر صاح وصوت قالوا صر الجندب صريرا وصرصر الاخطب صرصرة كأنهم قدروا في صوت الجندب المد وفي صوت الاخطب الترجيع فحكوه على ذلك وكذلك قالوا صرصرة الصقر والبازي راعوا فيه هذا المعنى قال الشاعر

ذاكم سوادة يجلو مقلتي لحم * باز يصرصر فوق المرقب العالي

وهو عند ابن جني من باب إمساس الالفاظ أشباه المعاني وقوله ترى به اظلافها نواصلا الظلف للظباء والبقر كالخف للابل والحافر لذوات الحافر ويقال نصل الظلف والحافر خرج من موضعه وكان قوم من العرب يترمضون الظباء في الحر ومعنى الترمض أن يلبس الرجل في رجليه شيئا يقيه حرارة الرمضاء ثم يعمد الى الظبي فيثيره من كناسه وينفره فاذا دخل في الرمضاء انفسخت أظلافه كما ينفسخ اللحم اذا باشرته النار فيسقط الى الأرض فيأخذه بغير مؤنة ويسمون الصائد على هذه الصفة السامية والسمقي وما يلبسه في قدميه المسماة قال الشاعر

وجداء لا يرجى بها ذو قرابة * لوصل ولا يخشى السماة ربيبها

يريد بالجداء فلاة لا ماء بها وربيبها ما ربي فيها من الوحش وقوله بين حديث وقديم منتضى يريد بالمنتضى البالي الخلق يقال انضيت الثوب وانتضيته اذا أبليته وأخلقته ويكون قولهم منتضى من قولهم نضى ثوبه أي خلعه لأن خرج من موضعه خلعه وحمله على المعنى الاول أوقع لان قوله نواصلا يعطى معنى الخلع فتكون القافية لا فائدة لها الا ما أفاده النواصل وهو على المعنى الاول يفيد من الاخلاق ما لم يستفد بدونه ثم قال يملأ ما قد ساخ منهن الحصى أي يملأ الحصى ما دخل منها في الارض يقال ساخت قوائمه في الارض تسيخ وتسوخ اذا دخلت فيها وصدف الدر غشاؤها الواحدة صدفة شبه اظلاف الوحوش التي نصلت حول هذا المنهل فساخت في

الارض حتى ملأها الحصى بصدف البحر وجعل الحصى فيها كالدر وانما احتذى فى هذا التشبيه قول أبى العلاء المعرى

زراقب أظلاف الوحوش تواصلا * كأصداف بحر حول أزرق مترع

وقد زاد فيه الناظم فيه زيادة بينة من ذكر الحصى وتشبيهه بالدر الذى يكون بالصدف ثم قال وردته والبوم يستدعى به أى وردت ذلك المنهل ولا أنيس به بحيث لا يسمع فيه الاصوت البوم وصوت الصدا وهو طائر وقد يريد بالصدا الصوت الذى يجيبك من الجبال وأمثالها وانما أراد خلوه من الاناسى وقد تقدم تفسير البوم والصدى والمناغاة التكلم يقال المرأة تناغى الصبى أى تكلمه

وَبَلْدَةٍ قَدْ عُقِمَتْ عِيدَانُهَا ... فَمَا سِوَى النَّبْعِ لَهَا مِنْ مُجْتَنَى

أَصْمَيْتُ آمَالِي بِأَقْوَاسِ السُّرَى ... فِيهَا فَكَانَتْ مِثْلَ أَقْوَاسِ السَّرَى

قَدْ غَابَ فِيهَا الْفَجْرُ بَعْدَ بَدْوِهِ ... وَعَطَفَ اللَّيْلُ الْعِنَانَ وَعَسَا

تَأْوِي إِلَى الْقَلْبِ بِهَا وَحْشَتُهُ ... إِذَا ابْنُ آوَى آخِرَ اللَّيْلِ عَوَى

أَعْيَتْ عَلَى الْعِيسِ فَلَيْسَتْ تَخْتَطِي ... بِالْوَهْمِ بَلْ لَيْسَتْ بِوَهْمٍ تُخْتَطَى

البلدة هنا الارض قال الشاعر

أنيخت فألقت بلدة بعد بلدة * قليل بها الاصوات الا بغامها

البلدة الاولى الصدر والثانية الارض أى بركت فألقت صدرها على الارض وقول الناظم عقمت عيدانها أى لم تثمر تشبيها بالمرأة اذا عقمت فلم تلد يقال عقمت المرأة على مالم يسم فاعله اذا لم تقبل الولد ورحم معقومة أى مسدودة لا تلد وأعقم الله رحمها وقوله فما سوى النبع لها من مجتنى النبع شجر تتخذ منه القسى وتتخذ من اغصانه السهام وقد تقدم تفسيره والمعنى أن هذه الارض قليلة الخير لا تثمر عيدانها شيئا فلا تجتنى بها الثمرات من نوع من أنواع الشجر الاما كان من النبع يريد أن بها وحشا كثيرا فهم يصيدونه بقسيهم وسهامهم فذلك جنى النبع الذى يجتنى بها وأصل هذا المعنى أن أبا عبادة البحترى قال

وعيرتنى سجايا العدم ظالمة * والنبع عريان ما فى غصنه ثمر

يقول لا عار على فى العدم فان النبع من أكرم أنواع الشجر وأصلبها ولا ورق فيه ولا ثمر فقال أبو العلاء المعرى رادا على أبى عبادة البحترى واسمه الوليد فى كونه نسبه الى عدم الاثمار

وقال الوليد النبع ليس بمثمر * وأخطأ سرب الوحش من ثمر النبع

يعنى أنه تصنع من شجره القسى فيصاد بها الوحش فذلك بمنزلة الثمر الذى يجتنى من غيره من الشجر فهذا المعنى الذى قصده أبو العلاء هو الذى اعتمده الناظم وقوله أصميت آمالى يقال اصميت الصيد اذا رميته فقتلته وأنت تراه وانما يريد أن آماله كانت قد نفرت وشردت عنه فلا يدركها فلما رحل أدركها وظفر بها وضرب الاصماء مثلا ويريد بأقواس السرى الابل التى رحل عليها وأضافها الى السرى لانها تستعمل فيه وهى تشبه بالاقواس فى اعوجاجها وفيما تحدث لها شدة النصب وطول السرى من الضمور وقد قال الشريف أبو الحسن الرضى رحمه الله

هن القسى من النحول فان سمى * طلب فهن من النجاء الاسهم

وهو بديع فى معناه والسراء بالمد والقصر شجر تتخذ منه القسى قال زهير يصف وحشا

ثـلاث كأقواس السراء وناشط * قد اخضر من لين الغمير جحافله

يقول إنها كانت فى ادراك المراد بها واصابته الغرض مثل القسى الحقيقية التى تصنع من شجر السراء فتصمى الرمى وقوله قد غاب فيها الفجر بعد بدوه أى بدا الفجر فيها ثم غاب وعاد الليل كما كان يعنى ظهور الفجر الأول وهو الفجر الكاذب ثم مغيبه وانما يريد أن يصف طول الليل عليه وعكا عطف يقال عكا فلان على قومه أى عطف عليهم ويشبه قول أبى العلاء المعرى

وليـل خاف قول النـاس لما * تولى صـار منهزما فعـادا

وقوله تأوى الى القلب بها وحشته أى تدخل القلب وتحل فيه من قولهم أويت الى منزلى وابن آوى حيوان معروف يريد ان القلب تخامره الوحشة فى هذه الأرض لانقطاعها وبعدها وقلة الأنس بها ولاسيما آخر الليل اذا عوى ابن آوى فان عويه يزيد فى الوحشة إذ ذاك ثم قال اعيت على العيس أى اعيت هذه البلدة على العيس لبعدها فليست تختطى أى تتجاوز والوهم الأول يريد به العظيم من الجمال وقيل هو الذلول المنقاد مع ضخم وقوة والجمع اوهام ووهوم ووهم وأما قوله بل ليست بوهم تختطى أى بخطرة من خطرات القلب وهو على المبالغة ومثله قول ابى نواس

رفع الحجاب لنا فـلاح لناظر * قمر تقطع دونه الأوهـام

وقال أبو الطيب

هم بلغتكم رتبـات * قصرت عن بلوغها الأوهام

وقد جانس الناظم بين السرى والسراء و بين تأوى وابن آوى و بين الوهم والوهم وجاء فى البيت الثانى بلفظة اقواس فى الصدر والعجز وقد تقدم ان هذا النوع يسميه المتأخرون التعطف وهو حسن

شَبَّتْ بِهَا مِنْ بَعْدِمَا قَدْهَرِمَتْ آمَالُ مَنْ أَهْرَمَ فِيهَا مَفْتَلاَ
تَوَقَّدَتْ فِيهَا جِمَارٌ مِنْ حَصًى إِذَاعَلاَهَا أَخْمَصُ الرِّجْلِ اكْتَوَى
وَلَوْ يَمُرُّ طَائِرٌ بِجَوِّهَا إِذَا احْتَمَى فِيهَا الْهَجِيرُ لاَنْشَوَى
فَالطَّيْرُ لاَ يَأْوِى بِهِ إِلاَّ إِلَى ظِلٍّ إِذَا الظِّلُّ إِلَى الْعُودِ أَوَى

قوله شبت بها من بعدما قد هرمت أى صارت الى شبيبتها بعد الهرم وانما ضرب ذلك مثلا لما تجدد له من الآمال والاشراف على بلوغ الأمانى بقطع هذه المفاوز بعد ان كانت قد انقطعت عنه الأمانى وغلب عليه اليأس و يقال هرم الرجل بالكسر واهرمه الله وافتليت الفلو فطمته و يقال أيضا فتليته أى ربيته وقد تقدم يريد أن الآمال البعيدة يدركها من طال قطعه هذه الأرض حتى أهرم فيها من الأبل ما كان صغيرا يفتلى أول دخوله فيها وانما قال ذلك لما يبلغ بقطعها من الارابو ينال من العز وذلك شأن من يتجشم المشاق ولله در القائل

إن العـلى حدثتنى وهى صادقة * فيما تحـدث أن العز فى النـقل

وقوله توقـدت فيها جمار من حصى الجمار هنا جمع جمرة وهى الحصاة ومن ذلك الجمار التى ترمى فى المناسك والأخمص ما دخل من باطن القدم فلم يصب الأرض يريد أن حصى هذه الأرض توقدت من شدة الحر فهى اذا علاها الأخمص اكتوى بها وحسنت عبارته هنا بالجمار عن الحصى لقوله توقدت فجاء بتورية حسنه الظهر فيها أنه يريد جمار النار وهو يريد الحصى وهو من باب الائتلاف ولا يبعد أن يريد جمار النار وشبه بها الحصى لتوقدها الا أن الأول أحسن وابدع والبيت الثالث بين اللفظى والمعنى لا يحتاج الى تفسير وقوله فالطير

لاتأوى به الا إلى ظل البيت يريد ان الطير لا تستطيع ان تخرج فى جوها عن ظل اذا قام قائم الظهيرة وتقلصت الظلال فأوى ظل كل عود اليه اى انضم وانقبض وله فى البيت الاول طباق وفى الأخير تصدير

دَوٌّ مُبِيدٌ يُقْسَمُ الْمَاءُ بِهِ تَصَافُنًا حَيْثُ الْهَبِيدُ يُغْتَذَى

فَالْمَاءُ فِيهَا لَيْسَ إِلاَّ قَدْرَ مَا يُخْفِى حَصَاةً فِى إِنَاءٍ يُحْتَسَى

الدو والدوى المفازة والتصافن اقتسام الماء بالحصص وذلك يكون بالمقلة يسقى الرجل قدر ما يغمرها والمقلة بفتح الميم هى حصاة تلقى فى الماء ليعرف قدر ما يسقى كل واحد منهم وذلك عند قلة الماء فى المفاوز قال الشاعر

قذفوا سيدهم فى ورطة * قذفك المقلة وسط المعترك

وسميت مقلة من قولهم مقله فى الماء اذا غمسه وستأتى قصة كعب بن مامة فى ذلك والهبيد حب الحنظل والتهبد أخذه وكسره يقال للظليم هو يتهبد اذا استخرج ذلك ليأ كله والاهتباد ان يؤخذ حب الحنظل وهو يابس ويجعل فى موضع ويصب الماء عليه ويدلك ثم يصب عنه الماء يفعل ذلك أياما حتى تذهب مرارته ثم يدق ويطبخ وانما يفعل ذلك فى الارض الجدبة حيث لا يوجد شئ يتقوت به والمعنى ان هذه الأرض خيرها قليل جدا والعيش فيها شديد وقوله

فالماء فيها ليس الا قدر ما يخفى حصاة البيت يعنى عند الاقتسام على حسب ما ذكرنا وهى المقلة كما تقدم وانما أراد ان يبين كيفية التصافن ويحتسى يشرب وفيه دلالة على القلة وذلك ان اصل الحسو للطائر وهو له كالشرب للانسان وانما يطلق على شرب الانسان حسو تشبيها له بشرب الطائر لنزارته وقالوا يوم كحسو الطائر أى قصير

قَطَعْتُهَا بِعَادِيَاتٍ ضُمَّرٍ وَخَادِيَاتٍ جَاذِبَاتٍ لِلْبُرَى

كَمْ فَرَّقَ الْحَادِى بِهَا غَدَائِرًا مِنَ الدَّيَاجِى بِالْفَلَا وَكَمْ فَلَا

تُطِيرُ شِذَّانَ الْحَصَى فِيهَا كَمَا يُطَايِرُ الْمِرْضَاخُ مَلْفُوظَ النَّوَى

يريد بالعاديات الخيل وبالخاديات الأبل والعدو الحضر وقد تقدم يقال ضمر الفرس يضمر ضمورا وضمر بالضم لغة فيه واضمرته وضمرته تضميرا فاضطمر هو وكذلك يقال خدت الناقة تخدى أى اسرعت والبرى جمع برة وهى حلقة من صفر تجعل فى انف البعير قال الأصمعى تجعل فى احد جانبى المنخرين قال واذا كانت البرة من شعر فهى الخزامة وقوله جاذبات للبرى اى تجذبها عند السير وقوله كم فرق الحادى بها غدائرا البيت الغدائر الذوائب واحدتها غديرة والدياجى دياجى الليل وهى حنادسه كانه جمع ديجات والمعنى انه شبه الدياجى بالغدائر لسوادها وجعل الحادى لتوسطه بالابل تلك الدياجى كالفارق والفالى لها بايدى العيس اذ كانت ايديها عند السير تشبه حركة يد الفالى لشعر الرأس وهو من قول أبى العلاء المعرى

أليك طوى المفاوز كل ركب * سما بهم التغرب والبعاد

واصباح فلين الليل عنه * كما يفلى عن الجمر الرماد

وقال ظافر الحداد

رفقا بهن فما خلقن حديدا * أوما تراها أعظما وجلودا

يفلين ناصية الفلا بمناسم * خضب الوجى بدمائهن البيدا

وقال الآخر وزاد زيادة عجيبة

تفلي بأيديها صوّابات الحصى * من مفرق البيداء حين تزورها

وقوله تطير شذان الحصى شذان الحصى بالفتح ماتفرق منه قال امرؤ القيس

تطاير شذان الحصى بمناسم * صلاب العجى ملثومها غير امعرى

والمرضاخ مايرضخ به النوى يقال رضخت الحصى والنوى كسرته شبه تطاير متفرق الحصى من تحت يديها بتفرق مايلفظه المرضاخ من النوى وقد جانس بين خاديات وجاذبات وبين الفلا وفلا وجاء بالبيت الأول مرصعا مع ماضمنه من المماثلة

أَحْذَيْتُها الوَخْدَ الصريحَ حيثُ لا * تغنى القِلاصُ عن سَرِيحٍ مُحتَذَا

فانتقَضَتْ وانتقَصتْ أعظُمُها * مِمَّا أرارَ السيرُ مِنْهَا وانتقَى

وفَتَّ في الأعضادِ منها عاضِدٌ * شَذَّبَ قضبانَ الهَوَادي والتَّحا

الوخد ضرب من سير الأبل وقد وخد البعير يخد وخدا ووخدانا وهو ان يرمى بقوائمه كمشى النعام فهو واخدو وخاد وقد تقدم وقوله احذيتها أى صيرت الوخد لها حذاء وهو على جهة الاستعارة اذ كان الحذاء وهو النعل مما يختص بالأرجل وكان الوخد منسو با اليها فحسنت الاستعارة فيه والصريح الخالص الذى لايشوبه شئ والسريح والسرائح والسرح نعال الابل وقيل سيور نعالها وقيل جلود أو خرق تشد على اخفافها والقلوص من النوق الشابة وهى بمنزلة الجارية من النساء وجمع القلوص قلص وقلائص والقلاص جمع قلص مثل سلب وسلاب وقد تسمى الناقة الطويلة القوائم قلوصا والمراد أنه كلفها السير فى الأرض التى لا تقطعها الأبل الامشدودا على اخفافها السريح لبعدها وشدة مشقة السير فيها وهو وصف ادارفى وقوله فانتقضت وانتقصت أعظمها يريد ان قواها انتكثت بما كابدت من المشاق وانتقصت بما أذهب النصب من مخها وأزال من نقيها يقال انتقص الشئ وانتقصته أنا و يقال مخ رر ورر ورار أى فاسد ذائب من الهزال وقال الشاعر

* والساق منى باديات الرر *

أى أنا ظاهر الهزال و يقال أرار الله مخه أى جعله رقيقا و يقال نقوت العظم ونقيته اذا استخرجت نقيه والنقى مخ العظم وانتقيت العظم كذلك وقوله وفت فى الأعضاد منها عاضد البيت أى بلغ منها الجهد ونال منها نيلا عظيما يقال فت هذا الامر فى اعضاد بنى فلان اذا شق عليهم فالأعضاد جمع عضد وفت كسر ومرادهم ان الأمر الصعب ذا اصاب أحدهم بلغ منه منه مايبلغ المنال ممن كسر عضده والعاضد هنا اراد به الذى يضرب العضد يقال عضدته اذا ضربت عضده كما يقال بطنته اذا ضربت بطنه وظهرته اذا ضربت ظهره وشذب قشر يقال جذع مشذب أى مقشر والهوادى الأعناق و يقال لحوت العصا ولحيتها والتحيتها اذا قشرت لحاءها أى قشرها ولحاء الشجر قشره وانما المعنى أن راكبها اتخذ لها سياطا من جلود الأعناق فهو يضربها فى اعضادها حتى شق عليها ما يكلفها من السير بذلك الضرب وشبه الهوادى لطولها بالقضبان وجعل سلخ جلودها كتشذيب القضيب والتحائه على جهة الاستعارة وانما أخذ ذلك من قول جران العود وكان قد تزوج امرأتين فلقى منهما عناء وشرا فقال من قصيدة

عمدت لعود فالتحيت جرانه * وللكيس خير فى الأمور وانجح

خذا حذرا ياجنتى فاننى * رأيت جران العود قد كاد يصلح

ألعود الجمل المسن وجرانه مقدم عنقه من مذبحه الى منحره والجمع جرن وحنة الرجل امرأته وبالبيت الاول سمى جران العود يريد انه سلخ جران العود فأعد منه سوطا يضرب به ز وجتيه وحذرهما منه وعبر عن السلخ بالالتحاء على التشبيه جهة بهذا الذى ذكرته فسر بيت جران العود وهو الذى اعتمد الناظم وفى هذه القصيدة يقول

خذا نصف مالى واتركا لى نصفه * وبينا بذم فالتعرب اروح

وقد جاء الناظم فى مساق كلامه بتورية بديعة وذلك ان العرب تقول عضدت الشجر اعضده بالكسر اذا قطعته بالمعضد فاوهم الناظم انه يريد قاطع الشجر ورشح التورية فى ذلك بذكر الالتحاء والقضبان والتشذيب وهو انما يريد ضارب العضد فتأمل هذا فانه بديع جدا وقد جانس بين الصريح وسريج و بين انتقضت وانتقصت وبين الأعضاد وعاضد

تَهفو بِها الأَرْوَاحُ مِمَّا صوِّيَتْ أَجوَافُها كَأَنَّها نَخْلٌ صوًا

وتَعتَلي أَنفاسُها إِذَا اعتَلى مَتْنَ الفَلا بِها الوَجِيفُ واغتَلا

يَكادُ مِنها كلُّ عَظْمٍ عِندَما تزْفِرُ أَنْ يَصفِرُ مِمَّا قَدْ خوَى

تهفو بها الأرواح أى تذهب بها وتجئ من قولهم هفا الشئ فى الهواء اذا ذهب كالصوفة ونحوها وقد تقدم وصويت أجوافها عطشت وضمرت يقال صويت النخلة اذا عطشت وضمرت فاذا يبست النخلة قيل صوت تصوى فهى صاوية قاله القالى فى المقصور والممدود وذكر صاحب المحكم انه يقال صوت وصويت فى النخل وغيره من الشجر والحيوان وقال ان معناه يبست ومراد الناظم أن هذه الأبل مما جهدها السير وقطع الفيافى وطول الصبر على العطش فى الصحارى ضمرت حتى صارت الرياح تذهب بها وتجئ وشبهها بالنخل الذى يبس ويشبه قوله تهفو بها الأرواح قول الشاعر

ألا إنما أبقيت يا أم مالك * صدا أينما تذهب به الريح يذهب

وقوله كأنها نخل صوى أخذه من قول الله تعالى كانهم أعجاز نخل خاوية وقوله وتعتلى انفاسها أى ترتفع من جهد السير وكثرة الهزال اذا اعتلا متن الفلا أى اذا علاه يقال استعلى الشئ واعتلاه وعلاه بمعنى والوجيف ضرب من سير الأبل والخيل وقد وجف البعير يجف وجفا ووجيفا واوجفته انا قال الله تعالى فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب واغتلى اى أسرع وهو بالغين المعجمة والأغتلاء الأسراع وقال

كيف تراها تغتلى يا شرج * وقد سهجناها فزال السهج

يقال سهج القوم ليلتهم أى ساروا و يقال ناقة مغلاء الوهق تغتلى اذا تواهقت اخفافها والمواهقة المباراة وقوله يكاد منها كل عظم عندما تزفر يقال زفر اذا تنفس بشدة والزفير اغتراق النفس وتصفر تصوت يقال صفر يصفر صفرا وصفروخوى أى خلا من المخ وهو من قولهم خوت الدار وخويت خيا وخويا وخواية خلت من اهلها واخذه من قول المجنون فيما أنشده أبو على القارى فى اماليه وغيره وقال حدثنا أبو بكر قال حدثنا الرياشى عن بعض اصحابه قال اخبرنى رجل قال أتيت المجنون فجلست فى ظل شجرة فقلت ما أشعر قيسا حيث يقول

يبيت ويضحى كل يوم وليلة * على منهج تبكى عليه القبائل

قتيل للبنى صدع الحب قلبه * وفى الحب شغل للمحبين شاغل

قال أنا أشعر منه حيث أقول

سلبت عظامى لحمها فتركتها * معرقة تضحى لديك وتخصر
وأخليتها من مخها فكأنها * قوارير فى اجوافها الريح تصفر
اذا سمعت ذكر الفراق تقطعت * علائقها مما تخاف وتحذر
خذى بيدى ثم انهضى فتبينى * بى الضر الا أننى أتستر

وقد جانس بين اعتلى واغتلى وتذفر وتصفر وفى البيت الثانى ترديد وتصدير وفى نسخة موترصيع

وَلَيْلَةٍ مُوحِشَةٍ ظَلْمَاؤُها أَنِسْتُ فِيهَا بِالْحُسامِ الْمُرْتَدَا
قَدْ سَهِرَ الْبَرْقُ بِها مَخافَةً واكْتَمَنَ الإِصْباحُ فِيها واكْتَما
نَاغَى بِهاالأَصْداءَ كُلُّ سائِقٍ لَمْ يُبْقِ مِنْهُ جَوْبُها غَيرَ صَدَا
مَاسالَمَتْ قِرَّتُها إِذْ صَدَقَتْ فِى كاذِبِ الْفَجْرِ سِوى مَنِ افْتَرا

البيت الأول لا يحتاج الى تفسير وانما عبر فيه عن انفراده من الأنيس فيها وأنما عول الاعلى سيفه وقوله قد سهر البرق بها مخافة قد تقدم أن العرب تعبر عن اضطراب البرق وظهوره بالسهر وعن سكونه بالنوم فجعل الناظم هنا سهر البرق للمخافة التى تضمنتها تلك الليلة وشدة إيحاشها ثم قال واكتمن الأصباح فيها واكتمى يقال كمن واكتمن اذا اختفى ومنه الكمين فى الحرب واكتمى تستر ومنه الكمى وقد تقدم يريد ان الأصباح اختفى تفاديا منها وتستر فرقا من اهوالها وقوله ناغى بها الأصداء قد تقدم تفسير المناغات والسائق سائق الابل والاصداء جمع صدا وهو الذى يجيبك بمثل صوتك فى الجبال وغيرها وقوله لم يبق منه جوبها غيرصدا الصدى هنا الجسم الضعيف قال الشاعر

ألا إنما أبقيت يا أم مالك * صدا أينما تذهب به الريح يذهب

يريد أن جوب الفيافى وسرى الليل انحلا جسمه وقد يريد بالصدا الصوت ويكون المعنى لم يبق منه جو بها غيرصوت أى ان قطع الفلوات افنى جسمه فهو لا يرى ولا يحس به لولا صوته والعرب تطلق الصدى على الصوت ويكون المعنى على هذا موافقا لقول أبى الطيب

كفى بجسمى نحولا اننى رجل * لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وهو داخل فى باب المبالغة وقوله ماسالمت قرتها البيت القرة البرد يقال أشد العطش حرة على قرة ومعناه أن يعطش فى يوم بارد والحرة العطش وكاذب الفجر يريد به الفجر الاول الذى يترا آى مستطيلا وانما سمى كاذبا لانه بعد ظهوره يضمحل ويعود ظلام الليل كما كان قبل وقوله اذ صدقت يريد به قويت واشتدت ولم تضمحل ونحوه قولهم فلان صدق اللقاء أى قوى عند اللقاء صابر على مقارعة الاقران ولا يبعد أن يكون أصله من صدق القول وهو نحو مما ذكرته لأن الحق يظهر ويقوى ولا يزال يشتد أمره وقوله سوى من افترى أى لبس الفروة تقول افتريت الفرو اذا لبسته يريد ان البرد يشتد فى آخر الليل حين يبدو الفجر الاول فيؤذى كل أحد يشق الاعلى من استعد له ولبس مايدفعه عنه وأتى بسالمت هنا استعارة وتمثيلا لما دفعت عنه أذاها جعلها كالمسالم له وقد نبهنا قبل على ان سوى عند سيبويه لا تتصرف واستعملها الناظم هنا مفعولة كأنه قال غيرمن افترى وقد أحسن الناظم فى هذا البيت ماشاء وأجاد كل الاجادة وجاء بتورية بديعة جدا اذ أوهم أنه يريد بالافتراء الكذب لما يشعر بما تقدم من ذكر الكاذب وصدقت وهو انما يريد الباس الفرو الى ماتضمنه البيت من الطباق الحاصل بين صدقت وكاذب وهذا البيت من محاسن هذا القصيد وعلى ذكر كاذب الفجر أنشدنا لبعض متأخرى المشارقة

وان لم يكن مما نحن بسبيله فى شئ على جهة الاغراب به والاستطراف قوله

مدحت الورى قبله كاذبا * وما صدق الفجر حتى كذب

وقد قلت فيما نحوا الى مثل ذلك

دعتنى الى لهو التصابى وما درت * بان زمان اللهو عنى ذاهب
فقلت لها مالى وللهو بعد ما * تولى الصبا وازور للغيد جانب
وقد وخطت بيض من الشعر لمتى * تخبر أن البيض عنى رواغب
أألهو وفجر الشيب قد لاح بدؤه * بفودى فقالت أول الفجر كاذب

وقد جانس الناظم بين اكتفن واكتنى والاصداء وصدى على أحد المأخذين وأما على المأخذ الآخر فيكون البيت مصدرا

سَمَتْ بها عينى الى سَامِيَةٍ وَشَتْ الى طَرْفِى بحَيٍّ قد وشا
فياله مِنْ مَوْقِدٍ قدِ اتَّقَى مِنْ حَوْلِهِ مَنِ اصطَلَى وَمَن صلى
سنُّوا علَى أثوَابِ أعرَاضِهِمُ ماءَ السخَاءِ فنَفَى عنهَا الصخَى

الضمير فى بها عائد على الليلة وأراد بالسامية نارا أوقدت فى موضع مرتفع فوصفها بالسمو لسمو مكانها أو يكون وصفها بذلك لسموها نفسها فان النار اذا عظمت ارتفعت ألسنتها وكلا التقديرين فيه دليل على كرم موقدها فانه لا يوقد النار فى المواضع المرتفعة و باليفاع الا الأجواد لتظهر للطارقين فيقصدونها وكذلك لا تعظم الانيران الكرام كما قال الأمير ابو فراس

وأنا الذى ملاء البسيطة كلها * نارى وخيم فى السماء دخانى

ووشت نمت يريد أنها دلته على الحى حين رآها فقصدها وقوله بحى قد وشى أى كثر ويقال وشى بنو فلان أى كثروا يريد أنهم من أهل العز والعدد وقوله فياله من موقد اللام فى ياله هى اللام التى تلحق المنادى للتعجب كقولك يالزيد ويالالعجب والموقد موضع ايقاد النار ويقال صليت اللحم وغيره أصليه صليا مثل رميته رميا اذا شويته وفى الحديث أنه أتى عليه السلام بشاة مصلية أى مشوية يقول ان هذا الموقد اتقى حوله من يصطلى من القرة ومن يشوى اللحم للضيفان يريد أن الطارق لها والقاصد نحوها تذهب عنه ما يجده من شدة البرد باصطلائها ومن كلب الجوع بما يعد له عندها من القرى ومن أعجب ما لهم فى هذا المعنى قول الأعشى

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة * الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها... * وبات على النار الندى والمحلق
رضيعى لبان ثدى أم تحالفا * بأسحم داج عوض لا نتفرق

وقد قال الآخر يخاطب عبده

أوقد فان الليل ليل قر * والريح فيها برد وصر
عسى يرى نارك من يمر * ان جلبت ضيفا فأنت حر

وقال مهيار الديلمى

ضربوا بمدرجة الطريق قبابهم * يتقارعون بها على الضيفان
ويكاد موقدهم يجود بنفسه * حب القرى حطبا على النيران

وقوله سنوا على أثواب أعراضهم يقال سننت الماء على وجهي اذا أرسلته ارسالا من غير تفريق فاذا فرقته في الصب قلت شننته بالشين المعجمة وكذلك التراب اذا صببته على وجه الارض صبا سهلا وسن عليه الدرع وقوله ماء السخاء جاء به على جهة الاستعارة وحسنه ان العادة جرت في الكلام أن يقال فاضت على عطايا الامير وفلان يهمي جوده وتصوب مواهبه وغرقت في بحر نوالك فحسنت لاجل ذلك استعارة الماء للسخاء الا ترى كيف حسن قول بن اللبانة

بروحي وأهلي جيرة ما استعنتهم * على الدهر الا وانثنيت معانا
وراشوا جناحي ثم بلوه بالندى * فلم استطع من أرضهم طيرانا

لما كان العطاء يستعمل معه ما ذكرته من الاوصاف التي تستعمل مع الماء كان موقع البلل هنا عذبا وزيادة حسنه مع ما انضم اليه من التورية بذكر الندى بعد قوله وراشوا جناحي فجاء غاية في البراعة ومستطرفا جدا وليس ذكر الماء مع السخاء في لفظ الناظم كماء الملام في قول أبي تمام

لا تسقني ماء الملام فانني * صب قد استعذبت ماء بكائي

فان استعارة الماء للملام معلوم قبحها ماذكرت من هذا الاستعمال لا سيما وقد تمكنت الاستعارة للموصوف به ماء السخاء من ازالة الصخاء وهو الدرن وذلك من أوصاف الماء وقد قال علماء البيان في قول زهير

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله * وعرى أفراس الصبا ورواحله

ان الذي حسن استعارة الأفراس والرواحل للصبا ان المعتاد أن يقال فمن تصابا ركب هواه وجرى في ميدانه وجمح في عنانه فلذلك لم يبعد أن يستعار للصبا الأفراس على ان هذه الاستعارة عندهم منحطة عن الاستعارة المبنية على الشبه الواضح كقوله تعالى واشتعل الرأس شيبا وكقول ذي الرمة

* وساق الثريا في ملاءته الفجر *

وكقول الغنوي

* يقتات شحم سنامها الرحل *

فهذه عند أكثرهم أرفع درجات الاستعارة ويليها ما كان مثل بيت زهير وقد قدمت طرفا من ذلك وقول الناظم فنفي عنها الصخا الصخا بالصاد الاتساخ يقال صخيت ثيابه صخا اذا اتسخت وضبطه بالصاد وبالقصر وأما السخاء الذي يراد به الجود فبالسين والمد يقول ان الكرم صقل أعراضهم فلا يلحقها درن ولا يعلق بها ما يشينها وقد قال الشاعر في عكس هذا

خوان لا طعام يلم فيه * وعرض مثل منديل الخوان

وقد جانس الناظم بين وشي ووشي وبين اصطلي وصلي وبين السخاء والصخا

وَبَارِقٍ مُؤْتَلِقٍ فِي عَارِضٍ * مُنْدَفِقٍ يَخْفِي الدُّجا إِذَا خَفَى
كَثَغْرِ مَنْ أَهْوَاهُ أَوْ ثَغْرَتِهِ * إِذَا اكْتَسَي بِالزَّعْفَرَانِ وَاطَّلَي
لَمْ أَدْرِ هَلْ أَبْصَرْتُ مِنْ سَحَابِهِ * أَدْهَمَ قَدْ أَعْلَي الهَدِيرَ وَرَغَي
أَمْ أَشْقَرَ البَرْقِ الذي جَالَ بِهِ * فَتَحَ فَاهُ بِالصَّهِيلِ وَشَحَي

مؤتلق لامع يقال تألق البرق وائتلق اذا لمع والمندفق المنصب ويقال خفي البرق يخفو خفوا ويخفي خفيا اذا لمع لمعا ضعيفا معترضا في نواحي الغيم فان لمع قليلا ثم سكن وليس له اعتراض فهو الوميض وان شق الغيم

واستطال فى الجوانب وسط السماء من غيران يأخذ يميناوشمالا سمى العقيقة وقوله يخفى الدجى يقال أخفيت الشئ كتمته وسترته لما كان البرق اذاترا آى اضمحل الظلام فاذا ذهب البرق عاد كأنه يستر الدجى عند ظهوره وقوله وبارق عطف على سامية أى سهمت تلك الليلة عنى الى نارسامية والى بارق وقوله كثغرمن أهواه الثغر ماتقدم من الأسنان والثغرة بالضم نقرة النحر التى بين الترقوتين وقد تقدم تفسيره وقوله اذا اكتسى بالزعفران والطلى يقال اطليت بالشئ وهو افتعلت من طليت أبدلت التاء طاء وأدغمت فيها فاء الكلمة قال الشاعر

ان الاحامرة الثلاثة أهلكت * مالى وكنت بهن قدما مولعا

الراح واللحم السمين وأطلى ... * بالزعفران فلا أزال مولعا

ومراد الناظم أن البرق يشبه الثغر فى بريقه والثغرة اذا خلقت وطليت بالزعفران فى الاحرار وانما شبه البرق بالثغر وان كان المشبه أعظم بريقا وأكثر نورا من المشبه به وقد تقدم أن الوجه فى التشبيه أن يكون المشبه به اشهر واعظم لأنه أراد المبالغة فى وصف الثغر بالصفاء والبريق حتى يذهب به مذهبا ينبئ أنه أضوء من البرق واتم نورا وقد قدمت الكلام على ذلك فى اول الكتاب حيث تكلمت على التشبيه وقوله لم ادر هل ابصرت من سحابه أدهم يعنى بعيرا أدهم قداعلى الهدير يقال هدر البعير يهدر هدرا وهديرا صوت والدهمة السواد يقال فرس ادهم وبعير ادهم اذا اشتدت زرقته حتى ذهب البياض الذى فيه فان زاد السواد فهو جون ورغى من الرغاء وهو صوت ذوات الخف يقال رغى البعير يرغو رغاء اذا صاح ويقال شحافاه يشحوه شحوا أى فتحه وفغره شبه السحاب ببعير ادهم وشبه البرق بفرس اشقر وشك فى صوت الرعد هل هو هدير البعير الذى شبه به السحاب ام صهيل الفرس الذى شبه به البرق وهو من باب التجاهل وقد قال لبيد بن ربيعة

تسمع الرعد فى المخيلة منها * كهدير القروم فى الأشوال

وترى البرق عارضا مستطيلا * مرح البلق جلن فى الأجوال

وقد انشدنا قبل قول ابن المعتز فى البرق وجئنا هنالك بالقطعة كلها

ومارة تحسبه كأنه أبلق * جال جله حين وثب

وقد ماثل الناظم فى البيت الأول بين مؤتلق ومندفق مع الترصيع الحاصل منهما وجانس بين يخفى وخفى وبين ثغر وثغرته وماثل ايضا بين اكتسى واطلى وقابل فى البيت الثالث والرابع بين الأدهم والأشقر والهدير والصهيل

فى مُكْفَهِرَّاتِ الصَّبِيرِ قَدْ مَطَى * مِنْ دُهْمِهَا حَادِى الصَّبَا بِمَا مَطَى

حَوَامِلٌ حَقَائِبًا مِنْ لُؤْلُؤٍ * رَطْبٍ حَثَا مِنْهُ النَّسِيمُ مَا حَثَا

يَمْشِينَ فِى سَلَاسِلٍ مُذْهَبَةٍ * مِنَ الْبُرُوقِ مِثْلَ مَشْيِ الْمُهْتَدِى

فَالْمَاءُ فِى أَقْطَارِهَا مُخْتَضَنٌ * وَاللَّهَبُ الْمَشْبُوبُ فِيهَا مُخْتَضَى

المكفهر من السحاب هو الأسود الغليظ الذى ركب بعضه بعضا وقال الأصمعى الصبير الذى يصير بعضه فوق بعض درجا قال بعضهم يصف جيشا

* ككرفئة الغيث ذات الصبير *

وقيل

وقيل الصبير السحاب الأبيض لا يكاد يمطر وعلى الأول عول الناظم ويقال مطوت بالقوم مطوا اذا امددت بهم في السير وقوله حوامل حقائبا الحقائب جمع حقيبة وقد تقدم تفسيره لما شبه السحاب ببعران دهم تحدوها الصبا جعلها تحمل حقائبا من لؤلؤ واراد باللؤلؤ الرطب القطر وجعل النسيم حاثياله وقد انشدنا قبل قول بعض الأندلسيين

أتلفت ريح الصبا لؤلؤه * فانبرى يوقد عنه سرجا

ثم شبه البروق بسلاسل مذهبة تمشي فيها السحاب كما يمشي الأسير والمهتدي الأسير وقد تقدم لهذا المعنى وانشدنا عليه قول ابن المعتز

حتى اذا ما رفع الال الضحى * حسبته سلاسلا من الذهب

وقوله فالماء في أقطارها محتضن يقال احتضنت الشيء اذا جعلته في حضنك والحضن مادون الابط الى الكشح وجاء به هنا على جهة الاستعارة والتمثيل وقوله واللهب المشبوب فيها محتضا أى مسعر وهو مفتعل من قولك حضوت النار اذا سعرتها ويقال حضأت بهمز ولا يهمز قال الشاعر

ونار قد حضأت بعيد وهن * بدار ما أريد بها مقاما

وأراد باللهب المشبوب البرق ومعنى هذا البيت ينظر الى قول البحتري

فسقاهم وإن أطالت نواهم * خلفة الدهر ليله ونهاره

كل جود اذا التقى البرق فيه * أوقدت للعيون بالماء ناره

وقال حبيب بن اوس

ياسهم للبرق الذى استطارا * شاب على رغم الدجى نهارا

آض لنا ماء وكان نارا * أرضى الثرى واسخط الغبارا

وقال المزياني من المتأخرين

برق اطار القلب لما استطار * أنار جنح الليل حين استنار

ذاب لجين المزن لما ارى * معدنه منه بمقباس نار

وَمُرْضَعٍ بِثَدْيِ كُلِّ حُرَّةٍ * حَنَتْ عَلَى تَرْبِيبِهِ حَتَّى نَمَا

أَضْحَتْ بِهِ صُلْعُ الرُّبَى مُعْتَمَّةً * وأصْبَحَتْ قُرْعًا بِهِ بَعْدَ الْجَلَى

تَجْلُبُ فِيهِ الْعُفْرُ باسْتِنْشَاقِهَا * طِيبَ الشَّذَى إِذَا نَفَتْ عَنْهَا الشَّذَى

الحرة هنا السحابة يقال سحابة حرة أى كثيرة المطر قال عنترة

جادت عليها كل بكر حرة * فتركن كل قرارة كالدرهم

ويقال رب ولده يربه ربا وربّبه ترييبا وتربّبه أى رباه واراد بالمرضع النبت جعل السحائب ترضعه وتربيه حتى نما وهو مأخوذ من قول الشريف أبي الحسن الرضي رضي الله عنه وعن آبائه الطاهرين

أرسى النسيم بواديكم ولا برحت * حوامل المزن في اجداثكم تضع

ولا يزال جنين النبت ترضعه * على قبوركم العراصة الهمع

وان كان الناظم قد قصر عن بيتي الرضي تقصيرا بينا للزيادة التي في بيتي الرضي من ذكر الحوامل والوضع

والجنين وبراعة الاستعارة في جميع ذلك فلننصفه ونقول ان وصفه هنا السحابة بالحرة مع ذكر الأرضاع والتربيب حسن لأن الحرة مما توصف به المرأة فناسب ذلك هذه الأوصاف وهذا مما قدمناه من مناسبة اللفظ للفظ وائتلافه وحصلت معه التورية بقوله في ذكر التربيب والنمو والحنو زيادة ليست في بيتي الرضي وقوله أضحت بصلع الربى معتمة الضمير عائد الى المرضع وهو النبت واصل الصلع انحسار شعر مقدم الرأس ويقال رملة صلعاء أي ليست تنبت وليس فيها شجر وهو على التشبيه بالرأس والأفرع التام الشعر وقال ابن دريد يقال امرأة فرعاء كثيرة الشعر قال ولا يقال للرجل اذا كان عظيم اللحية أوالجمة أفرع وانما يقال رجل أفرع لضد الأصلع وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرع والجلى مثل الصلع ويقال اعتم بالعمامة وتعمم بمعنى ويقال أيضا اعتم النبت أي اكتهل يقول كانت الربى صلعا من النبات أي خالية منه فاعتمت بهذا النبت أي سترها كما تستر العمامة الرأس فصارت به فرعا أي تامة النبات وجاء بالصلع والاعتمام والفرع والجلى على جهة الاستعارة والتشبيه قال أبو تمام

حتى تعمم صلع هامات الربى * من نوره وتأزر الأهضام

وانما أخذه أبو تمام من قول بعضهم أنشده يعقوب

* قد اضحت العقدة صلعاء اللمم *

العقدة موضع ذو شجر وقد يريد بالاعتمام اكتهال النبت كأنه قال أضحت به صلع الربى مكتهلا نبتها ويكون فيه نوع من التورية على هذا التفسير الأخير لكن الأول أبين وذكر الصلع والفرع والاعتمام هنا مع ذكر الربى حسن لأن الربى تناسب الرؤس لارتفاعها ولذلك كانت الربوة والرأس كلاهما يسمى قلة وقنة فحسن موقع التشبيه لأجل ذلك وقوله تجلب فيه العفر البيت يقال جلبت الشيء واجتلبته بمعنى والعفر الظباء التي يعلو بياضها حمرة وهي قصار الاعناق قالوا وهي اضعف الظباء عدوا تسكن القفار والصلب من الأرض والشذا الاول ذكاء الرائحة والشذا الثاني حدة الجوع قال الخليل يقال للجائع اذا اشتد جوعه ضرم شداه يريد ان العفر ترعاه وتستنشقه فتنفي الشذى وهو الجوع برعيه وتستجلب الشذى وهو ذكاء الرائحة باستنشاقه وقد طابق الناظم بين صلع وفرع وبين تجلب وتنفي وجانس بين الشذا والشذا مع الاستعارة التي اشتمل عليها البيت الأول والثاني والتورية المنبه عليها

تَبَاغَمَتْ فيه الظِّبَاءُ وَانتَجَي ... ذُبَابُهُ الحَوْلِيُّ أَخْفَى مُنتَجَى
أَلْقَى ذِرَاعًا فَوْقَ أُخْرَى وَحَكَى ... تَكَلُّفَ الأَجْذَمِ فِي قَدْحِ السَّنَى
كأَنَّمَا النُّورُ الذي يَفْرَعُهُ ... مُقْتَدِحًا لِزَنْدِهِ سِقْطٌ وَرَى

بغام الظبية صوتها وظبية بغوم وقد بغمت تبغم بالكسر والمباغمة المحادثة بصوت رخيم وانتجى أي غرد تغريدا خفيا وهو من قولهم انتجى القوم وتناجوا أي تساروا والحولي الذي مر عليه حول أي سنة ويطلق الحولي أيضا على الصغير قال بعضهم العرب أذا نسبت الشيء الى الصغر وقصر المدة قالت حولي لأن أقل الأحوال حول واحد ولهذا قال حسان

لو يدب الحولي من ولد الذر * عليها لأندبتها الكلوم

لم يرد بالحولي ما أتى عليه حول وأنما أراد أصغر ما كان من الذر وكذلك قول امرىء القيس

من القاصرات الطرف لو دب محول * من الذر فوق الأتب منها لأثرا

قال ومما يدل على صحة هذا المعنى قول الراجز

* واستبقت تقذف حولى الحصى *

واراد بحولى الحصى اصغره وقال عمرو بن كلثوم

ألا أبلغ النعمان عنى رسالة * فمجدك حولى ولؤمك قارح

إنما أراد فمجدك حديث غير قديم يريد الناظم ان الاصوات بهذا المرعى تنوعت فالظباء تتباغم والذباب تتغنى ثم قال ألقى ذراعا فوق أخرى وحكى البيت الأجذم هو المقطوع الكف يقال جذم الرجل بالكسر جذما أى صار اجذم وفى الحديث من تعلم القرآن ثم نسيه لقى الله وهو اجذم والسنا الضوء واراد به هنا سقط النار شبه الذباب اذا وضع ذراعا على ذراع برجل أقطع الكفين يورى زندا فهو يفتله بذراعيه اذلم يكن له كفان يفتل بهما وذلك ان قدح النار عند العرب يكون بعودين أحدهما وهو الاعلى يسمى الزند والثانى وهو الأسفل يسمى الزندة فيها ثقب وهى الأنثى فاذا اجتمعا قيل زندان فاذا أدخل الزند فى الزندة وفتل قدحا النار وبهذا الذى ذكرنا من وصف صورة القدح مع أن أذرع الذباب لا أكف فيها يتبين لك حسن موقع هذا التشبيه الا أنه مأخوذ من قول عنترة

وخلى الذباب به يغنى وحده * هزجا كفعل الشارب المترنم

غردا يحك ذراعه بذراعه * فعل المكب على الزناد الأجذم

وهذا التشبيه من مخترعات عنترة التى لم يسبق اليها قال الجاحظ نظرنا فى الشعر القديم والمحدث فوجدنا المعانى تقلب ويؤخذ بعضها من بعض غير قول عنترة فى الأوائل وانشد هذين البيتين وقول أبى نواس فى المحدثين

تدار علينا الراح فى عسجدية * حبتها بأنواع التصاوير فارس

قرارتها كسرى وفى جنباتها * مهى تدريها بالقسى الفوارس

فللراح مازرت عليه جيوبها * وللماء مادارت عليه القلانس

أراد بالعسجدية كؤسا مذهبة فيها صور منقوشة وهى صورة كسرى وصورة المهى والفوارس ومعنى البيت الأخير منها أن حد الخمر من صور هذه الفوارس التى فى الكؤس الى التراقى والصور ومزجت بالماء فانتهى المزاج الى ما فوق رؤسها وقد يكون الحباب هو الذى انتهى الى ذلك الموضع لما مزجت فازبدت والمعنى الأول أبدع وفائدته معرفة حدها صرفا من حدها ممزوجة وزعم بعضهم أن أبا نواس اهتدى اليه من قول امرىء القيس

فلما استطابوا صب فى الصحن نصفه * ووفوا بماء غير طرق ولا كدر

جعل الماء والشراب قسمين فتسلق الحسن عليه واخفاه بما شغل به الكلام من ذكر الصور ومازال العلماء بالشعر وجهابذة المعانى يرون ان قول عنترة هذا أوحد فرد يتيم فذو أنه من المعانى العقم التى لا تولد على ان ابن الرومى قد تعلق بذيله فزاد معنى فيه فقال

اذا رنقت شمس الأصيل ونفضت * على الأفق الغربى ورسا مزعزعا

وودعت الدنيا لتقضى نحبها * وشول باقى عمرها فتسعسعا

ولا حظت النوار وهى مريضة * وقد وضعت خدا الى الارض اضرعا

كما لاحظت عوادها عين مدنف * توجع من اوصابه ما توجعا

وبين أعضاء الفراق عليهما * كأنهما خلا صفاء تودعا

وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة * من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعا

وظلت عيون الروض تخضل بالندى * كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا

وأذكى نسيم الروض ريحان ظله * وغنى مغنى الطير فيه فرجعا
وغرد ربعي الذباب خلاله * كما حنحث النشوان صنجا مشرعا
فكانت أرانيم الذباب هناكم * على شدوات الطير ضربا موقعا

وقال أبو محمد عبد المجيد بن عبدون

ساروا ومسك الدياجي غير منهوب * وطرة الشرق غفل دون تذهيب
على ربا لم يزل شادي الذباب بها * يلهي بآنق ملفوظ ومضروب
كالغيد في قبب الأزهار أذرعه * قامت له بالمثاني والمضاريب

وقال أبو بكر بن سعيد البطليوسي

كأن أهازيج الذباب أساقف .. * لها من أزاهير الرياض محاريب

وقد قال السلامي في صفة زنبور فباعد عنترة في الصفة وان قاربه في الموصوف

اذا حك اعلى رأسه فكأنما * بسالفتيه من يديه جوامع

وقد تعرض الناظم لتشبيه عنترة فقصر عنه التقصير البين وأخل بذكر الأكباب والحك ولهما في هذا التشبيه موقع بديع مع التكلف البادي على قوله تكلف الاجذم في قدح السنا ثم رام أن يزيد فيه فقال كأنما النور الذي يفرعه البيت يفرعه أي يعلوه عند القاءه ذراعه على الاخرى والسقط ما يسقط من النار عند القدح وفيه ثلاث لغات الضم والكسر والفتح وكذلك سقط الرمل وسقط الولد قال الفراء سقط النار يذكر ويؤنث ويقال وري الزند يري وريا اذا اخرجت ناره وفيه لغة أخرى وري الزند بالكسر فيهما شبه بياض النور ببياض السقط الحاصل عن قدح الزند ولا خفاء بأن المعاني الشهيرة البارعة الحسن كتشبيه عنترة هذا لا ينبغي أن يتعرض لأخذها متعرض الا بالزيادة البينة البديعة الموقع والعبارة الناصعة السهلة حتى يبين الفضل للثاني على الأول والشفوف للاخذ على المأخوذ والا كان فاضحا لنفسه وماسخا للمعنى الذي تعرض لأخذه وكان سبب انشاد أبي نواس للقطعة التي أنشدت له أنه مر بالمدائن فعدل الى ساباط قال بعض أصحابه فدخلنا ايوان كسرى فرأينا آثارا في مكان حسن تدل على اجتماع كان لقوم قبلنا فأقمنا خمسة أيام نشرب هنالك وسألنا أبا نواس صفة الحال فقال

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا * بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من جر الزقاق على الثرى * وأضغاث ريحان جني ويابس
ولم أدر من هم غير ما شهدت به * بشرقي ساباط الديار البسابس
حبست بها صحبي فجمعت شملهم * واني على أمثال تلك لحابس
أقمنا بها يوما ويوما وثالثا * ويوما له يوم الترحل خامس

وبعدها الأبيات الثلاثة التي أنشدنها قبل قال علي بن العباس النوبختي قال لي البحتري أتدري من أين أخذ الحسن قوله ولم أدر من هم غير ما شهدت به البيت قلت لا قال من قول أبي خراش الهذلي

ولم أدر من ألقى عليه رداءه * سوى انه قد سل عن ماجد محض

طَارَدْتُ فِي أَرْجَائِهِ سِرْبَ مَهًى * أَمْهَى النَّدَى أَلْوَانَهُنَّ فَمَهَا
قَدْ نَاسَبَتْ ظَوَاهِرٌ بَوَاطِنًا * مِنْهَا إِيبَاضًا بِالنَّدَى وَبِالنَّدَى
وَجَالَ طَرْفِي حَيْثُ جَالَ الطَّرْفُ فِي * نُورٍ مَهًى تَرْعَى وَنَوْرٍ يُرْتَعَى

المهى هنا بقر الوحش وقد تقدم وقوله أمهى الندى الوانهن البيت أمهى صقل حتى صير الوانهن تشبه المهى في صفائها وهي البلور وكل شئ صفا فأشبه المهى فهو ممهى قال الهروى في تفسير حديث عمر بن عبد العزيز أنه رأى فيما يرى النائم جسد رجل ممهى أن معناه يرى داخله من خارجه وعطف مهى المختوم به البيت على مهى قبله وهو على حذف المضاف وتقدير الكلام سرب مهى هذه صفته فسرب مهى فتأمله والمعنى طاردت سربا بعد سرب وقوله في البيت الثاني بالندى وبالندى الندى الاول المطر والبلل والندا الثاني الشحم قال الشاعر

كثور العداب الفرد يضربه الندا * تعلى الندا في متنه وتحدرا

العداب بالعين المهملة ما استدق من الرمل وأراد بالندى الاول المطر وبالثاني الشحم حسبما ذكرت في بيت الناظم ومنه أخذ المعنى وقد زعم بعضهم أن الشحم انما سمي بالندى لانه نبت عن الكلاء الذي نبت عن الندى وهو المطر كما قال الشاعر يصف السحاب

* أسقة الآبال في ربابه *

والمعنى في بيت الناظم أن الوان هذه البقر بيض فلما أصابها ذلك المطر أزال عن جلودها الدرن فاستحكم بياض ظواهرها وأما بواطنها فبياضها من بياض الشحم فالباء في قوله بالندا سببية أي بسبب ما أصابها من المطر وما اشتملت عليه بواطنها من الشحم وقوله وجال طرفي حيث جال الطرف البيت الطرف الفرس والطرف العين ونور مهى جمع نوار وهي النفور والفرور وكان حقه أن يجمع على فعل مثل قذال وقذل الا أنهم كرهوا الضمة على الواو فقالوا نور وانما يريد ان الفرس جالت به في مدى البصر فحيث يرى يرى بطرفه تجول به فرسه في بقر يرعى ونور يرتعي وانما أراد ان يصف الموضع باتساع الاقطار وانه مدى البصر ويسوغ أن يريد بقوله نور مهى ضياء مهى أي شدة بياض جلودها وميضها وهو بعيد وان كان البيت الذي قبله يدل عليه والاول أظهر وقد جانس الناظم بين أمهى ومهى وبين الندى والندى وبين الطرف والطرف وطابق بين الظواهر والبواطن وبين ترعى ويرتعي

وَمطلَع لِنيِّرَاتٍ أَوْجُهٍ منظَرُها في كلِّ عينٍ قد حلا
تلألأتْ لي منهُ شمسٌ قُلِّدَتْ مِنَ الدَّرارِي ومِنَ الدُّرِّ حلا
قَدْ كانَ يأْبَى وصلَها الدَّهرُ إلى أَنْ غضَّ عنها ناظِرَيْهِ وَغضَا

يقال حلا في عيني وبعيني يحلو حلاوة اذا أعجبني وقال الاصمعي يقال حلى في عيني بالكسر وحلا في فمي بالفتح وقوله تلألأت فيه شمس البيت الدراري جمع دري وكان الاصل دراري ثم حذف احدى اليائين شبه ما عليها من قطع الذهب واليواقيت بالدراري ثم ذكر أنها قلدت مع ذلك بالدر وهو اللؤلؤ وأحسن من هذا أن تكون الدراري في البيت هي الدر كأنه قال حلاها من الدراري وهي في الحقيقة من الدر وانما أراد بالشمس المرأة وشبه ما عليها من الدر بالنجوم ولو كان مكان الواو هنا أو لكان أوقع فيكون تشكيكا من المتكلم وفيه دليل على قرب الشبه كأنه يقول قد شككت لفرط الشبه هل هي در أو دراري كما قال الشاعر

أيا ظبية الوعساء بين حلاحل * وبين النقا أأنت أم ام سالم

فشكه هنا أوقع وأدل على قرب الشبه من أن لو قال أنت كأم سالم فتأمله وهو مأخوذ من قول المتنبي

لها بشر الدر الذي قلدت به * ولم أر بدرا قبلها قلد الشبا

وقوله قد كان يأبى وصلها البيت يقال غض طرفه أي خفضه قال الله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم

وقال الشاعر جرير

* فغض الطرف إنك من نمير *

و يقال غضا الرجل وأغضا اذا أطبق جفنيه على حدقتيه و يقال غضوت على الشئ وأغضيت اذا سكت وكلا التفسير بن صالح لهذا الموضع وانما أتى هنا بغض وغضا على جهة التمثيل ومعناه أن الدهر سمح بوصلها بعد الاباية وقد جانس الناظم بين الدرارى والدر و بين حلا وحلى وغض وغضا

فيالها من ليلة نجّي بها ... قلبي من الوجد حبيب قد نجي

لمّا دنا فيها الحبيب وانتهى ... جنى المنى اشتدّ نواه واعتصى

وأعقب التسليم توديع به ... غاب الهلال حين لاح ابن ذكى

أمسكته وقد رسى الحلى له ... من نبأ الصبح المبين ما رسى

قال أما أشعرك الحلى الذى ... أشعرنى ببرده قلت بلى

نجى من النجاة أى خلص قلبى من الوجد بمواصلته اياى فى تلك الليلة ونجا أسرع السير يريد أن قربه أعقبه الفراق سريعا وقد بين ذلك فيما بعد من الأبيات ولا يبعد أن يريد بقوله حبيب قد نجا أى بات لى نجيا يقال نجوت فلانا أى ساررته وهو أقرب الى المعنى وان كان فحوى الكلام ومساقه أدل على الآخر ثم قال لما دنا فيها الحبيب وانتهى جنى المنى أى حان قطافه جعل للمنى جنى على جهة الاستعارة والنوى هنا جمع نواة وهى العجمة واعتصى اشتد وصلب قالوا اعتصت النواة اذا اشتدت وانما أتى بذلك على جهة التمثيل مثل قرب المحبوب و بلوغ الأمل فى وصله ثم سرعة فراقه بالثمر الذى ينتهى و يلذ طعمه ثم يشتد و يصلب نواه فيعتصى على المتناول قبل أن يبلغ منه المراد وقد تقدم الكلام على التمثيل وانه من محاسن الكلام وقد يريد بالنوى البعد و يكون المعنى اشتد أمر نواه أو خطب نواه والكلام موجه على المعنيين معا والتورية حاصلة على كلا الوجهين وجاز على الوجه الثانى أن يقول اعتصى فيأتى بالضمير مذكرا وان كانت النوى التى يراد بها البعد مؤنثة لأنه التفت الى المحذوف وهو الامر أو الخطب فراعى التذكير والمضاف اذا حذف جاز لك وجهان أحدهما مراعاة المحذوف والآخر عدم مراعاته على ما قرره النحاة وقوله وأعقب التسليم توديع البيت ابن ذكا هو الصبح وانما سمى ذلك لأنه ضوء الشمس وذكا اسم من أسماء الشمس غير مصروف قال حميد

فوردت قبل انبلاج الفجر * وابن ذكاء كامن فى كفر

الكفر هنا ظلمة الليل وسواده أراد بالهلال هنا المحبوب وكنى بغيبته عن فراقه يريد أنه فارقه حين طلع الصبح وهذا مما ينبغى أن يثبت فى ائتلاف المعنى بالمعنى لانه اختار هنا ذكر الهلال من بين سائر ما يشبه به المحبوب لأجل مناسبة الصبح له ولو قال غاب الغزال أو الشادن لم يكن مناسبا ثم قال أمسكته وقد رسى الحلى له أى أنبأه الحلى عن الصبح وخبره به يقال رسوت عن فلان حديثا اذا حدثت به عنه وذلك ان الذهب يبرد عند طلوع الفجر فدله برد الحلى عليه وهو معنى متداول بين الشعراء وللناظم من قصيدة

حتى اذا الصبح أنبأنا بطلعته * برد السوار فأذكى القلب نيرانا

والبيت الأخير بين المعنى وقد أكثر الناس فى المعنى الذى تضمنته هذه الأبيات وفى فراق الحبيب مع الصبح فمن أشهر فمو أبدعه قصيدة الشريف أبى الحسن الرضى الشهيرة

يا ليلة السفح هلا عدت ثانية * سقى زمانك هطال من الديم

يقول فيها

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا * على الكثيب فضول الريط واللمم
يشي بنا الطيب أحيانا وآونة * يضيئنا البرق مجتازا على إضم
بتنا ضجيعين فى ثوبى عفاوتقى * يلفنا الشوق من قرن الى قدم
وبات بارق ذاك الثغر يوضح لى * مواقع اللثم فى داج من الظلم
وبيننا عفة بايعتها بيدى * على الوفاء لها والرعى للذمم
يولع الطل بردينا وقد نسمت * رويحة الفجر بين الضال والسلم
وأكتم الصبح عنها وهى غافلة * حتى تكلم عصفور على علم
فقمت أنفض بردا ماتعلقه * غير العفاف وراء الغيب والكرم
وألمستنى وقد جد الوداع بنا * كفا تشير بقضبان من العنم
وألثمتنى ثغرا ماعدلت به * أرى الجنى ببنات الوابل الرذم
ثم انثنينا وقد رابت ظواهرنا * وفى بواطننا بعد عن التهم

وقال أبو فراس الحمدانى وذكر برد الحلى عند الصبح

قضى لى الدين ماطله وأوفى * الىّ بها الفؤاد المستطار
فبت أعل خمرا من رضاب * لها سكر وليس لها خمار
الى ان رق ثوب الليل عنا * وقالت قم فقد برد السوار
وقامت تسرق اللحظات عنى * بملتفت كما التفت الفرار
دنا ذاك الصباح فلست أدرى * أشوق كان منه أم ضرار
فقد عاديت ضوء الصبح حتى * لطرفى عن مطالعه ازورار

ولى فى مثل ذلك

زارت بأكرم ليلة وفى بها * حق الصبابة زائر ومزور
نتطارح الشكوى وقد شرد الكرى * عنا فننجد فى الهوى ونغور
ثم انجلى الاصباح فالتفتت كما * يرنو غزال الربرب المذعور
حتى اذا قامت تمد بنورها * متبلج الاصباح حين ينير
طار الفؤاد فظلت أعجب وهو فى * شرك الهوى قد صيد كيف يطير

وأنشدنى شيخنا الاستاذ ابو عبد الله بن هانى لبعضهم

بتنا على حال تسر الهوى * وربما لا يمكن الشرح
بوابنا الليل وقلنا له * ان غبت عنا دخل الصبح

انما حسن له أن جعل الليل بوابا سواده والغالب فى البوابين أن يكونوا سودا فى العادة وقال الرئيس أبو العباس ابن أبى طالب العزفى رحمه الله وأشار الى قول الشريف المتقدم

وكم ليلة نلت فيها المنى * وبات لى الحب فيها نجيا
اذا ضل لحظى فى جنحها * هدت وجنتاه الصراط السويا
أراع فأسأل عن صبحها * فيرجع لى جنحها ثم هنيا
الى ان بدا لى سرحانها * يحاول للجدى فيها رقيا
فيالك من ليلة بتها * أنادم بدر دجاها البهيا
حكت ليلة السفح فى حسنها * فأصبحت أحكى الشريف الرضيا

وقد جانس الناظم بين نجى ونجى وطابق بين التسليم والتوديع و بين غاب ولاح و بين دنا والنوى على أحد المأخذين

فَقُمْتُ مذعُورًا لِبازٍ أشْهَبٍ نَفَى غُرَابَ اللَّيْلِ مِنْ بعدِ الحدا
وَالصُّبْحُ قَدْ تَمَخَّضَتْ بِهِ الدُّجَا حَتَّى بَدا مِثْلَ الجنِينِ المختَفَى
كأنَّمَا ضَوْءُ الصَّباحِ جَذْوَةٌ وَاللَّيْلُ زِنْجِيٌّ عَلَيْهَا قَدْ جذَا

الحدا الاقامة بالمكان ولزومه يقال حدى بالمكان حدا اذا أقام به ولزمه كنى عن الصبح بالبازى وجعله أشهب لبياضه الذى غلب السواد وجعل الليل غرابا لسواده وخبر عنه بأن بازى الصبح نفاه بعد اقامته وقد قال تميم ابن المعز وكأن الصباح فى الأفق باز * والدجى بين مخلبيه غراب

وقال ابو العلاء المعرى

والصبح قد مد عمود نوره * والليل مثل الأدهم المقفر
يادهر بالله أذق غرابها * موتا من الصبح بباز كرز (١)

المقفز والأقفز من الخيل الذى فى يديه بياض يبلغ المرفقين كانه شبه بالقفاز والكرز من البزات الذى ألقى ريشه وقوله والصبح قد تمخضت به الدجا أى لقحت به وولدته وهو من المخاض وجع الولادة جاء به استعارة وتشبيها تخييل الدجا مشتملا على الصبح فلما ظهر أشبه الجنين الذى يظهر من بطن الحامل بعد اشتمالها عليه وهو مأخوذ من قوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون و بيت الناظم مثل قول الشاعر

سبحان ذى الملكوت أية ليلة * مخضت بوجه صباح يوم الموقف
لو أن عينا وهمتها نفسها ... * مافى الفراق مصورا لم تطرف

أردت البيت الاول و ينظر الى قول الشاعر

والليالى كما علمت حبالى * مثقلات يلدن كل عجيب

والى قولهم الليل حبلى ليس يدرى ماتلد وقال الحسن بن أبى الحسن ما أبكانى شئ كليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيامة وقال السرى الرفا وهو حسن جدا

قد اغتدى نشوان من خمر الكرى * أجر بردى على برد الثرى

وكرره السرى فقال

* والصبح حل فى حشا الظلماء *

والمختفى المستخرج والجنين الولد فى البطن ثم قال كأنما ضوء الصباح جذوة الجذوة بضم الجيم وكسرها وفتحها الجمرة وقيل فى قوله تعالى أوجذوة من النار قطعة من الجمر وجذا اذا أقعى منتصب القدمين وهو على أطراف أصابعه شبه الصباح بقطعة من نار والليل بزنجى مقع عليها والزنج جيل من السودان وهم الزنوج وقيل بفتح الزاى وكسرها

وَمشْرِقٍ لِنَيِّرَاتِ أَكْؤسٍ مَطْعَمُهَا لِلشَّارِبِينَ قَدْ حَلَي
أَنِسْتُ إِذْ آنَسَ مِنْهُ نَاظِرِى نَجْمًا بِنَجْمٍ فى يَدَيْهِ قَدْ سَمَي

(١) الكرز كسكر الصقر والبازى

مِنْ قَهْوَةٍ تَقْوَى عَلَى دَفْعِ الأَسَى ... فَهِيَ أَحَقُّ قِنْيَةٍ أَنْ تُقْتَوَى

إِنْ ضَاقَ ذَرْعُ لِلْفَتَى أَفْضَتْ بِهِ ... إِلَى مَجَالٍ لِلسُّرُورِ قَدْ فَضَى

أُمٌّ وَلُودٌ لِلْمُنَى مَا عَاقَهَا ... فَرْطُ انْتِهَاءِ السِّنِّ عَنْ فَرْطِ الضَّنَى

وَاشْتَرَطَ السَّقْيَ لَهَا مُهَفْهَفٌ ... حَلَا بِسَقْيٍ مِثْلِهَا مَنْ قَدْ حَلَا

النيرات النجوم شبه بها الكؤس لاشراقها ويقال أنست به بالكسر انسا وانسة وأنست بالفتح أنسا وهو خلاف الوحشة وآنسته أبصرته ومنه قوله تعالى فان آنستم منهم رشدا وقوله تعالى آنس من جانب الطور نارا وأراد بالنجم الاول الساقي لحسنه وبالثاني الكأس للالائها والقهوة الخمر سميت بذلك لأنها تقهي أى تذهب شهوة الطعام والقنية بضم القاف وكسرها وبالياء والواو وما يقتنى أي يدخر وتقتوى أى يغالى بها يقال اشترى الشركاء شيئا ثم اقتووه أي تزايدوه حتى بلغ غاية ثمنه وهو من القوة كأنهم أرادوا أقوى ما يمكن من الثمن أى أعلاه وكانت العرب في الجاهلية تتمدح بشرائها للشرب والمغالات فيها ولذلك قال امرؤ القيس

كأني لم أركب جوادا اللذة * ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل * لخيلي كرى كرة بعد إجفال

وقال حسان وقد مر بعير ربيعة بن مكدم فنفرت قلوصه

نفرت قلوصي من حجارة حرة * بنيت على طلق اليدين وهوب

لا تنفري يا ناق منه فانه * سباء خمر مسعر لحروب

يقال سبأت الخمر بالهمز اذا اشتريتها للشرب بها فاذا كان شراؤها للحمل الى بلد آخر قلت سبيتها بالياء وقوله ان ضاق ذرع للفتى تقول ضقت بالأمر ذرعا اذا لم تطقه ولم تقو عليه وأصل الذرع انما هو بسط الذراع فكأنك تريد مددت يدي اليه فلم أنله وربما قالوا ضقت به ذراعا وأفضت به وصلت به يقال أفضى فلان الى فلان وصل اليه وقوله قد فضى أى اتسع ويقال فضا يفضو افضاء وفضوا يريد أنها تذهب الهم وتأتي بالفرح وقد أنشدنا غير واحد من شيوخنا للامام أبي بكر بن العربي رحمه الله

زعم المدامة شاربوها أنها * تصل السرور وتطرد الهما

صدقوا سرت بعقولهم فتوهموا * ان السرور لهم بها تما

سلبتهم أديانهم وعقولهم * أرأيت فاقد دين مهتما

ثم قال أم ولود للنى أى تلد المنى جمع منية ويقال فيها منية بكسر الميم وهي الأمنية من قولك تمنيت الشئ اذا أردته والمعنى أنها يدرك بها المنى والفرط الافراط ويقال ضنت المرأة ضناء بالمد اذا كثر ولدها يهمز ولا يهمز والضنو بفتح الضاد وكسرها بلا همز الولد قالت قتيلة أخت النضر تخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قتل أخاها يوم بدر صبرا

أمحمد ها أنت ضنو كريمة * في قومها والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت فربما * من الفتى وهو المغيظ المحنق

من أبيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعها لو كنت سمعت شعرها قبل هذا ما قتلته والمعنى أنه وصفها بأنها قديمة وهم يمدحون الخمر بالقدم ولذلك يسمونها العجوز ووصفها بأنها ولود ثم ذكر ان علو السن لم يعقها

عن كثرة الولادة كما جرت العادة فى الامهات وهذا معنى غريب حسن ما أظنه سبق اليه وقوله فى البيت بعد هذا حلا بسقى مثلها من قد حلا يقال حلوت الرجل اذا أطعمته الحلو ووصف الساقى وأراد بمثلها رضابه يقول انه حين سقاهم إياها آثر برضا به من آثره منهم واختص بحلو من اختصه منهم وهو كقول أبى نواس

تسقيك من يدها خمرا ومن فيها * خمرا فمالك من سكرين من بد
لى سكرتان وللندمان واحدة * شئ خصصت به من بينهم وحدى

ومعنى البيت الثانى من هذه الأبيات من قول ابن الرومى

ومهفهف كملت محاسنه * حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكؤس الى مراشفه * وتهش من يده الى الحبس
أبصرته والكأس بين فم * منه وبين أنامل خمس
فكأنها وكأن شاربها * قمر يقبل عارض الشمس

وأخذه من قول أبى نواس وكان الأمير محمد بن الرشيد امره أن لا يشرب خمرا ولا يقول فيها شعرا فقال

أعاذل أعتبت الأمام واعتبا * واعربت عما فى الضمير واعربا
وقلت لساقيها أجزها فلم يكن * ليأبى أمير المؤمنين وأشربا
فجوزها عنى عقارا ترى لها * الى الشرف الأعلى شعاعا مطنبا
اذا عب فيها شارب القوم خلته * يقبل فى داج من الليل كوكبا

أردت هذا البيت

ترى حيث ما كانت من البيت مشرقا * ومالم تكن فيه من البيت مغربا
يدور بها ساق أغر ترى له * على مستدار الخد صدغا معقربا
سقاهم ومنانى بعينيه منية * فكانت الى قلبى الذ أعجبا

وقال ابن المعتز

ظبى خلى من الاحزان اودعنى * مايعلم الله من حزن ومن قلق
كأنه وكأن الكاس فى يده * هلال أول شهر غاب فى شفق

وقال أيضا

ياحسن أحمد غاديا أمس * بمدامة صفراء كالورس
وكأن كفيه تقسم فى * أقداحنا قطعا من الشمس

وقال الطليق المروانى

فاذا ما غربت فى فمه * أطلعت فى الخد منه شفقا

وقال آخر

تغرب فى فيه ولكنها * من بعد ذا تطلع فى خده

وقال ابونواس فى قدمها وهو بديع

عتقت حتى لو اتصلت * بلسان ناطق وفم
لاحتبت فى القوم ماثلة * ثم قصت قصة الأمم

ومن ابلغ ماقيل فى عتقها قول أبى الفرج الببغا

وغريبة الأنساب والشيم * موجودة والخلق فى العدم
ظهرت ونور الشمس عن فلك * من قبل خلق الشمس والظلم
فانهل جوهرها بمنسكب * لم يعتصر بيد ولا قدم

واشتق معنى اسم السلاف لها * من كونها فى سالف القدم
فكأنها فى صفوها خلق * وكأنها فى عتقها كرم

وجانس الناظم بين انست وآنس وبين تقوى وتقتوى وبين افضت وفضى وطابق بين ضاق وفضى

جرَيْتُ في عِنَانِ دَهْرِي مِثْلَ ما * كانَ الزمانُ فى عِنَانِى قَدْ جَرَى
ما أحْدَثَتْ حادِثَةٌ لِى رَوْعَةً * ولاَ اعتَرَانِى جَزَعٌ لِمَا اعْتَرَى
قَدْ عَرَفَتْ دُنْيَايَ أنّى عَارِفٌ * وسَبَرَ الدَّهْرُ اصْطِبَارِى وبَلاَ
لَمْ يَسْتَمِلْ نَفْسِى حِرْصٌ مُطْغٍ * إذَا اسْتَمَالَ النَّفْسَ حِرْصٌ واطّبا

قوله جريت فى عنان دهرى أى تصرفت مع الزمان كما شاء بعد ان كان الزمان يتصرف معى كما أشاء يريد ان الليالى كانت تساعد فى مقاصده فصار الأمر معها على ضد ذلك وصدر البيت يشبه قول الشاعر

* فارد ما يكون ان لم يكن ما تريده *

ثم قال ما أحدثت حادثة لى روعة الريب تقول عرانى الأمر واعترانى اذا غشيك يصف نفسه بالصبر وانه جلد ويشبه قول ابى عبادة البحترى

تنكر العيش حتى ان أكدره * يأتى نظاما ويأتى صفوه لمعا
وانست من خطوب الدهر كثرتها * فلست أرتاع من خطب اذا طلعا

وقد قال الشاعر

قد عشت فى الدهر اطوارا على طرق * شتى وقاسيت فيها اللين والفظعا
كلا بلوت فلا النعماء تبطرنى * ولا تخشعت من لأوائها جزعا
لا يملأ الهول صدرى قبل موقعه * ولا أضيق به ذرعا اذا وقعا

ومما ينحو هذا المنحى قول الشاعر

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا * فلما دهتنى لم تزدنى بها علما

ويشبه قوله * ولا اعترانى جزع لما اعترى * قول ابى بكر بن دريد

لا تحسبن يادهر انى ضارع * لنكبة تعرقنى عرق المدا
ما رست من لو هوت الافلاك * جوانب الافق عليه ما شكا

وقال المتنبي

قد بلوت الخطوب مرا وحلوا * وسلكت الأيام حزنا وسهلا
وقتلت الزمان علما فما يغـ * ـرب قوله ولا يجدد فعلا

ومثله قول عبيد الله بن طاهر

وجربت حتى ما أرى الدهر مغربا * على بشئ لم يكن فى تجاربى

وقال أبو الطيب

انكرت طارقة الحوادث مرة * ثم اعترفت بها فكانت ديدنا

وقال الآخر

روعت بالبين حتى ما أراع * به وبالحوادث فى اهلى وجيرانى

ومثله قول الآخر

لقد جعلت نفسى على البعد تنطوى * وعينى على هجر الحبيب تنام

وفارقت حتى ما أحن الى هوى * وان بان احباب على كرام

ومثله
* وقد باليت حتى ما أبالى *

وقوله وسبر الدهر اصطبارى و بلا كل شئ رزته فقد سبرته واستبرته يقال حدث مسبره ومخبره ومنه سبرت الجرح اسبره اذا نظرت ماغوره والمسبار ما يسبر به الجرح و بلى اختبر وجرب يقول ان الدهر قد عجم عوده فوجده أبيا صليب المكسر لا يبالى بالحوادث اذا طرقته وقوله لم يشغل نفسى حرص مطب يقال طباه يطبوه و يطبيه واطباه اذا دعاه يقول لا يستفزنى الحرص ولا أجيب داعيه اذ كان الحرص مما شأنه أن يستفز و يستميل وقد طابق الناظم بين جريت فى عنان دهرى وجرى فى عنانى

وَلِى فُؤَادٌ مُنْصِفٌ فى حُكْمِهِ   مُتَّصِفٌ بِالْعَدْلِ فِيما قَدْ مَضى

كَمْ دَمَّثَ الْخُلْقَ لِمَنْ فى خُلْقِهِ   دَمَاثَةٌ وكَمْ جَسَا لِمَنْ جَسا

أَحُوطُ خُلْصانى ولا أُقْصِى وَلا   أقولُ حُطْنى لا ولا حُطْنى القَصى

الدماثة سهولة الخلق وجسا خشن يقال جسأت يده من العمل تجسأ جسأ صلبت وهو مهموز فأبدل الهمزة الفا وصف فؤاده بالعدل فى معاشرة اهل دهره وانه يعطى كل احد قسطه مما يشا كله فان كان لين الجانب عامله باللين والدماثة فى الخلق ومن كان بضد ذلك قابله بمثل خلقه و يشبه قول القائل

ولى فرس للحلم بالحلم ملجم * ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن رام تقويمى فانى مقوم * ومن رام تعويجى فانى معوج

وقول الآخر

كريم يغض الطرف فضل حيائه * و يدنو وأطراف الرماح دوان
وكالسيف ان لاينته لان متنه * وحداه إن خاشنته خشنان

وهو من قول قيس بن الحطيم

أمر على الجانى و يغلظ جانبى * وذو الود أحلولى له والين

وقال الآخر

وإنى اذا حوليت حلو مذاقتى * ومر اذا ما رام ذو إحنة هضمى

ومن هذا المعنى قول بعضهم

رأيت ربا طاحين تم شبابه * وولى شبابى ليس فى بره عتب
إذا كان أولاد الرجال حزازة * فانت الحلال الحلو والبارد العذب
لنا جانب منه دميث وجانب * إذا رامه الأعداء ممتنع صعب
يخبرنى عما سألت بهين * من القول لا جافى الكلام ولا لغب
ولا يبتغى أمنا وصاحب رحله * بخوف اذا ماضم صاحبه الجنب
سريع الى الأضياف فى ليلة القرى * اذا اجتمع الشفان والبلد الجدب
وتأخذه عند المكارم هزة * كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

أردت البيت الثالث من القطعة الشفان الريح الباردة ومن أحسن ما تضمن هذا المعنى قول أبى القاسم بن هانى الأندلسى يمدح المعز

قليل لقاء البيض الامن القنا * قليل شراب الكأس الامن الدم
فطورا تراه مؤدما غير مبشر * وطورا تراه مبشر غير مؤدم

وله أيضا قسوا ولانوا فلهم هذه * وهذه فى العنف والرفق

وقوله أحوط خلصانى الخلصان المخلص يقال فلان خلصى وخلصانى ويستوى فى الخلصان الواحد والجماعة واحوط أكلأ وأرعى وأقصى أبعد والقصى البعيد يقال قصى عن جوارنا بالكسر يقصى قصا وقصوت عن القوم تباعدت وحطنى القصى هذه كلمة تقولها العرب وتريد بها تباعد عنى وقد قال الأصمعى فى قول الشاعر

لحاطونا القصى ولقد رأونا * قريبا حيث يستمع السرار

معناه تباعدوا عنا وهم حولنا وما كنا بالبعد عنهم لو أرادوا أن يدنوا منا ومراد الناظم أنه يصف نفسه بانه يكلأ خلصانه و يرعاه ولا يقصيه ولا يقول له تباعد عنى ولا يسأله الكلاءة لنفسه محملان أحدهما أن كلاءته وحياطته خلصانه ليست يريد بها المكافاة ولا المجازاة منه فيكون كلما حاطه أو رعاه قال له احفظنى كما حفظتك وانما يفعل ما يفعله من رعى صديقه خالصا للصداقة وكرم أخلاق والمحمل الثانى أنه متى رأى من خلصانه تقصيرا فى رعيه وحفظ وده أعرض عنه تكرما وتنزها ولم تسف همته أن يسأله أن يتكلف مالا باعث له عليه من نفسه وذكر القالى فى المقصور والممدود عن الأصمعى ان قولهم حاطهم القصى معناه كان فى طرتهم وناحيتهم قال والقصى الناحية وذكر عن احمد بن يحيى أنه يقال يحبو قصاهم ويحوط قصاهم بمعنى واحد وانشد عليه

أفرغ بجوف وردها أوراد * عباهل هبلها النواد
يحبو قصاها مخدر سناد * احمر من منضنها مياد

عباهل مهملة ويحبو يحوط وسناد مشرف ومياد يذهب ويجئ قلت فعلى ماذكر القالى يكون المعنى فى بيت الناظم أنه يحوط خلصانه ولا يقول له حطنى ولكن فى ناحيتى تحوطها على المعنيين اللذين تقدما وقد جانس بين منصف ومتصف وطابق بين دمث وجسا

قَدْ وافَقَتْنِى أَزْمُنِى وَخالَفَتْ * ولانَ لى عِطْفُ اللَّيالى وَعَسَى
ولم تُقَصِّرْ مُهْجَتِي فى الجِدِّ بَلْ * قَصَّرَ بِي جَدٌّ إذَا شِئْتُ أَبى
يَا ازْمنًا حَفِي المُنَى مِنْ بَعْدِ ما * قَدْ كانَ والى البِرَّ مِنْهُ واخْتَفى
قد بَلَغَ الحِزَامُ طِبْيَيْهِ وَقَدْ * أَفْرَطَ حَتَّى بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبا

يقال عسى الشئ يعسو عسوا وعسا بالمد أى يبس وصلب وانما يريد ان الزمان تقلب عليه بالشدة والرخاء وهو كقول المتنبى

قد ذقت شدة أيامى ولذتها * فما حصلت على صاب ولا عسل

وفى كلامه زيادة قصر عنها الناظم وقال الآخر

هذا الذى سبق القضاء به * والدهر بالانسان ذودول
ماقر فى أيدى قوابله * حتى أذيق الصاب بالعسل

وقال الآخر

مطائب دنياك ممزوجة * وهل يؤكل الشهد الابسم

وقال الآخر

أصبر لدهر نال منك فهما * كذا مضت الدهور
فرح وحزن مرة * لاالحزن دام ولا السرور

وهو من قول امرئ القيس

فيوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر

وقوله ولم تقصر مهجتى فى الجدا الجد بالكسر يراد به الاجتهاد يقال جد فى الأمر يجد و يجد بالكسر والضم واجد مثله قال الاصمعى يقال ان فلانا الجاد مجد باللغتين جميعا والجد بالفتح يراد به هنا البخت يقول ماقصرت فى الطلب والاجتهاد وانما قصر بى البخت فلم يساعدنى فليس العجز منى ولا اللوم على والعرب تقول فى مايشبه هذا إفعل كذا وخلاك ذم أى إنما عليك أن تجتهد فى الطلب لئلا تذم فيه بالتقصير فاذا اجتهدت فلاذم عليك وان لم تنقض الحاجة و يقال ان قصير بن سعد اللخمى قاله لعمرو بن عدى حين أمره أن يطلب الزباء بثار خاله جذيمة فقال أخاف أن لا أقدر عليها فقال اطلب الأمر وخلاك ذم ومن ذلك قول الشاعر

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا * من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا أو ينال رغيبة * ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

وقال بعض الحكماء انى لأسعى فى الحاجة وانى منها لآيس وذلك للاعذار ولئلا أرجع على نفسى بلوم وقوله يازمنا حفا المنى وقع فى بعض النسخ بالجيم وقد يصح معناه على بعد أى خالف المنى وانما ضبطه عندى بالحاء المهملة ومعناه منع أى حال بينى و بين المنى والعرب تقول حفوت الرجل من كل خير أحفوه حفوا اذا منعته منه يريد انه منع من نيل الآمال واحتفى أى بالغ فى الأكرام يقال حفا بالرجل حفاوة وحفاوة وتحفى به واحتفى أى بالغ فى اكرامه يريد أن الزمان أدبر عنه بعد الاقبال وقد قالت بنت النعمان

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا * اذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فأف لدنيا لايدوم نعيمها * تقلب تارات بنا وتصرف

وكلام الناس فى هذا المعنى لايحصى ومثله

ان الليالى لم تحسن الى أحد * الا أسأت اليه بعد احسان

ومثله

أما ترى الليل والنهارا * جارين لايبقيان جارا
لم يجريا لأمرئ بسعد * الا بنحس عليه دارا

وقوله قد بلغ الحزام طبييه يقال بلغ الحزام الطبيين اذا تجاوز الامر الحد وانتهى فى الشدة الى الغاية وأصله أن يريد الفارس النجاة من طلب من يتبعه فيضطرب حزام دابته حتى يبلغ طبييها ولا يمكنه أن ينزل فيشده والطبى للسبع والفرس بمنزلة الضرع لغيرهما و يقولون بلغ السيل الزبى أى قد جل الخطب عن أن يتدارك والزبى جمع زبية وهى مصيدة الأسد ولا تتخذ الا فى كنة أو رابية أو هضبة فاذا بلغ السيل أن يعلوها كان الأمر شديدا وقد قال الحجاج قد بلغ الماء الزبى فلا غير أى قد جل الأمر عن أن يتدارك وكتب عثمان بن عفان الى على بن أبى طالب رضى الله عنهما حين أحيط به أما بعد فانه قد جاوز الماء الزبى و بلغ الحزام الطبيين وتجاوز الأمر فى قدره وطمع فى من لا يدفع عن نفسه

فان كنت مأ كولا فكن خير آكل * والا فأدركنى ولما أمزق

وقد جانس الناظم بين الجد والجد و بين حفا واحتفى وطابق بين وافقت وخالفت و بين لان وعسى

أنأَيتَ يادَهرُ الّذي مِن بعدما أدنيتَها فما عدا عمّا بدا

ياهلْ أنا أنْ أبلغَ الحظَّ الذي كم قلتُ في تأميلِهِ ياهلْ أنا

أم هلْ دري عارفُ وجدي أنّما لم يَدرِهِ أكثرِ ممّا قدْ درا

أمرّ لي دهري وقدْ كانَ حلا فليسَ لي بطائلٍ منهُ حلا

قوله فاعدا عمابدا مثل يقال في الرجل اذا أتى أمرا أو فعل فعلا ثم أضرب عنه والمعنى قدظهر منك هذا الأمر فما الذي عاق عنه فصرفك عن فعله و بداهنا بمعنى ظهر وعدا بمعنى صرف وقدقيل ان عليارضي الله عنه أول من قاله وانما قاله لبعض أصحابه وقد تخلف عنه يوم الجمل ومعناه ما الذي ظهر فيك من التخلف بعدماظهر فيك من الطاعة وقوله ياهل أنا أن أبلغ الحظ الذي يا تنبيه وقد تكون حرف نداء والمنادى محذوف تقديره ياقوم أوشبهه و يقال آنى يأنى إنى اذا حان ومنه قوله تعالى ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله يريد أنه يؤمل بلوغ الأرب ولا يدري هل يبلغه فيردد السؤال عن ذلك على سبيل التمني وقوله أمرلي دهري وقد كان حلا يقال أمر لي الشئ اذا صار مرا و يقال أيضا مر الشئ يمر بالفتح مرارة فهو مر وأمره غيره ومره و يقال حلا الشئ يحلو حلاوة واحلولى وقوله فليس لي بطائل منه حلي يقال ماحليت من هذا الأمر بطائل بكسر اللام ومعناه مااستفدت منه كبير فائدة والحلا في بيت الناظم مصدر حليت هذا وتقدير الكلام فليس لي حلا منه بطائل لكن لا يسع في صناعة النحو أن تكون الباء متعلقة بالمصدر لأنه لا يتقدم معموله عليه إذ هو مقدر بأن والفعل فلابد أن يقدر للباء متعلق غيره يكون هو دليلا عليه ولهذا نظائر منها قوله تعالى اني لعملكم من القالين وقول الشاعر

ربيته حتى إذ تمعددا * وصار نهدا كالحصان أجردا

* كان جزائي بالعصي أن أجلدا *

وقد جعل بعضهم حرف الجر فيما كان هكذا تبيينا بمنزلة اللام في سقيالزيد ومعنى بيت الناظم ان الدهر تلون عليه فما حصل منه على كبير فائدة والدهر بالانسان دواري وقد قال الشاعر

الدهر لايبقى على حالة * لكنه يقبل أو يدبر

فان تلقاك بمكروهه * فاصبر فان الدهر لا يصبر

وقد طابق بين أنأيت وأدنيت وأمر وحلى ولم يدر ودري وجانس بين حلا وحلا

لَمْ يعرِفِ الأيامَ عِرفاني بها مَنْ زجرَ الطَّيرَ وعافَ وحزا

مايقظاتُ العيشِ إلاّ حُلُمٌ ولا مَرائي الدّهرِ إلاّ كالرّآى

والعيشُ طوراً مُشتهى مُستمرأٌ وتارةً مُستوبلٌ ومُجتوى

وكيفَ تصفو لامرئٍ معيشةٌ ومَوردُ الدّنيا مَشوبٌ بالقذا

يقال عفت الطير أعيفها عيافة أي زجرتها وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها وأصواتها والزجر كذلك يقال زجرت أنه يكون كذا وكذا وكذلك حزو الحازي الذي ينظر في الاعضاء وفي خيلان الوجه يتكهن وقال الشاعر في العيافة والزجر

رأيت غرابا ساقطا فوق قضبة * من القضب لم ينبت لها ورق خضر
فقلت غراب لاغتراب وقضبة * لقضب النوى هذى العيافة والزجر

القضب هنا القضبان ما كانت وليس بالعلف الذى هو رطب القت قال ذو الرمة

معد زرق هدت قضبا مصدرة * ملس المتون حداها الريش والعقب

وقال جحدر وقد أنشدناه قبل

ومما هاجنى فازددت شوقا * بكاء حمامتين تجاوبان
تجاوبتا بلحن أعجمى * على غصنين من غرب وبان
فكان البان أن بانت سليمى * وفى الغرب اغتراب غير دان

و يروى أن رجلا قال حضرت الموقف مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فصاح به صائح ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال ياأمير المؤمنين فقال رجل من خلفى دعاه باسم ميت مات والله أمير المؤمنين فالتفت فاذا رجل من بنى لهب وهم من بنى نصر بن الأزد وهم أزجر العرب قال كثير

سألت أخا لهب ليزجر زجره * وقد صار زجر العالمين الى لهب

قال فلما وقفنا لرمى الجمار اذا حصاة قد صكت صلعة عمر فادمته فقال قائل أشعر أمير المؤمنين لا يقف هذا الموقف أبدا فالتفت فاذا ذلك اللهبى بعينه فقتل عمر بن الخطاب رحمه الله قبل الحول ومن أحاديث بعضهم أن ركبا من الجن مروا بحى بنى لهب فتذاكروا ماتدعيه بنو لهب من الزجر فقالوا لهم لنختبرهم فأتوا الحى فى صورة رجال من الأنس فقالوا إنه قد علمنا ما خصصتم به من علم الزجر وانا نريد ان تبعثوا معنا من يزجر لنا فى أمور وقعت بين أهل الحى الذى نحن منه قالوا ابعث معكم هذا الصبى لصبى صغير منهم فاحتملوه على دوابهم فلما توسط الطريق رأى عقابا فى الجو فبكى فقالوا له ما يبكيك قال رفعت جناحا وخفضت جناحا وأقسمت بالله صراحا أنكم الجن لا براحا فعجبوا من ذلك وردوه الى أهله ومن أحسن ماوقع فى الزجر والعيافة قول أبى حية النمرى

جرى يوم رحنا عامدين لأرضنا * سنيح فقال القوم مر سنيح
فهاب رجال منهم وتقاعسوا * فقلت لهم جار الى ربيح
عقاب باعقاب من الدار بعد ما * جرت نية تشكى المحب طروح
وقالوا حمامات فحم لقاؤها * وطلح فزرت والمطى طريح
وقال صحابى هدهد فوق بانة * هدى وبيان بالنجاح يلوح
وقالوا دم دامت مواثق بيننا * ودام لنا حلو الصفاء صريح
لعينك يوم البين أسرعوا كفا * من الفنن الممطور وهو مروح

وقد نزع هذا المنزع من متأخرى المولدين أبو عبد الله بن قاضى ميله فقال

ولما التقينا محرمين وسيرنا * بلبيك يطوى والركائب تعسف
نظرت اليها والمطى كأنما * غواربها منها معاطس رعف
فقالت أما منكن من يعرف الفتى * فقد رابنى من طول مايتشوف
أراه إذا سرنا يسير حذاءنا * ونوقف أخفاف المطى فيوقف
فقلت لتربيها اتبعاها فأننى * بها مستهام قالتا نتلطف
وقولا لها ياأم عمرو أليس ذا * منى والمنى فى خيفه ليس تخلف
تفاءلت فى أن تبذلى طارق الهوى * بان عن لى من منك البنان المطرف

وأما دملء الهدى فهى تواصل * يدوم ورأى فى الهوى متألف
وفى عرفات ماتخبر اننى * بعارفة من نيل وصلك أسعف
وتقبيل ركن البيت اقبال دولة * لنا وزمان بالمحبة يعطف
فأبلغتا ماقلته فتبسمت * وقالت أحاديث العيافة زخرف
بعيشى ألم أخبركما انه امرؤ * على لفظه برد الكلام المفوف
فلا تأمنا ما اسطعتما كيد نطقه * وقولا ستدرى أينا اليوم أعيف
اذا كنت ترجو من منى الفوز بالمنى * فبالخيف من أعراضنا تتخوف
وقد انذر الاحرام ان وصالنا * حرام وانا عن وصالك نصرف
فهذا وقذفى بالحصا لك مخبر * بان النوى بى عن ديارك تقذف
وحاذر نفارى ليلة النفر انه * سريع فقل من بالعيافة أعرف

ولله در القائل وهو شاعر قديم

لا يمنعنك من بغاء الخير تعقاد التمائم * ولا التشاؤم بالعطاس ولا التيامن بالمناسم
ولقد غدوت وكنت لا أغدو على راق وحاتم * فاذا الاشائم كالايامن والايامن كالأشائم
* قد خط ذلك فى الزبور والأوليات القدائم *

ومثله قول الكميت

وما أنا ممن يزجر الطير همه * أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية * أمر سليم القرن أم مر أعضب

وقوله مايقظات العيش الاحلم مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا وقال بعض الزهاد الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام وقالوا أشبه شئ بالدنيا أحلام النائم وقالوا أيضا مثل الدنيا كرجل نام نومة فرأى فيها مايحب ويكره ثم انتبه وقال التهامى

العيش نوم والمنية يقظة * والمرء بينهما خيال سار

وهذا كله يدل عليه قوله تعالى فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد والمرائى جمع مرأى والرأى جمع رؤيا وقوله والعيش طور امشتهى مستمرأ يقال طعام مرىء وهنىء حميد المغبة وقد مرؤ ومراءة ومراء واستمرأته وقالوا هنأنى ومرأنى على الاتباع فاذا أفردوه قالوا أمرأنى ومن ذلك قوله تعالى فكلوه هنيئا مريئا وقول الشاعر

هنيئا مريئا غير داء مخامر * لعزة من أعراضنا مااستحلت

و يقال أيضا كلأ مرىء أى غير وخيم ومرؤة الأرض مراءة فهى مريئة حسن هواؤها فمستمر أفى بيت الناظم يصلح للعنيين و يقوى أن يكون من الأخير لصحة الطباق بمستوبل ومستوبل مستوخم يقال استوبلت البلد أى استوخمته وقد وبل المريع بالضم و بلاو و بلاو مجتوى مكروه يقال اجتويت البلد اذ كرهت المقام فيه واستوخمته وفى حديث العرنيين فاجتووا المدينة ومعناه استوبلوها واستوخموها أى كرهوها بمرض لحقهم بها وفرق بعضهم بين الاجتواء والاستيبال فقالوا الاجتواء كراهية الموضع وان وافق والاستيبال كراهية الموضع اذا لم يوافق يقول ان المرء يتقلب فى عيشه تارة مع الخير وتارة مع الشر وهذا كقوله

* وما خلا الدهر من صاب ومن عسل *

وقد قالوا الدهر يومان حلو ومر والبيت الأخير بين المعنى وقد قال التهامى

بنيت على كدر وأنت تريدها * صفوا من الاقذاء والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها ... * متطلب في الماء جذوة نار

ويشبه قول القائل

اذا أنت لم تشرب مرارا على القذا * ظمئت واى الناس تصفو مشاربه

وفي نسخة ولبعضهم وهو بديع

قالوا نهته الأربعون عن الصبا * وأخو المشيب يجور ثمت يهتدي

كم جار في ليل الشباب فدله * صبح المشيب على الطريق الأرشد

واذا عددت سنى ثم نقصتها * زمن الهموم فتلك ساعة مولدي

أردت البيت الأخير

لَمْ يَخْرُجِ الْمَرْءُ بِهَا لِنِعْمَةٍ ... وَإِنَّمَا الْقَصْدُ بِهِ أَنْ يُبْتَلَا

وَإِنَّمَا الآمَالُ فِيهَا صُوَرٌ ... تُخْلَعُ أَحْيَانًا وَحِينًا تُكْتَسَا

والعَيْشُ مَحْبُوبٌ الى كُلِّ امْرِىءٍ ... لاَ فَرْقَ بَيْنَ الشَّيْخِ فِيهِ وَالْفَتَى

قال ابن الرومي فيما يتعلق بمعنى البيت الاول من هذه الأبيات

لما تؤذن الدنيا به من صروفها * يكون بكاء الطفل ساعة يولد

والا فما يبكيه منها وانها * لأوسع مما كان فيه وأرغد

اذا ذكر الدنيا استهل كأنه * بما سوف يلقى من أذاها يهدد

وقوله وانما الآمال فيها صور الآمال جمع أمل والأمل يكون تارة بمعنى الرجاء مصدرا لقولك أملت الشيء آمله أملا أي رجوته وتارة بمعنى المأمول وأصله المصدر وهو المراد في بيت الناظم ومعنى البيت ان الآمال التي ينالها المرء في الدنيا لا يقتضي ماجبلت عليه الأيام من التلون والتقلب أن تبقى ولكنها تقبل وتدبر وتعطى ثم تسلب فهي في ذلك كالصور التي تزعم الحكماء أن الهيولى تكتسيها ثم تخلعها وتكتسي غيرها وان هذا شأنها بزعمهم وهو الذي أراد الناظم بقوله تخلع أحيانا وحينا تكتسى وللمتنبي في معنى البيت الأخير

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه * حريصا عليها مستهاما بها صبا

وقال أيضا

ولذيذ الحياة أنفس في النف * س وأشهى من أن يمل واحلى

واذا الشيخ قال أف فما مل * حياة وانما الضعف ملا

وقال الآخر والناس همهم الحياة ولا أرى * طول الحياة يزيد غير خبال

ومن ذلك حديث الشهاب يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر

والدَّهْرُ رَامٍ أَبَدًا مُبْقٍ لِمَا ... أَشْوَى وإِنْ أَصْمَى امْرَأً فَلَا شَوَى

وَلَيْسَ لِلإِنْسَانِ فِي عِيشَتِهِ ... نَفْعٌ إِذَا صِبْغُ الصِّبَا عَنْهُ نَضَا

إِنْ هُوَ لَمْ يَقْعُدْ مِنَ الضَّعْفِ جَثَى ... وَهَنًا وَانْ لَمْ يَحْبُ فِي الْمَشْيِ اعْتَصَا

يقال رمى فاشوى اذا أخطأ المقتل وقوله فلا شوى أي لا يشوى بل يصيب المقتل قال الشاعر

فان من القول التى لاشوى لها * اذا زل عن ظهر عن اللسان انفلاتها

يقول ان من القول كلمة لاشوى ولكن تقتل والشوى جلدة الرأس واليدان والرجلان وكل ماليس بمقتل والمعنى ان الدهر لايزال راميا بسهام المصائب فمن أصابته قتلته وكانت التى لاشوى لها ومن لم تصبه سلم فاشوى فى البيت معناه تخطئه السهام الى غيره ولايكون المعنى ان الدهر تخطئ سهامه من تعمدته نارة وتصيب أخرى بل لابد أن تصيب من تعمدته وقال الراجز فيما ينظر الى هذا

ان الفتى يصح للاسقام * كالغرض المنصوب للسهام

اخطأ رام وأصاب رام ويقال نصى خضابه اذا نصل وذهب لونه وير يد بصبغ الصبا سواد الشعر كما قال حبيب

أو مارأت بردى من نسج الصبا * ورأت خضاب الله وهو خضاب

ومعنى هذا البيت كقول المتنبى

آلة العيش صحة وشباب * فاذا وليا عن المرء ولى ....

وقد قال المعرى

وعيشتى الشباب وليس منها * صباى ولا ذوائبى الهجان

وكالنار الحياة فمن رماد * أواخرها وأولها دخان

يقول لست أعتد بأول عمرى حين كنت صبيا ولا بآخره وهو عصر الهرم وانما أعتد بأوسطه وهو عصر الشباب كما أن النار لا ينتفع بأولها لأنه دخان ولا بآخرها لأنه رماد وانما المنتفع به ما كان بين الطرفين وقد قال أبو اسحاق الصابى

والعمر مثل الكاس ير * سب فى أواخرها القذى

وقوله ان هو لم يقعد من الضعف جثا يقال جثا يجثو ويجثى جثوا وجثيا وحبو يحبو زحف يقال حبا الصبى على استه حبوا اذا زحف قال الشاعر

لولا السفار وجوب قفر مهمه * لتركتها تحبو على العرقوب

واعتصا تو كأ على العصا و يتعلق بمعنى هذا البيت قصيدة عوف بن محلم الحرانى التى قالها لعبدالله بن طاهر

ياابن الذى دان له المشرقان * طرا وقد دان له المغربان

ان الثمانين وبلغتها ... ... * قد احوجت سمعى الى ترجان

وقد أنشدناها قبل قال بعضهم دخلنا بوماسر من رأى على عمر بن بحر الجاحظ نعوده وقد فلج فلما أخذنا مجالسنا أتى رسول المتوكل فيه فقال وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ولعاب سائل ثم أقبل علينا فقال ماتقولون فى رجل له شقان أحدهما لوغرز بالمسال ماأحس والشق الآخر تمر به الذباب فيغوث وأكثر ماأشكوه الثمانون وقد قال الشاعر

حنتنى حانيات الدهر حتى * كأنى خاتل أدنو لصيد

قريب الخطو يحسب من رآنى * ولست مقيدا أنى بقيد

وما لأحد فى تقارب الخطو وثقل الوطئ فى المشى من الكبر أبدع مما لأبى رشيق القيروانى

وما ثقلت كبرا وطأتى * ولكن جوربت ورائى السنينا

وقد قال الشاعر

من عاش أخلقت الآيام جدته * وخانه ثقتاه السمع والبصر

وماأحسن قول أبى اسحق بن خفاجة

وقد صدئت مرآة سمعي وناظري * فما أعرف الاشياء كالعهد فيهما
فأى امرىء فى الدهر يحفظ خلة * اذا غدرا بى صاحبا وهما هما

وَخَيْرُ عَيْشِ الْمَرْءِ ماسُرَّ بِهِ وَمَنْ يَقُلْ قَوْلاً سِوَى هذا هذى
مَنْ أَقْنَعَ الحظُّ القليلُ نَفْسَهُ أَضْحَى عَنِ الحظِّ الكثيرِ ذا غِنى
وإنَّ أغنى النَّاسِ عندي عاقِلٌ أَبْدَي اقْتِناعاً بِالْقَلِيلِ واكْتَفي

يقال هذا فى منطقه يهذى و يهذو هذوا وهذيانا واما معنى البيت فمن قول الاول

* من قرعينا بعيشه نفعه *

وقد قال أبو الطيب

فلو أنى حسدت على نفيس * لجدت به لذى الجد العثور
ولكنى حسدت على حياتى * وما خير الحياة بلا سرور

وقال الآخر

يقر بعينى مايقر بعينها * ألا كل ماقرت به العين صالح

وقال الآخر

وأغبط من ليلى بما لا أناله * وأحسن شئ مابه العين قرت

وقوله من اقنع الحظ القليل نفسه البيت ينظر الى قول عبد الصمد بن المعذل

وأعلم أن بنات الرجاء * تحل العزيز محل الذليل
وان ليس مستغنيا بالكثير * من ليس مستغنيا بالقليل

والى قول أبى العتاهية

إن كان لايغنيك مايكفيكا * فكل مافى الارض لايغنيكا

وقد قال أبو ذؤيب الهذلى

والنفس راغبة اذا رغبتها * واذا ترد الى قليل تقنع

وقال مهيار الديلمى

وجد الجميم فعافه وتبقلا * وجرى له الوادى فصد وأوشلا
ورأى الكثير مع المذلة هاذما * حسب الكريم وعرضه فتقللا
تلحى على البخل الضنين بماله * أفلا تكون بماء وجهك أبخلا
أكرم يديك عن السؤال فانما * قدر الحياة أقل من أن تسألا
ولقد اضم الى فضل قناعتى * وأبيت مشتملا بها متزملا
وأرى العدو على الخصاصة شارة * تصف الغنى فيخالنى متمولا
واذا امرؤ أفنى الليالى حسرة * وأمانيا أفنيتهن توكلا
قعد المدجج وانباعن نصرتى * فعلى م أنتصر الألف الأعزلا
لو أن من ملك النوال حلاله * عز القناعة جاءنى متنولا

وقال محمود الوراق

إنى رأيت الصبر خير مغبة * فى النائبات لمن اراد معولا
ورأيت أسباب القنوع منوطة * بعرى الغنى فجعلتها لى معقلا
واذانبابى منزل جاوزته * واعتضدت منه غيره لى منزلا
واذا غلا شئ علىّ تركته * فيكون ارخص مايكون اذا غلا

وقوله وان أغنى الناس عندى عاقل البيت فى التوارة الغنية فى القناعة والسلامة فى العزلة والحرية فى رفض الشهوات ومن ذلك حديث الشهاب القناعة مال لا ينفد وقد قلت فيما يتعلق بهذا

دع الدنيا مذممة فليست * لطالبها سوى ندم وحسره
وخذمنها القليل يكن كفافا * فحسبك من غنى ماء وكسره

ولصاحبنا الخطيب القاضى ابى البركات السلمى

ودع عنك حواراهم وشواءهم * أما تعرف الملح الجريش ولا البقلا

وقال الآخر

حسب الفتى من عيشه * زاد يبلغه المحلا
خبز وماء بارد * والظل حين يريد ظلا

وقال الآخر

لأن أزجى عنى العرى بالخلق * وأكتفى من كثير الزاد بالعلق
خير وأكرم لى من ان أرى مننا * معقودة للآم الناس فى عنق

وقال محمود الوراق

من كان ذامال كثير ولم * يقنع فذاك الموسر المعسر
وكل من كان قنوعا وان * كان مقلا فهو المكثر
الفقر فى النفس وفيها الغنى * وفى غنى النفس الغنى الأكبر

وقال ابو فراس الحمدانى

ما كل مافوق البسيطة كافيا * واذا قنعت فكل شئ كاف
إن الغنى هو الغنى بنفسه * ولو أنه عارى المناكب حاف

وقال الآخر

ياأسير الطمع الراسف فى قيد الهوان * إن عز اليأس خير لك من ذل الأمانى

وقد ملح الرصافى الرفاء ماشاء فى قوله

صون الفتى وجهه أوفى بهمته * والرزق جار على حد ومقدار
قنعت فامتد مالى فالسماء يدى * ونجمها درهمى والشمس دينارى

ومن بديع ماوقع فى هذا المعنى قول بعض المشارقة واظنه ابن الخياط

لم يبق عندى مايباع بحبة * وكفاك شاهد منظرى عن مخبرى
الاصبابة ماء وجه صنتها * عن أن تباع واين اين المشترى

وقال الكاتب ابو المطرف ابن عميرة

وأصعب من ماء براق على الصدا * بيهماء ماء الوجه حين براق
ولكن اذاما كاسه عرضت على * كريم نباها عنه وهى دهاق

أردت البيت الأخير ومن ذلك قول الشاعر

لاخير فى طمع يدنى الى طبع * وغفة من قوام العيش تكفين

مَنْ ابتغي مالَمْ يُقدَّرْ كونُهُ لهُ فإنَّ مُستحيلاً ماابتغي

قدْ يُدرِكُ الحاجةَ مَنْ لمْ يَسعَ في طِلاَبِها وقدْ تفوتُ مَن سَعَى

البيت الاول يشبه قول الشاعر

ومالم يرده الله فى الأمر كله * فليس لمخلوق اليه سبيل

ومن قولهم فيما يتعلق بذلك المقدور كائن والهم فضل واذا لم يكن ماتريد فارد مايكون وقال ابو فراس الحمدانى

* دع ماتريد لماير يد فان لله الاراده *

ومن ذلك قول الشاعر

قدر الله واراد حين يقضى وروده * فارد مايكون أن لم يكن ماتريده

واما البيت الثانى فكقول الشاعر

تأتى المقيم وما سعى حاجاته * عدد الحصى ويخيب سعى الناصب

و ينظر الى قول صالح بن عبد القدوس

وليس رزق الفتى من حسن حيلته * لكن جدود بارزاق وأقسام

كالصيد يحرمه الرامى المجيد وقد * يرمى فيرزقه من ليس بالرام

والى قول الشاعر

قد يجمع المال غيرآ كله * ويأ كل المال غير من جمعه

ومن ذلك قولهم فى المثل

رب ساع لقاعد * وأبشرى أم خالد

وقال الشريف أبو الحسن الرضى

ويارب ساع فى البلاد لقاعد * على ما أرى بل كل ساع لقاعد

ولبعض المتأخرين وهو أبو اسماعيل الطغرائى

مازلت أزهد فى مودة راغب * حتى ابتليت برغبة من زاهد

ولربما نال المراد مرفه .... * لم يسع فيه وخاب سعى الجاهد

مَن كانَ سعْدُ الجدِّ مِن أعوانِهِ أظفَرَهُ اللهُ بأقصى مأرَجا

ومَنْ يخنْهُ الجدُّ لمْ ينهضْ بِهِ جِدٌّ ولَمْ يَظفرْ بأدْنى مانَوي

هذا كقول الامام محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه

الجد يدنى كل شئ شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق

فاذا سمعت بأن مجدودا حوى * عودا فأورق فى يديه فصدق

واذا سمعت بأن محروما أتى * ماء ليشربه فجف فحقق

وأحق خلق الله بالهم امرؤ * ذوهمة يبلى برزق ضيق

ولربما عرضت لنفسي حاجة * فأود منها أنني لم أخلق
ومن الدليل على القضاء وكونه * بؤس الذكي وطيب عيش الأحمق

وقول الآخر

لتعش بجد لا يضرك النو * ك ما أعطيت جدا
فالنوك خير في ظلا * ل العيش ممن عاش كدا

وقال الآخر عش بجد ولا يضرك نوك * انما عيش من ترى بالجدود

وقال الآخر ان المقادير اذا ساعدت * ألحقت العاجز بالحازم

وقال بعضهم في معنى البيت الثاني

لو وردت البحار أطلب ماء * جف عند الورود ماء البحار
أو رأى باسمي النجوم الدراري * لانزوى ضوءها عن الابصار
أو لمست العود النضير بكفي * لذوى بعد نضرة واخضرار
ولو أني بعثت القناديل يوما * أدغم الليل في بياض النهار

وخَيْرُ مَا يَدَّخِرُ المرْءُ وَما يُبْقِيهِ في أعْقابِهِ طِيبُ الثّنا

يتجه في ما من قوله وخير ما أن تكون موصولة وأن تكون نكرة موصوفة كأنه قال وخير شيء وعلى كلا الوجهين فالضمير محذوف تقديره يدخره وقد ظهر في صلة ما الثانية وهو قوله وما يبقيه وقالوا في المعنى الذي تضمنه البيت الحمد مغنم والمذمة مغرم وقال ابن دريد

وانما المرء حديث بعده * فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقال عبد الصمد بن المعذل

أرى الناس أحدوثة * فكوني حديثا حسن

وقالت الخنساء

نعف ونعرف حق القرى * ونتخذ الحمد ذخرا وكنزا

وقالت أيضا

ترى الحمد يهوي الى بيته * يرى أفضل الكسب أن يحمدا

وقال الآخر * والحمد خير لمن ينتابه عقبا *

ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه لابنة زهير بن أبي سلمى مافعلت حلة هرم بن سنان التي كساها أباك قالت أبلاها الدهر قال لكن ما كسا أبوك هرما لم يبله الدهر وقال لبعض ولد هرم بن سنان أنشدني ما قال فيكم زهير فأنشده قال لقد كان يقول فيكم فيحسن قال يا أمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنجزل قال عمر ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم

والحُرُّ لِلْحُرِّ مُعِينٌ مُنْجِدٌ لَهُ عَلى الخَطْبِ إذا الخَطْبُ عَرى

جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وقال الشاعر

أخاك أخاك ان من لا أخا له * كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء فاعلم جناحه * وهل ينهض البازي بغير جناح

وقال الآخر

ان أخاك الصدق من لن يخدعك * وان رآك طالبا سعى معك
ومن اذا ريب الزمان صدعك * بدد شمل نفسه ليجمعك

ومن كلام شبيب بن شيبة عليك بالاخوان فانهم زينة فى الرخاء وعدة فى البلاء ومن ذلك قول القطامى

واذا يصيبك والحوادث جمة * حدث حداك الى الحبيب الاوثق

ومما يليق أن يثبت فى هذا الموضع

العهد عهدان فعهد امرىء * يخاف أن يغدر أو ينقضى
رعى بظهر الغيب اخوانه * حفظا ويستقبلهم بالرضى
لو قابل السيف على حده * فى بعض ما فيه أخوه مضى
وعهد ذى لونين ملالة * يوشك إن ودك أن يبغضى
ليس له صبر على صاحب * الا قليلا ريث أن يرفضى
خلته مثل الخضاب الذى * بينا تراه قانيا اذ نضى
ان لم تزره قال قد ملنى * وبالحرى إن زرت أن يعرضى
فان أسا يوما فعاتبته * قال عفا ربك عما مضى
ولن تراه الدهر فى حالة * الا عبوس الوجه قد حمض

وكلُّ مَنْ يستَصْعِبُ السَّهْلَ فما يَسْتَسْهِلُ الصَّعْبَ إذَا أمْرٌ عَنى

عنى نزل يقال عنت به أمور أى نزلت ومعنى البيت كقول على بن أبى طالب رضى الله عنه فى خطبته اذا قلت لكم أغزوهم فى الصيف قلتم هذه حمارة القيظ وان قلت لكم فى الشتاء قلتم أنظرنا ينسلخ عنا البرد فاذا كنتم من الحر والقر تفرون فأنتم والله من السيف أفر ومن قولهم فى هذا المعنى

قبل البكاء كان وجهك عابسا وقيل أيضا قبل النعاس كنت مصفرة حكاهما أبو عبيد عن الاصمعى قال البكرى ومن جيد ما ورد فى هذا من الشعر قول الصاحب

قابوس ويحك ما أخسك ما أخصك بالعيوب * وجه قبيح فى التبسم كيف يحسن فى القطوب

مَنْ يسمعِ الجفْوَةَ فى خلٍّ وَلَمْ يَغْضَبْ لها فإنَّهُ كَمَنْ جفَا

يشبه قول الشاعر

بنى عدى ألا ينهى سفيهكم * إن السفيه اذا لم ينه مأمور

ومنه قول بعضهم من لم ينه أخاه فقد أغراه

* ومن لم يداو عليله فقد أدواه *

وقيل ايضا من ترك العقوبة فقد أغرى بالذنب وقال الشاعر

ان كنت لا ترهب ذمى لما * تعلم من صفحى عن الجاهل
فاخش سكوتى آذنا منصتا * فيك لمسموع خنا القائل
فسامع الذم شريك له * ومطعم المأكول كالآكل

أردت الصدر من هذا البيت وتمام الأبيات قوله

مقالة السوء الى أهلها * أسرع من منصدر سائل
ومن دعا الناس الى ذمه * ذموه بالحق وبالباطل
فلا تهج إن كنت ذا أربة * حرب أخي التجربة العاقل
فان ذا العقل اذا هجته * هجت به ذا خبل خابل
تبصر في عاجل شداته * عليك غب الضرر الآجل

وفي قريب منه قول أبي فراس الحمداني

وقد علم الحي حي الضبا * ب واصدق قول الفتى أفضله
بأني كففت واني عففـ * ـت وان كره الجيش ما أفعله
وذلك أني شديد الأبا * ءآكل لحمي ولا آوكله

وقال الشاعر في قريب منه

خير أخوانك المشارك في المر * وابن الشريك في المرأينا
الذي إن شهدت زانك في الأمـ * ـل وان غبت كان أذنا وعينا

وقال الآخر

أخوك الذي إن سرك الأمر سره * وان ساء أمر ظل وهو حزين
يقرب من قربته عن مودة * ويقصي الذي أقصيته ويهين

وقال الآخر

إن الصديق هو الذي * يرعاك حين تغيب عنه
واذا كشفت إخاءه * أحدث ما كشفت منه
مثل الحسام اذا انتضا * ه دوالحفيظة لم يخنه
يسعى لما تسعى له * كرما وان لم تستعنه

مَنْ لَيْسَ مَأْمُونًا بِحَالٍ ضُرُّهُ   فَنَفْعُهُ فِي حَالَةٍ لَا يُرْتَجَى

من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم إحذر وامن لا يرجى خيره ولا يؤمن شره ومن امثالهم في هذا المعنى المعزى تبهي ولا تبني تفسيره أن المعزى لا يكون منها الابنية وهي بيوت الاعراب لأنها ليس لها وبر ولا صوف وانما لها شعر والأعراب تكون أخبيتهم من الوبر والصوف ولا تكون من الشعر والمعزى مع هذا ربما صعدت الخباء فخرقته فذلك قولهم تبهي يقال أبهيت البيت اذا خرقته وهو بيت مبهي فاذا أردت أنه انخرق قلت بيث باه وقال أبو الحسن بن لنكك في عكس هذا المعنى

عديا في زماننا * عن حديث المكارم
من كفى الناس شره * فهو في جود حاتم

وَالْبُعْدُ مِمَّنْ لَا يُفِيدُ قُرْبُهُ   فَائِدَةٌ حَقِيقَةٌ أَنْ تُقْتَنَى

هذا كقول أبي العلاء المعري

والمرء مالم تفد نفعا إقامته * غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

ومثله قول الآخر

اذا لم يكن فيكن ظل ولاجنى * فأبعدكن الله من سمرات

ومثله

ولا تجزعن على أيكة * أبت أن تظلك أغصانها

ومثله قول الآخر

وبعض الرجال نخلة لاجنى لها * ولاظل الاأن تعدمن النخل

ويقرب منه قول القائل

رأيت فضيلا كان شيئاملففا * فكشفه التمحيص حتى بداليا

أأنت أخى مالم تكن لى حاجة * فان عرضت ايقنت أن لا أخاليا

فلا زاد مابينى وبينك بعدما * بلوتك فى الحاجات الاتماديا

ويقرب من هذا قول الآخر

وانى لأكره من شيمتى * زيارة خل بلا منفعه

ولا أدرى القول من قائل * اذا لم يكن منه فعل معه

ومن ضاق صدرا بأكرامنا * فلسنا نضيق بأن نقطعه

وأَنَفَةَ النّاسِ يَرَاها وَحشَةً   مَنْ أَلِفَ الوَحْدَةَ عَنهُمْ وانْزَوى

فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن من خير معايش الناس لهم رجلا آخذا بعنان فرسه فى سبيل الله ان سمع فزعة أو هيعة طار على متن فرسه يبتغى الموت أو القتل فى مظانه أو رجلا فى غنيمة له فى رأس شعفة من هذه الشعف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس الا فى خير وكان الجنيد يقول من اراد ان يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس فان هذا زمان وحشة فالعاقل من اختار الوحدة وروى بعضهم فقيل له أما تستوحش فقال ما كنت أظن ان احدا يستوحش مع الله تعالى وقيل خير الدنيا والآخرة فى الوحدة والقلة وشرهما فى الكثرة والاختلاط قلت ومن هذا المعنى ماذكر عن الأصمعى قال دفعت يوما فى تلمسى بالبادية الى واد خلاء لا أنيس به الابيت معتنز بفنائه أعنز وقد ظمئت فيممته فسلمت فاذا عجوز برزت كأنها نعامة راخم فقلت هل من ماء فقالت أولبن فقلت ما كانت بغيتى الا الماء فاذا يسر الله اللبن فانى اليه فقير فقامت الى قعب فافرغت فيه ماء ونظفت غسله ثم جاءت الى الأعنز فتغبرتهن حتى احتلبت قراب ملء القعب ثم افرغت عليه ماء حتى رغى وطفت ثمالته كأنها غمامة بيضاء ثم ناولتنى إياه فشربت حتى تحببت ريا واطمأننت فقلت أنى أراك معتنزة فى هذا الوادى الموحش والحلة منك قريب فلو انضممت الى جناتهم فأنست بهم فقالت يا ابن أخى انى لآنس بالوحشة واستريح بالوحدة ويطمئن قلبى الى هذا الوادى الموحش فاتذكر من عهدت فكأنى اخاطب أعيانهم وأترا آى اشباحهم وتتخيل لى أندية رحالهم وملاعب ولدانهم ومندى اموالهم والله يا ابن اخى لقد رأيت هذا الوادى بشع اللديدين باهل ادواح وقباب ونعم كالهضاب وخيل كالذباب وفتيان كالرماح يبارون الرياح ويحمون الصباح فاحال عليهم الجلاء قما بفرقة فاصبحت الآثار دارسة والحلال طامسة وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به ثم قالت إرم بعينيك فى هذا الملا المتباطن فنظرت فاذا قبور نحو أربعين أوخمسين فقالت أترى تلك الأجداث قلت نعم قالت ما انطوت الا على أخ أو ابن أخ أو عم وابن عم فاضحوا قد ألأمت عليهم الأرض وانا أترقب ماغالهم انصرف راشدا رحمك الله المعتنز المنفرد والراخم التى تحضن بيضها وتغبرتهن احتلبت الغبر وهو بقية اللبن فى الضرع والثمالة الرغوة وتحبب

من الماء اذا امتلاء والحلال جماعة بيوت الناس الواحدة حلة و بشع ملآن والديدان الجانبان وقا كفسا والغرفة واحدة الغرف وهى ضرب من الشجر وألمأت احتوت يقال ألمأ عليهم يلمئ ألماء فلت نقلت الحكاية بطولها استظرافا

مَنْ لَمْ يَكُنْ مُنْتَمِياً لِلْخَيْرِ لَمْ   يَكْرُمْ وإِنْ كَانَ كَرِيمَ الْمُنْتَمى

يشبه قول الشاعر

عليك بتقوى الله فى كل حالة * ولا تترك التقوى اتكالا على النسب
فقد رفع الاسلام سلمان فارس * وقد وضع الشرك الشريف أبالهب

و يقرب من ذلك قول الآخر

حسب الفتى أن يكون ذا نسب * من نفسه ليس حسبه حسبه

وقول الآخر

وقد قال قوم أعطه لقديمه * جهلوا ولكن أعطنى لتقدى

وقول الآخر

اذا ما الحى عاش بعظم ميت * فذاك العظم حى وهو ميت

وقال بعض الاشراف

لسنا وان كرمت أوائلنا ... * يوما على الاحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا * تبنى ونفعل مثل الذى فعل

وقال عامر بن الطفيل

وانى وان كنت ابن سيد عامر * وفى السر منها والصريح المهذب
فما سودتنى عامر عن وراثة * أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

وقال الآخر

نفس عصام سودت عصاما * وعلمته الكر والاقداما
« وجعلته ملكا هماما »

ومن ذلك قول أبى الطيب المتنبى

اذا لم تكن نفس النسيب كأصله * فماذا الذى تغنى كرام المناسب

مَنْ صَاحَبَ الإِنْسَانَ فى الْعُسْرِ كَما   صَاحَبَهُ فى يُسْرِهِ فَقَدْ وفى
وَمَنْ يُفَارِقْهُ اذَا مَا يُسْرُهُ   فَارَقَهُ فَما وَفَى وَلاَ رَعَى

أنشد أبو على القالى فى أماليه قال أنشدنا أبو بكر بن دريد

كم من أخ لك لست تنكره * مادمت من دنياك فى يسر
متصنع لك فى مودته * يلقاك بالترحيب والبشر
يطرى الوفاء وذا الوفاء ويلـ * ـحى الغدر مجتهدا وذا الغدر
فاذا عدا والدهر ذو غير * دهر عليك عدا مع الدهر
فارفض بإجمال مودة من * يقلى المقل ويعشق المثرى

وعليك من حالاه واحدة * فى العسر أنى كنت واليسر
لاتخلطنهم بغيرهم ... * من يخلط العقيان بالصفر

ويشبه هذا قول الشاعر

أأترك ان قلت دراهم خالد * زيارته إنى اذا للئيم

وسمع المأمون منشدا ينشد هذا البيت وهو لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير فقال لو قلت دراهم خالد إحملوا اليه مائتى الف درهم فدعا خالد بعمارة فقال هذا مطر من سحابك ودفع اليه عشرين الفا ومما يشبه البيت الأخير قول الشاعر

وكنا كغصنى بانة ليس واحد * يزول على الحالات عن رأى واحد
تبدل بى خلا فخاللت غيره * وخليته لما أراد تباعد
ولو ان كفى لم تردنى أبنتها * ولم يصطحبها بعد ذلك ساعدى
الاقبح الرحمن كل ممازق * يكون أخا فى الخفض لا فى الشدائد

وَشَرُّ ما يُمْتَحَنُ الْمَرْءُ بِهِ صُحْبَةُ مَنْ لاَ يَنْتَهِى عَنِ الأَذَى

قال أبو عبيد من أمثالهم السائرة فى الحديث والقديم الوحدة خير من جليس السوء وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال مثل الجليس السوء كالقين ان لا يحرق ثوبك بشرره يؤذيك بدخانه وقالوا اتق قرناء السوء فانك منهم بأعمالهم وقال ابو الطيب المتنبى

لعنت مقارنة اللئيم فانه * ضيف يجر من الندامة ضيفنا

وقال الآخر

لعنت مواصلة اللئيم فانه * يبدى القبيح ويكتم المعروفا

وقال الآخر

الام على التفرد كل حين * ولى فيها الام عليه عذر
وكل أذى فصبور عليه * وليس على قرين السوء صبر

قال ابن وكيع

لاتلفين مقارنا * من لا يزينك فى الصحاب
فالثوب ينفض صبغه * فيما يليه من الثياب

وفى قريب منه

لا تصحب الكسلان فى حاجاته * كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد الى الجليد سريعة * والجمر يوضع فى الرماد فيخمد

ولابى الهيدام

لى صديق هو عندى عوز * من سداد لاسداد من عوز
وجهه يذكرنى دار البلى * كلما أقبل نحوى وضمز
واذا جالسنى جرعنى * غصص الموت بكرب وعلز
يصف الود اذا شاهدنى * فاذا غاب وشى بى وهمز
كحمار السوء يبدى مرحا * فاذا سيق الى الحمل غمز

ليتني أعطيت منه بدلا * بيصني شر أولاد المعز
قد رضينا بيضة فاسدة * عوضا منه اذا البيع نجز

وقال بعضهم لاتصحب الأشرار فان طبعك يسرق من طبعهم وانت لاتدرى

وَماعلى الاخوان أشجى غصة مِن شامتٍ منتقمٍ اذا اشتفى

هذا كقول الشاعر

كل المصائب قد تمر على الفتى * فتهون غير شماتة الأعداء

وذكر أنه قيل لأيوب عليه السلام ما أشد ما مر عليك من البلاء قال شماتة الأعداء

والحرُّ بالاحسان مملوكٌ وانْ لمْ يكُ مملوكاً ببيعٍ وشرا

هذا كقول بعضهم عجبت لمن يشترى العبيد بماله كيف لايشترى الاحرار بفعاله وقال ابن دريد

حر تعبده اصطناعك عنده * والجود أحرار الرجال عبيده

منْ يُرض مخلوقاً بما لا يَرتضى إلٰهُهُ فإنهُ شرُّ الورى

هذا من قوله صلى الله عليه وسلم من التمس رضى الله بسخط الناس رضى الله عنه وارضى عنه الناس ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه واسخط عليه الناس وقد قال جامع المحاربى للحجاج بن يوسف إن صدقناك أغضبناك وان كذبناك أغضبنا الله وغضب الامير أهون علينا من غضب الله قال الحجاج صدقت

وشرُّ خَلق اللهِ مَنْ لايتقى إلٰهَهُ وَيزدَرى أهلَ التقى

قوله ويزدرى أهل التقى أى يحتقر اهل التقى يقال ازدريت الرجل اذا احقرته وأصل هذا المعنى ماتضمنته الآى الكريمة من الرد على قوم نوح حين قالوا وماراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين وقول نوح عليه السلام ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى انفسهم إنى اذا لمن الظالمين وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا حشر الناس نادى منادمن قبل العرش ليعلم أهل الموقف من اهل الكرم اليوم ليقم المتقون ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أكرمكم عند الله أتقاكم وقد نظم أبو العتاهية هذا المعنى

لافخر إلا فخر أهل التقى * غدا اذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن التقى * والبر كانا خير مايذخر

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله ومن أحب ان يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ومن أحب ان يكون أغنى الناس فليكن بما بيد الله أوثق منه بما بيده وقال أهل الأخبار ان حكيم بن حزام جاء الاسلام ودار الندوة بيده فباعها من معاوية بمائة ألف درهم فقال له ابن الزبير بعت مكرمة قريش فقال حكيم ذهبت المكارم الا التقوى

منْ لمْ يكنْ بعقلِه مُستبصراً فانما إبصارُهُ مِثلُ العمي

هذا من قوله تعالى فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس الاعمى من عمى بصره ولكن من عميت بصيرته وقال الشاعر

« القلب يدرك مالا يدرك البصر »

وقال الآخر « عمى البصائر أدهى من عمى المقل »

وليسَ مَنْ عشَى الى نارِ الهُدَى　　كَمثلِ مَنْ أعرَضَ عَنها وعشا

يقال عشوت الى النار اذا استدللت عليها ببصر ضعيف وقصدت اليها قال الحطيئة

متى تأته تعشو الى ضوء ناره « تجد خير نار عندها خير موقد

وقال بعضهم ليس ضعف البصر هنا خلقة وانما المراد أن شدة ضوء النار تعشى بصر القاصد اليها فيهتدى اليها على ذلك وعشوت عن الشئ اذا أعرضت عنه ومنه قوله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وقول الناظم كمثل من اعرض عنها وعشا لعشا هنا محملان أحدهما أن يكون من العشى و يكون أصله عشى وجاء به على لغة من يقول رضى من رضى و بقى فى بقى وعليه قراءة من قرأ فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم فيكون معنى البيت ليس من أبصر طريق الحق كمن عمى عنه وهو من قوله تعالى قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ومن قوله سبحانه وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور المحمل الثانى أن يكون من قولك عشوت عن الشئ اذا أعرضت عنه وتعاميت عن النظر اليه قال بعضهم الفرق بين عشوت عن الشئ وعشيت أنه اذا حصلت الآفة فى بصر قيل عشى واذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا ونظيره عرج لمن به الآفة وعرج لمن مشى مشى العرجان من غير عرج وعليه حمل قوله تعالى ومن يعش عن ذكر الرحمن على قراءة الضم وأما على قراءة من قرأ يعش بالفتح فهو من العشى فالمعنى فى بيت الناظم على المحمل الثانى هو المعنى المراد على المحمل الأول أوقريب منه ويكون قوله وليس من عشى الى نار الهدى يراد به من صدالى الهدى واهتدى اليه ولم تعشه أنواره وشدة وضوحه وظهوره على حسب ما تقدم تفسيره

قد يُحسَبُ النَّاصِحُ داغِش وقدْ　　يُظَنُّ ذو الغِش نَصيحاً ويرَى

هذا مأخوذ من قول الشاعر

الارب نصح يغلق الباب دونه ＊ وغش الى جنب السرير يقرب

وينظر الى قول الآخر

نصحت فلم أفلح وخانوا فأفلحوا ＊ فأنزلنى نصحى بدار هوان

وهو أيضا مثل قول الشاعر

قد ترى ناصحا يقول فيعصى ＊ وظنين المغيب يلفى نصيحا

ومثل قول الآخر

الارب من تغتشه لك ناصح ＊ ومؤتمن بالغيب غير أمين

وتمثل به أبو بكر بن الحارث بن هشام حين أشار على الحسين عليه السلام أن لا يخرج الى الكوفة فعصاه ومثله قول الشاعر

تيقنت أن رب امرىء خيل خائنا ＊ أمين وخوان يخال أمينا

وهو يشبه قول الشاعر

قد يلام البرىء من غير ذنب ＊ وتغطى من المسىء الذنوب

ومن أمثالهم فى مثل هذا أسقط به النصيحة على الظنة أى إنك تنصحه فيتهمك ومن قولهم لا يطاع لقصير أمر وهو قصير بن سعد وكان أشار على جذيمة حين خطب الزباء أن لا يفعل وسيأتى خبره وخبر جذيمة والزباء بعد هذا مستوفى

مَا أَصْلُ فِعْلِ المَرْءِ إِلاَّ رَأْيُهُ ‏ ‏ وَلَيْسَ أَصْلُ رَأْيِهِ إِلاَّ الحِجا

هذا مثل قول زيد الخيل

فلهفى على البيض الصوارم والقنا * ومرسلها والرأى من قبل ذلك

وقال أبو الطيب المتنبي

الرأى قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهى المحل الثانى
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة * بلغت من العلياء كل مكان
ولربما طعن الفتى أقرانه * بالرأى قبل تطاعن الأقران
لولا العقول لكان أدنى ضيغم * أدنى الى شرف من الانسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت * أيدى الكماة عوالى المران

وقال ابن الرومى

تتلقاهم بسيف من الفكـ * ـر ورمح من صنعة الآراء
وسيوف العقول أمضى من الصمـ * ـصام فى كف فارس الغبراء

ويروى عن على رضى الله عنه أنه قال رأى الشيخ خير من مشهد الغلام وقال بعضهم لأنا للعاقل المدبر أرجى منى للاحق المقبل وقال الشاعر

فلم أر من عدم أضر على الفتى * اذا عاش بين الناس من عدم العقل

وقال بعض الملوك لبعض وزرائه وأراد محنته ما خير ما رزقه العبد قال عقل يعيش به قال فان عدمه قال فأدب يتحلى به قال فان عدمه قال فمال يستره قال فان عدمه قال فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد وقال بعضهم فى ابن المقفع رأيت رجلا علمه أكثر من عقله ومن لم يكن عقله أغلب خلال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خلال الخير عليه فصدق ظنه فى ابن المقفع وقتل شر قتلة قطع لحمه وفصلت أعضاؤه ويروى عن أكثم بن صيفى أنه قال الأمور تتشابه مقبلة ولا يعرفها الا ذو الرأى واذا أدبرت عرفها الجاهل كما يعرفها العاقل ومنه قول الشاعر

تشابه أعناق الأمور بواديا * وتظهر فى أعقابها حين تدبر

ومثله قول شبيب بن البرصاء

لعمرى لقد أشرفت يوم عنيزة * على رغبة لو شد نفسى مريرها
تبين أعقاب الأمور اذا مضت * وتقبل أشباها عليك صدورها

وقالوا لا تكاد الظنون المتفرقة تجتمع على أمر مستور الا كشفته

والمَرْءُ فى أفْعالِهِ جارٍ على ‏ ‏ مَا أَوْجَبَ الطَّبْعُ لَهُ وَما اقْتَضى

يقول ان الانتقال عما يقتضيه الطبع عسير وقد قال أبو الطيب

يراد من القلب نسيانكم * وتأبى الطباع على الناقل

وقال الشاعر

يا أيها المتحلى غير شيمته * ان التخلق يأتى دونه الخلق

وقال الشريف أبو الحسن الموسوى الرضى رضى الله عنه

هيهات لا تتكلفن لى الهوى * فضح التطبع شمية المطبوع

وقال الآخر

كل امرىء راجع يوما لشيمته * وان تخلق أخلاقا الى حين

وقال الآخر

ومن يتكلف غير ما فى طباعه * يدعه ويغلبه على النفس خيمها

ولبعض الاندلسيين

الدهر أخون من أن يستقيم لكم * وانما جاد عن كره ولم يكد
ومن تصنع يرجع بعد آونة * الى الطباع رجوع العير للوتد

وهو أيضا يشبه قول الآخر

جرى طالبا حتى اذا قيل سابق * تداركه عرق اللئام فبلدا

وقول الآخر

وأدركه خالاته فخذلنه * ألا إن عرق السوء لابد يدرك

وقال الآخر

اذا رام التخلق جاذبته * خلائقه الى الطبع اللئيم

وقال أبو الطيب

وأسرع مفعولا فعلت تغيرا * تكلف شئ فى طباعك ضده

فاعْرِفْ سَجايا النَّاسِ وافْرِقْ بينَ مَنْ قدْ لانَ مِنْهُ عُودُهُ ومنْ قَسا

يقول لا تعامل الناس على منهج واحد وعامل كل أحد بما يصلحه من الرفق أو العنف ومن أمثالهم فى هذا المعنى ليس قطا مثل قطى أى لا يقاس الصغير بالكبير وقد قال أبو قيس بن الاسلت

ليس قطا مثل قطى ولا * المرعى فى الأقوام كالراعى

وينظر بيت الناظم الى قول الشاعر

إن الغصون اذا قومتها اعتدلت * ولن تلين اذا قومتها الخشب

ولا تُجزْ فى كلِّ منْ عاملْتَهُ حُدُودَ مايُرْجي إلى مايتقى

يقول لا تأخذ كل من عاملته بالشدة والتخويف بل عامل بذلك بعضا دون بعض بحسب ما تقتضيه أحوال الناس ومراتبهم وهو ينظر الى معنى قوله تعالى ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم وقد قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل العلاء بن الحضرمى هل تروى من الشعر شيئا فأنشده

حى ذوى الأضغان تسب عقولهم * تحيتك الحسنى فقد يرفع النغل
فان دحسوا بالكره فاعف تكرما * وان خنسوا عنك الحديث فلا تسل
فان الذى يؤذيك منه سماعه * وان الذى قالوا وراءك لم يقل

فقال النبى صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكما وروى لحكمة وقال أبو فراس

يارب مضطغن الفؤاد لقيتـه * بطلاقة فسللت مافى صـدره

وقال أيضا

لم أؤاخذك بالجفاء لأنى * واثق منك بالوفاء الصحيح

فجميل العـدو غير جميـل * وقبيح الصديق غـير قبيح

فالحرُّ والعَبْدُ الذى شِيمتهُ * شيمةَ حرٍّ بالـكلامِ يُطلى

والعَبْدُ والحرُّ الذى شِيمتهُ * شـيمةُ عبْدٍ مالهُ إلاَّ العَصا

هذا كقول بشار بن برد

* الحر يلحى والعصا للعبد *

وكقول يزيد بن مفرغ

العبد يقرع بالعصا * والحر تـكفيه الملامه

وقال الآخر

والعبـد لايطلب العـلاء ولا * يعطيك شيئا الا إذا رهبا

مثـل الحمار الموقـع السوء لا * يحسن مشيا إلا اذا ضربا

وقال أبو الطيب

العبـد ليس لحر صالح لأخ * لو أنه فى ثيـاب الحـر مولود

لاتشتر العبـد الا والعصا معـه * ان العبيـد لأرجاس مناكيد

وقال الآخر

ان العبيـد اذا أذللتهم صلحـوا * على الهوان وان أكرمتهم فسدوا

وقد زاد الناظم عليهم زيادة حسنة لأنه الحق بالحر العبد الذى شيمته شيمة الحر وذلك صحيح فقد نجد من العبيد من هو أفضل من كثير من الاحرار وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول الاسلام هل تابعك على هذا الدين أحد فقال حر وعبد يعنى أبا بكر بن أبى قحافة و بلالا رضى الله عنهما وقال سحيم عبد بنى الحسحاس

أشعار عبد بنى الحسحاس قمن له * عند الفخار مقام الأصل والورق

ان كنت عبدا فنفسى حرة كرما * أو أسود الخلق انى أبيض الخلق

وقال نصيب وكان شديد السواد

كسيت ولم أملك سوادا وتحته * قميص من القوهى بيض بنائقه

فما ضر أثوابى سوادى واننى * لـكالمسك لايسلو عن المسك ذائقه

وامتدح نصيب عبد الله بن جعفر فأمر له بخيل وابل وأثاث ودنانير ودراهم فقال له رجل أمثل هذا الأسود يعطى هذا المال فقال له عبد الله بن جعفر ان كان اسود فان شعره لأبيض وان كان زنجيا فان ثناءه لعربى ولقد استحق بما قال أكثر مما نال وهل أعطيناه الا ثيابا تبلى ومالا يفنى ومطايا تنضى وأعطانا مدحا يروى وثناء يبقى و يقال إن معاوية رحمه الله أنتبه من رقدة له فأنبه عمرو بن العاصى فقال له عمرو مابقى من لذتك قال عين خرارة فى أرض خوارة وعين ساهرة لعين نائمة فما بقى من لذتك ياأباعبد الله ان أبيت معرسا بعقيلة من عقائل العرب ثم نبهوا وردان غلام عمرو بن العاص فقال له معاوية مابقى من لذتك قال الافضال على الاخوان فقال معاوية اسكت أنا أحق بها منك قال قد أمكنك فافعل قلت وكذلك نجد من الاحرار من يذهب به اللؤم مذاهب لا يرتضيها العبد ولذلك ذهب ابن أبى عيينة فى قوله

فان قلت من رهط كرام فانه * وان كان حر الأصل عبد الشمائل

ومما يتعلق بهذا المعنى قول بعضهم

الحر عبد اذا طمع * والعبد حر اذا قنع

فارْفُقْ بِمَنْ لاَ يَصْلُحُ العُنْفُ به فَمَنْ يُداوى الضِّدَّ بالضِّدِّ شَفَا

يقول كما أن الطبيب لا يداوى المرض المتولد عن الحرارة الا بضدها من البوارد ولا المتولد عن البرد الا بضده من الحرارة كذلك ينبغى أن يعمل فى سياسة أخلاق الناس ومن ذلك ما جاء فى الحديث من أن المرأة خلقت من ضلع عوجاء فان ذهبت أن تقيمها بعنف كسرتها وقال الشاعر

هى الضلع العوجاء لست تقيمها * ألا ان تقويم الضلوع انكسارها

ولاَ تَضعْ مكانَ لِينٍ شِدَّةً فمَنْ سَطَا فى موْضعِ الحلْمِ هفَا

هفا ههنا بمعنى زل والهفوة الزلة ومعنى البيت موجود فى قول الشاعر

اذا أنت جازيت فاعمل بما * يجازى به المرء فى مرجع

ولا تتبع السيف من * قرعنه ولا تدع العفو فى موضعه

ليسَ الكِلامُ كالـكَلاَمِ مَضضاً وَلاَ الضِّرَابُ بالْعصا مثلَ العَصَا

الـكلام بكسر الـكاف جمع كلم وهو الجراحة ويسوغ أن يكون هنا مصدرا من قولهم كالمته كلاما أى جارحته وهو أنسب لذكر الضراب فى عجز البيت والـكلام بفتح الـكاف معروف والمضض الوجع وقوله ولا الضراب بالعصا مثل العصا أراد بالعصا الأولى السيف وسائر ما يقاتل به وانما ذكر العصا على جهة التمثيل وايثار الائتلاف اللفظى وليجانس بها العصا التى بها ختم البيت وفى الحديث من قوله عليه السلام يسوق الناس بعصاه وقد تخص العرب بذلك السيف الذى يسل فى الفتن عند اختلاف الـكلمة وافتراق الجماعة كما قالوا إياك أن تكون قتيل العصى أى احذر أن تكون مقتولا بسيف الفتنه ومنه قول الحجاج فى خطبته يخاطب أهل العراق والله لئن قرعت عصا عصا لأتركنكم كأمس الدابر وأما العصا التى ختم بها البيت فأراد بها السياسة والتأديب الذى هو سبب الاتفاق والانتظام وفيه العصمة من الشقاق والخلاف ويؤول الى الطاعة وانتظام الجماعة والعرب تعبر بالعصا عن ذلك ومنه ما جاء فى الحديث لا ترفع عصاك عن أهلك قالوا أراد الأدب ولم يرد العصا التى يضرب بها وذكر عن ثعلب أنه قال معناه لا تدع تأديبهم وجمعهم على الطاعة قال أبو عبيد وأصل العصا الائتلاف والاجتماع ومنه قيل للخوارج شقوا عصا المسلمين أى فرقوا جماعتهم وذكر أبو عمر المطرز أنه يقال العصا الجماعة الأمة ويقال العصا الطاعة الأمير قلت وقد قال الشاعر

اذا كانت الهيجاء وانشقت العصا * فحسبك والضحاك سيف مهند

ومنه قولهم صارت عصا بنى فلان شققا أى اختلفت كلمتهم وقال الشاعر

عصى الشمل من أسد أراها * قد انصدعت كما انصدع الزجاج

وقال الآخر

أمام له كف تضم بنانها * عصا الدين ممنوعا من البرىء عودها

والمعنى الذى أراده الناظم أن من الناس من ينفع فى تقويمه الـكلام ويجمع فيه الأدب فمن تعدى ذلك الى العنف الذى يؤول الى القتال والمضار بتوسل سيف الفتنة فقد أتى الأمر من غير مأتاه وأساء فى السياسة فان الـكلام ليس

بوجع ماتوجع الجراح ولاحسن التأديب الذى يؤول الى الطاعة والدخول فى سلك الجماعة بورث مايورث الضراب بالسيف من الفساد وصدر هذا البيت معكوس المعنى من قول امرىء القيس

فلو عن نثى (١) غيره جاءنى * وجرح اللسان كجرح اليد

ومن قول الحطيئة

وجرح السيف يغفى ثم يعفو * وجرح الدهر ماجرح اللسان

ومن قول صالح

فانك مايجرح لسانك لايعد * سليما ومانجرح بكفك يسلم

ولا يبعد ان يكون ضبط البيت ليس الكلام كالكلام مضفا بكسر الكاف فيهما معا فيراد بالاول الجارحة والمقاتلة و يكون الثانى مصدر القول لك كالم فلان فلانا اذا كانا متقاطعين ثم صارا يتكالمان أى يكلم كل واحد منهما صاحبه وذلك اذا اصطلحا وحسنت حالهما و يكون المعنى على هذا ليست المجارحة والقتال كالصلح ضد التهاجر وكحسن الحال الذى يؤول اليه القوم عقب التقاطع ولا الضراب بالسيف كالائتلاف والاتفاق والطاعة

قدْ يقصِدُ النَّفعَ فيلْقى ضِدَّهُ   مَنْ لَمْ يَمِزْ بيْنَ الصَّمِيمِ والشَّظَا

الصميم الخالص من انفس القوم والشظا ضد ذلك وهم الأتباع والدخلاء عليهم بالحلف قال الشاعر

بمصر عنا النعمان يوم تألبت * عليها تميم من شظا وصميم

يقول من لم يفرق بين اصناف الناس فيلقى الصميم بما يلقى به الشظا والشظا بما يلقى به الصميم عاد على نفسه بالضر وان قصد النفع وقد أوضح أبو الطيب هذا المعنى فقال

رأيتك محض الحلم فى محض قدرة * ولو شئت كان الحلم منك المهندا
وماقتل الاحرار كالعفو عنهم * ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا
اذا أنت أكرمت الكريم ملكته * وان أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى * مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقال الشاعر

يدنو اللئيم اذا ماكنت منقبضا * عنه ويبعد طورا حين تقترب
توهما حين تلقاه بمكرمة * أن الكرامة عن حق له يجب

وقال الشاعر

متى تسد معروفا الى غير اهله * رجعت ولم تظفر بحمد ولاشكر

لا تَدَّخِرْ غيرَ الثَّناءِ قِنْيَةً   إنَّ الثَّناءَ خيْرُ علْقٍ يُقْتَنى

اقتناء المال وغيره اتخاذه وفى المثل لاتقتن من كلب سوء جروا و يقال لما يقتنى منه قنية والعلق بالكسر النفيس من كل شئ يقال علق مضنة أى نفيس مما يضن به والجمع اعلاق وقد تكرر معنى هذا البيت قبل

واحْتَذِ حَذْوَ كلِّ ذى سماحةٍ   إنَّ السَّماحَ خيْرُ نَهْجٍ يُحْتَذَا

تقدم تفسير الاحتذى و روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله يبغض البخيل فى حياته و يحب

---

(١) النثا ما اخبرت به عن الرجل من حسن أو قبيح

السخى بعدوفانه وقال ابن المعتز الجود حارس العرض من الذم وقالوا ان الله يمتحن بالانعام عليك الا نعام منك فأفد من فائدته واستفد بفضلك من فضله وقال ابن الرومى وهو عجيب

المال يكسب ربه مالم يفض * فى الراغبين اليه سوء ثناء
كالبير ياجن ماؤها الا اذا * خبط السقاء جمامها بدلاء

وقال الآخر

فأخلف وأتلف انما المال عارة * وكله مع الدهر الذى هو آكله
فأيسر مفقود وأهون هالك * على الحى من لا يبلغ الحى نائله

وقال الآخر

وقد يأمل المرء طول البقا * ء ويبنى البناء ولا يسكنه
ورب شحيح على ماله * لأعدى عدو له يخزنه

وذكر عن بعض ملوك بنى مروان أنه كان يقول لمؤدبه لا تعلم أولادى شعر عروة فانه يعقب البخل والامساك قال وهو

ذرينى للغنى أسعى فانى * رأيت الناس شرهم الفقير
وأحقرهم وأهونهم لديهم * وان أمسى له نسب وخير
يبعده الندى وتزدريه * حليلته وينهره الصغير
وقد يلقى الغنى له جلال * يكاد فؤاد صاحبه يطير
له نعمى عليهم غير بوسى * سوى أن ماله مال كثير
قليل عيبه والعيب جم * ولكن الغنى رب غفور

ولاَ تحَالِفْ مَنْ أَبَى مُرُوءَةً ولاَ تُخَالِفْ مَنْ سَرَى وَمَنْ نَدَى
فَكَمْ نَدِي بَيْنَ النُّجُومِ مَنْ نَدَا وكمْ سَرَى بَيْنَ الدَّرَارِى مَنْ سرى

قوله لا تحالف أى لا توافقه ولا تواخه كما يوافق الحليف حليفه والحلف العهد وقد حالفه أى عاهده وفى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم حالف بين قريش والانصار أى آخى بينهم وسرى من السرو وهو سخاء فى مروءة يقال سرا يسرو وسرى بالكسر يسرى سروا فيهما وسرو وسراوة أى صار سريا وقد تقدم ذكر ذلك وندى من الندى وهو الجود ويقال فلان سن للناس الندى فندوا أى جادوا وبذلوا وقوله فكم ندى بين النجوم أى استوى مع النجوم حتى صار جليسا لها قالوا اندوت اذا حضرت الندى وهو مجمع القوم ومجلسهم وندى الثانى من الجود وقوله وكم سرى بين الدرارى من السرى وسرى الثانى من السرو كما فسر قبل وهذا على جهة التمثيل والمعنى أن الجود والسخاء يبلغ الغاية فى الرفعة كما تقول فلان بلغ الثريا وقال النابغة الجعدى

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا * وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا

وأنشده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما المظهر الذى ترجوه قال الجنة يا رسول الله قال هى لك فاستوجب بهذا البيت الجنة

فَأَنْ لَقِيتَ شِدَّةً دُونَ العُلى فالشَّهْدُ يلقى دُونَهَا حَدَّ الحُمى

الحمى جمع حمة وهى الابرة التى تضرب بها النحلة والعقرب والزنبور ونحو ذلك وأراد هنا حمة النحل يقول لا تنكر

الشدة تلقى دون العلى اذا طلبت كما ان الشهد لا يعدم طالبه أن تصيبه إبرة النحل وهو مأخوذ من قول أبي الطيب

تريدين ادراك المعالى رخيصة * ولا بد دون الشهد من ابر النحل

وقال ابن الرومي

مع الواصل الواشي وهل تجتني يد * جنى النحل الاحيث نحل يذودها

وقد ملح أبو الحكم مالك بن المرحل في قوله

ثم ان الوصل فيه محن * من وشاة وأمور تحتمل

كيف يخلو عاسل من لاسع * وحروف اللسع في لفظ العسل

ومن هذا المعنى قول القائل

لاتحسب المجد تمرا أنت آكله * لن تدرك المجد حتى تلعق الصبرا

مَنْ يدْ رِ نفع الجدّ والأقدام لم * يُحْجِم ولَمْ يخْلِدْ إلى ظلّ الونى

يقال أحجم عن الشيء وأحجم اذا كف عنه والونى الضعف والفتور ولم يخلد لم يمل وقوله تعالى ولكنه أخلد الى الأرض أى أقام فيها ومال اليها يقول لا يعلم أحد مقدار ما ينال مع التشمير والتصميم على طلب المعالى فيتركه ويسكن الى الراحة وقد أنشد القالى في أماليه أبياتا في هذا المعنى قال أنشدنا أبو عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة

خاطر بنفسك لا تقعد بمعجزة * فليس حر على عجز بمعذور

ان لم تنل في مقام ماتطالبه * فأبل عذرا بأدلاج وتهجير

لن يبلغ المرء بالاحجام همته * حتى يباشرها منه بتغرير

حتى يواصل في أنحاء مطلبها * سهلا بحزن وانجادا بتغوير

وينظر أيضا الى قول أبي الغول الطهوى

ولايرعون أكناف الهوينا * اذا حلوا ولا روض الهدون

وقال الآخر

والهون في ظل الهوينا كامن * وجلالة الاخطار في الاخطار

وقال الآخر

وخل الهوينا للضعيف ولا تكن * نؤوما فان الحزم ليس بنائم

ولما عزم المنصور على الفتك بأبي مسلم فزع من ذلك عيسى بن موسى فكتب اليه

اذا كنت ذا رأى فكن ذا تدبر * فان فساد الرأى أن يتعجلا

فوقع المنصور في كتابه

اذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة * فان فساد الرأى أن يترددا

ولا تمهل الأعداء يوما بقدرة * وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا

ومن كلام على رضى الله عنه من فكر في العواقب لم يشجع وقال سعد بن ناشب

عليكم بدارى فاهدموها فانها * تراث كريم لايخاف العواقبا

اذا هم ألقى بين عينيه عزمه * ونكب عن ذكر العواقب جانبا

ولم يستشر في أمره غير نفسه * ولم يرض الا قائم السيف صاحبا

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا * علىّ قضاء الله ما كان جالبا

لوْ نِيلَتِ العَلْيا بِلاَ مشقَّةٍ ... كانَ طِلاَبُ المجْدِ أدْنَى مبْتَغِي

هذا المعنى من قول أبى الطيب

لولا المشقة ساد الناس كلهم * الجود يفقر والأقدام قتال

وقال العتابى

وان عظيات الأمور مشوبة * بمستودعات فى بطون الأساود

ويقرب منه قول منصور النمرى

الجود أخشن مسا يابنى مطر * من أن تبزكوه كف مستلب
ما أعلم الناس أن الجود مدفعة * للذم لكنه يأتى على النشب

وقال ابن الرومى

ولقلما تلقى لمجد بانيا * الا اذا أضحى لمال هادما

ولمْ يكُنْ بينَ الوَرَى تَفاوُتٌ ... فى شِيمِ البأسِ وأخْلاَقِ النَّدَى

التفاوت التباعد يقال تفاوت الشيئان اذا تباعد ما بينهما وقال البحترى فى هذا المعنى

ولم أر أمثال الرجال تفاوتوا * الى المجد حتى عد الف بواحد

وأصله حديث الشهاب ليس شئ خيرا من الف مثله الا المؤمن

لَكِنَّ غاياتِ العُلى مِنْ دُونِها ... طُرْقٌ صِعابٌ يُتَّقى فِيها الرَّدى

هذا ينظر الى قول أبى الطيب

دريني أنل مالا ينال من العلى * فصعب العلى فى الصعب والسهل فى السهل

وقال الآخر

ودون الندى فى كل قلب ثنية * لها مصعد صعب ومنحدر سهل
وود الفتى فى كل أمر ينيله * اذا من قضى لو أن نائله جزل

وقال الآخر

وان سيادة الأقوام فاعلم * لها صعداء مطلبها طويل
أترجو أن تسود ولن تعنى * وكيف يسود ذو الدعة البخيل

وأصل هذا المعنى قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وقال الشاعر

ولله فى عرض السموات جنة * ولكنها محفوفة بالمكارة

فقدْ تَصدَّى لِلرَّدى بِجُودِهِ ... كَعْبٌ إلى أنْ ماتَ مِنْ فَرْطِ الصَّدَى

ولَمْ يُغِثْ مُهجتَهُ بالرِّيِّ بلْ ... أرْوى أخاهُ النَّمرِيَّ وسَقي

تصدى تعرض والصدى العطش وقد تقدم تفسيره

﴿ ذكر كعب بن مامة ﴾

وكعب هذا هو كعب بن مامة الأيادى وهو الذى أراد جرير بقوله

فما كعب بن مامة وابن سعدى * بأجود منك ياعمر الجوادا

وكان من أجواد العرب ومن جوده أنه آثر على نفسه بالماء حتى هلك عطشا وكان من حديثه أنه خرج فى رفقة ومعه رجل من النمر بن قاسط فقل عليهم الماء فدفعوا ما كان بقى معهم من الماء الى رجل يقسمه بينهم بالسوية فكان يضع حجرا مستديرا فى إناء ثم يصب عليه من الماء ما يغمره و يدفع الى كل رجل حظه و يسمى ذلك الحجر المقلة وذلك الفعل التصافن وقد تقدم لنا قبل هذا تفسير التصافن فكان الساقى اذا أراد أن يسقى كعبا حظه من الماء نظر النمرى الى كعب نظر راغب مستعطف فكان كعب يقول للساقى إسق أخاك النمرى فلم يزل يفعل ذلك حتى جهد كعب وضعفت قوته وهم قد قربوا من موضع الماء فبشر كعب بذلك فقيل له رد فقد وصلت الى الماء فلم يكن به نهضه فخر ميتا فقال فى ذلك أبو مامة وقيل بل قاله أبو دؤاد

ما كان من سوقة أسقى على ظمأ * خمرا بماء اذا ناجودها بردا

من ابن مامة كعب ثم عى به * زو المنية الا حرة وقدا

أوفى على الماء كعب ثم قيل له * رد كعب إنك وراد فما وردا

وقدا أتى على زنة فعلى من التوقد وهو الوقدا و يقال فلان زو فلان اذا لزق به والى خبر كعب بن مامة هذا اشار أبو تمام فى قوله

كعب وحاتم اللذان تقاسما * خطط العلى من طارف وتليد

هذا الذى خلف السحاب ومات ذا * فى الجود ميتة خضرم صنديد

الا يكن فيها الشهيد فقومه * لا يسمحون له بألف شهيد

وكان كعب اذ جاوره رجل فمات وداه وان هلك له بعير أو شاة أعطاه مثله فجاوره أبو دؤاد الأيادى الشاعر وكان يفعل ذلك له فصارت العرب اذا حمدت جار الحسن جواره قالوا كجار أبى دؤاد قال الشاعر

أطوف ما أطوف ثم آوى * الى جار كجار أبى دؤاد

وكان الفرزدق قد سافر فى ركب فقل عندهم الماء فتصافنوه وسامه رجل من العنبر بن تميم أن يؤثره بحظه من الماء ففعل ذلك الفرزدق وكان جوادا ثم سامه أن يؤثره مرة أخرى فأبى وقال فى ذلك

ولما تصافنا الاداوة اجهشت * الى غضون العنبرى الجراضم

وجاء بجلمود له مثل رأسه * ليسقى عليه الماء بين الصرائم

وآثرته لما رأيت الذى به * على القوم أخشى لاحقات الملاوم

على ساعة لو أن فى القوم حاتما * على جوده ماجاد بالماء حاتم

وكنا كأصحاب ابن مامة إذ سقى * أخا النمرى العطشان يوم الضجاعم

اذا قال كعب هل رويت بن قاسط * يقول له زدنى بلال الحلاقم

فكنت ككعب غير أن منيتى * تأخر عنى يومها بالأخارم

والشعر أطول من هذا خفض حاتما فى البيت الرابع على البدل من الضمير فى جوده و يروى هذا البيت

على ساعة لو أن فى القوم حاتما * على جوده ضنت به نفس حاتم

وقوله أجهشت هو من التسرع وما تراه فى نحو امن مقاربة الشئ يقال أجهش بالبكاء والغضون التكسر فى الجلد والجراضم الاحمر المتلئ والصرائم جمع صريمة وهى الرملة التى تنقطع من معظم الرمل

وقد تصدّى للردى ربيعة حتى حمى من ظعنه ما قد حمي

الظعن جمع ظعينة وهى المرأة فى الهودج فاذا لم تكن فيه فليست بظعينة وتجمع على ظعن وظعائن واظعان ويخفف ظعن فيقال فيه ظعن والردى الهلاك

﴿ ذكر ربيعة بن مكدم ﴾

وربيعة هذا هو ربيعة بن مكدم أحد بنى فراس بن غنم وكان فارس العرب وأبوه هو مكدم بن عامر بن جدبان بن جذيمة بن علقمة بن فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة وكان بنو فراس بن غنم مشهورين بالبسالة والفروسية وهم الذين عنى على بن أبى طالب رضى الله عنه فى خطبته التى وبخ فيها جنده روى أن عليا رضى الله عنه قام فيهم خطيبا فقال أيها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم كلامكم يوهى الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم عدوكم تقولون فى المجالس كيت وكيت فاذا جاء القتال قلتم حيدى حياد ما عزت دعوة من دعاكم ولا استراح قلب من قاساكم أعاليل بأضاليل سألتمونى التأخير دفاع ذى الدين المطول هيهات هيهات لا يمنع الضيم الذليل ولا يدرك الحق الا بالجد أى دار بعد داركم تمنعون أم مع أى امام بعدى تقاتلون المغرور والله من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع فى نصركم فرق الله بينى وبينكم وأعقبنى بكم من هو خير منكم لوددت أن لى بكل عشرة منكم رجلا من بنى فراس بن غنم صرف الدينار بالدرهم وكان من حديث ربيعة بن مكدم حين حمى الظعن ماذكره أبو عبيدة معمر بن المثنى عن أبى عمرو بن العلاء قال وقع تدارؤ بين نفر من بنى سليم بن منصور وبين نفر من بنى فراس بن مالك بن كنانة فقتلت بنو فراس رجلين من بنى سليم بن منصور ثم انهم ودوهما ثم ضرب الدهر من ضربه فخرج نبيشة بن حبيب السلمى غازيا فلقى ظعنا من بنى كنانة بالكديد فى ركب من قومه قال وبصر بهم نفر من بنى فراس بن مالك فيهم عبد الله بن جذل الطعان والحارث بن مكدم أبو الفرعة ويقال أبو الفارعة وأخوه ربيعة بن مكدم وأبو الفارعة مجدور يومئذ فحمل فى محفة فلما رآهم قال أبو الفارعة هؤلاء بنو سليم يطلبون دماءهم فقال أخوه ربيعة بن مكدم أنا أذهب حتى أعلم علم القوم فآتيكم بخبرهم قال فتوجه نحوهم فلما ولى قال بعض الظعن هرب ربيعة فقالت أخته أم عمرو بنت مكدم أين تنتهى نهزة الفتى فعطف وقد سمع قول النساء فقال

لقد علمن أننى غير فرق * لأطعنن طعنة وأعتنق

وأصبحنهم حين تحمر الحدق * عضبا حساما وسنانا يأتلق

قال ثم انطلق تعدو به فرسه فحمل عليه بعض القوم فاستطرد له فى طريق الظعن وانفرد به رجل من القوم فقتله ربيعة ثم رماه نبيشة بن حبيب السلمى أو طعنه فى عضده فى مأبض يده فلحق بالظعن يستدمى حتى انتهى الى أمه أم سيار فقال لها شدى على يدى عصابة وطفق يقول

شدى على العصب أم سيار * فقد رزئت فارسا كالدينار

يطعن بالرمح امام الأدبار

فاجابته أمه فقالت

إنا بنو ثعلبة بن مالك * مرزؤ خيارنا كذلك

من بين مقتول وبين هالك * ولا يكون الرزء الا ذلك

قال أبو عمرو فشدت عليه أمه عصابا وأستسقاها ماء فقالت لا فانك إن شربت الماء مت فكر على القوم فكر راجعا فجمل يشد على القوم ونزفه الدم حتى أثخن فقال للظعن أوضعن ركابكن حتى تنتهين الى ادنى بيوت الحى فانى لمابى سوف أقف دونكن لهم على العقبة وأعتمد على رمحى ولن يقدموا عليكم لمكانى قال ففعلن فنجون وصرن الى مأمنهن قال أبو عبيدة قال أبو عمرو فلا نعلم قتيلا ولا ميتا حمى ظعائن غيره قال وانه يومئذ غلام له ذؤابة قال فاعتمد على رمحه وهو واقف لهن على متن فرسه حتى بلغن مأمنهن ولقد مات وما يقدم القوم عليه قال فقال نبيشة بن حبيب أنه لمائل العنق على رمحه وما أظنه الا قد مات فأمر رجلا من خزاعة كان معه أن يرمى فرسه فرمى فرسه فقمصت وزالت فمال عنها ميتا ويقال بل الذى رمى فرسه نبيشة فانصرفوا عنه وقد فاتهم الظعن واخفق السلميون قال ولحق يومئذ أبو الفرعة الحارث بن مكدم فقتلوه قال أبو عمرو بن العلاء وأمالوا على ربيعة أحجارا فمر به رجل من بنى الحارث بن فهر فنفرت ناقته من تلك الأحجار التى أميلت على ربيعة فقال يرثيه ويعتذر الا يكون عقر على قبره ويحض على قتلته ويعير من فر واسلمه من قومه فقال فى ذلك

نفرت قلوصى من حجارة حرة * بنيت على طلق اليدين وهوب

لا تنفرى يا ناق منه فانه * سباء خمر مسعر لحروب

لولا السفار وبعد خرق مهمه * لتركتها تحبو على العرقوب

فر الفوارس عن ربيعة بعد ما * نجاهم من غمة المكروب

ويروى فر الزعانف والزعانف اللئام الذين لا خير فيهم مأخوذ من زعانف الأديم وهو ما حوله من أطرافه

يدعو عليا حين أسلم ظهره * فلقد دعوت هناك غير مجيب

يعنى على بن مسعود الأزدى وهو أخو عبد مناة بن كنانة وكان على بن مسعود قد حضن ولد عبد مناة بن كنانة فنسبوا اليه وليس هو لهم بأب

نعم الفتى أدى نبيشة بزه * يوم الكديد نبيشة بن حبيب

لا يبعدن ربيعة بن مكدم * وسقى الغوادى قبره بذنوب

قال أبو عبيدة ويقال ان الذى قال هذا الشعر ضرار بن الخطاب بن مرداس أخو بنى محارب بن فهر وقال آخرون بل هو لحسان بن ثابت الأنصارى وقال عبد الله بن جذل الطعان فى ذلك

ألا لله در بنى فراس * لقد أورثتم حربا وجيعا

غداة ترى ربيعة فى مكر * تمج عروقه علقا نجيعا

فان أنسى ربيعة اذ تعالى * بكاء الظعن تدعو يا ربيعا

وقال عبد الله بن جذل الطعان يتوعد بنى سليم

لست لحاضن ان لم أزركم * كتائب من كنانة كالصريم

على قب الأياطل مضمرات * أضر بنيها علك الشكيم

الصريم هنا الليل والشكيم حديد اللجام والنبى الشحم قلت وقد كان ربيعة حمى ظعينته فى يوم غير هذا من دريد ابن الصمة وفوارس له وربيعة يومئذ وحده وذلك أن دريد بن الصمة خرج فى فوارس من بنى جشم حتى اذا كانوا فى واد لبنى كنانة يقال له الأخرم وهم يريدون الغارة على بنى كنانة رفع له رجل فى ناحية الوادى معه ظعينة فلما نظر اليه قال لفارس من أصحابه صح به خل الظعينة وانج بنفسك وهم لا يعرفونه فانتهى اليه الفارس فصاح به والح عليه فلما أبى ألقى زمام الراحلة وقال للظعينة

سيرى على رسلك سير الآمن * سير رداح ذات جأش ساكن
إن انثنائى دون قرنى شائن * أبلى بلائى وأخبرى وعاينى

ثم حمل عليه فصرعه وأخذ فرسه وأعطاه الظعينة فبعث دريد فارسا آخر لينظر ماصنع صاحبه فلما انتهى اليه ورآه صريعا صاح به فتصام عنه فظن أنه لم يسمع فغشيه فألقى زمام الراحلة الى الظعينة ثم رجع وهو يقول

خل سبيل الحرة المنيعه * أنك لاق دونها ربيعه
فى كفه خطية مطيعه * أولى فخذها طعنة سريعه
* والطعن منى فى الوغى شريعه *

ثم حمل عليه فصرعه فلما أبطأ على دريد بعث فارسا ثالثا لينظر ماصنعا فلما انتهى اليهما رآهما صريعين ونظر اليه يقود ظعينته ويجر رمحه فقال له خل سبيل الظعينة فقال للظعينة اقصدى قصد البيوت ثم أقبل عليه فقال

ماذا تريد من شتيم عابس * ألم تر الفارس بعد الفارس
* أرداهما عامل رمح يابس *

ثم حمل عليه فصرعه وانكسر رمحه وارتاب دريد وظن أنهم قد أخذوا الظعينة وقتلوا الرجل فلحق ربيعة وقد دنا من الحى ووجد أصحابه قد قتلوا فقال أيها الفارس ان مثلك لا يقتل ولا أرى معك رمحا والخيل ثائرة بأصحابها فدونك هذا الرمح فانى منصرف الى أصحابى فثبطهم عنك فانصرف دريد وقال لأصحابه إن فارس الظعينة قد حماها وقتل فرسانكم وانتزع رمحى ولا مطمع لكم فيه فانصرفوا فانصرف القوم فقال دريد

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * حامى الظعينة فارسا لم يقتل
أردى فوارس لم يكونوا نهزة * ثم استمر كأنه لم يفعل
متهللا تبدو أسرة وجهه * مثل الحسام جلته كف الصيقل
يزجى ظعينته ويسحب ذيله * متوجها يمناه نحو المنزل
وترى الفوارس من مخافة رمحه * مثل البغاث خشين وقع الأجدل
ياليت شعرى من أبوه وأمه * ياصاح من يك مثله لايجهل

يقال البغاث والبغاث بفتح الباء وكسرها والفتح أكثر وأشهر وقال ربيعة

ان كان ينفعك اليقين فسائلى * عنى الظعينة يوم وادى الأخرم
إذهى لأول من أتاها نهزة * لولا طعان ربيعة بن مكدم
اذ قال لى أدنى الفوارس ميتة * خل الظعينة طائعا لاتندم
فصرفت راحلة الظعينة نحوه * عمدا ليعلم بعض مالم يعلم
وهتكت بالرمح الطويل إهابه * فهوى صريعا لليدين وللفم
ومنحت آخر بعده جياشة * نجلاء فاغرة كشدق الأضجم

الأضجم المائل الشدق يعنى الطعنة

ولقد شفعتهما بآخر ثالث * وأبى الفرارلى الغداة تكرم

ثم لم يلبس بنو كنانة أن أغارت على بنى جشم فقتلوا وأسروا دريد بن الصمة فاخفى نفسه فبيناهو عندهم محبوس اذا جاءه نسوة يتهادين اليه فصرخت أحداهن وقالت هلكتم واهلكتم ماذا جرعلينا قومنا هذا والله الذى أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة ثم ألقت عليه ثوبها وقالت يالفراس أنا جارة له منكم هذا صاحبنا يوم الوادى

فسألوممن هو فقال أنادر يدبن الصمة نحن ضائحي قالوا ربيعة بن مكدم فقال فافعل فقالوا قتلته بنوسليم قال فما فعلت الظعينة قالت المرأة أناهيه وأنا امرأته فحبسه القوم ووامروا أنفسهم فقال بعضهم لا ينبغي لدريد أن تكفر نعمته على صاحبنا وقال آخرون والله لا يخرج من ايدينا الا برضى المخارق الذى اسره فانبعثت المرأة بالليل وهى ريطة بنت جذل الطعان تقول

سنجزي دريدا عن ربيعة نعمة * وكل امرئ يجزى بما كان قدما
فان كان خيرا كان خيرا جزاؤه * وان كان شرا كان شرا مذمما
سنجزيه نعمى لم تكن بصغيرة * باعطائه الرمح الطويل المقوما
فقد ادركت كفاه فينا جزاءه * واهل بان يجزى الذى كان انعما
فلا تكفروه حق نعماه فيكم * ولا تركبوا تلك التى تملأ الفما
فلو كان حيالم يضق بثوابه * ذراعا غنيا كان أو كان معدما
ففكوا دريدا من اسار مخارق * ولا تجعلوا البؤسى الى الشمر سلما

فلما أصبحوا أطلقوه فكسته وجهزته ولحق بقومه فلم يزل كافا عن غزو بنى فراس حتى هلك

وَطَاعَنَ الخَيْلَ دُرَيْدٌ عَنْ أَبِي ذُفَافَةٍ حَتَّى انْثَنَي وَهُوَ لَقًا

اللقى الشئ الملقى لهوانه

﴿ ذكر دريد بن الصمة وأبى دفافة أخيه وما كان من حديثهما يوم اللوا ومقتل أبى دفافة ﴾

ودريد هذا هو دريد بن الصمة وابو دفافة أخوه عبدالله وكان لعبدالله ثلاثة أسماء وثلاث كنى كان اسمه عبدالله ومعبدا وخالدا ويكنى أبا فرعان وأبا أوفى وأبا دفافة والصمة هو الحارث بن بكر بن جشم بن معاوية بن بكر هوازن ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن غيلان وكان من حديثهما ما ذكره أبو عبيدة قال غزى عبدالله بن الصمة بن الحارث أخو دريد بن الصمة الجشمى ببنى جشم ونصر أبنى بكر بن هوزان غطفان فلم يرده عن وجهه شئ حتى غنم وساق الابل فلما كان بمنقطع اللوا قال لا والله لا أبرح حتى أنتقع وأربع وأجيل السهام قلت قوله انتقع من النقيعة وهو طعام القادم ويقال نقعت النقيعة وانقعت وانتقعت أى نحرت وأربع آخذ ربع الغنيمة وكذلك كان حكمهم فى الجاهلية يأخذه رئيس الجيش قال الشاعر

لك المرباع منا والصفايا * وحكمك والنشيطة والفضول

قال أبو عبيدة فقال له دريد أخوه وكان معه بابى أنت وأمى لا تفعل فان القوم لن يتركوا طلبك فأبى ولج فأقام ونحر النقيعة وثارت الدواخن وقد أقعد رجلا ربأه فقال عبدالله ربيئته انظر ماترى فقال أرى خيلا عليها رجال كانهم الصبيان رماحهم بين آذان خيولهم قال هذه فزارة ولا بأس ثم قال انظر ماترى قال أرى قوما كأن ثيابهم غمست فى الجاب قال هذه أشجع ليست بشئ الجاب المغرة وهى المكر ومنه قول أبى زبيد الطائى حين وصف الاسد كأنما بات بمكر أى يطلى بالمغرة من كثرة الدماء ثم قال عبدالله ربيئته انظر ماترى فقال أرى قوما سودا يقلعون خيولهم ببوادهم يخدون الأرض بأقدامهم خداو يخدونها برماحهم قال عبدالله هذه عبس أتاكم الموت الزؤام فاثبتوا قال فأقبلوا فالتقى القوم وقد كان دريد نهاه ان يقيم وقال ان القوم سيطلبونك ويتبعونك فاجلوا أى أسرع حتى تأتى قومك ولن تفوتك النقيعة فابى عليه قال أبو عبيدة فاقتتلوا قتالا شديدا فطعن عبدالله بن الصمة فاستغاث بأخيه فأقبل اليه أخوه دريد فنهنه القوم عنه حتى طعن دريد فصرع وقتل عبدالله

وانصرف القوم عنهما صريعين لايشكون فى أن دريدا مقتول أيضا وانكفؤا بما أخذ منهم حتى اذا كان فى آخر النهار مر بدريد الزهدمان العبسيان فعرفه أحدهما فقال هذا والله دريد وهما زهدم وكردم فيقال لهما الزهدمان قلت وهو مما حفظ عن العرب فى تثنية مالم يتفق فيه اللفظان كالعمرين والقمرين والحبيبين ونحو ذلك وقال ابن الكلبى الزهدمان أحدهما قيس والآخر زهدم قال أبو عبيدة قال زهدم لأخيه كردم أنزل فانظر الى حتاره فانى لأحسبه الاحيا فان تحرك فهو حى قال دريد فسمعته فشددتها قال فنزل فكشف عنى وشنجتها فلم تتحرك فنظر فقال مات ثم عاد الى فرسه فركبه فأهوى الى فطعننى فى جعباى قال وقد أصابتنى جراحة فاحتبس الدم فلما طعننى خرج ذلك الدم فوجدت لذلك أفاقة وراحة وبقيت حتى أجننى الليل ثم خرجت أدب ومرت بى جماعة تسير فدخلت فيهم فصرت بين عرقوبى جمل عليه امرأة فنفر البعير فصاحت المرأة وقالت أعوذ بالله منك من أنت قال فقلت بل من انتم قالوا أناس من هوازن سيارة فقلت لهم أنا دريد بن الصمة فحملونى وغسلوا عنى الدم وأحسنوا الى وداوونى حتى برأت ثم أتيت قومى فقال دريد يذكر أخاه عبدالله ويرثيه

أرث جديد الحبل من أم معبد * بعاقبة وأخلفت كل موعد

يقول فيها

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوا * فلم يستبينوا الرشد الاضحى الغد
وقلت لهم أن الأحاليف كلها * قعود على ماء التليل فثهمد
وقلت لهم ظنوا بالفى مدجج * سراتهم فى السابرى المسرد
فلما عصونى كنت منهم وقد ارى * غوايتهم وأننى غير مهتد
وهل أنا الامن غزية أن غوت * غويت وان ترشد غزية أرشد
ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا * وآنست عبد الله يلمع باليد
فان تعقب الأيام والدهر تعلموا * بنى قارب أنا غضاب بمعبد
فنادو فقالوا أردة الخيل فارسا * فقلت أعبد الله ذالكم الرد
فان يك عبد الله خلى مكانه * فما كان وقافا ولاطائش اليد
كميش الأزار خارج نصف ساقه * صبور على اللاواء طلاع أنجد
صبا ماصبا حتى على الشيب رأسه * فلما رآه قال للباطل أبعد
صبور على رزء المصائب حافظ * من اليوم ادبار الأحاديث فى غد
فما رفعت من حاضن ستر بيتها * على مثل عبدالله أندى وأنجد
وهوّن وجدى أننى لم أقل له * كذبت ولم أبخل بما ملكت يدى
دعانى ابوفرعان والخيل دونه * فلما دعانى لم يجدنى بقعدد
فلما دعانى والرماح ينشنه * كوقع الصياصى فى النسيج الممدد
فكنت كام البو ريعت فاقبلت * الى خدم من مسك سقب مجلد
فلا يبعدنك الله حيا وميتا * ومن يعله ركن من الأرض يبعد

وقال دريد

أبا دفافة من للخيل اذ طردت * واضطرها الطعن فى رعف وايجاف
يافارسا ماأبو أوفى اذا شغلت * كلتا اليدين كرورا غير وقاف

قال أبو عبيدة فلما كان من العام المقبل غزاهم دريد وفقد هيأ وقام برياسة أخيه فى بنى جشم قال فغزى غطفان

وفزارة وعبسا ومرة واشجع وثعلبة فالتقوا بذات الرمث والارطى فاقتتلوا قتالا شديدا فشد دريد على ذؤاب ابن أسماء فقتله باخيه قال أبو عبيدة وكان من فرسانهم وسيدا مطاعا فيهم فقال دريد فى ذلك

* قتلت بعبد الله خير لداته * ذؤاب بن اسماء بن زيد بن قارب * قال فانشد عبد الملك رحمه الله هذا البيت من قول دريد فقال كاد دريد يبلغ بنسبه آدم فلما أنشد قوله

ولولا سواد الليل ادرك ركضنا * بذى الرمث والأوطى عياض بن ناشب

فقال عبد الملك ليت الليل امهله قليلا ويقال بل قال وددت أنه لو كان بقى عليه فواق من النهار قلت والشعر أطول من هذا

إِنَّ احْتِيَاطَ الْمَرْءِ فِى أَفْعَالِهِ رَأْيٌ يُؤَدِّيهِ إِلَى سُبْلِ الْهُدَى

وَكُلُّ أَمْرٍ قَدْ أُضِيعَ الْحَزْمُ فِى بَدْأَتِهِ فَهُوَ كَرِيهُ الْمُنْتَهَى

الحزم الأحتزام يقال رجل له حزم إذا كان متأهبا مجتمع الآخر فهو له كالحزام للفرس من امثال العرب عش ولا تغتر وروى هذا المثل عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وذلك أن رجلا أتاهم فقال كما لا ينفع مع الشرك عمل كذلك لا يضر مع الأيمان ذنب فكلهم قال عش ولا تغتر يقولون لا تفرط فى اعمال البر وخذ فى ذلك بأوثق الأمور فان كان الشأن هنالك على ماترجو من الرخصة والسعة كان ما كسبت زيادة فى الخير وان كان على ما تخاف كنت قد احتطت لنفسك واصل هذا المثل فى ما يقال ان رجلا أراد ان يفوز بابله عند الليل وأتكل على عشب يجده هناك فقيل له عش أبلك ولا تغتر لانك لست على يقين منه فصار مثلا لكل شئ يؤخذ فيه بالوثائق وقال الاصمعى فى مثل ذلك أن ترد الماء بماء أكيس يقول لأن يكون معك فضل ترد به على ماء آخر خير من أن تفرط فى حمله ولعلك تهجم على غير ماء وقالوا فى مثله برد غداة غر عبدا من ظما وكان أصل ذلك انه خرج فى برد أول النهار ولم يتزود الماء لما رأى من روح النهار فلما حميت عليه الشمس بالفلاة هلك عطشا ومن الأخذ بالجد والحزم الحديث المرفوع حين قال له صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه أأرسل ناقتى وأتوكل قال قيدها وتوكل وقريب من معنى البيت الثانى ما أنشدناه قبل من قول أبى الطيب

الرأى قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهى المحل الثانى

لَوْ هُدِيَ الْوَضَّاحُ نَهْجَ رُشْدِهِ لَمَا عَصَا رَأْيَ قَصِيرٍ فِى الْعَصَا

﴿ ذكر جذيمة الوضاح وقصير بن سعد ﴾

الوضاح هو جذيمة بن مالك بن فهم بن الأوس بن الازد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن يشجب ابن يعرب بن قحطان وقال ابن الكلبى أن جذيمة من العرب الأولى من بنى أياد بن أميم وكان فى أيام الطوائف وقال أبو عبيد كان جذيمة بعد عيسى صلوات الله عليه بثلاثين سنة وكان قد ملك شاطئ الفرات الى ماوالى ذلك الى السواد ستين سنة وكان يكنى بابى مالك وكان الملك قبل جذيمة أباه وهو أول من ملك الحيرة قلت وذكروا أنه كان ابرص فهابت العرب ان تصفه بذلك فقالوا الأبرش والوضاح وقيل سمى الأبرش لأنه اصابه حرق نار فبقى أثره نقطا سودا وحمرا وقصير هو قصير بن سعد اللخمى وكان من حديثهما أن جذيمة الوضاح قتل أبا الزباء وغلب على ملكه والجأ الزباء الى أطراف مملكتها وكان يغير على ملوك الطوائف حتى غلبهم على كثير مما فى أيديهم

وهو أول من أوقد بالشمع ونصب المجانيق للحرب واول من اجتمع له الملك بارض العراق وكانت الزباء عاقلة أديبة فبعثت اليه تخطبه على نفسها ليتصل ملكه بملكها فدعته نفسه لذلك فشاور وزراءه في ذلك فكل أشار عليه أن يفعل الاقصير بن سعد فانه قال له أيها الملك لا تفعل فان هذه خديعة ومكر فعصاه وأجابها الى ما سألت فقال قصير عند ذلك لا يطاع لقصير رأى وقيل امر فارسلها مثلا ولم يكن قصيرا ولكن كان أسمه ثم كتبت اليه أن سر الى لجمع أصحابه ببقة وهي قرية على الفرات فشاور وزراءه فاشاروا عليه بمثل المشورة الاولى فقال قصير أيها الملك أما اذا عصيتني فاذا رأيت جندها قد أقبلوا اليك فان ترجلوا وحيوك ثم ركبوا وتقدموا فقد كذب ظني وان رأيتهم اذا حيوك طافوا بك فاني معرض لك العصى وهي فرس كانت لجذيمة لا تدرك فاركبها وأنج فلما أقبل جيشها حيوه ثم طافوا به فقرب اليه قصير العصا فشغل عنها فركبها قصير فنجا فنظر جذيمة الى قصير على العصا قد حال دونه السراب فقال ماذل من جرت به العصا فارسلها مثلا وأدخل جذيمة على الزباء وكانت قد ربت شعر عانتها حولا فلما دخل كشفت له فقالت أمتاع عروس ترى يا جذيمة قال بل متاع أمة بظراء فقالت أما أنه ليس من عدم المواس ولا من قلة الأواس ولكنها شيمة ما أقاسي فأمرت به فأجلس على نطع ثم أمرت برواهشه فقطعت وقد كان قيل لها احتفظي بدمه فانه ان أصاب الأرض قطرة من دمه طلب بثاره فقطرت قطرة من دمه في الأرض فقالت لا تضيعوا دم الملك فقال جذيمة دعوا دما ضيعه أهله ومات وقيل أنه هو الذي بعث اليها يخطبها فكتبت اليه إني فاعلة ومثلك يرغب فيه فاذا شئت فاشخص الى لجمع عند ذلك جذيمة وزراءه واستشارهم كما تقدم

وَلَوْ غَدَا سَمِيُّهُ مُوَفَّقَا   لَمْ يُلْقِهِ هَوَاهُ فِي بَعْضِ الْهُوَى

يقال فلان سمي فلان اذا وافق اسمه اسمه كما تقول هو كنيه وقوله تعالى هل تعلم له سميا قيل معناه هل تعلم له نظيرا يستحق مثل اسمه وقيل مساميا يساميه والهوى بفتح الهاء هوى النفس يقال هوى بالكسر يهوى هوى اذا أحب والهوى بضم الهاء جمع هوة وهي الوهدة العميقة والأهوية على أفعولة مثل الهوة والهاء في سميه عائدة على جذيمة الوضاح وانما أراد بالسمي وضاح اليمن اذ اشترك معه في التسمية بالوضاح

﴿ ذكر وضاح اليمن ﴾

وهو عبد الله بن اسماعيل بن عبد كلال الحميري وقد قيل في نسبه غير ذلك وسمي الوضاح لجماله وذلك أنه كان أجمل من في زمانه وذكر أن وضاح اليمن هذا والمقنع الكندي وأبا زبيد الطائي كانوا يردون مواسم العرب مقنعين لئلا تصيبهم العين لجمالهم وزعموا أن أباه اسماعيل من أولاد حوار بن عمر والحميري وأنه مات ووضاح طفل فانتقلت أمه الى أهلها فلما انقضت عدتها تزوجت رجلا من أهلها من أولاد الفرس وشب وضاح في حجره فجاء عمه وجدته أم أبيه ومعهم جماعة من أهل بيته من حمير يطلبونه فأدعى زوج أمه أنه ولده فحاكموه فيه وأقاموا البينة وأنه ولد على فراش اسماعيل بن عبد كلال فحكم لهم به فلما حكم به الحاكم للحميريين مسح يده على رأسه وأعجبه جماله ثم قال له اذهب فأنت وضاح اليمن لا من أتباع ذي يزن فعلقت به هذه الكلمة من يومئذ وقد قيل أنه من أبناء الفرس وهو أحد شعراء الدولة الأموية وكان قد مدح الوليد بن عبد الملك فأحسن رفده وأجزل جائزته ثم نمي اليه أنه شبب بأم البنين زوجته فجفاه وحبسه ودبر في قتله حسبما نأتي بعد بحديثه وكانت صاحبته روضة بنت عمرو اليمنية وهي التي أراد بقوله

قالت الا لاتلجن دارنا * ان أبانا رجل غائر
فقلت إني طالب غرة * منه وسيفي صارم باتر
قالت فان القصر من دوننا * قلت فاني فوقه ظاهر
قالت فان البحر من دوننا * قلت فاني سابح ماهر
قالت فحولي اخوة سبعة * قلت فاني غالب قاهر
قالت وليث بيننا رابض * قلت فاني أسد خادر
قالت فان الله من فوقنا * قلت فربي راحم غافر
قالت لقد أعييتنا حجة * فأت اذا ما هجع السامر
واسقط علينا كسقوط الندا * ليلة لا ناه ولا زاجر

وكان من حديث وضاح اليمن وسبب قتله ماحكى من أن الوليد بن عبد الملك أهدى له جوهر له قيمة فأعجبه واستحسنه فدعى خصياله فبعث بمعه الى زوجه ام البنين وقال قل لها ان هذا الجوهر اعجبني فآثرتك به فدخل الخصي عليها فجأة ووضاح اليمن عندها فبادرته فأدخلته في صندوق لها والخصي يرى فادى اليها رسالة الوليد ودفع اليها الجوهر وقال لها ياسيدتي هبي لي منه حجرا فقالت لا يا ابن اللخناء ولا كرامة فرجع الى الوليد فاخبره بما راى فقال كذبت يا ابن اللخناء وامر به فضربت عنقه ثم لبس نعليه ودخل على ام البنين وهي جالسة في ذلك البيت تمتشط وقد وصف له الخادم الصندوق فجاء فجلس عليه ثم قال ياام البنين ما احب اليك هذا البيت فقالت اجلس فيه لأنه يجمع حوائجي فقال لها هي لي صندوق من هذه الصناديق قالت كلها لك ياأمير المؤمنين قال انما أريد واحدا منها فقالت خذ أيها شئت قال هذا الذي جلست عليه قالت خذ غيره فان لي فيه أشياء أحتاج اليها قال ما أريد غيره قالت خذه ياأمير المؤمنين فدعا بالخدم وأمرهم بحمله فحملوه حتى انتهوا به الى مجلسه ثم دعا عبيد اله فأمرهم أن يحفروا بئرا في المجلس فنحى البساط وحفرت الى قرب الماء ثم دعا بالصندوق فوضع على شفير البئر ثم دنا منه وقال ياصاحب الصندوق انه بلغنا شئ فان كان حقا فقد كفناك ودفناك ودفنا أثرك وذكرك وقطعنا خبرك الى آخر الدهر وان كان باطلا فانا دفنا الخشب وما أهون علينا ذلك ثم قذف به في البئر وهيل عليه التراب وسويت الأرض وسطحت ورد البساط الى حاله وجلس الوليد عليه فزعموا أنه ما رىء بعد لوضاح اليمن أثر في الدنيا قالوا ومارأت أم البنين لذلك أثرا في وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما قات فتلك البئر هي الهوة التي أشار اليها الناظم

وَلَوْ غَدَا مُسَاعِداً لِقَوْمِهِ ... فِي الرَّأْيِ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ لَنَجَا

﴿ ذكر عمرو ابن سعيد ﴾

عمرو وهذا هو عمرو بن سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وقد تقدم ذكر أبيه سعيد وهو الذي يقال له الأشدق ويقال له لطيم الشيطان وذلك لأنه كان مائل الشدق من ريح أصابته وذكر أن معاوية رحمه الله هو الذي سماه الأشدق وذلك أنه لما مات أبو سعيد دخل على معاوية فلما استنطقه قال له ان أول كل مركب صعب وان مع اليوم غدا فقال له معاوية الى من أوصى بك ابوك فقال ان أبي أوصاني ولم يوص بي قال فبأي شئ أوصاك قال بأن لا يفقد أصحابه منه غير شخصه فقال معاوية ان عمرا هذا لأشدق فسموه بالأشدق وفي ذلك يقول الشاعر

تشادق حتى مال بالقول شدقه * وكل خطيب لا أبالك أشدق

وكان من حديث عمرو الأشدق أنه تواطأ مع مروان أول قيام مروان على أن يدعو الناس الى مروان و يكون له الامر من بعد مروان فقال له مروان لا الامر بعد خالد بن يزيد بن معاوية فرضي الأشدق فدعا عمرو الناس الى بيعة مروان فلما تابعه الناس بايع لخالد بن يزيد بعده ولعمرو بعد خالد بن يزيد ولما أجتمع على مروان أهل الشام دعا حسان بن مالك وهو رئيس قحطان بالشام وكان حسان بن مالك لم يبايع مروان ولا يزيد بن معاوية قبله ولا معاوية الاعلى شروط أخذها له ولقومه وذلك أنه شرط لهم أن يعطي الفان من قومه الفين الفين في كل عام ومن مات من هؤلاء الألفين قام أبنه موضعه أو ابن عمه وأن تكون لهم صدور المجالس والنهي والأمر ولا يحل ولا يعقد الاعن امرهم أو رأيهم فرضي مروان بذلك كارضي يزيد بن معاوية فلما أجتمع عليه أهل الشام كما قدمنا أحضر حسان بن مالك هذا وأرغبه وأرهبه فقام حسان في الناس خطيبا ودعاهم الى بيعة عبد الملك بعد مروان وعبد العزيز بعد عبد الملك فلم يخالفه في ذلك أحد فاستوثق الأمر لعبد الملك بعد مروان وقتل عمرو الأشدق سنة ٧٠

﴿ قتل عمرو بن سعيد ﴾

وكان سبب قتل عمرو أنه لما أراد عبد الملك الخروج الى المصعب بن الزبير وقيل نحو زفر بن الحارث قال له عمرو ان الأمر كان لى بعد مروان فصرفه اليك فرده إلى بعدك فسكت عنه عبد الملك ثم خرج عبد الملك لوجهته فلما كان على ثلاث مراحل من دمشق كر عمرو في الليل فرجع الى دمشق وغلق ابوابها في وجه عبد الملك وتسمى بالخلافة فلما علم بذلك عبد الملك كرا راجعا نحو دمشق فحاصرها فصالحه عمرو على ان يكون له الأمر بعده وان له مع كل عامل عاملا ففتح له دمشق وكان بيت المال قد حصل بيد عمرو فارسل اليه عبد الملك أخرج للحرس أرزاقهم قال عمرو ان كان لك حرس فان لنا حرسا قال عبد الملك وأخرج لحرسك أيضا وكان حرس عمرو فيما حكى الذين يمشون حيث مامشى أربعة آلاف رجل من اجناد الشام وقيل خمس مئة فكان اذا دخل على عبد الملك دخلوا معه واذا خرج خرجوا معه فيقال أنه قال عبد الملك لحاجبه أتستطيع أن تغلق الباب اذا دخل عمرو في وجوه أصحابه قال نعم قال فافعل وكان عمرو رجلا عظيم الكبر لا يلتفت وراءه اذا مشى لايرى لأحد عليه فضلا فلما فتح الحاجب الباب ودخل عمرو أغلق الحاجب الباب دون اصحابه ومضى عمرو لا يلتفت وهو يرى أن أصحابه قد دخلوا معه كما كانت عادتهم فعاتبه عبد الملك طويلا وقد أوصى صاحب حرسه أن يضرب عنق عمرو فكلمه عبد الملك وأغلظ له فقال له ياعبد الملك أتستطيل عليّ كانك ترى لك علي فضلا أن شئت والله نقضت العهد الذي بيني و بينك ثم نصبت لك الحرب فقال عبد الملك قد شئت فقال وانا قد فعلت فقال عبد الملك لصاحب شرطته شأنك به فالتفت عمرو الى الدار فلم ير بها أصحابه فدنا من عبد الملك فقال عبد الملك ما يدنيك مني قال لتمسني رحمك وكانت ام عمرو عمة عبد الملك فضربه صاحب الشرطة فرمى برأسه فقال له عبد الملك ارم برأسه الى اصحابه فرمى لهم بالرأس فتفرقوا ثم خرج عبد الملك فصعد المنبر فذكر عمرا وخلافه وشقاقه ثم نزل عن المنبر وهو يقول

ادنيته مني ليسكن نفره * فاصول صولة حازم مستمكن
غضبا ومحمية لديني انه * ليس المسيء سبيله كالمحسن

وقيل ان قتله كان على وجه آخر وان عبد الملك أرسل الى عمرو يوما باامية ان جئني أدبر معك أمرا فقالت له

امرأته انشدك الله ان لا تأتيه فقال دعي عنك ابادبان لو كنت نائما ما ايقظني وكان عمرو ذا شهامة وفظاظة واقدام فقالت له والله ما آمنه عليك واني لأجد ريح دم فلما قام عثر في البساط فازالت امرأته تروم ان لا يمشي اليه حتى ضربها بقائم سيفه فشجها وخرج وهو مكفر بالدرع فلما دخل على عبد الملك وقد اغلق الباب في وجوه اصحابه قال له عبد الملك اني كنت حلفت ان ملكتك لأشدنك في جامعة وهذه جامعة فضة اشدك فيها وابر قسمي فطرح في عنقه الجامعة ثم جبذه الى الأرض فضرب فمه في جانب السرير فانكسرت ثنيته فنظر عبد الملك اليها فقال له عمرو لا عليك يا امير المؤمنين عظم انكسر ثم قال له عمرو لما تيقن بالشر انشدك الله ان تخرجني الى الناس وانا على هذه الحالة فقال عبد الملك أتمكر بي وأنا أمكر منك تريد أن أخرجك الى الناس فيمنعوك مني ويستنقذوك من يدي ويقال ان عبد الملك قال له امكرا وانت في الحديد فأرسلها مثلا وجاء المؤذن فقال لعبد الملك الصلاة يا امير المؤمنين فقال عبد الملك لأخيه عبد العزيز اقتله حتى ارجع من الصلاة فقال عمرو لعبد العزيز نسألتك بالرحم يا عبد العزيز لا تكن انت قاتلي وليكن من هو ابعد رحما منك فتركه عبد العزيز حتى رجع عبد الملك فرآه جالسا فقال لعن الله اماولدتك ولم يكن شقيقه والله ما أردت قتله الامن اجلكم ان لا تعو زهادونكم ثم اخذ الحربة بيده وقال قربوه مني فقال عمرو فعلتها يا ابن الزرقاء فقال لو علمت انك تبقى ويسلم لي ملكي لفديتك بدم النواظر ولكن قلما يجمع فحلان في ذود الاعداء احدهما على الآخر ثم رفع يده بالحربة فضرب بها صدر عمرو فلم تغن شيئا فضرب عبد الملك بيده على عاتق عمرو فأصاب الدرع تحت ثيابه وقد كفرها عليه بثوب فقال له لقد كنت معدا أبا أمية اضربوا به فصرع له فقعد على صدره فذبحه فلما وافى خبره يحيى بن سعيد أخاه وافى الباب ومن معه من رجاله ليكسروه فخرج اليه الوليد وموالي عبد الملك فاقتتلوا فضرب يحيى الوليد على اليته فصرعه وقد كان لما قتله عبد الملك أرسل في قبيصة ابن ذؤيب فقال له ماتقول في عمرو فالتفت قبيصة فرأى رجل عمرو تحت السرير ففطن وقد أدرج في ثوب وادخل تحت السرير ليسمع مايقول فشعر قبيصة فقال اقتله يا أمير المؤمنين فقال له عبد الملك لله درك قد فعلت قال فارم برأسه الى أصحابه وأنثر عليهم الدنانير والدراهم فنثرها فاشتغلوا بها عن القتال وتفرق الناس فلم يطلب بثاره وذكر عن بعض جلساء أبي جعفر المنصور أنه قال قال المنصور يوما ونحن عنده أتعرفون جبارا أول اسمه عين قتل جبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين قلت نعم يا أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد وفلانا وعبد الرحمن ابن الاشعث فقال أتعرفون خليفة أول اسمه عين قتل جبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين وجبارا أول اسمه عين قلت نعم يا أمير المؤمنين انت قتلت عبد الرحمن بن محمد أبا مسلم وعبد الجبار بن عبد الرحمن وعمك عبد الله بن علي سقط عليه القصر فتبسم ثم قال هل تحفظ الأبيات التي قالت زوجة الوليد بن عبد الملك أخت عمرو بن سعيد حين قتل عبد الملك أخاها عمرو قلت نعم يا أمير المؤمنين خرجت في اليوم الذي قتل أخوها فيه حاسرة تنشد

أيا عين جودي بالدموع على عمرو * عشية جانبنا الخلافة بالقهر
غدرتم بعمرو يابني خيط باطل * وكلكم يبني البيوت على غدر
وما كان عمرو عاجزا غير أنه * أتته المنايا بغتة وهو لا يدري
كأن بني مروان اذ يقتلونه * خشاش من الطير اجتمعن على صقر
لحى الله دنيا تعقب النار أهلها * وتهتك مابين القرابة من ستر
الا يالقومي للوفاء وللغدر * وللغلقين الباب قسرا على عمرو
فرحنا وراح الشامتون عشية * كأن على أعناقهم فلق الصخر

قال فقال لى المنصور رما الأبيات التى بعث بها عمرو بن سعيد الى عبد الملك فقلت له يا أمير المؤمنين كتب اليه عمرو

يريد ابن مروان أمورا أظنها * ستحمله منى على مركب صعب

أينقض عهدا كان مروان شده * وينكث فيه بالقطيعة والكذب

فقدمته قبلى وقد كنت قبله * ولولا انقيادى كان كربا من الكرب

وكان الذى أعطيت مروان هفوة * غبنت بها رأيى وخطبا من الخطب

فان ينفذ الأمر الذى كان بيننا * فعلنا جميعا فى السهولة والرحب

وأن يعطنا عبد العزيز ظلامة * فأولى بها منى ومنه بنو حرب

وَلَمْ يَقُلْ صَقْرُ بَنِى أُمَيَّةٍ أَذْ صَادَهُ كَيْدِ أَطْرِقْ كَرَا

اراد بصقر بنى أمية عبد الملك بن مروان تشبيها له بالصقر وهو البازى الذى يصاد به لشهامته وظفره بكل من طلبه من أعدائه وقد كان أبو جعفر المنصور ربما زعموا اذا ذكر له عبد الرحمن بن معاوية القائم بالأندلس يقول ذلك صقر قريش وقوله أطرق كرا الكرا ذكر الكروان وهو طائر والأنثى منه كروانه ذكر ذلك صاحب المحكم قال وفى المثل أطرق كرا وجعله محمد بن يزيد ترخيم كروان فغلط ويجمع كروان على كراوين قال الشاعر يصف صقرا

* حتف الحباريات والكراوين *

قلت وقيل فى قول الشاعر

* يا كروانا صك فا كبأنا *

أراد به الحبارى يصكه البازى ويقال هو الكركى ويقال للكروان اذا صيد أطرق كرا ان النعام فى القرى ويقال أنه اذا رأى أحدا ضرب بنفسه الى الأرض وسقط كى يخفى شخصه فاذا رآه الصياد كذلك طاف حواليه مترسلا وقال أطرق كرا ان النعام فى القرى أطرق كرا فانك ما ترى ما ارى ههنا كرا حتى يقرب منه فيضربه بعصا او يلقى عليه ثوبا فيأخذه ويقال ايضا أطرق كرا للمعجب بنفسه كما يقال فغض الطرف وكرا منادى حذف حرف النداء منه وهو شاذ لأن حرف النداء لا يحذف من النكرة الا شاذا قالوا افتد مخنوق واصبح ليل وثوبى حجر وقال الشاعر

* جارى لاتستنكرى عذيرى *

أراد يا جارية وكل ما يسوغ ان يكون وصفا لأى فى النداء فلا يجوز حذف حرف النداء منه ولذلك لا يحذف حرف النداء من المبهم لأنه يقع بعد أى فى النداء فتقول يا أيهذا وانما امتنع حذف الحرف فى مثل هذا لأنهم اذا قالوا يا رجل ويا هذا كان بمنزلة يا أيها الرجل ويا أيهذا فلما استغنى بيا رجل عن يا أيها صار كانه محذوف منه فكرهوا حذف حرف النداء لأن لا يأتوا بالحذف بعد الحذف ولذلك جاز ان تقول أيها الرجل فتحذف حرف النداء لأن ايا لا تدخل على أى وكذلك تقول من هو محسن اقبل لأن من لا تقع بعد أى فى النداء والهاء فى صاده عائدة على عمرو وجعل عبد الملك كالمقتنص له لأعماله المكيدة فى اخذه حتى ظفر به وجعل عمرا كالكروان الذى يختدع عند صيده بأن يقال له أطرق كرا حتى يؤخذ وانما ضرب القول مثلا لما كان من احتياله عليه ومكره به حتى قتله وحسن موقع المثل هنا اذ كان يضرب للمعجب بنفسه مع مانقل من كبر عمرو وفرط عجبه وفى بيت الناظم مناسبة وائتلاف معنوى حيث ذكر الصقر مع الكرا وكلاهما من جنس الطير حتى لو قال ليث بنى أمية لم يكن فيه من المناسبة ما فى قوله صقر بنى أمية

وَلَوْ رَأَى النُّعْمَانُ رَأْيَ رَشْدِهِ * لَمَا رَأَى فِى ابْنِ عَدِى مَا رَأَى

﴿ ذكر النعمان ابن المنذر ﴾

النعمان هذا هو آخر من ملك الحيرة من آل محرق وأبوه المنذر بن المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن عدى ابن نصر بن ربيعة اللخمى وقد قيل فى نسبه غير هذا فذكر بن اسحاق أن عمر بن الخطاب أتى بسيف النعمان ابن المنذر فدعا بجبير ابن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف وكان جبير أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة وكان يقول انما أخذت النسب من أبى بكر الصديق رضى الله عنه وكان أبو بكر رضى الله عنه أنسب العرب فسلمه أياه ثم قال ممن كان ياجبير النعمان بن المنذر قال كان من اشلاقنص ابن معد قال فاما سائر العرب فيزعمون أنه كان رجلا من لخم من ولد ربيعة بن نصر فالله أعلم أى ذلك كان وكان امرؤ القيس بن عمرو يدعى محرقا وبه قيل لهم آل محرق قال الأسود بن يعفور

ماذا أؤمل بعد آل محرق * تركوا منازلهم وبعد إياد
أرض الخورنق والسدير وبارق * والقصر ذى الشرفات من سنداد

وأم المنذر بن امرىء القيس امرأة من النمر بن قاسط وتدعى ماء السماء لجمالها وحسنها وأبوها عوف بن جشم واليها ينسبون فيقال بنو ماء السماء وفى الأزد ماء السماء وهو عامر بن عامر ابو مزيقيا وسمى عامر ماء السماء لأنه كان اذا احتبس القطر أقام ماله مقام القطر وكان لامرىء القيس بن عمرو ابن آخر ملك قبل المنذر وهو الذى يقال له النعمان الأكبر وكان أعور وهو الذى بنى الخورنق وأشرف يوما على الخورنق فنظر اليه فقال أكل ما أرى الى نفاد وزوال قالوا نعم قال فأى خير فيما يفنى لأطلبن عيشا لا يزول فانخلع عن الملك ولبس الامساح وساح فى الأرض وهو الذى ذكره عدى بن زيد فقال

تبين رب الخورنق اذ اشـ * ـرف يوما وللهدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يمـ * ـلك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال فما غبـ * ـطة حى الى الممات يصير

وكان النعمان بن المنذر يكنى أبا قابوس وكان له يومان يوم بؤس ويوم نعيم وفى يوم بؤسه قتل عبيد بن الابرص وقيل ان صاحب البؤس والنعيم انما هو أحد جدوده وابن عدى هو زيد بن عدى بن زيد بن أيوب بن زيد مناة ابن تميم العبادى وكان عدى أبوه نصرانيا من عباد الحيرة وكان عدى شاعرا وذكر عن أبى عمرو بن العلاء انه كان يقول هو فى الشعراء كسهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى مجاريها وكان ترجمان أبرويز ملك الفرس وكاتبه بالعربية وهو الذى وصف لأبرويز النعمان له وأشار عليه بتوليته واحتال فى ذلك حتى ولاه من بين اخوته مع أنه كان أذمهم وأقبحهم وكان سبب قتل النعمان له أن عديا كان من أجمل الناس فخرجت هند بنت النعمان فى الفصح تتقرب فى البيعة وهم على دين النصرانية وذلك فى أيام المنذر جدها فنظر اليها عدى وهى غافلة فلم تشعر حتى تأملها وكانت مليحة مادة القامة عبلة الجسم فلما علمت أنه رآها شق ذلك عليها وسبت جواريها وكانت وليدتها مارية عشقت عديا ولم تدر كيف يتأتى لها الاتصال به ووقعت هند فى نفس عدى فلبث على ذلك حولا لا يخبر به أحدا فلما كان بعد حول وظنت مارية أن هندا قد أضربت عما جرى وصفت لها البيعة ومن فيها من الرواهب ومن يأتيها من جوارى الحيرة وقالت سلى أمك الأذن لنا فى أتيانها فسألتها فأذنت لها وبادرت مارية الى عدى فأخبرته الخبر فلبس يلمقا كان كسرى قد كساه إياه مذهبا والبلمق القباء وأخذ جماعة من فتيان الحيرة

فدخل البيعة فلما رأته مارية قالت لهند انظري الى هذا الفتى والى جماله قالت ومن هو قالت عدي بن زيد قالت أتخافين أن يعرفني ان دنوت اليه لأراه قالت ومن اين يعرفك وما رآك قط فدنت منه وهو يمازح الفتيان وقد برعهم بجماله وفصاحته وحسن شارته فذهلت لما رأته وبهتت تنظر اليه وعرفت مارية ما بها وتبينته في وجهها فقالت لها كليه فكلمته وانصرفت وقد تبعته نفسها وانصرف بمثل حالها فلما كان الغد تعرضت مارية لعدي فلما رآها هش اليها وكان قبل ذلك لا يكلمها فقال لها ما جاء بك فقالت حاجة اليك فقال اذكريها فانك لا تسأليني شيئا الا أعطيتك فعرفته أنها تهواه وان حاجتها الخلوة معه على ان تحتال له في هند وعاهدته على ذلك فخلا معها وأقبل عليها ثم أتت هندا فقالت لها أما تشتهين أن ترى عديا قالت وكيف ذلك قالت أعده مكانا في ظهر القصر وتشرفين عليه قالت افعلي فواعدته إلى ذلك المكان فاشرفت عليه فكادت تموت وقالت ان لم تدخليه علي هلكت فبادرت الأمة الى النعمان فاخبرته ان هندا قد شغفت بعدي وان سبب ذلك رؤيتها إياه في يوم الفصح وأنه أن لم تزوجه اياها افتضحت في أمره أو ماتت فقال لها ويلك كيف أبدؤه بذلك فقالت أنا أحتال عليه في ذلك من حيث لا يعلم أنك عرفت أمره وأتت عديا فاخبرته الخبر فقالت أدعه فاذا أخذ الشراب فيه فاخطب اليه فانه غير رادك فقال أخشى أن يغضبه ذلك فيكون سبب العداوة وقالت ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه فصنع عدي طعاما ثم سأل النعمان أن يتغدى عنده هو وأصحابه ففعل ثم أتفرد بالنعمان وقد أخذ الشراب فيه فخطب اليه هندا فاجابه وزوجه اياها وضمها اليه بعد ثلاث ثم ادركت النعمان الأنفة فحبس عديا حتى قتله وعدي هو القائل

يا خليلي يسرا التعسيرا * ثم روحا فهجرا تهجيرا
عرجابي على ديار لهند * ليس أن عجتما المطى كثيرا

فكان عدي يقول الشعر في السجن ثم قتله وهو القائل

أبلغ النعمان عني مالكا * انه قد طال حبسي وانتظاري

وقيل أنه مات في السجن من غير أن يقتله فتوصل ابنه زيد الى أبرويز ملك الفرس حتى حل منه محل أبيه فكاد عنده النعمان وذلك أنه كان لا يزال يذكر له جمال نساء آل النعمان حتى خاطب ابرويز النعمان أن يبعث اليه أخته أو ابنته وكان زيد بن عدي هو الذي مشى اليه بالخطبة فلما قرأ النعمان الكتاب قال لزيد أما لكسرى في مها السواد كفاية حتى يتخطاهن الى العربيات فقال له زيد أبيت اللعن انما أراد الملك أكرامك بصهرك له ولو علم أن ذلك شين عليك ما فعل وسأحسن ذلك عنها واعتذر بما يقبله قال النعمان فافعل فقد تعرف ما على العرب في تزويج العجم من الفضاضة والشناعة فلما انصرف زيد الى أبرويز أخبره أنه رغب عنه وادى اليه قوله في مها السواد على أقبح الوجوه وقال أنه قال لي أين هو عن البقر والمها البقر وانما أراد النعمان أين هو عن نساء السواد اللواتي كأنهن المها والعرب تشبه النساء بالمها فحرف زيد القول وأوجد كسرى عليه وقال رب عبد قد صار من الطغيان الى أكثر من هذا فلما بلغت كلمته النعمان تخوفه فخرج هاربا حتى صار الى طيء لصهر كان له فيهم ثم خرج من عندهم حتى أتى بطنا من عبس فقالوا له أقم معنا فانا نمنعك مما نمنع منه نساءنا فجزاهم خيرا ورحل عنهم يريد كسرى ليرى فيه رأيه فأقبل حتى أتى المدائن فاقام له كسرى ثمانية آلاف جارية صففن عليه بن المصبغات فلما صار النعمان بينهن قلن له أما فينا للملك غناء عن بقر السواد فعلم أنه غير ناج ولقيه زيد بن عدي فقال له النعمان أنت فعلت هذا بي لان تخلصت اليك لأسقينك بكأس أبيك فقال له زيد امض نعيم فقد آخيت لك آخية لا يقطعها المهر الأرن فأمر به كسرى فحبس بساباط المدائن ثم أمر به فرمي تحت أرجل الفيلة وقال بعضهم بل مات بسجنه بساباط قلت فقول الناظم فلو رأى النعمان رأي رشده رأي ههنا من الرأي ورأى في قوله لما رأى

فى ابن عدى ملرأى بمعنى ظن أى الماظن فى ابن عدى الصدق فى ماوعده بهمن تحسين عذره عند كسرى من عظيم ماوتره بهمن قتل ابيه ورأى تكون بمعنى ظن وتكون بمعنى علم وقيل فى قوله تعالى أنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا أن معناه أنهم يظنونه بعيدا ونعلمه قريبا

وَلَوْ رَأَى رَأْىَ دُرَيْدٍ صِنْوُهُ   لَمْ يَنْتَقِعْ نَقِيعَةً يَوْمَ اَللِّوَا

أراد بصنو درید أخاه عبد الله والصنو الأخ والأصل فى ذلك أنه اذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد فكل واحدة منهن صنو والاثنان صنوان والجمع صنوان وفى الحديث عم الرجل صنو أبيه و يقال ركيتان صنوان اذا تقاربتا ونبعتا من عين واحدة ودريد هو دريد بن الصمة وقد تقدم حديثه وحديث أخيه عبد الله وقد تقدم تفسير النقيعة وانما أشار الناظم الى نهى دريد أخاه أن يقيم باللوى والى قوله أن القوم لابد لهم ان يطلبوك وعصيان عبد الله حسبما ذكرناه قبل

وَرُبَّ رَأْىِ حَسَنٍ قَدِ اغْتَدَى   مُقَبَّحًا عِنْدَ الْجَهُولِ مُزْدَرَى

قَدْ كَذَّبَ الزَّرْقَاءَ قَوْمٌ حَسِبُوا   مَقَالَهَا الصَّادِقَ زُورًا مُفْتَرَى

سَمَتْ بِعَيْنَيْهَا اِلَى الْجَيْشِ الذِى   تَدَرَّعَ الاَشْجَارَ كَيْدًا وَاكْتَسَى

قَالَتْ وَلَمْ تَكْذِبْ أَرَى مُقْبِلَةً   اِلَيْكُمْ يَاقَوْمُ أَشْجَارَ الْفَلاَ

وَأَبْصَرَتْ مَالَمْ تُحَقِّقْ عَيْنُهَا   صُورَتَهُ فِى كَفِّ شَخْصٍ قَدْ نَأَى

قَالَتْ أَرَاهُ خَاصِفًا أَوْ آكِلاً   لِكَتِفٍ لَهْفِي عَلَى مَاقَدْ أَتَى

فَصَبَّحَتْ دِيَارُ مَنْ كَذَّبَهَا   بِجَحْفَلٍ قَدْ عَاثَ فِيهَا وَعَثَا

قوله ورب رأى حسن البيت معناه مأخوذ من قوله لاتضعوا الحكمة فى غير اهلها فتظلموها ولاتمنعوها أهلها فتظلموهم ومنه قولهم لايطاع لقصير رأى وقد تقدم ذكره والخاصف خارز النعل يقال خصفت النعل أى خرزتها والمزدرى المحتقر وعاث أفسد وكذلك عثا يقال عثا يعثو وعثى يعثى ومنه قوله تعالى ولاتعثوا فى الارض مفسدين والجحفل الجيش وقد تقدم والزرقاء التى ذكرها زرقاء جو

﴿ ذكر زرقاء جو ﴾

واسمها يمامة بنت مرة الطسمية وكان من حديثها أن طسما وجديسا وهما قبيلتان طسم بن لود بن أرم بن سام ابن نوح عليه السلام وجديس بن عاصر بن أرم بن سام بن نوح كان منزلهما اليمامة وكانت اليمامة تسمى فى ذلك الوقت جوا وكان الملك على القبيلتين معا رجلا من طسم يقال له عملوق وكان ظلوما غشوما لا ينهاه شئ عن هواه وكان السبب فى فناء طسم وجديس أنه أتته امرأة يقال لها هزيلة بنت مازن وزوج لها قد طلقها وكان أراد زوجها أن يأخذ منها ولدا كان لها منه فأبت عليه فارتفعا الى عملوق ليحكم بينهما فقالت المرأة أيها الملك ان ابنى هذا حملته تسعا ووضعته دفعا وأرضعته شبعا ولم أنل منه نفعا حتى اذا تمت أوصاله واستوفت خصاله أراد

أن يسلبنيه قسرا و يأخذه مني قهرا و يتركني منه صفرا فقال لزوجها قد أخذت المهر كاملا ولم أنل منه طائلا الا ولدا جاهلا فافعل ما أنت فاعلا فأمر الملك أن يقبض الولد منها و يجعل في غلمانه وأن يباع الرجل فتعطى المرأة عشر قيمته وتباع المرأة و يعطى الرجل خمس قيمتها وقال لهزيلة أبغيه ولدا وأجز به صفدا ولا تنكحي بعده أحدا فقالت هزيلة أما النكاح فبالمهر وأما السفاح فبالقهر ومالي في أحدهما أرب ثم أنشأت تقول في شعر لها

أتيت أخا طسم ليحكم بيننا * فابرم حكما في هزيلة ظالما

لعمري لقد حكمت لا متورعا * ولا فهما عند الحكومة عالما

ندمت ولم أقدر على متزحزح * وأصبح زوجي حائر الرأي نادما

فلما بلغ الملك قول هزيلة غضب فأمر أن لا تتزوج امرأة من جديس فتزف الى زوجها حتى يكون هو الذي يفترعها فبقيت جديس على هذا الذل زمانا الى أن تزوجت عفيرة بنت غفار الجديسية أخت الاسود بن غفار سيد جديس وقد قيل كان اسمها الشموس فلما كان ليلة هدائها الى زوجها انطلق بها الى عملوق ليفترعها على عادته ومعها القيان يغنين و يقلن

ابدا بعملوق وقومي واركبي * وبادري الصبح بأمر معجب

* فما لبكر بعدكم من مذهب *

فلما افترعها وخلى سبيلها خرجت على قومها في دمائها شاقة جيبها وهي تقول

لا أحد أذل من جديس * أهكذا يفعل بالعروس

يرضى بهذا يالقومي حر * أهدى وقد أعطى وسيق المهر

لأخذة الموت غدا بنفسه * خير من ان يفعل ذا بعرسه

ثم قالت تحرض جديسا على طسم

أيصلح ما يؤتى الى فتياتكم * وأنتم رجال فيكم عدد الرمل

أيصلح تمشي في الدماء فتاتكم * صبيحة زفت في المساء الى البعل

فان أنتم لم تغضبوا عند هذه * فكونوا نساء لا تغبوا عن الكحل

ودونكم طيب العروس فانما * خلقتم لأثواب العروس وللشغل

فلو اننا كنا رجالا وكنتم * نساء لكنا لا نقيم على الذل

فقبحا وشيكا للذي ليس دافعا * بحزم و يمشي بيننا مشية الفحل

فموتوا كراما واصبروا لعدوكم * بحرب تلظى بالضرام من الجذل

والا فخلوا بطنها وتحملوا * الى بلد قفر وهزل مع الهزل

ولا تجزعوا ياقوم للحرب انها * تقوم بأقوام كرام على رجل

فيهلك فيها كل نكس مواكل * ويسلم فيها ذو النجابة والفضل

فلما سمعت جديس بذلك غضبت واجتمعت فقال لهم الأسود بن غفار وكان سيدهم ومطاعا فيهم يامعشر جديس أطيعوني فيما آمركم به ففيه ذهاب الذل وعز الدهر قالوا وماذاك قال انكم قد علمتم أن طسما ليسوا بأعز منكم ولكن ملك صاحبهم عليكم هو الذي يذعننا لهم بالطاعة ولولا ذلك ما كان لهم عليكم من فضل ولو امتنعتم منهم لكان النصف فقالوا لقد قبلنا ولكن القوم أكثر عدة منا وعددا فقال لهم لتطيعنني أو لأتكئن على سيفي حتى يخرج من ظهري قالوا فانا نطيعك قال فاني صانع طعاما أدعوهم اليه فاذا جاؤكم متفضلين في الحلل نهضنا اليهم بأسيافنا فانفرد أنا بملكهم و ينفرد كل واحد منكم برجل منهم قالوا افعل ما بدا لك فقالت عفيرة لأخيها الأسود

لا تفعل فان الغدر ذلة وعار ولكن كاثر والقوم فى ديارهم فتظفروا أو تموتوا كراما قال لا ولكن نمكر بهم ليكون ذلك أمكن منهم ثم أن الاسود صنع طعاما وأمر قومه أن يخترطوا سيوفهم و يدفونها فى الرمل حيث أعدوا الطعام ثم قال لهم اذا أتوكم فخذوا سيوفكم وشدوا عليهم وأبدؤا برؤسائهم فانكم اذا قتلتم رؤساءهم لم تحفلوا بالسفلة قالوا نفعل ذلك ثم دعا الأسود عملوقا وطسما الى طعامه الذى صنع فأسرعوا الاجابة لدعوة الاسود فلما توافوا الى المدعاة وثبت جديس فشهروا سيوفهم من الرمل وشدوا على عملوق وطسم وقتلوهم حتى أفنوهم عن آخرهم وما أفلت منهم غير رجل اسمه رباح بن مرة فأتى حسان بن تبع فأستغاث به وقد كان عمد الى جريدة نخل رطبة فجعل عليها طينا وحملها معه وخرج معه بكلبة فلما ورد على حسان كسر يد الكلبة ونزع الطين عن الجريدة فخرجت خضراء فدخل على حسان فاستغاث وأخبره بالذى صنعت جديس بهم فقال له الملك من أين أقبلت قال جئتك أبيت اللعن من أرض قريبة وأراه الجريدة والكلبة وقال خرجت بهما من بلادى قال حسان ان كنت صادقا فلقد جئت من مكان قريب فقال لهم رباح ان لهم أموالا وتبرا و رقاو مسكا وعنبرا وفيهم امرأة تنعدا بالشهد والذبد والمخ لم ير مثلها فوعده النصر ثم نادى حسان فى حمير وأخبرهم بما صنعت جديس بطسم قالوا وما جديس أيها الملك قالوا اعبيد طسم قالوا انما ناقى هذا من أرب هم اخواننا ولا نغرى بعضهم على بعض وهم عبيدك أيها الملك فقال حسان ماهذا بحسن أرأيتم لو كان هذا فيكم أكان يحسن بملككم يهدر دماءكم وما علينا فى الحكم الآن ننصف بعضهم من بعض فقالوا الأمر أمرك أيها الملك فرنا بما أحببت فأمرهم بالمسير فساروا حتى اذا كان بينهم و بين اليمامة ثلاث ليال قال رباح بن مرة لحسان أبيت اللعن أن لى أختا متزوجة فى جديس تبصر الراكب على مسيرة ثلاث ليال وأنا أخاف أن تنذر قومها بك فامر كل انسان أن يقلع شجرة من الأرض و يضعها أمامه فأمرهم حسان بذلك ثم ساروا وكان اسم أخت رباح يمامة بنت مرة فنظرت يمامة من منظر لها على رأس حصن فقالت ياجديس لقد سارت اليكم الشجر فقالوا لها وماذاك قالت انى أرى شجرا من ورائها بشر وانى أرى رجلا من وراء شجرة ينهش كتفا أو يخصف نعلا فكذبوها وغفلوا عن اهبة الحرب حتى صبحتهم حمير ففى ذلك تقول اليمامة و يقال ان اسمها عنز وقد قيل انها الزباء صاحبة جذيمة وقد قيل ان غازى اليمامة هو عبد كلال

خذوا لهم حذركم ياقوم ينفعكم * فليس ماقد أرى بالأمر يحتقر
انى أرى شجرا من خلفها بشر * وكيف يجتمع الأشجار والبشر
انى أرى رجلا فى كفه كتف * أو يخصف النعل خصفا ليس يقتدر
ثوروا بأولكم فى وجه أولهم * فان ذلك منكم فاعلموا ظفر
وغوروا كل ماء دون منزلهم * فليس من دونهم ورد ولا صدر
أو عاجلوا القوم عند الليل اذا رقدوا * ولا تخافوا لهم حربا وان كثروا

فما لبثوا أن صبحهم حسان بعد ثلاثة فاستباح اليمامة قتلا وسبيا وهرب الأسود بن غفار حتى نزل فى طىء فاجاروه من كل من يطلبه وهم لا يعرفونه فقبيلته فى طىء مذكورة وذكر الأصبهانى أن حسان حين استأصل جديس هرب منه الأسود بن غفار فأقام بجبلى طىء قبل نزول طىء اياهما وكانت طىء تسكن الجرف من أرض اليمن وكان سيدهم يومئذ أسامة بن لؤى بن الغوث بن طىء وكان الوادى مسبعة وهم قليل عددهم وقد كان ينتابهم فى أيام الخريف بعير ولا يدرى أين يذهب ولا يرونه الى قابل فقالوا لأسامة ان هذا البعير الذى يأتينا من بلد ريف وخصب وانا لنرى فى بعره النوى فلو انا نتبعه عند انصرافه فنشخص معه لكنا نصيب مكانا خيرا من مكاننا هذا فأجمعوا أمرهم على ذلك فلما كان الخريف جاء البعير فضرب فى إبلهم فلما انصرف احتملوا وأتبعوه يسيرون بمسيره و يبيتون حيث يبيت حتى هبط على الجبلين فقال أسامة بن لؤى

اجعل طريفا كحبيب ينسى * لكل قوم مصبح وممسى

قال وطريف اسم الموضع الذى كانوا ينزلون به فهجمت طىء على النخل فى الشعاب وعلى مواش كثيرة وأذاهم رجل فى شعب من تلك الشعاب وهو الأسود بن غفار فهالهم ما رأوا من عظم خلقه وتخوفوه ونزلوا ناحية من الأرض واستبرؤها هل يرون بها أحدا غيره فلم يروا أحدا فقال أسامة بن لؤى لا بن له يقال له الغوث أى بنى ان قومك قد عرفوا فضلك عليهم فى الجلد والبأس والرمى فان كفيتهم هذا الرجل سدت قومك آخر الدهر وكنت الذى أنزلنا هذا البلد فانطلق الغوث حتى أتى الرجل فكلمه وسايله فعجب الاسود من صغر خلق العرب فقال له من أين أقبلتم فأخبره خبر البعير ومجيئهم معه وانهم رهبوا ما رأوا من عظم خلقه وصغرهم عنه وشغله بالكلام فرماه الغوث بسهم فقتله وأقامت طى بالجبلين بعده وهما أجأ وسلمى انتهى ماذكره الأصبهانى قلت ثم ان حسان لما فرغ من جديس أمر باليمامة وكانت زرقاء فنزع عينيها فاذا فى داخلهما عروق سود فسألها ما كانت تكتحل به فقالت له بحجر يقال له الأثمد كنت اكتحل به فيشب بصرى فاستعمل الأثمد من حينئذ وصلبها على باب جو فسميت بذلك اليمامة وفى ذلك يقول رباح بن مرة لما أخذ ثاره من جديس

غدر الحى من جديس بطسم * آل طسم كما تدان ندين
قد أتيناهم بيوم كيوم * تركوا فيه مثل ماتركون
ليت طسما على منازلها تعـ * ـلم انى قضيت حق ديون

وقد أكثر الشعراء من ذكر الزرقاء هذه فمن ذلك قول الأعشى

مانظرت ذات أشفار كنظرتها * يوما ولا نظر الذبى اذ سجعا
قالت أرى رجلا فى كفه كتف * أويخصف النعل لهفا أية صنعا
فكذبوها بما قالت فصبحهم * ذو آل حسان يزجى السم والسلعا
فاستنزلوا آل جو من مساكنهم * وهدموا يافع البنيان فاتضعا

وفى مالك يقول المسيب بن عبس وذكر ان اسمها عنز

لقد نظرت عنز الى الجزع نظرة * الى مثل موج المفعم المتلاطم
الى حمير اذوجهوا من بلادهم * تضيق بهم لأيافروج المخارم

وقال النمر بن تولب

وفتاتهم عنز غداة تبينت * من بعد مرأى فى الفضاء ومسمع
قالت أرى رجلا يقلب نعله * تقليب ذى وصل له ومشسع
ورأت مقدمة الخميس ودونها * ركض الجياد الى الصباح بتبع

وكان حسان قد حمل امرأة من جديس الى اليمن اسمها ايضا عنز وهى غير عنز الزرقاء ولم يرقط مثل هذه المرأة التى تحمل جالا وكالا فلما ارتحل قرب اليها جملا لتركبه فلم تدر من أين تركبه ولامن أين تأتيه فذكرها حسان فى قصيدته المشهورة ووصف فيها صلب اليمامة فقال

أخلق الدهر بجو طللا * مثل ما أخلق سيف خللا
كان طسم وجديس أخوة * صالحا أمرهما فاقتتلا
فبغى ذاك على هذا فلم * أرض من أمرهما مافعلا
ولقد أعجبنى قول التى * ضربت للقوم سيرى مثلا
قول عنز واستوت راكبة * فوق صعب لم يقتل ذللا

شر

شمر يومها واغواه لها * ركبت عنز بحدج جملا
وحلنا بعدها أخرى على * فاطر النابين ما ان بزلا
ضجر المركب ينبئ سفرا * وهو في معطنه ما انتقلا

يعني بالأخرى اليمامة وكانت عنز لما قربت لتركب وحملت في الهودج والطفت بالقول والفعل قالت شر يوميها وأغواه لها البيت أي شر أيامي حين صرت أكرم للسباء وهو الذي اشار اليه حسان فضرب قول عنز مثلا لمن يظهر له البر باللسان والفعل وهو يراد به الغوائل وقول الناظم قالت ولم تكذب أرى مقبلة البيت أشارة الى قولها لقد سارت اليكم الشجر وقوله قالت أراه خاصفا الخ كلا البيت حذا به حذو الأعشى في قوله

قالت أرى رجلا في كفه كتف * أو يخصف النعل لهفا أية صنعا

وَقَدْ جَفَا زَبْرَاءَ حِينَ صَدَقَتْ فِيمَا بِهِ قَدْ نَطَقَتْ مَنْ قَدْ جَفَا

﴿ ذكر زبراء ﴾

وزبراء أمة من مولدات العرب كاهنة كانت لعجوز لبني رئام وكان من حديثها ما ذكره أبو علي البغدادي قال أخبرنا أبو بكر حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن هشام بن محمد عن أبي مخنف عن أشياخ من علماء قضاعة قالوا كان ثلاثة أبطن من قضاعة مجتورين بين الشحر وحضرموت بنوا ناعب وبنو داهن وبنو رئام وكانت بنو رئام أقلهم عددا وأشجعهم لقاء وكانت لرئام عجوز تسمى خويلة وكانت لها أمة من مولدات العرب تسمى زبراء وكان يدخل على خويلة أربعون رجلا كلهم لها محرم بنوا اخوة وبنو أخوات وكانت خويلة عقيما وكانت بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بني رئام فاجتمع بنو رئام ذات يوم في عرس لهم وهم سبعون رجلا كلهم شجاع فطعموا واقبلوا على شرابهم وكانت زبراء كاهنة فقالت لخويلة أنطلقي بنا الى قومك أنذرهم فاقبلت خويلة تتوكأ على زبراء فلما أبصرها القوم قاموا أجلالا لها فقالت يا ثمر الأكباد ويا أنداد الأولاد وشجى الحساد هذه زبراء تخبركم عن أنباء قبل أنحسار الظلماء بالمؤيد الشنعاء فاسمعوا ما تقول قالوا وما تقولين يا زبراء فقالت زبراء واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق أن شجر الوادي ليأدو اختلا ويحرق أنيابا عصلا وان صخر الطود لينذر ثكلا لا تجدون عنه معلا والملا المتهافوافقت قوما أشاري سكارى فقالوا ريح خجوج والحجوج السريعة المر بعيدة ما بين الفروج أتت زبراء بالأبلق النتوج فقالت زبراء مهلا يا بني الأعزة والله لأني لأشم دفر الرجال تحت الحديد فقال لها فتى منهم يقال له هذيل بن منقذ يا خداق والله ما تشمين الا دفرا بطيك فانصرفت عنهم وارتاب قوم من ذوي أسنانهم فانصرف منهم أربعون رجلا وبقي ثلاثون فرقدوا في مشربهم وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب فقتلوهم اجمعين واقبلت خويلة مع الصباح فوقفت على مصارعهم ثم عمدت الى خناصرهم فقطعتها وانتظمت منها قلادة والقتها في عنقها وخرجت حتى لحقت بمرضاوى بن سعدة المهري وهو ابن أخيها فاناخت بفنائه وانشأت تقول

يا خير معتمد وامنع ملجأ * واعز منتقم وادرك طالب
جاءتك وافدة الثكالى تغتلي * بسوادها فوق الفضاء الناضب
عيرانة سرح اليدين شملة * عبر الهواجر كالهزف الخاضب
هذي خناصر أسرتي مسرودة * في الجيد مني مثل سمط الكاعب
عشرون مقتبلا وشطر عديدهم * صيابة م القوم غير اشايب

طرقتهم أم اللهيم فأصبحوا * تستل فوقهم ذيول حواصب
جزرا لعافية الخوامع بعد ما * كانوا الغياث من الزمان اللاحب
قسمت رجال بنى أبيهم بينهم * جرع الردى بمخارص وقواضب
فابرد غليل خويلة الثكلى التى * رميت بأثقل من صخور الصاقب
وتلاف قبل الفوت ثارى انه * علق بثوبى داهن أو ناعب

فقال حجر على مرضاوى الأعذبان والأحران أو يقتل بعدد ثأم من داهن وناعب ثم قال

أخالتنا سر النساء محرم * على وتشهاد الندامى على الخمر
كذاك وافلاذ الفشيد وما ارتمت * به بين جاليها الودية م الوذر
لأن لم أصبح داهنا ولفيفها * وناعبها جهرا براغية البكر
فوارى بنان القوم فى غامض الثرا * وصورى اليك من قناع ومن ستر
فانى زعيم أن أروى هامهم * وأظمئ هاما ما انسرى الليل بالفجر

ثم خرج فى منسر من قومه فطرق داهنا وناعبا فأوجع فيهم المؤيد الداهية واللوح الهواء بين السماء والأرض يقال لأفعلن ذلك ولو صرت فى اللوح وحرق نابه اذا حك بعضه ببعض والعرب تقول عند الغضب يغضبه الرجل على صاحبه هو يحرق عليه الأرم أى الأسنان وجاءت بالأبلق النتوج أى جاءت بما لا يكون لأن الابلق يقال للذكر وهو لا يكون نتوجا والعرب تضرب هذا مثلا للشىء الذى لا ينال فتقول طلب الأبلق العقوق وقال الشاعر

طلب الأبلق العقوق فلما * لم ينله أراد بيض الأنوق

والأنوق الذكر من الرخم ولا بيض له هذا قول بعض اللغويين وعامتهم يقولون الأنوق الرخمة وهى تبيض فى مكان لا يوصل فيه الى بيضها الا بعد عناء فالمراد طلب ما لا يقدر عليه فلما لم ينله طلب ما يجوز أن يناله والذفر يكون فى النتن والطيب والدفر لا يكون الا فى النتن وخداق كناية عما يخرج من الانسان والمغالات المباعدة فى الرمى والناصب البعيد ومنه قولهم نضب الماء أى بعد أن ينال والسرح السهلة رجع اليدين والشملة السريعة الخفيفة وناقة عبر أسفار أى قوية على السفر وعبر الهواجر قوية على الحر والهزف والهجف الظليم الجافى والخاضب الذى أكل الربيع فاحمرت ظنبوباه وأطراف ريشه ومسرودة مشكوكة ومقتبل مستأنف الشباب وأشابب اخلاط من الناس وأم اللهيم الداهية والحواصب الرياح التى تسفى الحصباء والخوامع الضباع واللاحب القاشر والمخارص الرماح وهى الخرصان أيضا والصاقب جبل معروف وحجر حرام والأعذبان النكاح والأكل والاحران الخمر واللحم والسر النكاح قال الأعشى

فلا تنكحن جارة ان سرها * عليك حرام فانكحن أو تأبدا

والفشيد الشواء ويقال أعطيته حزة من لحم وفلذة من لحم وحذية من لحم كل هذا ما قطع طولا فاذا أعطاه مجمة عاقيل أعطاه بضعة وودرة وفدرة والجالان الناحيتان من أعلاهما الى أسفلهما وصورى ميلى وقوله أروى هاما كانت العرب تقول اذا قتل الرجل فلم يؤخذ بثاره خرج من هامته طائر يسمى الهامة فلا يزال يقول أسقونى أسقونى حتى يقتل قاتله فيسكن قال الأصبع العدوانى

ياعمرو الا تدع شتمى ومنقصتى * أضر بك حتى تقول الهامة أسقونى

وقد نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فقال لا هام ولا صفر ولا عدوى ولا طيرة فقول القائل يا خداق والله ما أشمين الا رائحة أبطيك مع تكذيبهم لها هو الجفا الذى ذكر الناظم

وأطرفتْ طريفةُ فيما حكتْ ... من نبأ السدِّ وما منهُ انهوى

فاهتْ بقولٍ معتزٍ للصدقِ في ... تمزيقِ قحطانَ على الأرضِ عِزي

فما نجا غيرُ امرئٍ صدّقها ... وأهلكَ الباقينَ سيلٌ قد طغا

وسرّحَ السدُّ عنانَ جامحٍ ... يجيشُ مثلَ البحرِ من كلِّ عنا

عزى جمع عزة وهى الفرقة والهاء عوض من الياء المحذوفة وتجمع أيضا على عزين وعزين بكسر العين وضمها ولم يقولوا عزاة ومنه قوله تعالى عن اليمين وعن الشمال عزين وقال الشاعر

فلما ان أتين على اضاخ * ضرحن حصاه أشتاتا عزينا

ويقال طغى البحر هاجت أمواجه وطغى السيل اذا جاء بماء كثير وقال الله تعالى انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية والعنى واحد الأعناء وهى الجوانب والنواحى قال ابن الاعرابى واحدها عنى مقصور ويقال واحدها عنو وقال ابن مقبل

لاتحرز المرء أعناء البلاد ولا * تبنى له فى السموات السلاليم

وروى أنحاء البلاد واطرفت جاءت بطرفة

﴿ ذكر طريفة الكاهنة ﴾

وما كان من حديثها وأما طريفة فهى امرأة كاهنة كانت زوجة لعمرو بن عامر وهو عمرو مزيقيا وسمى مزيقيا لأنه كان يمزق فى كل يوم حلة يلبسها من أول النهار الى آخره ثم يمزقها لئلا يلبسها أحد بعده وقد قيل أنه كان يمزق حلتين وقد قيل أنه سمى بهذا الاسم لأنه مزق الازد وكانت زوجه طريفة تسمى طريفة الخير فرأت فى منامها ذات يوم ان سحابة غشيت أرضهم فارعدت وأبرقت ثم أصعقت فأحرقت كل ماوقعت عليه من الأرض ففزعت طريفة لذلك فزعا شديدا وأتت الملك عمرا وهى تقول مارأيت كاليوم زال عنى النوم رأيت غيما أبرق ثم أرعد طويلا وأصعق فاوقع على شئ الا أحرق فلما رأى عمرو ماداخلها من الفزع سكنها ثم ان عمرو ادخل حديقة من حدائقه فبلغ ذلك طريفة فخرجت نحوه وخرج معها وصيف لها فلما برزت من بيتها عرضت لها مناجد ثلاث منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينها وهى دواب تشبه اليرابيع فقعدت الى الارض واضعة يدها على عينها وقالت لوصيفها اذا ذهبت هذه المناجد فأخبرنى فلما ذهبت أعلمها فانطلقت مسرعة فعارضها خليج الحديقة التى فيها عمرو فظهرت من الماء سلحفاة وقعت على ظهرها تروم الانقلاب فلا تستطيع فتستعين بيدها وتحثى التراب على بطنها وجنبيها وتقذف بالبول فلما رأتها طريفة قعدت الى الارض الى أن عادت السلحفاة الى الماء فمضت طريفة حتى دخلت على عمرو الحديقة حين انتصف النهار فى ساعة شديد حرها فاذا الشجر تتكفا من غير ريح فلما أتت عمرا كهنت فقالت والنور والظلماء والأرض والسماء ان السد لهالك وليعودن الماء كما كان فى الزمن السالك قال عمرو ومن خبرك بهذا قالت أخبرتنى المناجد بسنين شدائد قال ماتقولين قالت أقول قول لهفا القدر رأيت سلحفا تجرف التراب جرفا وتقذف البول قذفا فدخلت الحديقة فاذا الشجر تتكفا قال عمرو وماترين فى ذلك قالت هى داهية دهياء عظيمة ومصائب بأمور جسيمة قال وماهى ويلك قالت أجل أن فيها الويل ومالك فيها من نيل قال الويل فيما يجىء به السيل فالقى عمرو نفسه على الثرى ثم قال

ماهذا ياطريفة قالت هو خطب جليل وحزن طويل وخلف قليل قال وما علامة ذلك قالت اذهب الى السد فاذا رأيت جرذا يكثر بيديه الحفر ويقلب برجليه الصخر فاعلم أن قد وقع الامر قال وماهذا الامر الذى تذكرين قالت وعد من الله نزل وباطل بطل ونكال من الله بنا نكل بغيرك ياعمرو نزل وانطلق عمرو الى السد فاذا الجرذ تقلب برجليها صخرة ماينقلها خمسون رجلا فرجع الى طريفة وهو يقول

أبصرت أمرا عادنى منه ألم * وهاجنى من هوله برح السقم

من جرذ كفحل خنزير الاجم * أو كبش صرم من أفاريق الغنم

يسحب ذيلا من جلاميد العرم * له مخاليب وأنياب قطم

* مافانه سحل من الصخر قصم *

فقالت طريفة ان من علامة ماذكرت لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك فان الريح تملاها من تراب البطحاء من سهل الوادى ورمله وقد علمت أن الجنان مظللة لاتدخلها الشمس ولا الريح فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه فلم يمكث الاقليلا حتى امتلأت من تراب البطحاء فقال لطريفة متى ترين هلاك السد قالت فيما بينك وبين سبع سنين قال ففى أيها تكون قالت لايعلمها الا الله ولو علمه أحد لعلمته ولكن لاتأتى على ليلة فيما بينى وبين السبع سنين الاظننت ان هلاكه فيها أو فى غدها ثم رأى عمرو فى النوم سيل العرم وقيل له ان آية ذلك أن ترى الحصباء فى سعف النخل وكربه فذهب الى كرب النخل وسعفه فوجد الحصباء قد ظهرت فيها فعلم ان ذلك واقع وان بلادهم ستخرب فكتم ذلك وأخفاه وأجمع أن يبيع كل شئ له بأرض مارب ثم خشى أن يستنكر الناس ذلك فصنع طعاما ثم بعث الى أهل مأرب أن عمرا صنع يوم مجد وذكر فاحضروا طعامه ثم دعا ولدا له يقال له مالك وقيل بل كان يتيما فى حجره فقال له اذا جلست لطعام الناس فاجلس عندى ونازعنى الحديث واردد على فاذا لطمتك فالطمنى قال له مالك وكيف أصنع ذلك قال عمرو افعل ما أمرتك وخلاك ذم ففعل مالك ماأمره به فصاح عمرو واذلاه يوم مجد وكرم لطم وجهى وحلف ليقتلنه فلم يزالوا به حتى تركه فقال لأأقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى وعرض أمواله فقال أشراف من أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله فلما اجتمعت له أثمانها أخبرهم بشأن سيل العرم فقالت الازد لانتخلف عن عمرو فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالا ففى ذلك يقول عباس بن مرداس

وعك بن عدنان الذين تغلبوا * بغسان حتى طردوا كل مطرد

ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزلت الاوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مرا ونزلت أزد السراة السراة ونزلت ازد عمان عمان ثم أرسل الله تبارك وتعالى على السد السيل فهدمه ففيه أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم لقد كان لسبأ فى مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور والعرم السد واحدته عرمة وكان السد فيما ذكروا فرسخا فى فرسخ وكان الذى بناه لقمان الأكبر ابن عاد وكان رصفه بالحجارة والحديد وكانت أرض مأرب يركبها السيل حتى بنى هذا الملك السد وعمله على آراء الحكماء فبنوه بعد ان جعلوا للسيل مصارف تقذف به الى البرارى والقفار حتى اتخذوا السد فى الموضع الذى كان فيه بدء جرى الماء بين الجبل الى الجبل وجعلوا له مخاريق ثم أجتذبوا من ذلك الماء نهرا مقدرا معلوما ينتهى فى جريانه الى المخاريق ثم ينبعث منه الماء الى أنقاب صغار وهى ثلاثون ثقبا فى السد يخرج عليها الماء بتقدير معلوم يسقى جناتهم

وكانت الأنقاب مستديرة على أحسن هندسة واجل تقدير وكان يأتيه السيل من مسيرة ثلاثة أشهر فلم يزالوا على ذلك ما شاء الله لا يعاندهم ملك الا قصموه ولا جبار الا هزموه فدانت لهم البلاد واذعنت لهم العباد وكانوا يعبدون الشمس فبعث الله اليهم أنبياء يدعونهم الى الله ويذكرونهم نعمه فجحدوا وأنكروا نعمه وقالوا لهم إن كنتم رسلا فادعوا الله أن يسلبنا ما أنعم به علينا ويذهب عنا ما أعطانا فدعت عليهم الرسل فتهدم سدهم وغشى الماء أرضهم وذهبت شجرهم وأموالهم وأنعامهم فقالوا أدعوا الله أن يخلف علينا أنعامنا ويرد علينا ما أخذ منا ونعطيكم موثقا الا نشرك به شيئا فسألت الرسل ربها فاجابهم الى ذلك وأعطاهم ما سألوا فاخصبت بلادهم واتسعت عمائرهم الى أرض فلسطين وبلاد الشام قرى ومنازل وأسواقا فأتتهم رسلهم فقالوا موعدكم أن تؤمنوا فأبوا الا طغيانا وكفرا بالله فمزقوا كل ممزق كما قص الله تعالى فى كتابه وسلط الله الجرذ على السد حتى خرب وغشى السيل بلادهم وضربت بهم العرب المثل فقالوا تفرقوا أيدى سبا وأيادى سبا وسبا كان اسمه عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وسمى سبا لأنه أول من سبا فى العرب وفى شأن السد وما كان من امره يقول الأعشى

وفى ذاك للمؤتسى أسوة ✽ ومارب عفى عليها العرم
رخام بنته لهم حمير ✽ اذا جاء مواره لم يرم
فأروى الزروع وأعنابها ✽ على سعة ماؤهم اذ قسم
فصار والأيادى لا يقدرو ✽ ن منه على شرب طفل فطم

مأرب اسم لقصر كان لهم وقيل هو اسم لكل ملك كان يلى سبا فعلى هذا القول الثانى لا بد ان يكون تقدير الكلام وأرض مأرب عفى عليها العرم وفى العرم أقوال قيل هى المسناة وهى السد قاله قتادة وقيل هو اسم للوادى قاله عطاء وقيل هو الجرذ الذى خرب السد وقيل هو صفة للسيل من العرامة وقال البخارى العرم ماء أحمر حفر فى الأرض حتى ارتفعت عنه الجنتان فلم يسقهما فيبستا ولم يكن الماء الأحمر من السد ولكنه كان عذابا أرسل عليهم وقول الناظم وسرح السد عنان جامح جاء به على جهة التمثيل لما كان السد قبل أن يخرب يرد السيل عن جريانه فلا يجوز عليه الا الأنهار المقدرة لسقى جنانهم ثم لما خرب لم يرد السيل شئ عن وجهه حتى أتى على جميع أرضهم كان ذلك بمثابة الفرس الجامح الذى ينضبط عن الجرى ويمنع منه فاذا سرح عنانه جاش فى جريه فلم يرده شئ وهذا فى باب التمثيل حسن وقد تقدم الكلام على أمثاله

مَنْ ظاهَرَ العَزْمَ بِحَزْمٍ ظَهَرَتْ ✽ نَتائِجُ النُّجْحِ لَهُ فِيما نَوَى
وَمَنْ نَحَي أمْرًا بِعَزْمٍ نافِذٍ ✽ مِنْ غَيْرِ حَزْمٍ لَمْ يُصِبْ فِيما نَحا
أمْ تُخْلِ سَيْفُ عَزْمِهِ مِنْ حَزْمِهِ ✽ إذْ سَلَّ سَيْفَ الجِدِّ قِدْمًا وَانْتَضَى
سَما بِكِسْرَى بَعْدَ قَصْدِ قَيْصَرٍ ✽ وَلَمْ يُقَصِّرْ فِى السُّرَى وَلا ألَى
حَتَّى حَوَى مُلْكَ ذِمارٍ وَحَمَى ✽ مِنَ الذِّمارِ المُسْتَباحِ ما حَمَى
وَقادَ كُلَّ مُحْرَبٍ حَتَّى ارْتَقَى ✽ مِنْ رَأْسِ غُمْدانَ بِمِحْرابِ الدُّمَى
وَشَرِبَ الكَأسَ هَنِيئًا عاقِدًا ✽ لِتاجِهِ وَجَرَّ ذَيْلًا وَانْتَحَى

ظاهر عاون والمظاهرة المعاونة والتظاهر التعاون وقوله تعالى وان تظاهرا عليه من ذلك ومنه قولهم ظاهر بين ثوبين اذا طارق بينهما وطابق أى لبس أحدهما على الآخر كأنه جعل كل واحد منهما معينا للاخر وفى الحديث ظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين وكسرى لقب لكل من يملك الفرس ويقال بفتح الكاف وكسرها وهو معرب خسر وجمعا كاسرة على غير قياس وقيصر ملك الروم ويقال الا يألو أى قصر فهو آل والمرأة آلية وجمعها أوال وفى المثل الاحظية فلا ألية وحكى الكسائى أقبل يضرب به لا يأل يريد يألو فحذف كما قالوا لا أدر وذمار على مثال فعال بفتح الذال وكسر الراء هى اليمن وصنعاء والذمار ماوراء الرجل مما يحق عليه أن يحميه كما يقال حامى الحقيقة وسمى ذمارا لأنه يجب على أهله التذمر له وسميت حقيقة لأنه يحق على أهلها الدفع عنها والتذمر التنكر والأبعاد ومنه ذمر الأسد أى زأر ومن ذلك قيل الزمر للشجاع وقولهم تذامروا اذا حث بعضهم بعضا فى الحرب من ذلك والمحرب صاحب الحروب والمحراب الغرفة ومنه محاريب غمدان باليمن قال وضاح اليمن

ربة محراب اذا جئتها * لم ألقها أو أرتقى سلما

وأما قوله تعالى فخرج على قومه من المحراب فالمراد به هنا المسجد قال الفراء المحاريب صدور المجالس ومنه سمى محراب المسجد والدماجع دمية وهى صورة من عاج أو مرمر وغمدان قصر باليمن قال بعضهم كانت غمدان عشرين سقفا طباقا بين كل سقفين عشرة أذرع وكان ارتفاع بنائها مائتى ذراع وفيها يقول الشاعر

مازال سام يريد الأرض مطلبا * للطيب خير بقاع الأرض يبغيها

حتى تبوأ غمدانا وشيده * عشرين سقفا يناغى النجم عاليها

وانتضى أفتعل من النضوة يقال أنتضى فلان علينا أى تكبر وتعاظم

﴿ ذكر سيف بن ذى يزن ﴾

وسيف الذى ذكره هو سيف بن ذى يزن الحميرى ويكنى بأبى مرة وكان من حديثه أن الحبشة كانت قد استولت على اليمن وغلبت عليها حمير بعد حروب كثيرة كانت بينهم وبين حمير الى ان هزمهم الحبشة وغرق ذو نواس آخر ملوكهم نفسه فى البحر أنفة من استيلاء الحبشة على ملكه وخوفا من العار وذو نواس هو صاحب الأخدود وسيأتى الحديث عنه وعن سبب طلب الحبشة له بعد هذا فأقام الحبشة بعده باليمن ثنتين وسبعين سنة فلما طال البلاء على أهل اليمن خرج سيف بن ذى يزن الحميرى حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكى اليه ماهم فيه وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم هو ويبعث اليهم من يشاء من الروم فيكون له ملك اليمن فلم يشكه فخرج حتى أتى النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من ارض العراق فشكى اليه أمر الحبشة فقال له النعمان ان لى على كسرى وفادة فى كل عام فاقم حتى يكون ذلك ففعل ثم خرج معه فادخله على كسرى وكان كسرى يجلس فى أيوان مجلسه الذى فيه تاجه وكان تاجه مثل القنقل(١) العظيم فيما يزعمون مضروبا فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ بالذهب والفضة معلقا بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك وكانت عنقه لاتحمل تاجه أنما يستتر بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك ثم يدخل رأسه فى تاجه فاذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك الا برك هيبة له فلما دخل عليه سيف بن ذى يزن برك وقال أبو عبيدة لما دخل عليه طأطأ رأسه فقال الملك أن هذا لأحمق يدخل على من هذا الباب العظيم ثم يطأطئ رأسه فقيل ذلك لسيف فقال انما فعلت هذا لهمى لأنه

---

(١) القنقل المكيال الضخم

يضيق عنه كل شئ ثم قال سيف أيها الملك غلبنا على بلادنا الاغربة فقال كسرى أى الأغربة الحبشة أم السند فقال بل الحبشة فجئتك لتنصرنى و يكون ملك بلادى لك قال بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورط جيشا من فارس بارض العرب لا حاجة لى بذلك ثم أجازه بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة فلما قبض ذلك سيف خرج فجعل ينثر تلك الورق للناس فبلغ ذلك الملك فقال أن لهذا لشأنا ثم بعث اليه فقال عمدت الى حباء الملك تنثره للناس فقال وما أصنع بهذا ما جبال أرضى التى خرجت منها الا ذهب وفضة يرغبه فيها فجمع كسرى مرازبته فقال لهم ماذا ترون فى أمر هذا الرجل وما جاء له فقال قائل أيها الملك أن فى سجونك رجالا قد حبستهم للقتل فلو أنك بعثتهم معه فان يهلكوا كان ذلك الذى أردت بهم وان ظفروا كان ملكا أزددته فبعث معه كسرى من كان فى سجونه وكانوا ثمانمائة رجل واستعمل عليهم وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسبا وبيتا فخرجوا فى ثمان سفائن فغرقت سفينتان ووصل الى ساحل عدن ست سفائن فجمع سيف الى وهرز من استطاع من قومه وقال له رجلى مع رجلك حتى نموت جميعا أو نظفر جميعا قال وهرز أنصفت وخرج اليه مسروق بن أبرهة الحبشى ملك اليمن وجمع اليه جنده فارسل اليهم وهرز ابنا له ليقاتلهم فيختبر قتالهم فقتل ابن وهرز فزاده ذلك حنقا عليهم فلما تواقف الناس على مصافهم قال وهرز أرونى ملكهم قالوا له أترى رجلا على الفيل عاقدا تاجه على رأسه بين عينيه ياقوتة حمراء قال نعم قالوا ذلك ملكهم قال أتركوه قال فوقفوا طويلا ثم قال على م هو قالوا قد تحول على الفرس قال أتركوه فوقفوا طويلا ثم قال على م هو قالوا على البغلة قال وهرز بنت الحار ذل وذل ملكه انى سأرميه فان رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى اوذنكم فانى قد اخطأت الرجل وان رايتم القوم قد استداروا ولاثوا به فقد اصبت الرجل فاحملوا عليهم ثم وتر قوسه وكانت فيما يزعمون لا يوترها غيره من شدتها وأمر بحاجبيه فعصبا ثم رماه فصك الياقوتة التى بين عينيه فتغلغلت النشابة فى رأسه حتى خرجت من قفاه ونكس عن دابته واستدارت الحبشة ولاثت به وحملت عليهم الفرس وانهزموا فقتلوا وهربوا فى كل وجه واقبل وهرز ليدخل صنعاء حتى اذا أتى بابها قال لا تدخل رايتى منكسة ابدا اهدموا الباب فهدم ثم دخلها ناصبا رايته فقال سيف بن ذى يزن

يظن الناس بالملكين انهما قد التأما * ومن يسمع بلامهما فان الخطب قد فقما

قتلنا القيل مسروقا وروينا الكثيب دما * وان القيل قيل الناس وهرز مقسم قسما

* يذوق مشعشعا حتى يفىء السبى والنعما *

وله يقول أبو الصلت بن ابى ربيعة الثقفى وتروى لأبنه امية

ليطلب الوتر امثال ابن ذى يزن * خيم فى البحر للاعداء احوالا

اتى هرقل وقد شالت نعامته * فلم يجد عنده القول الذى قالا

ثم انثنى نحو كسرى بعد تاسعة * من السنين لقد ابعدت ايغالا

حتى اتى ببنى الأحرار يحملهم * انك عمرى لقد اسرعت قلقالا

لله درهم من عصبة خرجوا * ما إن أرى لهم فى الناس امثالا

غلبا اساورة بيضا مرازبة * اسدا تربب فى الغيضات اشبالا

يرمون عن شدف(١) كانها غبط * بزمجر(٢) يعجل المرمى اعجالا

ارسلت اسدا على سود الكلاب فقد * اضحى شريدهم فى الأرض فلالا

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا * فى راس غمدان دارا منك محلالا

---

(١) شدف جمع شدفاء القوس العوجاء الفارسيه (٢) الزمجر سهم دقيق

﴿ ذكر وفود قريش على سيف بن ذي يزن ومابشر به ﴾

﴿ من ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعظم ومجد ﴾

وذكر عن ابن عباس أنه قال لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة وذلك بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم أتته وفود العرب وأشرافها تهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثار قومه فأتاه وفد قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس وأسد بن عبد العزى وعبد الله بن جدعان فقدموا عليه وهو في غمدان وهو قصر له وقد تقدم ذكره فطلبوا الاذن عليه فأذن لهم فدخلوا عليه فوجدوه متضمخا بالعبير وعليه بردان أخضران قد اتزر بأحدهما وارتدى بالآخر وسيفه بين يديه والملوك عن يمينه وشماله وأبناء الملوك والمقاول فدنى عبد المطلب فاستأذنه في الكلام فقال له قل فقال ان الله أيها الملك قد أحلك محلا رفيعا صعبا منيعا باذخا شامخا وأنبتك منبتا طابت أرومته وعزت في الكرم جرثومته في أكرم معدن وأطيب موطن فأنت أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذي به تخصب وملكها الذي له تنقاد وعمودها الذي عليه العماد ومعقلها الذي يلجأ اليه العباد سلفك خير سلف وأنت لنا بعدهم خير خلف ولن يهلك من أنت خلفه ولن يخمل من أنت سلفه نحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته أشخصنا اليك الذي أبهجنا بكشف الكرب الذي كان فدحنا فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزية قال ومن أنت أيها المتكلم قال عبد المطلب بن هاشم قال ابن أختنا قال نعم فأدناه وقربه ثم أقبل عليه وعلى القوم فقال مرحبا وأهلا وناقة ورحلا ومستناخا سهلا وملكا ربحلا يعطي عطاء جزلا قد سمع الملك مقالتكم وعرف قرابتكم وقبل وسيلتكم فأهل الليل والنهار أنتم ولكم الكرامة ما أقمتم والحباء اذا ظعنتم ثم قال انهضوا الى دار الضيافة والوفود وأجرى عليهم الانزال فأقاموا عنده شهرا لا يصلون اليه ولا يؤذن لهم في الانصراف ثم انتبه لهم انتباهة فدعا بعبد المطلب من بينهم فاخلاه وأدنى مجلسه وقال يا عبد المطلب اني مفوض اليك من علمي أمرا لو غيرك كان لم أبح له به ولكني رأيتك معدنه فأطلعتك عليه فليكن عندك مصونا حتى يأذن الله فيه فان الله بالغ أمره اني أجد في العلم المخزون والكتاب المكنون الذي ذخرناه لأنفسنا واحتجبناه دون غيرنا خبرا عظيما وخطرا جسيما فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس كافة ولرهطك عامة ولنفسك خاصة قال عبد المطلب مثلك أيها الملك سر وبر وبشر ما هو فداك أهل الوبر زمرا بعد زمر قال ابن ذي يزن اذا ولد مولود بتهامة بين كتفيه شامة كانت له الأمامة ولكم به الزعامة الى يوم القيامة قال عبد المطلب أبيت اللعن لقد أبت بخير ما آب به أحد فلولا اجلال الملك واعظامه لسألته ما أزداد به سرورا قال ابن ذي يزن هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه قد ولدناه مرارا والله باعثه جهارا وجاعل له منا أنصارا يعز بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه ويفتح بهم الارض ويضرب بهم الناس عن عرض يخمد الأديان ويكسر الصلبان ويعبد الرحمن قوله حكم وفصل وأمره حزم وعدل يأمر بالمعروف ويفعله وينهى عن المنكر ويبطله فقال عبد المطلب طال عمرك ودام ملكك وعلا جدك وعز فخرك فهل الملك سارى بان يوضح فيه بعض الايضاح قال ابن ذي يزن والبيت ذي الطنب والعلامات والنصب انك يا عبد المطلب لجده غير الكذب فخر عبد المطلب ساجدا قال ابن ذي يزن ارفع رأسك ثلج صدرك وعلا أمرك فهل أحسست شيئا مما ذكرته لك قال عبد المطلب أيها الملك كان لي ابن كنت له محبا وعليه حدبا مشفقا فزوجته كريمة من كرائم قومي يقال لها آمنة بنت وهب بن عبد مناف فجاءت بغلام بين كتفيه شامة فيه كل ما ذكرت من علامة مات أبوه وأمه فكفلته أنا وعمه قال له ابن ذي يزن ان الذي قلت لك كما قلت لك فاحفظ ابنك واحذر عليه اليهود فانهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا أطو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فاني لست آمنا أن تدخلهم النفاسة من أن تكون

لكم

لك الرياسة فيبغون لك الغوائل و ينصبون لك الحبائل وهم فاعلون وأبناؤهم ولولا انى أعلم أن الموت مجتاحى قبل مبعثه لسرت اليه بخيلى و رجلى حتى أصير بيثرب دار مهاجره فانى أجد فى الكتاب الناطق والعلم الصادق أن يثرب دار هجرته و بيت نصرته ولولا انى أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه أمره وأوطأت أقدام العرب عقبه ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشر آماء سود وخمسة أرطال فضة وحلتين من حلل اليمن وكرش مملوءة عنبرا وأمر لعبد المطلب بعشرة أمثال ذلك وقال اذا حال الحول فائتنى بما يكون من أمره فما حال الحول حتى مات ابن ذى يزن فكان عبد المطلب بن هاشم يقول يامعشر قريش لا يغبطنى رجل منكم بجزيل عطاء الملك فانه الى نفاد ولكن ليغبطنى بما يبقى لى ولعقبى ذكره وفخره فاذا قالوا وماذاك قال سيظهر بعد حين فذكروا أن سيف بن ذى يزن أقام على ملك اليمن من قبل كسرى يكاتبه و يصدر فى الأمور عن رأيه الى أن قتله عبيد له من الحبشة خلوا به وهو فى متصيد له فزرقوه بحرابهم وهربوا فى رؤس الجبال وطلبهم أصحابه فقتلوهم جميعا وأقام الفرس باليمن الى أن جاء الله بالاسلام فأسلموا و بعثوا باسلامهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت الرسل من الفرس الى من نحن يارسول الله قال أنتم منا والينا أهل البيت قال الزهرى فمن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمان منا أهل البيت و زعموا أنه كان فى حجر باليمن كتاب بالزبور كتب فى الزمان الأول لمن ملك ذمار لحمير الأخيار لمن ملك ذمار للحبشة الأشرار لمن ملك ذمار لفارس الأحرار لمن ملك ذمار لقريش التجار وذكر المسعودى أنه كان على باب ظفار وهى مدينة باليمن كان ملوك اليمن ينزلونها مكتوبا بالقلم الأول فى فى حجر اسود

يوم شيدت ظفار قيل لمن أ: * ت فقالت لحمير الأخيار
ثم سيلت مابعد ذاك فقالت * ان ملكى للاحبش الأشرار
ثم سيلت مابعد ذاك فقالت * ان ملكى لفارس الأحرار
ثم سيلت مابعد ذاك فقالت * ان ملكى الى قريش التجار
ثم سيلت مابعد ذاك فقالت * ان ملكى لحمير الأخيار
وقليلا مايلبث القوم فيها * عند تشيدها بحاقى البوار
من أسود يلقيهم البحر فيها * تشعل النار فى اعالى الديار

قال وهذا خبر عن ملوك تداولتها اخبر عن ملكهم قبل كونهم فكانت ممالكهم على حسب ماوصف قال و ينتظر فى مستقبل الزمان ماذكر من وقود النار فى اعالى الديار قال وعند اليمن ان ديارهم ستغلب عليها الأحابش فى آخر الزمان من بعد كوائن وحوادث قلت وقد قيل ان الذى تغلب على الحبشة وقاد الفرس الى اليمن انما هو معدى كرب بن سيف بن ذى يزن وان أباه سيف بن ذى يزن كان قد ركب البحر ومضى الى قيصر يستنجده فاقام ببابه سبع سنين وأبا ان ينجده وقال له أنتم يهود والحبشة نصارى وليس فى الديانة أن ينصر المخالف على الموافق فمضى الى كسرى أنوشروان فاستنجده ومت اليه بالجلدة البيضاء فوعده أنوشروان بالنصرة وشغل بحرب الروم وغيرها من الامم ومات سيف بن ذى يزن فاتى معدى كرب بن سيف فصاح على باب الملك فلما سئل عن حاله قال لى قبل الملك ميراث فوقف بين يدى أنوشروان فسأله عن ميراثه فقال أنا ابن الشيخ الذى وعده الملك النصرة على الحبشة فسأل عنه كسرى أهو من بيت المملكة أم لا فاخبر انه من بيت ملك فوجه معه بوهرز فغلب الحبشة واستولى على اليمن و يزعم من قال أن وفود قريش انما كانت على معدى كرب وانه الذى بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم والذى قتلته الحبشة بعد ذلك وقد قال أبو عبادة البحترى لبعض ابناء العجم يذكر فضل الفرس على اسلافه لأنه رجل من قحطان

هل لكم من يد يزكوا الثناء بها * ونعمة ذكرها باق على الزمن
ان تفعلوها فليست بكر أنعمكم * ولا ببدع أياديكم لدا اليمن
أيام جلى أنو شروان جدكم * غيابة الذل عن سيف بن ذى يزن
أذلا تزول له خيل مدافعة * بالضرب والطعن عن صنعاء أوعدن
أنتم بنو المنعم المجدى ونحن بنو * من فاز منكم بفضل الطول والمنن

فقوله عن سيف بن ذى يزن يريد ما ذكرنا أولا من أن المتغلب على الحبشة هو سيف وهو الذى اعتمد عليه الناظم والذى ذكر ابن اسحاق فى السير وذكر الطبرى أن عظيما لحبشة لما غلبوا على اليمن بعث الى سيف بن ذى يزن فانتزع منه ريحانة بنت علقمة بن مالك وكانت قد ولدت لسيف معدى كرب فلكها أبرهة وأولدها مسروق بن أبرهة وعند ذلك توجه سيف الى كسرى أنوشروان فطلب منه الغوث فكان من وعده أياه النصر وموته عنده وخلف ابنه معدى كرب فى طلب الثار ما تقدم قلت فان كان ما ذكر الطبرى حقا فمعدى كرب بن سيف ابن ذى يزن ملك حمير أخو مسروق ملك الحبشة لأمه ولما قتل سيف أو معدى كرب على اختلاف الأقوال فى ذلك تفرق أمر اليمن بعده الى مخاليف عليها مقاول كملوك الطوائف لا يدين بعضهم لبعض الا ما كان من صنعاء وكون أبناء الفرس فيها حتى جاء الأسلام قلت قول الناظم من ظاهر العزم بحزم البيت ينظر الى قول المتنبي

الرأى قبل شجاعة الشجعان * هو أول وهى المحل الثانى
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة * بلغت من العلياء كل مكان

وقوله ولم يقصر فى السرى ولا ألى اشارة الى قول أبى الصلت

ثم أنثنى نحو كسرى بعد تاسعة * من السنين لقد أبعدت أيغالا

والى قوله

* خيم فى البحر للاعداء أحوالا *

وقوله وحمى من الذمار المستباح ما حمى يعنى ما كانت الحبشة استباحت من ملك اليمن ونالت من أهله وقوله وقاد كل محرب البيت والبيت الذى بعده اشارة الى قول ابى الصلت * حتى انى ببنى الأحوار يحملهم *

والى قوله

* فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا *

وكان بمحرابه بقصر غمدان صور بديعة الصنعة هى الدمى التى ذكرها

وَلَمْ يَبِنْ عَنْ أَيْدِ عَمْرٍو كَيْدُهُ * إِذْ أَنْزَلَ الزَّبَّاءَ مِنْ شُمِّ الذُّرَى
مِنْ بَعْدِ مَا أَبْصَرَهَا أَنْأَي مَدًى * مِنْ لِقْوَةِ الْجَوِّ وَأَعْلَى مُرْتَقَى
وَلَمْ يُقَصِّرْ فِى مَدَى الْكَيْدِ الَّذِى * جَارَى بِهِ عَمْرًا قَصِيرٌ بَلْ شَأَى
فَأَظْهَرَ النُّصْحَ وَأَخْفَى ضِدَّهُ * كَمَنْ أَسَرَّ حَسْوَهُ لَمَّا ارْتَغَى
وَغَرَّهَا جَدْعُ قَصِيرٍ أَنْفَهُ * فَأَمِنَتْهُ وَهُوَ مَرْهُوبُ الشَّذَى
فَدَسَّ مَحْضَ الْخِسْرِ فِى الرِّبْحِ لَهَا * وَأَدْرَجَ الشَّرَّ لَهَا فِيمَا شَرَى
وَأَوْقَرَ الْعِيسَ رِجَالًا وَعِبَا * بُؤْسًا لَهَا وَأَبْؤُسًا فِيمَا عَبَا

وأرْتَابَ فِي مَشْيِ الجِمَالِ لَحْظُهَا ... وَلَمْ تُحَقِّقْ عِنْدَ مَا قَالَتْ عَسَى

وَمَا دَرَتْ مَافَوْقَهَا حَتَّى غَدَتْ ... مُقْصَدَةً بِسَهْمِ دَهْيٍ مَاحَبَى

فَجَلَّلَ الهَامَةَ مِنْهَا سَيْفَهُ ... عَمْرٌو وأَرْوَى الهَامَ مِنْ بَعْدِ الصَّدَى

الأيد والأد القوة والكيد المكر واللقوة بفتح اللام وكسرها العقاب الأنثى والجو هنا ما بين السماء والأرض وشأى سبق والارتغاء شرب الرغوة وهي زبد اللبن ويقال بفتح الراء وضمها وكسرها وفي المثل يسر حسوا في ارتغاء يضرب لمن يظهر أمرا وهو يريد غيره وأصله ان الرجل يؤتى باللبن فيظهر انه يريد الرغوة لا يشرب غيرها وهو مع ذلك ينال من اللبن قال الشعبي لمن سأله عمن قبل أم امرأته فقال يسر حسوا في ارتغاء وقد حرمت عليه امرأته وشذى كل شئ حده وهو أيضا الأذى والشر وقوله وعبا بوسالها يقال عبأت المتاع عبئا اذا هيأته وهو مهموز فابدل الهمزة ألفا لاجل القافية على الوجه الذى ذكرته سابقا والبوسى ضد النعمى والبوس ضد النعم يقال يوم بوس ويوم نعم والابؤس الداهية وفي المثل عسى الغوير أبؤسا يضرب لكل شئ يخاف أن يؤتى منه وأول من تكلم به الزباء والآن نأتي بحديثها وقوله بسهم دهى ماحبا يقال حبا السهم غير مهموز اذا زلج على الارض ثم أصاب الهدف يريد أنه لم يعرض له ما يثبطه عنها والدهى المكر وجودة الرأى ويقال قصد السهم اذا أصاب فقتل مكانه وقوله فجلل الهامة منها سيفه أى جعله يتجللها أى يعلوها يقال تجللت الشئ اذا علوته وانما أراد أنه ضرب بها مامتها فعلاها عند الضرب والهامة الرأس وقوله وأروى الهام من بعد الصدى الهام جمع هامة وهو طائر تزعم العرب أنه يخرج من رأس المقتول فلا يزال يقول اسقونى أسقونى حتى يقتل قاتله وقد تقدم القول في ذلك وانما يريد الناظم أنه قام بالثار فقتل قاتل جذيمة وكنى عن ذلك بارواء الهام على سبيل ما كانت العرب تقول

﴿ ذكر عمرو بن عدى اللخمي ﴾

وعمرو الذى ذكره الناظم هو عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن عبد الحرث بن مالك بن غنم بن نمار بن لخم وهو ابن أخت جذيمة الوضاح الذى تقدم ذكره ملك بعد خاله مائة وثمان عشر سنة فيما يزعمون وهو أول من ملك من ملوك لخم وكان مدة ملك لخم بالحيرة فيما ذكر واخمسمائة عام وكان من حديث عمرو أن جذيمة الوضاح قال يوما لندمائه لقد ذكر لي عن غلام من لخم في أخواله من أياد ظرف وأدب فلو بعثت اليه فوليته كأسى والقيام على رأسى لكان رأيا قالوا الرأى رأى الملك فليبعث اليه ففعل فلما قدم عليه قال من أنت قال أنا عدى بن نصر بن ربيعة فولاه مجلسه فعشقته رقاش بنت مالك أخت الملك فقالت له يا عدى اذا سقيت القوم فامزج لهم وعرق للملك أى أمزج له قليلا كالعرق فاذا أخذت الخمر منه فاخطبني اليه فانه يزوجك فأشهد القوم أن فعل ففعل الغلام فخطبها فزوجه وأشهد عليه وانصرف اليها فقالت له عرس بأهلك ففعل فلما أصبح غدا متضمخا بالخلوق فقال له جذيمة ماهذه الآثار يا عدى قال آثار العرس قال وأى عرس قال عرس رقاش فنخر وأكب على الارض ورفع عدى جراميزه فأسرع جذيمة في طلبه فلم يجده وقال بعضهم بل قتله وبعث اليها وقال

حدثيني وأنت لا تكذبيني ... أبحر زنيت أم بهجين

أم بعبد فأنت أهل لعبد ... أم بدون فأنت أهل لدون

فأجابت رقاش

أنت زوجتني وما كنت أدري * وأتاني النساء للتزين

ذاك من شربك المدامة صرفا * وتماديك في الصبا والمجون

فنقلها جذيمة اليه وحصنها في قصره فاشتملت على حمل وولدت غلاما فسمته عمرا وربته حتى اذا ترعرع حلته وعطرته والبسته كسوة فاخرة ثم أزارته خاله فاعجب به والقيت عليه محبة منه وخرج جذيمة في سنة قد أخصبت فبسط له في روضة وخرج عمرو في غلمة يجتنون الكمأة فكانوا اذا أصابوا كمأة طيبة أكلوها واذا أصابها عمرو خبأها ثم أقبلوا يسرعون وعمرو يقدمهم ويقول

هذا جناى وخياره فيه * إذ كل جان يده الى فيه

وقيل ان جذيمة نزل منزلا وامر أن يجتني له الكمأة فكان بعضهم اذا وجد منها شيئا يعجبه ربما آثر به نفسه على جذيمة وكان عمرو يأتيه بخير ما يجد فعندها يقول

* هذا جناى وخياره فيه *

وقد تمثل بذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما جبيت اليه مجابي العراق فنظر الى ذهبها وفضتها فقال يا حمراء يا بيضاء احمرى وابيضى وغرى غيرى

هذا جناى وخياره فيه * إذ كل جان يده الى فيه

ثم ان الجن استهوت عمرا فطلبه جذيمة في آفاق الأرض فلم يسمع له خبر إذ أقبل رجلان من بلقين يقال لأحدهما مالك وللآخر عقيل وهما ابناء فالج ويقال أبنا فارج من الشام وهما يريدان الملك بهدية فنزلا على ماء ومعهما قينة يقال لها أم عمرو فنصبت لهما قدرا وهيأت لهما طعاما فبينما يأكلان اذ أقبل رجل أشعث الرأس قد طالت أظفاره وساءه حاله فجلس مزجر الكلب ومد يده فناولته المرأة طعاما فأكل فلم يغن عنه شيئا ومد يده فقالت القينة أعط العبد كراعا يطلب ذراعا فأرسلتها مثلا ثم ناولت صاحبيها من شرابها واوكأت سقاءها فقال عمرو بن عدى

صددت الكأس عنا ام عمرو * وكان الكاس مجراها اليمينا

وما شر الثلاثة ام عمرو * لصاحبك الذى لاتصبحينا

ويروى تصد الكأس عنا أم عمرو ويروى هذان البيتان لعمرو بن كلثوم التغلبي ويقال أن عمرو بن كلثوم أدخلهما في شعره فقال الرجلان له من أنت فقال ان تنكراني فلن تنكرا نسبي انا عمرو بن عدى فقاما اليه فسلما عليه وقلما أظفاره وأخذا من لمته والبساه من طرائف ثيابهما وقالا ما كنا نهدى الى الملك هدية هي أنفس عنده ولا هو علينا أحسن صفدا من ابن أخته قد رده الله عليه فخرجا حتى وقفا بباب الملك فبشراه فسر به وصرفه الى أمه وقال لهما حكمكما فقالا حكمنا منادمتك ما بقيت وبقينا قال ذلك لكما فهما نديما جذيمة المعروفان واياهما عنى متمم بن نويرة اليربوعى بقوله

وكنا كندماني جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل لن نتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا * لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقد تمثل بهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال أبو خراش الهذلي

ألم تعلمي ان قد تفرق قبلنا * خليلا صفاء مالك وعقيل

وقال بعض المحدثين

نحن كنا في التصافي * مثل ندماني جذيمه

فأتى الصرم بيوم * دونه يوم حليمه

تقدح الأيام حتى * في المودات القديمه

وروى أن جذيمة كان لا ينادم أحداً كبراً وزهواً وكان يقول أنا أعظم من أن أنادم إلا الفرقدين فكان يشرب كأساً ويصب لكل واحد منهما كأساً فلما أتاه مالك وعقيل بابن أخته قال لهما احتكما فقالا منادمتك نادماه أربعين سنة يحدثانه فما أعادا عليه حديثاً وعمدت رقاش أم عمرو اليه فبعثت معه حفدة يقومون عليه في الحمام حتى اذا خرج ألبسته من طرائف ثياب الملك وجعلت في عنقه طوقاً من ذهب لنذر كان عليها ثم أمرته بزيارة خاله فلما رأى خاله لحيته والطوق في عنقه قال شب عمرو عن الطوق فذهبت مثلاً وأقام عمرو مع الملك خاله يحمل عنه عامة أمره الى ان كان من أمر جذيمة مع الزباء ما تقدم ذكره واختلف في نسب الزباء فقيل كانت رومية وكانت تتكلم بالعربية ومدائنها على شاطئ الفرات من الجانب الشرقي والغربي وقيل هي بنت عمرو بن طرب بن حسان من أهل بيت من العماليق وفيها جرى المثل فقيل أعز من الزباء والزباء تمدو تقصر فمن مدّ جعل مذكرها أزب مثل أحمر وحمراء ومن قصر جعله زبان مثل غضبا وغضبان وهي التي غزت مارداً والأبلق وكان مارد مبنياً بأحجار سود والأبلق من حجارة سود وبيض فاستصعبا عليها فقالت تمرد مارد وعز الابلق فذهبت كلتاهما مثلاً وكان من حديث عمرو مع الزباء أنها لما قتلت جذيمة ونجا قصير بن سعد على العصا أورد الخبر على عمرو التنوخي بالحيرة فاشفق لذلك فقال له قصير اطلب بثأر ابن عمك والا سبتك العرب فلم يحفل بذلك فخرج قصير الى عمرو بن عدى فقال له هل لك ان أصرف الجنود اليك على أن تطلب بثأر خالك فصرف وجوه الجند اليه ومناهم بالمال وصلاح الحال فانصرف اليه منهم بشر كثير فالتقى هو والتنوخي فلما اخرجوا للقاء بايعه التنوخي وتم الأمر لعمرو بن عدى فقال له قصير انظر فيما وعدتني به من أمر الزباء فقال وكيف أقدر على الزباء وهي أمنع من عقاب لوح الجو فأرسلها مثلاً فقال له قصير أطلب الامر وخلاك ذم فذهبت مثلاً أيضاً ثم قال له قصير اجدع أنفي واقطع أذني واضرب ظهري حتى تؤثر فيه ودعني وإياها ففعل به عمرو ذلك وقيل ان عمراً أبى أن يفعل ففعل قصير بنفسه ذلك وقيل في المثل لأمر ما جدع قصير أنفه قال المتلمس

فمن طلب الاوتار ماحز أنفه * قصير وخاض الموت بالسيف بيهس

ثم لحق بالزباء فقالت له أصبت بهذا من أجلك قالت وكيف قال ان عمراً زعم أني أشرت على خاله بالخروج اليك حتى فعلت به ما فعلت ثم أحسن خدمتها وأظهر لها النصيحة حتى حسنت منزلته عندها وزين لها التجارة فبعثت معه بعير الى العراق فصار قصير الى عمرو مستخفياً فأخذ منه مالا وزاده على مالها واشترى لها طرائف من طرائف العراق ثم رجع اليها فأراها تلك الارباح فسرتها ثم كر كرة اخرى فاضعف لها المال فلما كان في المرة الثالثة اتخذ جوالق كجوالق المال وجعل ربطهامن داخل الجوالق من اسفلها وادخل فيها الرجال بالاسلحة واقبل اليها واخذ غير الطريق فكان يسير الليل ويكمن النهار وأخذ عمرا معه وكانت الزباء قد صور لها عمرو قائماً وقاعداً وراكباً واتخذت نفقاً اجرت عليه الماء من الفرات من قصرها الى قصر اختها زنيبة وهي تصغير زينب على حذف الزوائد وعمي عليها خبر قصير فسألت عنه فقيل اخذ الغوير فقالت عسى الغوير أبؤساً فأرسلتها مثلاً قال ابن الكلبي الغوير ماء لكلب معروف ودخل قصير الى الزباء وقد تقدم العير فقال لها قومي فانظري الى العير فرقيت سطحاً فجعلت تنظر الى العير مقبلة تحمل الرجال فقالت يا قصير

مالِلجمال مشيها وئيدا * أجندلاً يحملن أم حديدا

أم صرفاناً بارداً شديدا * أم الرجال جثماً قعودا

وقد كان قصير وصف لعمرو شأن النفق ووصف له الزباء فلما دخلت العير المدينة وعلى باب الزباء بوابون من النبط ومنهم رجل بيده مخصرة فطعن جوالقاً منها فأصابت المخصرة رجلا منهم فضرط فقال البواب بالنبطية بشتا بشتا أى الشر الشر واستل قصير سيفه فضرب به البواب فقتله وجاء على فرسه فدخل الحصن يعقب الابل وبركت

الابل وحل الرجال الجوالقات ومشوا في المدينة ووقف عمرو على باب السرب والسرب حفير تحت الارض فلما رات عمرا عرفته بالصفة فمصت خاتما في يدها مسموما فقالت بيدي لا بيد عمرو ويقال ان عمرا جللها بالسيف فاستباح عمرو بلاد الزباء وعظم امره وهابته الملوك لما كان من حيلته في الطلب بثاره حتى ادركه وخلف عمرو في بلاد الزباء خيلا ورجع هو وقصير بالغنائم فيقال ان ذلك اول سبي قسم في العرب من غنائم الروم وكان ملك عمرو نيفا وستين سنة ومن عقب عمرو هو النعمان بن المنذر المتقدم الذكر قلت فقول الناظم ولم يبن عن ابد عمرو وكيده شبيه بقوله لم يخل سيف عزمه من حزمه بقول ابي الطيب الذي انشدناه

* الراى قبل شجاعة الشجعان *

يقول لم يقتصر على الايد حتى ضم اليه الكيد وبذلك بلغ ما اراد وقوله من بعدما ابصرها انأى مدى البيت اشارة الى قول عمرو لقصير وكيف اقدر على الزباء وهي امنع من عقاب لوح الجو وقوله فدس محض الحسر في الربح لها اي دس الكيد لها والمكر بها في الارباح التي اظهرها والطرائف التي اراها انه اشتراها وقوله واوقر العيس رجالا والبيت بعده إشارة الى قولها عسى الغوير ابؤسا والى قولها ما للجمال مشيها وئيدا

وَأَدْرَكَ الطَّسْمِيُّ قِدَماً ثَارَهُ عِنْدَ جَدِيسٍ وَدَهَا مَنْ قَدْ دَهَا

قد تقدم حديث ادراك الطسمي بثاره عند جديس حين اوردنا الحديث عن زرقاء جو

وَلَمْ يُقَصِّرْ فِي طِلَابِ ثَارِهِ مُحَرِّقٌ مِنْ بَعْدِهِمْ وَلَا ائْتَلَا
وَكَانَ آلَى أَنْ يُبِيءَ مَائَةً بِوَاحِدٍ فَلَمْ يَمِنْ فِيمَا ائْتَلَا
فَكَمَّلَ الْعِدَّةَ إِلَّا وَاحِداً لَمْ يَمْطُلِ الدَّهْرُ بِهِ وَلَا لَوَا
فَأَلْحَقَ الشَّقِيَّ بِالْأَشْقَيْنَ إِذْ أَطْمَعَهُ شَمُّ الْقُتَارِ فِي الْقِرَى

ابات القاتل بالقتيل واستبانه اذا قتله به ويقال باء الرجل بصاحبه اذا قتل به وقالوا باءت عرار بكحل وهما بقرتان قتلت احداهما بالاخرى ويقال بؤ به اي كن ممن يقتل به قال الشاعر

فقلت له بؤ بامرىء لست مثله * وان كنت قنعانا لمن يطلب الدما

ومنه قول مهلهل حين قتل ابن الحرث بن عباد بؤ بشسع نعل كليب والقتار ريح الشواء وقد قتر اللحم يقتر بالكسر اذا ارتفع قتاره وقتر وائتلى في البيت الاول معناه قصر وائتلى في البيت الثاني بمعنى حلف ولوى مطل

﴿ ذكر عمرو بن هند وتحريقه بني تميم ﴾

ومحرق الذي ذكره هو عمرو بن المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي وهو عم النعمان بن المنذر وهو الذي يدعى بابن هند لان أمه هند بنت الحارس بن عمرو الكندي آكل المرار ويدعى أيضا مضرط الحجارة وانما سمي بذلك لشدة وطأته وصرامته وسمي محرقا لتحريقه بني تميم حسبما نذكره الآن وقيل سمي محرقا لتحريقه نخل ملهم وملهم موضع بالبحرين وقيل لشدة عتوه كما يقال للذي يكثر الشر والفساد أضرم الأرض نارا وذكر ابن قتيبة أن جده امرأ القيس يدعى أيضا محرقا وأنه الذي عنى الاسود بن يعفر بقوله ماذا أؤمل بعد آل محرق وعمرو هذا هو صاحب طرفة والمتلمس وكان كتب لهما الى عامله بالبحرين كتابا أوهمهما أنه أمر لهما فيه بصلة

وكتب فيه بأمره بقتلهما فاما المتلمس فانه دفع صحيفته الى رجل من أهل الحيرة فقرأها له فلما عرف مافيها نبذها في نهر بقرب الحيرة ورجع فقيل صحيفة المتلمس وأما طرفة فمضى حتى أوصلها الى العامل فقتله وقصتهما أطول من هذا وكان من حديث عمرو بن هند حين طلب ثاره أنه كان له ابن يقال له أسعد فتبناه زرارة بن عدس فاسترضع في بني دارم فلما ترعرع مرت به ناقة كوماء سمينة فعبث بها فرمى ضرعها فشد عليه رجل بها سويد أحد بني عبد الله بن دارم فقتله ثم هرب فلحق بمكة فحالف بها قريشا وكان عمرو بن المنذر قد غزى قبل ذلك ومعه زرارة فاخفق فلما كان على جبل طيء قال له زرارة ان مثلك اذا غزا لم يرجع ولم يصب بغارته أحدا فعل على طيء فأنت حيالهم فال عليهم فاسر وقتل وغنم فكانت في صدور طيء على زرارة فلما قتل سويد أسعد وكان زرارة يومئذ عند عمرو بن المنذر كتم الملك قتل ابنه فقال عمرو بن ملقط الطائي يحرض الملك على زرارة

من مبلغ عمرا بان * المرء يخلق لم صباره
وحوادث الأيام لا * تبقى لها الا الحجاره
ها ان عجزة أمه * بالسفح أسفل من أواره
تسفي الرياح خلال كشـ * حيه وقد سلبوا أزاره
فاقتل زرارة لا أرى * في القوم أوفى من زراره

فقال عمرو يازرارة مايقول قال كذب قد علمت عداوتهم لي فيك قال صدقت فلما جن عليه الليل أجلود فلحق بقومه فغزا عمرو بن هند بني دارم طالبا بثار الأسعد ابنه وحلف ليحرقن منهم مائة فجاء حتى أناخ على أواره وقد نذروا به فتفرقوا فتتبعهم حتى حرق تسعة وتسعين قذفهم في النار ثم أراد أن يبر قسمه بعجوز منهم ليكمل العدة فلما أمر بها قالت العجوز ألا فتى يفدي هذه العجوز بنفسه ثم قالت هيهات صارت الفتيان حمما ومر رجل من البراجم فاشتم رائحة القتار فظن أن الملك متخذ طعاما فعرج اليه فأتى به اليه فقال له من أنت قال أبيت اللعن أنا وافد البراجم فقال ان الشقي وافد البراجم فذهبت مثلا ثم أمر به فقذف في النار فقال الأعشى في ذلك

ويكون في السلف الموا * رى من قرى وبني زراره
أبناء قوم قتلوا * بين القصيبة في أواره
جزروا على ماعودوا * ولكل عادات أماره
والعود يعصر ماؤه * ولكل عيدان عصاره

وقال جرير يعير الفرزدق

أين الذين بنار عمرو حرقوا * أم أين أسعد فيكم المسترضع

وقال أيضا

وأخزاكم ربي كما قد خزيتم * وأدرك عمارا شقي البراجم

ولقصة وافد البراجم عيرت بنو تميم بحب الطعام قال الشاعر

اذا ما مات ميت من تميم * فسرك أن يعيش فجئ بزاد
بخبز أو بلحم أو بتمر * أو الشئ الملفف في البجاد
تراه ينقب البطحاء حولا * ليأكل رأس لقمان بن عاد

ويروى يطوف الآفاق حرصا وقد ذكر أبو عبيدة هذه القصة ولم يذكر فيها تحريقا وانما ذكر أنه قتلهم وكلهم بقتل وافد البراجم وأنشد بيت جرير

* أين الذين بسيف عمرو قتلوا *

ثم قال وأما الطرماح فانه لما هجا الفرزدق زعم أن عمرا حرقهم في أخدود قال ولم يكن له بهذا الحديث علم أو طلب

القافية قلت قول الناظم وكان آلى أن يبيء مائة بواحد يريد بما كان من حلف عمرو بن هند أن يحرق منهم مائة وأراد بالواحد ابنه وقوله لم يمطل الدهر به ولا لو ايعني ما كان من سرعة أتيان وافد البراجم من غير طلب فكمل به المائة وهو المراد بقوله فالحق الشقي بالأشقين

وَأَخْتَلَقَ الْجَحَّافُ عَهْدًا حِيلَةً ۞ وَكَانَ ذَا دَهْيٍ مَتَى يَخْلُقْ فَرَى

وَقَادَ جَيْشًا غَالِبًا لِتَغْلِبِ ۞ قَدْ سَطَعَ النَّقْعُ عَلَيْهِ وَهَبَا

حَتَّى أَضَاقَ بِالرَّحُوبِ سَيْفُهُ ۞ مِنْ أَبَارَ مِنْهُمْ رَحْبَ الْفَلَا

وَسَامَهُمْ بِالْبِشْرِ يَوْمًا عَابِسًا ۞ أَضْحَكَ كُلَّ ضَبُعٍ ذَاتِ عَثًا

اختلق افترى والعهد ما يكتبه الخلفاء للولاة بالولاية وهو مأخوذ من العهد الذي يراد به الوصية يقال عهد الى بكذا أى أوصانى بكذا والدهى المكر وقد تقدم ويقال خلقت الأديم اذا قدرته قبل القطع ومنه قول زهير

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ۞ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

وقال الحجاج ما خلقت الا فريت ولا وعدت الا وفيت وهبا سطع والهباء الغبار والهبوة الغبرة والرحوب موضع وابار أهلك والبشر موضع قريب من الرحوب وقوله أضحك كل ضبع ذات عثا يقال للضبع عثواء لكثرة شعرها وهى ذات عثا أى جعلها تضحك أى تحيض يقال ضحكت المرأة اذا حاضت وبه فسر قوله تعالى وامرأته قائمة فضحكت وقالوا ضحكت الأرنب اذا حاضت وزعموا أن الضبع اذا أكلت لحوم الناس أو شربت دماءهم طمثت وقد أضحكها الدم وبه فسر ابن الأعرابى قول ابن أخت تأبط شرا

تضحك الضبع لقتلى هذيل ۞ وترى الذئب لها يستهل

وكان ابن دريد يرد هذا ويقول من شاهد الضباع عند حيضها فيعلم أنها تحيض وانما أراد الشاعر أنها تكثر لأكل اللحوم فجعل ذلك منها ضحكا وقيل معناه أنها تستبشر بالقتلى اذا أكلتهم فجعل السرور ضحكا لأن الضحك انما يكون منه كما سمى العنب خمرا

﴿ ذكر الجحاف بن حكيم السلمي وايقاعه ببني تغلب يوم البشر ﴾

والجحاف الذى ذكره هو الجحاف بن حكيم السلمى وكان من حديثه أن عمير بن الحباب السلمى وهو ابن عم الجحاف كان قد نهض فى الفتنة التى كانت بالشام بسبب الزبيرية والمروانية فلقى فى بعض تلك المطارادات خيلا لبنى تغلب فقتلوه فلما اجتمع الناس على عبد الملك ووضعت الحرب أوزارها دخل الجحاف على عبد الملك والأخطل عنده فالتفت اليه الأخطل وقال

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر ۞ بقتلى أصيبت من سليم وعامر

فقال الجحاف مجيباله

بلى سوف أبكيهم بكل مهند ۞ وأبكى عميرا بالرماح الخواطر

ثم قال يا ابن النصرانية ما ظننتك تجترىء على بمثل هذا ولو كنت مأسورا لخم الأخطل فرقا من الجحاف فقال عبد الملك لا ترع فانى جارك منه فقال الأخطل هبك تجيرنى منه فى اليقظة فمن يجيرنى منه فى النوم فنهض الجحاف من عند عبد الملك مغضبا يجر مطرفه فقال عبد الملك أن فى قفاه لغدرة ومر الجحاف لطيته حتى أتى قومه فجمعهم

الى نفسه فافتعل عهداً من أمير المؤمنين عبد الملك على صدقات بكر وتغلب فصحبه من قومه نحو الف فارس فسار بهم حتى نزل الرصافة وبينها وبين شط الفرات ليلة وهى فى قبلة الفرات ثم كشف لهم أمره وأنشدهم شعر الأخطل وقال لهم أنما هو النار أو العار فمن صبر فليتقدم ومن كره فليرجع قالوا ما بانفسنا عن نفسك رغبة فاخبرهم بما يريد فقالوا نحن معك فيما كنت من خير أو شر ثم سار الى بنى تغلب فصادف فى طريقه أربعمائة منهم فقتلهم ومضى حتى انتهى الى البشر وهو ماء لبنى تغلب وبقبلي عاجنة الرحوب فصادف عليه جمعا من تغلب فقتل منهم خمسمائة رجل وتعدى الرجال الى قتل النساء والولدان وبقر عن بطونهم ويسمى ذلك اليوم يوم البشر ويقال له أيضا يوم عاجنة الرحوب وقتل فى ذلك اليوم ابن للاخطل يقال له أبو غياث ففى ذلك يقول جرير

شربت الخمر بعد أبى غياث * فلا نعمت لك السوءات بالا

وذكروا ان الأخطل وقع يومئذ فى أيديهم وعليه عباءة دنسة فسألوه فذكر أنه عبد فأطلقوه ففى ذلك يقول الشاعر

لم ينج الا بالتعبد نفسه * لما تيقن أنهم قوم عدا

فيقال ان عجوزا نادت الجحاف عند قتل النساء حاربك الله يا جحاف أتقتل نساء أعلاهن ثدى واسفلهن دمى ثم أنه لحق بالروم فمكث عندهم زمينا وقال فى ذلك

فان تطردونى تطردونى وقد جرى * بى الورد يوما فى دماء الأراقم

لدن ذر قرن الشمس حتى تلبست * ظلاما بركض المقربات الصلادم

فاقام كذلك حتى سكن غضب عبد الملك وكلمته القيسية فى أن يؤمنه فتلكأ فقيل له أنا والله لا نأمنه على المسلمين أن يأتى بالروم فأمنه فاقبل فلما قدم على عبد الملك لقيه الأخطل فقال

أبا مالك هل لمتنى اذ حضضتنى * على القتل أم هل لامنى لك لائم

أبا مالك انى أطعتك فى التى * حضضت عليها فعل حران هائم

فان تدعنى أخرى أجبك بمثلها * وانى لطب بالوغى جد عالم

فزعموا ان الاخطل قال له أراك والله شيخ سوء وقد كان تسلل أصحابه الى منازلهم وكانوا لا يعرفون وضمن عبد الملك الجحاف دماء يوم البشر عقوبة له فلم يكن عنده ما يحمل فادى الوليد بن عبد الملك تلك الحالات ففى ذلك يقول الاخطل من قصيدة طويلة

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة * الى الله فيها المشتكى والمعول

فقل لبنى مروان ما بال ذمة * وحبل ضعيف لا يزال يوصل

فالا تغيرها قريشا بملكها * يكن عن قريش مستماز ومزحل

ونعرك أناسا عركة يكرهونها * فنحيي كراما أو نعز فنقتل

وان تحملوا عنهم فما من حمالة * ولو ثقلت الا دم القوم أثقل

وان تعرضوا فيها النا الحق لم نكن * عن الحق عميانا بل الحق نسأل

فقد ننزل الثغر المخوف ويتقى * بنا البأس واليوم الاغر المحجل

وزعموا أنه لما أنشد الاخطل عبد الملك يكن عن قريش مستماز ومزحل قال له الى اين يا ابن اللخناء قال الأخطل الى النار قال أولى لك لو قلت غير هذا فأجابه جرير بن الخطفى من قصيدة طويلة يقول فيها

جزعت ابن ذات القلس لما تذاكرت * من الحرب انياب عليك وكلكل

سما لكم ليل كأن نجومه * قناديل فيهن الذبال المفتل

فاذرقرن الشمس حتى عرفتهم * كراديس يهديهن ورد محجل
لقدقذفت من حرب قيس نساؤكم * باولادها منها بقير مجعل
وقد ترك الجحاف منكم ظعائننا * يسوق ابن حولى بهن وعزهل
فما زالت القتلى تمور دماؤها * بدجلة حتى ماء دجلة أشكل
لنا الفضل فى الدنيا وأنفك راغم * ونحن لكم يوم القيامة أفضل
وقد شعبت يوم الرحوب سيوفنا * عواتق لم يثبت عليهن محمل
أجار بنو مروان منا دماءكم * فمن من بنى مروان أعلى وأفضل

وذكر ان الجحاف تاله بعد ذلك واستأذن فى الحج فأذن له فخرج فى المشيخة الذين كانوا قد شهدوا معه قد لبسوا الصوف واحرموا وأبروا آنفهم أى جعلوا فيها البرى فلما قدموا المدينة ومكة جعل الناس يخرجون و ينظرون اليهم ويعجبون منهم وذكر ان ابن عمر سمع الجحاف وهو يقول اللهم اغفرلى وما أراك تفعل فقال ياهذا لو كنت الجحاف مازدت على هذا القول قال فأنا الجحاف وسكت ابن عمر وسمعه محمد بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما فقال له ياعبد الله قنوطك من عفو الله أعظم من ذنبك قول الأخطل هبك تجيرنى منه فى اليقظة فمن يجيرنى منه فى النوم أخذ معناه الشاعر فقال يمدح بعض خلفاء بنى العباس

وعلى عدوك ياابن عم محمد * رصدان ضوء الصبح والأظلام
فاذا تنبه رعته واذا غفا * سلت عليه سيوفك الأحلام

قلت قول الناظم واختلق الجحاف عهدا حيلة البيت اشارة الى ما أظهر لقومه من أنه قد استعمل على صدقات تغلب وان بيده عهدا بذلك وقوله وسامهم بالبشر يوما عابسا أضحك كل ضبع فيه تورية بديعة فانه أتى بالبشر و بعابس وأضحك فأوهم أنه يريد بالبشر الطلاقة وانما يريد الموضع الذى أوقع فيه بهم كما أوهم أنه يريد باضحك ضحك السرور وهو يريد الحيض على الوجه الذى فسرناه ومكن ذلك بذكر العبوس اذ أوهم أنه طابق به البشر والضحك فتم له ماقصد من التورية وأحسن ماشاء واليوم العابس الشديد وقال تعالى يوما عبوسا قمطريرا وقد جانس بين يخلق واختلق وغالب وتغلب والرحوب والرحب وطابق بين أضاق والرحب

لَيْسَ الْكَرِيمُ رَاضِياً بِعِيشَةٍ * يَعُوقُهُ الدَّهْرُ بِهَا عَمَّا ارْتَضَى
وَمَنْ يَقُلْ إِنَّ حَيَاةَ الْمَرْءِ فِي * دَارِ الْهَوَانِ مِيتَةٌ فَمَا غَلَا
وَلِحَذَارِ الذُّلِّ أَلْقَى نَفْسَهُ * ذُو يَزَنٍ فِي لُجِّ بَحْرٍ قَدْ طَمَى

يقال غلا فى الأمر يغلو غلوا أى جاوز فيه الحد ينظر البيت الأول الى قول أبى الطيب

وأتعب خلق الله من زاد همه * وقصر عما تشتهى النفس وجده

و ينظر الثانى الى قوله

ذل من يغبط الذليل بعيش * رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه * ما لجرح بميت إيلام

والى قول الآخر

ليس من مات فاستراح بميت * انما الميت ميت الاحياء

وقول الآخر

وما للمرء خير في حياة * اذا ماعد من سقط المتاع

وقوله ولحذار الذل التي نفسه ذو يزن البيت هكذا وقع في النسخ التي في أيدينا من هذه المقصورة بالياء المعجمة بنقطتين من أسفل والزاي بعدها وقد وقفت على كلام لبعضهم ذكر فيه أن الذي غرق نفسه في البحر بعد ذي نواس عند تغلب الحبشة على اليمن اسمه ذو يزن كما وقع في هذه النسخ وأكثر الناس يقولون فيه اسمه ذو جدن بالجيم والدال المهملة بعدها وقد ذكر الناظم ذا جدن بعد هذا وسنتكلم عليه عند ذكره

(ذكر ذي يزن الحميري والسبب في تغريقه نفسه في البحر)

وكان من حديثه أنه قام مقام ذي نواس حين هزمته الحبشة وكان من حديث ذي نواس واسمه يوسف وقيل زرعة بن تبان أسعد أنه ملك اليمن حين قتل ذا شناتر وكان على دين اليهودية فاقام في ملكه زمانا وكان بنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام على الانجيل أهل فضل واستقامة لم تدخلهم الدواخل التي دخلت غيرهم من أهل دينهم فسار اليهم ذو نواس بجنوده فدعاهم الى اليهودية وخيرهم بين ذلك والقتل فاختاروا القتل فخد لهم الأخدود فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم حتى قتل منهم قريبا من عشرين الفا ففي ذي نواس وجنوده أنزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود اذهم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود ومانقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ويقال ان عبدالله بن الثامر رأسهم وامامهم كان فيمن قتل ذو نواس وذكر ابن اسحاق أن عبدالله بن أبي بكر بن حزم حدثه أنه حدث أن رجلا من أهل نجران في زمن عمر بن الخطاب حفر خربة من خرب نجران لبعض حاجته فوجدوا عبدالله بن الثامر تحت دفن منها قاعدا واضعا يده على ضربة في رأسه ممسكا عليها بيده فاذا أخرت يده عنها انبعث دما واذا أرسلت يده ردها عليه وأمسك دمها في يده خاتم مكتوب فيه ربي الله فكتب فيه الى عمر رضي الله عنه يخبر بأمره فكتب اليهم عمر أن أقروه على حاله وردوا عليه الدفن الذي كان عليه وذكر أن ذا نواس حين خد الأخدود أتى بامرأة معها صبي لها ابن سبعة أشهر فقال لها ياأم امضي على دينك فانه لا نار بعدها فرمي بالمرأة وابنها في النار وكف وأفلت منهم رجل من سبا يقال له دوس ذو ثعلبان على فرس له فسلك الرمل فأعجزهم فمضى على وجهه حتى أتى قيصر صاحب الروم فاستنصره على ذي نواس وجنوده وأخبره بما بلغ منهم فقال له بعدت بلادك منا ولكني سأكتب لك الى ملك الحبشة فانه على هذا الدين وهو أقرب الى بلادك فكتب اليه يأمره بنصرته والطلب بثاره فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين الفا من الحبشة وأمر عليهم رجلا منهم يقال له إرياط وفي جنده أبرهة الاشرم وأبرهة هذا هو صاحب الفيل وسيأتي ذكره بعد هذا فركب إرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس وسار اليه ذو نواس في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه فلما رأى ذو نواس مانزل به وبقومه وجه فرسه الى البحر ثم ضربه فدخل به فخاض به ضحضاح البحر حتى أفضى الى غمره فأدخله فيه فكان آخر العهد به ثم قام مكان ذي نواس ذو يزن الحميري فهزموه فقاتلوه أيضا حتى ألجؤه الى البحر فاقتحم فيه فغرق ومن تبعه من أصحابه وهو الذي ذكر الناظم ودخل إرياط اليمن بمن معه من الحبشة فملكها ولم تزل الحبشة تملك اليمن الى أن كان من أمرهم مع سيف بن ذي يزن ماقدمناه

وَقَدْ سَقَى أَبُو رِغَالٍ نَفْسَهُ ... كَأْسَ الْحِمَامِ إِذْ عَصَاهُ مَنْ عَصَا

(ذكر أبي براء بن مالك ملاعب الأسنة)

أبو براء هو عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب وهو ملاعب الاسنة وكان شرب بافأصابته الدبيلة فاستطب له فلم ينتفع فدعا لبيد بن ربيعة وهو ابن أخيه فقال يا ابن أخي إنك من أوثق أهل بيتي في نفسي فأت هذا الرجل بالمدينة الذي يزعم أنه نبي فاستطب لي منه وأهدله أبلافانطلق لبيد حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما الهدية فلسنا نقبلها الامن رجل على ديننا ولو كنت قابلها من أحد قبلتها منه فذكر له وجعه فتناول النبي صلى الله عليه وسلم حبوبة من الارض فتفل فيها ثم قال للبيد يا لبيد مثها له في ماء ثم أسقها له فانصرف لبيد فأخبره بما كان وانه قال لو كنت قابل هدية رجل على غير ديني لقبلت هدية أبي براء قال عامر يا لبيد ما فعلت في طبي قال ذلك أحقر ما رأيت منه قال وكيف ذلك قال أخذ حبوبة من الارض فتفل فيها ثم قال مثها له في ماء ثم اسقها إياه وها هي ذه في خاري قال هاتها فاثها في ماء ثم شربها فكأنه نشط من عقال قال فرغب أبو براء في الاسلام فبعث الى النبي صلى الله عليه وسلم أن ابعث الينا قوما يفقهوننا ويعلموننا وأنا لهم جار فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو الساعدي فعقد له على ثلاثين رجلا منهم ستة وعشرون رجلا من الانصار وأربعة من المهاجرين عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وعمرو بن أمية الضمري من بني كنانة ونافع بن نوفل بن ورقاء الخزاعي وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي فخرجوا حتى انتهوا الى ماء لبني عامر بن صعصعة يقال له بئر معونة وبلغ عامر بن الطفيل مكانهم فاستجاش عليهم بني عامر فقالوا ما كنا لنخفر أبا براء فاستنجد قوما من قيس منهم ناس من بني سليم من بني عصية وذكوان فخرج عامر بن الطفيل يريدهم وقد بعث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في رعي إبلهم عمرو بن أمية الضمري وحرام بن ملحان النجاري قال وهجم عليهم عامر بن الطفيل على بئر معونة فقتلهم جميعا ونظر الرجلان الى العقبان تقذف بالعلق فقالا لقد كان في أصحابنا وقعة أو معركة بعدنا فرجع الرجلان ولقيهما عامر ابن الطفيل فقال أمن القوم انتما قالا نعم فقال لحرام ممن انت قال من الانصار فضرب عنقه ثم قال لعمرو وممن انت قال من مضر فخلى عنه ثم رد معه عمرا الى المعركة فقال انظر هل تفقد أحدا من أصحابك من القتلى قال نعم افقد رجلا واحدا قال من هو قال عامر بن فهيرة مولى ابي بكر وكان من خيارنا قال فاني اخبرك عنه بعجب طعنه هذا واشار الى رجل من بني جعفر يقال له جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر فأنفذه فأخذ من رمحه ثم صعد به الى السماء حتى توارى عنا وأتى الخبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال لحسان بن ثابت قل شعرا واذكر اخفار عامر بن الطفيل لعامر بن مالك فقال حسان في ذلك

بني ام البنين الم يرعكم * وانتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبي براء * ليخفره وما خطأ كعمد
الا ابلغ ربيعة ذا المساعي * بما احدثت في الحدثان بعدي
ابوك ابو الوفاء ابو براء * وخالك ماجد حكم بن سعد

يريد ربيعة بن ابي براء فدعا ابو براء بني عامر بن صعصعة الى الوثوب بعامر فلم يجيبوه الى ذلك فقال اراني قد خولفت فدعا بالخمر فلم يزل يشرب بها صرفا حتى مات وقد قيل ان أبا براء لما سأل بني عامر أن ينجدوه فتثاقلوا قال قد بلغ من امري أن أعصى ولا يقبل لي رأى فوضع السيف في رهابته حتى خرج من ظهره والرهابة موضع القلادة من الصدر قلت فهذا الذي أراد الناظم بقوله وقد سقى أبو براء نفسه البيت ولما بلغ ربيعة بن أبي براء قول حسان

أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا نبي الله هل يذهب خفرة أبي عندك ان أطعن عامر بن الطفيل متمكنا بالغا مابلغت قال نعم فرجع فأخذ الرمح وعامر بن الطفيل جالس مع بني الطفيل فلما نظر الى ربيعة و بيده الرمح عرف الشر في وجهه فولى فطعنه فأشواه وثار بنو الطفيل و بنو عامر بن مالك فقال عامر بن الطفيل حين خاف أن يقع الشر يا بني جعفر حكموني في هذه الطعنة قالوا قد حكمناك فيها فخرج يمشي حتى برز من الحي ثم قال احفر واحفر واقعدة الرجل فقال يا بني جعفر اني قد جعلت طعنتي في هذه الحفيرة فأنثاوا عليها التراب ففعلوا وسكن القوم

وَافَ إِذْ رَامَ الْهُوِيَّ مِنْ عَلٍ ❊ ثَوْبًا عَلَيْهِ ابْنُ الأَشَجِّ وَهَوَى

مِنْ بَعْدِ مَاشَبَّ لَظًى وَقَائِعٍ ❊ أَصْلَى بِهَا غُلْبَ الأُسُودِ وَاصْطَلَى

وَظَلَّ بِالدَّيْرِ يُسَاقِي أَكْؤُسًا ❊ بِكُلِّ إِبْرِيقٍ صَقِيلٍ مُنْتَهِي

اللظى النار والوقائع جمع وقيعة وهي القتال و يقال أصليت فلانا النار اذا القيته فيها واصطليت اذا دنوت منها وقاسيت حرها والدير هو الموضع الذي يسمى بدير الجاجم وسنذكره بعد والابريق السيف الشديد البريق والمنتهي المصقول الشديد البياض

﴿ ذكر ابن الاشج ووقعة دير الجاجم ﴾

وابن الاشج هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي واسم الأشعث معدي كرب وسمي أشعث لشعث رأسه وكان قيس يلقب الأشج وهو الذي يقول له أعشى همدان

بين الأشج و بين قيس باذخ ❊ بخ بخ بوالده وبالمولود

وكان الاشعث بن قيس قد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلما في سبعين رجلا من كندة ثم لما أستخلف أبو بكر قعد عن بيعته لخار به عامل أبي بكر حتى أستامنه فامنه على حكم أبي بكر و بعث به اليه فسأله ان يستبقيه لحربه ويزوجه أخته أم فروة ففعل وكان من حديث عبد الرحمن بن الاشعث أن الحجاج بن يوسف استعمله على سجستان وما أتصل بها لخارب من هنالك من امم الترك وحارب من يلي تلك البلاد من بلاد الهند ثم أنه خلع طاعة الحجاج وسار الى بلاد كرمان فثنى بخلع عبد الملك وانقاد الى طاعته أهل الري والجبال مما يلي الكوفة والبصرة وغيرهما واتبعه قراء العراق وعلماؤهم مثل سعيد بن جبير والشعبي وغيرهما وسار الحجاج الى البصرة وسار ابن الأشعث فكانت لهم حروب عظيمة وكتب الحجاج بن يوسف الى عبد الملك يعلمه بخبر ابن الاشعث فكتب اليه عبد الملك لعمري لقد خلع طاعة الله بيمينه وسلطانه بشماله وخرج من الدين واني لارجو ان يكون هلاكه وهلاك أهل بيته واستئصالهم في ذلك على يدي أمير المؤمنين وما جوابه عندي في خلع الطاعة الا قول الشاعر

أناة وحلما وانتظارا بهم غدا ❊ فما أنا بالواني ولا الضرع الغمر

أظن خطوب الدهر بيني و بينهم ❊ ستحملهم مني على مركب وعر

ودخل ابن الاشعث الكوفة وكتب الحجاج الى عبد الملك كتابا يذكر فيه جيوش ابن الاشعث وكثرتها و يستنجده و يسأله الأمداد و يقول في كتابه واغوثاه واغوثاه واغوثاه فأمده بالجيوش وكتب اليه يالبيك يالبيك يالبيك والتقى الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث بدير الجاجم وهو بظاهر الكوفة على طريق البر الذي يسلك الى البصرة وانما سمي بدير الجاجم لوقعة قديمة كانت فيه وهي وقعة أياد على أعاجم كسرى على شاطئ الفرات الغربي فثبت

هنالك جيشه فلم يفلت منهم الا الشريد وجمعت جماجمهم فجعلوها كالكوم ودفنت بذلك الموضع فسمى بدير الجماجم فكانت بين عبد الرحمن بن الاشعث والحجاج نيف وثمانون وقعة تفانى فيها الخلق وذلك سنة ثنتين وثمانين فكانت على بن الأشعث فمضى حتى انتهى الى ملوك الهند ولم يزل الحجاج يحتال فى أمره الى أن وجه به الى الحجاج ملك من ملوك الهند مع رسله بعد أن بذل له الحجاج أموالا عظيمة فلما سارت رسل الحجاج به باتوا على سطح مرتفع وكان قد قرن الى رجل من بنى تيم بسلسلة فى أيديهما وكان يؤمن وهو أسير فلما كان جنح الليل قال للتيمى قم معى لأبول فلما قام معه أشرف على السطح ولف عليه ثوبه فقال له التيمى ما تصنع أيها الأمير قال الساعة أعلمك ثم رمى بنفسه وبالتيمى معه فاتا جميعا فوجه الحجاج برأسه الى عبد الملك مع عرار بن عمرو بن شاس الأسدى وكان أسود دميما فلما ورد به عليه جعل عبد الملك لا يسأله عن شئ من أمر الوقيعة الا أنبأه به عرار فى أصح لفظ واشبع قول وأجل اختصار فشفى نفسه من الخبر وملأ أذنه صوابا وعبد الملك لا يعرفه وقد أقتحمته عينه فقال عبد الملك متمثلا

أرادت عرارا بالهوان ومن يرد * عرارا لعمرى بالهوان فقد ظلم
وان عرارا أن يكن غير واضح * فانى أحب الجون ذا المنكب العمم

فقال له عرار أتعرفنى يا أمير المؤمنين فقال لا قال أنا والله عرار فزاد فى سروره واضعف له الجائزة وذكر محمد بن يزيد أن صاحب اليمن كتب الى عبد الملك أنى قد وجهت الى أمير المؤمنين بجارية اشتريتها بمال عظيم لم ير مثلها فلما دخل بها عليه رأى وجها جميلا وخلقا نبيلا فألقى اليها قضيبا كان فى يده فنكست لتأخذه فرأى منها جسما بهره فلما هم بها أعلمه الآذن أن رسول الحجاج بالباب فاذن له ونحى الجارية فاعطاه كتابا من عند عبد الرحمن فيه سطور أربعة

سائل مجاور جرم هل جنيت لها * حربا تزيل بين الجيرة الخلط
وهل سموت بجرار له لجب * جم الصوارم بين الجم والفرط
وهل تركت نساء الحى ضاحية * فى ساحة الدار يستوقدن بالغبط

وتحته

قتل الملوك وصار تحت لوائه * شجر العرى وعراعر الأقوام

قال فكتب اليه عبد الملك كتابا وجعل فى طيه جوابا لابن الاشعث

مابال من أسعى لاجبر عظمه * حفاظا وينوى من سفاهته كسرى
أظن خطوب الدهر بينى وبينهم * ستحملهم منى على مركب وعر
وانى واياهم كمن نبه القطى * ولولم تنبه باتت الطير لاتسرى
أناة وحلما وانتظارا بهم غدا * فما أنا بالوانى ولا الضرع الغمر

وينشد بالفانى ثم بات عبد الملك يقلب كف الجارية ويقول ما أفدت فائدة أحب الى منك فتقول مابالك يا أمير المؤمنين وما يمنعك فيقول ماقاله الاخطل لانى ان خرجت منه كنت الأم العرب

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم * دون النساء ولو باتت باطهار

فالى ليلتى من سبيل او يحكم الله بينى وبين عدوى عبد الرحمن بن الاشعث فلم يقربها حتى قتل عبد الرحمن الجم والفرط اللذان ذكرهما فى الابيات الطائية موضعان وذكر المبرد فى قوله فى ساحة الدار يستوقدن بالغبط قولين أحدهما انهن قد يئسن من الرحيل فجعلن مراكبهن حطبا وذكر انه قول الاصمعى قال وقال غيره بل قد منعهن الخوف من الاحتطاب والغبيط من مراكب النساء قلت واما البيت الذى كتب به عبد الرحمن وهو قوله قتل الملوك وسار تحت لوائه فهو قديم وينسب لمهلهل وانما تمثل به عبد الرحمن وينشد خلع الملوك ويقال

إن كتاب ابن الأشعث لما قرأه عبد الملك حين وجهه اليه الحجاج وفيه

وأغر من ولد الأراقم ماجد * صلت الجبين معاود الأقدام
خلع الملوك وصارعت لوائه * شجر العرى وعراعر الأقوام

كتب عبد الملك الى الحجاج يكفيك ما أوصى به البكرى أخاه زيدا فلم يدر الحجاج ذلك فنادى مناديه من يعرف ما أوصى به البكرى أخاه زيدا قضيت حوائجه فقال اعرابى ببابه أنا أعرف ذلك فادخل على الحجاج فانشده

فقلت لزيد لا تترتر فانهم * يرون المنايا دون قتلك أوقتلى
فان وضعوا حربا فضعها وان ابوا * فشب وقود النار بالحطب الجزل
فان رفعوا الحرب العوان التى ترى * فعرضة نار الحرب مثلك اومثلى

فقال الحجاج وابيك أنها لهى والبكرى هو موسى بن جابر الحنفى وقوله شجر العرى العرى هو الشجر الذى لا يزول يشبه به الكبار من الناس والعراعر السادة واحدها عراعر بضم العين وقوله لا تترتر معناه لا تزلزل وقد قيل أن ابن الأشعث سقط من السطح بسنة النوم وانه لم يرد نفسه ويقال أن يزيد بن المهلب قال فى اليوم الذى قتل فيه قاتل الله ابن الاشعث ما كان عليه لو غمض عينيه ساعة للموت ولم يكن قتل نفسه قلت قول الناظم وظل بالدير يساقى أكؤسا البيت فيه تورية عجيبة فانه ذكر الدير وأوهم أنه يريد دير الخمار وانما يريد موضع الوقيعة وذكر الأكؤس وأوهم أنه يريد أكؤس الشراب وانما يريد أكؤس الحمام على جهة الاستعارة وذكر الأبريق وأوهم أنه يريد ابريق الشراب وهو يريد السيف فتمت له التورية وأبدع كل الابداع وانما نبه عليه مهيار الديلمى فى قوله وقد أنشدناه قبل

ومدير سيان عيناه والأبـ * ـريق فتكا ولحظه والمدام

أوهم انه يريد بالأبريق ابريق الخمر ومراده السيف ومكن ذلك بذكر المدام بعده على أن بيت الناظم أبدع فى كمال التوجيه وحسن التورية

وَقَامَ زَيْدٌ مِنْ هِشَامٍ مُغْضَبَا * قَدْ شَرَّدَ الخَوْفُ بِهِ وَقَدْ زَرَا
جَابَ الفَلَا مِنْ وَجَلٍ مُخْتَفِياً * يَشْكُو إِذَا تَقْرَعُهُ المَرْوُ الوَجَى
مُبْلِى عُذْرٍ فِى اعْتِزَازِ نَفْسِهِ * حَتَّى ابْتَلَاهُ رَبُّهُ بِمَا ابْتَلَى

شرد به طرده وزرى به قصر به والشهير فى هذا أزرى قال صاحب المحكم حكى اللحيانى أزرى بعلمى وزرى ولم يفسره قال وعندى أنه قصر به قال أبو عمرو والزارى على الانسان الذى لا يعده شيئا وينكر عليه فعله ويقال زرى عليه اذا عابه وعاتبه وازرى عليه قليلة وجاب الفلا قطع الفلا والوجل الخوف والمرو نوع من الحجارة والوجا الحفى يقال وجى وجا ورجل وج ووجى وكذلك الدابة ويقال ابلى عذرا اذا أداه اليه فقبله وابتلاه ربه امتحنه

﴿ ذكر زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ﴾

وزيد الذى ذكره هو زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم كان زيد رضى الله عنه شجاعا ناسكا فصيحا من أبلغ بنى هاشم حتى أن ملوك بنى أمية كانت تكتب الى صاحب العراق أن امنع أهل

الكوفة من حضور زيد بن علي فان له لسانا أقطع من ظبة السيف واحد من شبا الأسنة وابلغ من السحر والكهانة ومن كل نفث في عقدة وهو الذي قيل له الصمت خير أم الكلام فقال قبح الله المساكتة ما أفسدها للسان واجلبها للعي والحصر والله للمحاورة أسرع في هدم العي من النار في يبيس العرفج ومن السيل الى الحدور وذكر أنه كانت بين جعفر بن الحسن ابن الحسن ابن علي بن أبي طالب وبين زيد بن علي رضوان الله عنهم منازعة في وصية فكانا اذا تنازعا أنثال الناس عليهما يسمعون محاورتهما فكان الرجل يحفظ على صاحبه اللفظة من كلام زيد ويحفظ الآخر اللفظة من كلام جعفر فاذا انفصلا وتفرق الناس عنهما قال هذا لصاحبه قال في موضع كذا كذا وقال الآخر مثل ذلك فيكتبون ما قالا ثم يتعلمونه كما يتعلم الواجب من الفرض والنادر من الشعر والسائر من المثل وكانا اعجوبة دهرهما وكان زيد كثيرا ما ينشد

شرده الخوف وأزرى به * كذاك من يكره حر الجلاد

منخرق السربال يشكو الوجا * تنقبه أطراف مرو حداد

قد كان في الموت له راحة * والموت حتم في رقاب العباد

وقد رويت هذه الأبيات لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ورويت لأخيه موسى وقال بعض بني هاشم كنا عند محمد بن علي بن الحسين وأخوه زيد عنده جالس فدخل رجل من أهل الكوفة فقال محمد بن علي انك لتروي طرائف من نوادر الشعر فكيف قال الأنصاري لأخيه فانشده

لعمرك ما ان أبو مالك * بواه ولا بضعيف قواه

ولا بألد له نازع * يعادي أخاه اذا ما نهاه

ولكنه غير مخلافة * كريم الطبائع حلو ثناه

فان سدته سدت مطواعة * ومهما وكلت اليه كفاه

فوضع محمد يده على كتف زيد رحمهما الله فقال هذه صفتك يا أخي واعيذك بالله أن تكون قتيل أهل العراق قلت محمد هذا هو محمد الباقر سمي بذلك لأنه بقر عن العلم وكان زيد بن علي ابن الحسين دخل على هشام بن عبد الملك بالرصافة وهو خليفة فلما مثل بين يديه لم ير موضعا يجلس فيه فجلس حيث انتهى به مجلسه فقال يا أمير المؤمنين ليس أحد يكبر عن تقوى الله ولا يصغر دون تقوى فقال له هشام اسكت لا أم لك أنت الذي تحدثك نفسك بالخلافة ولا تصلح لها لانك ابن أمة فقال يا أمير المؤمنين ان لك جوابا ان أحببت أجبتك وان أحببت سكت عنه قال بل أجب قال ان الأمهات لا يقعدن بالابناء عن الغايات فقد كان اسماعيل ابن ابراهيم عليهما السلام ابن أمة واسحاق صلى الله عليه وسلم ابن حرة فلم يمنع ذلك اسماعيل ان بعثه الله نبيا وجعله للعرب أبا وأخرج من صلبه خير ولد آدم محمدا صلى الله عليه وسلم أفتقول لي هذا وأنا ابن علي وفاطمة رضي الله عنهما قال له هشام قم فقال اذا لا تراني الاحيث تكره فلما خرج من الدار قال ما أحب أحد الحياة قط الاعاش ذليلا فقال له سالم مولى هشام لا يسمعن هذا الكلام منك أحد فانصرف وهو ينشد الأبيات التي ذكرناها

* شرده الخوف وأزرى به *

ثم مضى على وجهه الى الكوفة وخرج عنها ومعه القراء والاشراف وقد كان زيد شاور أخاه أبا جعفر محمدا الباقر في الخروج فأشار عليه أن لا يركن لأهل الكوفة اذ كانوا أهل غدر ومكر وقال له بها قتل جدك وبها طعن عمك الحسن وبها قتل أبوك الحسين وفيها وفي أعمالها يسب أهل البيت وأخبره بما كان عنده من العلم في مدة ملك بني مروان وما يتعقبهم من الدولة العباسية فأبى الا ما عزم عليه من المطالبة بالحق فقال له اني أخاف عليك يا أخي أن تكون غدا مصلوبا بكناسة الكوفة فلم يرده ذلك فلما أبى الا الخروج ودعه أبو جعفر وأعلمه أنهما

لايلتقيان ولماخرج زيد حاربه يوسف بن عمر الثقفي فلما قامت الحرب انهزم أصحاب زيد رضي الله عنه و بقي في جماعة يسيرة يقاتل وهو يقول

فذل الحياة وعز الممات * وكلا أراه طعاما وبيلا
وان كان لابد من واحد * فسيري الى الموت سيرا جميلا

وحال المساء بين الفريقين فانصرف زيد مثقلا بالجراح وقد أصابه سهم في جبهته فطلبوا من ينزع النصل فأتي بحجام من بعض القرى فاستخرج النصل فات من ساعته فدفنوه في ساقية الماء وجعلوا على قبره الحشيش والتراب وأجرى الماء على ذلك وحضر الحجام مواراته فعرف الموضع فلما أصبح غدا الى يوسف متنصحا فدله على موضع قبره فاستخرجه يوسف و بعث برأسه الى هشام فكتب اليه هشام أن اصلبه عريانا فصلبه يوسف و بنى تحت خشبته عمودا ثم كتب هشام الى يوسف يأمره باحراقه وذرو رماده في الرياح وقد ذكر جماعة من الأخبار يين أن زيدا أقام مصلوبا خمس سنين فلم تر له عورة سترا من الله وذلك بالكناسة بالكوفة الى أن احرق وان احراقه كان في زمن الوليد لما خرج ابنه يحيي كتب الوليد فيه فأحرق بخشبته وكان ابنه يحيي قد خرج أيام الوليد بن يزيد في طائفة من بلاد خراسان منكرا للظلم وما عم الناس من الجور فسار اليه نصر بن سنان فقتل يحيي عند المعركة بسهم أصابه في صدغه وولى أصحابه عنه حينئذ واحتز رأسه فحمل الى الوليد وصلب جسده بالناحية التي ظهر فيها فلم يزل مصلوبا الى أن خرج أبو مسلم صاحب الدعوة فأنزل جثة يحيي فصلى عليها فدفنت هنالك وأظهر أهل خراسان النياحة على يحيي بن زيد سبعة أيام في سائر عمائرها حين أمنوا على أنفسهم من سلطان بني أمية ولم يولد في تلك السنة مولود بخراسان الا وسمي يحيي أو زيدا لما خامر أهل خراسان من الجزع والحزن عليهما وكان قتل زيد في سنة إحدى وعشرين ومائة وكان ظهور يحيي في آخر سنة خمس وعشرين وقيل في أول سنة ست وعشرين وكان يحيي رحمه الله يوم قتل يكثر من التمثيل بقول الخنساء

نهين النفوس وهون النفو * س يوم الكريهة أوقى لها

وذكر أن الرافضة اجتمعت الى زيد بن علي وهم عشرون الفا في السلاح الشاك والخيل العتاق فقالوا له تبرأ من التيمي والعدوي يعنون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فقال لا أتبرأ منهما بل أتولاهما لأنهما صاحبا جدي صلى الله عليه وسلم وكان أبي يثني عليهما و يشهد لهما بالجنة فرفضوه ومضوا فبذلك سموا الرافضة و بسبب إحراق زيد نبش عبد الله بن علي على قبور الخلفاء من بني أمية وأحرقهم قال بعض من كان خرج لنبشهم واحراقهم انتهينا الى قبر هشام فأخرجناه صحيحا مافقدنا منه الا جهة أنفه فأحرق واخرجنا سليمان فوجدنا صلبه وأضلاعه ورأسه ثم انتهينا الى دمشق فاستخرجنا الوليد فاوجدنا في قبره قليلا ولا كثيرا واحتفرنا على عبد الملك فاوجدنا الا شؤن رأسه واحتفرنا على يزيد بن معاوية فاوجدنا منه الاعظما واحدا ووجدنا مع لحده خطا أسود كأنه خط بالرماد ثم تتبعنا قبورهم في البلاد فأحرقنا ماوجدنا منهم و زيد هو الذي ذكره شبل بن عبد الله في شعره حين دخل على عبد الله بن علي بعد ظهور بني العباس وعنده من بني أمية ثمانون رجلا فأنشده قصيدة له يقول فيها محرضا عليهم

أقصهم أيها الخليفة واقطع * عنك بالسيف شأفة الأرجاس
ذلها أظهر التودد منها * وبها منك مثل حز المواس
ولقد غاظني وغاظ سوائي * قربها من منابر وكراس
أنزلوها بحيث أنزلها الله * بدار الهوان والا تعاس
واذكروا مصرع الحسين و زيد * وقتيلا بجانب المهراس

والقتيل الذى بحران أمسى * ثاويا بين غربة وتناس

فلما سمع ذلك عبد الله تنكر وامر بهم فقتل من حضر منهم والقى عليهم البسط وجلس للغداء وأن بعضهم ليسمع أنينه لم يمت بعد حكى ذلك جماعة من الأخباريين واختلفوا فى البيت الأول فا كثرالر وايات على أن عوض البيت الأول

لا تقيلن عبد شمس عثارا * واقطعن كل رقلة وأواس

ويروى وغراس والبيت على الرواية الأولى مشكل فان عبد الله بن على لم يكن يدعى بالخلافة الا ان يكون ذلك حين أراد خلع المنصور وهو بعيد قلت قول الناظم وقام زيد من هشام مغضبا البيت اشارة الى قيامه من عند هشام بن عبد الملك وقوله حين قال له قم إذا لا ترانى الا حيث تكره وانشاده الأبيات التى ذكرناها شرده الخوف وأزرى وقوله جاب الفلا من وجل مختفيا البيت اشارة الى انشاده منخرق الخفين يشكو الوجا البيت وقول الناظم مبلى عذر فى اعتزاز نفسه البيت اشارة الى قوله ما أحب أحد الحياة الأذل والى انشاده فذل الحياة وعز الممات البيتين وما كان من قتله

وَانْتَهَجَ الْمُصْعَبُ نَهْجَ مَنْ قَضَى بِالطَّفِ مِنْ آلِ النَّبِيّ وَأتَّسَى
وَخَاضَ بَحْرَ الْحَرْبِ وَهُوَ مُزْبِدٌ حَتّى نَعَاهُ لِلْمَعَالِى مَنْ نَعَى

انتهى اقتدى يقال لا تأتس بمن ليس لك بأسوة والأسوة بالضم والكسر ما يأتسى به الحزين يتعزى به واسيته تأسية أى عزيته وتآسوا عزى بعضهم بعضا والطف موضع بناحية الكوفة وهو ساحل البطيحة والبحر المزبد الذى يقذف بالزبد والمصعب هو مصعب بن الزبير بن العوام وخبر مقتله بعد هذا وانما أشار الناظم الى قول الشاعر

وان الألى بالطف من آل هاشم * تآسوا فسنوا للكرام التآسيا

وذلك أن المصعب بن الزبير تمثل بهذا البيت يوم قتل وقيل أن المصعب لما قدم الكوفة سأل عن الحسين بن على عليه السلام وعن مقتله فجعل عروة بن المغيرة يحدثه فتمثل بهذا البيت وقائله سليمان بن قتة قال عروة فعلمنا أنه لا يفر أبدا

﴿ ذكر الذين قتلوا بالطف من آل النبى صلى الله عليه وسلم ﴾

والذين قضوا بالطف هم الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وطائفة من أهل بيته وكان من حديثهم أنه لما مات معاوية أرسل الى الحسين رضى الله عنه أنا قد حبسنا أنفسنا على بيعتك ونحن نموت دونك ولسنا نحضر جمعة ولا جماعة بسببك وطولب الحسين عليه السلام بالبيعة ليزيد فخرج يتهادى بين مواليه وهو يقول متمثلا

لا ذعرت السوام فى فلق الصبـ * ـح مغيرا ولا دعيت يزيدا
يوم أعطى مخافة الموت ضيما * والمنايا يرصدننى أن أحيدا

ولحق بمكة فارسل بابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب الى الكوفة وقال له سر الى اهل الكوفة فان كان حقا ما كتبوا به عرفنى حتى ألحق بك فخرج مسلم من مكة للنصف من شهر رمضان حتى قدم الكوفة لخمس خلون من شوال والأمير عليها يومئذ النعمان بن بشير فاقام بها مستترا فلما ذاع خبر قدومه تابعه من أهل الكوفة

اثناعشر ألف رجل وقيل ثمانية عشر الفافكتب بالخبر الى الحسين عليه السلام وسأله القدوم عليه فلما هم الحسين بالخروج الى العراق أتاه ابن عباس فقال له يا ابن عم قد بلغني أنك تريد الخروج الى العراق وانهم أهل غدر وانما يدعونك للحرب فلا تعجل وان ابيت الا محاربة هذا الجبار وكرهت المقام بمكة فاشخص الى اليمن فان لك بها أعوانا وانصارا فاقم بها وبث دعاتك واكتب الى أهل الكوفة وانصارك بالعراق فليخرجوا اميرهم فان قووا على ذلك ونفوه عنها ولم يكن بها أحد يعازك أتيتهم وماأنا لغدرهم بآمن وان لم يفعلوا أقمت بمكانك الى أن يأتي الله بامره فقال الحسين عليه السلام يا ابن عمي اني لأعلم أنك لي ناصح وعلى مشفق ولكن مسلم بن عقيل كتب الي باجتماع أهل المصر على وبيعتهم ونصرتهم لي وقد أجمعت على المسير اليهم قال انهم من خبرت وجربت وهم اصحاب أبيك واخيك وقتلتك غدا مع أميرهم انك أن خرجت فبلغ ابن زياد خروجك استنفرهم اليك فكان الذين كتبوا اليك أشد عليك من عدوك فان عصيتني وأبيت الا الخروج الى الكوفة فلا تخرجن نساءك وولدك معك فوالله أني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان رحمه الله ونساؤه وولده ينظرون فلم يقبل منه وخرج ابن عباس من عنده فمر بعبدالله بن الزبير فقال له قرت عينك يا ابن الزبير ثم أنشد

خلالك الجو فبيضي واصفري * ونقري ما شئت أن تنقري

هذا حسين يخرج الى العراق ويخلى لك الحجاز فأتاه ابن الزبير فقال أبا عبدالله ماعندك فوالله لقد خفت الله في ترك جهاد هؤلاء على ظلمهم واستذلالهم الصالحين من عباد الله فقال الحسين قد عزمت على اتيان الكوفة فقال وفقك الله أما لو أن لي بها مثل أنصارك ماعدلت عنها ثم قال ولو أقمت بمكانك فدعوتنا وأهل الحجاز الى بيعتك أتيناك وكنا اليك سراعا وكنت أحق بذلك من يزيد وأبي يزيد وروى أن عبدالله بن عمر لحق سيدنا الحسين بن سيدنا على رضي الله عنهم على ثلاثة أميال فقال له أين تريد فعرض عليه سيدنا الحسين كتاب أهل الكوفة وبعثهم فقال له سيدنا عبدالله لا تأتهم أني محدثك حديثا ان جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة وانكم بضعة منه صلى الله عليه وسلم ولا يليها أحد منكم أبدا وماصرفها عنكم الا للذي هو خير لكم فابى أن يرجع سيدنا الحسين ليقضي الله أمرا كان مفعولا وكان أمر الله قدرا مقدورا والله غالب على أمره فاعتنقه سيدنا عبد الله بن عمرو بكى وقال أستودعك الله من قتيل ودخل أبو بكر بن الحرث بن هشام الى الحسين عليه السلام فقال يا ابن عم ان الرحم تظأرني عليك ولا أدري كيف انا في النصيحة لك قال يا أبا بكر ما أنت ممن يستغش ولا يتهم فقل فقال أن عليا رضي الله عنه كان أقدم سابقة وأحسن في الأسلام أثرا وأشد بأسا والناس له أرجى ومنه أسمع وعليه أجمع فسار الى معاوية والناس مجموعون عليه الا أهل الشام وهو أعزمنهم فخذلوه وتثاقلوا عليه حرصا على الدنيا وضنا بها فجرعوه الغيظ وخالفوه حتى صار الى ماصار اليه من كرامة الله ورضوانه ثم صنعوا باخيك بعد أبيك ماصنعوا وقد شهدت ذلك كله ورأيته ثم أنت تريد أن تسير الى الذين عدوا على أبيك وأخيك تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق من هو أعد منك واقوى والناس منه أخوف وله أرجى فلو قد بلغهم مسيرك اليهم لقد استعطفوا الناس بالاموال وهم عبيد الدنيا فيقاتلك من وعدك أن ينصرك فأذكرك الله في نفسك فقال الحسين جزاك الله يا ابن عم فقد أجهدت رأيك ومهما يقضي الله يكن فقال انا لله وعند الله نحتسب عبدالله ثم دخل على الحرث بن خالد بن العاصي ابن هشام المخزومي والى مكة وهو يقول

كم ترى ناصحا يقول فيعصى * وظنين المغيب يلفى نصيحا

فقال وماذاك فأخبره بما قال للحسين فقال نصحت له ورب الكعبة وقد كان بعض من يهوى يزيد بن معاوية حين بايع الناس مسلم بن عقيل سرا قال للنعمان بن بشير انك ضعيف مستضعف قد فسدت عليك البلاد وكان أميرا على

الكوفة فقال لأن أكون ضعيفا فى طاعة الله أحب الى من أن أكون قويا وأنا فى معصية الله وما كنت لأهتك سترا ستره الله فكتب الى يزيد بن معاوية بالخبر وبقول النعمان فلما اتصل الخبر بيزيد كتب الى عبيد الله بن زياد بتولية الكوفة فخرج مسرعا حتى قدم الكوفة فدخلها فى حشمه وأهله وعليه عمامة سوداء قد تلثم بها وهو راكب بغلة والناس يتوقعون قدوم الحسين عليه السلام فجعل ابن زياد يسلم على الناس فيقولون وعليك السلام يا ابن رسول الله قدمت خير مقدم حتى انتهى الى القصر وفيه النعمان بن بشير فتحصن فيه ثم أشرف عليه فقال يا ابن رسول الله مالى ولك وما حملك على قصر بلدى من بين البلدان فقال له ابن زياد لقد طال نومك بالغيم وحسر اللثام عن فيه فعرفه ففتح له وتنادى الناس ابن مرجانة فحصبوه بالحصا ففاتهم ودخل القصر ولما اتصل خبر ابن زياد بمسلم تحول الى هانئ ابن عروة المرادى ووضع ابن زياد الرصد على مسلم حتى علم بموضعه فوجه بمحمد بن الاشعث ابن قيس الى هانئ فجاءه به فلما نظر اليه ابن زياد قال أتتك بحائن رجلاه ثم قال

أريد حياته ويريد قتلى * عذيرك من خليلك من مراد

وكان ابن زياد لهانئ مكرما قبل ذلك فسأله عن مسلم فأنكر فاغلظ عليه ابن زياد فى القول فقال له هانئ أن لزياد أبيك عندى بلاء حسنا وانا احب مكافأته فهل لك فى خير قال ابن زياد وما هو قال تشخص الى الشأم أنت وأهل بيتك سالمين باموالكم فانه قد جاء من هو أحق من حقك وحق صاحبك أن مسلما التى بنفسه الى فوالله لو كان تحت قدمى ما رفعتهما عنه فقال ابن زياد أدنوه منى فأدنوه فضرب وجهه بقضيب كان بيده حتى كسر أنفه وشق حاجبه ونثر لحم وجهه وكسر القضيب على وجهه ورأسه وضرب هانئ بيده الى قائم سيف شرطى من تلك الشرط فجاذبه الرجل ومنعه السيف وصاح أصحاب هانئ بالباب قتل صاحبنا فخافهم ابن زياد وامر بحبسه فى بيت الى جانب مجلسه واخرج اليهم ابن زياد من شهد عندهم أنه حى لم يقتل فانصرفوا ولما بلغ مسلما فعل ابن زياد بهانئ أمر مناد ينادى يا منصور وكانت شعارهم فتنادى أهل الكوفة فاجتمع اليه فى وقت واحد ثمانية عشر الف رجل فسار الى ابن زياد فتحصن منه فى القصر فلم يمس مسلم ومعه مائة رجل فلما نظر الى الناس يتفرقون عنه سار الى نحو ابواب الكوفة فلما بلغ الباب لم يصل معه غير ثلاثة ثم خرج من الباب فاذا ليس معه أحد فبقى حائرا لا يدرى أين يذهب ولا يجد أحدا يدله على الطريق فنزل عن فرسه ومضى متلددا فى أزقة الكوفة حتى انتهى الى باب مولاة للاشعث ابن قيس فاستسقاها فسقته ثم سألته عن حاله فاعلمها بقصته فرقت له فآوته فجاء ابنها فعلم بموضعه فلما أصبح غدا على محمد بن الأشعث فاعلمه فاعلم ابن الاشعث بن زياد بمكانه فقال انطلق فأت به ووجه سبعين رجلا فاقتحموا على مسلم الدار فثار اليهم بسيفه وشد عليهم فأخرجهم من الدار ثم حملوا عليه الثانية فشد عليهم فاخرجهم أيضا فلما رأوا ذلك علوا ظهور البيوت فرموه بالحجارة وجعلوا يلهبون النار فى اطراف القصب ثم يلقونها عليه فلما رأى ذلك قال أكل ما أرى من الاجلاب لقتل مسلم بن عقيل يا نفس اخرجى للموت الذى ليس عنه محيص فخرج عليهم مصلتا سيفه الى السكة واختلف هو وبكير بن حمران فى ضربتين فضرب بكير فم مسلم فقطع السيف شفة مسلم العليا واسرع فى السفلى وضربه مسلم ضربة منكرة فى رأسه ثم ضربه أخرى على حبل العاتق فكاد يطلع الى جوفه وهو يرتجز

أقسمت لا أقتل الا حرا * وان رأيت الموت شيئا مرا
كل امرىء يوما ملاق شرا * أخاف أن أكذب أو أغرا

فلما رأوا ذلك تقدم اليه محمد بن الاشعث فقال له لا تكذب ولا تغر واعطاه الأمان فأمكنهم من نفسه وحملوه على بغلة وأتوا به ابن زياد وقد سلبه ابن الاشعث حين أعطاه الامان سيفه وسلاحه وفى ذلك يقول بعض الشعراء

وتركت عمك أن تقاتل دونه * فشلا ولولا أنت كان منيعا

وقتلت وافد بيت أهل محمد * وسلبت أسيافا له ودروعا

فلما سار الى باب القصر نظر الى قلة مبردة فاستسقاهم منها فنعهم مسلم بن عمرو الباهلي وهو أبو قتيبة بن مسلم أن يسقوه فأتاه عمرو بن حريث بماء فى قدح فلما رفعه الى فيه امتلأ القدح دما فصبه وملأ الثانية فلما رفعه الى فيه سقطت ثناياه وامتلأ دما فقال الحمد لله لو كان من الرزق المقسوم لى لشربته ثم أدخل على بن زياد فلما كلمه ومسلم يغالظه فى الجواب أمر به فقتل ثم أمر بهانئ بن عروة فأخرج الى السوق فضربت عنقه صبرا وهو يصيح بالمراد وهو يومئذ شيخها وزعيمها ومرادا يومئذ تركب فى أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل فلم يجبه منهم أحد فشلا وخذلانا فقال الشاعر فى ذلك ويقال هو الفرزدق

فان كنت لا تدرين ما الموت فانظرى * الى هانئ فى السوق وابن عقيل

ترى جسدا قد غير الموت لونه * ونضح دم قد سال كل مسيل

أتركب أسماء الهمالج آمنا * وقد طلبته مذحج بدحول

فان أنتم لم تثأروا بأبيكم * فكونوا بقايا أرضعت بقليل

فتى هو أحيي من فتاة خريدة * وأقطع من ذى شفرتين صقيل

وكان بكير بن حمران هو الذى ضرب عنق مسلم أمره بذلك ابن زياد فقال اضرب عنقه لتأخذ بثارك من ضربته فلما قتله دعاه بن زياد فقال له أقتلته قال نعم قال فما كان يقول وأنتم تصعدون به لتقتلوه قال كان يكبر ويسبح ويهلل ويستغفر الله فلما أدنيناه للقتل قال اللهم احكم بيننا وبين قوم غدرونا وكذبونا وخذلونا وقتلونا فقلت الحمد لله الذى أقادنى منك وضربته ضربة لم تعمل شيئا فقال وفى خدش منك وفاء بدمك أيها العبد ثم ضربته فقتلته فقال ابن زياد أنخرا عند الموت وقد ذكروا أنه لما قدم مسلم للقتل قال دعونى حتى أوصى فنظر فى وجوه القوم فقال لعمرو بن سعد بن أبى وقاص ما أرى هاهنا قرشيا سواك أدن منى فدنا منه فقال له هل لك أن تكون سيد قريش أن حسينا مقبل فى ولده وأهله فاكتب اليه ما أصابنى فلما قتل مسلم قال عمرو لابن زياد أتدرى ما قال قال أكتم على ابن عمك فقال له الأمر أكبر من ذلك قال أكتم على ابن عمك قال الأمر أعظم من ذلك قال فما هو قال ان حسينا مقبل فى ولده وأهل بيته فقال لى اكتب له بما صنع بى فقال له ابن زياد أما والله اذ دللت عليه لا يقاتله غيرك فبعث معه جيشا ولما وصل الحسين القادسية لقيه الحرث ابن يزيد التميمى فقال أين تريد يا ابن رسول الله قال أريد هذا المصر فعرفه بقتل مسلم وما كان من خبره ثم قال له ارجع فانى لم أدع لك خلفى خيرا أرجوه لك فهم بالرجوع فقال له أخو مسلم والله لا نرجع حتى نصيب بثارنا أو نقتل كلنا فقال الحسين عليه السلام لا خير فى العيش بعدكم ثم سار حتى لقى خيل ابن زياد عليها عمرو بن سعد بن أبى وقاص فعدل الى كربلاء ويعرف الموضع بالطف وقد تقدم ذكره ثم قال أى ارض هذه فقالوا كربلاء فقال كرب وبلاء وأحاطت بهم الخيل فأرسل الحسين الى عمرو بن سعد اخترمنى ثلاث خصال اما أن تتركنى أرجع من حيث جئت أو أسيرالى يزيد فأخذ يده بيدى أو تسيرنى الى بلاد الترك أقاتلهم حتى اموت فارسل بذلك عمر والى ابن زياد ان يرسله الى يزيد فقال له شمر بن ذى الجوشن أيمكنك الله من عدوك وتتركه لا الا أن ينزل على حكمك فأرسل اليه بذلك فقال الحسين لا أنزل على حكم ابن مرجانة أبدا قال وأبطأ عمرو عن قتاله فأرسل ابن زياد شمرا وقال ان تقدم ابن سعد لقتاله والا فاقتله وكن مكانه فمشى شمر وحرض الناس وتقدم عمرو لقتاله فقتل الحسين رضى الله عنه يوم عاشوراء سنة إحدى وستين قتله سنان بن أنس النخعى لعنه الله وأجهز عليه خولى بن يزيد الأصبحى لعنه الله وأتى برأسه الى بن زياد وهو يقول

أوقر ركابى فضة وذهبا * أنا قتلت الملك المحجبا * خير عباد الله أما وأبا

فقال له ابن زياد فلم قتلته ان كان خير عباد الله أما وأبا فضرب عنقه ثم أمر بحمل الرأس الى يزيد فحكى القوم الذين حملوه انهم نزلوا منزلا من المنازل ووضعوا الرأس بين ايديهم فرأوا يدا من حديد قد كتب على جبين الحسين

أترجو أمة قتلت حسينا * شفاعة جده يوم الحساب

وقد قيل ان هذا البيت وجد مكتوبا في كنيسة من كنائس الروم وعليه تاريخه حين قتل فعد ذلك فوجد قبل الأسلام بثلاثمائة سنة ولما وضع رأس الحسين بين يدى يزيد جعل ينكث بقضيب كان بيده على ثنية الحسين وهو يقول

نفلق هاما من رجال أعزة * علينا وهم كانوا أعق واظلما

فقال له أبو برزة الأسلمي ارفع قضيبك فطال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يكب على فيه يلثمه وكان جميع من حضر مقتل الحسين رضي الله عنه في يوم عاشوراء بكربلاء من أهل بيته وشيعته سبعا وثمانين منهم على ابنه الأكبر وكان يرتجز ويقول

أنا على بن الحسين بن على * نحن وبيت الله أولى بالنبي * تالله لايحكم فينا ابن الدعى

وقتل من ولد أخيه الحسن عبد الله ابن الحسن والقاسم بن الحسن وأبو بكر بن الحسن ومن أخوته العباس بن على وعبد الله بن على وجعفر بن على وعثمان بن على ومحمد بن على وهو الأصغر عليهم السلام أجمعين ومن ولد جعفر بن أبى طالب محمد بن عبد الله بن جعفر وعون بن عبد الله ومن ولد عقيل بن أبى طالب عبد الله بن عقيل ومسلم بن عقيل وعبد الرحمن بن عقيل وجعفر بن عقيل وقتل الحسين رضي الله عنه وهو ابن خمس وخمسين وقيل غير ذلك ووجد بالحسين يوم قتل ثلاث وثلاثون طعنة واربع وثلاثون ضربة وعطش الحسين عليه السلام يومئذ حتى اشتد عليه العطش فدنا للشرب من الماء فرماه حضير بن تميم بسهم فوقع في فمه فجعل يتلقى الدم من فيه ويحمد الله ويثنى عليه ثم قال اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تذر على الأرض منهم أحدا وذكر بعض من شهد قتل الحسين قال رأيت الحسين بن على واقفا وعليه قميص له من خز وهو معتم وكان يخضب بالوسمة فما رأيت رجلا قط قد قتل ولده واهل بيته واصحابه أربط جأشا ولا أمضى جنانا منه والله ان كانت الرجالة لتنكشف عن يمينه وشماله انكشاف المعزى اذا شد عليها الذئب وقال بعضهم لما ضيق على الحسين يوم كربلاء ونظر الى فتيانه واهل بيته حوله صرعى عزم على الحملة على أعدائه فقال لزينب ناوليني ابنى الصغير أودعه فجاءت به وهو رضيع كأنه القمر فأومأ اليه ليقبله فجاء سهم من سهام العدو فوقع في نحر الصبي فقتله فقال لزينب خذيه ثم قال وهون على مانزل بى أنه بعين الله عز وجل قال ثم حمل على القوم حملة هاشمية وكانوا ثلاثين ألفا فوحق جده محمد صلى الله عليه وسلم لقد رأيتهم بين يديه منهزمين كأنهم الجراد المنتشر ثم رجع الى مركزه وهو يقول لاحول ولاقوة الا بالله وقد كان الحسين رضي الله عنه قبل أن يناشبه القوم القتال جمع أصحابه عند المساء فقال لهم أنى لا أعلم أصحابا أوفى ولا أبر منكم فجزاكم الله عنى خيرا ألا وانى قد أذنت لكم فانطلقوا فانتم فى حل منى وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا فان القوم انما يطلبوننى ولو قد أصابونى لهدوا عن طلب غيرى فقال له اخوته وأبناؤه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر انما نفعل ذلك لنبقى بعدك لا أرانا الله ذلك أبدا فيحدث الناس أنا تركناك لم نرم دونك بسهم ولم نضرب أمامك بسيف ولكن نقاتل معك حتى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك وقد بكى الناس الحسين عليه السلام فأكثروا فمن ذلك قول سليمان بن قتة الخزاعى ويروى لغيره

مررت على أبيات آل محمد * فلم أرمن أمثالها حيث حلت

فلا يبعد الله البيوت واهلها * وان أصبحت منهم برغمى تخلت

وكانوا رجاء ثم عادوا رزية * لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
أولئك قوم لم يشيموا سيوفهم * ولم تنك فى اعدائهم حين سلت
وان قتيل الطف من آل هاشم * أذل رقابا من قريش فذلت

وبعضهم ينشده * أذل رقاب المسلمين فذلت *

ألم ترأن الأرض أضحت مريضة * لفقد حسين والبلاد اقشعرت
وقد أعولت تبكى السماء لفقده * وأنجمها ناحت عليه وصلت

وقال منصور النمرى

ويحك ياقاتل الحسين لقد * بؤت بحمل ينوء بالحامل
أى حباء حبوت أحمد فى * حفرته من حرارة الثاكل
تعال فاطلب غدا شفاعته * وانهض فرد حوضه مع الناهل

جاء هذا البيت على وجه التهكم كما قال تعالى ذق انك أنت العزيز الكريم

ما الشك عندى فى شأن قاتله * لكننى قد أشك فى الخاذل
كأنما أنت تعجبين الا * تنزل بالقوم نقمة العاجل
لا يعجل الله ان عجلت وما * ربك عما ترين بالغافل
ما حصلت لأمرىء سعادته * حقت عليه عقوبة الآجل

وروى عن ابن عباس أنه قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم نصف النهار وهو قائم أشعث أغبر بيده قارورة فيها دم فقلت بأبى أنت وامى يارسول الله ماهذا قال هذا دم الحسين لم أزل التقطه منذ اليوم فوجد قد قتل فى ذلك اليوم ويروى عن ابن الحنفية انه قال قتل مع الحسين بن على ستة عشر رجلا من أهل بيته ما على وجه الأرض يومئذ لهم شبيه وروى عن الشعبى أنه قال قال حذيفة كنت أسأل النبى صلى الله عليه وسلم عمن يكون بعده وعما يكون بعده من الملاحم والفتن فكان يخبرنى فدخلت المسجد ذات يوم فاذا هو وحده صلى الله عليه وسلم فاغتنمت خلوته فسلمت وجلست بين يديه فقال لى ياحذيفة اذكر لى من يكون بعدى مما قد علمنيه صلى الله عليه وسلم فقلت أبو بكر فسكت ثم قلت عمر فسكت ثم قلت عثمان فسكت ثم قلت على فسكت ثم قلت معاوية فسكت ثم قلت يزيد فقال صلى الله عليه وسلم ماله لابارك الله فيه يعمد الى سخلى فيقتله قال ابن الأعرابى السخل المولود المحبب الى أبويه

﴿ ذكر قتل المصعب بن الزبير ﴾

وكان من حديثه أن أخاه عبد الله بن الزبير قدمه على العراق لحارب المختار حتى قتله فلما صفا له العراق بعد قتل المختار واصحابه جمع اهل العراق بريد عبد الملك ابن مروان وسار اليه عبد الملك فى عساكر مصر والجزيرة والشام فالتقوا بمسكن قرية من ارض العراق على شاطئ دجلة وعلى مقدمة عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفى وقيل على ساقته وقد أحد أمره فى قيامه بأهله فكاتب عبد الملك رؤساء أهل العراق ممن هو بعسكر مصعب وغيرهم سرا يرغبهم ويرهبهم فكان ممن كاتب ابراهيم بن الأشتر النخعى فلما أتاه كتابه مع الجاسوس اعتقله فى رحله وأتى المصعب بالكتاب قبل أن يفضه ويعلم مافيه فقال له مصعب أقرأته قال أعوذ بالله أن أقرأه حتى يقرأه الأمير وآتى يوم القيامة غادرا اذ نقضت بيعته وخلعت طاعته فلما تأمل مصعب مافيه وجده أمانا له وولاية لما شاء من العراق وأقطاعا وغير ذلك ثم قال ابراهيم لمصعب هل أتاك أحد من

أهل العسكر بكتاب فقال مصعب لا فقال ابراهيم والله لقد كاتبهم وما كاتبني وحدي حتى كاتب غيري وما امتنعوا من إيصالها اليك الا رضا به والغدر بك فأطعني وابدأ بهم فأمرهم على السيف قال اذا لا تناصحنا عشائرهم قال فأوثقهم حديدا وابعث بهم الى أرض كسرى واجعل عليهم رقباء فان غلبت ضربت رقابهم وان غلبت مننت بهم على عشائرهم قال يا أبا النعمان انى لفى شغل عن ذلك رحم الله أبا بحير يعنى الأحنف بن قيس أنه كان يحذرنى غدر أهل العراق حتى كأنه ينظر الى ما نحن فيه ثم سار ابراهيم على مقدمة المصعب فلقى خيل عبد الملك وعلى مقدمتها أخوه محمد بن مروان فالتقى ابراهيم ومحمد بن مروان فاقتتلوا حتى غشيهم المساء وأشرف ابراهيم على الفتح فقال له عتاب بن ورقاء وكان مع ابراهيم أن الناس قد جهدوا فمرهم بالانصراف حسدا له لأشرافه على الفتح فقال ابراهيم وكيف ينصرفون وعدوهم بازائهم فقال له عتاب فمر الميمنة أن ينصرفوا فأبى فمضى عتاب الى أهل الميمنة وأمرهم بالانصراف فلما زالوا عن مواضعهم أكبت ميسرة محمد بن مروان عليهم واختلط الرجال وصمد الفرسان الى ابراهيم واشتبكت عليه الأسنة فرىء نهاعدة وأسلمه من كان معه واقتلع من سرجه وقتل بعد أن أبلى ونكى فلما كان فى اليوم الثانى من اليوم الذى قتل فى عشيته ابراهيم بن الأشتر التقى مصعب وعبد الملك فقال مصعب لقطن بن عبد الله الحارثى احمل أبا عثمان فى خيلك قال ما أرى ذلك قال ولم قال لأنى أكره أن أقتل مذحجا فى غير شئ فقال لحجار بن ابجر يا أبا أسيد تقدم قدم رأيتك قال التقدم الى هؤلاء لؤم قال ما تتأخر اليه والله ألأم ثم قال لعبد الرحمن بن محمد تقدم قال ما أرى أحدا يفعل ذلك فأفعل فقال مصعب يا ابراهيم ولا ابراهيم منذ اليوم لما كان يعلم من نصحه ثم تخلى عنه من كان معه من مضر واليمن حتى ما بقى الا فى سبعة نفر وقد كان المصعب لما رأى هرب الناس عنه دخل الى زوجه سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب وكانت له شديدة المحبة وكانت تخفى ذلك فلبس غلالة وتوشح عليها وانتضى السيف فلما رأت ذلك علمت أنه عزم أن لا يرجع فصاحت من ورائه واحرباه فالتفت اليها فقال أوهذا لى فى قلبك فقالت والله وأكثر من هذا فقال أما لو علمت لكان لى ولك شأن ثم خرج فقال لابنه يا بنى انج الى نجائك فان القوم لا حاجة بهم الى غيرى وستفلت بحيلة أو بقيا فقال يا أبتاه لا أحدث والله عنك أبدا فقال المصعب أما والله لئن قلت ذلك لما زلت أتعرف الكرم فى أسرارك وأنت تقلب فى مهدك فقتل بين يدى أبيه وقد قيل أن محمد بن مروان دعا عيسى بن مصعب وقال له القوم خاذلوك فلا تقتل نفسك بدرا لآبار فقال أبوه سر الى عمك فمنه دها قال عيسى لأبيه ماذكرناه وذكروا أن مصعبا لما أجابه ابنه عيسى بذلك قال له فتقدم اذا حتى أحتسبك فتقدم فقتل ثم تقدم المصعب وأقبل محمد بن مروان فاستأمن مصعبا فبينا هو يتكلم معه أقبل رجل من أهل الشام ليحتز رأس عيسى بن مصعب فعطف عليه المصعب والرجل غافل فناداه أهل الشام ويلك يا فلان قد جاءك الأسد فلحقه مصعب فقتله وعرقب فرس مصعب وبقى راجلا فأقبل اليه عبيد الله بن زياد بن ظبيان فاختلفا ضربتين فبدره المصعب وهو قد أثخن بالجراح فضربه بالسيف على البيضة فنشب السيف فى البيضة فجاء غلام لعبيد الله فضرب مصعبا فقتله وحمل رأس مصعب عبيد الله وهو ينشد

نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا * وليس علينا قتلهم بمحرم

فلما نظر عبد الملك الى رأس مصعب خر لله ساجدا وقبض عبيد الله بن زياد على قائم سيفه فاجتذبه من غمده حتى أتى على أكثره سلا ليضرب به عبد الملك فى حال سجوده ثم ندم واسترجع فكان يقول ذهب الفتك من الناس اذ هممت ولم أفعل فأكون قد قتلت ملكى العرب فى يوم واحد ثم ينشد

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى * فعلت وأدمنت البكا لأقاربه

فأوردتها فى النار بكر بن وائل * وألحقت من قد خر شكرا بصاحبه

وقال

وقال عبد الملك متى تقدر قريش على مثل المصعب ثم قال هذا سيد شباب قريش فقيل له أ كان المصعب يشرب الطلا فقال لو كان المصعب يدرى أنه يفسد مروءته شرب الماء ماشرب به حتى يموت عطشا وكان المصعب أجمل الناس وأسخى الناس وأشجع الناس ومما ذكر من جماله أن جميل بن معمر قال ما رأيت المصعب يمشى فى البلاط الا غرت على بثينة وحكى عن بعضهم قال رأيت رأس الحسين عليه السلام قد جىء به فوضع فى دار الأمارة بالكوفة بين يدى عبيد الله بن زياد ثم رأيت رأس عبيد الله بن زياد قد جىء به فوضع فى ذلك الموضع بين يدى المختار ثم رأيت رأس المختار قد جىء به فوضع فى ذلك الموضع بين يدى المصعب ثم رأيت رأس المصعب قد جىء به فوضع فى ذلك الموضع بين يدى عبد الملك قال فرأى بى عبد الملك اضطرابا فسألنى فحدثته بما رأيت فى تلك وقلت وقاك الله يا أمير المؤمنين فوثب عبد الملك من ذلك المجلس وامر بهدم الطاق الذى كان عليه وفى قتل المصعب وعيسى ابنه يقول بعض أهل الشام من اليمانية

نحن قتلنا مصعبا وعيسى * وابن الزبير البطل الرئيسا
* عمدا أذقنا مضر التبئيسا *

وروى ابن الاعرابى التأبيسا وقال الأبس القمع والاذلال وأنشد عليه

* وليث غاب لم يرم بأبس * وقال آخر يعاتب رجلا

فلو كان شهم النفس أو ذا حفيظة * رأى ما رأى فى الموت عيسى بن مصعب

وكانت أم عيسى فاطمة بنت عبد الملك بن السائب من بنى المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى وكان قد تزوجها عبد الله بن عمر بن عثمان وقال بعضهم عمرو بن عثمان فلما أمست عليه طلقها على المنصة فجاء أبوها الى عبد الله بن الزبير فقال ان فلانا طلق ابنتى على المنصة والمنصة الكرسى الذى تجلى عليه العروس وقد ظن الناس أن ذلك لعاهة وأنت عمها فقم فادخل اليها فقال عبد الله أو خيرا من ذلك جيئونى بالمصعب فخطب عبد الله فزوجها من المصعب وأقسم عليه ليدخلن بها فى ليلته فلا تعرف امرأة نصت على زوجين فى ليلة غيرها فأولدها المصعب عيسى وعكاشة ولما أتى عبد الله بن الزبير قتل المصعب قال المصعب أشهده المهلب بن أبى صفرة قالوا لا كان المهلب فى وجوه الخوارج قال أفشهده عباد بن الحصين الحبطى قالوا لا قال أفشهده عبد الله بن حازم السلمى قالوا لا فقتل عبد الله بن الزبير

فقلت لها عيشى جعار وجرى * بلحم امرئ لم يشهد اليوم ناصره

وجعار اسم من أسماء الضبع وقيل ان الذى قال هذا القول عند قتل المصعب هو عبد الرحمن بن حازم وخطب الناس عبد الله بن الزبير حين أتاه الخبر بقتل المصعب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال انه أتانا خبر قتل المصعب فسررنا وا كتأبنا فأما السرور فلما قدر له من الشهادة وحزنا من الثواب وأما الكآبة فلوعة يجدها الحميم عند فراق حميمه وانى والله لا أموت حبجا كموت أبى العاصى إنما أموت والله قتلا بالرماح وقعصا تحت ظلال السيوف وان يهلك المصعب فأن فى آل الزبير خلفا منه قوله حبجا يقال حبج بطنه اذا انتفخ وكذلك حبط بطنه والمقعص المقتول

ان الرزية يوم مسـ * ـكن والمصيبة والفجيعه
بابن الحوارى الذى * لم يعده أهل الوقيعه
غدرت به مضر العرا * ق وأمكنت منه ربيعه
فأصبت وترك ياربيـ * ـع وكنت سامعة مطيعه
يالهف لو كانت له * بالطف يوم الطف شيعه

أولم يخونوا عهده * أهل العراق بنو اللكيعه
لوجدتموه حين يغ * ضب لايعرج بالمضيعة

وَلَمْ يَزَلْ هَذَا الزَّمَانُ يُبْتَلَى بِهِ الْمُعَافَى وَيُعَافَى الْمُبْتَلِي

ينظر الى قول الشاعر

وما يدرى الفقير متى غناه * ولا يدرى الغنى متى يعول

والى قول الشاعر

ألا ربما ضاق الفضاء بأهله * وأمكن من بين الأسنة مخرج

وقال الشاعر

خف اذا أصبحت ترجو * وارج ان أصبحت خائف
رب مكروه مخوف * فيه لله لطائف

وقال الآخر
كم فرجة مطوية * لك بين أثناء النوائب
ومسرة قد أقبلت * من حيث تنتظر المصائب

وقال الآخر

ومن يك غافلا لم يلق بوسا * ينخ يوما بساحته القضاء
تعاوره بنات الدهر حتى * تثلمه كما ثلم الأناء
وكل شديدة نزلت بحي * سيأتى بعد شدتها رخاء

فَكَمْ عَلِمْنَا مِنْ مُوَقِّي بَعْدَ مَا كَانَ مُلَقَّي كُلَّ ضُرٍّ وَعَنَا

ينظر الى قول الشاعر

لاتيأسن من انفراج شديدة * قد تجلى الغمرات وهى شدائد

ومن امثالهم غمرات ثم ينجلين وقال البحترى

هل الدهر الا غمرة وانجلاؤها * سريعا والا ضيقة وانفراجها

وقال الآخر

هل الدهر الاطرفة دونها القذى * فأغض قليلا سوف يقبل مدبر

وقال ابراهيم بن العباس الصولى

ولرب نازلة يضيق بها الفتى * ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها * فرجت وكان يظنها لاتفرج

وقال منصور الفقيه

يامن يخاف ان يكون مايخاف سرمدا * اما سمعت قولهم ان مع اليوم غدا

وقال عبد الله بن الزبير الأسدى

لا أحسب الشر جارا لايفارقنى * ولا احز على مافاتنى الودجا
وما نزلت من المكروه منزلة * الا وثقت بأن القى لها فرجا

وقال بعض الأعراب

وانى لأغضى مقاتى على القذا * والبس ثوب الصبر ابيض ابلجا
وانى لأدعو الله والأمر ضيق * على فما ينفك ان يتفرجا
وكم من فتى ضاقت عليه وجوهه * اصاب لها فى دعوة الله مخرجا

وقال الآخر فيما يقرب من هذا

لاتكره المكروه عند نزوله * ان العواقب لم تزل متباينه
كم نعمة لاتستقل بشكرها * لله فى طى المكاره كامنه

وقال الآخر

خفض الجأش واصبرن رويدا * فالرزايا اذا توالت تولت

وقال الآخر

ضاقت ولو لم تضق لما انفرجت * فالعسر مفتاح كل ميسور

وفى الحديث اشتدى ازمة تنفرجى ولما نزلت فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لن يغلب عسر يسرين وتفسير هذا الكلام انه لما جىء بالعسر الثانى معرفا علم انه العسر الاول ولما جىء باليسر الثانى منكرا علم انه يسر آخر غير الاول والعرب تقول رايت رجلا فكلمنى الرجل اذا ارادت ان الملقى والمكلم واحد وتقول لقيت رجلا فكلمت رجلا اذا ارادت ان الثانى غير الأول

وَكَمْ عَرَفْنَا مِنْ مُلَقَّي بَعْدَ مَا كَانَ مُوَقَّي كُلَّ هَمٍّ وَأَسَى

هذا مثل ماذكر فى الشهاب ماملئت دار حبرة الاملئت عبرة وقال المغيرة بن شعبة لابنة النعمان بن المنذر كيف كان امركم فقالت اختصر لك القول اصبحنا وما على وجه الارض عربى الاوهو يخافنا ويرغب الينا وامسينا وما فى الارض عربى الاونحن نخافه ونرغب اليه ثم انشدت

فبينا نسوس الناس والأمر امرنا * اذا نحن فيهم سوقة نتنصف
فأف لدنيا لايدوم نعيمها * تقلب تارات بنا وتصرف

وقال الآخر

لايغرنك عشاء ساكن * قد يوافى بالمنيات السحر

وقال الشاعر وقد انشدناه قبل

أن الليالى لم تحسن الى أحد * الا أساءت اليه بعد احسان

وقال الآخر

بينما المرء رخى باله * قلب الدهر له ظهر المجن

وقال الآخر

رب حتف بين أثناء الأمل * وحياة المرء ظل منتقل

وقال بعضهم

رب مغروس يعاش به * عدمته كف مغترسه
وكذاك الدهر مأتمه * أقرب الاشياء من عرسه

وقيل أنه لما مات الحجاج خرجت عجوز من داره وهى تقول

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا * واليوم نتبع من كانوا لنا تبعا

فَقَدْ فَدَا غَيْرَ جبيرٍ عِنْدَ مَا ... هِيضَ أَبُو الْجَبْرِ بِسُمٍ مُخْتَسَا

الجبيرالمجبورمن قولهم جبرت العظم جبرا وهو أن يصلحه من كسر و يكون على هذا فعيلا بمعنى مفعول ويسوغ أن يكون من جبر العظم جبورا أى أنجبر فيكون فعيلا بمعنى فاعل وهيض كسر يقال هاض العظم يهيضه هيضا أى كسره بعد الجبر فهو مهيض وأهتاضه فهو مهتاض و يقال فيه منهاض واحتسيت أى شربت وقد تقدم

﴿ ذكر أبي الجبر وماكان من حديثه ﴾

وأبوالجبر الذى ذكره هوأبو الجبر بن عمرو الكندى ملك من ملوكهم وكان من حديثه أنه خرج الى كسرى يستجيشه على قومه فاعطاه جيشا من الاساورة فلما ساروا بكاظمة نظروا الى وحشة بلاد العرب فقالوا ابن نمضى مع هذا فعمدوا الى سم فدفعوه الى طباخه ووعدوه من أنفسهم بالأحسان اليه وأمروه أن يلقيه فى أحب الألوان اليه وا كرمها عليه ففعل فلما أستقر فى جوفه اشتد وجعه فعلموا بذلك فدخلوا عليه وقالوا قد بلغت الى هذا الحال فا كتب لنا الى الملك أنك قد أذنت لنا فكتب لهم وخرجوا وخف مابه فخرج الى الطائف الى الحارث ابن كلدة الثقفى وكان طبيب العرب فداواه و برئ فاهدى اليه سمية وهى أم زياد وعبيد وهو الذى كان زياد ينسب اليه أولا ثم ارتحل يريد اليمن فانتقضت علته فمات فى الطريق فقالت عمته كبشة ترثيه

ليت شعري وقد شعرت أبا الجبـ ... ـر بما قد لقيت فى الترحال
أنعظت بك الركاب أبيت الا ... لعن حتى حللت بالأقتال
أشجاع فأنت أشجع من ليـ ... ـث هموس السرى أبى الاشبال
أجواد فأنت أجود من سيـ ... ـل تداعى من مسبل هطال
أ كريم فأنت أكرم ماضمـ ... ـت حصان ومن مشى بالنعال
أنت خير من الف الف من الجيـ ... ـر اذا ما كبت وجوه الرجال

نعطت فى السير امتدت والأقتال الأعداء والهموس الخفى الوطء فقول الناظم هيض أبو الجبر أشارة الى أنه كان قد برئ ثم عاودته العلة فمات وقد تقدم أن الهيض الكسر بعد الجبر وكل وجع على وجع فان العرب تسميه هيضا وجانس الناظم بين جبير وأبى الجبر

ثُمَّ أُمْرُؤُ القَيْسِ بْنُ حُجْرٍ بَعْدَهُ ... قَدْ خَلَعَ العَيْشَ بِسُمٍ مُكْتَسَا

﴿ ذكر امرىء القيس بن حجر ﴾

أمرؤالقيس أسمه حندج بن حجر بن عمرو المقصور وسمى بذلك لأنه أقتصر به على ملك أبيه بن حجر الأ كبر وهو آكل المرار بن عمرو بن معاويه بن كندة والحندج فى اللغة رملة طيبة تنبت ألوانا وامه فاطمة وقيل تملك بنت ربيعة ابن الحارث أخت كليب ومهلهل وكنية امرىء القيس أبو وهب وأبو الحرث و يلقب ذا القروح بقوله

وبدلت قرحا داميا بعد صحة ... لعل منايانا تحولن أبؤسا

و يلقب أيضا الذائد بقوله ... اذود القوافى عنى ذيادا

و يقال له الملك الضليل ومعنى أمرىء القيس رجل الشدة والقيس فى اللغة الشدة وقيل القيس أسم صنم ولهذا كان الأصمعى يكره أن يروى قوله ياامرأ القيس فانزل وكان يرويه ياامرأ الله وهو الذى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فيه أشعر وقائدهم الى النار يعنى شعراء الجاهلية والمشركين قال دعبل بن على الخزاعى لا يقود قوما الا أميرهم وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للعباس بن عبد المطلب وقد سأله عن الشعراء أمرؤ القيس سابقهم خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور اصح بصر قوله خسف لهم من الخسيف وهى البئر التى حفرت فى حجارة نخرج منها ماء كثير وجمعها خسف وأفتقر أى فتح وهو من الفقير وهو فم القناة وقوله عن معان عور يريد أن أمرأ القيس من اليمن واليمن لم تكن لهم فصاحة نزار فجعل لهم معانى عورا فتح منها أمرؤ القيس أصح بصر قالوا وامرؤ القيس يمانى النسب الا أن داره ونشأته فى نزار وهو أول من لطف المعانى ومن أستوقف على الطلول وشبه النساء بالظباء والمهى والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى وفرق بين النسيب وماسواه من القصيد وقرب مأخذ الكلام وقيد الاوابد واجاد الاستعارة والتشبيه وكان من حديثه أن أباه طرده لما قال الشعر وانما طرده من أجل زوجه هر وهى أم الحويرث التى كان أمرؤ القيس يشبب بها فى اشعاره وكان ينتقل فى أحياء العرب ويستتبع صعاليكهم وذؤبانهم والعرب تطلق على الاصوص الذؤبان تشبيها بالذئاب وكان يغير بهم وكان أبوه ملك بنى أسد فعسفهم عسفا شديدا فتمالؤا على قتله فلما بلغ أمرأ القيس قتل ابيه وهو يشرب قال ضيعنى صغيرا وحملنى ثقل الثأر كبيرا اليوم خمر وغدا أمر فارسلها مثلا وقيل بل قال اليوم قحاف وغدا نقاف والقحاف من القحف وهو شدة الشرب والنقاف من نقف الهام اذا قطعها ثم جمع جمعا من بنى بكر بن وائل وغيرهم من صعاليك العرب وخرج يريد بنى اسد فخبرهم كاهنهم بخروجه اليوم فارتحلوا وبيتهم امرؤ القيس فوقع فى بنى كنانة فقتلهم قتلا ذريعا واقبل أصحابه يقولون يالثارات الهمام فقالت عجوز منهم والله ايها الملك ما نحن ثأرك وانما ثأرك بنو اسد وقد ارتحلوا فرفع القتل وقال

الا يالهف نفسى اثر قوم * هم كانوا الشفاء فلم يصاب
وقاهم جدهم ببنى على * وبالأشقين ما كان العقاب
وافلتهن علباء جريضا * ولو ادركنه صفر الوطاب

يعنى ببنى على بنى كنانة نسبوا الى على بن مسعود وقد تقدم سبب نسبهم اليه فى خبر ربيعة بن مكدم وروى ان امرأ القيس نزل بنى بكر وسألهم النصر على بنى اسد فأجابوه الى ذلك فاتصل الخبر ببنى اسد فلجؤا الى بنى كنانة وهم بنو عمهم ثم لم يثقوا بحمايتهم ففروا فقصدهم امرؤ القيس فوضع السلاح فى بنى كنانة ونادى يالثارات الملك فقالت عجوز لسنا بثارك فاطلب ثارك فتبع بنى اسد ففاتوهم وقيل ادركهم وقيل تقطعت خيله وكثرت الجرحى والقتلى وحجز الليل بينهم وهرب بنو اسد وأبت بكر وتغلب ان يتبعوهم وقالوا اصبت ثارك فقال ما اصبت من كاهل ولا اسد احدا وقيل ان أصحابه اختلفوا عليه حين أوقع ببنى كنانة وقالوا أوقعت بقوم برآء وظلمتهم فخرج الى اليمن الى بعض مقاولة حمير واسمه قرمل فاستجاشه فثبطه قرمل فذلك حيث يقول

وكنا أناسا قبل غزوة قرمل * ورثنا الغنى والمجد أكبر أكبرا

ثم خرج الى قيصر فذلك حين يقول

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه * وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

وصاحبه عمرو بن قميئة الشاعر وكان قد طوى عنه الخبر حتى جاوز الدرب والدرب والفرج والثغر الحد بين الحيزين فلما وصل الى قيصر استعان به فوعده أن يرفده بجيش وكان امرؤ القيس جميل الوجه وكانت لقيصر ابنة جميلة فاشرفت يوما من قصر لها فرآها امرؤ القيس فى دخوله الى أبيها فتعلقها وراسلها فأجابته

الى ماسأل فذلك حيث يقول لما وصل اليها

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالى

وقيل أن أباها زوجه أياها وقد كان سبق الى قيصر رجل من بني أسد يقال له الطماح فوشى به الى قيصر فوجه معه جيشا ثم أتبعه رجلا معه حلة مسمومة وقال له اقرأ عليه السلام وقل له ان الملك قد بعث اليك بحلة قد لبسها ليكرمك بها وادخله الحمام فاذا خرج فألبسه أياها ففعل فعل تنفط بدنه وكان يحمل في محفة فذلك حين يقول

لقد طمح الطماح من بعد أرضه * ليلبسني من دائه ما تلبسا

ثم نزل الى جانب جبل والى جانبه قبر لابنة بعض الملوك فسأل عنه فأخبر فقال

أجارتنا ان الخطوب تنوب * واني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا انا غريبان ها هنا * وكل غريب للغريب نسيب
فان تصليني تسعدي بمودتي * وان تقطعيني فالغريب غريب

ثم مات فهناك قبره ويقال انه قال وهو يجود بنفسه

ياجفنة متحيره * وطعنة مثعنجره
* قد غودرت بأنقره *

المتحيرة التي تحير الودك فيها والمثعنجرة السائلة قلت في قول الناظم قد خلع العيش بسم مكتسي طباق حسن

وانْتَقَضَ الْجُرْحُ بِصَخْرٍ فَاشْتَكي ... سُقْمًا طَوِيلًا مُعْيِيًا مَنْ قَدْ أَسَى
حَتّى لَقَالَتْ عِرْسُهُ يَا لَيْتَهُ ... مَيْتٌ يُبَكّي أَوْ صَحِيحٌ يُرْتَجَا
وَكَادَتِ الْخَنْسَاءُ تَقْضِي نَحْبَهَا ... مِنْ أَسَفٍ عَلَيْهِ لَمَّا أَنْ قَضَي
وَأَبَّنَتْهُ بِمَرَاثٍ يَحْتَذِي ... مِثَالَهَا أُخْرَى اللَّيَالِي مَنْ رَثَا

يقال اسوت الجرح آسوه أى داويته فهو ماسو وأسي ويقال بكيت الرجل وبكيته بالتشديد اذا بكيت عليه أو رثيته ويقال قضى فلان نحبه اذا مات والنحب المدة والوقت والميت مخففا الميت والعرس الزوجة وقوله لما ان قضى أى لما ان مات ومعناه مضى وقال الفراء في قوله تعالى ثم اقضوا الي ولا تنظرون أى امضوا الى وابنته من قولهم أبنت الرجل تأبينا اذا بكيته وأثنيت عليه بعد الموت ومنه قول لبيد

* وأبنا ملاعب الرماح *

وقول رؤبة

* فامدح بلالا غير ما مؤبن *

أى غير هالك يبكى عليه ويقال افعل كذا أخرى الليالي وآخر الدهر وآخر الأيام أى أبدا والمراثي جمع مرثية يقال رثيت الميت مرثية ورثوته أيضا اذا بكيته وعددت محاسنه وكذلك اذا قلت فيه شعرا

﴿ ذكر صخر بن عمرو بن الشريد ﴾

وصخر الذي ذكره هو صخر بن عمرو بن الشريد السلمي وكان من حديثه ماذكره أبو عبيدة قال غزا هو وأنس بن عباس الرعلي بني أسد بن خزيمة في بني عوف وبني خفاف متساندين قلت يقال خرج القوم متساندين أى على رايات شتى وليسوا تحت راية أمير واحد قال أبو عبيدة وعلى بني خفاف صخر بن عمرو وعلى بني

عوف أنس بن عباس فأصابوا فى بنى أسد غنائم وسبيا فأخذ صخر يومئذ بديلة امرأة من بنى أسد وأصابته طعنة طعنه رجل من بنى أسد يقال له ربيعة بن ثور ويكنى أبا ثور فأدخل جوفه حلقا من الدرع فاندمل عليه حتى شق عنه بعد سنتين فكان ذلك سبب موته وذلك أن صخرا جوى من تلك الطعنة أى مرض وكان يمرض قريبا من حول حتى مله أهله فسمع صخر امرأة تسأل سلمى امرأته كيف بعلك فقالت لا حى فيرجى ولا ميت فينعى قد لقينا منه الأمرين وقيل ان التى قالت هذه المقالة الأسدية التى كان سباها يومئذ من بنى أسد وهى بديلة فاتخذها لنفسه وقال

ألا تلكم عرسى بديلة أوجست * فراقى وملت مضجعى ومكانى

وأهل المقالة الأولى ينشدون هذا البيت

أرى أم صخر ماتمل عيادتى * وملت سليمى مضجعى ومكانى

أم صخر هى أمه

فأى امرىء ساوى بأم حليلة * فلا عاش الا فى شقى وهوان
وماكنت أخشى أن أكون جنازة * عليك ومن يغتر بالحدثان
لعمرى لقد نبهت من كان نائما * وأسمعت من كانت له أذنان
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه * وقد حيل بين العير والنزوان
فللموت خير من حياة كأنها * معرس يعسوب برأس سنان

قال أبو عبيدة فلما طال عليه البلاء وقد نتأت قطعة مثل اليد من جنبه فى موضع الطعنة فتدلت واسترخت قالوا له لو قطعتها لرجونا أن تبرأ فقال شأنكم وأشفق عليه بعضهم فنهاه فأبى وقال الموت أهون على مما أنا فيه فأحموا له شفرة ثم قطعوها فيئس من نفسه حينئذ قال وسمع أخته الخنساء تسأل كيف صبره فقال

أجارتنا ان الخطوب تريب * على الناس كل المخطئين تصيب

قوله تريب أى تأتيهم بما يريبهم يقال رابنى وأرابنى بمعنى واحد

فان تسألى بى هل صبرت فاننى * صبور على ريب الزمان أريب

الأريب العاقل

كأنى وقد أدنوا الحز شفارهم * من الصبر دامى الصفحتين نكيب
أجارتنا لست الغداة بظاعن * ولكن مقيم ماأقام عسيب

وقد روى أنه لما طعن ودخلت حلق من الدرع فى جوفه ضمن منها زمانا وبعث الى ربيعة الأسدى الذى طعنه أنك أخذت حلقا من درعى بسنانك فقال له ربيعة أطلها فى جوفك فكان ينفث الدم وتلك الحلق معه فاتته امرأته وكان يكرمها ويعينها على أهله فمر بها رجل وهى قائمة وكانت ذات خلق وأوراك فقال لها أيباع الكفل فقالت عما قليل وصخر يسمع ذلك فقال لئن استطعت لأقدمنك أمامى ثم قال لها ناولينى السيف أنظر هل تقله يدى فدفعته اليه فاذا هو لا يقله فعندها قال * أرى أم صخر لا تمل عيادتى * الأبيات ثم لم يلبث أن مات ورثته الخنساء أخته واسمها تماضر فقالت

قذا بعينك أم بالعين عوار * أم ذرفت اذ خلت من أهلها الدار
كأن عينى لذكراه اذا خطرت * فيض يسيل على الخدين مدرار
تبكى خناس على صخر وحق لها * أذرابها الدهر ان الدهر ضرار
تبكى خناس فما تنفك ماعمرت * لها عليه رنين وهى مقتار

يا صخر وراد ماء قد تناذره * أهل المياه فما فى ورده عار
مشى السبنتى الى هيجاء معضلة * لها سلاحان أنياب وأظفار
وما عجول على بوّ تطيف به * لها حنينان اصغار وا كبار
ترتع ماغفلت حتى اذا ادركت * فانما هى أقبال وأدبار
يوما بأوجد منى يوم فارقنى * صخر وللعيش أحلاء وأمرار
وان صخرا لوالينا وسيدنا * وان صخرا اذا نشتوا لنحار
وان صخرا لتأتم الهداة به * كأنه علم فى رأسه نار
لم تره جارة يمشى بساحتها * لريبة حين يخلى بيته الجار

وقالت

يؤرقنى التذكر حين أمسى * ويردعنى مع الاحزان نكسى
على صخر وأى فتى كصخر * ليوم كريهة وطعان خلس
ولم أر مثله رزأ لجن * ولم أر مثله رزأ لأنس
ولولا كثرة الباكين حولى * على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن * أعزى النفس عنه بالتأسى
يذكرنى طلوع الشمس صخرا * وأبكيه لكل غروب شمس

وقالت

أعينى هلا تبكيان على صخر * بدمع حثيث لا بكى ولا نزر
ألا ثكلت أم الذين غدوا به * الى القبر ماذا يحملون الى القبر
وقائلة والنعش قد فات خطوها * لتدركه يالهف نفسى على صخر
فمن يضمن المعروف فى صلب ماله * ضمانك أو يقرى الضيوف كما تقرى
فشأن المنايا اذ أصابك ريبها * لتغدو على الفتيان بعدك أو تسرى

وذكروا أن الخنساء كانت تقول فى أول امرها البيتين والثلاثة حتى قتل أخواها معاوية بن عمرو وكان أخاها لأبيها وأمها وصخر وكان أخاها لأبيها دون أمها وكان أحبهما اليها لأنه كان حليما جوادا محبوبا فى العشيرة وأجمع أهل المعرفة بالشعر أنه لم تكن امرأة قط قبلها ولا بعدها أشعر منها ووفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمة مع قومها من بنى سليم فأسلمت معهم فذكروا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستنشدها و يعجبه شعرها فكانت تنشده وهو يقول هيه ياخناس و يومئ بيده صلى الله عليه وسلم وذكر أبو عمر بن عبد البر أن الزبير ابن بكار ذكر عن محمد بن الحسن المخزومى عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه عن أبى وجزة عن أبيه قال حضرت الخنساء بنت عمرو السلمية حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال فقالت لهم من أول الليل يابنى انكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين والله الذى لا إله غيره انكم لبنو رجل واحد كما انكم بنو امرأة واحدة ماخنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل فى حرب الكافرين واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية لقوله الله عز وجل يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون فاذا أصبحتم غدا ان شاء الله سالمين فأغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين و بالله على أعدائه مستنصرين فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وجللت نارا على أرواقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والأقامة فخرج بنوها قابلين لنصحها عازمين على قولها فلما أضاء لهم الصبح باكروا امراكزهم وانشأ أولهم يقول

يا أخوتي أن العجوز الناصحه * قد نصحتنا أذدعتنا البارحه
بمقالة ذات بيان واضحه * فباكروا الحرب الضروس الكالحه
وانما تلقون عند الصائحه * من آل ساسان كلابا نابحه
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحه * وانتم بين حياة صالحه
* وميتة تورث غنما رابحه *

وتقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله ثم حمل الثاني وهو يقول

أن العجوز ذات حزم وجلد * والنظر الأوفق والرأى السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد * نصيحة منها وبرا بالولد
فباكروا الحرب حماة فى العدد * اما بفوز بارد على الكبد
أوميتة تورثكم غنم الأبد * فى جنة الفردوس والعيش الرغد

فقاتل حتى استشهد رحمه الله ثم حمل الثالث وهو يقول

والله لا نعصى العجوز حرفا * قد أمرتنا حدبا وعطفا
نصحا وبرا صادقا ولطفا * فبادروا الحرب الضروس زحفا
حتى تلفوا آل كسرى لفا * أوتكشفوهم عن حماكم كشفا
أما ترى التقصير عنهم ضعفا * والقتل فيكم نجدة وعرفا

فقاتل حتى استشهد رحمه الله ثم حمل الرابع وهو يقول

لسنا لخنساء ولا للاخرم * ولا لعمرو ذى السناء الأقدم
ان لم أر فى الجيش جيش الاعجم * ماض على الهون خضم خضرم
اما لفوز عاجل ومغنم * أولوفاة فى السبيل الأكرم

فقاتل حتى قتل رحمة الله عليه وعلى أخوته فبلغها الخبر فقالت الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربنا أن يجمعنى معهم فى مستقر رحمته فكان عمر بن الخطاب يعطى الخنساء أرزاق أولادها الأربعة لكل واحد منهم مائتى درهم حتى قبض رحمه الله ورضى عنه

وَالدَّهرُ لاَ يُبقِي عَلى نَفْسٍ وَلاَ * يُبقِي عَلى عاتٍ نَفِيسٍ مُقتَنَي
وفِى ادّكارِ الحادِثاتِ عِبرٌ * يُسْلِي بِهَا عَنْ مِثلِهَا وَيُؤْتَسى
ما هَذِهِ الأَعْمَارُ إلاَّ طُرُقٌ * رَوَاحِلُ الاجسامِ فِيهَا تُمتَطَى
يَستَوحِشُ الانسَانُ مِنْ نقلَتِهِ * مِنهَا وَيَنأَى صَبرُهُ إذَا انتأَى
وَفِى انتِقَالِ الرُّوحِ عَنْ جُثمَانِهِ * عَنْ نِقلَةِ الجِسْمِ تَمازٍ وَأَسى
مَن ابتَغَى المَنجَاةَ مِنْ دُنياهُ لَمْ * يَبتَغِ مِنْ عيشَتِهِ غيرَ الكَفَا
مَنْ تُخمِلُ الأَيامُ بَعدَ حظوَةٍ * يَخمُلْ وَمَنْ تَحظِهِ دُنياهُ احتَظَا

العلق بالكسر النفيس من كل شئ ويشبه الأول من هذه الأبيات قول الشاعر

وأعددته ذخرا لكل ملمة * وسهم الرزايا بالذخائر مولع

قوله ماهذه الأعمار الاطرق ينظر الى قول ابن ميادة

وارانا كالزرع يحصده الدهـ * ـر فمن بين قائم وحصيد

وكأنا للموت ركب مخبو * ن سراع لمنهل مورود

أردت البيت الثاني وقال أبو العباس احمد بن عبد الله التطيلي الأعمى فيما يقرب من هذا

نشيع بالبكا ميتا فميتا * ولا وأبيك مايغني فتيلا

نظن حياتنا الدنيا مقاما * على أنا شهدناها رحيلا

وهل أيامنا الامطايا * تسير بنا الوجيف أو الذميلا

ولأبي عبادة البحتري

وأضللت حلمي فالتفت الى الصبا * سفاها وقد جزت الشباب مراحلا

فلله أيام الشباب وحسن ما * فعلن بنا لو لم يكن قلائلا

وقوله وفي انتقال الروح عن جثمانه البيت الجثمان والجسمان واحد يقال ما أحسن جثمان الرجل وجسمانه أي جسده وقال الممزق العبدي

وقد دعوا لى أقواما وقد غسلوا * بالسدر والماء جثماني وأطباقى

وقال الأصمعي الجثمان الشخص والجسمان الجسم قال الشاعر

أمون كدكان العبادي فوقها * سنام كجثمان البنية إتلعا

يعني بالبنية الكعبة وهي شخص وليست بجسد ويقال جاء بالثريد مثل جثمان القطاة والأسى بالضم جمع أسوة وبالكسر جمع اسوة بالكسر وهي ما يأتسي به الحزين أي يتعزى به وينظر هذا البيت الى قول القائل

وما الموت الا رحلة غير أنها * من المنزل الفاني الى المنزل الباقي

وقوله من ابتغى المنجاة من دنياه البيت الكفى جمع كفية بالضم وهي القوت قال الشاعر

ومختبط لم يلق من دونها كفى * وذات رضيع لم ينمها رضيعها

وبيت الناظم يشبه قول أبي العتاهية

حسبك مما تبتغيه القوت * ما أكثر القوت لمن يموت

وقال ابن أبي فنن

سر من عاش ماله فاذا * حاسبه الله سره الأعدام

وقوله من تحمل الأيام بعد حظوة البيت يشبه قولهم الناس أزواق عند باب الملك من نفخ فيه انتفخ وقالوا اذا أقبلت الدنيا على انسان أعطته محاسن غيره واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه ولأبي الفتح البستي

الناس أعوان من واتته دولته * وهم عليه اذا خانته أعوان

وقد جاء الناظم في البيت الأول بتجنيس وفي البيت الرابع والخامس والسادس بترديد وفي السابع بطباق وترديد وتصدير فتأمله

إِنَّ نَوَاءَ الْمَرْءِ فِي أَوْطَانِهِ عِزٌّ وَمَا الْغُرْبَةُ إِلاَّ كَالتَّوَى

وَقَلَّمَا بَانَ امْرُؤٌ عَنْ أَرْضِهِ إِلا وَبَانَ الصَّبْرُ عَنْهُ وَنَأَى

فَقَدْ تَشَكَّى ابْنُ مُضَاضٍ مَضَضاً ۞ مِنْ شَوْقِهِ إِلَى الْحَجُونِ وَالصَّفَا

يقال ثوى بالمكان يثوى ثواء وثويا أقام به قالوا ثويت البصرة وثويت بالبصرة واثويت لغة فى ثويت والتوى الهلاك وهومقصور يقال توى المال يتوى توى ومال تو على فعل ومن قولهم فى معنى الصدر من بيت الناظم اذا كنت فى غير بلدك فلاتنس نصيبك من الذل ولبعضهم

ان الهزبر اذا نأى عن غيصه ۞ ضربت له الأيدى على ترقيصه

وكذا الغريب اذا نأى عن داره ۞ ادته غربته الى تنقيصه

وقالوا الغريب كالغرس الذى زايل ارضه وفقد شربه فهوذاو لايثمر وذابل لا ينضر ومن قولهم أيضا الغريب كالوحش النائى عن وطنه فهو لكل سبع فريسة ولكل رام رمية ومن ذلك قول الشاعر وهو مهلهل

أنكحها فقدها الأراقم فى ۞ جنب وكان الحباء من أدم

لو بأبانين جاء يخطبها ۞ ضرج ما أنف خاطب بدم

وكان قد نزل فى آخر حرب البسوس فى جنب ابن عمرو بن علة بن جابر بن مالك وهم مذحج وجنب حى من احيائهم وضيع فخطب اليه بنته ومهرت أدما فلم يقدر على الأمتناع فزوجها وقال البيتين وقوله وما الغربة الا كالتوى فمعناه أن الموت والخروج عن الأوطان سيان وقدقرن الله تعالى الخروج عن الديار بالقتل فى قوله تعالى ولوأنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أواخرجوا من دياركم مافعلوه الا قليل منهم وفى نسخة وانشدنى الشيخ الفقيه القاضى الخطيب أبو البركات ابن الحاج لنفسه مما قاله فى حال الحداثة وذلك بثغر المرية حين حصرها طاغية أرغون وكان ممن انحصر داخلها وذلك حين توقعوا اخراج العدو لأهلها

وما فرقة الأوطان الا مشقة ۞ بهاشاب للاحداث صدغ ومفرق

بقتل النفوس قارن الله ذكرها ۞ فسيان ماقتل الفتى والتفرق

وقد قال بعضهم فيما ينظر الى هذا المعنى

بانوا فاتت أسفا دارهم ۞ وانما الناس نفوس الديار

واماقوله وقلما بان امرؤ عن أرضه فقد قالوا الحنين الى الوطن من كرم النفس وقال ابن الرومى

وحبب أوطان الرجال اليهم ۞ ما رب قضاها الشباب هنالكا

اذاذكروا أوطانهم ذكرتهم ۞ عهود الصبا فيها فحنوا لذالكا

وقد قال الآخر

بلاد بها نيطت على تمائمى ۞ وأول أرض مس جلدى ترابها

ومن كلامهم يحن اللبيب الى وطنه كما يحن النجيب الى عطنه وقال حبيب

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى ۞ وحنينه أبدا لأول منزل

وقوله فقد تشكى ابن مضاض مضضا البيت المضض الألم والوجع وقد تقدم

﴿ ذكر ابن مضاض ﴾

وابن مضاض الذى ذكره هو عمرو بن الحرث بن مضاض الجرهمى وكان من حديثه أن جرهما قومه وهم فيما يزعمون بنو جرهم بن قحطان بن هود النبى عليه السلام وهم أخوال ولد اسماعيل عليه السلام كانوا ولاة الأمر بمكة والحكام بها لاينازعهم ولد اسماعيل فى ذلك لخؤلتهم وقرابتهم واعظاما لحرمة مكة أن يكون بها بغى أوقتال

فلما نشر الله ولد اسماعيل وضاقت مكة عنهم انتشروا فى البلاد فكانوا لا يناوون قوما الا أظهرهم الله عليهم بدينهم فوطؤهم ثم أن جرهما بغوا بمكة واستحلوا الحرمة وظلموا من دخلها من غير أهلها واكلوا مال الكعبة الذى يهدى لها فلما رأت بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة وغبشان بن خزاعة ذلك أجمعوا الحرب بهم واخراجهم من مكة فآذنوهم بالحرب فاقتتلوا فغلبت بنو بكر وغبشان فنفوهم من مكة وكانت مكة فى الجاهلية لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ولا يبغى بها أحد الا أخرجته وكانت تسمى الناسة ولا يريدها ملك يستحل حرمتها الا هلك فيقال ما سميت ببكة الا أنها كانت تبك أعناق الجبابرة اذا أحدثوا فيها حدثا وزعموا أن جرهما كان من بغيهم بها أن الرجل اذا لم يجد مكانا يزنى فيه زنى فى الكعبة فيقال أن اسافا زنى بنائلة فيها فسخهما الله حجرين وهما أساف بن سهيل ونائلة بنت عمرو بن ذؤيب وقد قيل أن بكة اسم لبطن مكة لأنهم يتباكون فيه أى يزدحمون ولما غلبت جرهم خرج عمرو بن الحارث بن مضاض بغزالى الكعبة و بحجر الركن فدفن ذلك فى زمزم وانطلق هو ومن معه من جرهم الى اليمن فحزنوا على مافارقوا من أمر مكة وملكها حزنا شديدا فقال عمرو بن الحرث بن مضاض فى ذلك

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ❊ أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا ❊ صروف الليالى والجدود العواثر
وكنا ولاة الناس من بعد نابت ❊ نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
ونحن ولينا البيت من بعد نابت ❊ بعز فما يحظى لدينا المكاثر
ملكنا فعززنا فاعظم بملكنا ❊ فليس لحى غيرنا ثم فاخر
ألم تنكحوا من خير شخص علمته ❊ فابناؤه منا ونحن الأصاهر
فان تنثن الدنيا علينا بحالها ❊ فان لها حالا وفيها التشاجر
فأخرجنا منها المليك بقدرة ❊ كذلك يا للناس تجرى المقادر
أقول اذا نام الخلى ولم أنم ❊ أذا العرش لا يبعد سهيل وعامر

ذكر صاحب الروض ان عامر اجبل من جبال مكة قال و يدل على ذلك قول بلال رضى الله عنه

❊ وهل يبدون لى عامر وطفيل ❊

على رواية من رواه هكذا وسنذكران شاء الله قول بلال بعد هذا

وبدلت منها أوجها لاأحبها ❊ قبائل منها حمير ويحابر
وصرنا أحاديثا وكنا بغبطة ❊ بذلك عضتنا السنون العواثر
فسحت دموع العين تبكى لبلدة ❊ بها حرم أمن وفيها المشاعر
وتبكى لبيت ليس يؤذى حمامه ❊ يظل به أمنا وفيه العصافر
وفيه وحوش لاترام أنيسة ❊ اذا خرجت منه فليست تغادر

ويقال ان جرهما حين خرجوا من مكة وسار فلهم فى البلاد سلط عليهم الذر والرعاف واهلك بقيتهم السيل حتى كان آخرهم موتا امرأة رئيت تطوف بالكعبة بعد خروجهم منها بزمان فعجب من طولها وعظم خلقها حتى قال لها قائل أجنية أم أنسية فقالت بل أنسية من جرهم ثم استكرت بعيرا من رجلين من جهينة فاحتملاها على البعير الى أرض خيبر فلما أنزلاها بالمنزل الذى رسمت لهما سألاها عن الماء فاشارت لهما الى موضع الماء فوليا عنها واذا الذر قد تعلق بها حتى بلغ خياشيمها وعينيها وهى تنادى بالويل حتى دخل الذر حلقها وسقطت لوجهها وذهب الجهينيان الى الماء واستوطناه فمن ذلك كان موضع جهينة بالحجاز و بقرب المدينة وانما هم من قضاعة وقضاعة من ريف العراق و يقال ان الحرث بن مضاض بعد ان غلبت جرهم ضلت له ابل فبغاها

حتى أتى الحرم فأراد دخوله ليأخذ أبله فنادى عمرو بن لحى من وجد جرهميا فلم يقتله قطعت يده فسمع ذلك
واشرف على جبل من جبال مكة فرأى إبله تنحر و يتوزع لحمها فانصرف يائسا خائفا ذليلا وابعد فى الأرض
وهى غربة الحرث بن مضاض التى ضرب بها المثل حتى قال حبيب

غربة تقتدى بغربة قيس بن زهير والحرث بن مضاض

وحينئذ قال الحرث بن مضاض * كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا *
هكذا ذكر هذه القصة صاحب الروض ونسب الشعر الى الحرث والذى ذكر ابن اسحاق أن الشعر لعمرو بن
الحرث فالله أعلم و يقال ان عدد السنين التى أقامت جرهم فيها ولاة البيت ثلاثمائة سنة وقد قيل انهم ولوه خمسمائة
سنة قلت قول الناظم من شوقه الى الحجون والصفا إشارة الى قول ابن مضاض كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
والحجون موضع بمكة عند المحصب وهو الجبل المشرف بحذاء المسجد الذى يلى شعب الجرارين الى ما بين
الحوضين اللذين فى حائط عوف وقد ذكر الله تعالى الصفا فى كتابه

وَكابَدَ الشَّوْقَ بِلالٌ وَبَرَى جُثْمانَهُ مِنَ السَّقامِ مابَرَى

وَظَلَّ مِنْ شَوْقٍ الى مَجَنَّةٍ وَشامَةٍ يَشِيمُ إِيماضَ الْمُنَى

برى جثمانه أى أذهب لحمه ومنه قولهم بريت البعير اذا حسرته وأذهبت ما عليه من اللحم ومجنة موضع على أميال
يسيرة من مكة ناحية الظهران قال أبو ذؤيب

فوافى بها عسفان ثم أتى بها * مجنة يطفو فى القلال ولا يطفو

قال أبو الفتح بن جنى يحتمل أن تسمى مجنة لبساتين تتصل بها وهى الجنان وأن تكون فعلة سميت بذلك لان
ضربا من المجون كان بها قلت وعلى الوجه الأول يكون وزنها مفعلة كما قالوا أرض مبقلة وشامة موضع على بريد
من مكة و يقال شام البرق اذا نظر الى سحابه أين تمطر وشام مخايل الشئ اذا تطلع نحوه ببصره منتظرا له و يقال
ومض البرق يمض ومضا وومضانا اذا لمع لمعا خفيا ولم يعترض فى نواحى الغيم وأومض ايماضا كذلك وانما ضرب
الناظم ذلك مثلا لما يتطلع اليمن بلوغ المنى

(ذكر بلال بن رباح رضى الله عنه)

و بلال الذى ذكره هو بلال بن رباح يكنى أبا عبد الله و يقال أبا عبد الكريم و يقال أبا عبد الرحمن و يقال
أبا عمرو وهو مولى أبى بكر الصديق رضى الله عنه اشتراه أبو بكر وهو يعذب على الاسلام فأعتقه وهو من
أفاضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مؤذنه عليه السلام شهد بدرا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم وكان أول من أظهر الاسلام سبعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمار وأمه سمية وصهيب
و بلال والمقداد فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنعه الله بعمه أبى طالب وأما أبو بكر فمنعه قومه وأما سائرهم
فعذبهم المشركون فما منهم انسان الا وقد واتاهم على ما أرادوا الا بلالا فانه هانت عليه نفسه فى الله وهان على قومه
فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول أحد أحد وكان صادق الاسلام طاهر القلب وقال
له رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فسمعت خشفا والخشف الوطء والحس فقلت من هذا قيل بلال
فكان بلال اذا ذكر ذلك بكى وكان اسم أم بلال حمامة ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهاجر من
هاجر معه عليه السلام وعك أبو بكر و بلال قالت عائشة رضى الله عنها فقلت يا أبت كيف تجدك و يا بلال

كيف تجدك قالت فكان أبو بكر اذا أخذته الحمى يقول

كل امرىء مصبح فى أهله * والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال اذا أقلع عنه الحمى يرفع عقيرته و يقول

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة * بواد وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوما مياه مجنة * وهل يبدون لى شامة وطفيل

قالت عائشة فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وصححها وبارك لنا فى صاعها ومدها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة وذكر ابن اسحق ان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر وعك مع أبى بكر و بلال وكان معهما فى بيت واحد وان عائشة رضى الله عنها قالت أيضا لعامر كيف تجدك فقال

لقد وجدت الموت قبل ذوقه * ان الجبان حتفه من فوقه
كل امرىء مجاهد بطوقه * كالثور يحمى جلده بروقه

وأشد الوباء بمهيعة وهى الجحفة بسبب دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ان الطائر يمر بغدير خم فيحم وغدير خم فيها و يقال انها ماولد فيها مولود فبلغ الحلم وكان المهاجرون حين قدموا المدينة اشتاقوا مكة وحنوا اليها فيقال ان أصيلا الهذلى و يقال الغفارى قدم المدينة من مكة فقالت له عائشة يا أصيل كيف تركت مكة قال تركتها حين ابيضت أباطحها وأرغل ثمامها وأمتش سلمها وأغدق اذخرها فقالت عائشة رضى الله عنها يارسول الله مايقول أصيل فاغر ورقت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تشوقنا يا أصيل و يروى أنه قال دع القلوب تقر و يروى الاليت شعرى هل أبيتن ليلة بفخ وفخ موضع خارج مكة يقول فيه الشاعر

ماذا بفخ من الأشراف والطيب * ومن جوار نقيات رعابيب

وقال كنت أحسب شامة وطفيلا جبلين حتى مررت بهما و وقفت عليهما فاذا هما عينان قال صاحب الروض و يقوى ذلك قول كثير

وما أنس م الأشياء لا أنس موقفا * لنا ولها بالخبت خبت طفيل

والخبت ما انخفض من الأرض قلت فقول الناظم وكابد الشوق بلال و يرى جثمانه البيت اشارة الى ماخامره من الحنين الى مكة وما أصابه من الوعك وقوله وظل من شوق الى مجنة إشارة الى قوله وهل أردن يوما مياه مجنة البيت

وحنَّ عَمْرُو بْنُ الْوَلِيدِ إذْ نَأى * عَنْ يَثْرِبٍ فَمَا صَحَا ولاَ سَلى

يثرب مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ ذكر عمرو بن الوليد ﴾

وعمرو بن الوليد الذى ذكره الناظم هو أبو قطيفة عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط واسم أبى معيط أبان ابن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وقد ذكروا ان أبا عمرو لم يكن ابنا لأمية وانما كان عبدا له اسمه ذكوان فاستلحقه وتبناه وذكر أن دغفلا النسابة دخل على معاوية بن ابى سفيان فقال له من رأيت من علية قريش قال رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس فقال صفهما لى فقال كان عبد المطلب أبيض مديد القامة حسن الوجه فى جبينه نور النبوة وعز الملك يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب قال لى صف لى أمية قال رأيته شيخا قصيرا نحيف الجسم ضريرا يقوده عبده ذكوان فقال معاوية مه ذاك ابنه أبو عمرو فقال هذا شئ قلتموه بعده وأحدثتموه فاما الذى عرفت فهو الذى أخبرتك به قلت و يؤيده

ذلك ان عقبة بن ابي معيط لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تضرب عنقه صبرا قال أقتل من بين قريش فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حن قدح ليس منها وهذا مثل تضرب به العرب في الرجل يدخل نفسه في القوم وليس منهم ويكنى عمرو بن الوليد أبا الوليد وابو قطيفة لقب لقب به وكان من حديث عمرو بن الوليد ان ابن الزبير نفاه عن المدينة مع بني أمية وكان السبب في ذلك أن عبد الله بن الزبير دعا الناس الى خلع يزيد وكان لم يدخل في بيعته وشمر للامر الذي أراد وشبر بطنه وقال انما بطني شبر وماعسى ان يسع الشبر فالاه أكثر الناس على مراده ودخل عبد الله بن مطيع وعبد الله بن حنظلة واهل المدينة المسجد واتوا المنبر فخلعوا يزيد فقال عبد الله بن عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي خلعت يزيد كما خلعت عمامتي هذه ونزعها عن رأسه وقال أني لأقول ذلك وقد وصلني وأحسن جائزتي ولكن عدو الله سكير وقال آخر خلعته كما خلعت نعلي وقال آخر كما خلعت ثوبي وقال آخر كما خلعت خفي حتى كثرت العمائم والنعال والخفاف واظهروا البراءة منه واجمعوا على ذلك وامتنع من ذلك عبد الله بن عمر ومحمد بن علي بن أبي طالب وجرى بين محمد خاصة وبين أصحاب ابن الزبير قول كثير حتى أرادوا اكراهه على ذلك فخرج الى مكة فكان هذا أول ماهاج الشر بينه وبين ابن الزبير واجتمع أهل المدينة لأخراج بني أمية وأخذوا عليهم العهود أن لا يعينوا عليهم الجيش وأن يردوهم عنهم فان لم يقدروا على ردهم ان لا يرجعوا الى المدينة معهم فقال لهم عثمان بن محمد بن أبي سفيان أنشدكم الله في دمائكم فان الجنود تأتيكم وتطأكم وأعذر لكم ان لا تخرجوا أميركم انكم ان ظفرتم وانا مقيم بين أظهركم فما أيسر شأني واقدركم على أخراجي وما أقول هذا الا نظرا لكم اريد به خير الدنيا فشتموه وشتموا يزيد وقالوا مانبدؤ الا بك ثم نخرجهم بعدك فأتى مروان عبد الله بن عمر فقال ياأبا عبد الرحمن ان هؤلاء القوم قد ركبوا ماترى فضم عيالنا فقال لست من أمركم وأمر هؤلاء في شئ ثم أتى علي بن الحسين فسأله ان يضم عياله وثقله ففعل ووجههم وامرأته أم ابان بنت عثمان الى الطائف ومعها أبناه عبد الله ومحمد فمرض حريث الملقب برقاصة لثقل مروان وفيهم أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب فضربته بعصا كادت تدق عنقه فولى ومضوا الى ذي خشب وفيهم عثمان بن محمد بن أبي سفيان والوليد بن عتبة بن أبي سفيان واتبعهم العبيد والسفلة والصبيان يرمونهم واقامت بنو أمية بذي خشب عشرة أيام وسرحوا حبيب بن كرة الى يزيد بن معاوية يعلمونه وكتبوا اليه الغوث الغوث وبلغ أهل المدينة أنهم وجهوا رجلا الى يزيد فخرج محمد بن عمرو بن حزم وحريث رقاصة وخمسون راكبا فازعجوا بني أمية فنخس حريث بمروان فكاد يسقط عن دابته فلما كانوا بالسويداء عرض لهم مولى لمروان فقال جعلت فداك لو نزلت فارحت وتغديت فالغداء حاضر كثير قد أدرك فقال لا يدعني رقاصة واشباهه ونظر مروان الى ماله بذي خشب فقال لامال الا مالا أحزنه العياب وفي ذلك من فعلهم بمروان يقول الاحوص

لاترثين لحزمي رأيت به * ضرا ولو القي الحزمي في النار

الناخسين بمروان بذي خشب * والمقحمين على عثمان في الدار

فذكروا أن حبيب بن كرة دخل على يزيد وهو واضع رجله في طست لوجع كان يجده بكتاب بني مروان وأخبره الخبر فقال أما كان بنو امية ومواليهم الف رجل قال بلى وثلاثة آلاف قال فعجزوا أن يقاتلوا ساعة من نهار قال كثرهم الناس ولم يكن بهم طاقة فكان ذلك هو الذي جر يوم الحرة فكان أبو قطيفة عمرو بن الوليد ممن أخرج من بني أمية عن المدينة الى الشأم فلما طال مقامه بها قال

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا * قباء وهل زال العقيق وحاضره

وهل برحت بطحاء قبر محمد * أراهط غر من قريش تباكره

لهم منتهى حبي وصفو مودتي * ومحض الهوى مني وللناس سائره

وقال أيضا

ليت شعري وابن مني ليت * أعلي العهد بين فيرام
أم كعهدي العقيق أم غيرته * بعدي الحادثات والأيام
وبأهلي بدلت عكا ولخما * وجذاما وابن مني جذام
وتبدلت من مساكن قومي * والقصور التي بها الآضام
كل قصر مشيد ذي أواس * يتغنى على ذراه الحمام
أقر مني السلام أن جئت قومي * وقليل لهم لدى السلام
أقطع الليل كله باكتئاب * وزفير فما أكاد أنام
نحو قومي اذ فرقت بيننا الدا * روجارت عن قصدها الاحلام
خشية أن يصيبهم عنة الدهـ * روحرب يشيب منه الغلام

فيقال ان ابن الزبير لما بلغه شعر أبي قطيفة هذا قال حن والله أبو قطيفة وعليه السلام ورحمة الله من لقيه فليخبره انه آمن فليرجع فاخبر بذلك فانكفأ الى المدينة راجعا فلم يصل اليها حتى مات ويقال ان امرأة من أهل المدينة تزوجها رجل من أهل الشام فخرج بها الى بلده على كره منها فسمعت منشدا ينشد شعر أبي قطيفة هذا فشهقت شهقة وخرت على وجهها ميتة وقال أبو قطيفة

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا * جنوب المصلى أم كعهدي القرائن
وهل أدؤر حول البلاط عوامر * من الحي أم هل بالمدينة ساكن
اذا برقت نحو الحجاز سحابة * دعا الشوق مني برقها المتيامن
فلم أتركها رغبة عن بلادها * ولكنه ماقدر الله كائن
أحن الى تلك الوجوه صبابة * كأني أسير في السلاسل راهن

وَبَانَ عَنْ وَادِي الْقُرَى ابْنُ مَعْمَرٍ   لَمْ يَخْفَ مِنْ شَوْقٍ إِلَى وَادِي الْقُرَى

﴿ ذكر جميل بن عبد الله بن معمر ﴾

ابن معمر الذي ذكره الناظم هو جميل بن عبد الله بن معمر العذري ومن حديثه انه كان يحب بثينة بنت حبا العذري ويشبب بها وكان أول علاقته بها أني اختالها فيتحدث اليها ويعرض في حديثه حتى أفهمها غرامه بها فوجدت بمثل ماوجد بها وانتشر حديثهما فغار أهلها ورصده جماعة منهم فجاء على ناقته حتى وقف على بثينة واختها وهو ينشدهما

حلفت لها بالراقصات الى منى * هوى القطا يجتزن كل دفين
لقد ظن هذا القلب ان ليس لاقيا * سليمى ولا أم الحسين لحين
فليت رجالا فيك قد نذروا دمي * وهموا بقتلي يابثين لقوني
اذا مارأوني طالعا من ثنية * يقولون من هذا وقد عرفوني

فبينما هو على تلك الحال اذ وثب عليه القوم فرماهم بناقته فارسلت نفسها من مهوات طويلة فوقعت مطبقة اخفافها الارض وابصر واغبارها وهي قد اطمأنت من وادي القرى فيئسوا من طلبه فبقي مرتمى ناقته ذلك معلما يتذاكره الناس ويعجبون منه وذكر أن بثينة كانت بنت خالة جميل وان بثينة زوجت من ابن عمها على

كره منها ومغايظة لأهلها فهجرها جميل وتجنبها ولم يلم بها وطالت المدة ثم ان جميلا قال لبعض صحبه قد طال هجراني بثينة وتمادى على البعد وان ذلك لقاض علي فقال له ابق على نفسك واصبر على ما تكره والمم بها الممة لعلك ان تستريح لها فمضى فلقي جارية لها فلم يكلمها ولا اعلمها أنه قصد بثينة وجلس مع ابني عم له مستظلا بشجرة ومطاياهم معقولة كانهم يريدون أن يريحوا فبادرت الأمة الى بثينة فجاءت مع صواحب لها فلما رأينه سلمن عليه وعلى صاحبيه وجلسن اليهم فقالت أحداهن لئن كنت تبعد نافقد اشتقنا اليك فقال اغتربت عنكن ورايت التباعد مع ماحدث أجمل فبكت بثينة وقالت لا كنا والله ما تباعدنا منك ولا زادتنا الليالي ألا شوقا اليك وتحدثنا زمانا ثم انصرفوا فقال جميل في ذلك أشعارا فمن ذلك قوله من قصيدة

ألا ليت أيام الصفاء جديد * ويوما تولى يابثين يعود
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة * بوادي القرى انى اذا لسعيد
وهل أهبطن أرضا تظل رياحها * لها بالثنايا العارفات وئيد
وقد تلتقي الأهواء من باسة وقد * وقد تطلب الحاجات وهي بعيد
وهل أزجرن حرفا علاة شملة * بخرق تباريها سواهم قود
علقت الهوى منها وليدا ولم أزل * الى اليوم ينمي حبها ويزيد
وأفنيت عمري في انتظاري وعدها * وأبليت بذاك الدهر وهو جديد
فلا أنا مردود بما جئت طالبا * ولا حبها فيما يبيد يبيد
يقولون جاهد ياجميل بغزوة * وأي جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة * وكل قتيل بينهن شهيد
اذا قلت مابي يابثينة قاتلي * من الحب قالت ثابت ويزيد
وان قلت ردي بعض عقلي أعش به * بثينة قالت ذاك منك بعيد
خليلي ما أخفي من الوجد ظاهر * فدمعي بما أخفي الغداة شهيد
وان عروض الوصل بيني وبينها * وان سهلته بالمنى لصعود
ويحسب نشوان من الجهل انني * اذا جئت إياهن كنت أريد
فأقسم طرفي بينهن فيستوي * وفي الصدر بون بينهن بعيد
إذا جئتها يوما من الدهر زائرا * تعرض منقوص اليدين صدود
يصد ويغضي عن هواي ويجتني * ذنوبا علينا انه لعنود
فأصرمها خوفا كأني غالب * ويغفل عنا مرة فنعود
فمن يعط في الدنيا قرينا كمثلها * فذلك عيش في الحياة رشيد
يموت الهوى مني اذا مالقيتها * ويحيا اذا فارقتها فيعود
ومن كان في حبي بثينة يمتري * فبرقاء ذي ضال على شهيد
ألم تعلمي ياأم ذي الودع انني * أضاحك ذكرا كم وأنت صلود

وذكروا أن جميلا قال لبعض عواده وهو يجود بنفسه ماتقولون في رجل لم يزن قط ولم يشرب خمرا قط ولم يقتل نفسا قط يشهد أن لا إله إلا الله وان محمدا رسوله فقال له أظنه والله نجا فمن هذا الرجل قال أنا ثم قال لا نالتني شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ان كنت وضعت يدي على بثينة لريبة قط فما برحوا من عنده حتى مات قلت قول الناظم حن من شوق الى وادي القرى إشارة الى قول جميل

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة * بوادي القرى اني اذا لسعيد

وَالجُمَحِيُّ جَمَحَ الوَجْدُ بِهِ فَلَمْ يَرِعْ لِسَلْوَةٍ وَلاَ رَعَى

فَلَمْ يَطِبْ بِالشَّامِ نَفْساً وَطَبَا فُؤَادَهُ إِلَى الحِجَازِ مَاطَبَا

قوله فلم يرع لسلوة أي لم يرجع لسلوة من قولهم ورع الابل عن الحوض اذا ردها ومنه الورع وهو التحرج لأن الورع يرجع عن المشتبهات و يكف عنها و يقال ارعوى عن القبيح اذا كف عنه يقال فلان حسن الرعوة والرعوة والرعوى والارعواء وقيل ارعوى رعى يرعو و وزن ارعوى افعال ولولا الاعلال لأدغم كنظائره مثل أحمر وأبيض الا أن الاعلال عندهم سابق الادغام الاترى انهم قالوا اقوى ولولا الاعلال لكان مدغما كعض ونظائره فتأمله و يقال طباه يطبوه و يطبيه اذا دعاه قال ذوالرمة

ليالي اللهو يطبيني فأتبعه * كأنني ضارب في غمرة لعب

وكذلك اطباه وهو افتعل

﴿ ذكر أبي دهبل الجمحي ﴾

والجمحي الذي ذكره الناظم هو أبو دهبل الجمحي واسمه وهب بن ربيعة و يقال زمعة بن أسعد بن أحيحة بن خلف وأحيحة أخو أمية وأبي ابني خلف وكان أبو دهبل تقيا جميلا فقفل من الغزوات مرة فمر بدمشق فنزل جيرون فدعته امرأة الى أن يقرأ لها كتابا وقالت ان صاحبته في هذا القصر فتقرأه وتحتسب الأجر فيها ففعل فأغلق الباب واذا بجارية مثل الغزال المروع فقالت له انما احتلت لك بالكتاب حتى أدخلتك فقال أما الحرام فلا سبيل له قالت فلست تراد حراما فتزوجته وأقام عندها دهرا حتى نعي بالمدينة ثم قال لها قد تأثمت في ولدي وأهلي فأذني لي أطلعهم وأرجع اليك فعاهدته على ذلك وعاهدها وأخذت عليه أيمانا الا تقيم إلا سنة وأعطته مالا كثيرا فخرج حتى قدم على أهله بمكة فوجدهم قد نعي لهم واقتسم ولده ماله ولم تأخذ وجته منه شيئا و وجدها قد بكت حتى رمصت وقال لبنيه أما أنتم فحظكم ما أخذتم من مالي وقال لزوجته هذا المال لك فاصنعي ماشئت فأقام عندها ثم رجع الى جيرون فوجد المرأة قد ماتت وكانت المرأة عاتكة بنت معاوية فقال أبو دهبل

صاح حي الألاه أهلا ودورا * عند أصل القناة من جيرون

عن يسار اذا دخلت الى الدا * ر وان كنت خارجا فيمين

فبتلك اغتربت بالشام حتى * ظن أهلي مرجمات الظنون

وهي زهراء مثل جوهرة الغو * اص ميزت من جوهر مكنون

فاذا ما نسبتها لم تجدها * في سناء من المكارم دون

تجمل المسك واليلنجوج والند * صلاء لها على الكانون

ثم خاصرتها الى القبة الخضـ * ـراء تمشي في مرمر مسنون

قبة من مراجل ضربتها * عند برد الشتاء في قيطون

ثم فارقتها على خير ما كا * ن قرين مفارقا لقرين

فبكت خشية التفرق للبيـ * ـن بكاء الحزين أثر الحزين

فسلي عن تذكري واطمئني * بابابي وان هم عذلوني

المسنون المصقول والمراجل ثياب من ثياب اليمن قال العجاج * فشية كشية الممرجل والقبطون البيت في جوف البيت والى هذه القصة أشار الناظم بقوله فلم يرع لسلوة ولا ارعوى يريد ما كان من حبه لعاتكة واقامته معها وقوله فلم يطب بالشام نفسا البيت يريد ما كان من حنينه الى وطنه وتأثمه في أهله وولده ورجوعه اليهم على الوجه الذى ذكرناه وان افراط وجده بعاتكة لم يمنعه من الحنين الى أوطانه وعلى الحنين الى الوطن بنا الناظم هذا الفصل كله وقدر ويت هذه الأبيات التى أنشدناها هنا وهى صاح حى الألاه حيا ودورا لعبد الرحمن ابن حسان وان يزيد بن معاوية لما بلغته ابيات عبد الرحمن قال لأبيه أما سمعت قول عبد الرحمن بن حسان فى ابنتك قال وما الذى قال قال انه قال

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغـوا * ص ميزت من جوهر مكنون

قال معاوية صدق قال يزيد وقال

واذا ما نسبتها لم تجدها * فى سناء من المكارم دون

قال معاوية صدق وقال يزيد وقال

ثم خاصرتها الى القبة الخضـ * ـراء تمشى فى مرمر مسنون

قال معاوية كذب فلما لم يريد من معاوية ما أراد أمر كعب بن جعيل بهجاء الأنصار فقال كعب أرادى أنت فى الجاهلية كيف أهجو قوما نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أدلك على غلام نصرانى كأن لسانه لسان ثور يعنى الأخطل فقال الأخطل

ذهبت قريش بالمكارم كلها * واللؤم تحت عمائم الانصار

فدخل النعمان بن بشير الانصارى على معاوية فحسر عمامته عن رأسه ثم قال يا معاوية أترى لؤما قال ما أرى إلا كرما وكان برأس النعمان جراحات أصابته مع النبى صلى الله عليه وسلم وكان عقبيا بدريا من النقباء فلذلك قال له معاوية ما أرى الا كرما فقال النعمان

معاوى الا تعطنا الحـق تعترف * لحى الأزد مسد ولا علها العمائم

أيشتمنا عبد الأراقم ضلة * فماذا الذى تجدى عليك الأراقم

فمالى ثأر دون قطع لسانه * فدونك من ترضيه عنك الدراهم

وفى قصيدة أبى دهبل أبيات لم ينسبها الى عبد الرحمن من نسب القصيدة اليه وقد رويت قصة أبى دهبل مع عاتكة على غير هذا الوجه الذى أوردناه وانها حجت فنزلت من مكة بذى طوى فبينما هى ذات يوم جالسة وقد اشتد الحر فى وقت الهاجرة وأمرت جوار بها فرفعن الستر فنظرت الى الطريق إذ مر بها أبو دهبل وكان من أجمل الناس فوقف طويلا ينظر اليها وهى غافلة فلما فطنت سترت وجهها وأمرت بسدل الستر وشتمته فقال أبو دهبل

انى دعانى الحـين واقتادنى * حتى رأيت الظبى بالباب

ياحسنه اذ سبنى مغضبا * مستترا عـنى بجلباب

من أبيات فشاعت أبياته بمكة وغنى بها حتى سمعتها عاتكة انشادا وغناء فضحكت وأعجبها وبعثت اليه بكسوة والطاف فلما صدرت عن مكة خرج معها الى الشام ونزل قريبا منها فكانت تتعاهده بالبر واللطف حتى وردت دمشق فذلك قوله حى الألاه حيا ودورا وقال أبو دهبل أيضا

الالا تقل مهلا فقد ذهب المهل * وما كل من يلحى محباله عقل

لقد كان فى حولين حالا ولم أزر * هواها وان خوفت عن حبها شغل

حمى الملك الجبار عنى لقاءها * فادونها يخشى المخاوف والقتل

فلا خير في حب يخاف وباله * ولا في حبيب لا يكون له وصل
فوا كبدي إني شهرت بحبها * ولم يك فيما بيننا ساعة بذل
ويا عجبا إني أكتم حبها * وقد شاع حتى قطعت دونه السبل

وَبَانَ عَنْ أَوْطَانِهِ ابْنُ طَالِبٍ * إِذْ ضَلَّ مَطْلُوباً بِدَيْنٍ مُقْتَضَى
فَأَصْبَحَتْ مُهْجَتُهُ مَقْسُومَةً * بَيْنَ الْحُجَيْلَاءِ وَبَيْنَ قَرْقَرَى
وَكَمْ تَمَنَّى وَرَجَا أَنْ يَشْتَفِي * بِشَرْبَةٍ مِنْ مَائِهَا فَمَا اشْتَفَى

﴿ ذكر يحيى بن طالب الحنفي ﴾

بن طالب الذي ذكره الناظم هو يحيى بن طالب شاعر من أهل اليمامة ثم من بني حنيفة وكان سخيا كريما يقرى الأضياف ويطعم الطعام فركبه الدين الفادح فجلى عن اليمامة الى بغداد يسأل السلطان قضاء دينه فأراد رجل من اهل اليمامة الشخوص من بغداد الى اليمامة فشيعه يحيى بن طالب فلما جلس الرجل في الزورق ذرفت عينا يحيى وأنشأ يقول

أحقا عباد الله ان لست ناظرا * إلى قرقرى يوما وأعلامها الخضر
إذا ارتحلت نحو اليمامة رفقة * دعاك الهوى واهتاج قلبك للذكر
أقول لموسى والدموع كأنها * جداول ماء في حدائقها تجرى
ألا هل لشيخ وابن ستين حجة * بكى طربا نحو اليمامة من عذر
كأن فؤادي كلما مر راكب * جناح غراب رام نهضا إلى وكر
يزهدني في كل خير صنعته * إلى الناس ما جربت من قلة الشكر
فواحزنا ماذا أجن من الهوى * ومن مضمر الشوق الدخيل الى حجرى
تغربت عنها كارها فتركتها * وكان فراقيها أمر من الصبر

أراد الصبر فخفف وحجر قصبة اليمامة وقال ايضا

أيا أثلات القاع من بطن توضح * حنيني الى أطلالكن طويل
ويا أثلات القاع قد مل صحبتي * مسيرى فهل في ظلكن مقيل
ويا أثلات القاع قلبي موكل * بكن وجدوى غيركن قليل
الا هل إلى شم الخزامى ونظرة * إلى قرقرى قبل الممات سبيل
فأشرب من ماء الحجيلاء شربة * يداوى بها قبل الممات عليل
أحدث عنك النفس ان لست راجعا * اليك فحزني في الفؤاد دخيل
أريد هبوطا نحوكم فيردني * إذا رمته دين على ثقيل

فغنى هارون الرشيد بشعر يحيى هذا فقال يقضى دينه فطلب فاذا هو قدمات قبل ذلك بشهر والحجيلاء ماء لخثعم وأصله الماء الذى لا تأخذه الشمس وقرقرى موضع ومن شعر يحيى بن طالب

ياصاحبي فدت نفسي نفوسكما * عوجا على صدور الابغل الشثن

ثم ارفعا الطرف ننظر صبح خامسة * بقرقرى ماغناء النفس والوطن
ياليت شعرى والأنسان ذو أمل * والعين تذرف أحيانا من الحزن
هل اجعلن يدى للخد مرفقة * على شعبعب بين الحوض والعطن

وحكى عن ابن فراس بن الهيثم بن فراس الكلابى قال كنا مع ابى ونحن قاصدون الى اليمامة فلما رأيناها القينا رجل فقال له أبى أين قرقرى قال خلفك قال فأين شعبعب قال بازائه قال أرنى ذلك فأراه إياه حتى عرفه فقال لى ارجع بنا الى الموضع فقلت له ياأبت قد تعبنا وتعبت ركائبنا فاهنالك قال إنك لأحمق ارجع ويلك فرجعت معه حتى أتى شعبعبا وصار الى الحوض والعطن فأناخ راحلته وقال أنخ فانخت ونزل فنظر الى شعبعب وقرقرى ساعة ثم اضطجع بين الحوض والعطن اضطجاعة ويده تحت خده ثم قام فركب ثم قلت ياأبت ماأردت بهذا فقال ياجاهل أماسمعت قول يحيى بن طالب

هل اجعلن يدى للخد مرفقة * على شعبعب بين الحوض والعطن

أفليس عجزا أن نكون قد أتيناعليهماوهما امنية المتمنى فلاننال ماتمناه منهما وقد قدرنا عليه فجعلت أعجب من قوله وفعله وحكى عن بعض بنى حنيفة قال كان يحيى بن طالب جوادا حالا لاتقال قومه ومغارمهم ما تشاء أن ترى خصلة جميلة إلا رايتهافيه قد خلت عليه وهو فى آخر رمق فسألته عن خبره وسليته وقلت له ماطابت به نفسه فأنشد ابياتا منها

وقفت على رأس اليفاع ولم أكن * كمن لاذ من خوف القرى بالحواجب
فلاتسأل الضيفان من هم وأدنهم * هم الناس من معروف وجه وجانب
وقولوا إذا ما الضيف حل بنحوه * الافى سبيل الله يحيى بن طالب

قلت فقول الناظم اذظل مطلوبا بدين مقتضى إشارة إلى قوله

أريد هبوطا نحوكم فيردنى * إذا رمته دين على ثقيل

وقوله فأصبحت مهجته مقسومة البيت اشارة الى الابيات التى ذكرفيها الحجيلاء وقرقرى وقوله وكم تمنى ورجا أن يشتفى فى البيت إشارة الى قوله فأشرب من ماء الحجيلاء شربة البيت والى ماذكر من موته قبل ان يرجع الى ارضه

وَالمَرْءُ يَرْجُو وَاللَّيَالِى تَارَةً * تُدْنِي وَتُنْئِي تَارَةً مَاقَدْ رَجَا
وَإِنَّمَا يَقْضِي بِإِنْجَاحِ المُنَى * مَنْ قَدْ قَضَى فِي كُلِّ شَيْءٍ مَاقَضَي
لاَ تَمْتَقِدْ أَنَّ لِلْخَلْقِ قُوَّةً * إِلاَّ إِذَا مَااللهُ أَعْطَاهُ القُوَى
فَأَصْغَرُ الاشياءِ قَدْ أَثَّرَ فِي * أَعْظَمِهَا بِالعَوْنِ مِنْ رَبِّ العُلاَ
قَدْ أَهْلَكَ الاحُبُوشَ طَيْرٌ قَدْ رَمَي * جُيُوشَهُمْ بِمَكَّةٍ بِمَا رَمِي

ننظر البيت الأول الى قول الشاعر

فيوم علينا ويوم لنا * ويوم نساء ويوم نسر

وأما البيت الثانى فقد قال ابراهيم ابن المهدى فيما يقرب منه

على المرء أن يسعى ويبذل جهده * ويقضى الله الناس ما كان قاضيا

قال على رضى الله عنه فى معنى البيت الثالث

إذا لم يكن عون من الله للفتى * فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

وقال ابو فراس الحمدانى

إذا كان غير الله للمرء عدة * أتته الرزايا من وجوه الفوائد

وقد قيل فى معنى البيت الرابع احذر من لا يستعين عليك إلا بالله

﴿ ذكر الحبشة وما كان من أمر الفيل ﴾

والاحبوش هنا جماعة الحبشة قال العجاج

كأن صيران المهى الأخلاط * بالرمل أحبوش من الأنباط

وكان من حديث الحبشة أن أبرهة كان فى جند ارياط الحبشى وهو الذى استولى على اليمن حين هزمت حمير وغرق ذو نواس وذو يزن فاقام ارياط سنين فى سلطانه ذلك ثم نازعه أبرهة فى أمر الحبشة حتى تفرقت الحبشة عليهما فانحاز الى كل واحد منهما طائفة منهم ثم سار احدهما إلى الآخر فلما تقارب الناس أرسل أبرهة الى ارياط انك لا تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئاً فشيئاً فابرز لى وأبرز اليك فأينا أصاب صاحبه انصرف اليه جنده فارسل اليه ارياط انصفت فخرج اليه أبرهة وكان رجلا قصيرا لحيما وخرج اليه ارياط وكان رجلا جميلا عظيما طويلا وفى يده حربة له وخلف أبرهة غلام له يقال له عتودة يمنع ظهره فرفع ارياط الحربة على أبرهة يريد يافوخه فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وانفه وعينه وشفته فبذلك سمى الاشرم وحمل عتودة على ارياط من خلف أبرهة فقتله وانصرف جند ارياط الى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة وودا أبرهة ارياط فلما بلغ ذلك النجاشى ملك الحبشة غضب غضبا شديدا وقال عدى على أميرى فقتله بغير أمرى ثم حلف لا يدع أبرهة حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته فحلق أبرهة رأسه وملأ جرابا من تراب اليمن ثم بعث به الى النجاشى ثم كتب اليه أيها الملك انما كان ارياط عبدك وانا عبدك واختلفنا فى أمرك وكل طاعته لك الا انى كنت أقوى على أمر الحبشة واضبط لها واسوس منه وقد حلقت رأسى كله حين بلغنى قسم الملك وبعثت اليه بجراب من تراب أرضى ليضعه تحت قدميه فيبر قسمه فى فلما انتهى ذلك الى النجاشى رضى عنه وكتب له ان أثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمرى فاقام أبرهة باليمن ثم ان أبرهة بنى القليس بصنعاء كنيسة لم ير مثلها فى زمانها بشئ من الارض ثم كتب الى النجاشى انى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم ير مثلها لملك كان قبلك ولست بمنته حتى أصرف حج العرب اليها فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك الى النجاشى غضب رجل من النسأة أحد بنى تيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة فانطلق حتى أتى القليس فقعد فيها أى أحدث فيها ثم خرج الكنانى فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة فقال من صنع هذا فقيل له صنع هذا رجل من أهل هذا البيت الذى يحج اليه العرب بمكة لما سمع قولك أصرف اليها حج العرب غضب فجاء فقعد فيها أى انها ليست لذلك بأهل فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن الى البيت حتى يهدمه ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ثم سار وخرج معه بالفيل وسمعت بذلك العرب فأعظموه وقطعوا به ورأوا جهاده حقا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام فخرج اليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب الى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله وما يريد من هدمه وإخرابه فأجابه من أجابه الى ذلك ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيرا فلما أراد قتله قال له ذو نفر أيها الملك لا تقتلنى فانه عسى أن يكون بقائى معك خيرا لك من قتلى فتركه من القتل وحبسه عنده

فى وثاق وكان أبرهة رجلا حليما ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له حتى اذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى فى قبيلتى خثعم شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيرا فأتى به فلما هم بقتله قال له نفيل أيها الملك لا تقتلنى فأنى دليلك بأرض العرب وهاتان يداى لك على قبيلتى خثعم بالسمع والطاعة فخلى سبيله وخرج بهمعه يدله حتى اذا مر بالطائف تلقاه مسعود بن مقتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف فى رجال من ثقيف فقالوا أيها الملك انما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد يعنون اللات انما تريد البيت الذى بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم واللات بيت بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق الى مكة فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك فرجمت العرب قبره فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود ابن مقصود على خيل له حتى انتهى الى مكة فساق اليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك وبعث أبرهة حناطة الحميرى الى مكة وقال له سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ثم قل له ان الملك يقول انى لم آت لحربكم وانما جئت لهدم هذا البيت فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم فان هو لم يرد حربى فائتنى به فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فقيل له عبد المطلب بن هاشم فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة فقال له عبد المطلب والله ما نريد حربه وما لنا به طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله ابراهيم أو كما قال فان يمنعه منه فانه بيته وحرمه وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه فقال حناطة فانطلق اليه فانه قد أمرنى أن آتيه بك فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نفر وكان صديقا له حتى دخل عليه وهو فى محبسه فقال له يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا فقال له ذو نفر وما غناء رجل أسير بيدى ملك ينتظر أن يقتله غدوا وعشيا ما عندى غناء فى شىء مما نزل بك الا ان أنيسا سائس الفيل صديق لى فسأرسل اليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير ان قدر فقال حسبى فبعث ذو نفر الى أنيس فقال له أن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤس الجبال وقد أصاب له الملك مائتى بعير فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت فقال له أفعل فكلم أنيس أبرهة فقال له أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة وهو يطعم الناس بالسهل والوحوش برؤس الجبال فاذن له عليك فليكلمك فى حاجته قال فأذن له أبرهة وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجلهم وأعظمهم فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه الى جنبه ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك فقال له ذلك الترجمان فقال حاجتى أن يرد على مائتى بعير أصابها لى فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه قل له كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه قال عبد المطلب انى أنا رب الأبل وان للبيت ربا سيمنعه قال أبرهة ما كان ليمتنع منى فقال أنت وذاك فكان فيما زعم بعضهم قد ذهب مع عبد المطلب الى أبرهة يعمر بن نفاثة الكنانى وهو يومئذ سيد بنى بكر وخويلد بن واثلة الهذلى وهو يومئذ سيد هذيل فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم فرد أبرهة على عبد المطلب الابل التى أصاب له فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب الى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب تخوفا

عليهم من معرة الجيش ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة الكعبة

لاهم ان العبد يمـ * نع رحله فامنع حلالك
لايغلبن صليبهم * ومحالهم عدوا محالك

وقال عكرمة بن عامر

لاهم أخز الأسود بن مقصود * الآخذ الهجمة فيها التقليد
بين حراء وثبير فالبيد * يحبسها وهى الات التطريد
فضمها الى طماطم سود * أخفره يارب وأنت محمود

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش الى شعف الجبال ليتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة اذا دخلها فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعبأ جيشه وكان اسم الفيل محمودا وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف الى اليمن فلما وجهوا الفيل الى مكة أقبل نفيل بن حبيب ثم أخذ بأذنه فقال أبرك محمود وارجع راشدا من حيث جئت فانك فى بلد الله الحرام ثم أرسل أذنه فبرك الفيل وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل وضربوا الفيل ليتقدم فأبى فضربوه فى رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى فأدخلوا محاجن لهم فى مراقه فبزغوه بها ليقوم فابى فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول ووجهوه الى الشام فقام مثل ذلك ووجهوه الى مكة فبرك وأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ومع كل واحد ثلاثة أحجار يحملها حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدا الا هلك وليس كلهم أصابت وزعموا ان الفيلة كانت ثلاثة عشر هلكت كلها الا محمودا من اجل انه ابى من التوجه الى البيت وذكر النقاش ان الطير كانت انيابها كانياب السباع واكفها كأكف الكلاب وذكر عن ابن عباس انه قال كان اصغر الحجارة كرأس الانسان واكبرها كالابل وكانت قصة الفيل فى أول المحرم من سنة ثنتين وثمانين وثمانمائة من تاريخ ذى القرنين وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاؤا ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق الى اليمن فقال نفيل حين راى ما أنزل الله بهم من نقمته

ابن المفر والاله الطالب * والأشرم المغلوب ليس الغالب

وقال نفيل أيضا

الا حييت عنا يا ردينا * نعمنا كم مع الأصباح عينا
ردينة لو رأيت ولا تريه * لدا جنب المحصب ما رأينا
اذا العذرتنى وحدت امرى * ولم تاسى على مافات بينا
حمدت الله اذ ابصرت طيرا * وخفت حجارة تلقى علينا
فكل القوم يسأل عن نفيل * كأن على للحبشان دينا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون على كل منهل واصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة كلما أسقطت منه أنملة اتبعتها منه مدة تمث قيحا ودما حتى قدموا صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون ويقال ان أول مارئيت الحصبة والجدرى بارض العرب ذلك العام وان اول مارئى بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام فلما بعث الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم كان مما يعد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله مارد عنهم من امر الحبشة لبقاء امرهم ومدتهم فقال تبارك وتعالى ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وارسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم

بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول فلما رد الله الحبشة عن مكة وأصابهم ما أصابهم من النقمة أعظمت العرب قريشا وقالوا أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم فقالوا فى ذلك أشعارا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم فقال عبد الله بن الزبعرى

سائل أمير الجيش عنها ما رأى * ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستون ألفا لم يؤبوا أرضهم * بل لم يعش بعد الأياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم * والله من فوق العباد يقيمها

وقال أبو قيس بن الأسلت

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا * بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق * غداة أبي يكسوم هادى الكتائب
كتيبته بالسهل تمشي ورجله * على القاذفات فى رؤس المناقب
فلما أتاكم نصر ذي العرش ردهم * جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعا هاربين ولم يؤب * الى أهله م القوم غير عصائب

وقال طالب بن أبي طالب

ألم تعلموا ما كان فى حرب داحس * وجيش أبي يكسوم اذ ملئوا الشعبا
فلولا دفاع الله لا شئ غيره * لأصبحتم لا تمنعون لكم سربا

وكان أبرهة يكنى أبا يكسوم بابنه يكسوم ويكسوم ابنه هو الذى ملك الحبشة عليها بعده

وهدٌ قدَّما هُدْهُدٌ بنبأ ما كانَ هَدْهَادُ لِبِلْقيسَ ابْتَنَا

﴿ ذكر الهدهاد وبلقيس وما كان من أمر الهدهد ﴾

الهدهاد أحد ملوك اليمن وهو الهدهاد ابن شرحبيل بن عمرو بن غالب بن المنتاب بن زيد بن يعفر بن السكسك بن وائل بن حمير وكان من حديثه أن حمير انقطعت عن عمرو ذى الأذعار لما سخطوه من جوره وتبذيره لسير الملوك قبله من التبابعة فقدمت عليها شرحبيل أبا الهدهاد فالتقى هو وذو الأذعار بمأرب فمات بينهم خلق كثير ثم رجع عمرو ورجع شرحبيل وقد تغلب على ما تحت يده فبقي شرحبيل فى الملك عشرين سنة ثم مات فولى بعده ابنه الهدهاد وهو أبو بلقيس الملكة باليمن وكان الهدهاد رجلا شجاعا حازما وزحف الى الهدهاد عمرو ذو الأذعار وتحاربا فلما فصل العسكران وبان بعضهم من بعض خرج الهدهاد على ناقة فى زى أعرابي فوصل قريبا من عسكر عمرو ليتجسس عن أخباره وليسمع ألفاظ قومه ليعلم هل يخذلونه أو ينصرونه فسار حتى وصل العسكر فدخل فيه وأقبل يسمع أخبار الرجال وما يتواعدونه به من الخذلان فزاده ذلك نشاطا على حرب عمرو وانصرف الهدهاد الى موضعه فزعموا أن الهدهاد كان ببعض طريقه فى وقت الهاجرة وقد اشتد الحر وهو يرتاد موضعا يقيل فيه واذا بشجاع عظيم أسود هارب وفى طلبه شجاع أبيض رقيق فأدركه الأبيض فاقتتلا قتالا عظيما حتى تعبا فافترقا ثم أقبل الشجاع الأبيض الى الهدهاد مسرعا حتى استدار مع ذراع ناقته فبلغ رأسه كتفها وفتح فاه كالمستغيث فتناول الهدهاد سقايته وصب الماء فى فيه حتى روى ثم نزل مسرعا فى طلب الشجاع الاسود ولم يزل يقاتله حتى قتله ثم مضى وغاب عنه وسار الهدهاد الى شعب فنزل تحت ظل أكمة فبينما هو جالس اذ سمع كلاما فسل سيفه وقام الى الصوت فاذا هو بنفر حسان الوجوه عليهم زى حسن فقالوا له عم صباحا

ياهدهادلا بأس ثم قعدوا الى جانبه وقالوا له أتعلم من نحن قال لا قالوا نحن الجن ولك علينا يد عظيمة قال وما هي قالوا ان هذا الفتى من أبناء ملوكنا وأشاروا الى شاب منهم جميل الوجه وفي وجهه أثر خداش قال لهم ماله قالوا اهرب له غلام أسود فطلبه حتى أدركه بين يديك فكان بينهما ما رأيت ولولا أنك سقيته الماء لقتله العبد قال له الهدهاد أنت الشجاع الأبيض قال نعم فجزاك الله عني خيرا فقال له الجميع الا ان له أختا ليس في بنات الملوك أجمل منها وهي رواحة بنت سكين ونريد أن نزوجها منك قال لهم حبذا ما دعوتم اليه من المصاهرة فزوجوه منها وقالوا له لنا عليك شرط قال وما هو قالوا أن لا تسألها عما تفعل ومتى أنكرت منها شيئا وسألتها عنه فهو طلاقها قال نعم قالوا له ارجع الى قصرك فانها تأتيك في ليلة كذا ولا تهتم فان عمرا اذا الأذعار رجع الى غمدان بعد انصرافك عنه فرجع الهدهاد وفرق عسكره وبلغه الخبر عن عمرو وأنه رجع فأقام حتى اذا كانت الليلة التي كانوا أمروه فيها بالانتظار أحس نقلا في القصر فعلم أنها تأتيه تلك الليلة فارتقبها حتى اذا كان الليل جاءته بعد أن فر جميع من في القصر من الوحشة التي أحسوها فلم يمض من الليل الا يسير حتى دخلت عليه فرأى ما غلب على عقله من جمالها فأقام معها عاما فولدت ابنا فلما شب وصار ابن سنة وقد سر به دخلت كلبة من باب المجلس فجرته برجله فنظر الهدهاد الى رواحة ساكتة فسكت ثم ولدت بنتا فلما صارت في ذلك السن أتت الكلبة فجرتها برجلها أيضا فلم تتكلم ثم أقام حينا فولدت ولدا ذكرا فلما انتهى الى ذلك السن أخذته الكلبة فقال لها الهدهاد يا رواحة قالت له كف قال لا أكف ما بال هؤلاء الأطفال قالت قد فارقتك اعلم أن تلك الكلبة رابة لنا تحملهم وتربيهم حتى يترعرعوا ويأتوك بلا عناء فأما ابنك الأول فقد مات واما الثاني والبنت فانهما يأتيانك وتعيش البنت واما الابن فسيموت عما قليل ثم ذهبت رواحة فلم يرها بعد ذلك ووجد في الفراش ابنه وابنته بلقيس فمات الصبي وعاشت بلقيس وأقام الهدهاد في الملك عشرين سنة فلما حضرته الوفاة جمع مقاول حمير وأهل المشورة منهم فقال لهم يا بني قحطان أني والله من أشد الناس اشفاقا عليكم وحرصا على أقام ملككم قالوا له نعم أيها الملك قال لهم أما تعلمون فضل بلقيس وحسن رأيها وتدبيرها وانها لا تخطئ فيما تشير عليكم به وكيف تجدون بركة رأيها قالوا أيها الملك أنها لمن أعقل الناس واعظمهن بركة وأحسنهن رأيا قال فاني استخلفها عليكم فقال له أحدهم أيها الملك تدع أهل بيتك ورؤساء قومك وتستخلف علينا امرأة فقال يا معشر قومي اني رأيت الرجال وصحبت أهل الفضل وشهدت من أدركته من ملوكنا فوالذي أحلف به ما رأيت مثل بلقيس رأيا وعلما واني لأرجو أن تظهر فيكم بركتها وتروا من عاقبة أمرها ما ينتفع به عقبكم ما كانت الدنيا فسمعوا له واطاعوا فملكوها عليهم بعده الى أن كان من أمرها مع سليمان عليه السلام والهدهد ما قصه الله في كتابه فذكر الطبري باسناد عن عبد الله بن سلام أن سليمان عليه السلام نزل منزلا في مسيره فلم يجد ماء فقال من يعلم بعد الماء بهذه الفلاة فقيل له الهدهد ففقده فلم يجده وأدرك الناس عطش شديد في مفازة منقطعة ولم يكن عنده أعرف من هذا الهدهد بالماء وبعده وقربه فدعا أمير الطير وسأله عنه فقال ما أدري أين ذهب فغضب سليمان عليه السلام عند ذلك وقال لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين فمكث غير بعيد ثم أقبل ولقيته حمامة في الطريق فقالت له ما غيبك عن مصافك من الطير ان الملك قد أقسم ليعذبنك أو ليذبحنك الا أن تأتيه بعذر أو حجة أو بسلطان مبين فمثل بين يدي سليمان فقال له ما الذي غيبك عن مصافك من الطير وعن غير أذن أميرك حتى كدنا نهلك عطشا فقال يا نبي الله الماء هنا على قامتين وهنالك على عشر وبين يديك على شبر بن فأمر سليمان عليه السلام الشياطين فبقرت الأرض فأخرجت الماء من الحجر أصفى من الزجاجة وأعذب من الدجلة وقد قيل أنه أجرى الماء من تحت قائمة سرير سليمان وان ذلك الماء بارض اليمن يجرى الى الآن ثم أقبل عليه فقال أحطت بما لم تحط به وانتهيت الى ما لم تره أتيتك من سبأ بنبأ يقين أي أني وجدت بلقيس في مدينتها تملك

أهلها وما حولها وأعطيت من كل شئ من الأموال والعبيد والحرس ولها عرش عظيم وكان سليمان عليه السلام لايرى على الأرض أحدا له مملكة معه وكان الجهاد محببا اليه فلما أعلمه بذلك ترك تعذيبه ثم ان الهدهد أعلمه أنهم يسجدون للشمس من دون الله فقال سليمان للهدهد سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ثم قال للهدهد اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون فكتب اليها بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان نبي الله ملك الجن والأنس إلى بلقيس الاتعلوا على وأتوني مسلمين فانتهى الهدهد بالكتاب اليها وهي قائلة في قصرها وقد غلقت عليها أبوابها فلا أحد يصل اليها والحرس حول قصرها ولها من قومها إثنا عشر الف قائد تحت كل رجل منهم مائة الف فلما أتى الهدهد بالكتاب وجد الأبواب قد غلقت والحرس حول قصرها فطلب السبيل اليها حتى وصل من كوة في القصر فدخل حتى انتهى اليها في اقصى سبعة أبواب فوجدها على عرشها فألقى الكتاب ثم تولى وقعد في كوة ينظر اليها والى أخذها الكتاب فلما استيقظت تعجبت من أين وصل اليها الكتاب فنظرت فاذا الابواب مغلقة فخرجت فاذا الحرس حول قصرها فقالت هل رأيتم أحدا دخل على أوفتح بابا قالوا لا ففتحت الكتاب فقرأته فأرسلت الى قومها وشاورتهم كما قص الله تعالى في كتابه وقالت أفتوني فيما كتب به الى هذا النبي وهو اليوم أكبر الملوك وأعزهم عند صاحب السماء وانما أمره من السماء ومن الذي يرزق الخلائق والطير والبهائم والوحوش والحيوان ويحيي الارض بعد موتها ويخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل مايشاء فقالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد وكان من بأسهم وشدتهم أن الرجل منهم كان يركض بالفرس ركضا حتى اذا امتلا في جريه ضم فخذيه عليه فحبسه بقوته ولما قالوا لها الأمر اليك فانظري ماذا تأمرين هيأت له الهدايا مع من اختارته من قومها فلما أتوه قال أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون فكان من قدومها عليه هي وقومها وأسلامها والأتيان اليه بعرشها ما قص الله تعالى في كتابه

وَقَدْ أَعَادَ الْفَارُ سَدَّ مَأْرِبٍ دَكًّا كَأَنْ لَمْ يَبْنِهِ مَنْ قَدْ بَنَى

قد تقدم تخريب الفار للسد مستوفى قبل ذلك عند ذكر طريفة

وَأَلْقَتِ النُّمْرُوذَ عَنْ كُرْسِيِّهِ بَعُوضَةٌ عَدَتْ عَلَيْهِ إِذْ عَدَا

الكرسي سرير الملك يريد ما كان من اهلاكه

﴿ ذكر نمروذ بن كنعان ﴾

والنمروذ هو نمروذ بن كنعان وهو الذي حاج ابراهيم في ربه لبث في الملك سبعين سنة وكان اول ملك لبس التاج ووضع امر النجوم ونظر فيه وعمل بذلك وفتن به وكان أول من تكبر وتجبر وقهر وكسر وأحدث الأحداث وابتدع البدائع حتى اهلكه الله عز وجل على شر حال باضعف خلقه سلط عليه بعوضة فاقبلت تطن حتى وقعت على شفته فلدغتها ثم دخلت منخره حتى انتهت الى خياشيمه في دماغه فعذبه الله بها مدة ثم مات فبعدا للقوم الظالمين وذكر وهب بن منبه انه ملك الأرض أربعة مؤمنان وكافران فاما المؤمنان فسليمان بن داود عليه السلام وذو القرنين واما الكافران فنمروذ وبختنصر قال وسيملكها من هذه الامة خامس وفي زمن النمروذ رمي ابراهيم عليه السلام في النار فكانت عليه بردا وسلاما

وَقَلَّمَا مُدَّ المَدَى لِمَنْ عَدَا　　فِي الظُّلْمِ وَالعُدْوَانِ مَمْدُودَ المَدَى

وَكَيْفَ لَا يَخَافُ عُقْبَى البَغْيِ مَنْ　　رَأَى عِقَابَ اللهِ فِيمَنْ قَدْ بَغَى

فَمُذْ حَفِظَ اللهُ نِظَامَ الخَلْقِ فِي　　دُنْيَاهُمُ وَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا سُدَى

فَلَيْسَ يُخْلِي خَلْقَهُ مِنْ رَافِعٍ　　لِمَا هَوَى أَوْ رَاقِعٍ لِمَا وَهَى

إِمَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ بِوَحْيِهِ　　هَادٍ وَإِمَّا مَلِكٌ عَدْلٌ رِضَى

قوله مدالمدى ير يدمدى العمر والمدى الغاية ومن أمثالهم فى هذا المعنى الظلم مرتعه وخيم وقوله وكيف لا يخاف عقبى البغى البيت البغى الظلم وفى المثل السعيد من وعظ بغيره والسدى المهمل ومنه قوله تعالى أيحسب الانسان أن يترك سدى يقال إبل سدى أى مهملة و بعضهم يقوله بفتح السين وأسديت الابل أى أهملتها وقوله فليس يخلى خلقه البيت يقال هوى يهوى هويا اذا سقط الى اسفل وكذلك انهوى وقد جمعهما الشاعر فقال

وكم موطن لولاى طحت كما هوى * باجرامه من قلة النيق منهوى

وتهاوى القوم فى المهواة اذا سقط بعضهم فى أثر بعض و يقال وهى السقاء يهى وهيا اذا تخرق وفى المثل

خل سبيل من هوى سقاؤه * ومن هريق بالفلاة ماؤه

يضرب لمن لا يستقيم أمره ومنه وهى الحائط اذا ضعف وهم بالسقوط وقالوا اغادر وهية لا ترقع اى فتقا لا يقدر على رقعه والمعنى ان الله تعالى لا يخلى خلقه من قائم باصلاح ما يفسد من امورهم وأتى برفع ما وهى ورفع ما هوى تمثيلا وقد قالوا ايزع الله بالسلطان من لا يزع بالقرآن وقد رد العجز على الصدر فى البيت الاول والثانى من هذه الأبيات وجانس فى الرابع بين رافع وراقع وهوى ووهى مع الترصيع الواقع فى البيت الاول والرابع

قَدْ بَدَأَ اللهُ الهُدَى بِآدَمٍ　　وَأَظْهَرَ الخَيْرَ بِهِ حَتَّى بَدَا

وَأَرْشَدَ الخَلْقَ بِرُسْلٍ بَعْدَهُ　　هَدَوْا إِلَى سَبِيلِهِ كَمَا هَدَى

وَجَمَعَ اللهُ جَمِيعَ هَدْيِهِمْ　　وَفَضْلَهُمْ فِي الهَاشِمِيِّ المُصْطَفَى

وَخَلَفَتْهُ فِي الهُدَى خَلَائِفٌ　　بِهَدْيِهِمْ بَعْدَ هُدَاهُ يُقْتَدَى

ثُمَّ انْتَهَى كُلُّ رَشَادٍ بَعْدَهُمْ　　إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ المُجْتَبَى

خَلِيفَةٌ أَحْسَنَ لِلنَّاسِ فَقَدْ　　جَزَاهُ بِالإِحْسَانِ عَنْهُمْ مَنْ جَزَى

نَادَى إِلَى طَاعَتِهِ دَاعِي هُدًى　　لِصَوْتِهِ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ نَدَا

قوله قد بدأ الله الهدى بآدم يقال بدأت الشئ و بدأت به اذا فعلته ابتداء و بدأ الله الخلق وأبدأهم بمعنى وهو مهموز وقوله وأظهر الخير به حتى بدا أى حتى ظهر يقال بدا الامر بدوا أى ظهر وهو غير مهموز وقرئ قوله تعالى الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى بغير همز و بالهمز فمن لم يهمز فسره ظاهر الرأى ومن همز فهو عنده من بدأ

أى أول الرأى وقوله وجمع الله جميع هديهم وفضلهم فى الهاشمى المصطفى صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله جعله الله خيرة الرسل وخاتم النبيين وسيد ولد آدم ونسخ بشريعته الشرائع كلها واختصه بالشفاعة الكبرى وأعطاه الحوض الذى آنيته كعدد نجوم السماء وآتاه المقام المحمود صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وقوله وخلفته فى الهدى خلائف البيت قال صلى الله عليه وسلم اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر وقال عليه السلام أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وقوله لصوته فى الشرق والغرب ندا الندا بعد ذهاب الصوت يقال فلان أندى صوتا من فلان اذا كان أبعد صوتا منه وفى حديث الاذان قوله صلى الله عليه وسلم ألقه على فلان فانه أندى منك صوتا وأنشد الأصمعى

فقلت ادعى وأدعو ان أندى * لصوت أن ينادى داعيان

ريد أن دعوته قد بلغت الشرق والغرب وهو من باب التمثيل وقد جانس الناظم فى البيت الأول بين بد أو بدا وفى الأخير بين نادى وندا وفى الرابع بين خلفت وخلائف

عَادَ بِهِ الدَّهْرُ رَبِيعاً كُلُّهُ * وَقَامَ مِيزَانُ الزَّمَانِ وَاسْتَوَى

كَمْ بَيْنَ بَدْءٍ مِنْ نَدَا رَاحَتِهِ * وَعَوْدَةٍ سَرْحُ الأَمَانِى قَدْ نَدَا

هَاضَ الْجَبِيرَ مِنْ عِدَاهُ وَوَعَى * بِهِ كَسِيرَ الْمُعْتَفِينَ وَاتَّسَى

قوله عاد به الدهر ربيعا كله قد تقدم أن الربيع عند العرب ربيعان فالربيع الأول هو الفصل الذى تأتى فيه الكمأة والنور وهو ربيع الكلاء والربيع الثانى هو الفصل الذى تدرك فيه الثمار والمعنى أن الزمان حسن به حتى تخاله كله فصل الربيع اذ ليس فى فصول السنة أحسن من الربيع ولا أعدل وهو ربيع الكلاء وهو عند حلول الشمس برأس الحمل وقد قال أبو نواس

أما ترى الشمس حلت الحملا * وقام وزن الزمان واعتدلا

ومن عجز هذا البيت اختزل الناظم قوله وقام ميزان الزمان واستوى الا أن أبا نواس أراد استواء الليل والنهار فى بيته والناظم أراد أن الزمان بيمن هذا الخليفة وكثرة فواضله وما بث من العدل قد زال ما كان يوصف به من الجنف والحيف فلا ميل فيه ولا جور وقد تقدم له نحو هذا المعنى وينظر قوله عاد به الدهر ربيعا كله الى قول(١) وقوله كم بين بدء من ندا راحته وعودة البيت يقال فعلته عودا على بدء أى مرة بعد أخرى ويقال ندت الابل اذا رعت بين النهل والعلل وتندت مثله وقد تقدم والسرح المال السائم يقال سرحت الماشية وأسمنتها بمعنى ومنه قوله وحين تسرحون وسرحت هى تتعدى ولا تتعدى والمعنى أنه استعار للأمانى سرحا وجعل البدء من جود هذا الأمير بمنزلة النهل وهو أول شرب الابل وجعل العودة من جوده مثل العلل وهو الشرب ثانية وجعل سرح الأمانى يرعى بين ذلك كما تندو الابل بين العلل والنهل وذلك حسن بديع وانما أراد ان عفاته تبلغ أمانيها وتنال أقصى آمالها بما يفيضه من جوده ويشملهم به من فواضله وقوله هاض الجبير من عداه قد تقدم تفسير هاض وأن معناه كسر العظم بعد الجبور ويقال وعى العظم اذا انجبر بعد الكسر وأما اتسى فهو مطاوع أسى بمعنى داوى يقال أسوت الجرح آسوه اذا داويته وانما جاء بذلك على جهة التمثيل وأراد أن يعبر عما آلت اليه أحوال أعاديه من الفساد بعد صلاحها وما أصلح جوده من أحوال المعتفين بعد الاختلال وقد جانس الناظم فى هذه الأبيات بين ندا وندا وبدء وطابق بين بدء وعودة وبين هاض ووعى وبين الجبير والكسير

(١) بياض بالاصل قد سطر

سَاقَ الْمُلُوكَ بِعَصَا سُلْطَانِهِ   فَكُلُّهُمْ صَيَّرَهُ عَبْدَ الْعَصَا
فَلَوْ أَرَادَ سَوْقَ خَاقَانَ بِهَا   لَانْقَادَ فِي طَاعَتِهِ وَمَا عَصَا
وَلَوْ أَرَادَ سَوْقَ كِسْرَى فَارِسٍ   بِهَا ثَنَاهُ وَهْوَ مَكْسُورُ الْمَطَا
وَلَوْ سَمَا بِهَا لِضَرْبِ قَيْصَرٍ   أَسَامَهُ قَسْرًا بِهَا ضَرْبَ الْجُزَى
وَلَوْ بِهَا أَرَادَ سَوْقَ تُبَّعٍ   لَجَاءَهُ مُتَّبِعًا وَمَا أَبَى
وَلَوْ نَحَا نَاحِيَةَ الْهِنْدِ بِهَا   لَمْ يَثْنِهَا عَنِ الْبَلَهْرَا بَلْ هَرَا

قوله ساق الملوك بعصا سلطانه أى صيرهم أتباعاله ومنقادين لطاعته وفى الحديث يسوق الناس بعصاه وقوله فكلهم صيره عبد العصا يقال بنو فلان عبيد العصا اذا كانوا تجرى عليهم أحكام غيرهم والمعنى أنه صير الملوك مقهورين لأحكامه لا يستبدون دون سلطانه ولا يتصرفون الاعن أوامره ونواهيه وقوله فلو أراد سوق خاقان بها خاقان ملك الترك وكل من ملك الترك يسمى خاقان كما ان كل من ملك الفرس يسمى كسرى وكل من ملك الروم يسمى قيصر وكل من ملك اليمن من حمير يسمى تبعا وكل من ملك الحبشة يسمى النجاشى وكل من ملك القبط بمصر يسمى فرعون وذكر بعضهم أن كل من ملك فرغانة يسمى الأخشيد وكل من ملك جرجان يقال له صول ورأيت بخط بعض شيوخنا ممن يعول على نقله وضبطه ان أهل الصين يسمون ملكهم بغبور والنوبة كابيل والهند بلهرى قلت وعلى ذلك عول الناظم فى البيت الأخير من هذه القطعة من تسمية ملك الهند بالبلهرى والذى ذكره أهل اللغة أن ملك الهند يقال له البلهور وذكر ذلك الزبيدى فى الأبنية ولعل البلهرى هو اسمه بلغتهم وتكون العرب حين عربته قالت بلهور على عادتها فى تغيير الأسماء الأعجمية اذا عربتها وقوله ولو أراد سوق كسرى فارس البيت المطا الظهر وانما ضرب كسرى المطا مثلا لاذهاب مملكته وفل شوكته وقوله ولو سما بها لضرب قيصر البيت القسر القهر والجزى جمع جزية وهى ما يؤخذ من أهل الذمة أى صيره الى الصغار والذل وضرب عليه الجزية وقوله ولو نحى ناحية الهند بها البيت يقال هراه وتهراه اذا ضربه بالهراوة وهى العصا الضخمة يريد ظهوره على ملوك أقطار الدنيا حتى لو قصد الهند على بعده لم ينثن حتى يضرب بتلك العصا بلهراها والضمائر فى هذه الأبيات كلها عائدة على العصا وانما كنى بها عن قوة السلطان وصولة الملك وضخامة الجيوش وقد جانس بين العصا وعصا وكسرى ومكسور وضرب وضرب وتبع ومتبع و بلهرى و بل هرا وهو من تجنيس التركيب وقد تقدم نظيره ونحى وناحية

يُزْجِي إِلَى الْهَيْجَاءِ كُلَّ مُقْرَبٍ   يُزْجِي الرَّدَى إِلَى الْعِدَا إِذَا رَدَى
مِنْ كُلِّ نَاضِي مِخْذَمٍ قَدْ طَالَمَا   قَدْ رَتَقَ الْفَتْقَ بِهِ وَمَا رَتَى
وَمُشْرَعٍ لِعَامِلٍ مِنْ عَاسِلٍ   رَأَى الْقَنَى أَكْرَمَ ذُخْرٍ فَقَنَى
وَنَازِعٍ فِي نَبْعَةٍ يُصْمِي بِهَا   حَبَّ الْقُلُوبِ وَالْكُبُودِ وَالْكُلَا

قوله يزجي الى الهيجاء كل مقرب الضمير عائد الى الممدوح و يزجي يسوق يقال أزجيت الابل اذا سقتها قال ابن الرقاع

تزجي أغر كأن ابرة روقه * قلم أصاب من الدواة مدادها

والمقرب من الخيل الذي يربى و يكرم ولا يترك يرود والأنثى مقربة وقد قال ابن دريد انما يفعل ذلك بالأنثى لئلا يقرعها الخل اللئيم والردى الهلاك و يقال ردى الفرس بالفتح يردى رديا ورديانا اذا رجم الأرض رجما بين العدو والمشي الشديد أي يسوق الى الاعداء كل كريم من الخيل يسوق الهلاك اليهم وأراد بالردى الأبطال و ينظر الى قول عمير بن وهب الجمحي حين نظر الى المسلمين يوم بدر فقال له المشركون ما رأيت فقال رأيت المنايا على الحوايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع وقوله من كل ناضي مخذم البيت يقال نضا سيفه وانتضاه أي استله والمخذم السيف القاطع و يقال رتقت الفتق أرتقه فارتتق أي التأم والفتق الشق ومنه قيل لشق عصا الجماعة ووقوع الحرب فتق و يقال رتأ الشيء يرتأه أي شده وفي الحديث أن الحريرة ترتؤ فؤاد المريض أي تشده وتقويه وقال لبيد يصف درعا

* محكمة دفراء ترتأ بالعرى *

أي تشد و يقال أيضا رتأه يرتأه اذا أرخاه وأوهاه وهو من الاضداد والأول هو المراد في بيت الناظم وضرب رتق الفتق ورتأه هنا مثلا لأصلاح ما فسد ولشد الملك وقمع من خرج عن الجماعة أو شق عصا الطاعة ووقع هذا البيت في النسخ التي بأيدينا من كل ماضي بالميم والصحيح من كل ناضي مخذم بالنون لأن الناضي هو الذي يناسب المشرع والنازع في البيتين بعده وقوله ومشرع لعامل البيت يقال أشرعت الرمح قبل فلان اذا سددته نحوه وشرع الرمح قال الشاعر يهجو امرأة

وليست بتاركة محرما * ولو حف بالأسل الشرع

وعامل الرمح ما يلي السنان منه والعاسل من صفات الرمح يقال عسل الرمح عسلانا اذا اهتز واضطرب والقناجع قناة وهي الرمح و يقال قنوت الشيء قنوة وقنيته قنية وقنية اذا اقتنيته لنفسك واقتناء المال اتخاذه أي رأى الرماح أكرم ما يتخذ فاقتناها وقد أنشدنا قبل في هذا المعنى قول المعري

فتى يهب اللجين المحض جودا * ويدخر الحديد له عتادا

وقال أبو فراس

بخلت بنفسي أن يقال مبخل * وأقدمت جبنا أن يقال جبان
وملكي بقايا ما وهبت مفاضة * ورمح وسيف قاطع وحصان

أردت البيت الأخير وقال أيضا

ولاها الله لا بخلت يميني * ولا أصبحت أشقاكم بمال
ولا أمسى يحكم فيه بعدي * قليل الحمد لي سيء الفعال
ولكني سوف أفنيه وأبقي * ذخائر من ثواب أو جمال
وللوراث إرث ابي وجدي * جياد الخيل والاسل الطوال
وما يجني سراة بني أبينا * سوى ثمرات أطراف العوالي
ممالكنا مكاسبنا اذا ما * توارثها رجال عن رجال

وقوله ونازع في نبعة يصمي بها البيت يقال نزع في القوس اذا مدها وأراد بالنبعة هنا القوس لأن القوس كثيرا ما تصنع من شجرة النبع ومراده أنه لا يخطئ بها المقاتل وقد جاء الناظم في البيت الأول بترديد بين يزجي و يزجي

وجانس فيه بين الردى وردى مع الترصيع الواقع فى عجزه وطابق فى الثانى بين رتق والفتق وجانس بين رتق ورتأ وجانس أيضا فى الثالث بين عامل وعاسل والقنا وقنا

غالى بما أمهر أبكار العلى ... ومرجل الحرب العوان قد غلا

قد فاض فى الآفاق نور سعده ... والبس الأيام حسنا وكسى

وجملت جدوده ترب على ... ما شيدت جدوده من البنا

من كل منصور الجنود ناشر ... للعدل فى الآفاق منشور اللوا

قد جللوا قضبهم أغشية ... من علق كالقضب من تحت اللحا

قوله غالى بما أمهر أبكار العلا يقال غالى بالشىء اذا اشتراه بثمن غال وقالوا فى قوله

نغال اللحم للأضياف نيأ * ونرخصه اذا نضج القدور

انه حذف الباء وهو يريدها وأراد بأبكار العلى افعال المعالى التى لم يسبق اليها وقوله ومرجل الحرب العوان قد غلا يقال غلت القدر تغلى غليا وغليانا والمرجل قدر من نحاس والحرب العوان التى قد قوتل فيها مرة كأنهم جعلوا الاولى بكرا وانما قيل لها عوان تشبيها بالعوان من النساء وهى النصف وانما عبر بغلى المرجل عن اشتداد الحرب كما قال صلى الله عليه وسلم وقد نظر الى مجتلد القوم يوم حنين الآن حمى الوطيس والمعنى أنه بذل النفس والنفائس العظيمة فى نيل المعالى وقد اشتدت الحروب ففاز بما شاء من الظفر والنصر والاستيلاء على الأعداء ويشبه قول الناظم هذا قول مهيار

فما يشهدون الحرب الا اذا غلت * ولا يشترون الحمد الا اذا غلا

وقوله وجملت جدوده ترب على البيت الجدود الأولى جمع الجد الذى يراد به السعد والجدود الثانية جمع الجد الذى يراد به أب الأب والمعنى أن جدوده قد بلغته أزيد وأعظم مما بلغته آباؤه بما شيدت من بناء المعالى والبنا جمع بنية وانما يريد بناء المجد وقوله قد جللوا قضبهم أغشية البيت جللوا ألبسوا من قولهم جللت الفرس اذا ألبسته الجل أى عموها بالدم يقال جلل الشىء تجليلا أى عم والسحاب تجلل الأرض بالمطر أى تعمها والعلق الدم الغليظ ولحا الشجر قشره والقضب الأولى جمع قضيب وهو السيف القاطع يقال سيف قاضب وقضيب والقضب الثانية جمع القضيب الذى يراد به الغصن والمعنى أنه شبه سيوفهم بالأغصان وجامد العلق عليها باللحاء ويشبه قول أبى الطيب

يبس النجيع عليه وهو مجرد * من غمده فكأنما هو مغمد

وينظر من بعيد الى قول البحترى

سلبوا وأشرقت الدماء عليهم * محمرة فكأنهم لم يسلبوا

وقد جانس الناظم بين غالى وغلا وبين الجدود والجدود وبين منصور ومنشور وبين قضب وقضب وطابق بين أبكار والعوان وبين ناشر

فأمنوا الدنيا بترويع العدا ... بالعدوة الدنيا وفى أقصى العدا

قادوا الى أندلس كتائبا ... أمامها النصر العزيز قد قدا

وَجَلَّوا شَطَّ المجاز سبقًا تعدوا إلى غزو الأعادي الجمزا
وصبحوا الأرك بجيش غط في أذيه اذ فنش لما أن غطا
وخلفوا بالبيض قرص الشمس في أرهاجه حتى رأوه قد صغا

قوله فأمنوا الدنيا بترويع العدا البيت أراد بالعدوة الدنيا عدوة الغرب وبأقصى العدا عدوة الأندلس وانما سمى كل واحد منهما عدوة للبحر الفاصل بينهما وهو بحر الزقاق وما يتصل به والعرب تطلق على جانب الوادى عدوة بكسر العين وضمها قال تعالى اذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى وتجمعهما على عداء كبرمة وبرام ورهمة ورهام فأطلق على كل واحد من البرين عدوة تشبيها بجانب الوادى وقصر الناظم العداء للوزن والقافية واراد بالدنيا فى صدر البيت هذه الدار وبالدنيا فى عجزه تأنيث الأدنى بمعنى الاقرب واقصى العدا أبعد العدا وانما جعل عدوة المغرب هى الدنيا لأنها كانت أقرب إلى حضرتهم لاتصالها بها من غير بحر يقطعها عنهم يريد أنهم أمنوا العدوتين بقمع الاعداء فيهما من روم وغيرهم وقوله أمامها النصر العزيز قدقدا أى أسرع يقال قدا الفرس يقدى قديانا اذا أسرع ومر فلان يقدى به فرسه وهو استعارة وتمثيل يريد ان النصر كان يقدم جيوشهم ويشبه قول حبيب

لم يغز قوما ولم ينهد الى بلد * الا تقدمه جيش من الرعب

وقوله وجلوا شط المجاز سبقا البيت أى ملؤه سبقا وهو راجع الى المعنى الذى قدمنا فى جلاوا أراد بشط المجاز ساحل الزقاق من أرض الأندلس ما بين جزيرة طريف والجزيرة الخضراء وجبل طارق وهى فرضة المجاز ومنها كان الفتح قديما وتعدوا الجزى أى تسرع والجزى ضرب من السير أشد من العنق والجزى من قوله تعدوا الجزى اسم مصدر من المعنى كما يقال رجع القهقرى وقعد القرفصى واراد بالسبق الخيل التى أجازوها الى بر الاندلس لغزو النصارى وقد يكون المراد بالسبق الأسطول الذى أجازوا فيه الجيوش وقوله وصبحوا الأرك بجيش البيت الأرك موضع بجزيرة الأندلس هزم فيه أمير المؤمنين المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن رحمه الله النصارى الهزيمة المشهورة ورأيت بعض الناس يضبطه أركو هكذا وهو لفظ أعجمى ويقال غطه فى الماء يغطه غطا اذا غمسه فيه وغوصه ويقال غطى الماء اذا طمى وكل شئ ارتفع وطال على شئ فقد غطى عليه والأذى موج البحر والجمع الأواذى وأدفنش ملك النصارى الذى هزمه المنصور هنالك والمعنى أنه شبه الجيش بالسيل والبحر وجعله غاطا لملك الروم وجيوشهم وغاطيا عليهم وتلك كناية عن استيلائه على جميعهم واهلاكه اياهم وقوله وخلفوا بالبيض البيت البيض السيوف وقرص الشمس عينها والارهاج جمع رهج وهو الغبار وصغا مال للغروب والمعنى أن غبار الهيجاء لما تكاثف يومئذ حتى ستر الشمس واظلمت له الآفاق واضاءت سيوفهم فكان ضوءها لهم عوضا من ضوء الشمس وخلفا منه الى أن مالت للغروب

﴿ ذكر وقيعة الأرك بالاندلس ﴾

وكان من حديث وقيعة الأرك التى ذكر الناظم أن أمير المؤمنين أبا يوسف يعقوب بن الخليفة أبى يعقوب يوسف بن الخليفة أبى محمد عبد المؤمن بن على رحمهم الله لما دخلت سنة احدى وتسعين وخمسمائة كان قد عزم على قصد افريقية وقوى رأيه على التأهب للعود اليها وكان أمد الصلح مع ملك قشتالة قد انصرم فوصل رسول

الطاغية الى حضرة أمير المؤمنين طالباً تجديد المهادنة وهو قد أضمر المكايدة فأراه الله عاقبة غدره وأحاق به وبال أمره وأجناه غرس مكره واغتر الطاغية ادفنش بما شاع من عزم أمير المؤمنين على الحركة الى افريقية بجميع أجناده وضرب لهم ميثاقا ارتبطوا عليه في شن الغارات على بلاد المسلمين فأغاروا على جميعها بالاندلس شرقا وغربا في يوم واحد وانتشرت الطائفة الواصلة الى اشبيلية على جميع أقطارها وعاثت في جهاتها وقاتلت بعض حصون شرقها وكادت تنتهز فيه الفرصة لولا ندب من الموحدين سبق اليه ودافع عنه فأقلعوا عنه بعد ان قتل عليه جماعة منهم وخيب الله سعيهم فيه فوردت الانباء بذلك على أمير المؤمنين المنصور وهو على قدم الحركة الى افريقية ورسول الطاغية عنده بالمحلة المنصورة فأمر بازعاجه عن المحلة وتجهيزه الى البحر وقيل له جواب صاحبك الغادر يتلقاه عن قريب وصرف في الحين وجه الحركة الى بلاد الاندلس فاهتزت الجبال وتلك الجهات ونشط الناس وقوي حرصهم على الجهاد وارتحل المنصور فلما كان بقصر مصمودة و بقرب البحر لقيه رجل من تجار اشبيلية فسأله عن اسمه فقال له علي بن عسكر فقال المنصور علا عسكرنا ورب الكعبة فاستبشر بذلك وكتب له الى عامل اشبيلية بأمره برعيه والاحسان اليه وأجاز أمير المؤمنين البحر من قصر مصمودة يوم الخميس الموفي عشرين من جمادى الأخيرة من السنة المذكورة فاقام بطريف يوما واحدا ثم ارتحل الى اشبيلية وبها أمر بعرض الجنود فركبت جموع العساكر كلها من الموحدين والعرب وسائر طبقات الامم بالعدد الكاملة والزي الفاخر وهنالك أخرج الأموال وعم جميع الناس على طبقاتهم بالعطاء وفرق عليهم انواع الاسلحة والخيل العتاق وفرق على الضعفاء والمساكين والمضطرين أموالا عظيمة وأمر باخراج كل من وسع الشرع في اخراجه من السجون ومن لم تجعل الشريعة سبيلا الى اخراجه أمر باجراء الارزاق عليهم والتوسعة لهم ثم أخذ على طريق النهر الأعظم ثم على قرطبة ولم يزل يواصل السير حتى انتهى الى الموضع المعروف بالارك وقبل وصوله خرجت سرية من خيل نصارى قلعة رباح وما جاورها يطلبون أن يقعوا على خبر من جهة جيوش المسلمين فظفرت بهم طائفة من عسكر أمير المؤمنين ومن شداد الجند وسرعان الناس فاستأصلوا تلك السرية بالقتل فكان الظفر بتلك السرية باكورة الفتح ومازالت البشائر ترد على الخليفة من ارتكاس العدو وانتكاسهم الى أن تراءى الجمعان وتظاهرت النيران ولما نزل المنصور بهذا المنزل الذي أطل منه على جموع الكفار وعزم على مناجزتهم أمر باجتماع الملاء من الناس من كل فريق فلما تكاملت جموعهم واستوت بهم مجالسهم قام في صدورهم وزير الخليفة ابو يحيى بن ابي محمد بن ابي حفص قائلا يقول لكم سيدنا أمير المؤمنين أغفر والله فان هذا موطن الغفران وتغافروا فيما بينكم وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم وهو يقول لكم انما هو واحد منكم فخشع جميع الناس واجهشوا بالبكاء وطابت نفوسهم لما رأوا من تواضع الخليفة وقالوا بلسان واحد من الخليفة يطلب العفو والغفران وقام الخطباء فخطبوا في الحض على الجهاد فأبلغوا وأحسنوا وانفصل الناس وقد استنارت بصائرهم وخلصت ضمائرهم ثم أمروا بالبكور للقاء العدو فتركوا بالمضارب الاثقال ومشى جميع العساكر على مهلهم كل قبيل بشعاره حتى صار واقريبا من العدو ثم أخذوا مراكزهم ووقفوا كالبنيان المرصوص والمنصور مع أهل بيته ومن جرت عادته من القبائل بالتزام ساقته من وراء الجميع يشد ظهورهم ولما رأى الكفار كثرة جنود الله لم يكن لهم بد من الأبلاء في المدافعة فحملوا على صفوف المسلمين حملة جاهلية وثبت المسلمون إلا أقواما من المطوعة وأخلاط الناس فأنهم تزحزحوا حين مالوا على الميسرة وعند ذلك أمر المنصور من كان حوله من أهل بيته وخاصته بتجديد النيات والثبات ومشى منفردا بين الصفوف يشجع الناس ويأمرهم بالهجوم على عدوهم فحميت نفوس أحرار المسلمين وحملوا على الكفار وحمي بينهم وطيس القتال ثم أنزل الله النصر فانهزم النصارى وولوا الادبار وتحكمت فيهم السيوف وانتهبت محلة الطاغية وأجلت الحرب عن

حصيد من قتلاهم يقال انهم حزر وا بنحو ثلاثين ألفا واستشهد من أعيان المسلمين نفر قلائل أكرمهم الله بالشهادة ثم ان القتل تمادى بعد ذلك فى فل جيش النصارى فى كل أوب وبكل جهة وافلت عدو الله ادفنش تحت حد السنان واجتاز على طليطلة فى نحو عشرين فارسا قد اتخذ الليل جملا وانحصر طائفة من المنهزمة فى حصن الارك وأحدق بهم المسلمون فصالح عنهم بعض زعماء النصارى ممن كان بوالى المسلمين بفداء عددهم من أسارى المسلمين فيقال انه بلغ عدد من صولح عليه بالحصن المذكور خمسة آلاف شخص بين صغير وكبير وذكر وانثى واسعفهم بذلك المنصور حرصا على استنقاذ الاسارى واستخلص المنصور باثر الوقيعة جملة من حصون النصارى استنزلهم منها كانت من أمنع معاقلهم وكان هذا الفتح ضحى يوم الاربعاء التاسع من شعبان من السنة المذكورة الى زوال الشمس منه ولما حصدت شوكة النصارى بهذه الوقيعة ذل الكفر واعتز الاسلام بجزيرة الاندلس وجدد المنصور الحركة الى بلاد صاحب قشتالة فخرج يوم الاثنين منتصف رجب الفرد عام اثنين وتسعين فدوخ قواعد الكفر وسار الى مدينة طربيلة وهى أكبر قواعد اقليم طليطلة فاستأصلها ثم غزا غزوته الثالثة فى عام ثلاثة وتسعين دوخ فيها أيضا كثيرا من بلادهم وانتسف جملة من معاقلهم ولما طال على ملوك الروم البلاء ورأوا ما نزل بهم من الاستئصال لجيوشهم وقواعدهم واصلوا الرغبة فى المهادنة واذعنوا إلى السلم فأجابهم المنصور اليه على شروط كثيرة اشترطها عليهم وحينئذ أخذ فى رجوعه الى العدوة رحمة الله عليه وفى ذلك يقول شاعره أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر

قضى حقوق الله فى أعدائه * ثم انثنى والنصر تحت لوائه

ثم قال بعد أبيات

بحر طما والبأس من أمواجه * صبح بدا والحق من أضوائه
عمد أقام به المهيمن حقه * والحق عمدة أرضه وسمائه
وأباحه مهج العدا فكأنما * قد نصلت ارماحه بقضائه
اغزى بهم جيشا تضيق الارض عن * أفواجه والوهم عن إحصائه
كالعارض الثجاج ملء هوائه * لكن دم الابطال من انوائه
لما رأى للشرك رسما مائلا * أوهى قواه وجد فى إقوائه
أنحى عليه بالصوارم والقنا * حتى اذا لم يبق غير ذمائه
أبقاه والذعر المخيف يبيده * فكأنه سبع على أشلائه
مستأ صلا شيئا فشيئا أمرهم * كر الزمان بصبحه ومسائه

وأجاز المنصور الى بر العدوة فى غرة جمادى الاخيرة من عام أربعة وتسعين وتوفى فى عشى يوم الخميس الثانى والعشرين لشهر ربيع الاول عام خمسة وتسعين وكذب الكافة من العامة بوفاته فتارة يجعلونه رابطا ببلاد الاندلس مستكنا بها وتارة يقولون أنه خرج زاهدا فى الملك فتوجه نحو بيت الله وجاور فى المدينة عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يخفى أمره ولهم فى ذلك حكايات يقولونها الى الآن كلها تخرص واباطيل قلت وانما نسب الناظم هذه الوقيعة الى جدود ممدوحه وان لم يكن نسبه يتصل بالمنصور لان أسلافه كانوا عظماء الموحدين وأكابر الدولة وعليهم مدار الحل والعقد ولما كان لهم فى هذه الوقيعة من الغناء العظيم على ما نقل وقد وقفت للكاتب البليغ ابى المطرف بن عميرة على فصل من رسالة خاطب بها الامير أبازكريا والد الممدوح ذكر فيه غناء سلفه فى هذه الوقيعة فقال ما نصه يوم كان عزم السلف الكريم طالع غره وصالى حره * وصاحب مقالبته وجبره * وضارب صحيحه فى كسره * وهو المعروف بيوم الأرك * وأكبر وقائع أهل التوحيد

على طواغيت الشرك وكان قد احتفل له المنصور وساعده هذا الليث المصور * حدث الثقات انه قعد بكرة ذلك اليوم تحت رايته المنشورة * يجيل قداح المشورة * فتكلم على البعد أحد العرب * وكان الخليفة كان له في السماع منه بعض الارب * فقال له هذا القرم الشهم ما معناه هذا الذى تتكلم فيه هو وظيفتنا نحن وغيرنا حسبه أن يهتم بمكانه من الزحف * و يأتم بأمامه اذا دخل فى الصف * ثم ركب فى المطوعة وأهل الاندلس وهم اذ ذاك عود فيه صلابة * ونبل لا تخطئ فيه اصابة * ثم وقف بهم حذاء العدو وللروم جملة لا تطاق * وشدة فيها تندر الهام و بها تندر الأعناق * جعلوها فى هنتاتة وكانت حد الباس * بالبيض الوجوه فى محمر البأس * وفيها وزير الخليفة أبو يحيى الشهيد * وهو الصارم الحديد والبطل الصنديد * فثبت لتلك الصدمة الاولى * وكان له هنالك مع قصر الأجل اليد الطولى * فحين استشهد شالت نعامه الفحل والشول وانهالت كثب الجميع فى ذلك الهول * وكاد الشيطان يحصد ما بذر من بذر * ورآى ضد ما رآه فى يوم بدر * لولا أن الله تعالى تلافى امر الاسلام * بهذا القرم الهمام * فانه عاين الفرصة فتمكن من انتهازها * ورأى الغنيمة فبادر الى احرازها * وذلك أنه بصر بمعسكر الروم وقد تحيزوا له ربوة منيفة * واعطوه من خيلهم قطعة كثيفة * فصمد اليهم بخيله * وأطفأ محتدم نارهم بسيله * ولم يعض الاساءة واذا ظهر الاسلام قد قوى * ومعسكر الروم قد خوى * وحديث الفتح من أصح طرقه قد اسند وروى * وتراجع الروم من جملتهم * وتأهبوا للثانية بجملتهم * ونظروا فاذا الربوه محوزة * وراية الحق فيها مركوزة * فحاصوا حيصة حمر الوحش * وتناولهم اسود النهس واسادو النهش * فاى موقف لهذا الهمام حمل على مكروهه نفسه السمحة واجتلى به بأخف الحركات تلك الفتحة * وكان كما قيل فى يوم أحد ذلك يوم كله أو جله لطلحة انتهى كلام أبى المطرف وأبو يحيى المتشهد يومئذ هو أبو يحيى بن أبى حفص والذى ذكر أنه صمد الى معسكر الروم حتى حواه هو جد الامير المستنصر ممدوح الناظم

فَوَقَبَ الْغَاسِقُ عَنْ يَوْمٍ بِهِ ... كَيَوْمِ ذِى قَارٍ وَيَوْمِ الْوَقَبَا

يقال وقب اذا دخل والغاسق الليل ومنه قوله تعالى ومن شر غاسق اذا وقب فى أشهر التفاسير والضمير فى به يعود على الارك

﴿ ذكر يوم ذى قار ﴾

و يوم ذى قار كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لبكر بن وائل وخاصة لبنى شيبان على الأعاجم جنود كسرى ومن انضاف اليهم من العرب وكان من حديثه أن النعمان بن المنذر حين غضب عليه كسرى ابرو يز حسبما قدمناه قبل أتى النعمان طيأ فأبوا أن يدخلوه جبلهم وانما أتاهم لصهر كان له فيهم كانت عنده فرعة بنت سعد بن حارثة بن لام وزينب بنت أوس بن حارثة فلما أبوا أن يدخلوه أتته بنو رواحة بن ربيعة بن عبس فقالوا أبيت اللعن أقم عندنا فانا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا فقال ما أحب أن تهلكوا بسببى فانه لا يدان لكم بكسرى وشكر ذلك لهم ثم وضع وضائع عند أحياء من العرب واستودع ودائع فوضع أهله وسلاحه عند هانئ بن قبيصة أحد بنى ربيعة ابن ذهل بن شيبان وخرج حتى أتى المدائن قادما على كسرى فكان من حديثه مع كسرى وحبسه إياه حتى مات أو قتله ما تقدم ذكره فلما هلك النعمان جعلت بكر بن وائل تغير فى السواد فوفد قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ذى الجدين بن عبد الله بن عمرو الى كسرى فسأله أن يجعل له أكلا وطعمة على أن يضمن له عن بكر بن وائل أن لا يدخلوا السواد ولا يفسدوا فيه فأقطعه الأبلة وما والاها وقال هى تكفيك وتكفى

أعراب قومك فكانت له جحرة فيها مائة من الأبل للأضياف فاذا نحرت ناقة أعيدت أخرى وإياه عنى الشماخ بقوله ادفع بألبانها عنكم كما دفعت * عنكم لقاح بنى قيس بن مسعود

قال فكان يأتيه من أتاه منهم فيعطيه جلة تمر وكرباسة قلت والجلة وعاء التمر والكرباسة واحدة الكرابيس وهى ثياب خشنة حتى قدم الحرث بن وعلة بن المجالد بن سرى بن الديان بن مالك بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة والمكسر بن حنظلة بن ثعلبة بن سيار أحد بنى عجل بن لجيم فأعطاهما جلتى تمر وكرباستين فغضبا وأبيا أن يقبلا ذلك منه فخرجا واستغويا ناسا من بكر بن وائل ثم أغاروا على السواد وأغار بجير بن عائذ بن سويط العجلى ومعه مفروق بن عمرو الشيبانى على القادسية وطيرناباذ وماوالاهما وكلهم ملأ يده غنيمة فلما بلغ ذلك كسرى اشتد حنقه على بكر بن وائل وبلغه أن حلقة النعمان وولده وأهله عندهم فأرسل كسرى الى قيس بن مسعود وهو بالأبلة فقال غررتنى من قومك وزعمت أنك تكفينيهم وأمر به فحبس بساباط وأخذ كسرى فى تعبئة الجيوش اليهم فقال قيس بن مسعود وهو محبوس

ألا أبلغ بنى ذهل رسولا * فمن هذا يكون لكم مكان
أيأ كلها ابن وعلة فى ظليف * ويأمن هيثم وبنو سنان
ويأمن فيكم الذهلى بعدى * وقد وسموكم سمة البيان
ألا هل مبلغ قومى ومن ذا * يبلغ عن أسير فى الاوان
تطاول ليله وأصاب حزنا * ولا يرجو الفكاك مع المنان

يبلغ عن أسير فى الاوان يريد الايوان وقال قيس بن مسعود ينذر قومه

ألا ليتنى أرشو سلاحى وبغلتى * لمن يخبر الأنباء بكر بن وائل
فأوصيكم بالله والصلح بينكم * لينطأ معروف ويزجر جاهل
وصاة امرىء لوكان فيكم أعانكم * على الدهر والأيام فيها الغوائل
فاياكم والطف لاتقربنه * ولا البحر ان الماء للبحر واصل
ولا يحبسنكم عن بغا الخير أننى * سقطت على ضرغامة وهو آكل

فلما وضح لكسرى واستبان أن مال النعمان وحلقته وولده عند هانئ بن قبيصة بعث اليه رجلا يخبره أنه يقول له ان النعمان انما كان عاملى وقد استودعك ماله وأهله والحلقة فابعث بها ولا تكلفنى أن أبعث اليك والى قومك بالجنود تقتل المقاتلة وتسبى الذرية فبعث اليه هانئ أن الذى بلغك باطل وماعندى قليل ولا كثير وان يكن الامر كما قيل فانما أنا أحد رجلين إما رجل استودع أمانة فهو حقيق أن يردها على من أودعه ولن يسلم الحر أمانته أو رجل مكذوب عليه فليس ينبغى أن تأخذه بقول عدو أو حاسد وكانت الأعاجم قوما لهم حلم قد سمعوا ببعض خبر العرب وعلموا أن هذا الأمر كائن فيهم فلما ورد عليه كتاب هانئ بهذا حملته الشفقة أن يكون ذلك قد اقترب على أن أقبل حتى قطع الفرات فنزل غمر وبنى مقاتل وقد أحنقه ماصنعت بكر بن وائل فى السواد ومنع هانئ إياه ماامتنع ودعا كسرى اياس بن قبيصة الطائى وكان عامله على عين التمر وماوالاها الى الحيرة وكان كسرى قد أطعمه ثمانين قرية على شاطئ الفرات فأتاه فى صنائعه من العرب الذين كانوا بالحيرة فاستشاره فى الغارة على بنى بكر بن وائل وقال ماذا ترى وكم ترى أن نغزيهم من الناس فقال له اياس ان الملك لا يصلح أن يعصيه أحد من رعيته وان تطعنى لم يعلم أحد لأى شئ عبرت وقطعت الفرات فيروا أن شأن العرب قد كربك ولكن ترجع وتضرب عنهم وتبعث عليهم العيون حتى ترى غرة منهم ثم ترسل خيلة من العجم فيها بعض القبائل التى تليهم فيوقعون بهم وقعة الدهر ويأتونك بطلبتك فقال له كسرى أنت رجل من العرب وبكر بن وائل أخوالك

وكانت أم أياس أمامة بنت مسعود أخت هانئ بن مسعود فأنت تتعصب لهم ولا تألوهم نصحا فقال أياس رأى الملك أفضل فقام اليه عمرو بن عدى بن زيد العبادى وكان كاتبه وترجمانه بالعربية وفى أمور العرب فقال له أقم أيها الملك أفضل مقام وابعث اليهم الجنود يكفوك فقام اليه النعمان بن زرعة فقال أيها الملك ان هذا من بكر بن وائل اذا قاظوا بذى قارتها فتوا تهافت الجراد فى النار فعقد للنعمان بن زرعة على تغلب والنمر وعقد لخالد بن زيد النهرانى على قضاعة واياد وعقد لاياس بن قبيصة على جميع العرب ومعه كتيبتاه الشهباء والدوسر فكانت العرب ثلاثة آلاف وعقد للهامرز على الف من الأساورة وعقد لخنازندر بن على الف وبعث معهم باللطيمة وهى عير كانت تخرج من العراق فيها البر والعطر والألطاف توصل الى باذام عامله باليمن وقال اذا فرغتم من عدوكم فسيروا بها الى اليمن وأمر عمرو بن عدى أن يسير بها وكانت العرب تخفرهم وتجيرهم حتى تبلغ اللطيمة اليمن وعهد كسرى اليهم اذا شارفوا بلاد بكر بن وائل ودنوا منها أن يبعثوا اليهم النعمان بن زرعة فان أتوكم بالحلقة ومائة غلام منهم يكونون رهنا بما أحدث سفاؤهم فاقبلوا منهم والا فقاتلوهم وكان كسرى قد أوقع قبيل ذلك ببنى تميم يوم الصفقة فالعرب وجلة خائفة منه وكانت حرقة بنت حسان بن النعمان بن المنذر يومئذ فى بنى شيبان وقيل حرقة بنت النعمان وهى هند والحرقة لقب فقالت تنذرهم

ألا أبلغ بنى بكر رسولا * فقد جد النفير بعنقفير
فليت الجيش كلهم فداكم * ونفسى والسرير وذا السرير
كأنى حين جد بهم اليكم * معلقة الذوائب بالعبور
فلو أنى أطقت لذاك دفعا * اذا لدفعته بدمى وزيرى

فلما بلغ بكر بن وائل الخبر سار هانئ بن مسعود حتى انتهى الى ذى قار فنزل به وأقبل النعمان بن زرعة وكانت أمه تلطف بنت النعمان بن معدى كرب التغلبى وأمها الشقيقة بنت الحرث العجلى حتى نزل على ابن اخته مرة بن عمرو ابن عبدالله بن معاوية بن عبد بن سعد بن عجل فحمد الله النعمان وأثنى عليه ثم قال انكم أخوالى وأحد طرفى وان الرائد لا يكذب أهله وقد أتاكم مالا قبل لكم به من أحوار فارس وفرسان العرب والكتيبتان الشهباء والدوسر وان فى الشر خيارا ولأن يفتدى بعضهم بعضا خير من أن تصطلموا انظروا هذه الحلقة فادفعوها وادفعوا رهنا من أبنائكم اليه بما أحدث سفهاؤكم فقال له القوم ننظر فى أمرنا وبعثوا الى من يليهم من بكر بن وائل وبرزوا ببطحاء ذى قار بين الجلهتين قال بعض اللغويين جلهة الوادى ما استقبلك منه واتسع لك وقال ابن الأعرابى جلهة الوادى مقدمه مثل جلهة الرأس اذا ذهب شعره يقال رأس أجله وجعلت بنو بكر بن وائل حين بعثوا الى من حولهم من قبائل بكر لا ترفع لهم جماعة الا قالوا سيدنا فى هذه فرفعت لهم جماعة فلما دنوا اذاهم بعبد عمرو بن بشر بن مرثد فقالوا لا ثم رفعت لهم أخرى فقالوا فى هذه سيدنا فاذا جبلة بن باعث بن صريم اليشكرى فقالوا لا فرفعت أخرى فقالوا فى هذه سيدنا فاذا هو الحرث بن وعلة بن المجالد الذهلى فقالوا لا ثم رفعت لهم أخرى فقالوا فى هذه سيدنا فاذا فيها الحرث ابن ربيعة بن عثمان التيمى بنى تيم الله فقالوا لا ثم رفعت لهم أخرى أكبر فقالوا لقد جاء سيدنا فاذا رجل أصلع أشعر عظيم البطن مشرب حمرة واذا هو حنظلة بن ثعلبة بن سيار بن حي بن خاطبة بن الاسعد بن جذيمة بن سعد بن عجل فقالوا يا أبا معدان قد طال انتظارنا وقد كرهنا أن نقطع أمرا دونك وهذا ابن اختك النعمان بن زرعة قد جاءنا والرائد لا يكذب أهله قال فالذى أجمع عليه رأيكم واتفق عليه ملاؤكم قالوا إن اللحى أهون من الوهي وان فى الشر خيارا ولأن يفتدى بعضكم بعضا خير من أن تصطلموا جميعا قال حنظلة قبح الله هذا رأيا لا تجر أحرار فارس غرلها ببطحاء ذى قار وانا أسمع الصوت ثم أمر بقبته فضربت بوادى ذى قار ثم نزل ونزل

الناس فاطافوا به ثم قال لهانئ يا أبا أمامة ان ذمتكم ذمتنا عامة وانه لن يوصل اليك حتى تفنى أرواحنا فأخرج هذه الحلقة ففرقها فان تظفر فسترد عليك وان تهلك فأهون مفقود فأمر بها فأخرجت ففرقها بينهم ثم قال حنظلة للنعمان لولا أنك رسول لما آبت الى قومك سالما فرجع النعمان الى أصحابه فأخبرهم بما رد عليه القوم فباتوا ليلتهم مستعدين للقتال وبات بكر بن وائل متأهبين للحرب فلما أصبحوا أقبلت الأعاجم نحوهم وأمر حنظلة بالظعن جميعا فوقفها خلف الناس ثم قال يامعشر بكر بن وائل قاتلوا عن ظعنكم فأقبلت الاعاجم يسيرون على تعبئة فلما رأتهم بنو قيس بن ثعلبة انصرفوا فلحقوا بالحى فاستخفوا فيه فسمى خفى بنى قيس بن ثعلبة قال وهو موضع خفى فلم يشهدوا ذلك اليوم فكان ربيعة بن غزالة السكونى ثم التجيبى يومئذ هو وقومه نزولا فى بنى شيبان فقال يابنى شيبان أما لو أنى كنت منكم لأشرت عليكم برأى مثل عدوة القلم قالوا فانتم والله من اوسطنا فأشر علينا قال لا تستهدفوا لهذه الاعاجم فتهلككم بنشابها ولكن تكردسوا لهم كراديس فيشد عليهم كردوس فاذا أقبلوا عليه شد الآخر قالوا فانك قد رأيت رأيا ففعلوا فلما التقى الزحفان وتقارب القوم قام حنظلة بن ثعلبة فقال يامعشر بنى وائل أن النشاب الذى مع الاعاجم يفرقكم فاذا أرسلوه لم يخطئكم فعادلوهم اللقاء وابدؤهم بالشدة ثم قام هانئ فقال ياقوم مهلك معذور خير من منجى مغرور فان الحذر لا يدفع القدر وان الصبر من أسباب الظفر المنية ولا الدنية واستقبال الموت خير من استدباره والطعن فى الثغر أكرم من الطعن فى الدبر ياقوم جدوا فما من الموت بد فتح لو كان له رجال أسمع صوتا ولا أرى قوما يالبكر شدوا واستعدوا والا تشدوا تردوا ثم قام عمرو بن شراحيل بن مرة بن همام فقال ياقوم انما تهابونهم أنكم ترونهم عند الحفاظ أكثر منكم وكذلك أنتم فى أعينهم فعليكم بالصبر فان الاسنة تردالأعنة يالبكر قدما قدما ثم قام عمرو بن جبلة بن باعث ابن صريم اليشكرى فقال

يا قوم لا تغرركم هذى الخرق * ولا وبيص البيض فى الشمس برق

من لم يقاتل منكم هذا العنق * فجنبوه الراح واسقوه المرق

ثم قام حنظلة بن ثعلبة الى وضين راحلة امرأته فقطعه ثم تتبع الظعن يقطع وضنهن لئلا يفر عنهن الرجال فسمى يومئذ مقطع الوضن والوضين بطان الناقة وكانت بنو عجل فى الميمنة بازاء خنازندبن وكانت بنو شيبان فى الميسرة بازاء كتيبة الهامرز وكانت أبناء بكر بن وائل فى القلب فخرج أسوار من الاعاجم مسور فى أذنيه درتان خرج من كتيبة الهامرز يتحدى الناس للبراز فنادى فى بنى شيبان فلم يبرز له أحد حتى اذا دنا من بنى يشكر برز له يزيد بن حارثة أخو بنى ثعلبة بن عمرو فشد عليه بالرمح فطعنه فدق صلبه وأخذ حليته وسلاحه فذلك قول سويد بن أبى كاهل يفتخر

ومنا يزيد اذ تحدى جموعكم * فلم تقربوه المرزبان المشهر

وبارزه منا غلام بصارم * حسام اذا لاقى الضريبة يبتر

ثم ان القوم اقتتلوا صدر نهارهم أشد قتال رآه الناس الى أن زالت الشمس فشد الحوفزان واسمه الحرث بن شريك على الهامرز فقتله وقتلت بنو عجل خنازندرين وصرف الله وجوه الفرس فانهزموا وتبعهم بكر بن وائل فلحق مرثد بن الحرث بن ثور بن حرملة بن علقمة بن عمرو بن سدوس النعمان بن زرعة فأهوى له طعنا فسبقه النعمان بصدر فرسه فأفلته فقال مرثد فى ذلك

وخيل تبارى للطعان شهدتها * فأغرقت فيها الرمح والجمع محجم

وأفلتنى نعمان فوت رماحنا * وفوق قطاة المهر أزرق لهذم

ولحق أسود بن بجير بن عائذ بن شريك العجلى النعمان بن زرعة فقال له يانعمان هلم الى فانا خير آسر أنا خير لك من

العكيين قال ومن أنت قال الأسود بن بجير فوضع يده في يده فجز ناصيته وخلى سبيله وقال له أنج على هذه فانها أجود من فرسك وجاء الأسود بن بجير على فرس النعمان وقتل خالد بن يزيد البهرانى قتله الأسود بن شريك بن عمرو وقتل يومئذ عمرو بن عدى بن زيد العبادى الشاعر فقالت أمه ترثيه

ويح عمرو بن عدى من رجل * حان يوما بعدما قيل كمل
كان لا يغفل حتى ما اذا * جاء يوم يأكل الناس غفل
أمهم دلاك عمرو بالردى * وقديما حين المرأ الأجل
ليت نعمان علينا مالك * وبنى لى حى لم يزل
قد تنظر لغاد أوبة * كان لو يغنى عن المرء الأمل
بان منه عضد مع ساعد * بوسى للدهر وبوسى للرجل

قال وأفلت إياس بن قبيصة على فرس له كانت عند رجل من بنى تيم الله يقال له أبو ثور فلما أراد إياس أن يغزوهم أرسل اليهم أبو ثور بها فنهاه أصحابه أن يفعل فقال والله ما فى فرس إياس ما تعز رجلا ولا تذله وما كنت لأقطع رحمه فيها فقال اياس

غذاها أبو ثور فلما رأيتها * دحيص دواء لا أصيغ غذاءها
فأعددتها لكل يوم كريهة * اذا أقبلت بكر تجر رشاءها

قال واتبعتهم بكر بن وائل يقتلونهم بقية يومهم حتى أصبحوا من الغد وقد شارفوا السواد ودخلوه فذكروا أن مائة من بكر بن وائل وسبعين من عجل وثلاثين من أبناء بكر بن وائل أصبحوا وقد دخلوا السواد فى طلب القوم فلم يفلت منهم كبير أحد وأقبلت بكر بن وائل على الغنائم فقسموها بينهم وقسموا تلك اللطائم بين نسائهم فذلك قول الدهان بن جندل

ان كنت ساقية يوما على كرم * فاسقى فوارس من ذهل بن شيبانا
واسقى فوارس حاموا عن ذمارهم * واعلى مفارقهم مسكا وريحانا

فكان أول من انصرف الى كسرى بالهزيمة إياس بن قبيصة وكان لا يأتيه أحد بهزيمة جيش الا نزع كتفيه فلما أتاه إياس سأله عن الخبر فقال هزمنا بكر بن وائل وأتيناك بنسائهم فأعجب ذلك كسرى وأمر له بكسوة وان إياسا استأذنه عند ذلك فقال ان أخى مريض بعين التمر فأردت أن آتيه وانما أراد أن يتنحى عنه فأذن له كسرى فترك فرسه الحمامة وهى التى كانت عند أبى ثور بالحيرة وركب نجيبته فلحق بأخيه ثم أتى كسرى رجل من أهل الحيرة وهو بالخورنق فسأل هل دخل على الملك أحد فقالوا نعم إياس فقال ثكلت إياسا أمه وظن أنه قد حدثه الخبر فدخل عليه فحدثه بهزيمة القوم وقتلهم فأمر به فنزعت كتفاه وكانت وقعة ذى قار بعد وقعة بدر بأشهر ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فلما بلغه ذلك قال هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نصروا وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلت له الوقعة وهو بالمدينة فرفع يديه فدعا لبنى شيبان ولجماعة ربيعة بالنصر ولم يزل يدعو لهم حتى أرى هزيمة الفرس وروى أنه قال ايهن بنو ربيعة اللهم انصر بنى ربيعة فهم الى الآن اذا حاربوا دعوا بشعار النبى صلى الله عليه وسلم ودعوته لهم وقال قائلهم يارسول الله وعدك فاذا دعوا بذلك نصروا وقال أبو كلبة التيمى يفخر بيوم ذى قار

لولا فوارس لا ميل ولا عزل * من اللهازم ماقظتم بذى قار
مازلت مفترشا أحساك دافية * تثير أعطانها منها بآبار
إن الفوارس من عجل هم أنفوا * من أن يخلوا لكسرى عرصة الدار

لاقوا فوارس من عجل يسكنها * ليسوا إذا قلصت حرب بأغمار
قد أحسنت ذهل شيبان وما عدلت * في يوم ذي قار فرسان ابن سيار
هم الذين أتوهم عن شمائلهم * كما تلبس وراد بصدار

فأجابه الأعشى

أبلغ أبا كلبة التيمي مألكة * فأنت من معشر والله أغمار
شيبان تدفع عنك الحرب آونة * وأنت تنبح نبح الكلب في الغار

وقال بكير بن الأبكم

ان كنت ساقية المدامة أهلها * فاسقى على كرم بنى همام
وأبا ربيعة كلها ومحلما * سبقوا نعامة أفضل الأقسام
زحفوا بجمع لاترى أقطاره * لقحت به حرب لغير تمام
ضربوا بنى الأحرار يوم لقوهم * بالمشرفي على شؤن الهام
وغدا ابن مسعود فأوقع وقعة * ذهبت لهم في مغرب وشآم

وقال الأعشى

فدى لبنى ذهل بن شيبان ناقتى * وراكبها يوم اللقاء وقلت
هم ضربوا بالحنو حنو قراقر * مقدمة الهامرز حتى تولت

وقال بعض شعراء ربيعة في يوم ذي قار

ألا من لليل لاتغور كواكبه * وهم سرى بين الجوانح جانبه
ألا هل أتاها أن جيشا عرمرما * بأسفل ذي قار تدرى كتائبه
فما حلقة النعمان يوم طلبتها * بأقرب من نجم السماء تراقبه

وقال الأعشى

حلفت بالملح والرماد وبالـ * ـعزى وباللات نسلم الحلقة
حتى يظل الهمام منجدلا * ويقرع النبل طرة الدرقه

وقال بعضهم

ألا أبلغ بنى ذهل رسولا * فلا شتما أردت ولا فسادا
هززت الحاملين لكى يعودوا * إذا يوم من الحدثان عادى
وجدت الرفد رفد بنى لجيم * اذا ما قلت الأرفاد زادا
هم ضربوا الكتائب يوم كسرى * أمام الناس اذ كرهوا الجلادا
وهم ضربوا القباب ببطن فلج * وذادوا عن محارمنا ذيادا

وقال الأعشى في ذلك

لو أن كل معد كان شاركنا * في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لما أتونا كأن الليل يقدمهم * مطبق الأرض تغشاها لهم سدف
بطارق وبنو ملك مرازبة * من الأعاجم في آذانها النطف
من كل مرجانة في البحر أحرزها * تيارها ورماها طيه الصدف
وظعننا خلفنا تجرى مدامعها * أكبادها وجلا مما ترى تجف

يحسرن عن أوجه قد عاينت عبرا * ولاحها عبرة ألوانها كسف
ما في الخدود صدود عن وجوههم * ولا عن الطعن في اللبات منصرف
عوجا على بدء كر مايلبثهم * كر الصقور بنات الماء تختطف
لما أمالوا الى النشاب أيديهم * ملنا ببيض فظل الهام يقتطف
وخيل بكر فما تنفك تطحنهم * حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف

﴿ ذكر يوم الوقبا ﴾

وأما يوم الوقبا فكان من حديثه ان عبد الله بن عامر كان عاملا لعثمان بن عفان رضي الله عنه على البصرة وأعمالها فاستعمل بشر بن حزن على الوقبا والوقبا من الأجاد وهو موضع فخرج بشر يومئذ هو وأخوه خفاف إلى ارض الوقبا فحفرا بها ركيتين ذات القصر والجوفاء فلما أنبطاهما إذا ماؤهما ماء الغادية عذوبة وطيبا فلما رأيا ذلك تخوفا أن يغلبهما عليهما عبد الله بن عامر وكان عبد الله بن عامر مسقيا والمسقى هو الذى لا ينبط بئرا إلا كانت عذبة وذلك أن أم عبد الله بن عامر أتت به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صبي فتفل فى فيه فكان لا ينبط بئرا إلا أعذب فلما أنبط هاتان البئران أحب أن يشتريهما حتى لا يكون لأحد فضل فى ماء الاله فدفناها فرفع أمرهما إلى عبد الله فأرسل الى بشر فطلب منه الركيتين فأبى أن يمكنه منهما فلما لج فى الأباء عزله عبد الله فانطلق بشر وأخوه هاربين من عنده وعدوا على إبل لابن عامر فنفراها وكان ذلك قبل مقتل عثمان رضي الله عنه ثم إن ناسا من بكر بن وائل نزلوا الوقبا فلما نزلوها أرسل بشر بن حزن اليهم فقال ان كنتم تريدون الثواء فيها فيطلكم هذا فاقيموا وان كنتم تريدون غير هذا فأعلموني فانها أرضي ومائي فارسلوا اليه يوعدونه وقالوا ان رأيناك بالوقبا فعلنا بك وصنعنا فلما بلغ ذلك بشرا خرج فاستنجد قومه بني العنبر و بني يربوع و بني مازن بن مالك على بكر فلما اجتمعوا قام منهم قائم فقال هؤلاء بنو أمكم و بنو عمكم و يدكم على من ناوأكم فجدوا بنا فى حرب بكر بن وائل فلما سمعوا ائتمروا وحض بعضهم بعضا على محاربتهم فانطلق القوم حتى اذا كانوا على ليلة من الوقبا خرج منهم سبعة نفر حتى وردوا الماء على بكر بن وائل متجسسين عليهم وذلك فى شهر رمضان فاخبروهم أنهم يريدون عبيدا لهم أباقا أفلتوا منهم فقروهم ثم ارتابوا بهم فوثبوا عليهم فلم يتركوا فى لحاهم شعرة إلا نتفوها فقالوا لهم انا نحرمنا بطعامكم يا بكر بن وائل وهذا قراكم فى بطوننا وحقائبنا فاستنموا بهم فارسلوهم وخلوا عنهم فانطلق القوم نحو الكوفة يرونهم انهم فى اثر عبيدهم حتى اذا امشوا الى أصحابهم فقالوا يابني مازن لم نجد والله لنا بهم يدين القوم كثير فتكركر القوم فوثب بشر بن حزن فقال يابني مازن جدوا بنا فى حرب بكر بن وائل فمضى حتى إذا أشرف على بكر بن وائل قالت بكر هذه عير قد أشرفت عليكم فقالت امرأة منهم أحلف بالله انى لأرى البيض تبرق والأسنة تلمع فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديدا ثم نادت بكر بن وائل يابني مازن البقية البقية فنهنوا للصلح ولم يعلموا بقتل سيدهم فلما علموا قالوا لا بقيا بعد هذا فقال قائل من بني شيبان

ها إن ذا اليوم بشر مجوع * إلا نكدان مازن ويربوع

ثم انهزمت بكر بن وائل فهم رجل من بني يربوع بسبي النساء فقال عصمة لا سباء فى الأسلام وأنا جار لجميع النساء من السباء والفضيحة منهن اليوم وفى ذلك يقول الشاعر وهو أبو الغول علف ابن جوشن

فدت نفسي وما ملكت يميني * فوارس صدقوا فيهم ظنوني
فوارس لا يملون المنايا * إذا دارت رحى الحرب الزبون

ولا يجزون من حسن بسيئ * ولا يجزون من غلظ بلين
ولا تبلى بسالتهم وإن هم * صلوا بالحرب حينا بعد حين
هم منعواحمى الوقبا بضرب * يؤلف بين أشتات المنون
فنكب عنهم درء الأعادى * وداووا بالجنون من الجنون
ولا يرعون أكناف الهوينا * إذاحلوا ولا روض الهدون

بَلْ كلُّ يَوْمٍ دُونَ ذَاكَ الْيَوْمِ فِى ... مَا نَصَّ فِى غُرِّ الْفُتُوحِ وجَلَا
مَا كَانَ قَدْ أَنْجَزَ اللّهُ لَهُمْ ... مِنْ مَوْعِدِ النَّصْرِ حَدِيثاً يُفْتَرَى
فَلَمْ يَدَعْ جِهادُهُمْ لِلشِّرْكِ مِنْ ... دَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ مِنْ مُدْرَى
ثُمَّ دَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَابْتَدَرُوا ... إِلَى مَحَلِّ الْقُرْبِ مِنْهُ وَالرِّضَا
وَأَصْبَحَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ فَرِيسَةً ... لِمَنْ بَغَى وَفُرْصَةً لِمَنْ بَغَا
وَآضَ مَا قَدْ كَانَ مِنْهَا خَافِياً ... بَعْدَ الظُّهُورِ ظَاهِراً بَعْدَ الْخَفَا

قوله بل كل يوم دون ذاك اليوم البيت يقال نصصت الشئ رفعته وأظهرته ومنه منصة العروس والمعنى أنه بعدما شبه ذلك اليوم بذى قار وبيوم الوقبا استدرك ورأى أن تشبيهه بهما تقصير به فأضرب عن قوله و بين أن الأيام دون هذا اليوم فيما ظهر فيه من الفتح والنصر وقوله ما كان ماقد أنجز الله لهم البيت اتبع فيه لفظ الآية فى قوله تعالى ما كان حديثا يفترى فأكسبه ذلك براعة زائدة ورونقا عظيما وذلك هو الشأن فى كل كلام جيء فيه بلفظ أو آية من كلام الله تعالى فقد كان خطباء العرب بعد نزول القرآن يذمون الكلام إذا لم يمزج بشئ من كتاب الله وحكوا أن بعض الخطباء فى صدر الاسلام مر بنادمن العرب فذكروا براعة كلامه وحسن خطبه فقال بعضهم هو أخطب الناس لو كان فى كلامه آى من القرآن وقوله فلم يدع جهادهم للشرك من دار أى لم يترك لهم منزلا الا أجلوهم عنه وقوله ولم يترك لهم من مدرى المدرى هنا هو الموضع المعتمد بالغزو والغارة يقال أدرى بنو فلان مكان كذا قال سحيم بن وثيل

أتتنا عامر من أرض رام * معلقة الكنائن تدرينا

أى لم يترك لهم سبيلا إلى موضع يغزونه ولا يغيرون عليه وقد يكون المدرى هنا مصدرا كأنه قال لم يترك لهم ادراء والاول أنسب وقوله ثم دعاهم ربهم البيت يريد أن الله تعالى اختار لهم ماعنده فقبضهم اليه راضيا عنهم بما كان من افعالهم فى جهاد أعدائه ثم قال وأصبحت من بعدهم فريسة الفريسة ما يفترسه الأسد وغيره وأصل الفرس دق العنق ثم صار يستعمل فى كل قتل والفرصة النهزة يقال انتهز فلان الفرصة اى اغتنمها والبغى بالغين المعجمة التعدى يقال بغى الرجل على الرجل اذا استطال وتعدى والبعى بالعين المهملة الجناية والجرم قال الشاعر

وأنسانى بغى لغير جرم * بعوناه ولا بدم مراق

يقول أصبحت بلاد الاندلس بعدهم فريسة للمتعدى الباغى ونهزة للجانى المجترم يريد من الكفار وذلك لما عدمت من نصرهم ثم قال وآض ماقد كان فيها خافيا البيت معناه أن العدو كان بهذه البلاد ظاهرا ثم لما نهدت اليها طائفة التوحيد وهم قوم الممدوح اضمحل ثم عاد الآن بعدهم أمر العدو إلى ما كان عليه أولا من الظهور وقد جونس

في هذه الابيات بين دار ومدرى وبين بنى و بنى وطو بق فى البيت الأخير بين خافيا بعد الظهور وظاهرا بعد الخفا

لَهْفِي لِذِكْرَى مَعْهَدٍ عَهِدْتُهُ ... يُرَاحُ لِلْأُنْسِ بِهِ وَيُغْتَدَى

غَصَّ امْتِلَاءً بِالرِّئْمِ بَعْدَمَا ... أَقْفَرَ مِنْ أُمِّ الرُّوَيْمِ وَخَلَا

تُلْقَى بِهِ أُمُّ السُّبَيْعِ بَعْدَمَا ... كَانَتْ بِهِ أُمُّ الْخُشَيْفِ تُلْتَقَى

أَخْلَى ذُرَاهَا اللهُ مِنَ الْآفَةِ ... مِنْ بَعْدِ مَا أَنْمَى بِهِ اللهُ الذَّرَى

البيت الأول من هذه لا يحتاج الى تفسير وقوله غص امتلاء بالرئم الرويم هنا مصغر الروم وقوله أقفر من أم الرويم الرويم هنا مصغر الرئم وهو الظبي الخالص البياض وأراد بأم الرويم الغزالة وكنى بذلك عن النساء الحسان يريد أن تلك المعاهد كانت بها الحبائب فخلت عنها وغصت بعد ذلك بكفار الروم الذين استولوا عليها وقوله تلقى بها أم السبيع السبيع مصغر السبع والخشيف مصغر الخشف وهو الظبي اول ما يولد وقيل هو خشف أول سنة وكنى بأم الخشف عن الحسان كما قيل فى أم الرويم وبام السبيع عن نساء الروم إذ لا يلدن إلا عدوا مسلطا ومعنى هذا البيت كمعنى البيت قبله لكن أتى بالثانى فى معرض من البيان غير معرض الاول لحسن وقد قدمت أن ذلك مما يستحسن وقوله أخلى ذراها الله من الافه أى منزلها وأصل الذرى كل ما استترت به يقال أنا فى ذرا فلان أى فى كنفه وستره وقوله من بعد ما أنمى بها الله الذرا يريد الخلق والذرا والذرو والذرية الخلق وقيل الذرى والذرو عدد الذرية يريد أن الله أخلى تلك المنازل من سكانها بعد ان كان الله قد كثر فيها عددهم وقد جونس بين معهد وعهدته و بين الرويم والرويم و ينبغى هنا أن يكون الرويم الثانى مسهلا حتى يكمل التجنيس على طريقة الناظم وجونس أيضا بين ذرى والذرى وطو بق بين يراح و يغتدى وله فيما بين أم السبيع وأم الخشيف طباق معنوى وكذلك فى البيت الأخير

دَعَا الْغُرَابُ بِبَنِيهِ وَبَنِي ... جَلْوَى فَلَبَّتْهُ لِيَجْلُوا مَنْ جَلَا

كَأَنَّمَا لِحِيَاهُ شِقَّا قَلَمٍ ... فَآبِسِكِّينٍ شَفَاهُ مَنْ فَأَى

مَتَى يُبَايِنْ أَحَدُ الشِّقَّيْنِ مِنْ ... صَاحِبِهِ أَنْبَتَ بَيْنًا وَوَحَى

الغراب غراب البين والغراب وجلوى فرسان من كرام الخيل قال أبو عبيدة الغراب والوجيه ولاحق والمذهب ومكتوم كانت كلها لغنى قلت ولذلك قال طفيل الغنوى

بنات الوجيه والغراب ولاحق * وأعوج تنمى نسبة المتنسب

وكانت جلوى لبنى ثعلبة بن يربوع و يقال جلا القوم عن أوطانهم اذا خرجوا عنها وجلوتهم يتعدى ولا يتعدى وأجلوا وأجليتهم كذلك والمعنى أن غراب البين صاح فى هذه المعاهد فأجابته عتاق الخيل التى أوجف عليها للفتنة فخلت عنها أهلها وكان حد الكلام أن يقول دعا الغراب بنى الغراب و بنى جلوى فيكون الغراب الأول غراب البين و يكون الغراب الثانى الفرس نسب الخيل اليه والى جلوى لعتقهما كما يقال نسل الوجيه وآل لاحق لكن وضع الضمير موضع الغراب الذى هو اسم الفرس وأعاده على الغراب الذى هو اسم الطائر مكتفيا فى ذلك بمجرد اللفظ إذ لا جامع بينهما فى المعنى ونظيره قول أبى عبادة البحترى

فسقى الغضا والساكنيه وان هم * شبوه بين جوانح وقلوب

كان وجه الكلام أن يقول فسقى الغضا والنازليه وان هم شبوا الغضا بين جوانح وقلوب فيكون الغضا الأول براد به الموضع ويكون الغضا الثاني يراد به الجمر فوضع الضمير موضع الثاني وأعاده على الأول واكتفى بمجرد اللفظ وقد ذكر بعض المتأخرين ممن ألف في الفن الملقب بالبديع هذا النوع ولقبه بالاستخدام وأنشد عليه بيت البحتري وذكر أن لفظة الغضا استخدمت في المعنيين معا والذي أقول في بيت البحتري وبيت الناظم أنهما اعادا الضمير على مجرد اللفظ من غير اعتبار معناه كأنه قال شبوا الجمر الذي يسمى بهذا اللفظ ودعا بني الحيوان الذي يدعى بهذا الاسم وقد وصف أبو صفوان الأسدي الفرس في مقصورته الشهيرة فقال

* وفيه من الطير خمس فمن * رأى فرسا مثله يقتنى
غرابان فوق قطاة له * ونسر ويعسو به قد بدا

الغرابان رأس الوركين فوق الذنب حيث يلتقي رأس الورك الأيمن والأيسر والقطاة مقعد الردف والنسور كالنوى والحصى الصغار وتكون في الحافر مما يلي الأرض واليعسوب الغرة التي تكون على قصبة الأنف فوق الزثم فلولا انه انما أراد مجرد اللفظ لم يسغ له أن يقول وفيه من الطير اذ ليس في الفرس من جنس الطير شئ وانما هي أسماء ومثله قول الشاعر

بل ذات أكرومة تكنفها الأ * حجار مشهورة مواسمها

أراد بالأحجار صخرا وجندلا وجرولا بني نهشل فسماهم بالأحجار من حيث كانوا مسمين بأسمائها فاعتبر مجرد اللفظ وأشد من هذا قول أبي العلاء المعري ووصف السيف

طريقة موت قيد العير وسطها * لينعم فيها بين مرعى ومشرع

العير هو الناتئ في وسط السيف وما كان نحوه من الرماح والسهام لكن لما كان موافقا للعير الذي هو الحمار في اسمه جعل له مرعى ومشرعا وقيدا وانما اعتبر مجرد اللفظ لكن بالغ حتى أجرى المشترك مجرى المتواطئ ويجرى في بيت البحتري وجه ثالث سهل وهو أن الموضع انما سمي بالغضا لكثرة شجر الغضا فيه والجمر انما سمي غضا لأنه أقوى ما يكون النار في شجر الغضا وقد قال امرؤ القيس

* أصاب غضا جزلا وكف باجذل *

فاذا حمل قوله فسقى الغضا على حذف المضاف أي وادي الغضا وكذلك قوله وان هم شبوا الغضا فيكون المراد شبوا جمره لم يبق أشكال وقوله كأنما الحياه شقاقم البيت لحياه جانبا منقاره سميا بذلك تشبيها له بلحيي الانسان والدابة وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان والضمير عائد على غراب البين وفا آي شق وقد تقدم شبه منقاره بشق قلم مشقوق الطرف في شكله وفي سواد الحبر فيه وينظر الى قول عدي بن الرقاع في صفة قرن الظبي

يزجي أغر كأن ابرة روقه * قلم أصاب من الدواة مدادها

وقال عنترة

ظعن الذين فراقهم أتوقع * وجرى ببينهم الغراب الابقع
خرق الجناح كأن لحيي رأسه * جلمان بالأخبار هش مولع

وهو الذي نبه الناظم على تشبيهه بالقلم وقوله أثبت بيننا وحا البين الفراق ووحى وأوحى أي كتب قال الشاعر

* لقدر كان وحاه الواحي *

لما شبه لحيي الغراب بالقلم كمل التشبيه فجعله اذا فتح فاه لينعب فبان شقاقه أحدهما من الآخر بمنزلة القلم اذا فتح الكاتب شقيه ليسهل له الكتب ثم جعل حدة مبالفراق هو نفس الكتب الذي يكتب وانما يريد أنه اذا صاح فأنفر ثبت ما أنفر به كما يثبت ما يكتبه الكاتب

فأنشأت أيدي الحادفي فوقها غيما كثيفا غير شفاف الغما
قد طبق الآفاق من أندلس ودار في أرجائها دور الرحي
فأشرق الشرق بما أشجى الملا وما أغص كل جو وملا
فصير البيضاء برق بيضها وزرقها تشكو الخلاء والجلا

الشفاف من الستور والثياب وغيرها هو الرقيق الذى يرى ما وراءه من رقته والغمى بالغين المعجمة دوام الغيم يقولون أغمى اليوم ومنه قولهم أغميت ليلتنا اذا غم هلالها وفى السماء غمى وغما وطبق الآفاق أى عمها يقال طبق الغيم تطبيقا اذا أصاب بمطره جميع الأرض وسحابة مطبقة ومطر طبق أى عام قال الشاعر

ديمة هطلاء فيها وطف * طبق الارض تحرى وتدر

ورحى السحاب مستدارها وهو المراد هنا وقد يريد به الرحى المعروفة والعرب تذكر الرحى وتكنى بها عن الحرب كما قال الشاعر كأنا غدوة وبنى أبينا * بجنب عنيزة رحيا مدير

وانما ذكر الغيم الكثيف ووصفه بأنه طبق الآفاق مطره على جهة التمثيل وأراد الفتنة التى أثارتها تلك الخيل التى تقدم ذكرها اذلم تدع موضعا الا أصابته حتى آلت بأهله الى الجلاء وفغر العدو فاه عليه بعد ذلك بسببها وتمثيله الفتنة بالغيم وتطبيق مطره مأخوذ من قوله عليه السلام أنى أرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر وقوله فأشرق الشرق بما أشجى الملا الشرق بالماء كالغصص بالطعام وانما استعمله هنا على جهة التمثيل أيضا وأراد بالشرق البلاد الشرقية من جزيرة الأندلس جعل ما أصابها من القهر والفتن وغلبة اهل الكفر عليها بمنزلة الشرق وكان طائفة من رؤسائهم قد استبد كل واحد منهم بجهته واستعان بالنصارى على طالبه ومكنوهم من القصاب حتى آل الامر فيها وفيهم الى ما آل وقوله بما أشجى الملا يقال أشجاه الامر اذا أحزنه أو أغضبه أو قهره وغلبه والملا الأشراف والجماعة يريد ان ذلك آل أن قهر رؤساؤهم أشرافهم وغلب العدو عليهم أو الى أن أحزن جماعة أهل الاسلام واغضبهم والملا مهموز الا أنه سهله بالبدل لأجل الوزن واما الملا غير مهموز فهو الصحراء أو الفلاة وقد يكون هو المراد فى بيت الناظم ويكون أشجى بمعنى شغل والمعنى أن تلك الجيوش شغلت فضاء الأرض والفلوات وملأتها لكثرتها وقد قالوا فى تفسير قولهم ويل للشجى من الخلى أن الشجى المشغول والخلى الفارغ ويكون أصله من الشجى وهو العظم المعترض فى الحلق لأن العظم اذا اعترض فى الحلق فقد ملأه وشغله وقول الناظم وما أغص كل جو وملا يريد المعنى الثانى يقال غص المنزل بالقوم اذا امتلأ وأغصصته ملأته والجو هنا ما اتسع من الاودية قاله أبو عمرو فى قول طرفة

* خلالك الجو فبيضى واصفرى *

وقد تقدم وقوله فصير البيضاء برق بيضها ذكر ان البيضاء هى سرقسطة ولم أصل لتحقيق ذلك الآن وأراد بالبيض السيوف وبالزرق الأسنة لما مثل الفتنة بالغيم الكثيف الذى يطبق الآفاق أمطاره جعل له برقا من البيض والزرق فتمم المعنى الذى اراده ويقال ان يزيد بن المهلب حين خلع طاعة يزيد بن عبد الملك ونهد العباس بن الوليد لقتاله سلمت عليه جارية من جوار به بالخلافة فقال

مكانك حتى تنظرى عم تنجلى * غيابة هذا العارض المتألق

ودمرت تدمير سحب فتنة وبارق من مظلم البغى بغي

وَمَحَقَتْ قُرْطُبَةَ كَمِثْلِ مَا ... قَدْ مَحَقَ الْبَدْرَ السِّرَارُ وَمَحَا

وَصَارَ لِلْوَحْشَةِ كُلُّ مَنْزِلٍ ... قَدْ كَانَ لِلْأُنْسِ بِحِمْصَ يُعْتَرَى

وَاخْتَرَمَتْ وُسْطَى الثُّغُورِ وَثْبَةً ... مِنْ كُلِّ ضَارٍ طَالَمَا دَبَّ الضَّرَى

تدمير اسم للكورة التى بها مرسية وما يليها من المدن وسميت باسم ملكها تدمير بن عبدوس النصرانى ومدن هذه الكورة مذكورة فى كتاب صلحه حين صالح عليها المسلمين ونصه بعد سطر التسمية كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوس أنه نزل على الصلح وأن له عهد الله وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم أن لا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وانهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ولا يكرهون عن دينهم ولا تحرق كنائسهم .. ونصه وأدى الذى شرطنا عليه وانه صالح على سبع مدائن أوريولة وبنتيلة ومولة وبنيرة ولورقة وأنه لا يؤوى أحدا من لنا آبقا ولا عدوا ولا يخيف لنا آمنا ولا يكتم خبر عدو علمه وان عليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة وأربعة أمداد قمحا وأربعة أمداد شعيرا وأربعة أقساط طلاء وأربعة أقساط خلا وقسطى عسل وقسطى زيت وعلى العبد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن أبى عبدة القرشى وحبيب بن أبى عبدة القرشى وأبو القاسم الهذلى وعبد الله بن ميسرة التميمى وكتب فى رجب سنة اربع وتسعين من الهجرة وبنى مرسية الامير عبد الرحمن بن الحكم وقول الناظم وبارق من مطلع البغى بغى البغى التعدى وبغى اشتد مطره يقال بغت السماء اذا اشتد مطرها وقوله ومحقت قرطبة البيت السرار خفاء القمر فى آخر الشهر يقال استسر القمر اذا خفى وسرر الشهر وسراره آخر ليلة منه يريد ان الفتنة استولت عليها بعد ان كانت أحفل البلاد وأعظم القواعد حتى افنتها واستولى العدو عليها كما يكون البدر كاملا ثم يمحقه السرار وقوله وصار للوحشة كل منزل البيت حمص هى اشبيلية سميت بحمص مدينة بالشام مشهورة وانما سميت بها لأن جند حمص حين دخل الشاميون نزلوها فسميت بهم وذكر الرشاطى أن اشبيلية سميت باشبان بن طيطش من نسل طومال كان أحد أملاك الأشبانيين خص بملك أكثر الدنيا وكان بدء ظهوره من اشبيلية فغلظ مره وبعد اسمه وتمكن فى كل ناحية سلطانه فلما ملك نواحى الأندلس وطاعت له أقاصيها خرج فى السفن من اشبيلية الى إيلياء فغنمها وهدمها وقتل مائة الف من اليهود واستبى مائة الف وانتقل رخامها الى أشبيلية وماردة وباجة وهو صاحب المائدة وصاحب الحجر الذى الفى بماردة وصاحب قليلة الجوهر التى كانت بماردة وأشبان من ولد يافث ويعترى يغشى يقال فلان يعروه الاضياف وتعتريه أى تغشاه يريد الناظم أن أشبيلية كانت بالأندلس فآلت حين ملكها الأعداء الى الوحشة وقوله واخترمت وسطى الثغور وثبة يقال اخترم بنى فلان الدهر وتخرمهم أى اقتطعهم واستأصلهم ومنه قول أبى ذؤيب

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم ... فتخرموا ولكل جنب مصرع

والضارى من أوصاف الكلاب وهو المعود الصيد وأضراه صاحبه أى عوده وأضراه أغراه والضرى بالفتح الشجر الملتف فى الوادى يقال فلان يمشى الضرى اذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر ويقال للرجل إذا ختل صاحبه هو يدب له الضرى ويمشى له الخمر وقال الشاعر

عطفنا لهم عطف الضروس من الملا ... بشهباء لا يمشى الضراء رقيبها

وانما أشار الى احتيال كلاب الروم حتى وثبوا عليها بالختل والخداع

طُوفَانُ هَيْجَاءٍ أَطَافَ هَيْجُهُ ... بِهَا فَلَمْ يَدَعْ عُرًى إِلَّا عَرَا

(١) بياض بالاصل قدر أربع كلمات

وَفِتْنَةٌ عَمْيَاءُ سَالَ سَيْلُهَا   فَفَضَّ شَمْلَ الْمُسْلِمِينَ وَعَمي

فَمِنْ رَدٍ طَاحَ جُفَاءً فَوْقَهُ   وَمُفْلِتٍ بِهِ الْمِهَادُ قَدْ جفا

فَكَمْ صَدَيٍ فِيهَا وَهَامٍ مُجْتَلي   يشكُو الصَّدَى ما بين هَامٍ مُخْتَلي

وتَسْأَلُ الأسْيافَ فِيهَا رِيُّهَا   هَامٌ جَوَاثٍ فَوْقَ هَامٍ فِى جُثَا

الطوفان المطر الغالب والماء الغالب يغشى كل شئ ومنه قوله تعالى فأخذهم الطوفان وهم ظالمون والهيج ثورة الشئ يقال هاج الشئ يهيج هيجا وهيجانا واهتاج وتهيج اذا ثار وهاج هائجه أى ثار غضبه والعرى بالقصر الفناء والساحة وكذلك العراة ويقال أطاف بالموضع ألم به وعراه قصده وغشيه يقول إن هذه الحرب غشى طوفانها هذه البلاد فلم يدع فناء ولا ساحة الا ألم به وطرقه وقوله وفتنة عمياء سال سيلها الفتنة العمياء التى تعم جميع الناس ولا تبالى بما أصابت ومنه قيل الاعميان للسيل والجمل الهائج وانما وصفت بذلك هذه الأشياء تشبيها بالاعمى الذى اذا مشى لا يتوقى مايجب توقيه لعدم الابصار ويقال عمى السيل عميا اذا سال وعمى الموج عميا اذا رمى بالقذى ودفعه وقوله فمن ردٍ طاح جفاء فوقه الردى الهالك يقال ردى بالكسر يردى ردى اذا هلك وطاح يطيح ويطوح اذا هلك والجفاء ما نفاه السيل ورمى قال تعالى فأما الزبد فيذهب جفاء والمهاد الفراش وجفا نبا يقال ان هذه الفتنة فرقت بين المسلمين فنهم من هلك فيها ومنهم من أفلت والفراش ينبو به لهمه بما أصابه من الجلاء عن مواطنه والخروج عن دياره وفقد من فقد من أهله وقوله فكم صدى فيها وهام مختلى البيت الصدى كانت العرب تزعم أنه يصيح فى هامة المقتول اذا لم يثأر به أسقونى أسقونى وكذلك الهام قال الشاعر

يا عمرو الا تدع شتمى ومنقصتى * أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

ومجتلى منظور اليه من قولك اجتليت الشئ اذا نظرت اليه وقوله يشكو الصدى أى يقول اسقونى والهام المختلى يريد الرءوس التى قطعت يقال اختليت الهام اذا قطعتها وأصله من قولك اختليت الخلا اذا جززته وقول الشاعر

* تخلى الجماجم والأكف سيوفنا *

من ذلك وانما أتى الناظم بهذا كناية عن أن قتلى المسلمين لم يثأر بهم وجريا على عادة العرب فى ذلك لا أنه يعتقد صحة الهام فان الهام من أكاذيب الجاهلية وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلان ذلك فقال لا هام ولا صفر وقد قدمنا الكلام فى هذا وقوله هام جوات فوق هام فى جثا الجواثى جمع جاثية يقال جثا يجثو جثوا وجثيا وجثوا اذا جلس على ركبتيه والجثا جمع جثوة وهى القبر ومعنى هذا البيت هو معنى البيت الذى قبله من غير زيادة أو نقص يعتبر ولعل الناظم أثبت أحدهما على أنه بدل من الآخر فيكون الناسخ غلط فى نقلهما معا وقد جونس فى هذه الابيات بين هيجاء وهيج و بين عرى وعرى و بين عمياء وعمى و بين جفاء وجفا و بين صدا وصدا وهام وهام ومجتلى ومختلى و بين جوات وجثا

أضحت لسانُ الحال تُملى شَجْوَها   فِى كلِّ حَفْلٍ وَعَلى كلِّ مَلاَ

فَقَدْ بكَتْ أنْهارُهَا بِمَدْمعٍ   هامٍ مِنَ الوجْدِ لِمَا بِهَا ارْتَوى

فالنهرُ الأبيض يُبْكي شَجْوَهُ   بكلِّ دَمعٍ مُسْتَفِيضٍ مَارَقي

وَقَدْ بَكَى النَّهْرُ الكَبِيرُ صِنْوُهُ ... إِذْ لَمْ يُطِقْ يُرْوِى صَدَى هَامٍ زَقَا

وَكَادَ شُقْرٌ أَنْ يَغِيضَ عِنْدَ مَا ... غِيظَا بِعَيْثِ الشُّقْرِ فِى كُلِّ عَرَا

وَأَنَّ وَادِى أَنَّةٍ فِى غَرْبِهِ ... وَغَرْبُهُ مَلْآنُ مِنْ دَمْعٍ جَرَى

وَوَادِيَا الثَّغْرِ المُنِيفِ تَاجُهُ ... وَإِبْرُهُ كِلَاهُمَا قَدِ اشْتَكَى

وَقَدْ شَكَا الثَّغْرُ صَدَاهُ وَلَهَا ... وَالمَاءُ مِنْهُ بَيْنَ ثَغْرٍ وَلَهَا

قوله أضحت لسان الحال تملى شجوها يقال أمليت الكتاب وأمللته والشجو الهم والحزن والحفل الجمع من الناس وهو فى الأصل مصدر والملأ هنا الجماعة وهو مهموز لكن أبدل الهمزة ألفا لأجل الروى وقد قدمنا الكلام على مثله والضمير من شجوها يعود على البلاد وقد يعود على اللسان وقوله بدمع هام أى سائل من همى يهمى وقوله لهام ما ارتوى يريد الهام الذى كانت الجاهلية تتحدث أنه يقول اسقونى حتى يثأر بالقتيل وقد تقدم وقوله فالنهر الابيض يريد واديا هنالك وقوله مارقأ أى سكن يقال رقأ الدمع يرقأ رقأ ورقوأ وكذلك الدم وأرقأه الله وفى الحديث لاتسبوا الابل فان منها رقوء الدم يريد أنها تعطى فى الديات فتحقن بها الدماء وأبدل همزة رقأ الفا حسبما قدمناه تخيل ما يجرى من ماء هذه الانهار دموعا تبكى بها للمصاب الذى طرق البلاد وأهلها إذ كان ماؤه ليس من شأنه أن يروى الهام الذى يقول اسقونى وانما تروى الهام السيوف التى تأخذ بالثأر على زعمهم وقوله وقد بكى النهر الكبير صنوه أى أخوه والضمير عائد على النهر الابيض ويقال زقا الطير بالزاى أى صاح ومنه قول الشاعر

ولو أن ليلى الاخيلية سلمت * على وحولى تربة وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا * اليها صدى من جانب القبر صائح

وقوله وكاد شقر أن يغيض البيت شقر واد هنالك وبه سميت جزيرة شقر والشقر الروم والعرا الساحة والفناء ويقال غاض الماء يغيض غيضا اذا قل ونضب وغاضه الله يتعدى ولا يتعدى وأتى الناظم بأن بعد كاد على حد قول الشاعر

* قد كاد من طول البلى أن يمصحا *

والفصيح كاد يغيض قال الله تعالى يكاد زيتها يضىء وقال عز وجل لم يكد يراها يقول كاد ماؤه يغيض أسفا وغيظا لما شاهد من افساد الروم فى كل ناحية ثم قال وأن وادى أنة فى غربه أن من الانين والغرب مقابل الشرق وقوله وغربه ملآن من دمع جرى الغرب هنا واحد الغروب وهى مجارى الدمع جعل ما يسمع من صوت الماء أنينا وانصباب الماء بكاء وقد قال ابن المغربى فى الشذور وهو الذى نبه الناظم على هذا المعنى

فما جدول ينساب من رأس شاهق * كما انساب أيم فى صفيح حدوره
تكسر فوق الصخر بالجرى جسمه * فدل على آلامه بخريره
بأسرع منه جرية غير أننا * نصيره بالعقد مثل صخوره

أردت البيت الثانى وقوله وواديا الثغر المنيف البيت هذان واديان هنالك ثم قال وقد شكى الثغر صداه ولها أراد بالثغر ما يلى بلاد الحرب وكل موضع مخافة من فروج البلدان يسمى ثغرا والصدى العطش والوله ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد وقوله والماء منه بين ثغر ولها الثغر واللها من الفم معروفان ومراده أن الثغر لا يشفى غليله

ولا يروى سداه الاقتل الاعداء الذين عاثوا فيه فهو ابدا يشكو الصدى وان كانت الانهار حوله تفهق بالمياه ويمكن أن يكون قوله والماء منه بين ثغر ولها ريد به التعريض لممدوحه والتنبيه على نصرته كأنه يقول ونصرته ممكنة وأنت قادر على ذلك وغزو الاعداء فيه غير متعذر عليك فذلك بمنزلة الماء اذا كان فى لهوات الصادى ولم يتمكن بمدمن أن يسقى به ويكون من باب التمثيل وهذا الثانى أليق بقصده ويدل عليه قوله بعد ذلك ولو سما خليفة الله لها ويشبه قوله والماء منه بين ثغر ولها قول صفوان بن ادريس وقد أنشدناه قبل

وابى عفافى أن يقبل ثغره * والقلب مطوى على جمراته

فاعجب لملتهب الجوانح غلة * يشكو الظمى والماء فى لهواته

وقد جونس فى هذه الابيات بين تملى وملا وبين هام وهام وبين رقاو زقا وبين يغيض وغيظ وبين شقر والشقر وبين غر به وغر به وآن وانو وبين لفظة لها ولفظة ولها وهو من تجنيس التركيب

وَكَمْ بِهاَ مِنْ سِلْكِ نَهْرٍ قَدْحَوَى ... كُرْسِيَّ مُلْكٍ سِمْطُهُ فِيماَ حَوَى

قَدْ نَدَبَتْ أَمْصاَرُهُ أَنْصاَرَهُ ... إِذْ لاَ أَذاَةَ مِنْ عَدُوٍّ تُشْتَكَي

فَياَلَهاَ مِنْ دُرَرٍ تُخُرِمَتْ ... بِالْغُرِّ مِنْ دُرِّ السُّلُوكِ تُفْتَدَى

أَضْحَتْ عَلَى أَيْدِي الْعِدَا مَنْثُورَةً ... وَأَرْخَصَ الأَشْرَاكُ مِنْهاَ ماَغَلاَ

وَاحْتُوِيَتْ ذَخاَئِرُ الدِّينُ الَّتي ... قَدْ طاَلَ ماَ أَعْيَى الْعِدَا أَنْ تُحْتَوَى

قوله وكم بها من سلك نهر البيت السلك الخيط الذى تنتظم فيه درر العقد شبه النهر وقد امتد مستطيلا بالسلك وشبه ما اكتنف جانبيه من المصانع والبلاد والابنية والحصون والجنات المتصل بعضها ببعض بالدرر المنتظمة بالسلك وسمى كل ما بينهما من قصبة أو قصر للامارة كرسيا لاحتوائه على سرير الملك ومجلس الامر والنهى يقال اتخذ الامير موضع كذا كرسى ملكه والسمط العقد وانما خص لفظة الكرسى بالذكر هنا قصدا الى التورية التى حصلت له بذلك اذ كان العرف ان الشكل المصنوع من الذهب المفصول بين درر العقود يسمى كرسيا وقوله اذ لا اذاة من عدو تشتكى علق إذ بأنصاره يريد أن زمان نصرهم إياه لم يكن العدو تشتكى أذاته إذ كان مقهورا بهم وكان الدين محميا بحمايتهم ثم قال فيالها من درر تخرمت أراد بالدرر ما قدمناه من المصانع المنتظمة حول تلك الانهار التى استأصلتها الفتنة والاعداء حتى لم يبق بها عين ولا أثر وقوله بالغر من درر السلوك لم يرد درر السلوك حقيقة إذ لا قدر لدرر السلوك بالنظر الى ما ذكر من الامصار والاقطار وانما أراد أنها يبذل فيها أنفس الاشياء وأعظمها خطرا وذكر درر السلوك لانها تستعمل كثيرا عبارة عن الاشياء النفيسة وقوله أضحت على أيدى العدا منثورة بين المعنى وكذلك البيت بعده وانما يريد ما ذكرناه مما صار اليه حال تلك المواضع وتلفها على أيدى الروم

وَلَوْ سَماَ خَلِيفَةُ اللهِ لَهاَ ... لاَفْتَكَّهاَ بِالسَّيْفِ مِنْهُمْ وَافْتَدَى

فَفِي ضَماَنِ سَعْدِهِ مِنْ فَتْحِهاَ ... دَيْنٌ بِأَطْرَافِ الْعَوَالِي يُقْتَضَى

فَقَدْ أَشاَدَتْ أَلْسُنُ الْحاَلِ بِهِ ... حَيَّ عَلَى اسْتِفْتاَحِهاَ حَيَّ عَلَى

أنأى العدا ما كان مرؤبا بها   وهو الذي يرجى به رأب الثأى

يشبه قوله ولو سما خليفة الله لها البيت قول أبي الطيب وقد أسر أبو وائل تغلب ابن داود أسره الخارجي الذي نجم في كلب وأتباعه وكان قد ضمن لهم في فداء نفسه منهم مالا وخيلا فأقاموا على انتظاره واستنجد سيف الدولة سرا فأتاهم وهم لا يشعرون فأبادهم وقتل الخارجي فقال أبو الطيب وهو من بديع الخروج من المدح الى الغزل

ولو كنت في أسر غير الهوى * ضمنت ضمان أبي وائل
فدى نفسه بضمان النضار * وأعطى صدور القنا الذابل
ومناهم الخيل مجنوبة * فجاءت بكل فتى باسل

وقال أيضا في ذلك

فصبحتهم رعالها شزبا * بين ثباة الى عباديد
تحمل أغمادها الفداء لهم * ماتنقدوا الضرب كالأخاديد

وأما قوله في ضمان سعده من قصها البيت فيشبه قول أبي فراس

ولي عند العداة بكل أرض * ديون في كفالات الرماح

و ينظر الى هذا ماذكر من أن الواثق غنى بقول الشاعر

من الناس انسانان ديني عليهما * مليان لو شاءا لقد قضياني
خليلي أما أم عمرو فمنهما * وأما عن الأخرى فلا تسلاني

وهما لرجل من قيس اسمه كعب و يقال له المخبل من قصيدة فدعا الواثق خادما كان لأبيه المعتصم ثم قال له اصدقني والاضربت عنقك قال سل ياأمير المؤمنين عماشئت قال سمعت أبي وقد نظر اليك يتمثل بهذين البيتين و يومئ اليك ايماء تعرفه فن اللذان عنى قال كان يريد الايقاع بأحمد بن الخصيب وسليمان بن وهب فكان كلما رآني يتمثل بهذين البيتين قال له الواثق صدقت والله أماوالله لاسبقاني بها كما سبقاه ثم أوقع بهما وكان قد وقف على اقطاعهما الفي الف دينار و يقال ان الواثق نظر الى احمد بن الخصيب يمشي فتمثل بالبيتين وأشار بقوله خليلي أما أم عمرو فمنهما اليه فلما بلغ هذا سليمان بن وهب قال انا لله أحمد بن الخصيب والله أم عمرو وأنا الأخرى فنكبهما بعد أيام وقوله فقد أشادت ألسن الحال بها الاشادة رفع الصوت بالشيء وقوله حي على استفتاحها أي أقبل على استفتاحها وهو المعنى في حي على الصلاة وحي اسم فعل وقوله أنأى العدا ما كان مرؤبا بها البيت يقال ثئي الخرز يثأى اذا انخرم وأثأيته اذا خرمته والثأى الخرم والفتق قال جرير

هو الوافد الميمون والراتق الثأى * اذا النعل يوما بالعشيرة زلت

والرأب الاصلاح والشعب تقول رأبت الأناء اذا شعبته وأصلحته ومنه قولهم اللهم ارأب بينهم أي أصلح وقال كعب بن زهير

طعنا طعنة حمراء فيهم * حرام رأبها حتى الممات

ومراد الناظم أن الاعادي أفسدوا منها ما كان صالحا وبهذا الخليفة يرتجى اصلاح ما افسدوا لما يؤمل من غزوه اياهم والانتصاف للدين منهم وقد طابق بين صدر البيت وعجزه

يزجي اليها كل ريح زعزع   عارية عاصفة بمن عتا
تجلو طخارير العدا عن أفقها   وتطحر الأقذاء عنها والطخا

تُبْكِي الأَعادِي بَعْدَ طُولِ ضِحْكِها ... وَتَضْحَكُ الأَضْبُعُ مِنْ بَعْدِ الضُّهى

كَتَائِبٌ قَدْ ظَلَّلَتْ رَايَاتُها ... عَرَاعِرَ القَوْمِ وَأَشْجَارَ العُرَا

كَمْ لَيْثِ بَأْسٍ فَوْقَ طِرْفٍ قَدْ سَطَا ... فِيهَا وَطِرْفٍ تَحْتَ لَيْثٍ قَدْ سَطَا

قوله يزجي اليها كل ريح زعزع يقال ريح زعزع وزعزاع وزعزعان أى تزعزع الاشياء والزعزعة تحريك الشئ والريح العاتية الشديدة التى جاوزت حدها المعهود ويقال عصفت الريح اذا اشتدت وريح عاصف وعصوف وانما ألحق التاء هنا فقال عاصفة لأنه أراد الفعل والعلاج وعتا أى جاوز المقدار فى الكفر وانما مراد الناظم أنه يسوق اليها جيشا كثيفا تدمرهم كما تدمر الريح العاتية من أرسلت عليه وقوله تجلو طخار ير العداعن أفقها الطخار ير من السحاب قطع رقاق مستدقة واحدها طخرور وطخرورة ويقال بالحاء المهملة وبالخاء المعجمة وقوله وتطحر الأقذاء عنها والطخا يقال طحرت العين قذاها اذا رمت به وطحرت عين الماء العرمض قال زهير يطحر عنها القذاة حاجبها والطخاء بالمد السحاب المرتفع والطخا بالقصر وضم الطاء جمع طخية وهو مثل الطخرور أتى بالطخار ير والاقذاء على جهة التمثيل وانما مراده الاعداء يقول إنهم لا يثبتون لجيوشك كما لا تثبت قطع السحاب الرقيقة للريح العاتية وقوله تبكى الاعادى بعد طول ضحكها الضحك هنا هو الضحك المعروف أى تجعلهم يبكون لما ينزل بهم من النقمات وقوله وتضحك الأضبع من بعد الضهى الضحك هنا الحيض يقال ضحكت المرأة اذا حاضت وبه فسر بعضهم قوله تعالى فضحكت فبشرناها باسحق وكذلك يقال ضحكت الأرنب ويقال إن الضبع إذا أكلت لحوم الناس أوشربت دماءهم حاضت وقال الشاعر

وأضحكت الضباع سيوف سعد * لقتلى ما دفن ولا ودينا

وقاله ابن الاعرابى فى قول ابن أخت تابط شرا

تضحك الضبع لقتلى هذيل * وترى الذئب لها يستهل

وقد قدمنا الكلام فى هذا وذكرنا انكار ابن دريد له والضهى مصدر قولك ضهيت المرأة ضهى اذا كانت لا تحيض وهى ضهياء يريد أنه يقتلهم فتأكل الضباع من لحومهم حتى تحيض منهن من عادتها ألا تحيض وهو من باب الارداف وقوله عراعر القوم وأشجار العرا العراعر بفتح العين جمع عراعر بضم العين وهو السيد والعراجع عروة وهو كل شجر لا يزال باقيا فى الارض لا يذهب ويشبه به من الناس الذين يثبتون فى مواضعهم ويقيمون فيها قال الكميت

ما أنت من شجر العرا * عند الأمور ولا العراعر

يريد بشجر العرا المعتبرين من الناس المعول عليهم والعراعر السادات وقال مهلهل وتمثل به ابن الاشعث حين خلع طاعة عبد الملك

خلع الملوك وسار تحت لوائه * شجر العرا وعراعر الاقوام

يريد سار فى جيشه كبار الناس وساداتهم والى هذا البيت اشار الناظم وقال الآخر

لم أجد عروة الخلائق الا * الدين لما اعتبرت والحسبا

أى لم اجد ما يعول عليه فى الخلائق الا ذلك وقوله كم ليث بأس فوق طرف قد سطا الساطى من الخيل البعيد الخطو وقوله وطرف تحت ليث قد سطا السطو هنا القهر والبطش يقال سطا به اذا بطش به وجونس فى هذه الابيات بين عاتية وعتا وبين طخار ير والطخا وبين الضحك وتضحك وبين عراعر والعرا وبين سطا وسطا

ورصع فى البيت الاول بعاتية وعاصفة وطو بق فى الثالث بين تبكى وضحكها و بين يضحك والضحى وفى البيت الاخير بين فوق وتحت مع التورية التى فى البيت الثالث الحاصلة بذكر تضحك مع تقدم تبكى

لَوْ شَامَتِ الأَذْوَاءُ مِنْهَا بَرْقَةً ... لَآبَ ذُو الأَذْعَارِ مَذْعُورَ الْحَشَا

وَطَأْطَأَ الرَّأْسَ الْمَنَارُ الْمُعْتَلِي ... لِعِزِّ مُلْكٍ قَدْ تَسَامَى وَاعْتَلَى

وَأَصْبَحَ الرَّائِشُ غَيْرَ رَائِشٍ ... سَهْمًا وَلَا مُفَوِّقٍ لَمَّا بَرَا

وَذَلَّلَتْ ذَا يَزَنٍ بِمَا انْتَمَى ... إِلَيْهِ مِنْ سُمْرِ الرِّمَاحِ وَاعْتَزَى

وَأَبْدَلَتْ ذَا جَدَنٍ مِنْ نُورِهِ ... ثَاءً وَأَدَّتْهُ إِلَى وَشْكِ الرَّدَى

﴿ ذكر أذواء اليمن وتبابعتها ﴾

الاذواء كل من تسمى بذى كذا من تبابعة اليمن ومقاولها وهم من ولد يعرب بن قحطان كان يعرب بن قحطان سار الى اليمن فى ولده فاقام بها وهو اول من نطق بالعربية وأول من حياه ولده بتحية الملك أبيت اللعن وعم صباحا واليمن كلها من ولده وولد ليعرب يشجب بن يعرب وولد ليشجب سبا بن يشجب وكان الملك فى ولده و يقال انه سمى سبا لأنه أول من سبا السبى من ولد قحطان فاول الملوك من ولده حمير بن سبا ملك حتى مات هرما ولم يزل الملك فى ولد حمير لا يعدو ملكهم اليمن ولا يغزو أحد منهم حتى مضت قرون وصار الملك الى الحرث الرائش فكان الحرث الرائش أول من غزا منهم وأصاب الغنائم وأدخلها اليمن و بين الرائش و بين حمير خمسة عشر أبا فيما يقال وسمى الرائش لأنه أدخل اليمن الغنائم والاموال والسبى فراش الناس وفى عصره مات لقمان صاحب النسور وكان اقصى آثار الرائش فى غزوه الاول الهند ثم غزا بعد ذلك الترك باذربيجان وما يليها وقتل المقاتلة وسبى الذرية ثم أقبل وقد ذكر الرائش نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فى شعر له وذكر فيه من يملك منهم ومن غيرهم فقال

ويملك بعدهم رجل عظيم * نبى لا يرخص فى الحرام

يسمى أحمدا ياليت أنى * اعمر بعد مخرجه بعام

وكان ملكه مائة سنة وخمسا وعشرين سنة ثم ملك بعده ابنه ابراهيم بن الرائش وكان يقال له ذو المنار لأنه اول من ضرب المنار على طريقه فى مغازيه ليهتدى به اذا رجع وكان ملكه مائة وثلاثين سنة ثم ملك بعده افريقش بن ابرهة فغزا نحو المغرب فى ارض بربر حتى انتهى الى طنجة ونفى البربر من ارض فلسطين ومصر والساحل الى مساكنهم اليوم وكانت البربر بقية من قتلى يوشع بن نون وإفريقش هو الذى بنى افريقية وباسمه سميت وكان ملكه مائة واربعا وستين سنة ثم ملك بعده أخوه وهو ذو الاذعار سمى بذلك لأنه كان غزا فسبى قوما منكرى الوجوه تزعم اليمن انهم النسناس و يقال ان وجوههم كانت فى صدورهم فذعر الناس منه فسمى ذا الاذعار وكان هذا فى حياة أبيه فلما ملك أصابه الفالج فذهب شقه فقل غزوه وكان ملكه خمسا وعشرين سنة ثم ملك بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش وهو أبو بلقيس فيما يزعمون وقد قيل غير ذلك ثم ملكت بلقيس وكان من أمرها مع سليمان عليه السلام ما ذكره الله تعالى فى كتابه حسبما تقدم لنا ذكره وملك سليمان عليه السلام ثلاثا وعشرين سنة وقيل أربعين سنة وقيل غير ذلك ثم ماتت بلقيس بعده بعدة يسيرة ثم عاد الملك الى حمير ولم يزل فيهم الى ان كان من

أمر ذى نواس مع الحبشة ماقلناه قبـل قلت وقـد اتينا فيمن ذكرناهنا على ذكر ذى الاذعار وذى المنار والرائش ممن سمى الناظم فى هذه الابيات وأماذوجدن فقال أبو الفرج الاصبهانى هو ملك من ملوك حمير وهو علس بن زيد بن الحرث ثم رفع نسبه الى حمير وقال لقب ذاجدن لحسن صوته والجدن الصوت بلغتهم ويقال انه أول من تغنى باليمن وروى عن رجـل من أهل صنعاء أنهم حفروا حفيرا فى زمن مروان فوقفوا على أزج له باب فاذاهم برجل على سرير كأعظم ما يكون من الرجال عليه خاتم من ذهب وعصابة من ذهب وعند رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه أنا علس ذوجدن القيل لخليلى منى النيل ولعدوى منى الويل طلبت فأدركت وأنا ابن مائة سـنة من عمرى وكانت الوحش تأذن لصوتى وهذاسيفى ذوالـكف عندى ودرعى ذات الفروج ورمحى المزبرى وقوسى الفجواء وقرنى ذات الشرفيها ثلاثمائة حشر من صنعة ذى نمر أعددت ذلك لدفع الموت فخاننى قال فنظرنا فاذا جميع ذلك عنده قال أبو الفرج وجدت هـذا الخبر عن ابن الـكلبى فى بعض الـكتب فوجدت فيه فاذا طول السيف اثناعشر شبرا وعليه مكتوب تحت شاربه بالمسند باست امرئ كنت فى يده فلم ينتصر وزعم أبو الفرج أن من شعر ذى جدن

مابال أهلك يارباب * خزرا كأنهم غضاب
ان زرت أهلك أوعدوا * وتهر دونهـم كلاب

وأما ذويزن فمن ملوكهم أومن أقيالهم واليه تنسب الرماح اليزنية يقال رمح يزنى وأزنى (١) فقول الناظم فى البيت الأول لآب ذو الاذعار مذعور الحشا يريد ان ذا الاذعار عـلى كثرة جيوشـه ومامدله فى الغزو لولاحت له رقعة من تلك الـكتائب لذعر منها والحشا ماضمت عليه الضلوع وأراد به هنا القلب وقوله وطأطأ الرأس المنار المعتلى يريد منار ذى المنار يقال طأطأ رأسه اذا طامنه وانما أتى بذلك على جهة التمثيل ومراده أن لو رآها لطامن من عزة وتضاءل خوفا منها ولما كان المنار علما من أعلام ملـكه به يشهر وبه يدعى جعل تطأطؤ رأسه مثلا لأخال صيته واستحالة عزه وقوله وأصبح الرائش غير رائش البيت انما ذكر فيه ريش السهم وبريه أيضا تمثيلا وقوله وذلت ذا يزن البيت يعنى انه لو أدرك هذه الـكتائب لتحكمت فيه وفى أتباعه الرماح التى شهرت باسمه ولم ترع فيه ذمام هذا الانتساب وقوله وأبدلت ذاجدن البيت أى كانت تصيره ذاجدث فيبدل من نونه ثاء والجدث القبر يقول ان ذا جدن على مامدله فى الملك وأعطى له من القوة وأعد من العدة حسبما تقـدم ذكره لو رأى هذه الجنود لسلبته هذا كله ولصيرته فى قعر جـدث وانما احتـذى الناظم فى البيت الاخير حذو أبى الطيب فى قوله

جرى الخلف الافيك أنك واحد * وانك ليث والملوك ذئاب
وانك ان قويست صحف قارىء * ذئابا فلم يخطئ وقال ذباب

ويشبه أيضا قول أبى تمام

هن الحمام فان كسرت عيافـة * من حائهن فانهن حمام

قَدْ أَصْبَحَتْ دَوْلَتُهُ تَخْتَالُ مِنْ اقْبَالِهِ فِي جِدَّةٍ لَا تَنْتَضِي
مَازَالَ يُعْلِي الْمُلْوَانَ نَصْرُهُ وَسَيْفُهُ يَخْتَطُّ مَا يُعْلِي الْمَلَا
خَطَّ النَّدَى فِي كَفِّهِ خَطًّا بِهِ ذِكْرُ سَمَاحِ حَاتِمٍ قَدِ امَّحَى

(١) فى نسخة ويزآنى وأزآنى

كَمْ أَضْنَتِ الأَنْضَاءَ فِي مَسْرَحِهِ ... بُدْنًا وَكَمْ آلَتْ بِهِ إِلَى أَلاَ

وَلَوْ عَدَتْهُ كَانَ يَشْكُو ظَاهِرٌ ... مِنْهَا الضَّوَى وَبَاطِنٌ يَشْكُو الصَّوَا

فَكَمْ سَرَى رَكْبٌ مُخِفٌّ نَحْوَهُ ... وَآبَ عَنْهُ مُثْقَلاً بِمَا سَرَى

قوله قد أصبحت دولته تختال من اقباله البيت يريد اقبال السعد ولا تنقضى لا تخلع أى أن سعده لا يزال جديدا مقبلا وقوله مازال على الملوان نصره الملوان الليل والنهار وعلى من أمليت الكتاب ومراده ماتبديه الايام من ظهوره وظفره بالاعداء واستيلائه عليهم وجعل سيفه هو الذى يخط ذلك الظاهر من تأثير سيوفه فى العدى وتشبيها الضربات بحروف الهجاء والملا واحد الملوين وانما أخذه من قول أبى العشائر الحمدانى

أأخا الفوارس لو رأيت مواقفى ... والخيل من تحت الفوارس تنحط

لقرأت منها ماتخط يد الوغى ... والبيض تشكل والاسنة تنقط

وان كان الناظم قد قصر عن أبى العشائر فى هذا المعنى تقصيرا بينا فلا ينكر أنه أخذ بطرف من الاحسان حيث ذكر مع الاختطاط الاملاء وجانس بين الملوين فلنعترف له بالاجادة فى هذا القدر وقوله خط الندى فى كفه نحا به منحى أبى الطيب فى قوله

كذا الفاطميون الندى فى أكفهم ... أعز امحاء من خطوط الرواجب

﴿ ذكر حاتم بن عبدالله الطائى ﴾

وحاتم الذى ذكره هو حاتم بن عبدالله بن سعد الطائى وكان الذين انتهى اليهم الجود فى الجاهلية ثلاثة حاتم هذا وهرم بن سنان المرى وكعب بن مامة الأيادى وقد تقدم ذكر كعب وأشهرهم حاتم وهو القائل لغلامه يسار وكان اذا كلب الجوع واشتد برد الشتاء أمر غلامه فأوقد نارا فى يفاع من الارض ينظر اليها من أضل الطريق ليلا فيصمد نحوها فقال فى ذلك يخاطب يسارا

أوقد فان الليل ليل قر ... والريح فيها برد وصر

عل يرى نارك من يمر ... ان جلبت ضيفا فأنت حر

وذكر عن حاتم أنه لم يكن يمسك شيئا الا فرسه وسلاحه فانه كان لا يجود بهما وذكر عن النوار امرأته أنها قالت أصابتنا سنة اقشعرت لها الارض واغبرت لها آفاق السماء وراحت الابل حربى وضنت المراضع عن أولادها فما تبض بقطرة فوالله انى لفى ليلة صنبر بعيدة ما بين الطرفين اذ تضاغت أصيبتنا جوعا عبدالله وعدى وسفانة فقام حاتم الى الصبيين وقمت الى الصبية فوالله ماسكتوا الا بعد هدأة من الليل وأقبل يعللنى بالحديث فعرفت ما يريد فتناومت فلما تغورت النجوم اذا شىء قد رفع كسر البيت فولى ثم عاد فى آخر الليل فقال من هذا فولى ثم عاد فى آخر الليل فقال من هذا قالت جارتك فلانة أتيتك من عند صبية يتعاوون عواء الذئب فما وجدت معولا الا عليك أبا عدى فقال أعجليهم فقد أشبعك الله واياهم فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنابها أربعة كأنها نعامة حولها رئالها فقام الى فرسه فوجأ لبته بمدية فخر ثم كشطه من جلده ودفع المدية الى المرأة وقال شأنك فاجتمعنا على اللحم نشوى ونأكل ثم جعل يأتيهم بيتا بيتا فيقول هبوا هبوا أيها القوم عليكم بالنار والتفع فى ثوبه ناحية ينظر

الينا ولا والله ان ذاق منه مزعة وانه لأحوج اليمنا فأصبحنا وماعلى الارض من الفرس الاعظم وحافرفأنشأ حاتم يقول

مهلا نوار أقلى اللوم والعذلا * ولا تقولى لشئ فات مافعلا
ولا تقولى لمال كنت مهلكه * مهلاوان كنت أعطى الجن والخبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة * ان الجواد يرى فى ماله سبلا

وقد كان أوس بن حارثة بن لام الطائى وهوابن سعدى سيدامقدما فوفدهو وحاتم على عمرو بن هند فدعاعمرو أوسافقال له أنت أفضل أم حاتم فقال له أبيت اللعن لوملكنى حاتم و ولدى ولحتى لوهبنافى غداة واحدة ثم دعاحاتما فقال له أأنت أفضل أم أوس فقال أبيت اللعن انماذكرت بأوس ولأحد ولده أفضل منى وقول الناظم كم آضت الأنضاء فى مسرحه الأنضاء جمع نضو وهو المهزول وقد أنضى فلان بعيره أى هزله والبدن جمع بادن وهو الجسيم السمين والأنثى بادنة وآلت صارت وعادت والألى أراد به هنا السمن وأصله من قولك ألى يألى ألى فهو آلى اذا كان عظيم الألية ولاتقل فى المؤنث ألياء استغنوا عنه بعجزاء وهو لا يكون آلى حتى يفرط فى السمن والمراد أن المهازيل تعود فى مسرح نداه سمانا وهو تمثيل والمعنى أن الفقير يعود غنيا بجوده ثم قال ولو عدته كان يشكو ظاهرمنها الضوا البيت الضوا الهزال وقد ضوى يضوى ضوى والصوى اليبس يقال صوت النخلة وصويت فهى صاوية وكذلك غيرهامن الشجر وقال الشاعر يصف بقر وحش

قدأوتيت كل ماء فهى صاوية * متى تصب أفقامن بارق تشم

هكذا أنشده بعضهم بالصاد المهملة قلت يريد أن أجوافها يبست من عدم الماء واما الناظم فجاء بالضوى والصوى هنا تمثيلا كما تقدم يقول لولم يقصد العفاة جنابه لاشتكى الفقر ظاهرهم و باطنهم وقوله فكم سرى ركب مخف نحوه سرى هاهنا من السرى وأماقوله وآب عنه منقلا بماسرى فانه يقال سرى متاعه يسرى به اذا ألقاه على ظهر دابته يريد أن المطايا تسرى نحوه مخفة وترجع منقلة بما يحملها من رغائب نداه ومواهبه وانما أخذه من قول أبى العتاهية وقد كان امتدح عمرو بن العلاء مولى عمرو بن حريث صاحب المهدى فأمر له بسبعين ألف درهم وأمر من حضره من خدمه وغلمانه أن يخلعوا عليه فخلعوا حتى لم يقدر على القيام لما عليه من الثياب ثم أن جماعة من الشعراء كانوا بباب عمرو فقال بعضهم ياعجبا من الأمير يعطى أبا العتاهية سبعين ألف درهم فبلغ ذلك عمرا فقال على بهم فادخلوا عليه فقال ماأحسد بعضكم لبعض يامعشر الشعراء أن أحدكم يأتينا يريد مدحنا فيشبب بصديقته بخمسين بيتافما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره وقد أتانا أبو العتاهية فشبب بيتين ثم قال

أنى أمنت من الزمان وريبه * لماعلقت من الأمير حبالا
لويستطيع الناس من أجلاله * لحذواله حر الوجوه نعالا
ما كان هذا الجود حتى كنت يا * عمرا ولو يوما تزول لزالا
أن المطايا تشتكيك لأنها * قطعت اليك سباسبا ورمالا
فاذا أتين بنا أتين مخفة * واذا رجعن بنا رجعن ثقالا

أردت قوله فاذا أتين بنا أتين مخفة البيت وهذا المعنى مأخوذ من قول الشاعر يصف تجارا

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم * ويخرجن من دارين بجر الحقائب

وقد قيل أنه وصف لصوصا والأول أثبت وذلك أن دارين سوق من أسواق العرب يريد أنهم يسيرون الى تلك السوق وعيابهم فارغة فاذا وردوها ملؤا حقائبهم والبجر العظام يقال للرجل اذا انفلقت سرته فنتأت مقدمته

رجل أجر ويقال لها البجرة والبجرة ومن هذا المعنى قول نصيب وذلك أنه حضر هو والفرزدق عند سليمان ابن عبد الملك فقال سليمان للفرزدق أنشدني وانما أراد أن ينشده مدحا له فأنشده

وركب كأن الريح تطلب عندهم * لها ترة من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الريح وهي تلفهم * الى شعف الأكوار ذات الحقائب
اذا آنسوا نارا يقولون ليتها * وقد خصرت أيديهم نار غالب

فاعرض سليمان كالمغضب فقال نصيب يا أمير المؤمنين الا أنشدك في رويها ما لعله لا يتضع عنها قال هات فانشده

أقول لركب صادرين لقيتهم * قفوا ذات أوشال ومولاك قارب
قفوا خبروني عن سليمان إنني * لمعروفه من أهل ودان طالب
فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب
وقالوا تركناه وفي كل ليلة * يطيف به من طالبي العرف راكب

فقال سليمان للفرزدق كيف تراه قال أشعر أهل جلدته فقال سليمان ياغلام أعط نصيبا خمسمائة دينار وألحق الفرزدق بنار أبيه فخرج الفرزدق وهو يقول

وخير الشعر أشرفه رجالا * وشر الشعر ما قال العبيد

وقد قيل أن الذي قال في نصيب هو أشعر أهل جلدته هو أيمن بن خريم الأسدي بين يدي عبد العزيز بن مروان قلت وقول نصيب ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب مثل المعنى الذي ذهب اليه أبو العتاهية وقد جانس الناظم بين بلي والملا و بين آلت وآلى و بين الضوى والصوى و بين سرى وسرى وطابق بين خط وامتحى و بين مخف ومثقل وأتى بالبيت الخامس مسهما

وَكَمْ حَبَا النَّاسَ وَكَمْ أَسْدَى لَهُمْ * مِنْ نَائِلٍ وَكَمْ أَنَالَ مِنْ سَدَى
رَخَا بِهِ مَا اشْتَدَّ مِنْ عَيْشِهِمُ * وَاشْتَدَّ مِنْ عَيْشِ الْعُدَاةِ مَا رَخَا
إِذَا بَغَى الدَّهْرُ فَأَمْسَى جَارِحًا * آسَى نَدَاهُ كُلَّ جُرْحٍ قَدْ بَغَى
فَكَمْ شَفَى مِنْ أَنْفُسٍ مَكْلُومَةٍ * بِالدَّهْرِ قَدْ أَعْيَى الأَسَا فِيهَا الأُسَا
يَأْسُو بِآلاَفِ النُّضَارِ كَلْمَنَا * مَنْ يَحْسَبُ الْقِنْطَارَ مِنْهُ كَالْمَنَا

أسدى الى فلان المعروف اذا صنعه معه والسدى الجود واصله من السدى الذي يراد به ندى الليل فيستعار للجود قال الكميت * فانت الندى فيما ينوبك والسدى *

وقوله رخى به ما اشتد من عيشهم الرخا سعة العيش يقال رخو ورخى يرخو ورخى فهو راخ ورخى فهو رخى البال اذا كان في نعمة وقوله اذا بغى الدهر بغى هنا من البغي وهو التعدي والظلم وقوله آسى نداه كل جرح قد بغى بغى هنا من قولهم بغى الجرح اذا ورم وترامى الى فساد ويقال برئ جرحه على بغي اذا برئ وفيه شئ من نغل وآسى داوى وقوله فكم شفى من أنفس مكلومة أي مجروحة وقوله قد أعيي الأسا الأسا الأول الحزن والأسا الثاني المداواة والعلاج وكلاهما مقصور مفتوح الأول واما الاساء بالكسر والمد فهو الدواء وهو أيضا جمع

آس وهو الطبيب كراع ورعاء قال الحطيئة

* توا كلها الأطبة والأساء *

فان كان الأسا فى بيت الناظم مكسورة الهمزة فهو مقصور من الأساء الذى يراد به الدواء أو الأطباء والمعنى واحد يريد أن الأمر قد كان يعجز عن اصلاحه وقد يكون الأسا الثانى مقصورا مكسور الهمزة أو مضمومها فيكون جمع إسوة أو أسوة وهما ما يتعزى به و يطلق على الصبر فتأمله والأول أنسب لقوله مكلومة وقوله يأسو بآلاف النضار كلما الكلم الجرح والنضار الذهب والمنا كيل صغير و يقال إنه الرطل و يثنى على منوين ومنيين والاول أعلى والقنطار معيار و يروى عن معاذ بن جبل أنه قال هو الف ومائتا أوقية و يقال مائة وعشرون رطلا و يقال ملء مسك الثور ذهبا و يقال غير ذلك قال الله تعالى والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ومراده أنه يصلح ما أفسد الدهر من أحوال الناس بما يعطينا من آلاف الذهب الذى يحسب الكثير منه قليلا ولقد أبدع ابن الرومى فى قوله

عنى كلوم زمانى ثم قلمه * عنى فأحفاه ثم اقتص ماجرحا

وقد جانس فى البيت الاول بين أسدى من نائل وأنال من سدى وهو نوع من تجنيس القلب وطابق فى الثانى بين رخاما اشتدا واشتد مارخا وجانس فى الثالث بين بغى و بغى وفى الرابع بين الأسا والأسا وفى الخامس كلما وكالمنا وهو نوع من التجنيس المركب وقد تقدم ذكره

طاعتُه مِنْ طاعَةِ اللهِ فَمَنْ دَعَا إلَى هَذِى إلَى تِلْكَ دَعَا
وَطَاعَةُ اللهِ أجلُّ نِعْمَةٍ حَقِيقَةٌ لِذَاتِهَا أنْ تُبْتَغَى
لَيْسَ السَّعِيدُ غَيْرَ مَنْ أسْعَدَهُ إلاَهُهُ بِالْعَفْوِ عَنْهُ وَالرِّضَي
وَلاَ السَّخِيُّ غَيْرَ مَنْ بِذَاتِهِ قَدْ جَادَ فِى ذَاتِ الإلاَهِ وَسَخَا
مَنِ اشْتَرَى الْبَاقِىَ بِالْفَانِى يَفُزْ بِهِ وَيَحْمَدْ رَأْيَهُ فِيمَا اشْتَرَى

قوله طاعته من طاعة الله يشير الى قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم وقوله وطاعة الله أجل نعمة البيت مأخوذ من قول بعضهم ما عبدت الله طمعا فى جنته ولا خوفا من ناره وانما عبدته لأنه أهل أن يعبد والبيت الثالث بين المعنى وقد جف القلم بالشقى والسعيد وقوله ولا السخى غير من بذاته البيت ينظر الى قول الشاعر

يجود بالنفس أن ضن الجواد بها * والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقوله من اشترى الباقى بالفانى يفز البيت روى أن عمر بن العزيز رضى الله عنه خطب بخناصره خطبة لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس انكم لن تخلقوا عبثا ولم تتركوا اسدى وان لكم معادا يحكم الله فيه بينكم نخاب وخسر من خرج من رحمة الله التى وسعت كل شئ وحرم الجنة التى عرضها السموات والارض فاعلموا ان الامان غدا لمن خاف الله وباع قليلا بكثير وفانيا بباق ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين وستخلفها من بعدكم الباقون كذلك حتى ترد الى خير الوارثين ثم أنتم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا الى الله قد قضى نحبه و بلغ أجله ثم تغيبونه فى صدع من الارض غير موسد ولا ممهد قد خلع الاسباب وفارق الاحباب و واجه الحساب غنيا عما ترك فقيرا الى ما قدم مضى من الله كتاب ناطق و بينة عادلة دل فيها على

طاعته ونهى عن معصيته ثم بكى فتلقى دموع عينيه بطرف ردائه ثم نزل فلم يعلى تلك الاعواد حتى قبضه الله الى رحمته

يَا أَيُّهَا الانسَانُ إِنِّي نَاصِحٌ ... فَاستَمِعِ النُّصحَ وَكُنْ مِمَّنْ وَعى

لاَ تَغْتَرِرْ بِالعُمْرِ وَاعْلَمْ أَنَّ مَا ... لَمْ يَمْضِ مِنْ أَيَّامِهِ كَمَا مَضَى

وَكُلُّ مَالاَ بُدَّ مِنْ اتيَانِهِ ... وَكَوْنِهِ فَإِنَّهُ كَمَا أَتَى

لاَ بُدَّ أَن يَنْتَهِيَ الْمَرْءُ إِلَى ... مَا قَدَّرَ اللهُ عَلَيْهِ وَقَضَى

وَعِلْمُ مَا يَصِيرُ كُلُّ كَائِنٍ ... إِلَيْهِ شَيْءٌ عَنْ بَنِي الدُّنْيَا انطَوَى

لَمْ يَأْمُرِ النَّفْسَ بِرُشْدٍ غَيْرُ مَنْ ... نَهْنَهَهَا عَنِ الْهَوَى وَمَنْ نَهَى

قوله لاتغترر بالعمر البيت يشبه قول الحجاج ماأحب أن مامضى من الدنيا بعمامتى هذه ولما بقى منها أشبه بمامضى من الماء بالماء ومثله قول أبى الطيب

كثير حياة المرء مثل قليلها * يزول وباقى عمره مثل ذاهب

وقول ابن المعتز

لاتأسفن من الدنيا على أمل * فليس باقيه إلا مثل ماضيه

وقوله البحترى

والبواقى من الليالى وان خا * لفن شيئا شوابه بالمواضى

وقوله وكل مالا بد من أتيانه البيت يريد ان الذى لا بد من أتيانه لما كان محقق الوقوع فكأنه قد وقع ولذلك عبر فى التنزيل عن أمور الآخرة بلفظ الماضى كما قال تعالى أتى أمر الله فلا تستعجلوه وكقوله عز وجل وجاء ربك والملك صفا صفا وكل آت قريب وقال بعض السلف كأنك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل وبيت الناظم مأخوذ من عجز قول الشاعر

وكأن ماقد كان لم يك إذ مضى * وكأن ماهو كائن قد كانا

إلا أن الناظم قصر عن بيت الشاعر تقصيرا بينا لأن فى صدر بيت الشاعر زيادة حسنتها كمال المعنى مع ماتضمن من المطابقة والمقابلة ويتصور أن يكون المعنى فى البيت الثانى وهو قوله واعلم أن مالم يمض من أيامه كما مضى شبيها بمعنى البيت الذى بعده أى أن المستقبل منه كالماضى يريد كأنه قد ذهب عنك وانقطع وهو الذى يناسب قوله فى صدر البيت لاتغترر بالعمر وقوله لابد أن ينتهى المرء الى البيت من قوله عليه السلام اعملوا فكل ميسر لما خلق له وقوله وعلم مايصير كل كائن البيت من قوله تعالى عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الآية وقوله لم يأمر النفس برشد غير من نهنهها يقال نهنهت الرجل عن الشئ فتنهنه أى كففته وزجرته فكف ونهنهت السبع اذا صحت به لتكفه وقال الله تعالى وامامن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى

لاَ تَلْهَ فِي وُجُودِكَ الأَوَّلِ عَنْ ... وُجُودِكَ الثَّانِي وَنَهْنِهْ مَنْ لَهَى

فَالْمَرْءُ مَا بَيْنَ وُجُودَيْنِ وَمَنْ ... ظَنَّ الْوُجُودَ وَاحِداً فَقَدْ سَهَا

يقال لهيت عن الشيء بالكسر ألهى لهيا ولهيانا تركت ذكره وأعرضت عنه ولهوت بالشيء ألهو لهوا اذا لعبت به وقوله لاتله فى وجودك الأول يريد بالوجود الثانى بعد الموت والمعنى لاتغفل عن آخرتك وفى الحديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت وقال صلى الله عليه وسلم ليكن بلاغ احدكم من الدنيا زاد الراكب وقال عليه الصلاة والسلام يأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته وفى الحديث أيضا اصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم وقوله ونهنه من لها أى أزجر أهل اللهو وقد روى أن سفيان الثورى رأى الغاضرى يضحك الناس فقال له ياشيخ أما علمت أن لله يوما يخسر فيه المبطلون قالوا فلم يزل ذلك يعرف فى الغاضرى حتى لقى الله وقال الحسن بن أبى الحسن فى يوم فطر وقد رأى الناس وهيآتهم ان الله جعل رمضان مضمارا لخلقه يستبقون فيه بطاعته الى مرضاته فسبق أقوام ففازوا وتخلف آخرون فخابوا فالعجب من الضاحك اللاعب فى اليوم الذى يفوز به المحسنون ويخسر فيه المبطلون والله لو كشف الغطاء لشغل محسن باحسانه ومسيء باساءته عن ترجيل شعر وتجديد ثوب ومراد الناظم أن الانسان لاينبغى له ان يلهو فى العاجلة وهو لايدرى مايؤل اليه أمره فى الآجلة فقد كان معاذ بن جبل يقول ان المؤمن لايطمئن قلبه ولاتسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم وقوله فالمرء مابين وجودين كان عمر بن عبد العزيز يقول انما خلقتم للابد ولكنكم تنقلون من دار الى دار فنظمه المعرى فقال

خلق الناس للبقاء فضلت * أمة يحسبونهم للنفاد

انما ينقلون من دار أعما * ل الى دار شقوة أو رشاد

ومثله قول الشاعر

وما الموت الا رحلة غير أنه * من المنزل الفانى الى المنزل الباقى

وَكُلُّ نَفْسٍ ذَاتُ وَجْهَيْنِ بَدَا مَرْآهُمَا لِلعَيْنِ مِنْ حَيْثُ اخْتَفَى

فَوَجْهُهَا الأَعْلَى لَهُ تَأَثُّرٌ لِمَا عَلَيْهِ فَاضَ مِنْ نُورِ النُّهَى

وَوَجْهُهَا الأَدْنَى لَهُ تَأَثُّرٌ لِمَا عَلَيْهِ رَانَ مِنْ حُبِّ الدُّنَى

فَمَنْ سَمَا بِذَاتِهِ إِلَى العُلَا زَادَ كَمَالًا لِكَمَالٍ وَزَكَا

وَمَنْ هَوَى بِذَاتِهِ إِلَى الهَوَى زَادَ بِهِ نَقْصًا لِنَقْصٍ وَدَسَى

دسا نقيض زكا يقال دسا الرجل دسوا ودساه أغواه هذا مأخوذ من قوله تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها والوجهان اللذان ذكر الناظم هما العقل والهوى وقد قالوا ان الله ركب الملائكة من عقل بلاشهوة وركب البهائم من شهوة بلاعقل وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم ولذلك قال الطوسى ان للنفس جنبتين جنبة الى الملاء الاعلى وجنبة الى العالم الاسفل قال ونعنى بذلك كونها كالفصل المشترك أى هى مأمورة أن تراعى جهتين جهة الملائكة بأن تكون متشبهة فى الفضائل بها وأن تكون عاكفة كعكوفهم على عبادة بارئها فهذه جنبة أمرت بمراعاتها الجنبة الثانية هى الجنبة السفلى وهى علاقتها بالجسم المنفعل من المواد المركبة من الطبائع وذكر أن النفس لها مناسبة الى جنبة الاعلى بالفضائل والى جنبة الاسفل بالرذائل وهو الذى أراد الناظم بعينه

نَظَمْتُهَا فَرِيدَةً فِي حُسْنِهَا منظومة نظم الفريد المنتقي

تُخْطَبُ بالأنفس أعلاقٌ لها نفيسةٌ بكلِّ علقٍ تفتدى

تخيّر اللفظ الفصيح خاطري لها ولم يحفل بحوشيّ اللغا

وقدها من المعاني حليةً وزفها الى المعالي وهدى

تخذت في النقلة في أغراضها مذاهبا أعيت على من قد نحا

فاختلفت أغراضها وائتلفت بالمذهب المقصود فيها المنتحى

وانتسب المعنى بلطف حيلة فيها إلى المعنى الذي منه انتقى

قوله نظمتها فريدة يريد مفردة لا ثانية لها وقوله نظم الفريد الفريد الدر اذا نظم وفصل يقال فرائد الدر كبارها والمنتقى المختار وقوله ولم يحفل بحوشيّ اللغا اللغا جمع لغة والحوشيّ من الكلام ماليس يستعمل الافى الفرط ولا يتكلم به الا شاذا وذلك هو الحوشيّ الذى مدح عمر بن الخطاب رضى الله عنه زهيرا بمجانبته له وتنكبه إياه فقال كان لا يتتبع حوشى الكلام قال بعضهم وهذا الباب يجوز للقدماء ليس من أجل أنه حسن لكن من شعرائهم من كان أعرابيا قد غلبت العجرفة عليه ولان من يأتى بالحوشيّ منهم لم يكن يأتى به على جهة التطلب له والتكلف لما يستعمله منه لكن لعادته وعلى سجية لفظه فأما أصحاب التكلف فهم يأتون منه بما ينافر الطبع وينبو عن السمع مثل شعر أبى حزام غالب بن الحرث العكى وكان فى زمن المهدى وامتدح كاتبه ابن عبيد الله بقصيدة على الهمزة أولها

تذكرت سلمى وأهلاسها * فلم أنس والشوق ذو مطرؤه

يقول فيها لأوحى وزير امام الهدى * لنا وهو بالازب ذو مجؤه

يسوس الامور فتأتى له * وما فى العزيمة من مهنؤه

فى أبيات كثيرة من هذا القبيل والى ذلك أشار المعرى بقوله يصف شدو الحمامة

شجتك بظاهر كقريض ليلى * وباطنه عويص أبى حزام

أراد بليلى ليلى الأخيلية و بأبى حزام غالب بن الحرث هذا وقال أبو عبد الله بن خيس فى قصيدته الغينية التى أولها

العشى تعيي والنوابغ * عن شكر أنعمك السوابغ

يقول فيها

ماذاق طعم بلاغة * من ليس للحوشى ماضغ

أنشدناها غير واحد من شيوخنا عنه فأخذ فى ذلك بالعكس من مأخذ الناس وقد ارتكب فى هذه القصيدة وفى غيرها من حوشى اللغات كثيرا وكان أقدر الناس على ذلك وأحسنهم ايرادا له وهو من أبلغ خلق الله اذ اللغارب فلو أن شنفرى وثابت بن جابر وتأبط شرا والسليك بن عمرو وأشباههم من صعاليك العرب ذهبوا الى أن يصفوا حالهم فى التلصص على أحياء العرب لما زادوا على قوله

وجوّاب بدو اذا استنبحوا * أجابوا عواء وأموا النباحا

وقد سمعت شيخنا الخطيب أبا عبد الله الصدينى رحمه الله يقول غير ما مرة لو أخر الله النعمان بن المنذر والحرث

الجفنى حتى يدركهما أبوعبدالله بن خميس لم يستحى أن ينشدهما مع نابغة بنى ذبيان وعلقمة بن عبده وقد قال عمارة بن عقيل فى عكس هذا

تشبهت بالاعراب أهل التعجرف * فدل على مثواك قبح التكلف
لسان عراقى إذا ماصرفته * الى لغة الاعراب لم يتصرف

وقال حبيب لم يتبع شنع اللغات ولا مشى * رسف المقيد فى طريق المنطق

وقوله وزفها إلى المعالى وهدى هدى هنا من هداء العروس وقوله تخذت فى النقلة فى أغراضها يريد انتقاله منها من فن الى فن ومن غرض الى غرض كخروجه من النسيب الى المدح ومن المدح الى وصف المعاهد ومن وصف المعاهد الى ذكر القنص وغير ذلك من الاخبار والامثال ثم ذكر أنها وإن اختلفت مذاهبها وتباينت أغراضها فان فصولها غير متنافرة والكلام فيها ملتئم قد انتسب بعضه الى بعض قلت وهذا الذى أشار اليه الناظم من اتساق الكلام وتلاحم أجزائه والتئام أساليبه مع اختلاف المذاهب وتباين المقاصد اذا وقع فى بيت الناظم نظم أونثر دل على اقتدار القائل وتأتيه لرصف الكلم وحسن الترتيب ولا يكون ذلك الا مع وفور مادة الطبع وقوة عارضة البيان ألا ترى الى قول أبى نواس . .

واذا جلست الى المدام وشربها * فاجعل حديثك كله فى الكاس
واذا نزعت عن الغواية فليكن * لله ذاك النزع لا للناس
واذا أردت مديح قوم لم تمن * فى مدحهم فامدح بنى العباس

فانظر كيف جمع فى هذه الأبيات الثلاثة بين ثلاثة مذاهب متباعدة الأغراض وهى المجون والزهد ومدح الخليفة حتى صيرها بنسق النظام وحسن العبارة كأنها فن واحد

نَظَمَهَا ابْنُ حَازِمٍ وَقَدْ نَمَا * نَسِيبُهَا لابْنِ حِزَامٍ مَنْ نَمَا
وَقَدْ عزَا الإحْسَانَ فِى أَمْثَالِهَا * لِابْنِ الْحُسَيْنِ أَحْمَدٍ مَنْ قَدْ عَزَا
بَدَأْتُهَا بِاسْمِ الَّذِى خَتَمْتُهَا * بِحَمْدِهِ جَلَّ الإلهُ وَعَلَا
فَالْبَدْءُ بِسْمِ اللهِ أَوْلَى مَا بِهِ * عِنْدَ افْتِتَاحِ كُلِّ أَمْرٍ يُعْتَنَى
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَجَلُّ غَايَةٍ * يُبْلَغُ بِالْقَوْلِ لَهَا وَيُنْتَهَى

قوله نظمها ابن حازم يريد نفسه وأما ابن حزام فهو عروة بن حزام وقد تقدم ذكره مستوفى وأما ابن الحسين فهو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى قال أبو منصور الثعالبى وهو كوفى المولد شامى المنشئ وبها تخرج ومنها خرج نادرة الفلك وواسطة عقد الدهر فى الشعر وشاعر سيف الدولة المنسوب اليه المشهور به إذ هو الذى جذب بضبعه ورفع من قدره ونفق من سعر شعره وألقى عليه شعاع سعادته حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر وشاع ذكره فى البدو والحضر وكادت الليالى تنشده والايام تحفظه كما قال

وما الدهر إلا من رواة قصائدى * إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا * وغنى به من لا يغنى مغردا

وكان مولده بالكوفة فى كندة سنة ثلاث وثلاثمائة وانتقل به أبوه إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حاضرتها ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه فى المكاتب ويردده فى القبائل ومخايله نواطق بالحسنى عليه وضوامن

النجاح فيه حتى توفى وقد ترعرع وشعر وبرع وحكى أبو الفتح ابن جنى قال سمعت ابا الطيب المتنبي يقول انما لقبت بالمتنبي لقولي

أنا ترب الندى ورب القوافي * وسهام العدا وغيظ الحسود

انا فى أمة تداركها اللـه غريب كصالح فى ثمود

وقد قيل فى تسميته بالمتنبي غير ذلك وقد قيل إن الشعر بدىء فى كندة وختم فى كندة أى بدىء بامرىء القيس وختم بأبى الطيب وقالوا انه أخمل كل شاعر فى زمانه الا أبا فراس الحمدانى ولولا مكانه من السلطان لأخمله قلت وقد نزعت منزع الناظم فقلت من قصيدة

واليكها حسانة حسنية * تزرى بدائعها بفحلي طيئ

وتميت ذكر ابن الحسين وان من * كان النبي أباه من متنبيء

هذا آخر شرح القصيد * ومنتهى ما اعتمدته بالتقييد * وقد تركت فيه الاطناب * وما ذكرت

من كل ما يسوغ ذكره الا الألباب * فان كنت قد جئت من القول بسداد *

أو أتيت بما يحصل منه القارىء على رشاد * فقد وفيت بما وعدت * ووصلت

الى لغرض الذى كنت أردت * وان كنت انما فهت خطأ أو خطلا *

وتكلمت بما لم يطبق للصواب مفصلا * فأنى أستقيل من

الزلل * وأقول نية المؤمن أبلغ من العمل * كمل بحمد الله

تعالى وحسن عونه وصلى الله على سيدنا

ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما *



﴿ يقول مصححه غفر الله له ﴾

نحمدك اللهم على ما أنعمت من البيان ونشكرك اللهم على ما ألهمت من التبيان * ونصلي ونسلم على النبي الأكرم * والرسول السند الأعظم * صلى الله عليه وسلم وعلى آله البررة الأتقياء * وأصحابه الخيرة الأصفياء * (وبعد) فقد تم بحمد الله وعونه وحسن توفيقه طبع كتاب (رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة) وهو شرح في أترابه عجيب وفي بابه غريب للحسيب النسيب الألمعي الأديب واللوذعي الأريب الهمام الأمجد والامام الأوحد القاضي أبي القاسم محمد بن احمد الغرناطي على (القصيدة المقصورة) التي صارت بهذا الاسم مشهورة كأنها الشمس في رابعة النهار حتى استمالت بمحاسنها أولي الأبصار من أذكياء الأمصار والاقطار ولا بدع في ذلك الافتخار فقد نسج بردها الوحيد ونظم عقد جيدها الفريد الامام الفاضل والهمام الكامل حجة العلماء العاملين ونخبة الفضلاء الراسخين وعمدة أهل اليقين في الدين المبين أبي الحسن حازم بن حسن بن حازم الانصاري القرطاجني تغمدهما الله برحمته وأسكنهما فسيح جنته وقد أمر بطبعهما الجميل على هذا الوضع الجليل أشرف السادة الفخام وأكبر القادة العظام ذروة المجد الأثيل وحوض السعد الأصيل من امتثال أمره حتم وطاعة اشارته غنم الألمعي الامام واللوذعي الهمام والأوحدي العلم رب السيف والقلم فارس الفرسان أرومة أماجد هذا الزمان من خطبت له السعادة وأذعنت له السيادة فخر السادة المزواريين السيد الحاج (الهاشمي المزواري) بلشاهول تيسيرا للقراء ونواحيها كم سهولها وجبالها جزاه الله عن الناس خيرا وأعطاه على فعله الجميل أجرا وجعله محل الافادة وأناله الحسنى وزيادة هذا وقد تم طبع هذا الكتاب المستطاب للمولى والطالب بما أينع وطاب من ثمرات الأدب ونفحات الأرب على يد وكيل حضرته السيد قاسم الدكالي غفر الله له الذنوب وستر له في الدارين العيوب وكان بذلك الطبع الفائق والوضع الرائق بمطبعة السعادة القاهرة ذات الأدوات الفاخرة الكائن مركزها بحارة [illegible] لصاحبها الأمثل الأكمل حضرة (محمد افندى اسماعيل) كان الله له معينا وكفيل وذلك في شهر الحجة ختام شهور سنة ١٣٤٤ هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية ماناح على الدوح الحمام وفاح مسك الختام آمين